

الدكتور علي سلطان
دكتوراه دولة في التاريخ الحديث
من جامعة إكس - أن - بروفانس - فرنسا

تاريخ سوريا

١٩٠٨ - ١٩١٨

نهاية الحكم التركي



زَيْعُ الْغَدَارِ
لجريدة الراسخاء وبناءات الشهداء وبناءات الجمهوريين العربيين السوريين

الطبعة الثانية

١٩٩٦

دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ - بريقاً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١-٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلکس: ٤١٢٠٥٠



تاريخ سورية

١٩١٨ - ١٩٠٨

نهاية الحكم التركي

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الدكتور علي سلطان

تاريخ سورية

١٩٠٨ - ١٩١٨

نهاية الحكم التركي

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

القصة

هذه السنوات العشر التي ندرسها من تاريخ سورية ،
تعتبر بحكم الزمن من التاريخ العثماني ، ولكنها من حيث التاريخ
والواقع ، هي السنوات العشر الأخيرة من الحكم العثماني الذي
دام أربعمئة سنة ، وهي بدقة أكثر ، تاريخ العشر السنوات
الأولى والأخيرة ، لحكم تركي قومي على البلاد العربية ، أو
بشكل أدق أيضاً على القومية العربية . فلقد انتهى حكم
السلطان العثمانيين الحقيقي سنة ١٩٠٨ ، عندما كُفّت يد
السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم ثم عزل بعد سنة . وإذا
كان تحول الحكم العثماني المسلم ، إلى حكم قومي توراني
متعصب ضد العرب ، عاملاً مهماً في الصراع الذي نشب بين
العرب والترك خلال هذه المدة ، وأدى عند نهاية هذه السنوات
العشر إلى فصل سورية والبلاد العربية عن الدولة العثمانية ، فإن
تاريخ سورية في هذه المدة وقبلها ، لم تكن ترسمه استانبول
وحدها ، بل كانت الدول الأوروبية عامة ، وفرنسا وبريطانيا
خاصة ، هي التي كانت تحدد وترسم هذا التاريخ . وكان أهم

ما فيه هو فصلها عن الدولة العثمانية . ولذا فإن تاريخ سورية الحديث بدأ في أذهان الأوروبيين قبل العرب ، وكانت محاولة نابليون بعد احتلال مصر (١٧٩٨) لاحتلال سورية ، وتدخل الجيش الفرنسي في لبنان سنة ١٨٦٠ ، والحركة الصهيونية أواخر القرن التاسع عشر ، لحكم فلسطين ، ومحاولة البريطانيين أوائل القرن العشرين لضمها إلى مصر تحت حكمهم ، هي من هذا التاريخ السابق والمباشر لفصل سورية عن الدولة العثمانية ، ولكن ذلك لم يتحقق ، إلا عندما وقعت الحرب العالمية الأولى ، التي كانت الفرصة المناسبة لهذا التدخل الأوروبي ضد تركيا « الرجل المريض » . ومن خلال هذه الحرب ، حدث التنافس والصراع بين فرنسا وبريطانيا على مصير سورية . فالأولى تريد أن تضعها تحت حمايتها ، والثانية تريد إبقائها لها أو ضمها إلى مصر ، لتبقى أحد الجسور الهامة في الطريق من الغرب إلى الهند البريطانية . ثم تم الاتفاق بين الحليفتين على تقسيم سورية بينهما ، حيث تشكل منها أربع دول ، واحدة منها غير عربية هي إسرائيل في فلسطين بفضل الدعم البريطاني .

وبينما كانت فرنسا وبريطانيا تقدران مصير سورية وتقتسمانها ، كان الصراع متأججاً بين القوميين العرب ، والقوميين الأتراك ، وعلى رأسهم جمال باشا حاكم سورية منذ أوائل ١٩١٥ . ولم تكن الحليفتان تتفرجان على هذا الصراع ، ولكنهما كانتا تزيدان من ضراوته ، ففرنسا تشجع أصدقاءها من

المسيحيين، وبريطانيا تدعم الحركة القومية العربية، حتى تم تشكيل حلف حميم جداً من فرنسا والجمعيات المسيحية والموارنة، لتشكيل دولة سورية أو لبنانية بعد الحرب تحت حماية فرنسا، وتم أيضاً توقيع حلف بين بريطانيا والحسين سنة ١٩١٦، لتشكيل دول أو دولة عربية مستقلة تدعمه بريطانيا. وكان الحسين يعتبر ناطقاً باسم القوميين العرب في سورية، ونيابة عنهم وقع حلفه مع بريطانيا. وهؤلاء القوميون العرب كانوا قد شكلوا منظماتهم السياسية، التي كانت معتدلة تطالب بحكم لا مركزي للعرب ضمن الدولة العثمانية، ثم تحولت إلى حركات انفصالية استقلالية للعرب عن الدولة العثمانية في فترة حكم جمال باشا، وعندما اكتشف هؤلاء القوميون، أن الإنكليز يخدعونهم ويخدعون الحسين، كان جمال باشا قد قطع الحبل نهائياً مع العرب، عندما شنق رجالهم الوطنيين في بيروت ودمشق سنة ١٩١٥ و ١٩١٦، ولهذا رأوا أنفسهم أنهم قد وقعوا بين نارين، وبذلك عجزوا عن التحرك المستقل، ورضوا رغماً عنهم بالظلم الإنكليزي المؤجل عن ظلم جمال باشا المباشر.

وزيادة في المصائب، عانت سورية أيضاً الحرب والمجاعة والوباء ومات فيها الكثير، وكان الناس ينتظرون بأمل بارق، وصول جيش الثورة العربية بقيادة فيصل بن الحسين، لتخليص سورية من عذابها الطويل، وعندما وصل هذا الجيش مع الجيش

الإنكليزي ، رأى الناس لأول مرة القوات الأوروبية تدخل سورية وتبقى فيها وتستعمرها ، ورأى القوميون العرب ، أن الحلم العربي أخذ يتبدد تحت مدافع الفرنسيين القادمة لاحتلال سورية بعد حكم عربي لم يدم سوى ٢٢ شهراً ، كان الإنكليز هم السادة فيه ، وكان فيصل الوجه العربي ، حاكم سورية خلال هذه الـ ٢٢ شهراً (أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٨ — يوليو / تموز / ١٩٢٠) ، تتقاذفه أطماع الفرنسيين وخداع الإنكليز .

وهكذا كانت مرة سنوات جمال باشا في تاريخ سورية الأخير ، وكانت أمر السنوات التالية من حكم الاستعمار الفرنسي ، وبذلك كانت هذه السنوات الأخيرة العشر من تاريخ سورية ، هي محنة وعذاب واستعداد لما هو أشد ، وخاتمة أليمة حكم عثماني دام ٤٠٠ سنة .

لقد اعتمدنا في كتابة هذا البحث على الوثائق التالية غير المطبوعة :

- ١ — الوثائق البريطانية ونرمز لها في الهامش بـ F.O .
- ٢ — وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ونرمز لها في الهامش بـ D.F.A.ff.Etr .
- ٣ — وثائق وزارة الحرب الفرنسية ونرمز لها بـ D.F.G .
- ٤ — وثائق وأوراق في مركز الوثائق في دمشق التي تعود لبعض الشخصيات العربية التي شاركت في صنع هذا التاريخ .

كما اعتمدنا على مجموعة كبيرة من كتب المذكرات ،
التي كتبها أولئك الرجال العرب الذين عاشوا أو شاركوا في
الحكم خلال هذه الفترة . إضافة إلى مجموعة من الجرائد ،
والمجلات العربية المعاصرة لتلك الفترة ، وكذلك الصحف
الأجنبية . إضافة إلى مجموعات الكتب العربية والأجنبية من
المراجع .

الدكتور
علي سلطان

الفصل الأول

القومية

العربية - السورية - اللبنانية

لا نريد أن نبحث طويلاً في جذور الأفكار القومية العربية، في الفترة السابقة لتاريخ هذه الرسالة، الذي حددناه من سنة ١٩٠٨ حتى ١٩١٨ من تاريخ سورية، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن الباحثين والكتاب اختلفوا في ترجيح عوامل على أخرى أيقظت القومية العربية، ابتداءً من القرن الثامن عشر وحتى الفترة التي ندرسها، كالحركة الوهابية في منتصف القرن الثامن عشر في الجزيرة العربية، أو تأثير الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨، أو الفتح المصري لبلاد الشام زمن محمد علي سنة ١٨٣٠، أو أحداث لبنان والحرب الأهلية عام ١٨٦٠، وما أعقبه من تدخل أجنبي، أو تأثير أفكار الكتاب والمصلحين كجمال الدين الأفغاني ودعوته للجامعة الإسلامية في أواخر القرن التاسع عشر، وعبد الرحمن الكواكبي في الفترة نفسها ودعوته لخلافة عربية، أو بتأثير المدارس التبشيرية المسيحية الأجنبية التي انتشرت في سورية ولبنان على نطاق واسع، والتي نمت الثقافة والعلم في القرن التاسع عشر في لبنان بشكل خاص، أو المدارس الإسلامية في مصر وسورية أيضاً. والمهم هنا أن هذه الأفكار أخذت تلعب دوراً سياسياً في حياة سورية في هذه الفترة بالذات ١٩٠٨—١٩١٨، التي نبحت فيها بعد أن تحولت إلى جمعيات وأحزاب سرية تعمل ضد الحكم العثماني في سورية، ثم تحول بعضها إلى معاد للفرنسيين والإنكليز، وبقي بعضها صديقاً للفرنسيين في لبنان خاصة، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨. وتذكر الوثائق البريطانية أن حركة القومية العربية، أخذت تظهر في منتصف

القرن التاسع عشر ما بين ١٨٦٥ و ١٨٨٠، ثم تجددت بعد قيام الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، وأن الجمعيات العربية السرية ذات الأهداف القومية الصريحة، والنوادي العربية، والمنظمات الأخرى، قد تأسست ما بين ١٩٠٩ و ١٩١٤^(١). والحقيقة أنه يمكن تمييز ثلاثة اتجاهات رئيسية في تاريخ سورية في هذه الفترة وهي: القومية العربية، والقومية السورية، ثم اللبنانية. وسنحاول أن نثبت في هذا الفصل معادلة قد تبدو متناقضة لكنها صحيحة، وهي أولاً، أن القومية العربية أخذت تتطور سياسياً تحت ضغط الظروف الدولية، وخاصة السياسة الفرنسية، حتى وصلت إلى التطابق مع الأفكار السورية، هذا ما حدث في الواقع وإن بقيت القومية العربية هي الهدف الأسمى لهؤلاء المؤمنين بها. وثانياً أن الأفكار السورية واللبنانية قد بدأ بعضها أفكاراً عربية، لتصل إلى أهدافها السورية واللبنانية عن طريق المراحل، وبذلك تم لقاء هذه الأفكار الأولى بالتنازل، والثانية بالمراحل. فتم في الواقع وجود دولة سورية، وثالثاً هنالك الأفكار اللبنانية التي نشأت صرفة، لتشكيل دولة لبنان وتكبير حدوده عن حدود متصرفية جبل لبنان بالاعتماد على صداقة فرنسا، ودعمها التي نفذته فعلاً، وأعلنت إنشاء دولة لبنان عام ١٩٢٠.

أولاً: القومية العربية الاتجاه العربي — الإسلامي ومنظماته

إذا كانت القومية تُسمّى باسم الشعب الذي تعبر عنه وتحمل اسمه، فهل من المنطقي، أن تكون القومية التي تعبر عن الشعب القاطن في سورية في القرن العشرين، قومية عربية، أو هل أن هذا الشعب هو شعب عربي؟. قد يكون هذا التساؤل ساذجاً

(١) G. p. Gooch and Harlod Temperley: British documents on the origins of war 1898-1914, vol X, London 1938. P. 824.

ونظراً عن أسباب النهضة العربية والاتجاهات العربية أحمد طربين، الوحدة العربية ١٩١٦ — ١٩٤٥، جامعة الدول العربية ١٩٥٩، ص ١٧٦، وسامي الكيالي، ولي الدين يكن ١٨٧٣ — ١٩٢١، مصر ١٩٦٠ ص ٩.

بالنسبة لغالبية سكان سورية الذين يعتبرون أنفسهم عرباً، لا بل فهم الذين حملوا عبء القومية العربية أكثر من غيرهم من العرب، وخاصة في الفترة التي ندرسها من تاريخ سورية. وإن نظرة على الإحصاءات والتقديرات لسكان سورية^(٢) «الطبيعية» وهي الآن «سورية الحالية ولبنان وفلسطين والأردن» البالغين من ٣ر٥ إلى أربعة ملايين في تلك الفترة، تبين لنا أن المسلمين يشكلون أكثر من ثلثي السكان، بالإضافة إلى المسيحيين الذين عملوا للقومية العربية معتمدين على بعث التاريخ العربي، والأدب العربي، واللغة العربية، وبذلك يكون أكثر من ٩٠٪ من مجموع السكان من أصل عربي^(٣). وبذا لا يكون صحيحاً ما جاء في تسمية غالبية المراسلات الإنكليزية والفرنسية الرسمية لسكان سورية، بأنهم ناطقون باللغة العربية، وهذا يعني بشكل واضح أنهم ليسوا عرباً صرحاء، وقد ورد في رسالة من مكماهون للحسين في ٢٤ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٥، بأن الأجزاء الساحلية من بلاد الشام، لا يمكن أن يقال إنها عربية محضة^(٤). كما درج كثير من الكتاب على استعمال هذا الاصطلاح «الناطقين باللغة العربية» تعبيراً عن سكان سورية، واستعمله كتاب الحركة السورية واللبنانية كما سنرى. لكن بلداً ينطق باللغة العربية لا يكون إلا عربياً.

لا شك أن تيار القومية العربية في سورية في بداية القرن العشرين، كان متأثراً أو متطوراً عن التيار العربي الإسلامي، في الفترة السابقة، كحركة الجامعة الإسلامية، وأفكار عودة الخلافة إلى العرب التي دعا إليها عربي من سورية، هو عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٢ — ١٩٠٢)، في كتابه أم القرى. وكان سعيد الجزائري، وبمجموعة من الرجال تعمل للجامعة الإسلامية في سورية التي كان السلطان عبد الحميد الثاني يتبناها كسياسة للدولة العثمانية، وكان الكاتب معروف الأرنؤوط، يدافع عن الجامعة

(٢) مجلة المقتبس، دمشق (محمد كرد علي) عدد: ٧٩٩، ١٠ تشرين الثاني ١٩١١.

و D. F. Aff Etr. D. G. Vol XIIV 1912 (117) 5 Nov 1912, P. 47.

.Ibid E. Levant, Carton 313, Dossier 9, 1917, Jan, P. 109.

(٣) مصطفى الشهابي، القومية العربية، القاهرة، الجامعة العربية ١٩٦٦، ص ٣٠.

(٤) F. O. 371/2768/(1916) PP. 76-84.

الإسلامية في جريدة المهاجر، ويعتبرها غاية المسلمين القصوى، في الوقوف أمام الأخطار الأوروبية^(٥). كما كان رجال الدين بطبيعة الحال، يعضدون هذه الدعوة. وإذا كانت حركة الجامعة الإسلامية لم تشكل حزباً ذا تأثير، لكن جماعة الشيوخ التقليديين من أنصار عبد الحميد، والشعور العام بين المسلمين من عامة الناس، ظلت ترتبط بشكل ما بأيام السلطان عبد الحميد، حتى إن هذا الشعور أفقد كثيراً من البهجة، احتفالات إعلان الدستور سنة ١٩٠٨^(٦)، عندما لم يشارك بها هؤلاء العامة الذين لم يفهموا كلمات، حرية، إخاء، مساواة، التي بشر بها الدستور الجديد والحكم الجديد. واستطاعت هذه المجموعة مما سميت بالحركة الرجعية من أنصار السلطان عبد الحميد، أن تلعب دوراً هاماً في المدن السورية، عندما حاول السلطان عبد الحميد استرجاع سلطانه عام ١٩٠٩. ولهم حادث مشهور في الجامع الأموي، إذ هاجم جماعة الشيوخ برئاسة صالح التونسي، الشيخ رشيد رضا، بعد نقاش حاد، وحاولوا الاعتداء عليه في المسجد المذكور، متهمين إياه بالرهابة^(٧). وكان الشيخ رشيد رضا من أنصار الجامعة الإسلامية، ومن مدرسة الشيخ محمد عبده، تلميذ وصديق الشيخ جمال الدين الأفغاني، لكنه سلك اتجاهاً إسلامياً عربياً، ولعب دوراً في الحركة العربية، كما سيمر معنا، أما حركة الجامعة الإسلامية، فقد فقدت تأثيرها السياسي بعد خلع السلطان عبد الحميد نهائياً عام ١٩٠٩^(٨).

الحلقات والمدارس

ومن الاتجاه العربي الإسلامي، ظهرت الحلقات حول بعض الشيوخ من رجال

(٥) مذكرات سعيد الجزائري (جمع أنور الرفاعي) دمشق، بلاتا المطبعة العربية ص ١١، ٢٤ وجريدة البلاغ

عدد: ٩٣٤، ٢١ جمادى الثاني ١٣٣١ وجريدة الرأي العام عدد ١١١، ٦ محرم ١٣٣٢.

(٦) مجلة الزهراء (محب الدين الخطيب) القاهرة، مجلد ٢، ١٣٤٤، ج ١، محرم، ص ٤٦.

(٧) ظافر القاسمي، جمال الدين القاسمي وعصره، دمشق المطبعة الخاشية، ١٩٦٦، ص ٤٤٩.

(٨) Majid Khadduri, political trends in the Arab world, the role of the ideas in politics,

Baltimore, Hopkins 1970, P. 15

الدين والمفكرين، كالشيخ طاهر الجزائري وجمال الدين القاسمي في دمشق. وقد كان الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥١—١٩٢٠) بذرة الفكرة القومية والإصلاحية والتعريب، ومؤسس المكتبة الظاهرية، وكان على اتصال برجال العلم والدولة مسلمين ومسيحيين، واستطاع أن يجعل اللغة العربية لغة التعليم، لكن الدولة كفت يده فيما بعد، وعادت التركية لغة التعليم. وكانت له حلقة من رجال سورية ممن لعبوا دوراً بارزاً في تاريخها، ومنهم من أعده جمال باشا. ومن رجال هذه الحلقة، جمال الدين القاسمي، وعبد الرزاق البيطار، وسليم البخاري الجزائري، وشكري العسلي، وعبد الوهاب المليحي، ومحمد علي مسلم، وعبد الرحمن الشهبندر، وفارس الخوري. وكانوا يجتمعون بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع في دار رفيق العظم. ولم يكن يدعو للاستقلال العربي، بل لإصلاح الدولة العثمانية، وكان يعتقد أن الإسلام والمسلمين، وعلى رأسهم العرب، لا يصلحون إلا كما حدث في عصر التابعين. وكانت تتلى كتب الشيخ محمد عبده، ويقرأها محب الدين الخطيب في هذه الحلقة^(٩). كما كان بيت جمال الدين القاسمي مرتاداً لجميع الأحرار في ذلك العصر، من رجال الدين والمثقفين، تعقد فيه الحلقات الخاصة لدراسة الدين والمجتمع العربي. وكانت نفس المجموعة من المثقفين ترتاد حلقة جمال الدين القاسمي. وكان البحث كثيراً ما يتطور من مواضيع الدين إلى السياسة، التي كانت تشغل هؤلاء الرجال^(١٠).

وإضافة إلى تلك الحلقات، وبفضل المدارس العالية، كالطب والحقوق والمكتب الملكي، وهو أعلى مدرسة لتخرج المرظفين والإداريين، فقد بدأ يتكون في دمشق جمهور من الشباب العرب خريجي هذه المدارس، وأخذوا يعقدون اجتماعات خاصة

(٩) محب الدين الخطيب — وثيقة رقم ١ / ٢٢٤ — مركز الوثائق التاريخية في دمشق، مقالة نشرت في مجلة الفتح عدد ٨٣٣ سنة ١٩٤٨ (جمادى).

و فخري البارودي، المذكرات، ج ٨ دمشق ١٩٥١، دار الحياة، ص ٥٨—٥٩.

Hisham Sharabi, Arabs intellectuals and the west, Baltimore 1970. P.5 Hopkins

(١٠) ظافر القاسمي، جمال الدين القاسمي، ص ٩٣.

تحدث عن حكم عبد الحميد المستبد، ويبحثون في ضعف الحكومة الظاهر^(١١) أمام الأوروبيين، وربما كانت مدرسة عنبر الثانوية في دمشق، أهم معهد تخرج منه الرعيل الأول من الرجال، الذين رفعوا صوتهم بذكر العروبة. وكانوا يمثلون الروايات العربية التي تحدثت عن المجد العربي الغابر كطارق بن زياد. وكان الصدام يحدث بين الطلاب العرب والطلاب الأتراك في هذه المدرسة^(١٢). وكانت الكلية الأزهرية (نسبة لصاحبها الشيخ عباس الأزهري) في بيروت، تبث روح الحماسة والوطنية العربية في نفوس طلابها، وكان الطلاب أيضاً يمثلون فيها الروايات العربية. من هذه المدرسة تخرج أيضاً عدد من الرجال العاملين في القضية العربية^(١٣). ونذكر من المدارس الهامة في هذا المجال، المدرسة الوطنية الإسلامية في طرابلس الشام، وكان صاحبها الشيخ حسين الجسر (١٨٤٥—١٩٠٩)، يدافع عن الإسلام على طريقة الشيخ جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده^(١٤). وكذلك المدرسة العثمانية في دمشق، لصاحبها الشيخ كامل القصاب (الذي أصبح رئيس الحركة الوطنية في دمشق ١٩١٨—١٩٢٠)، حيث كان يدرس فيها رجال الحركة الوطنية العربية، كالدكتور عبد الرحمن الشهبندر للخطابة، والدكتور أسعد الحكيم للتمثيل، وعارف الشهابي للتاريخ العربي، وعبد الوهاب الانكليزي للجغرافيا، وسليم الجندي للنحو، (وقد أعدهم جمال باشا ماعدا الأول)، والشيخ كامل القصاب للصرف، وخير الدين الزركلي للانشاد^(١٥)....

(١١) البارودي، المذكرات، ج ١، ص ١١٨.

(١٢) ظافر القاسبي، مكتب عنبر، ذكريات وصور، بيروت، المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٦، ص ١٠٠—١٠٢. والبارودي مذكرات ج ١، ص ٥٥.

(١٣) مجلة الحرب العظمى، بيروت، بلا تاريخ، ص ١١ والشهابي، ص ١٠٢ وعادل الصلح، سطور من الرسالة، بيروت ١٩٦٦، ص ١٨.

(١٤) على المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، ١٧٩٨—١٩١٤، بيروت ١٩٧٨ دار العلم، ص ٨٧.

(١٥) أحمد حلمي العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، دمشق ١٩٧٦ وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص ٢٠٣—٢٠٣.

جمعية النهضة العربية

في هذا الجو الثقافي السياسي للتيار العربي الإسلامي، وبالذات من حلقة الشيخ طاهر الجزائري، كان يقرأ هؤلاء الرجال سراً، دون علم من السلطة، من الصحف المصرية، كالمقطم، والأهرام، والمؤيد، ويتداولونها فيما بينهم. وكان محب الدين الخطيب، وعثمان مردم بك ممن يأتون بهذه الجرائد إلى دمشق. وأخذت العيون تتفتح على الحقائق القومية، وخاصة في سنة ١٩٠٣ - ١٩٠٦^(١٦)، حيث كانت سنة ١٩٠٦ «فجراً جديداً للجمعيات السياسية، التي ولدت لتدعو إلى العصية العربية، وإلى الأجداد العربية، وإلى تعليم وتعلم اللغة العربية، وفيها ألفت جمعية النهضة العربية»^(١٧). وقد أسس هذه الجمعية سنة ١٩٠٦، بعض من أولئك الرجال، من حلقة الشيخ طاهر الجزائري، وجمال الدين القاسمي، وزملائهم وتشجيع منهم. وكان محب الدين الخطيب، هو الذي أسسها في استانبول في السنة المذكورة، وكانت تلقى فيها دروس اللغة العربية كل أسبوع، وكانت غايتها إحياء اللغة العربية. ثم أسس لها فرع في دمشق، أصبح الفرع الرئيسي بعد إلغاء فرع استانبول بعد ثلاثة أشهر، وكان رئيسها صلاح الدين القاسمي، وبمشاركة لطفي الحفار، وعارف الشهابي، وسليم الجزائري، وعبد الرحمن الشهبندر والضابط أسعد الطرابلسي، ورشدي والشمعة، وسامي العظم، وجورج حداد. وكان «الشيخ طاهر الجزائري، وجمال الدين القاسمي، والشيخ عبد الرزاق البيطار، والشهيد شكري العسلي، والشهيد عبد الوهاب الإنكليزي، من أصحاب هذه الفكرة الذين شجعوا الشباب». وكانت أهداف جمعية النهضة العربية في دمشق، هي رفعة العرب ومجدهم ونشر اللغة العربية، وكان رجالها يجمعون الأموال ويفتحوون الغرف للقراءة، ويعينون لها أميناً. وكانوا يدفعون الأموال من جيوبهم لتعريف العرب بتاريخهم وقوميتهم، وكانوا يعملون سراً وعلناً، «وكان لهذه الجمعية، فضل على كل الحركات الفكرية والسياسية والتحريرية، في هذا الشرق العربي،

(١٦) البارودي، المذكرات، ج ١، ص ٥٧.

(١٧) ظافر القاسمي، جمال الدين، ص ٢١٣.

فهى التي أشعرت العرب بشخصيتهم، وأرست القواعد الأولى للفكرة العربية في ظل الحكم التركي»^(١٨). وقد أسس محب الدين الخطيب لهذه الجمعية، فرعاً في اليمن بعد أن هرب من استانبول بعد اكتشاف أمر جمعية النهضة فيها، كما أسس لها فروعاً في مصر والعراق والحجاز. وانتقلت هذه الجمعية من التستر إلى العلن بعد إعلان الدستور عام ١٩٠٨، ووضعت لها دستوراً في إبريل ١٩٠٩، بعد أن تخلت عن السياسة بضغط من حكومة الاتحاد والترقي^(١٩)، وتحولت أيضاً تحت هذا الضغط إلى جمعية إقليمية أي «سورية» وغير سياسية أيضاً، وقد ذكرتها جريدة المقتبس عام ١٩١١ وعرفتها بإعلانها كما يلي «قانون جمعية النهضة في دمشق، وهي جمعية علمية محضة تعنى باللغة العربية وآدابها، وإقامة أوضاع علمية، والتعاون بين الأعضاء في المصالح الأدبية والمادية»^(٢٠).

ولو استعرضنا عدة أسطر عن فكر رجال الجمعية، وما يتداولون من آراء سياسية وقومية عربية، مقابل سياسة التتريك التي اتبعتها رجال جمعية الاتحاد والترقي التركية، نعرف السبب الذي جعل الاتحاديين يضغطون على هذه الجمعية، ويضيقون عليها «ليس بين الأتراك فيما أحسب، من لا يعلم أن الأمة التركية ما نزلت، إلا على آثار الأمة العربية، وما شيدت من دعائم ملكها، وما وطدت من أسسه إلا، على أنقاضها، وهم يخشون أن تسري فكرة الخلافة العربية، فتتسرب في فكر الكبير والصغير، ومن ثم تقوم الأمور بعضها على بعض، وهناك الطامة الكبرى»^(٢١). ويمكننا

(١٨) وثيقة رقم ٤ - القسم الخاص - جمعية النهضة - مركز الوثائق التاريخية في دمشق ص ١ - ٢ نشرت في جريدة العلم بقلم محمد الطيبي رقم ٢٨٦٧ في ١٨/١١/١٩٥٦.

انظر الشهابي، ص ٥٢ - ٥٦ ومحب الدين الخطيب، صلاح الدين القاسمي، القاهرة ١٩٥٩ ص، يا. فريدريك زريق، نهضة العرب، دمشق ١٩٤٩، ص ١٢٣ و رامزور، تركيا الفتاة، بلاتا، ص ٨٣.

(٢٠) المقتبس، عدد ٨٥٦، ٣٠ كانون الأول ١٩١١.

(٢١) محب الدين الخطيب، صلاح الدين القاسمي، ص ٧٤ وعبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للقومية العربية، ص ٥٣ - ٥٤ وعلي المحافظة ص ١٣٤.

أن نعتبر أن جمعية النهضة العربية، كانت تمثل وجه إحياء الثقافة واللغة العربية والتاريخ العربي، وهي أسس القومية العربية، وكان لرجالها أنفسهم نشاط سياسي سري سابق تبلور بإنشاء حلقة سياسية سرية سنة ١٩٠٣ في دمشق، بين طلاب السنة النهائية في المدرسة الحكومة الثانوية فيها، وكان معظمهم ممن يترددون على حلقة الشيخ طاهر الجزائري، وكان هدف هذه الحلقة بعث التراث العربي. واتصل هؤلاء الطلاب بطلاب الكلية الأمريكية في بيروت، وكلية الشيخ عباس الأزهرى، ومنهم عارف النكدي، وعبد الغني العريسي، ومحمد الحمصاني، والأمير عادل أرسلان، ثم انتقل بعض أعضاء هذه الحلقة إلى استانبول سنة ١٩٠٥ حيث اتصلوا بالطلاب العرب، وحيث أسس محب الدين الخطيب — كما ذكرنا سابقاً — جمعية النهضة العربية مع بعض رفاقه (٢٢). وإن أسماء الرجال الذين عملوا في جمعية النهضة العربية، تردد من جديد في أهم جمعية سياسية سرية تعمل لإحياء القومية العربية، وهي جمعية «العربية الفتاة».

جمعية الإخاء العربي العثماني

وتابع الاتجاه القومي العربي المنبعث من الإسلام، في الظهور بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، على شكل جمعيات وأندية، وحتى ذلك التاريخ ما كان هذا التيار يبدو عربياً منفصلاً عن الدولة العثمانية، وكان بذلك يدل على نفسه ويشعر بوجوده، وهو محمي بالتيار الإسلامي العثماني، ولذا أنشئت جمعية الإخاء العربي العثماني في ٢ / ٩ / ١٩٠٨ في الآستانة. ومن اسمها يبدو اسم «عربي» مقروناً بالعثماني، لكنه على أي حال هو ظهور واضح، ولو استعرضنا مبادئ هذه الجمعية التي يشكل السوريون فيها العدد الغالب، أمثال شاكر الأتاسي، وشفيق المؤيد العظم، وشكري الأيوبي وشكري الحسني، وصادق المؤيد، وعارف المادريسي، والأمير محي الدين الجزائري... الخ لتبين لنا أمران، أولهما المحافظة على الدولة العثمانية وعدم تجزئتها، والثاني يخص العرب وإعلاء شأنهم ومنحهم المساواة الدستورية وإنالهم المناصب والوظائف.

(٢٢) الشهابي، القومية العربية، ص ٥٣ — ٥٤، وعلي المحافظة ص ١٣٤.

واعتبر الاتحاديون بعد حركة السلطان عبد الحميد في ٣١ مارس / آذار / ١٩٠٩ لاستعادة سلطاته، أن رجال هذه الجمعية من الرجعيين، أنصار عبد الحميد ولذلك حلوها هي وفروعها في البلاد العربية. ولا بأس من أن نسجل هنا نص بلاغ الجمعية المذكورة وهو:

- ١— المحافظة على القانون الأساسي ووقيته من كل خلل.
- ٢— تفهيم العرب وسائر العثمانيين، أن الوطن العثماني لا يقبل التجزئة ومقاومة التفرقة.
- ٣— تمتين الروابط بين العرب وسائر الأقوام العثمانية.
- ٤— التمسك بالعرش العثماني، والإخلاص لمقام الخلافة الإسلامية.
- ٥— السعي لإعلاء شأن العرب والعربية ضمن الجامعة العامة العثمانية، وإنالة أبناء العرب على اختلاف مذاهبهم، ممانعتهم المساواة الدستورية من حق إحراز الوظائف والمناصب، وغير ذلك من الحقوق المشروعة.
- ٦— السعي لنشر المعرفة بين أبناء العرب، وذلك بتأسيس المدارس وطبع الكتب والرسائل والصحف.
- ٧— حث أبناء العرب على التعاون مع سائر العثمانيين، لتأسيس الشركات التجارية والصناعية والزراعية.
- ٨— مساعدة أبناء العرب وإغاثة فقرائهم ومرضاهم وأيتامهم وأراملهم^(٢٣).

وذكر عزة دروزة (معاصر لهذه الفترة) «أنه برغم أن هذه الجمعية لم تعمر طويلاً، ولم تقم بنشاط مؤثر في مجال المنهج الذي رسمته، عدا بعض حفلات لاستقبال النواب العرب، فإنها سجلت من دون ريب حقيقة بدء بروز الفكرة القومية بمعالها الواضحة في هذا الدور، وتحفز العرب للانتفاع بالأفق الذي فتحه إعلان الدستور

(٢٣) مجلة العمران، القاهرة، م ٢، ج ٥، سنة ١٢، عدد ٣٨٢، ص ٩٠—٩٣ ومجلة الحرب العظمى، ص ١٠ وأحمد قنري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، دمشق، ط ٢، ١٩٦٢، ص ١٤.

أمامهم ، والنهوض بكيانهم القومي ، وفي اسم الجمعية وغايتها تأكيد لما قررنه آنفاً من صفة الحركة القومية ومداها في هذا الدور» (٢٤) .

المنتدى الأدبي

وبعد إغلاق الاتحاديين لجمعية الإخاء العربي — العثماني ، تحول النشاط القومي العربي في الآستانة إلى مرحلة أكثر تقدماً وبالعلن أيضاً ، إذ أسسوا نادياً عربياً لهم في الآستانة سنة ١٩٠٩ ، سموه المنتدى الأدبي ، وكان مكاناً لتجمع معظم الشباب العربي ، وكانوا كثيرين ، وخاصة الطلاب . وكان مؤسسوه من أولئك الرجال الذين عملوا في المجالات القومية الأخرى التي ذكرناها ، كعبد الكريم الخليل ، وسيف الدين الخطيب ، ويوسف حيدر . وكان عبد الكريم الخليل أكثرهم نشاطاً ، وعين رئيساً له (أعدمه جمال باشا سنة ١٩١٥) . وأصدر المنتدى مجلة تحمل اسمه ، كتب فيها هؤلاء الشباب عن العروبة وتاريخ العرب وحقوقهم ولغتهم وأمانهم ، ونشرت القصائد التي تشيد بأجداد العرب ، وكان الشباب العرب يرددونها ويتغنون بها . وحاول هؤلاء الشباب الانتفاع إلى أقصى حد ، من الحرية التي أعطاها الدستور لتحقيق أهداف العرب القومية ، ضمن الدولة العثمانية . ودعم بعض النواب العرب هذا المنتدى ، كعبد الحميد الزهراوي (من حمص في سورية) ، وشكري العسلي الدمشقي ، وأضفوا عليه قوة ونشاطاً وحيوية . وكان نشاط هذا المنتدى ينتقل إلى المدن العربية عن طريق الطلاب العرب العائدين ، خلال دارستهم في الآستانة ، إلى مناطقهم العربية . وأنشئت لهذا المنتدى فروع في سورية والعراق ، وكان على اتصال وثيق برجال الحركة القومية العربية . وظل مزدهراً يقوم بنشاطه على مستوى عالٍ لبث الفكرة والحركة القومية حتى سنة ١٩١٥ ، حيث أغلقه الاتحاديون (٢٥) ، وأعدموا كثيراً من رجاله كما سنرى .

(٢٤) محمد عزه دروزه . حول الحركة العربية الحديثة ، تاريخ ومذكرات وتعليقات ، صيدا ، ١٩٥٠ ، ص ٢٢ .

(٢٥) محمد عزه دروزه ، حول الحركة العربية الحديثة ، ص ٢٣ — ٢٤ ومذكرات أحمد قدري ، ص ١٠ — ١١ ومجلة الحرب العظمى ، ص ١٠ .

وفي مجال الاتجاه العربي المنبعث من الإسلام، لابد من ذكر جمعية الجامعة العربية، التي أسسها الشيخ محمد رشيد رضا، (من قلمون—طرابلس الشام) وصاحب جريدة المنار التي أصدرها في مصر. وقد أنشأ هذه الجمعية سنة ١٩١٠، وكانت غايته منها، إقامة حلف وتعاون بين أمراء الجزيرة العربية، لنبد الخلاف والتعاون والإنفاق على إعمار البلاد العربية، وإقامة الصلات مع الجمعيات العربية في سورية والعراق. وقد بعث محمد رشيد رضا برسائل إلى إمام اليمن، وأمير نجد، وأمير عسير، كما أدخل في الجمعية الأمير عبد الله بن الحسين بن علي عندما التقى به في القاهرة، وكان رفيق العظم (من حزب اللامركزية العثماني)، وعلي يوسف صاحب جريدة المؤيد في القاهرة من أعضاء هذه الجمعية^(٢٦). وكان هذا بعد أن استبعد رشيد رضا عن الجامعة الإسلامية التي تبناها السلطان عبد الحميد، وبعد أن بدأ الاتحاديون الأتراك في سياسة معادية للعرب، ولذا تبنى رشيد رضا هذا الاتجاه القومي العربي، مع ما قام به من نشاطات عربية وسورية وهو ما سنراه في بابه.

تلك كانت لحظة سريعة جداً عن النشاط القومي العربي العلني، الذي ظهر في تاريخ العرب عامة وسورية بشكل خاص، في الفترة السابقة لتأزم العلاقات بين العرب والأتراك، التي يمكن اعتبارها بدأت سنة ١٩٠٩، سنة خلع السلطان عبد الحميد نهائياً. ومن الواضح أن هذا الاتجاه العربي حتى هذه السنة، لم يحاول أن يتبنى سياسة الانفصال عن الدولة العثمانية، أي لم يحاول إيجاد كيان قومي سياسي مستقل، يوازي فكرة القومية العربية في أوطانها المحددة.

لكن لما وجد هؤلاء الرجال القوميون، أن الباب أخذ ينسد في وجه العرب من قبل الاتحاديين، الذين أخذوا ينظرون إلى قضية القومية العربية، نظرة لا تحمل الود والأمل الطيب لشركائهم العرب في الحكم، رأى القوميون العرب أن يعتمدوا إلى تشكيلات سرية على أسلوب العمل السري الأوروبي، أو حتى التركي الذي اتخذ هذا

(٢٦) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، المجلد الأول (النضال بين العرب والترك) القاهرة، ص ٨.

السبيل للوصول إلى الوحدة والاستقلال، أو لمكافحة الظلم. ولم يكن خافياً على هؤلاء العرب، ما كانوا يلاحظونه في الآستانة، من نذر الشر التي جعلتهم يتكتمون ويتحفظون، حتى لا يستهدفوا أكثر، أو بشكل مباشر، لنقمة الأتراك، وخاصة العنصرين والمتطرفين منهم، وهذا ما جعلهم يحولون نشاطهم القومي إلى نشاط سري، وإن نذر الشر هذه، جعلتهم يوقتون، أن الحركة القومية العربية تحتاج لجدية وتضحية أكثر، وهذا ما جعل الاتجاه القومي العربي يبدأ بالابتعاد والانفصال عن الاتجاه الإسلامي العثماني، لأن (العثمانية) أخذت بدروها، نتيجة للسياسة العنصرية التركية، تتحول نحو التركي، وهكذا فإن الاتجاه الإسلامي في الجامعة الإسلامية أخذ ينفصل إلى قومية تركية، وقومية عربية، تظهر بجلاء في فترة حكم جمال باشا لسورية، والثورة العربية بقيادة الحسين سنة ١٩١٦.

القحطانية

كانت الجمعية «القحطانية» التي أسست في استانبول، أواخر سنة ١٩٠٩، أول الجمعيات السرية العربية ويظهر من اسمها «القحطانية» أنها تعمل لصالح العرب والقومية العربية، والعودة بالتاريخ العربي إلى ما قبل الإسلام، لأن قحطان هو جد العرب. واختلف الكتاب عن شخص مؤسسها، والغالبية تذكر أنه الضابط عزيز المصري، بينما ذكرت مجلة الحرب العظمى، أنه أحد أربعة، عبد الكريم الخليل (رئيس المنتدب الأدبي)، و خليل حمادة، والشيخ عبد الحميد الزهراوي، وسليم الجزائري. وكانت لها إشارة سرية للتعارف بين الأعضاء، وهي التسليم باليد، ووضع الأصبع الوسطى والشاهد على الذراع اليسرى ليد المسلم عليه، ثم تهجئة كلمة «هلال»، فيقول واحد «هـ» والثاني «ل»^(٢٧) وهكذا. وكان هدف هذه الجمعية محاولة مساواة الترك بالعرب في الامبراطورية العثمانية، على شاكلة امبراطورية النمسا والمجر، بحيث يشكل العرب والترك كل منهم دولة منفصلة، لها برلمانها، وحكومتها،

(٢٧) مجلة الحرب العظمى ص ١٢ ويؤكد أمين سعيد في كتابه الثورة العربية الكبرى، انخلد الأبل، ص ١٠
اختلف حول مؤسس هذه الجمعية.

ولغتها الرسمية ، (العربية بالنسبة للعرب) ، ويكون سلطان الأتراك ملكاً أو سلطاناً للدولتين ، كما هو امبراطور النمسا امبراطوراً للنمسا والجر . ولا شك أن هذا الاتجاه الجريء ، يعتبر مقدمة لانفصال عربي عن الترك ، مع بقاء الدولة العثمانية بشكلها الرمزي غير المسيطر على العرب . وقد ضمت هذه الجمعية عدداً كبيراً من الضباط العرب ، وكان لهذا خطورته ، لقوة العرب ومستقبلهم ، وكان فيها عضوان من جمعية المتتدى العربي . وقامت هذه الجمعية بنشاط واسع في سنتها الأولى ، وأنشأت لها خمسة فروع في البلاد العربية ، غير فرعها الرئيسي في استانبول ، وبقيت سرية بسبب تشدها في انتقاء الأعضاء الموثوقين ، وعندما أحس أعضاؤها واشتهوا ، بأحد الأعضاء ، وأنه يمكن أن يفشي خبرها ، أهملها أعضاؤها دون حلها ، وهكذا ماتت من تلقاء نفسها ، وانضم أعضاؤها فيما بعد إلى جمعيتي الفتاة و العهد (٢٨) .

العربية الفتاة

ونأتي الآن على ذكر أهم جمعية سرية عربية ، قادت الاتجاه القومي العربي حتى نهاية الحرب في سورية ، وقاد رجالها الحكم الوطني في عهد فيصل ، وبعده خلال الانتداب الفرنسي ، تحت أسماء أحزاب أخرى . وكانت أفكار القومية العربية تراود الطلاب العرب الذين يدرسون في استانبول ، ورأى بعض هؤلاء الطلاب ، أن يؤسسوا جمعية سرية إلى جانب الجمعية القحطانية ، واتفق ثلاثة طلاب هم ، عوني عبد الهادي ، ومحمد رستم ، وأحمد قدرى ، على تأسيسها سنة ١٩٠٩ في استانبول ، ثم رحل هؤلاء إلى باريس للتخصص ، ولحق بهم بعض الشخصيات الأخرى وهم ، رفيق التميمي ، وعبد الغني العريسي ، وجميل مردم ، وتوفيق السويدي ، وكان فيها توفيق الناطور ، ومحمد المحمصاني ، وجميعهم من سورية ، عدا توفيق السويدي فهو من

(٢٨) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٤ ص ١٨٨ .

وجلال نخيى ، العالم العربي الحديث ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٣٦ ، ص ٤٨٦ — ٤٨٧ .
ومصطفى الشهابي ، القومية العربية ، ص ٧٠ .

العراق . وانتخب لهذه الجمعية في باريس سنة ١٩١١ هيئة إدارية مؤلفة من عوني عبد الهادي ، رفيق التيمسي ، محمد رستم حيدر ، محمد الحمصاني ، عبد الغني العريسي ، صبري الخوجه ، توفيق الناطور ، أحمد قدري^(٢٩) . واقترح لها أسماء كثيرة مثل جمعية الناطقين بالضاد ، أو جمعية العربية الفتاة ، ويذكر أحمد قدري أحد مؤسسيها في مذكراته ، أنه خوفاً وحذراً جعل مؤسسيها يكتبون بجمعية الفتاة^(٣٠) ، ولا شك أن حذف كلمة عربي منها ، تدل على مدى خطورة قيام حركة عربية محضة في الدولة العثمانية . وكانت هذه الجمعية ، بالغة التشدد في تنظيمها السري ، وفي قبول أعضائها الجدد ، الذين كانوا يمرون بمراحل من ، التزكية ، والاختبار ، والبحث ، والتدقيق ، والموافقة ، من عضو أو عضوين من الأعضاء القدامى ، حتى يتم قبول العضو الجديد . وكان لها ثلاث هيئات ، الأولى المؤلفة من القيادة المؤسسة ، والثانية ممن أمضوا أكثر من ستة أشهر في العضوية ، والثالثة للجدد الذين لم يتجاوزوا الستة أشهر في عضويتهم^(٣١) . « ولم يكن يدخل في جمعية الفتاة إلا ذوو الأخلاق القوية ، وأن يكون محباً لقومه ، عزيز النفس ، ويرجع الجاهل ونصف المتعلم المتين الخلق ، على المتعلمين المتذبذبين ، ويقدم العضو الجديد إثنان من القدماء ، ولذا كانت السرية شديدة ، ولم تستطع السلطة التركية معرفة الجمعية^(٣٢) » . وكان على العضو أن يقسم اليمين التالية « أقسم بالله العظيم وبشرفي أن أعمل للنهوض بالأمة العربية ، وأبذل لذلك كل جهدي لجعلها في مصاف الأمم الحية الراقية ، وأضحى بروحي ومالي في هذا السبيل ، وأكتم أسرار الجمعية ، وأطيع أوامر هيئتها المركزية وقراراتها ولو كانت ضد رأيي ، ويكون دمي هدراً إذا خالفتها ، والله على ما أقول شهيد^(٣٣) » وبفضل السرية

(٢٩) مذكرات أحمد قدري ، ص ١٢ وأوراق خاصة لعوني عبد الهادي (اعداد خيرية قاسمية) بيروت ١٩٧٤ ص ٩ .

(٣٠) مذكرات أحمد قدري ، ص ١٢ وسميح الزين ، ستة أيار ، قصة الشهداء... ، ص ٥٧ .

(٣١) عزرة دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ، ص ٣٢ وأوراق حسن الحكيم رقم ١٠٤/١٠٤ (مركز الوثائق - دمشق) .

(٣٢) (٣٣) أوراق فخري البارودي - القسم الخاص وثيقة رقم ٥٨ - دفتر رقم ٤ (جمعية عربية الفتاة وبعض حوادث الانقلاب العثماني) مركز الوثائق التاريخية بدمشق (الورقة الأولى) .

التامة ، وانتقاء الأعضاء ، ظلت هذه الجمعية سرية حتى بعد الحرب ، برغم ما تعرض له كثير من أعضائها في أثناء التحقيق في ديوان الحرب العرفي العثماني ، الذي شكله جمال باشا حاكم سورية في عالية سنة ١٩١٥ ، وقد شق عدد من أعضائها ولم ييوجوا بسرهما ، أمثال محمد المحمصاني ، وعارف الشهابي ، وتوفيق البساط ، ومحمود المحمصاني ، وعمر حمد ، وعبد الغني العريسي ، وبلغ عدد أعضائها قبل الحرب ستين عضواً ، ودخلها أيام الحكم الفيصلي ثمانون عضواً ، وإن كان يذكر بعض الباحثين عدداً أكبر من هذا يتجاوز الثلاثمائة^(٣٤) . وكانت تقبل المتسبين إليها عسكريين ومدنيين ومن مختلف الأعمار ، والجدير بالذكر ، أن الأمير فيصل بن الحسين انتسب لها عندما كان في دمشق سنة ١٩١٥ . وانتقل مركز الجمعية سنة ١٩١٢ إلى بيروت ثم إلى دمشق ، وبقيت قيادتها المؤسسة هي هي ، التي كانت في باريس دون تغيير ، ولم تجر أي انتخابات لهذا الغرض ، وكان لها معتمدون فرديون في المدن الهامة ، وكان الاتصال بين المركز والمعتمدين والأعضاء الآخرين يجري بطريقة سرية ، بحيث لم يكن معظم الأعضاء يعرفون القيادة ولا المعتمدين شخصياً . واشتد طابع السرية بعد دخول الدولة العثمانية الحرب ، ومقاومة الاتحاديين العنيفة لحركة القومية العربية ، وخاصة ملاحقة جمال باشا رجال هذه الحركة ، وبرغم تلك الملاحقة الدموية ، ظل نشاط هذه الجمعية قائماً خلال السنين الثلاث للحرب ، وأصبحت دمشق مركز الهيئة الإدارية ، حيث انتسب عدد غير قليل من الرجال لهذه الجمعية ، ومنهم فيصل بن الحسين كما ذكرنا . وكان برنامجها في أول تكوينها ، العمل للنهوض بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية ، واغتنام الفرص لتحقيق هذه الأهداف ، ولم يكن في منهجها الانفصال عن الدولة العثمانية في البدء ، لكنه تغير بعد الحرب ، إذا أصبحت تناضل من أجل تحرير البلاد العربية من الأتراك ، ومن أجل استقلالها التام^(٣٥) .

(٣٤) مصطفى الشهابي ، القومية العربية ، ص ٧٣ — ٧٤ .

(٣٥) الشهابي ، القومية العربية ، ص ٧٨ وعرة دروزة ، حول الحركة العربية الحديثة ، ص ٣٢ .

وجاء في رسالة من عارف الشهابي في ١٨ مارس / آذار / ١٩١٤ إلى محب الدين الخطيب، يعلمه بقرار الجمعية أن يكون شعارها الألوان الثلاثة التي تمثل الدول العربية الثلاث، «أخضر وأبيض وأسود» مع تكليف محب الدين الخطيب، بعمل ختم للجمعية بحرفي «ع ف و صورة نخلة» ويلفت نظره إلى ضرورة وضع تاريخ للختم ١٩٠٩، كما اقترح محمد المحمصاني في رسالة أخرى في ٢٥ أبريل / نيسان / ١٩١٤، بأن يجمع الختم النخلة والصقر. وتلقى محب الدين الخطيب مجموعة من الرسائل، كانت ترد إلى القاهرة حاملة تعليمات خاصة من قيادة الجمعية، منها رسالة من عبد الغني العريسي في ١٤ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢، يعلمه بإرسال منشورات أقرها المركز في باريس، ويطلب منه إرسال نسخ منها إلى المملكة العثمانية عن طريق البريد الفرنسي، (لا يحق للدولة العثمانية تفتيشه حسب قانون الامتيازات الأجنبية) وتتضمن هذه المناشير فكرة الحث على الإصلاح، ومن الرسائل أيضاً رسالة أخرى من العريسي في يونيو / تموز / ١٩١٢ لوضع شفرة للجمعية، لاستعمالها والكتابة بها في الولايات العثمانية، وهذه الشفرة هي «بزغ فجر وطنك مت لعضد شخص، أخي ثقة ظد». كما جاء في كراس يتضمن منهج الفتاة ويشير إلى أنها تأسست في ١٤ نوفمبر / تشرين الأول / ١٩٠٩ من «قبل فريق من النابغة العرب، للقيام بما تفرضه عليهم الوطنية، لتعزز بهم مركزها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، حسب ما تتطلبه طبيعة الوجود». وجاء في منشور سياسي مختوم بخاتم الجمعية سنة ١٩٠٩، يطالب بالإصلاح والاستقلال الإداري^(٣٦). وكان من رأي العريسي في مبدأ الجمعية «تحرير الأمة العربية حسب الأحوال والظروف خطوة فخطوة بكل الوسائل الشرعية وغير الشرعية»^(٣٧). وإذا كانت أسباب تأسيس جمعية الفتاة أسباباً قومية، فإن هناك سبباً مباشراً، ذكره أحمد قدرى، وهو أنه سمع مع زميله عوني عبد الهادي،

(٣٦) أوراق محب الدين الخطيب، القاهرة وخيرية قاسية، الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨—١٩٢٠، مصر، دار المعارف، ص ١٩—٢٠.

(٣٧) أوراق محب الدين الخطيب، القاهرة وسليمان موسى، الحركة العربية ١٩٠٨—١٩٢٤، بيروت، دار النهار ١٩٧٧، ص ٣٣.

ضابطاً تركياً يشتم مساعددي السلطان عبد الحميد، وهما عزة العابد، وأبو الهدى الصيادي، وهما عريان من سورية، وكان يصفهما في أثناء الشتيمة بأنهما عريان، ولم يندد بأي من الأتراك الذين كانوا يعملون عند السلطان عبد الحميد، وكان رد الفعل، هو تأسيس جمعية العربية الفتاة على نحو تركيا الفتاة، وكان ذلك بعد إعلان الدستور بأربعة أيام^(٣٨). ويؤكد البارودي (وكان عضواً فيها) أن «جمعية العربية الفتاة كانت رد فعل لجمعية تركيا الفتاة وللعداء والتعصب الذي رآه مؤسسوها في الآستانة من شتم للعرب وتحقير لهم فذهبوا إلى باريس وقرروا تأسيسها»^(٣٩)، وكان مؤسسوها جميعاً من المسلمين. ويذكر أنطونيوس، أن مبدأها متقدم على مناهج الجمعيات الأخرى بشكل ملحوظ، ويقصد بمبدئها خلال الحرب، الذي كان ينص على استقلال العرب من الأتراك والأجانب الآخرين^(٤٠).

العهد

وهناك جمعية ثانية، قاسمت جمعية الفتاة دورها القيادي، في حركة القومية العربية، والثورة العربية، وحكم سورية والعراق فيما بعد، وهي جمعية العهد، وكانت سرية أيضاً. وتشكلت أيضاً في الآستانة في ٢٨ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٣، وكان الضابط المصري عزيز علي المصري هو مؤسسها بدلاً من الجمعية القحطانية، لكنها اقتصرت على عضوية العسكريين فقط، وكان العراقيون يشكلون أعلى نسبة في هذه الجمعية، ثم السوريون، لأن الضباط العراقيين كانوا أكثر عدداً من الضباط العرب الآخرين في الجيش العثماني. وقد بلغ عدد أعضائها من الضباط حسب رواية جمال باشا حاكم سورية، ٣٩٥ ضابطاً من جملة ٤٩٠ ضابطاً عربياً، كانوا يخدمون في العاصمة استانبول^(٤١). وكان لها فرعان في الموصل وبغداد — كما ذكر أنطونيوس —

(٣٨) مذكرات أحمد قدري، ص ٦-٧.

(٣٩) مذكرات فخري البارودي ج ٢، دمشق ١٩٥٢، ص ١٤٤.

(٤٠) أنطونيوس، ص ١٨٨.

(٤١) مذكرات أحمد جمال باشا. ترجمة علي أحمد شكري، مصر ١٩٢٣، ص ٩٠.

بينما يذكر طه الهاشمي في مذكراته « بأن عزيز المصري أُملي عليه بنود جمعية العهد ، وأن نوري السعيد سودها واستخرج منها نسخاً عديدة ، فحملها الهاشمي وأسس لها فروعاً في دمشق ، وبيروت ، والموصل ، وبغداد ، والبصرة ، وأن غايتها كانت ، الوحدة العربية في جميع الأقطار العربية الداخلة في الامبراطورية العثمانية .. وكثر أعضاؤها ، وكان جلهم من الضباط الأحداث ، ولعبوا دوراً خطيراً في الثورة العربية .. »^(٤٢) . ويذكر نوري السعيد « أن غاية جمعية العهد ، كانت الحصول على إدارة عربية محلية ولغة عربية رسمية ، على أن يشترك العرب والترك في الإدارة العامة للدولة ، على أساس اتحادي (فدراسيون) ، وكان من بين الأتراك من يؤيد هذه الفكرة ويؤازرها ، مثل مصطفى كمال باشا »^(٤٣) . وذكر محب الدين الخطيب « أن حزب العهد أسس في الآستانة ، وهو استمرار لحزب العهد (يقصد القحطانية) ، وغايته جمع شتات العرب ورجالهم وشبابهم تحت غاية واحدة ، والسعي إلى ذلك بخطا ثابتة لا تنقطع ، وغاية الحزب ، إيجاد كيان عام يضم العرب تحت لواء واحد وحكومة واحدة ، في ظل استقلال « سياسي صحيح »^(٤٤) . وجاء في كتاب عزيز بك ، (ضابط استخبارات تركي) ، أن منهاج حزب العهد هو^(٤٥) :

- ١ — جمعية العهد جمعية سرية تعمل لاستقلال البلاد العربية الداخلي ، متحدة مع حكومة الآستانة اتحاد الجر مع النمسا .
- ٢ — بقاء الخلافة الإسلامية بأيدي العثمانيين .
- ٣ — حماية الآستانة من مطامع الدول الأوربية لأنها رأس الشرق .
- ٤ — إنماء المزايا الأخلاقية لحفظ كيان الأمة السياسي .

ووردت هذه البنود في كتاب الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ، لكنه أضاف

(٤٢) مذكرات طه الهاشمي ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٥٥ .

(٤٣) مذكرات نوري السعيد ، الجزء الأول ، بغداد ، مطبعة الجيش ١٩٤٧ ، ص ٥ .

(٤٤) وثيقة رقم ١٥١/٢ ، القسم الخاص — حزب العهد — القضية العربية ، مركز الوثائق بدمشق ونشرها محب الدين في مجلة الفتح سنة ١٩٤٨ .

(٤٥) عزيز بك ، الاستخبارات والجانوسية في الدولة العثمانية ... ص ٢٨ — ٢٩ .

بنداً آخر هو : على العرب أن يكونوا القوى الاحتياطية ، التي تدعم الأتراك في حمايتهم للشرق أمام الغزو الغربي .

ويبدو واضحاً أن الاتجاه القومي العربي الوارد في جميعة العهد ، مازال متأثراً بالتيار الإسلامي الذي يربط العرب بالأتراك ، لكن فيه إبرازاً لكيان العرب ، كما جاء في جمعية الإخاء العربي العثماني ، لكن هذا الكيان واضح هنا ، إذ يجب أن يشكل العرب دولة خاصة بهم يمثلون بها نصف تاج الدولة العثمانية ، على شاكلة دولة النمسا والمجر ، وهذا ما جاء في مبدأ الجمعية القحطانية ، مما يؤكد أن عزيز المصري هو المؤسس لهاتين الجمعيتين . وعملت هذه الجمعية في السر أيضاً كسابقاتها ، لأن إبراز الكيان العربي ، في صلب الدولة العثمانية التي تحكمها عقلية قومية تركية متطرفة ، لا يمكن الجهر به ، كما أن الدولة العثمانية قد أصدرت قراراً في أوت / آب / ١٩٠٩ ، يقضي بمنع قيام الجمعيات والأحزاب ذات الأهداف القومية والسياسية . وجاء في مجلة الأسرار — بعد ذكر نفس الأهداف السابقة — أنه كان لحزب العهد شعار مدون على ختمه ، وهو « ليس للإنسان إلا ما سعى » ، وأنه من تقاليده أنه يتوجب على الذي يريد الانتساب لهذا الحزب ، أن يضع يده اليمنى على المصحف ، واليسرى على السيف أو المسدس ، ويحلف بيمين الإخلاص والولاء^(٤٦) .

وقد انتمى إلى هذا الحزب كثير من الضباط ، نذكر منهم من لعب دوراً في السياسة العربية وهم :

١ — من سورية : محمد اسماعيل الطباخ (دمشق) ، مصطفى وصفي (دمشق) ، سليم الجزائري (دمشق) ، خالد الحكيم (دمشق) ، يحيى كاظم (دمشق) ، عارف التوام (دمشق) ، محي الدين الجبان (دمشق) ، صادق الجندي (حمص) ، أمين لطفي الحافظ (دمشق) ، علي النشاشيبي (القدس) ، علي رضا (دمشق) وعبد القادر سري (دمشق) .

(٤٦) مجلة الأسرار ، بيروت ١٩١٤ — ١٩١٨ ، ص ٩ ووثيقة رقم ٣/٢١ ، مركز الوثائق التاريخية بدمشق .

٢ — من العراق: نوري السعيد، وطه الهاشمي، وياسين الهاشمي، ومولود مخلص، وجميل المدفعي، وشريف الشريف، وعلي جودة الأيوبي، واسماعيل الصفار، وعبد الله الدليمي، وتحسين علي، ورشيد الخوجا، وحدي الباجهجي، ومزاحم الباجهجي، والجميع من بغداد، وحيد الشالجي من البصرة^(٤٧). وقد شنع جمال باشا ثلاثة من هؤلاء وهم: سليم الجزائري، وعلي النشاشيبي، وأمين لطفي الحافظ. وبرغم أن كلا الجمعيتين العهد والفتاة سريتان، فقد تم الاتصال بين قيادتهما في دمشق، بعد انتقال قيادة الفتاة إليها. واتفق الطرفان على تنسيق الخطط بينهما، واتصلت الاثنتان بفيصل في دمشق باجتماع ضم أعضاء من الطرفين. وكان مصطفى الشهابي، صلة الوصل مع سعد الله الجابري (حلب)، بين العهد والفتاة^(٤٨). ويذكر أمين سعيد، أن عدد الضباط المنتسبين للعهد أوائل ١٩١٤ زاد عن الثلاثمائة، ويعتبر عزة دروزة هذا مبالغاً فيه، وإن كان يؤكد أن العدد بلغ رقماً غير يسير^(٤٩).

وقد اكتشفت الحكومة العثمانية أمر هذه الجمعية، فاعتقلت عزيز المصري، وحكمت عليه بالإعدام، ثم أخلت سبيله بعد توسط بريطانيا^(٥٠)، (كما سنرى في حينه). وظل هذا الحزب حتى نهاية حكم فيصل، وانفراط عقد رجال الحركات العربية، واهتمام كل منهم بأمر قطره، بعد زوال الدولة العثمانية، وتبخر الأماني القومية بعد الاصطدام بالواقع الجديد وهو الاستعمار الأوروبي.

ويبدو أن فكرة العهد عن إنشاء دولة عربية—تركية تشبه امبراطورية المجر والنمسا، قد شاعت على ألسنة العرب المهتمين بالقضية العربية، وخاصة عندما كانت تطرح مثل هذه القضية في بيروت، وعندما كانت تجري المحاولات لإعادة العلاقات

(٤٧) عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ص ٣٣ وأمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مجلد ١، ص ٤٦، وعلى المحافظة، ص ١٤٤.

(٤٨) مصطفى الشهابي، القومية العربية، ص ٧٩.

(٤٩) عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ص ٣٣.

(٥٠) Gooch and Temperley, British documents, P. 824.

الطيبة بين العرب والأتراك، والتمسك بالخليفة الذي يجمع بين الشعبين، وهذا ما لاحظته القنصل البريطاني في بيروت، وما أرسله لوزارة الخارجية البريطانية^(٥١). وتخلو الوثائق البريطانية والفرنسية في تلك الفترة عن أي معلومات عن الجمعيتين السريتين الفتاة والعهد، مع الاهتمام الشديد من بريطانيا بقضية عزيز المصري، وإطلاق سراحه. ولم تذكر الوثائق البريطانية التي خصص لها كتاب الوثائق للمؤلفين، «Goosh and Temperley»، عدة صفحات عن الحركة العربية أي شيء عن هذه الجمعيات السرية إلا أنها ذكرت أن جمعيات عربية سرية تأسست ما بين ١٩٠٩ — ١٩١٤، في مختلف المراكز وكان غالبيتها في استانبول، وكانت لها فروع في بيروت، والقاهرة، ودمشق وبغداد، في بعض الحالات، والبصرة. لكن وردت تسمية في مؤتمر باريس، وصفت به رجال الحركة العربية الحاضرين بـ «Yong Arab»^(٥٢) وهو نفس اسم الجمعية العربية الفتاة، ولا نعتقد أن ورود، هذه التسمية يدل على معرفة سر هذه الجمعية.

ظل هذا الاتجاه القومي العربي — الإسلامي سائداً خلال ١٩٠٩ — ١٩١٥، حيث أخذت حوادث الحرب والاتفاقات الدولية وسياسة جمال باشا، تحرفه عن سيره نحو الاتجاه الأقليمي كما سنرى في الفصل الخاص بسورية خلال حكم جمال باشا.

الاتجاه القومي العربي — السوري واللبناني — المسيحي

إذا كان الإسلام، هو الرابط الذي يجمع العرب المسلمين، بالأتراك المسلمين، وإذا كان العرب المسلمون يشعرون — وشعروا لمدة قرون — أن الدولة العثمانية دولتهم، وأنهم مواطنون كاملو المواطنة، فكيف الحال بالمسيحيين العرب، ولا يربطهم بالأتراك رباط دين، ولا عرق، ولا وطن. لاشك أنهم لم يشعروا كالمسلمين أن الدولة دولتهم، ولم يشعروا أيضاً أنهم مواطنون كاملو المواطنة كالمسلمين، وأنهم كانوا نوعاً آخر من الرعايا، وتخلصاً من هذا النقص عبر القرون، أخذ المفكرون منهم يبحثون عن السبيل،

(٥١) F. O. 371. 1848 (1913) 29 Oct 1913, PP. 5-6

(٥٢) Gooch and Temperley, P. 824

فمنهم من فتش عما يربطهم بالعرب المسلمين ، وكانت اللغة العربية والجنس والتاريخ ، أي كانت القومية العربية ، وعلى الأقل في سورية ، حيث كان وطن هؤلاء المسيحيين ، ومنهم من بحث مستعيناً بدولة مسيحية للخلاص ، وكانت فرنسا عند غالبيتهم ، لروابط تاريخية تدعياها فرنسا ، ويتعلق بها هذا النفر منهم . ولذا فإن الاتجاه القومي العربي الذي نادى به المفكرون المسيحيون في سورية ولبنان ، كان قديماً وسابقاً للمرحلة التي ندرسها . ولا شك أنها كانت نتيجة انتشار العلم ، والثقافة الغربية عن طريق المدارس الكثيرة ، والمؤسسات التبشيرية المسيحية ، التي اهتمت بتنمية ما يفصلهم عن الدولة العثمانية ، وهي اللغة العربية ، والتاريخ ، دون الرجوع إلى الإسلام . ويمكن إنجاز مراحلها كما يلي :

١ — جمعية الآداب والعلوم التي أسسها العلماني ، (في اللغة العربية) ناصيف اليازجي ، وبطرس البستاني في بيروت سنة ١٨٤٧ ، مع أعضاء أجنبية (أمريكيين) ، وكان كل أعضائها من المسيحيين . وكانت غايتها رفع مستوى المعرفة عن طريق الاتصال بالثقافة الغربية .

٢ — أنشأ اليسوعيون (على غرار الأمريكيين البروتستانت) ، الجمعية الشرقية سنة ١٨٥٠ في بيروت ، على الأسس نفسها ، وكان الأب الفرنسي دوبرو نير هو المحرك النشط لها ، وكذلك كان أعضاؤها مسيحيين .

ولما كان من العسير أن يحمل المسيحيون وحدهم هذا العبء ، وهم قلة في بحر من المسلمين العرب والترك ، لذا كان ضم فئات المسلمين العرب لهذه الجمعيات ضرورة هامة في هذا الصراع ولذا تأسست .

٣ — الجمعية العلمية السورية سنة ١٨٥٧ في بيروت وكان فيها ١٥٠ عضواً من مختلف الأديان ، وكان ابراهيم اليازجي ابن ناصيف أحد أعضائها البارزين ، وكان أحد أبناء البستاني أيضاً منهم . وكانت الوحدة الوطنية القائمة على الاعتزاز بالتراث العربي ، هي ما قدمته هذه الجمعية . ومنها خرج شعار اليقظة العربية من قصيدة شعر نظمها ابراهيم اليازجي وفيها البيت المشهور :

تنهبوا واستغفوا وأياها العــــربُ

فقد طمى السيلُ حتى غاصتِ الركبُ (٥٣)

٤ — جمعية بيروت السرية ، وقد شكلها بعض الطلاب المسيحيين في الكلية السورية (الجامعة الأمريكية) في بيروت سنة ١٨٧٥ ، وكان منهم ابراهيم اليازجي آنف الذكر ، وغر فارس مؤسس جريدة المقطم اليومية ومجلة المقتطف الشهرية في القاهرة ، بعد هجرته إلى مصر . وكانت هذه الجمعية توزع منشور ثورية سرية ضد السلطان عبد الحميد ، وكانت أهدافها قائمة على استقلال سورية ، والاعتناء باللغة العربية . وقد جاء في أحد منشوراتها المكتوبة باليد ، والمصققة على الأبنية في بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا ، وكانت تطالب بما يلي :

١ — منح سورية الاستقلال .

٢ — الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد .

٣ — إلغاء الرقابة والقيود الأخرى المفروضة على حرية التعبير ونشر المعرفة .

٤ — جعل الخدمة العسكرية محلية (٥٤) .

ولا بد أن نذكر أن بعض المسيحيين العاملين على مناهضة الحكم العثماني ، والذين ركزوا أهدافهم على خلق دولة سورية مستقلة ، قد استعانوا بالمحافل الماسونية حيث دخل بعض قادتهم وانتسبوا إلى هذه المحافل ، ومن ثم أقنعوا بعض الزعماء أو المفكرين المسلمين ، حتى أدخلوهم في هذه المحافل ، وتم فيها اللقاء حيث عرف

(٥٣) أنطونيوس ، ص ١١٧ — ١١٨ .

وعيسى ميخائيل سابا ، الشيخ ابراهيم اليازجي ١٨٤٧ — ١٩٠٦ ، مصر ، دار المعارف ١٩٥٥ ، ص ١٥ .

(٥٤) Majzoub, M, Le Liban et L'Orient Arabe, Aix-en- Provence 1965, P. 15 et Khairallah, (٥٤)

K. T. Le Probleme du Levant, Paris 1919, P. 30,

وعلي الخافضة ، ص ١٣٠ .

المسلمون بوجود الجمعية السرية المذكورة فانتسبوا إليها، وتعاونوا معاً في وجه الأتراك^(٥٥).

٥ — كان مكسباً عظيماً للمسيحيين، أن يضموا إليهم المسلمين ليحاربوا معاً الأتراك المسلمين، في بلاد مازالت تسودها الطائفية والمذهبية. وتحت شعار القومية العربية، انشئت جمعية سرية أخرى سنة ١٨٨١ هي «جمعية حقوق الملة العربية» من المثقفين العرب في بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا، ووزعت المنشورات تحت العرب على اليقظة، وتذكروهم بأجدادهم، وأن الأتراك اختلسوا الخلافة من العرب، الذين قامت على أكتافهم الفتوحات، ونددت هذه المناشير باستبداد السلطان عبد الحميد^(٥٦). ولا شك فإننا نلاحظ استمرار التيار القومي المسيحي العربي، وتأكيده على التراث العربي حتى يقف العرب ضد الأتراك.

٦ — ويقترّب أكثر، الاتجاه القومي العربي المسيحي من الاتجاه العربي الاسلامي، في بداية القرن العشرين، عندما نشر نجيب عازوري — وهو ماروني نشأ نشأة فرنسية، وكان شديد الميل لفرنسا وحضارتها — في باريس سنة ١٩٠٥ كتاباً باللغة الفرنسية هو يقظة الأمة العربية، Le réveil de la nation Arabe، يقول فيه «إن العرب أمة واحدة يوحد بينها التاريخ والشعور الوطني ووحدة العرق، وأنهم يرغبون في الانفصال عن الأتراك، وأنهم يرغبون في تأسيس دولة عربية مستقلة، تقع ما بين وادي دجلة والفرات إلى السويس، ومن البحر المتوسط إلى بحر عمان، (آسيا العربية)، وستكون دولة ملكية دستورية حرة على رأسها سلطان عربي، أما ولاية الحجاز ومعها مقاطعة المدينة، فإنها ستكون امبراطورية مستقلة على رأسها حاكم يكون في الوقت ذاته خليفة المسلمين، وبهذا التدبير تكون قد حلت المعضلة الكبرى، أعني فصل الدين الإسلامي عن الدولة المدنية ويكون في هذا الحل خير لجميع الفرقاء». وكان قد أسس سنة ١٩٠٤ رابطة الحزب العربي، أو

(٥٦) محمد عزة دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، صيدا، ١٩٧١، ص ٩٤ — ٩٥.

(٥٥) زين نور الدين زين، نشوب القومية العربية، بيروت، دار النهار، ط ٢، ١٩٧٢، ص ١٩٧.

جامعة الوطن العربي Ligue de la patrie Arabe ، ثم أصدر مجلة الاستقلال العربي L'indépendance Arabe سنة ١٩٠٧ ودامت حتى ١٩٠٨ (٥٧) . ويذكرنا فكر عزوري عن الدولة العربية بعبد الرحمن الكواكبي ، وهو عربي مسلم من حلب (١٨٤٩ — ١٩٠٣) ، حيث جاء في كتابه أم القرى ، أنه يجب أن يدير العرب بلادهم بأيديهم ، وأن ينزعوا الخلافة من الأتراك ، وأن تشمل سلطة الخليفة العربي الروحية كافة المسلمين ، على أن يقتصر سلطانه الزمني على الحجاز (٥٨) . ولا شك أن فكر عازوري مشتق أو متأثر بفكر الكواكبي — سابقه في الزمن — وهذا يؤكد وجهة نظرنا على اللقاء القومي العربي الإسلامي بالقومي العربي المسيحي في تلك الفترة ، ليدل على أن هؤلاء المفكرين قد اقتنعوا :

١ — بوجود الانفصال عن الأتراك ، وهو يعني انفصال العرب المسلمين عن الأتراك المسلمين ، وهو تنازل بالفكر الإسلامي .

٢ — تأسيس دولة عربية واحدة يكون للعرب المسلمين السلطة الروحية على المسلمين والسلطة الزمنية على العرب مسلمين ومسيحيين ، وهذا بدوره تنازل عن الفكر المسيحي . كان هذا في بداية القرن العشرين ، وتحقيق هذا اللقاء في الجمعيات المشتركة التي ضمت المسلمين والمسيحيين ، وكانت فيها القيادة للمسلمين في الجمعيات التالية :

حزب اللامركزية الإدارية العثماني

وقد أسسه في مصر سنة ١٩١٢ جماعة من سياسيي سورية ، المقيمين في مصر بمعرفة الحكومة التركية ، وهم : رفيق العظم (دمشق) ورشيد رضا (طرابلس) ، والدكتور شمیل (لبناني) ، واسكندر عمون (لبنان) ، وسامي الجريديني (لبنان) ، وحقي العظم (دمشق) ، ومحب الدين الخطيب (دمشق) . وكان رفيق العظم رئيسه ،

(٥٧) Hourani, A. H. Arabic thought in the liberal age 1718-1939 oxford, 1962, PP. 277-278

(٥٨) عبد الرحمن الكواكبي ، أم القرى ، القاهرة ، المطبعة المصرية بالأزهر ١٩٣١ ، ص ١٠٦ — ١١٢ .

واسكندر عمون نائب الرئيس، وحقي العظم أمين سره. وكانت غايته إظهار مزايا الحكم اللامركزي في دولة كالدولة العثمانية، تضم أجناساً وأعراقاً مختلفة، وأن هذا الحزب يعمل للحفاظ على الامبراطورية العثمانية من الأخطار الخارجية، ومن المنازعات الداخلية، وخلق شعور بالولاء لوحدة الامبراطورية العثمانية، والإخلاص للعرش العثماني. ونشر برنامجه المؤلف من ست عشرة مادة جاء في بعضها:

المادة ١: الدولة العلية العثمانية دولة دستورية نياية، وكل ولاية من ولاياتها تعد جزءاً من السلطنة لا ينفك عنها بحال من الأحوال، وإنما تبنى إدارة هذه الولايات على أساس اللامركزية الإدارية، والسلطان الأعظم هو الذي يعين الوالي وقاضي القضاة.

المادة الرابعة: يكون في مركز كل ولاية مجلس عمومي، ومجلس إداري، ومجلس معارف، ومجلس أوقاف.

المادة الرابعة عشرة: يكون في كل ولاية لغتان رسميتان، التركية واللغة العربية.

المادة الخامسة عشرة: يجب تعميم التعليم في كل ولاية بلغة أهلها^(٥٩).

ونص الحزب في تشكيله على أن يكون مركزه في القاهرة وعلى جواز تشكيل فروع له في مختلف القرى والمدن العثمانية، عندما يبلغ المنتسبون لهذا الحزب عشرة أشخاص. وبرغم أنه حزب نشأ في مصر لكنه كان حزباً من تأليف سوريين، كما أنه بالرغم من شموليته للدولة العثمانية كما جاء في منهاجه، لكنه كان في الحقيقة حزباً عربياً، وتشكلت له فروع في البلاد العربية بينما لم يدخله أحد من غير العرب، مع أن فكرته ليست جديدة، بل دعا إليها بعض الأتراك في وقت سابق كشكل لحكم الدولة العثمانية. وكان نشاط هذا الحزب موالياً للدولة العثمانية في بداية الأمر، ثم انقلب ضدها، بعد أن انقلب الاتحاديون أنفسهم ضد العرب، بالسياسة التي اتبعوها، وهي سياسة تترك العرب. وانضم إلى هذا الحزب رجال كثيرون من السياسة والنواب والمنتورين، وأخذ اسمه يتردد كثيراً في البلاد العربية لأنه كان حزباً علمياً، لكن فروعه في

(٥٩) مجلة المنار، مجلد ١٦ (٨ مارس ص ٢٢٩ - ٢٣١) وأمين سعيد، المجلد الأول ص ١٤ - ١٨. وزين

زين، نشوء، ص ٩٤ - ٩٥.

البلاد العربية، ظلت دون تسجيل رسمي من الدولة^(٦٠)، ولهذا كانت إعدامات جمال باشا تعتمد فيما تعتمد على الانتماء لهذا الحزب.

والحقيقة أن هذا الحزب لعب دوراً واقعياً وعملياً في القضية العربية، وفي قضية الصراع مع الأتراك، ثم في علاقة العرب مع الإنكليز والفرنسيين، بما يخص مستقبل البلاد العربية، أما من الناحية القومية، فكما ذكرنا في بدء الحديث عن هذا الحزب، من أنه جمع المسلمين والمسيحيين، ولم يكن هذا الجمع صدفة بل عن ثقة وإيمان، وقد جاء في رسالة لرفيق العظم رئيس الحزب في ٢٥ أوت / آب / ١٩١٣، إلى رئيس أحد الفروع في سورية، الذي أخبره بأنه وزملاءه قرروا ألا يقبلوا في فرعهم هذا في سورية أي شخص لا يدين بالإسلام، فكان جواب رفيق العظم السخط والغضب على ذلك، وجاء فيه «لا عبقة بما يتشدد به البعض من الذين أعمى الله بصائرهم وقلوبهم، من أن مد يد الإخاء إلى غير المسلمين كفر أو أنه يؤدي إلى تسليم البلاد إلى الأجانب، فإن هؤلاء إما منافقون أو جاهلون — ولا أقول خونة، كما يقولون هم عنا نحن طلاب الإصلاح — لا يعرفون مصلحة بلادهم ولا يرون أبعد من أنوفهم، فبجهلهم هذا وجمودهم، سيكونون الأيدي العاملة لضياح البلاد والعياذ بالله، زد على كل ذلك، أن حزبنا مؤلف من المسلمين وغير المسلمين، وعليه أعيد رجائي بموافقة الرئيس باسم الوطن والبلاد، أن تسعوا أولاً لإدخال من تأمنون جانبه وتثقون بصفاة ضميره من المسيحيين والدروز والإسرائيليين، أعضاء في الحزب حتى يكون حزبنا في سورية مؤلفاً

(٦٠) المنار، مجلد ١٦ و ١٧ (١٩١٣ و ١٩١٤) وفيها مقالات عن دستور الحزب بقلم رشيد رضا وغيره. وفي رسالة لرفيق العظم في ٢٩ تموز ١٩١٤ لصالح حيدر حدد له فيها تنظيم حزب اللامركزية وهو: ١ — تنظيم مالية الفرع. ٢ — السعي لاكتسار سواد الحزب. ٣ — أعداد النفوس لقبول مبادئ الحزب. ٤ — أن يكون لكل عشرة أعضاء عريف يكون وساطة بين العشرة والمائة. ٥ — أن يؤدي كل عضو بيمين الإخلاص.

مركز الوثائق التاريخية بدمشق رقم ٢٧/٤٦.

وفي رسالة من حقي العظم لمحمد الشنطي في ١٥ حزيران ١٩١٤ أرسل له فيها ٨ أعداد من برنامج الحزب و ٨ من القانون و ٨ من البيان الذي أعد قبل ستة أشهر نفس المصدر، رقم ٢٧/٤٧. وانظر عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة ص ٣٤ — ٣٥.

من جميع العناصر، وقد سارت جميع فروع الحزب في بلادنا على نفس هذه الخطة. ثانياً أن تسعوا للتأليف بين قلوب المسيحيين والإسرائيليين والطوائف الإسلامية...»^(٦١).

كما جاء في أحد منشairs «الجمعية الثورية العربية»، وكانت على الأغلب من كتابة حقي العظم «ليكن المسلمون والنصارى واليهود منكم يداً واحدة في العمل لمصلحة الأمة والبلاد، إنكم تقطنون أرضاً واحدة، وتستثمرون أرضاً واحدة، وتتكلمون بلغة واحدة، فكونوا أيضاً أمة واحدة ويداً واحدة... ولا تقولوا أيها المسلمون، هذا نصراني وهذا موسوي، فكلكم عيال الله والدين لله وحده، وأنتم أيها العرب من النصارى والموسويين، ضعوا أيديكم في يد إخوانكم المسلمين العرب...»^(٦٢). لكن حماسة حقي العظم للتعاون مع المسيحيين واليهود، لم يكن يعني أنه أكثر تسامحاً من العرب المسلمين، الذين شكلوا الجمعيات السابقة مع إخوانهم المسيحيين، بل لأنه كان من مجبزي السياسة الفرنسية في سورية وتأسيس دولة سورية تحت حماية فرنسا، وفصلها عن قضية البلاد العربية الأخرى، وهو من مؤسسي الحزب السوري اللبناني في مصر بعد نهاية الحرب ١٩١٨، الذي يتضمن هذا المفهوم، (كما سنرى ذلك بالتفصيل في مكانه من هذه الرسالة)، وقد عينته فرنسا حاكماً لدولة دمشق، بعد أن احتلها الجيش الفرنسي عام ١٩٢٠، منبهةً بذلك حكومة فيصل.

الاتجاه السوري

وهو أحد الاتجاهات السياسية التي أنشأها وعمل لها المسيحيون من لبنان، وقد ظهر إلى جانب الاتجاه القومي العربي المسيحي الذي تحدثنا عنه. وكانت فكرة سورية منتشرة بنوع خاص، بين متخرجي مدارس الإرساليات الأمريكية، لأن معظمهم كان

(٦١) أوراق محب الدين الخطيب، القاهرة.

(٦٢) مركز الوثائق التاريخية دمشق — وثيقة رقم ٦٠/٧٩، بلانا. وأوراق محب الدين الخطيب.

من المسيحيين الأرثوذكس، والإنجيليين، وفيما بعد من المسلمين والدروز، إذ كان استقلال لبنان يعني لهم سيطرة الموارد والثقافة الفرنسية والنفوذ الفرنسي، بينما كانت تبدو فكرة سورية، وسيلة للتخلص من وضع الأقلية، دون الوقوع تحت سيطرة أخرى، لا فرنسية في لبنان (الموارنة)، ولا عربية في دولة عربية مرتقبة. وكان هناك مسيحيون كاثوليك يؤيدون فكرة سورية، متأثرين بالأب اليسوعي البلجيكي هنري لامنس أحد الذين عملوا بالتاريخ الإسلامي، وكان يدرس في الجامعة اليسوعية في بيروت طيلة حياته، وكان شديد الحماسة لفكرة سورية، لأنه كان ينفر كثيراً من الإسلام والعروبة، وكان يميز كثيراً بين السوريين والعرب، ومثله كان المطران يوسف الدبس الذي ألف كتاباً عن تاريخ سورية بما فيها لبنان^(٦٣). وكانت فكرة سورية تلقى التشجيع من الحكومة الفرنسية. وقد أسس كل من شكري غانم وجورج سمنه الجمعية السورية المركزية في باريس، وكانت هذه الجمعية تدعو صراحة لإنشاء دولة سورية تحت حماية فرنسا، ارتكازاً على الادعاءات، بوجود علاقات قديمة بين فرنسا وسورية، منذ عهد هارون الرشيد والحروب الصليبية والدولة العثمانية، وحق فرنسا بحماية المسيحيين الكاثوليك في سورية وكان للجنة المركزية السورية نشاط واسع في كل الدول الأجنبية، حيث توجد جاليات سورية، وتركز هذا النشاط على تجميع تلك الجمعيات حول المطالبة بإنشاء دولة سورية، وتحت حماية فرنسا. ونذكر بعض الأسطر لشكري غانم في آخر كلمة قالها في مؤتمر الصلح في باريس «يرغب السوريون وسورية بحماسة، الحماية الفرنسية، ويطلبون أن تكون فرنسا هي المديرة لسياسة سورية والمشرفة عليها، وهي التي تعدها للاستقلال الحقيقي»^(٦٤). وكانت هذه اللجنة تطالب بالحكم الذاتي لسورية، بعد تأسيس الدستور في الدولة العثمانية سنة ١٩٠٨، لأن سورية تتمتع بتاريخ عريق وموقع هام في العالم. وكان تاريخ سورية القديم قبل الفتح العربي الإسلامي، نقطة الارتكاز الهامة في محاولة فصل كثير من السياسيين السوريين لسورية عن البلاد العربية.

(٦٣) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ترجمة كريم عزالدين، بيروت، دار النهار، ١٩٦٨، ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٦٤) D. F. G. 7N-1640 Note 4 (Service d'informations de la marine dans le levant)

وقد أرسل رشيد مطران في ٢٥ ديسمبر / كانون الأول / ١٩٠٨، إعلاناً من باريس باسم اللجنة المركزية من أجل سورية، إلى السلطان العثماني، يطلب فيها الاستقلال الذاتي لسورية، وقد جاء فيها: إن الماضي المجيد لسورية الذي وضعته العناية الإلهية، وكذلك الموقع الذي يمثل نقطة التقاء للعالم، يفرضان علينا الحتمية المقدسة، كي نعلن منذ الآن، أننا ننتظر من البرلمان، منحنا حق الحكم الذاتي الذي يضمن لنا الوسائل للنهوض ببلدنا^(٦٥).

ومن الاتجاه السوري، نذكر أيضاً حزباً لعب دوراً مذكوراً في سياسة سورية، وهو حزب الاتحاد السوري الذي أسسه مسلمون ومسيحيون من اللاجئين السوريين في مصر سنة ١٩١٨ (ديسمبر / كانون الأول /). وعين ميشيل لطف الله رئيساً له، ورشيد رضا سكرتيراً (أمين سر له)، ومن أعضائه أيضاً رفيق العظم، واسكندر عمون، وحسن حمدان، وأحمد مختار الصلح، وخالد الحكيم، وشبلي شمیل، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر^(٦٦). ويمكن اعتبار هذا الحزب بلقاء المسلمين والمسيحيين فيه، كحزب اللامركزية الإدارية العثماني، وخاصة إذ كان رفيق العظم رئيس الحزب المذكور من أعضاء الحزب الجديد الذي تأسس كما ذكرنا بعد انتهاء النضال ضد الأتراك، بزوال حكمهم عن سورية نتيجة هزيمتهم في الحرب، لكن الاختلاف هو في الهدف، فقد كان اللقاء المسلم—المسيحي في حزب اللامركزية يعمل لقضية عربية، أما في حزب الاتحاد السوري، فقد تدنى الهدف وأصبح اللقاء من أجل سورية ووحدتها واستقلالها، أما كيف قبل المسلمون، وخاصة رجال الحركة القومية العربية، بهذا الهدف الإقليمي السوري في هذا الحزب، وكيف تراجعوا عن القضية العربية والوحدة العربية، إلى القضية السورية والوحدة السورية، فيجيب رشيد رضا نفسه عن ذلك في مجلته المنار فيقول «رضيت أن أكون من أحد مؤسسي هذا الحزب، مع أنه يخالف مذهبي السياسي في الجامعة العربية، من وجوب اتحاد الجزيرة العربية بالولايات العربية العثمانية،

(٦٥) انظر الملحق وفيه صورة الرسالة 371 / 561 / 45494. F. O.

(٦٦) D. F. G. 7N-1640. Note No 6- 21 Jan 1919. Port-Said

لحرصه على تعاون المسلمين والنصارى على طلب الاستقلال التام الناجز لسورية، بعد أن أطلت الدعوة إلى مذهبي، فلم يستجيب لي من فضلاء النصارى بمصر، إلا أفراد قليلون، ولأن التعاون على استقلال بعض الأقطار العربية، لا ينافي السعي لاستقلال سائرهما عن طريق آخر»^(٦٧). ومبادئ هذا الحزب تقوم على استقلال سورية كلها (الطبيعية) والحكم فيها لامركزي حسب تقسيم الولايات، ويقوم فيها مجالس تمثيلية (نيابية) والحكم ديمقراطي. وكان اعتبار المسؤولين الفرنسيين لهذا الحزب على أنه مماليء للإنكليز، لأن أشخاصه بعضهم من مناصري القضية العربية وأصدقاء للإنكليز، والآخرين المسيحيون موظفون لدى الحكومة الإنكليزية في مصر^(٦٨).

كما نشأ في مصر في نفس الفترة، حزب سوري آخر هو «اللجان اللبنانية السورية في مصر»، وكانت تتألف من أعضاء سوريين مسيحيين، ويوجد مسلمان بينهم، وكان عبد الله صفيّر باشا (Abdullah sfer Pacha) رئيساً، وحقي العظم نائباً للرئيس (وكان عضواً هاماً في حزب اللامركزية الإدارية العثماني)، والأمير مختار الجزائري (وهما المسلمان)، وشكور باشا، وأمين بستاني، والفونسو زينيّه وغيرهم، وكان هدف هذا الحزب هو:

١— سلخ سورية عن كل سلطة تركية فعلية أو اسمية.
٢— استقلال سورية ووحدتها التامة في كل أرضها، تحت حماية فرنسا وبمساعدها وضمانها، ويكون الحكم فيها اتحادياً لامركزياً حسب المناطق، وبشكل خاص للبنان، حيث يترك الحكم فيه ذاتياً حسب خصائصه، ويتطور حسب رغباته المشروعة.

٣— الفصل التام بين القضية العربية، والقضية السورية، ومع أن سورية تتكلم اللغة العربية لكنها ليست عربية في مجموعها، وليس العرب أكثرية عرقية فيها، مع الاختلاف الشديد بين تطور الحضارة فيها وبين الحضارة الضئيلة عند العرب، كما

(٦٧) مجلة المنار، مجلد ٢١، ج ٤، جوان، ١٩١٩، ص ٢٠٤.

(٦٨) D. F. G. 7N-1640. Note 6

أن العقليتين مختلفتان بين الشعبين^(٦٩)، وقد وصف رشيد رضا هذا الحزب بالفرنسي^(٧٠).

ونشأ حزب سوري ثالث بين السوريين في مصر واسمه الحر المعتدل وهو يتفق مع الحزبين السابقين على طلب وحدة سورية، إلا أنه يخالفهما في طلب الولايات الأمريكية، لتكون وصية على سورية، وليس فيه أحد من المسلمين. ومن أهم أعضائه، الدكتور فارس نمر صاحب جريدة المقطم (القاهرة)، ويعقوب صروف، وميشيل أيوب، وسعيد شقير، وأنطون مشاقة وغيرهم من السوريين المقيمين في مصر^(٧١).

الاتجاه اللبناني

كان قسم من مسيحيي لبنان يتطلعون إلى استقلال لبنان، وخاصة بعدما حصلت متصرفية جبل لبنان على حكم خاص سنة ١٨٦١، وكانوا يتطلعون إلى فرنسا لتساعدتهم في الحصول على هذا الاستقلال، وتحميمهم أيضاً. لأن لهم «عليها حق التاريخ وحق الحب وماهي من ينكر مثل تلك الحقوق». وكان هؤلاء أكثر المتطرفين المسيحيين، في محاولة فصل أنفسهم ولبنان عن العرب المسلمين، ولم يكونوا يقبلون حتى بدولة سورية موحدة بما فيها لبنان، وكان هؤلاء يتمتعون من صديقتهم وحاميتهم فرنسا، عندما كانت تخطط سورية بلبنان، وهم يريدون للبنان كياناً مستقلاً مميزاً وأن توسع حدوده. وقد وجدوا صعوبة في مصر لفصل اللبنانيين عن بقية السوريين (الشوام)، مع أن هؤلاء أيضاً مسيحيون^(٧٢). وقد أنشأ بعض اللبنانيين في مصر سنة ١٩٠٩ حزباً أو جمعية هي، الاتحاد اللبناني، وكان أنطون الجميل هو الذي دعا لتشكيل هذا الحزب في القاهرة في نوفمبر / تشرين الثاني / من تلك السنة، وكانت

(٦٩) D. F. G. Carton 7N-1640, Note No 2

(٧٠) المنار، مجلد ٢١، جوان ١٩١٩، ص ٢٠٤.

(٧١) نفس المصدر.

(٧٢) يوسف السودا، استقلال لبنان والاتحاد اللبناني في الاسكندرية، الاسكندرية ١٩٢١، ص ٤٢.

أهدافه استقلال لبنان ، وتوسيع حدوده السياسية حتى تصل حدوده الطبيعية (وكانت هذه تابعة لولايات أخرى غير جبل لبنان) ، وكان رئيسه اسكندر عمون قبل الحرب العالمية الأولى ، وتعاون هذا الحزب مع حزب اللامركزية في مصر ضد الأتراك^(٧٣) . كما أنشأ بعض الشخصيات اللبنانية ، مثل بشارة الخوري (أصبح رئيساً للجمهورية فيما بعد في لبنان) ، والشيخ يوسف الجميل ، والدكتور ألفرد خوري ، وأميل إده ، والدكتور سليم الجليخ ، وجورج فيليب ثابت «جمعية بيروت اللبنانية» ، ووضعوا تقارير كثيرة من أجل توسيع حدود لبنان واستقلاله ورفعوها إلى وزارة الخارجية الفرنسية ، بواسطة قنصلها العام جورج بيكو . وكانت اجتماعات هذه الجمعية تجري في صيدلية الشيخ يوسف الجميل في بيروت ، وقاعة كنيسة مارمارون ، حيث أسست الجمعية^(٧٤) . وأنشأ اللبنانيون أيضاً جمعيات كثيرة في مهاجرهم كأمریکا الجنوبية والشمالية وأوروبا ، كالتنضة اللبنانية في نيويورك والبرازيل ، والاتحاد اللبناني في كندا ، والجمعية اللبنانية في باريس ، والحزب الوطني وجمعية الدفاع عن حقوق لبنان الكبير وجمعية الترقى اللبنانية في بيروت وغيرها^(٧٥) . ونستخلص كمثل على هذه الجمعيات في المهجر ، بعض الأسطر من مذكرة أرسلتها جمعية التنضة اللبنانية في (سان باولو — البرازيل) سنة ١٩١٤ إلى إدوارد غراي وزير الخارجية البريطانية ، تطالب باستقلال لبنان ، وتقول :

« كان اللبنانيون مستعدين دائماً للدفاع عن استقلالهم وحريتهم ، بكل الوسائل الممكنة منذ اليوم الأول الذي غزا فيه الأتراك جبل لبنان .. شعب لا يقبل أن يخضع لقوة متعطشة للظلم والقسوة والذبح ، لأننا لا نعتقد بالدين نفسه ولا بالمبادئ نفسها

(٧٣) بشارة الخوري (مذكرات) — حقائق لبنانية — بيروت ١٩٦٠ . ج ١ ، ص ٨٢ .

D. F. G. Carton 7N-1640, Note No 204

تم تأسيس حزب الاتحاد اللبناني بحضور ٢٠٠ لبناني على مسرح في شارع عبد العزيز في القاهرة .

D. F. Aff Etr, Dossier général 112, vol IX 1909 (Turquie) P. 244

(٧٤) بشارة الخوري ، مذكرات (حقائق لبنانية) ، ص ٨٢ .

(٧٥) يوسف السودا ، استقلال لبنان ، ص ٧ .

التي للترك ... استقلال كنا دائماً نتمتع به ، ومستعدون للحفاظ عليه . عاش لبنان» (٧٦) .

وهكذا كان السوريون واللبنانيون ، كما وصفهم بشارة الخوري في مذكراته «مختلفين في الآراء ، فمنهم من ينادي بالوحدة العربية ، ومنهم من يرغب باستثناء سورية ولبنان منها ، ومنهم من يجهر بإلحاقهم بفرنسا دون قيد ولا شرط كواحدة من مقاطعاتها ، ومنهم المعتدلون الذين يدعون للتحرر من الترك أولاً ومن ثم استقلال سورية ولبنان وفقاً للتطورات الدولية» (٧٧) . لكنه لم يبين أي الاتجاهات كانت تبنها غالبية الشعب .

يتبين لنا في عرض الاتجاهات السياسية والفكرية في هذا الفصل ، أن هذه الاتجاهات كانت جمعياً تسير نحو نقطة واحدة وهي الانفصال والاستقلال عن الدولة العثمانية ، سواء أكانت هذه التيارات إسلامية عربية أو مسيحية عربية أو سورية لبنانية . ولم يكن تطور هذه الاتجاهات من الرضى والقبول ، بالبقاء في الدولة العثمانية ، إلى تأسيس كيان مستقل فيها ، ثم إلى استقلال لدولة عربية واحدة ، ومن ثم إلى استقلال سورية ثم لبنان ، لم يكن هذا التطور إلا تعبيراً عن مراحل واقعية وسياسية كانت تمر بها سورية ، وهي موضوع الفصل التالي ، الذي سوف ندرس فيه الواقع والأحداث التي كانت تساعد وترافق تطور هذه الاتجاهات السياسية نحو الانفصال والاستقلال عن الدولة العثمانية ، وقد فصلنا دراسة الاتجاهات الفكرية والسياسية في فصل ، والحوادث في فصل آخر وهو التالي ، اعتقاداً منا أن ذلك يسهل البحث ويوضح الحقيقة ، وإن كان في الفصل التالي بعض الإشارات الصغيرة إلى هذه الاتجاهات السياسية ، التي لا بد منها . ونحن نعتقد أن دراسة الاتجاهات السياسية ، وأحداث العلاقات العربية والتركية في فصل واحد وزمن واحد ، سيعقد الدراسة ويشابك البحث . وأخيراً هنالك حقيقة يجب ذكرها في هذا الفصل ، وهي أن الذين قادوها جمعياً كانوا عرباً من سورية ،

(٧٦) F. O. 371/2174 XC/A004801

وانظر الملحق وفيه صورة للمذكرة وعليها ختم مكتوب بالعربية والأجنبية .

(٧٧) بشارة الخوري ، ص ٨٥ .

باستثناء عزيز المصري وبعض العراقيين ، ولهذا لم نر ضرورة إلى التنويه ، أن الاتجاهات السياسية الإسلامية أو العربية ، كانت إضافة إلى السورية واللبنانية ، من صنع السوريين ومن تاريخ سورية نفسها .

الفصل الثاني

**العلاقات العربية التركية
بين الاتحاديين وأنصار عبد الحميد
(الارتجاعيين)
من ١٩٠٨ - حتى ١٩٠٩**

عبد الحميد يقرب العرب

كان المجتمع في سورية يعيش حياة طبيعية، بعيدة عن الفتن بين طوائفه الكثيرة. وكان يغلب على مجموع السكان، طابع الجهل، والأمية، والتأخر، في كل ميادين الثقافة والعلم، وكانت المعارف والثقافة في تأخر شديد، وكان النادر من يعرف القراءة والكتابة، فالمدارس قليلة وأساليب التعليم متخلفة، عدا ما أنشأته البعثات التبشيرية المسيحية. ويستثنى من هذا التخلف الثقافي، العلوم الدينية والعربية، فقد كانت موجودة بدرجاتها العليا، حيث كانت تعتمد على الإمكانيات الشخصية لعلماء الدين واللغة. وبرغم التأخر في الزراعة والصناعة، فقد كانت الحياة المعاشية سهلة بسيطة، يستطيع الفقير فيها أن يعيش عيشة قانعة، فالمواد الغذائية كثيرة بالنسبة لعدد السكان القليل، والتآلف الاجتماعي بين الناس، وموازرة الأغنياء للفقراء موجودة، والإكتفاء بالقليل وبما «يرزقهم الله»، كان يضيف طابع الحياة المقبولة للجميع، لا سيما أنه كان يمكن شراء الكثير بقطعة نقود صغيرة^(١). هذا ما يتفق عليه الأكثرية ممن عاشوا وكتبوا عن هذه الفترة، من تاريخ سورية في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، خلال حكم السلطان العثماني عبد الحميد. وهذا ما كان يلائم السياسة الإسلامية التي

(١) العلاف، ص ٤٩ ومجلة الزهراء، مجلد ٢، ج ١، محرم ١٣٤٤، ص ٤٦. ومذكرات أحمد قدري، ص ٥
البيت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ٣١٤، مذكرات سعيد الجزائري ص ٢٨ ...

اتبعها السلطان المذكور، أو سياسته العربية، ولذا فإن رجال الحركات القومية والوطنية العربية في سورية، كانوا بثقافتهم ووعيمهم يشكلون طبقة خاصة بهم، تبتعد كثيراً عن أوساط الشعب. وهذا يفسر أحد الأسباب التي تجعل بداية المقاومة السرية العربية وخاصة الإسلامية، تحدث بعد نهاية حكم عبد الحميد سنة ١٩٠٩، لأنه لم يكن من سبب جوهري يجعل العرب المسلمين يقفون به ضد الترك، فعامّة الناس جاهلة وقانعة بحكم خليفة المسلمين، الذي بنى سكة حديد الحجاز سنة ١٩٠٨، والذي جعل حرساً خاصاً له من العرب، وجعل من عزة باشا العابد الدمشقي وأبو الهدى الصيادي الحلبي أقرب مستشاريه وخلصائه، وكان تقربه من العرب لسبب سياسي أو غيره، سبباً في نقمة تركيا الفتاة عليه وعلى العرب أيضاً فيما بعد. وظل لاسم عبد الحميد حتى بعد خلع له وقع خاص طيب عند عامة الناس، وكان لسورية وقع خاص في نفس عبد الحميد الذي «كان يشعر بالحزن الشديد لو لم تكن سورية من أملاكه»^(٢). ولا شك أن المسلمين السنة، هم الذين شعروا بالأسف—إذا كان أحد فعل ذلك—على سقوط عبد الحميد، بينما أدخل سقوطه السرور على قلوب المسيحيين والطوائف الأخرى، لأن الدولة العثمانية كانت تحايي المسلمين السنة وتفضلهم على الآخرين. لكن هل كان لحكم السلطان عبد الحميد تأثير على علاقة الاتحاديين الأتراك مع العرب، بعد ثورتهم ضد السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨، هل كان من حسن حظهم أن خلفوا هذا السلطان، أم من سوء هذا الحظ، وهل كان من حسن حظ سمعة عبد الحميد عند العرب أن كان الذين خلفوه هم الاتحاديون؟ وهل كان السوريون راضين عن حكم هذا السلطان أم غاضبين عليه؟

لو عدنا إلى ما كتبه المفكرون والعاملون بالقضية الوطنية في مذكراتهم، لوجدنا الناقمين عليه يصفونه بالمستبد الظالم، ولذا فرحوا كثيراً بإعلان الدستور، وصفحات الكتب والجرائد مملوءة بما قاله الشعراء والأدباء عن فرحهم بالانقلاب على عبد الحميد

(٢) محمد جميل بيهم، الانتداب في العراق وسورية، صيدا، مطبعة العرفان، ١٩٣١ ص ٩٦. وأنور الرفاعي وشاكر مصطفى، العالم الحديث، دمشق، مكتبة هاشمي إخوان بعد ١٩٥٠، ص ٣٥٠.

وإعادة الحكم الدستوري، لكن ما من أحد من هؤلاء يذكر للتاريخ، كيف كان هذا الاستبداد والظلم، وكيف كان يمارسه السلطان عبد الحميد في سورية، ومن هم الذين وقع عليهم الظلم والاستبداد، ومن هم الذين قتلهم، حتى يستحق لقب السلطان الأحمر، أين حوادث التاريخ؟

كتب عبد الحميد الزهراوي (من حمص) «أصبح عضواً في مجلس الأعيان العثماني في عهد الاتحاديين، وأعدمه جمال باشا» في جريدته الحضارة سنة ١٩١١ عن عبد الحميد، ناقداً له وللمجتمع «درج الناس على القول أنهم من عبيد السلطان وعبيد الحكومة، بسبب استعباد عبد الحميد للناس»^(٣). وفي عدد آخر كتب «لا تزال الأخلاق التي تفشت أيام عبد الحميد سائدة، وأكثرها ظاهر تمام الظهور»^(٤). وفي عدد آخر «كنا نحصر جميع السيئات في ذلك الرجل المستبد (عبد الحميد)، وكنا نظن أنه إذا زال زالت معه، فهاهو قد زال، ولم تزل السيئات من توسيد الأمور إلى غير أهلها حتى صرنا نظن أن هذا المرض، أصبح في هذا الوطن المسكين مزمناً»^(٥). ويوضح سيئات التخلف وليس الاستبداد في عدد آخر فيقول «لم يحس الفلاحون بفرق بين العهد الماضي والحاضر، لأن طريقة الأعشار لا تزال على حالها، جامعة لأنواع الاعتساف، وشؤون الضبط والربط لم تتغير، وتغلب الأفندية لم يتحول ولم يجد شيء في مجاري الأنهار وهندستها...»^(٦). والحقيقة إن هذه المساوئ موجودة في الحكم العثماني وليس عبد الحميد المسؤول الوحيد عنها، فإن قانون الالتزام قد سنه محمد الفاتح في القرن الخامس عشر بعد فتح القسطنطينية، وهذه المفاصد هي صفات للحكم أكثر منها صفات للاستبداد، لأنه حتى في هذا العصر توجد دول بكامل هيئاتها مستبدة، لكن الحضارة فيها متقدمة.

(٣) الحضارة، عدد ٥٣، ١٢ أبريل ١٩١١ من كتاب «الآثر الفكري لعبد الحميد الزهراوي، جمع وتحقيق

جودت الركابي وجميل سلطان، دمشق ١٩٦٣، ص ٥.

(٤) نفس المصدر، نفس العدد.

(٥) نفس المصدر، عدد ٨١/٢ ٢٦ أكتوبر ١٩١١.

(٦) نفس المصدر عدد ٦٧/٢ ٢٠ يوليو ١٩١١.

ويذكر صلاح الدين القاسمي (دمشق) «وهو من مؤسسي جمعية النهضة العربية في دمشق، وكان أميناً لشرها (سكرتيرها)، في مذكراته يذكر استبداد عبد الحميد «كان إعلان الدستور العثماني نهاية الحكم الاستبدادي الفردي. لكنه كان مع الأسف بداية الحكم الاستبدادي الجماعي من متعصبة الترك التورانيين، عسكريين وسياسيين»^(٧). وقال في مكان آخر في خطبة له بإعلان الدستور «لتعلم الأمة أنا كنا ساكتين، فصرنا نرفع عقيرتنا وننشئ محافل الخطابة، ونلعب على مسارح التمثيل كل ما فيه فائدة للأمة... كما أننا ننشئ الجرائد والمجلات، سياسية كانت أو علمية، والمدارس على اختلاف طبقاتها، لتعلم الأمة أنها كانت عسيرة من قبل على حسب الأهواء ونزعات الأميال والنفوس...»^(٨). وبرغم أن القاسمي يصف عبد الحميد بالاستبداد الذي كان يعني بالنسبة له، قلة المدارس والمسارح والعلم، نجد أحد أفراد أسرته الذي ذكرناه في حلقة الشيخ طاهر الجزائري، وهو جمال الدين القاسمي، قد ترك وشأنه دون مضايقة خلال الحكم «المطلق» أي حكم عبد الحميد، لكن الاتحاديين استدعوه بعد إعلان الدستور بسنة وشهرين، ليسأله عن جمعية النهضة العربية وغاياتها واتصاله بعزة باشا العابد، وكل ما فعله الحميديون به أنهم فتشوا كتبه في المسجد، وصادروها لمدة سبعين يوماً، ثم أعادوها له «وكانوا يشكون في أنه يعمل للنهضة ورفع الظلم عن العرب»^(٩)!

ونجد الانتقاد لحكم عبد الحميد عند المسيحيين أكثر، بسبب سياسته الإسلامية وتعصبه للسنّة، ولهذا فقد شعروا بالسعادة لإعلان الدستور الذي يساوي بين جميع المواطنين، دون تفریق في العرق أو الدين. ويذكر يوسف الحكيم في مذكراته (وكان قاضياً) «أن حرية الصحافة كانت مقيدة في عهد عبد الحميد، بقيود المراقبة والاضطهاد والسجن الإداري والنفي والتعذيب، ولهذا انتشرت الصحف في أمريكا

(٧) صلاح الدين القاسمي، ص ٨٤.

(٨) نفس المصدر، ص ٣٩.

(٩) ظافر القاسمي، جمال الدين القاسمي وعصره، ٢٠٠-٢٠٢.

وفرنسا خارج الدولة العثمانية، وفي مصر أيضاً. وبعد إعلان الدستور أصبحت حرية إبداء الرأي مصونة ضمن النظام، كما ظهرت الأحزاب ضمن هذه الحرية، وأولها حزب الاتحاد والترقي ثم حزب الائتلاف^(١٠). كما يذكر الأب فرديناند توتل اليسوعي في كتابه «وثائق تاريخية عن حلب»، فرح المسيحيين بإعلان الدستور فيقول «وكان المسيحيون يهثون بعضهم بعضاً، كأنهم نجوا من الموت وأخذوا يعيشون عمراً جديداً»^(١١)، وأنه حين وصلت برقية خلع السلطان عبد الحميد إلى حلب «دوت المدافع والطلقات النارية وزغاريد النساء ونباح الكلاب في الأزقة، وتظاهر الأرمن الصليبية بإطلاق الرصاص»^(١٢). وأن «الطائفة المارونية احتفلت بالافراج عن سجناء الأرمن وعددهم ٢٣ رجلاً وامرأة واحدة، وعند خروجهم من الحبس، حياهم الضباط الاتحاديون»^(١٣)، و«واحتفل بالعيد الوطني، وحملت العراضة المسيحية صورة نيازي وأنور وشوكت في عربات مزينة زينة جميلة»^(١٤)، ويصف بشاره الخوري إعلان الدستور بأنه أثار الأفراح والاحتفالات، «وتعانق الشيخ والكاهن» أمام الجماهير في ساحة البرج^(١٥)، وأرجعت مجلة المباحث (بيروت)، خمول السورين خلال حكم عبد الحميد إلى ضغط الاستبداد، «لكن بعد أن عم الدستور أصبح الناس تجاه القانون سواء»^(١٦). ويذكر جورج سمنه (أحد الأعضاء البارزين للجمعية السورية المركزية في باريس)، أن بيروت عيّدت لأول مرة سنة ١٩٠٨^(١٧) ويرجع ناصيف أبي زيد (محام معاصر لفترة عبد الحميد والاتحاديين)، استبداد عبد الحميد وطفغيانه

- (١٠) يوسف الحكيم، المذكرات، بيروت ولبنان في عهد العثمانيين، بيروت ١٩٦٤، ص ٣٥.
 (١١) الأب فرديناند توتل المسيحي، وثائق تاريخية عن حلب، أخبار اللاتين والروم وما إليهم ١٨٥٥-١٩٦٣، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ص ٩٨ (١٤ ماي ١٩٠٨).
 (١٢) نفس المصدر، نفس الصفحة.
 (١٣) نفس المصدر، ص ٩٦، (٩ أوت).
 (١٤) نفس المصدر، ص ٩٩.
 (١٥) بشارة الخوري، ص ٥٤.
 (١٦) مجلة المباحث، بيروت (نصف شهرية) عدد ٢٦، أوت ١٩٠٩، ص ٨٤٠.
 (١٧) عبد الله حنا، الحركة العمالية في سورية ولبنان ١٩٠٠-١٩٤٥، دمشق دار دمشق، ١٩٧٣، ص ٤٢.

وسفحه للدماء وقتله الأبرياء، إلى « مذابح الأرمن »^(١٨) ولم يذكر شيئاً عن استبداده في سورية، ويُرجع المؤلفون المسيحيون، أن استبداد عبد الحميد، كان السبب في هروب وهجرة أعداد كبيرة من السكان، وأن معظم المهاجرين من سورية ولبنان إلى مصر كانوا من المسيحيين الذين كانوا يرون في حكم الترك استبداداً وجوراً وتنافراً عنصرياً، كما كانوا يرون في الخارج عالماً مسيحياً ذا جاذبية شديدة للمسيحيين، دون المسلمين العرب^(١٩). وقد شكل المسيحيون السوريون في مصر مجتمعاً قائماً بذاته، وكانوا يتعاملون مع السلطات البريطانية، وقد استفادوا مادياً، ومدحهم اللورد كرومر، وبلغت ثروتهم (حسب رواية كرد علي) في مصر قبل ١٩٠٨، خمسين مليون جنيه أي عشر ثروة مصر^(٢٠). وشعر المصريون بمنافسة هؤلاء السوريين، وكانت جريدة اللواء المصرية تهتهم بالخيانة، وكانت جريدة المقطم (وأصحابها سوريون) تدافع عن السوريين^(٢١).

وكان رأي الطوائف الدينية الأخرى معادياً لاستبداد السلطان عبد الحميد، لأن الدولة كانت لا تساويهم مع المسلمين السنة، وكانت تنظر إليهم على أنهم أصحاب مذهب خامس (وفي الإسلام أربعة مذاهب) وهم الدروز والاسماعيليون والعلويون. وكانت علاقة الدروز متوترة مع الدولة في أغلب الأحيان، لأنه (كما جاء في مذكرات سلطان الأطرش قائد الثورة السورية عام ١٩٢٥) « الحكومة العثمانية كانت تحسب لتحركات الدروز ألف حساب، حتى لا تثير الحماسة في نفوس العرب في الأقطار المجاورة ... ولهذا كانت تثير الأحقاد الدينية في منطقة الجبل، وتستصدر فتاوى من الشيوخ المأجورين باتهام الدروز بالكفر والزندقة والتمرد على الخلافة، مما يوجب قتلهم

(١٨) ناصيف أبي زيد، تاريخ العصر الأموي، دمشق، مطبعة المفيد ١٩١٩، ص ٥٤—٥٥.

(١٩) ادوار عطية، العرب، ترجمة محمد قنديل البقلي، القاهرة، ١٩٦١، ص ٦٧.

(٢٠) محمد كرد علي، المذكرات، ج ١، دمشق، مطبعة الترقى ١٩٤٨، ص ٤٧—٤٨.

(٢١) مجلة المنار، ج ٣، م ١١، ص ٢٣٠، مايو ١٩٠٨.

وتدمير الجبل، وكانوا يجردون الحملات لاختضاع الجبل لأنظمة الحكومة الفاسدة وقوانينهم الجائرة، في غفلة عن ضمائر العرب»^(٢٢). وقد جردت الدولة عام (١٣١٥هـ - ١٨٩٨م) حملة على الدروز، «ونفت بعض زعمائهم وسجنتهم، لكن السلطان عبد الحميد أعفى عنهم سنة (١٩٠٠م - ١٣١٨هـ) فابتاعوا من أموال الدولة التي نالوا إحسانها سلاحاً في طريقهم لمحاربتها»^(٢٣) ولم ينالوا مثل تلك المعاملة من الاتحاديين عند ثورتهم عام ١٩١٠. أما العلويون فكانوا يرفضون أن يدفعوا الضرائب المترتبة عليهم للدولة^(٢٤)، وكانت الدولة نفسها عاجزة عن سوق الحملات إلى جبالهم المنيعة لهذا الغرض، وكان عددهم حوالي ٣٠٠ ألف، ولم تكن الحكومة تعتبرهم من المسلمين، وكانوا ممنوعين من الوظائف وعرضة للامتهان من رجال الحكم والزعماء من أهل المدن، وكانوا محرومين من العلم والحرية والكرامة، وعندما عاملهم عبد الحميد بفضل نصيحة واليهم ضياء بك ١٨٨٥ - ١٨٩٢، معاملة حسنة وبنى لهم مدارس وجوامع، وأدخلوا في الوظائف، عادت الطمأنينة لهم، إلا أنه بعد وفاة ضياء بك عادت لهم المعاملة السيئة، وعاد إليهم القلق حتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٨^(٢٥).

ونجد الآراء عند المسلمين (السنة) مختلفة عما سبق، بالسلطان عبد الحميد، لأنه حالى العرب وتقرب إليهم وخصهم باهتمامه، وأغدق الأموال على أمرائهم وأشرفهم وزعمائهم وسرائهم، وكان دائماً في محاولات مستمرة لارضاء الأمة العربية، وطمأنه بالها وتطيب نفسها، مد السكك الحديدية، واستطاع بتبنيه الجامعة العربية الإسلامية من إنشاء وحدة إسلامية بين العرب والترك، كي يستطيع مقاومة الغرب النصراني، أو على الأقل استطاع منع أي انشقاق يحدث بين العرب والترك، وهذا ما يفسر فعلاً تأخر

(٢٢) مذكرات سلطان الأطرش (نشرت تباعاً في مجلة) بيروت المساء، عدد ٩٧، ٩ - ١٥ يناير ١٩٧٥.

(٢٣) عبد الله النجار، بنو معروف في جبل حوران، دمشق ١٩٥٤، ص ١٠٣.

(٢٤) عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٩٥.

(٢٥) يوسف الحكيم، المذكرات، سورية والعهد العثماني، بيروت، ١٩٦٦، ص ٧٠.

قيام العرب ضد الترك حتى سقوطه النهائي عام ١٩٠٩ ، وقد جهد كثيراً لحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الجلال والهبة والخطورة في العالم الإسلامي^(٢٦)، وقد أنفق على عمارة «الحرم القدسي» في القدس ثلاثين ألف ليرة عثمانية^(٢٧)، وأصبح لاسمه وقع خاص في نفوس عامة المسلمين. وكان الحديث عنه «يجري باحترام ورهبة، فهو السلطان عبد الحميد، الملقب بمخافان البرين، وملك البحرين، وحامي الحرمين الشريفين، خليفة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، باني الخط الحديدي، الذي سهل على الناس الحج وأراحهم من ركوب الخيل والجمال»^(٢٨). أما كون السلطان مستبدًا ظالمًا، فكثير من القادة والمفكرين العرب ينكرون ذلك، ولقد ذكر عبد الله بن الحسين (ملك الأردن) في مذكراته عن عبد الحميد أنه غير ظالم، فقال «لقد زعم الناس أن عبد الحميد كان ظالمًا، لقد كذب الناس. والله لم يكن بالظالم، ولكنه الحذر المتحوط، ولقد عرف بعد أن ذهب أنه لم يقتل أحداً ولم ينفذ حكم إعدام في محكوم أبداً، إلا مرة واحدة والبقية يتركون في السجن حتى يدركهم الموت» وكان ينفي الناس حذر الفتنة، ولو قيس بما وقع أيام الاتحاديين من صلب وتشريد وإدارات عرفية وصولات في الشام واليمن، لعلم أن ظلم عبد الحميد بالنسبة إلى أفعالهم كان عدلاً محضاً. ويقول عبد الله أنه — عبد الحميد — كان آخر سلاطين المسلمين علواً ورفعةً، وأشبه ما حصل للمسلمين بعد خلعه، مثلما حصل عندما وثب أهل الكوفة وأهل مصر على عثمان بن عفان، فإن كان عثمان هو الباب الذي كسر بين الفتنة والناس، فإن عبد الحميد كان الباب الثاني الذي كسر في

(٢٦) لوثروب ستودوارد، حاضر العالم الاسلامي، ترجمة عجاج نويض، حاشية شكيب أرسلان، القاهرة (١٣٤٣)، ج ١، ص ١٠٩ و ١٤٠. عن تقريب عبد الحميد للعرب أنظر مجلة الهلال، القاهرة، ج ١، م ١٧ تموز ١٩٠٩ ص ٥٩٣.

وانظر محمد طلح، تاريخ الأمة العربية وعصر الانبعاث، بيروت، دار الأندلس ١٩٦٣، ص ٢٤ و ٣٣-٣٤ و ٤٢.

(٢٧) عارف باشا العارف، تاريخ القدس، مصر، دار المعارف، ١٩٥٦ ص ١٢٠.

(٢٨) منير الرئيس (مذكرات)، الكتاب الذهبي، الثورة السورية الكبرى، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٤-٢٥.

العصر الأخير بين الفتنة والناس أيضاً...، وإذا كان عبد الحميد مخطئاً فلم يكن خطؤه إلا في اجتهاده، لأنه كان يعمل بحسن نية وإخلاص»^(٢٩).

وفي مقابلة الوداع بين الحسين بن علي (شريف مكة)، وبين السلطان عبد الحميد عندما عين الحسين شريفاً لمكة بعد ١٩٠٨، شكى عبد الحميد من خوفه على الملك من الفئة المتغلبة (الاتحاديين)، فدعاه الحسين كي يرحل إلى الحجاز، لأن البلاد العربية «هي الفئة التي إذا تخيرها السلطان كان له ما يريد، نظراً مآلذاته المملوكية من مقام بينها، فأجاب عبد الحميد بأن الوقت لم يحن بعد»^(٣٠) ويؤكد الذين عملوا في الحركة الوطنية العربية، أن العلاقة كانت طبيعية بين العرب والترك خلال حكم عبد الحميد، وأنها تفجرت بعد سقوطه خلال حكم الاتحاديين. ويذكر أحمد قدري (عضو مؤسس في جمعية العربية الفتاة ١٩٠٩) في مذكراته «أن العلاقات بين العرب والترك، كانت تسير في جو هادئ لا تعكرها نعة جنسية أو نزعة عنصرية، وتجلت هذه العلاقات واضحة وعلى صورة أقوى وأوثق من ذي قبل، إذ حرص هذا الخليفة (عبد الحميد) في سياسته على خطب ود العرب واستدنائهم منه وتعزيز صلاته بهم، فكان السيد المطاع والرئيس المرموق»^(٣١). ويؤكد عارف باشا العارف (رئيس بلدية القدس في تلك الفترة) الرأي نفسه فيقول «بقي العرب على حب للأتراك وتمسك بالفكرة الإسلامية حتى الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨، الذي ظهرت حقيقته بأنه تتريك للعرب، وإحياء النعة القومية الطورانية»^(٣٢). ويستثني شكيب أرسلان العرب المسلمين من الفئات التي عملت على خلع عبد الحميد، فيقول «اشترك الأتراك المبعدون والأرمن وبعض مسيحيي سورية في العمل في أوروبا، واتفقوا على خلع السلطان عبد الحميد»^(٣٣). ويذكر خالد العظم (رئيس وزراء في سورية) في مذكراته أن انقلاب

(٢٩) عبد الله بن الحسين، مذكراتي، القدس، ١٩٤٥، ص ٢٣-٢٥.

(٣٠) نفس المصدر، ص ٢٧-٢٨.

(٣١) أحمد قدري، مذكرات، ص ٥.

(٣٢) عارف باشا العارف، ص ١٢٧.

(٣٣) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، بيروت دار الطليعة، ١٩٦٩ ص ٥٩.

١٩٠٨ ضد السلطان عبد الحميد، كان بداية الهزات التي حالت دون استقرار الشرق الأدنى، فكان خلع السلطان سنة ١٩٠٩، واحتلال إيطاليا لليبيا سنة ١٩١١، وحرب البلقان سنة ١٩١٢، والحرب العالمية سنة ١٩١٤، وانفراط الدولة العثمانية ...»^(٣٤). وعندما يذكر مثل هؤلاء استبداد عبد الحميد فهو لا يتعدى مراقبة المشبوه سياسياً في سورية، واضطراره إلى إقامته في بيته، وكان الناس يمرون دون التفات نحو هذا البيت^(٣٥). ولا تذكر لنا الجرائد أو كتب المذكرات عن أي سياسي سوري اعتقله السلطان عبد الحميد، بسبب أفكاره السياسية وخاصة في الفترة السابقة لانقلاب ١٩٠٨، وحتى إن الحرية لم تكن مفقودة بالنسبة للكثير من العرب بمفهومها الدقيق، ولذا كانت الشعارات التي أطلقها الاتحاديون «حرية — عدالة — مساواة» غير مفهومة بالنسبة لعامة الناس، ليس لأنها صعبة الفهم، ولكن لأنهم لم يشعروا أنها لم تكن موجودة. ويذكر الضابط فوزي القاوقجي (ضابط من طرابلس الشام في الجيش العثماني واشترك في ثورات كثيرة ضد اليهود والفرنسيين في فلسطين وسورية فيما بعد) في مذكراته، أنه عندما دخل الضباط في استانبول إثر انقلاب عام ١٩٠٨، وينادون بدخول جيش الحرية، تساءل عن معنى الحرية وهل كانت مفقودة من قبل؟^(٣٦) وذكر محمد كرد علي علاقة السلطان عبد الحميد المتينة مع العرب، فقال في مذكراته «كان السلطان عبد الحميد يصطنع العرب وغيرهم من العناصر ليقوى بهم على الترك، وهؤلاء كانوا يغضونه وما زالوا به حتى خلعه»^(٣٧). وذكر كرد علي أيضاً، حسنات حكم السلطان عبد الحميد في كتابه خطط الشام فقال «في أيام عبد الحميد خفت وطأة الأتقياء، واستراحت الشام قليلاً وأخذت تدخل في نظام الأمم الأوروبية، وأبطل

(٣٤) مذكرات خالد العظم، بيروت، ط ٢، ١٩٧٢، ص ٥.

(٣٥) البارودي، مذكرات، ج ١ ص ٥٥.

غضب السلطان عبد الحميد على أحمد باشا الشفعة الذي كان من أخص المقربين إليه، ووضع على داره شرطاً لتسجيل الزوار، فكان الناس كلما مروا أمام بيته ابتعدوا عن الباب، وثبتوا نظرم على الطريق دون التفات إلى جهة البيت. نفس المصدر ص ٥.

(٣٦) مذكرات فوزي القاوقجي، اعداد خيرية قاسمية، بيروت ١٩٧٥، ص ١١.

(٣٧) مذكرات كرد علي، ج ١، ص ٢٤٩.

عبد الحميد الحكم بالقتل، فكان القاتل يخلد في سجنه»^(٣٨) وأخذ عليه «مراقبة الصحف التي لم تكن تتبع قانوناً معيناً، بل تعمل لإرضاء الوالي والتقرب له. وكان ذلك يعني عدم ذكر شيء يمس السلطان من قريب أو بعيد، أو يمس رجاله وعماله وجيشه وإدارته وسياسته، وألا يشير إلى مسألة تاريخية فيها ذكر الخلافة والحرية والشورى والدستور وقتل الملوك وخلعهم»^(٣٩). لكن حتى هذا يبدو مبالغاً فيه، لأن عبد الرحمن الكواكبي صاحب الفكرة القائلة بإعادة الخلافة إلى العرب ونزعها من الترك، سجن فترة قصيرة ثم خرج وغادر سورية إلى مصر، ليتابع نشاطه ضد عبد الحميد^(٤٠). وكان أقل من هذا العمل بكثير، يكفي لقطع رأس صاحبه، لو كان الحاكم هو جمال باشا وليس السلطان عبد الحميد. وجاء في كتاب «نهر الذهب في تاريخ حلب» ومؤلفه كامل الغزي معاصر لحكم عبد الحميد، أن الطبقة الدنيا والوسطى من الرعية، كانت تحب عبد الحميد وتخافه، فكان لا يهظهم بالضرائب، وكان الرخاء في أيامه شاملاً والرعية راتعة في محبوبية التنعم والرفاهية، وكان مهتماً بشؤون الدين كخدمة شعائره وإعمار المعابد، فقد عمر في أيامه ما يعسر على القلم احصاؤه من المساجد والجوامع والمدارس الدينية والزوايا والتكايا وأضرحة الأولياء والصالحين، وكانت سكة حديد الحجاز، أقوى أثراً في قلوب المسلمين عامة وقلوب رعيته خاصة، وكان لا يقصر بإنقاذ المستغيثين به من مخالب الظالم ما لم يكن الظالم من مردته وأتباعه، وكان كل إنسان يحق له أن يطلق لسانه بالظلمة والمستبدين من مستخدمي الحكومة أو متنفذي الرعية، إلا أنه لم يكن يسمح لأي إنسان أن يمس شخصياً، أو ينقده فقد كان ينفيه، لكن يعين له راتباً يفي بتمام كفايته حسب مقامه^(٤١).

(٣٨) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٣، دمشق ١٩٤٩، ص ١٢٦.

(٣٩) كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ٥١.

(٤٠) جرجي زيدان، بناء النهضة العربية مصر، (بلا تاريخ)، ص ٩٨.

(٤١) كامل الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ١٩٢٦، ص ٤٩٠. وجاء في هذا الكتاب وصف عن عبد الحميد، وهو «كان السلطان عبد الحميد من أجل ملوك زمانه وأعظمهم دهاءً وأعلامهم كعباً في فنون السياسة، ولأنه كان حصناً حصيناً لدولة بني عثمان مدة سلطنته، فلما خلع أخذت صنوف البلاد

الاتحاد والترقي والماسونية

كل هذا الذي ذكرناه — وهو ليس دفاعاً عن السلطان عبد الحميد — يوضح سبباً هاماً من أسباب سوء العلاقات بين العرب والاتحاديين، إذ جعل مهمة هؤلاء عسيرة، وخاصة بعد أن سلكوا سياسة معادية للعرب، على عكس ما فعل عبد الحميد. ومن الأسباب التي جعلت سمعة الاتحاديين سيئة أو غير نظيفة، هي علاقتهم بالماسونية التي كانت تعنى عند عامة الناس، أنها ملحدة وضد الدين. وكان الكتاب أمثال رشيد رضا، ولويس شيخو، يكتبون عن غاية الماسونية وعلاقتها بالحركة الصهيونية التي تريد استعمار فلسطين، وكان من المعروف أن السلطان عبد الحميد كان ضد هذه الحركة التي ظلت تعمل بالخفاء، وعندما قامت الثورة عام ١٩٠٨، نسبت الحركة الماسونية في سالونيك لنفسها تخطيط وقيادة هذه الحركة^(٤٢). وفي رسالة لـ Sir G.Louther سفير بريطانيا في استانبول، إلى وزارة الخارجية البريطانية،

→ تنصب على هذه الدولة يوماً بعد يوم، حتى تدهورت إلى الدرك الأسفل وكادت تمحي سطورها من صحائف الوجود». ص ٤٩٢.

ذكر خالد العظم في مذكراته طرفة، أن أحد البدو واسمه سلطان، رفض أن يفصح عن اسمه عندما كان يتقاضى من أمير الحج حصته، خوفاً من السلطان عبد الحميد، ص ١٢.

(٤٢) الأب لويس شيخو، السر المصون في شيعة الفرمايون، بيروت ١٩١٠، ص ٣٢—٣٤. كتب رشيد رضا في مجلة المنار «أن الزعماء، طلعت، وروحي بك، وجاويد بك، وخليل بك ومن يليهم من النفر كجهايد بك، واسماعيل حقي، من شيعة الماسون، وهم مجتهدون في نشرها بين رجال الحكومة وضباط الجيش، وقد يكون هذا تمهيداً لفصل السياسة عن الدولة وتخريد السلطان من صفة الخلافة الإسلامية، وقوة نفوذ اليهود فيهم وفي الدولة، وذلك يفضي إلى فوز الجمعية الصهيونية باستعمار فلسطين التي يراد بها إعادة ملك اسرائيل... وإضعاف اللغة العربية في الدولة وامانتها...».

المنار ١٩١١، عدد ربيع الآخر

وكتبت مجلة المقتطف عن ذلك «الماسونية هي التي بثت في نفوس أعضاء جمعية الاتحاد والترقي روح الحرية، وبها اقتدوا في إنشاء جمعيتهم التي فككت قيود الاستبداد، وأنشئ في القاهرة محفل جديد باسم نيازي، بطل الحرية العثماني، حضر احتفاله القائم مقام برتوك، قائد أورطة صنعاء، الذي شكر الحكومة الانكليزية، لأنها ساعدت في الانقلاب العثماني وقال، بأن الماسونية كانت المحرك الأول والمرشد الأكبر للجنة الاتحاد والترقي».

المقتطف القاهرة ٣٦م، ج ٢، فبراير / شباط / ١٩١٠، ص ١٥٩.

يشرح فيها علاقة الماسونيين واليهود في الحكومة الاتحادية فيقول «بعد أن أزيح عبد الحميد الخصم الدائم للصهيونية، بدأ اليهود يلعبون دوراً في العاصمة، وأصبح لهم تأثير في الصحافة والأعمال والبنوك ووظائف الدولة، وهكذا أخذت الدولة تعرف بدولة اليهود... وقد تشاجر دافيد (وزير المالية) مع البنك العثماني من أجل قرض لمجموعة معظمها من اليهود، وإن يهود سالونيك وعددهم كبير ١٠٠ ألف من ١٤٠ قبل سقوط عبد الحميد، هم المسؤولون عن بناء المحفل الماسوني، وهم الذين أغروا جمعية الاتحاد والترقي بالاتصال بالمحافل، وهكذا أخذ التأثير اليهودي على الاتحاد والترقي، وأخذت لجنة الاتحاد والترقي تستفيد من حماية الماسونية العالمية، واليهود يعملون للحصول على حكم ذاتي لهم في فلسطين... واتهم جاويد بالصهيونية وأنه على علاقة بقيادة الحركة.... وأن لجنة الاتحاد والترقي قد تبنت خطأ آخر سوف يثير المعارضة داخل الإمبراطورية....» (٤٣).

وكان أعضاء من لجنة الاتحاد والترقي متهمين بأنهم من أصل يهودي (يهود الدونما الذين هاجروا من إسبانيا قبل أكثر من أربعمئة سنة، وتظاهروا بالإسلام، وظلوا يهوداً). وكان جاويد من سلالة يهودية^(٤٤)، وكان لهذا أثر كبير في نفوس العرب، لأن الحركة الصهيونية كانت سابقة لحركة الاتحاد والترقي، ومعروفة لدى الأوساط العربية.. وكان النواب العرب يهاجمون الاتحاديين على أنهم يحاولون بيع فلسطين لليهود، في الوقت الذي كان العرب جميعاً يعرفون أن السلطان عبد الحميد رفض عرضاً مالياً ضخماً من المنظمة الصهيونية للسماح لليهود بشراء أرض في فلسطين^(٤٥)، مما كان يجعل سمعة عبد الحميد نقية من هذه الناحية، بينما كانت بداية سيئة للاتحاديين مع العرب. وتؤكد رسالة من السلطان عبد الحميد كتبها بخطه سنة (١٩١١)، وأرسلها إلى أحد

(٤٣) F. O. 371 /1249/ No 9858 (1908 Aout à 20 Dec 1910) P. 16

(٤٤) لوتروب، ج ١، ص ١٥٠، ولويس شيخو، ص ٤٤.

(٤٥) عن يوميات هرتزل، م ٣، ص ١٠٧٣ و م ٤، ص ١٣٤٠. وانظر أحمد طرين، فلسطين

١٨٩٧ — ١٩٤٨، دمشق ١٩٦٨، ص ٧٩.

أصدقائه (في الطريقة الشاذلية) في دمشق، ذكر فيها أن سبب خلعه، كان لرفضه طلبات اليهود الملحة، للسماح لليهود بالهجرة لفلسطين^(٤٦).

كانت هذه أسباباً حقيقية وموجودة، ورغم الأفراح والمظاهرات والاحتفالات التي قامت، إعلاناً عن الابتهاج بالدستور، وعودة الحياة الحرة والديمقراطية، والخلاص من الاستبداد. وتطوع المثقفون والعاملون في القضية الوطنية كرجال حلقة الشيخ طاهر الجزائري، وجمعية النهضة العربية بالانتقال بين الأحياء، يخطبون الناس ويشرحون لهم أهداف الدستور والإنقلاب، وتبنى الجيش هذه الاحتفالات، فكانت المدفعية تطلق من الثكنات، وكان رجال الحكومة يحضون الناس على التظاهر فرحاً بالدستور، وأنشدت القصائد، وكتب الكتاب حتى أصبح ذلك اليوم تاريخاً في تلك المناطق^(٤٧). وبرغم كل الكتابات التي حاولت أن تعطي هذا الحدث، بريقاً خاصاً ووجوداً كبيراً مدعوماً من قبل السلطة، فإن التقارير تبين عن عدم رضا مجموعات كبيرة من المسلمين عن هذا الانقلاب. فبعد أقل من شهر على ثورة ١٩٠٨ التي حدثت في (٢٣ يوليو / تموز / ١٩٠٨)، أرسل قنصل فرنسا في طرابلس تقريراً يتحدث عن عدم رضا شيوخ المسلمين بزعمارة رشيد بك عن الانقلاب الدستوري^(٤٨)، كما أرسل قنصل فرنسا في اللاذقية في ١٢ أوت / آب / تقريراً عن احتفال الناس بانقلاب ١٩٠٨، وكيف قام ضباط الجيش من الأتراك، وذهبوا إلى المتصرف، وأجبروه على

(٤٦) نشرها سعيد الأفغاني في مجلة العربي، الكويت، عدد ١٦٩، ديسمبر ١٩٧٢، ص ١٥٠ بنصها التركي (مصورة) وترجمها إلى العربية، انظر صورتها في الملحق.

(٤٧) قال الشاعر نقولا رزق الله:

اليوم نمرح أحراراً بفضلكم نغدو ونمسي ولا هم ولا نصبُ
فلا جواسيس نخشى من وشائهم ولا جرائد تأتينا فترسبُ
كال اليازجي، الشيخ ابراهيم الخوراني في فجر النهضة الحديثة (١٨٤٤-١٩١٦)، القاهرة، ١٩٦٠-١٩٦١، ص ٧٨.

(٤٨) D. F. Aff. Etr, dossier général-Politique intérieure, Turquie (Syrie-Liban) vol. VIII 1908

(111) PP. 105-106

حضور الاحتفالات، كما طردوا كبار الموظفين وحلوا هم محلهم^(٤٩). وجاء في تقرير قنصل فرنسا في بيروت في ٢ أوت / آب /، أن مجموعة كبيرة من المسلمين غير راضية عن الانقلاب العثماني^(٥٠)، كما جاء في تقرير قنصل فرنسا في يافا، عن رفض القائم مقام للانقلاب، وإجبار جمعية الاتحاد والترقي الضباط الرافضين على الاستقالة، وإلا أوقفهم وساقطهم إلى سالونيك^(٥١). وتؤكد هذه التقارير ما جاء في مذكرات بعض السوريين عن ذلك؛ فقد ذكر يوسف الحكيم، أن «الضباط في اللاذقية انتقدوا أهلها لجمودهم وعدم احتفالهم بإعلان الدستور»^(٥٢) وذكر الأب فرديناند توتل اليسوعي، أنه في حلب في (١ أوت / آب / ١٩٠٨) اضطربت حلب لأخبار الدستور، وتهلل «فتيان الترك»، وانتشر الخوف من الفوضى في البلد لأن الحكومة ألغيت كما ألغيت في استانبول، وطرد الحلبيون رئيس الجندرية إلى ضيعته^(٥٣). وذكر فخري البارودي «أن خير الانقلاب وصل ليلاً إلى دمشق، ونادى المنادون به في صباح اليوم التالي في الأسواق دون أن يفهم أكثر الناس معناه ومرماه، وقد أسقط في أيدي رجال الحكومة المحلية، وحاروا في تحديد موقفهم من رجال المعارضة السابقين»^(٥٤).

أعيد العمل بالدستور، وعقد المجلس النيابي جلسته الأولى في ١٧ ديسمبر / كانون الأول / ١٩٠٨ بحضور السلطان عبد الحميد وكان عدد النواب ٢٦٠ منهم، ١١٩ تركياً، و ٧٢ عربياً، وكان مجموع المسلمين ٢١٤ والمسيحيين ٤٢، واليهود ٤. وكان لحزب اللامركزية ٣٥ عضواً، معظمهم من غير الأتراك. وانتخب أحمد رضا

(٤٩) Ibid, P. 112

(٥٠) Ibid, PP. 125-126

(٥١) Ibid, P. 128

(٥٢) يوسف الحكيم، مذكرات، سورية والعهد العثماني، ص ١٦٠.

(٥٣) الأب فرديناند توتل اليسوعي، وثائق تاريخية عن حلب، ص ٩٦.

(٥٤) مذكرات البارودي، ج ١، ص ٦٢.

رئيساً للمجلس ، وكان له ثلاثة نواب ، يوناني ، وألباني ، وعربي هو روجي عبد الهادي ، وكانت شعارات الاتحاد والترقي الحرية والعدل والمساواة^(٥٥) .

وأخذت لجان الاتحاد والترقي تتشكل في سورية وخاصة في المدن الكبيرة ، وأخذت بشكل طبيعي تستولي على مناصب ووظائف الدولة ، وتطرد وتسرح كل من لا يؤيدها ، سواء أكان ضابطاً أو متصرفاً أو موظفاً ، وكانت تتهم هؤلاء بالرجعية ، وبأنهم من أعوان السلطان عبد الحميد . ففي دمشق ترأس مدير المعارف حسين عوني — وهو تركي — جمعية الاتحاد والترقي ، وكان الأعضاء خليطاً من العسكريين والمدنيين ، ودخل في هذه الجمعية من دمشق الوجهاء ومعارضو السلطان عبد الحميد ، والمثقفون الذين ساروا مع الاتحاديين ، وأخذوا ينادون بشعاراتهم ويعلمون الناس معنى شعارات هذه الجمعية^(٥٦) . وفي اللاذقية أعلنت جمعية الاتحاد والترقي وجوب فتح فروع لها في المتصرفية ، وطردت المتصرف لأنه من أنصار العهد القديم ، لأنه كما قال يوسف الحكيم « كان نزيهاً وعالي الأخلاق ، وكانت حجتهم أن سمعته الحسنة أخطر عليهم إذا بقي ، كما طردوا كثيراً من الموظفين ورؤساء الدوائر ، وكذلك كبير قادة الجيش ، والميرالاي

(٥٥) نواب سورية في مجلس المبعوثين ١٩٠٨ :

ولاية بيروت : فؤاد خلوصي من جمعية الاتحاد والترقي ، الشيخ أحمد الخماش (لواء نابلس) ، أسعد شقير (عكا) ، محمد أرسلان (اللاذقية) ، سليمان البستاني ، رضا الصلح عن بيروت وأقضيتها . وكان سليمان البستاني المسيحي الوحيد من نواب سورية .

ولاية سورية : عبد الرحمن اليوسف (دمشق) ، شفيق المؤيد العظم ، رشدي الشمعة ، محمد العجلاني ، ثم انتخب شكري العسلي في انتخابات مكاملة .

القدس : روجي الحالدي المقدسي ، سعيد الحسيني ، حافظ السعيد .

حماه : خالد البرازي ، والشيخ عبد الحميد الزهراوي .

حلب : مسعود بك زاده الكواكبي ، نافع باشا الجابري ، مصطفى عيتابلي ، مرعي زاده ملاح . مجلة الهلال ، القاهرة ، ج ٥ ، م ١٧ (١٩٠٨ — ١٩٠٩) ص ٣١٢ . وللإطلاع على نص القانون الأساسي انظر نفس المصدر ، ج ٢ ، م ١٧ ، ص ٨٩ — ١٠٢ . وانظر عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ١٥٤٦ — ١٩١٦ ، دمشق ١٩٧٤ ص ٥٣٥ .

(٥٦) مذكرات البارودي ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(جنرال) شريف بك / ٦٥ عاماً / ، قد نحي من قبل مرؤوسيه^(٥٧) . وفي بيروت تأسس ناد للاتحاد والترقي . وازدهر فجأة وأخذ يرتاده من هم أبعد الناس عن أفكار الحرية . وسرت العدوى إلى متصرفيه جبل لبنان ، وأخذ الضباط الاتحاديون يترددون على أعضاء مجلس إدارة لبنان ، وانقسم الناس إلى منضم لجمعية الاتحاد والترقي ورافض لها ، أو كما سماوا تقدميين ورجعيين . وقد أدى الانقلاب العثماني إلى فتح ثغرة للتشفي في لبنان ، من بعض الموظفين وإخراجهم من وظائفهم وتولية خصومهم ، وبذا ساد القلق^(٥٨) . وفي طرابلس تأسس فرع للاتحاد والترقي ، ودخله عدد كبير من المثقفين ومن الشباب خاصة ، ومن لم يكن اتحادياً فقد بقي في الظاهر مستقلاً ، لأنه لم يكن يوجد حزب آخر غير الاتحاد والترقي^(٥٩) . وجاء في مذكرات البارودي عن تأسيس فروع لجمعيات الاتحاد والترقي وتسليطها أنه «أسس الاتحاديون فروعاً لجمعية الاتحاد والترقي في جميع الولايات ، وعينوا لإدارتها الموظفين الأتراك ، وكانوا من الشبان الأغوار الذين كانوا يعجزون حتى عن إدارة أنفسهم ، وأصبح أصغر موظف اتحادي يعامل الوالي القديم معاملة الأمر للمأمور الصغير ، والتف حولهم الناس وجعلوا يدخلون في الجمعية أفواجا ، ولم يقبلوا إلا كل من يتوخون منه فائدة مادية أو معنوية ، خصوصاً الذين بيدهم قوة انتخابية . وكانت الغالبية من المثقفين هم ، المرتزقة من وجوه البلاد ورؤساء الأحياء الذين يعتاشون على أبواب الحكام ، حتى اضطر الزعماء الحقيقيون أن يداروا الاتحاديين خوفاً على مصالحهم . وصارت مراكز الجمعية في الآستانة والولايات مكاناً للمراجعة في جميع الأمور ، وضعفت قوة الحكومة ، واستغنى كثير من الموظفين القدماء حرصاً على كرامتهم . وأخذ الصدام يظهر بين الطلاب العرب والترک بعد المجادلات السياسية»^(٦٠) .

وإلى جانب فروع جمعية الاتحاد والترقي ، عادت المحافل الماسونية إلى الافتتاح من جديد ، وعادت تزاوّل نشاطها لتأييد جمعية الاتحاد والترقي . ففي دمشق عاد المحفل

(٥٧) مذكرات يوسف الحكيم ، سورية والعهد العثماني ، ص ١٦١ .

(٥٨) مذكرات بشارة الخوري ، حقائق لبنانية ، ص ٥٥ .

(٥٩) مذكرات يوسف الحكيم ، سورية والعهد العثماني ، ص ٢٣١ .

(٦٠) مذكرات البارودي ، ج ١ ، ص ٦٣ .

الماسوني وفتح أبوابه بعد الدستور، بعد أن كانت مغلقة قبله، وكان مرتبطاً بالمحفل الإيطالي، وأخذ تسمية جديدة هي نور دمشق، ووربط بالمحفل الاسكتلندي. وتعاقب على رئاسته بعض الرجال المعروفين، كفارس الخوري، ومصطفى السباعي، وعبد القادر الجزائري، وغالب شاؤول مدير البنك العثماني^(٦١). وفي طرابلس كان محفل العشيرة الماسونية يقوم بنشاط واسع، يصفه الحكيم بأنه لتحقيق الإخاء الوطني الإنساني، وكان بعض الوجهاء والعلماء أعضاء فيه^(٦٢). وفي لبنان تعاطفت المحافل الماسونية مع لجنة الاتحاد والترقي ومع الضباط الأتراك، وكان يوجد محفل السلام المتعلق ببريطانيا، ومحفلاً صنيين: في ضهور الشوير، و «لبنان» في بيروت. وكانا يأخذان اتجاهاً فرنسياً—إيطالياً، وهما سياسيان وضد الدين، وليس لهما ارتباط بالمحفل التابع لانكترا^(٦٣). وكانت هذه المحافل عرضة لانتقاد الفئات المتدينة. وقد هاجمها الجنرال صادق بك، وهو ضابط اتحادي وقال «أن بعض الأفراد جعلوا أنفسهم زعماء لجمعية الاتحاد والترقي، واحتكروا حماية الدستور، وجعلوا الجمعية عصبية لبعض الأمة على سائرهم ومزجوها بالماسونية...»^(٦٤). وعندما صدر قرار الحكومة بمنع الجمعيات السرية، أغلقت أيضاً المحافل الماسونية. وبذلك تخلصت الحكومة من الدعاية المضادة والإحراج الدائم أمام الشعب من هذه الناحية.

الحرية الجديدة

قد تكون أهم الميزات التي أحدثها انقلاب ١٩٠٨، على الجو العام السياسي في سورية، وغيرها من الولايات العثمانية، وخاصة في الفترة الزمنية القصيرة اللاحقة، هي إطلاق حريات الكلام والتعبير وخاصة في الصحف، تلك الحرية التي فسرها كثير من الباحثين، أن العرب استفادوا منها لظهور قوميتهم العربية، وإنشاء جمعياتهم العلنية

(٦١) نفس المصدر، ص ٦٣—٦٤.

(٦٢) مذكرات يوسف الحكيم، وسورية والعهد العثماني، ص ٢٣٠.

(٦٣) رسالة من السفارة البريطانية في استانبول إلى وزارة الخارجية البريطانية.

F. O. 371/561 (1908) No 747, 8 Nov P. 47

(٦٤) مجلة المنار، عدد ربيع الآخر ١٩١١، ص ٣٧٧.

والسرية، كما استفادوا من الصحف للتعبير عن مشاعرهم القومية التي ما كانت هي ولا الصحف لتظهر أيام السلطان عبد الحميد. وإن نظرة على عدد الصحف ما قبل الدستور وما بعده، تظهر لنا أنها انطلقت سريعاً في سورية وقفزت من ٧ إلى ٢٩ في الأسابيع الأولى بعد إعلان الدستور. ثم بلغت أكثر من مائة. لكن لم يكن منها ما يستحق تسميته صحافة إلا أعداد قليلة. وأمام هذه الأعداد الكبيرة، اضطرت الدولة إلى إصدار قانون يقضي بسحب امتياز الصحف التي انقطعت عن النشر، أو لم تنشر أبداً^(٦٥). وكانت الدولة تساعد على طبع وتداول الصحف، وتحترم حريتها ولا تتدخل فيها، وإن كانت في محاولات دائمة لاستئالة الصحف المحترمة نحوها، كالقنصل لكردي علي في دمشق^(٦٦). وإذا كانت النزعات القومية كامنة — كما يقول شكيب أرسلان — فانطلقت بالحرية التي أتى بها الدستور، فلا شك أن هذا الدستور وهذه الحرية، قد فتحا باباً واسعاً على الدولة العثمانية، لم تستطع إغلاقه حتى بالعنف وحتى نهاية وجودها. ففي الأيام الأولى للدستور، وفي فرحته التي كانت كبيرة بشكل خاص في لبنان، ظهرت على الفور النزعات السياسية بمختلف اتجاهاتها، فكان منها اتجاه رغب بالالتحاق بالدولة العثمانية، «بدون قيد ولا شرط، بعد أن أعلنت — على زعمهم — مبادئ الحرية والمساواة والإخاء بين جميع العثمانيين» وحاول أصحاب هذا الاتجاه ترشيح أنفسهم لمجلس المبعوثين (البرلمان)، على الرغم من وجود نظام خاص للحكم جبل لبنان^(٦٧)، وكانوا بذلك يريدون التخلي عن امتيازات هذا الحكم الخاص، لكن موجة عارمة من احتجاجات اللبنانيين وقفت في وجه هذا الاتجاه، وأرسلوا عرائض الاحتجاج هذه إلى القنصلية البريطانية في بيروت، وبلغت ١٧٥ عريضة عليها ٢٥ ألف توقيع، تطالب بعدم التخلي عن امتياز جبل لبنان المحمي من الدول الأوروبية، وترفض التمثيل النيابي للبنان في مجلس المبعوثين، وكانت جمعية الاتحاد اللبناني تقوم على

(٦٥) أديب خضور، الصحافة في سورية، دمشق ١٩٧٣، ص ٩٣-٩٤.

(٦٦) مجلة لغة العرب، بغداد ج ١١، م ١، نيسان ١٩١٢ ص ٤٥٦.

D. F. Aff. Etr, vol X (1910) dossier general 113 P. 27 و

(٦٧) مذكرات بشارة الخوري، ص ٥٤.

رأس هذا النشاط، وكان لها لجنة مركزية مؤلفة من ٢٥ رجلاً، ولم تكن من أنصار الحكومة، ولا تبحث عن الوظائف لأنها تمثل الملاكين والتجار من مختلف الفئات، وكانت تريد دعم حاكم لبنان للمحافظة على حقوقه^(٦٨). وعندما أرادت الحكومة العثمانية أن تطبق الدستور والقانون على اللبنانيين من غير « المتصرفية ذات الحكم الخاص »، احتج أيضاً اللبنانيون القاطنون في ولاية بيروت وغيرها إلى السفارات الأجنبية، وطالبوا بوجوب استمرار اعتبارهم تابعين للمتصرفية، وإن كانوا يسكنون في ولاية بيروت، وكان ذلك بسبب خوف هؤلاء من أن تجندهم الدولة في الجيش^(٦٩). وقبل أن ينتهي عام ١٩٠٨، تحركت اللجنة المركزية السورية في باريس، وأعلنت عن رغبتها إلى الدولة العثمانية، بإنشاء برلمان خاص في سورية^(٧٠)، كما أرسل رشيد مطران كتاباً موجهاً إلى السلطان العثماني في ٢٥ ديسمبر / كانون الأول / ١٩٠٨، يطالب فيه أيضاً بحكم ذاتي لسورية ذات الماضي العريق حتى يكفل الوسائل اللازمة للنهوض بها، مع تنفيذ القوانين العثمانية، على أن تراعى القوانين والحقوق الخاصة من أجل سورية^(٧١).

وخلق الاتحاديون جواً ملائماً لهم في انتخابات ١٩٠٨ للبرلمان، وحاولوا التأثير عليها لإنجاح من يريدون وإسقاط من لا يريدونه، وتمكنوا من أن يحلفوا ١٦٠ نائباً يمين الولاء لجمعيتهم. ومع كل ذلك فقد نجح بعض النواب برغم ذلك، كالشيخ محمد الجسر عن طرابلس وهو من مؤيدي عبد الحميد، وشفيق بك المؤيد عن دمشق^(٧٢). وكان للعرب في هذا المجلس ٧٢ مبعوثاً، وللأتراك (١١٩) مبعوثاً، وهكذا تفوق عدد

(٦٨) F.O.371/651 (1908), No 77, P.5 (30 Oct).

(٦٩) Ibid, 361/548 (1908), (25 Juil) P.230.

(٧٠) Ibid, P. 257, و D. F. Aff, Etr, vol XIII (111), dossier général, Politique interieure P. 256.

(٧١) انظر صورة الرسالة في الملحق.

F. O. 371/487, No 45494, 25 dec

(٧٢) مذكرات يوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ٢٣٢ وجريدة المقتبس، عدد ١٣، ٣٠ ديسمبر / كانون الأول / وجاء فيها أن النواب العرب قد احتجوا على المؤامرة المقصودة لاسقاط شفيق بك المؤيد أحد نواب دمشق.

المبعوثين الأتراك، على الرغم من تفوق عدد السكان العرب على الأتراك بالعدد بنسبة: ٣ إلى ٢. وإذا كان الاتحاديون راضين عن دخول أعضاء من لبنان في مجلس المبعوثين، فلأن عددهم قليل لا يؤثر على توازن العدد العام بين العرب والأتراك، وكان موقف الاتحاديين على العكس بالنسبة لمصر، فقد رحب المصريون بالاشتراك في مجلس المبعوثين — على عكس موقف اللبنانيين — إلا أن الاتحاديين لم يكن من مصلحتهم قبول عدد كبير من المبعوثين المصريين، وكان يصل إلى ١٢٠ حسب عدد السكان، وهذا ما يجعل التوازن لصالح العرب، وساعد موقف الاتحاديين هذا أن الانكليز في مصر لا يرضون عن هذا التمثيل، بالإضافة إلى بعض الأحزاب المصرية التي تريد الاستقلال بمصر (٧٣).

وقد مست الحرية الجديدة الأمور الأخرى غير السياسية، كالعمل والعمال إذ أضرب عمال السكك الحديدية في سورية في ٣٠ سبتمبر / أيلول ١٩٠٨ بسبب عدم دفع رواتبهم، واضطرت الشركة لدفع ١٧٠ ألف فرنك. وحصل العمال على زيادة تتراوح من ٤٠ — ٥٠٪، وكانت مطالب العمال تدل على وعي متقدم بالنسبة لثقافة ذلك العصر (٧٤)، وكان هذا الاضراب قبل صدور قرار الحكومة العثمانية سنة ١٩٠٩ القاضي بمنع الاضرابات، وربما كان لهذا الاضراب دخل في قرار المنع الذي أتى

(٧٣) توفيق برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩١٤ — ١٩١٨، القاهرة ١٩٦٠، ص ١٠٦ وعبد العزيز عوض، ص ٤٧.

وانظر، William R. Polk and Richard I, Beginning of modernization in the Middle East, chambers University of Chicago 1968, P. 117.

(٧٤) D. F. Aff. Etr. vol VIII (1908) 111, dossier général, Politique interieure P. 192-196 وجاء في هذه المطالب:

- ١ — زيادة ٤٠ — ٥٠٪ من الرواتب.
- ٢ — إعطاء راتب عن كل سنة.
- ٣ — الترقية كل سنتين والوصول إلى السقف خلال ٢٥ سنة خدمة.
- ٤ — عطلة ١٥ يوماً مأجورة.
- ٥ — تحديد ساعات العمل بعشر ساعات نهاراً وسبع في المكاتب ودفع الساعات الإضافية.
- ٦ — عدم تسريح الموظفين دون استثناء دون محاكمة.

بعد أشهر، كي تفرض الحكومة النظام والسيطرة، ذلك النظام الذي استطاع والي بيروت الجديد أن يقره خلال أربعة أشهر من اعلان الدستور، وهو ناظم باشا الذي استطاع ضبط سير الإدارة الحكومية في دوائرها المختلفة، وأدخل تحسيناً ملموساً في كفاءة الشرطة والجندرمه، فاستتب الأمن وتوقفت جميع أنواع التهريب^(٧٥). وبرغم كل هذا فإن الفوضى القديمة وخاصة في الشؤون المالية المضطربة، وتأخر الحكومة في دفع الرواتب، كانت تسيء جداً إلى سمعة الحكومة الجديدة، التي أخذت قوتها وسيطرتها من قوة الجيش الذي أعاد الدستور بالقوة، فإننا نجد أن العام ١٩٠٨ لم ينته من غير بعض هذه الاضطرابات، حيث حدث عصيان بين الجنود العائدين من اليمن في بيروت، بسبب تأخير تسليم الرواتب، وارتفاع الأسعار في بيروت وحلب، بسبب سوء المحصول في آسيا الصغرى لذلك العام. وتسبب هذا الغلاء بإراقة الدماء في حلب بين الناس^(٧٦)، وبقيت الحكومة، هي الحكومة، سواء السابقة أم الاتحادية بالنسبة لغالبية السكان، وقد لاحظت Gertrude Bell هذا الأمر عند رحلتها في مدينة حلب بعد اعلان الدستور «فكان الناس يوجهون النقد اللاذع للمعاملات الرسمية الحكومية

→ ٧- ركوب عائلات المستخدمين بلا أجره.

٨- يوم عطلة في الأسبوع، والتتبع بميزات القانون السوري القديم الذي يحدد زيادة ٨٪ لعمال القطارات، و ٤٪ لعمال المخطات.

٩- تأمين المعالجة الطبية.

١٠- استمرار دفع الرواتب للمصابين.

١١- تسريح جوزيف روسي.

١٢- اعطاء راتب مسبق بخالة الضرورة.

منظمو الاضراب: م جبرائيل، أحمد عبد العال، الياس طراد، ٢ ت ١ ١٩٠٨ P. 203.

Gooch and Tempesly, vol. V P. 303 (٧٥)

جاء في التقرير السنوي للوفد البريطاني عن سورية لعام ١٩٠٨ «يكاد يستحيل علي أن أقارن بين التقارير التي وصلت إلى هذه السفارات (في استانبول) حتى أول (يوليو / تموز /) حول الوضع في سورية، وبين التقارير التي وصلتنا في الشهور المتبقية لتلك السنة، المقارنة بين هاتين المجموعتين من التقارير كبيرة جداً. في الشهور السبعة الأولى: شكوى ورشوى وفساد، من الوالي والموظفين ومن السرقه والتهريب، والأشهر بعد الدستور ضبط لسير إدارة الحكومة.....».

F. D. 371/548 (1908) No 50, (25 Juin) P. 233 (٧٦)

— وهو نقد بناء —، وظلت الحكومة في نظر الناس قوة مستقلة متسلطة، لا تربطها بالمحكوم أية رابطة، فقد يشكو المرء من ظلمها وجورها، فيلعنها كما يلعن العاصفة الثلجية التي تخرب مزرعته، دون أن يشعر هذا المرء أنه مسؤول عن هذه الحكومة... حتى الانتخابات لمجلس المبعوثين لم يهتم بها الناس، فقد كانوا يقولون: نحن كذا (أصحاب صنعة) فما لنا بالحكومة... وسرعان ما خفت الحماسة وعاد الناس من عالم الأحلام إلى عالم الواقع المر. وعاد وانقلب الرأي العام... وكانوا يترقبون تبديلاً وتغييراً، لكن التغيير كان بطيئاً فوقعوا في حيرة، وداخلهم الخوف من أن يتبدل كل شيء وهم في غفلة من أمرهم، ولكن خفت مظالم الحكم حيناً وكان لهذا أثر في نفوس الناس هنا وهناك. ولكن الناس لم يشعروا بالطمأنينة والأمن، وشعروا بشيء من الحرية الشخصية وزال عنهم شبح الجواسيس في الدوائر الرسمية، فزال الخوف من المحكوم عليهم بالنفي، وظهرت جرائم جديدة، ودخلت الكتب الأجنبية والجرائد حوانيت باعة الكتب بدون رقابة البريد، وزالت القيود الصبائية القاسية عن المسيحيين، ورفعت عن الأرض الإقامة الجبرية، لكن ها هي حلب، هل يسود فيها العدل أكثر من ذي قبل؟ والله لا...» (٧٧).

نشاط أنصار عبد الحميد (الارتجاعيين)

في الحقيقة لم يقض العمل بالدستور وثورة الاتحاديين على السلطان عبد الحميد، فقد ظل يعمل كي يستعيد سلطاته ويتخلص من سيطرة الاتحاديين والدستور، وكان أنصاره كثيرين في سورية، وقد سُموا بالارتجاعيين. وكان نشاطهم معروفاً وبارزاً، فكان من مهمات لجنة الاتحاد والترقي في اللاذقية، هي مقاومة كل ارتجاع يقوم به أنصار العهد القديم، وفي بيروت كان لعبد الحميد أنصار لكنهم لزموا بيوتهم في موجة إعلان الدستور. وفي طرابلس كان أنصاره كثيرين. وكان كبار العلماء والوجهاء

(٧٧) Bell, Gertrude L., Amurath to Amurath, London 1911, PP. 3-5.

عن زين زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، ص ٢٠٦ — ٢٠٧. انظر شيئاً عن هذا التغيير في مجلة المباحث، بيروت، عدد ٢٦ أوت / آب / ١٩٠٩، ص ٨٤٠.

هم صلة الوصل بين الحكومة والناس أيام عبد الحميد، وكانوا ذوي نفوذ، وقد نجح الشيخ محمد الجسر وهو من أنصار عبد الحميد نائباً عن طرابلس في مجلس المبعوثين، وكانت توجد لتلك الفئة المحافظة «الارتجاعية» جريدة تنطق باسمها هي «طرابلس»، ووالث نشاطها بعد الدستور ثم صارت تنطق باسم حزب الائتلاف المعادي للاتحاد والترقي^(٧٨). وعندما تأسست، بوحى من السلطان عبد الحميد، الجمعيات المحمدية أو الحزب المحمدي، «درويش وحدتي»، وكان لهذا الاسم وقع عظيم في نفوس عامة الناس والشيوخ من أنصار عبد الحميد، وكانت غاية هذا الحزب القيام بثورة مضادة ضد الاتحاد والترقي، ترمي لإلغاء القانون الأساسي والعودة إلى العمل بـ «إعلان الشريعة المحمدية»، ترأس الشيخ أبو الهدى الصيادي — المستشار المقرب للسلطان عبد الحميد — الجمعية المحمدية، في دمشق، واستطاع رجال الدين استمالة كثير من العوام إليها. وكان الصيادي يحرض الناس على الاتحاديين، وكان الشيخ رضا يتصدى له في الجامع الأموي عندما كان يلقي الأحاديث الدينية، وحدثت مشادة عنيفة بين رشيد رضا (في ٢٧ رمضان)، وبين الشيخ صالح الشريف التونسي (من أنصار عبد الحميد). واتهم الأخير الأول بالوهابية، فهاج الناس وثاروا ضد الشيخ رشيد رضا، وخرجوا من الجامع هائجين إلى الشارع، واتجهوا إلى دار الحكومة لإطلاق سراح الشيخ التونسي، بعد أن سرت شائعة أنه مسجون، وصاروا يهتفون «اقتلوهم، اقتلوهم» وأخذوا ينادون بسقوط أسعد بك مدير الشرطة العام، وبسقوط جمعية الاتحاد والترقي التي كانوا يطلقون عليها، جمعية التفريق والتدني، وبسقوط والي سورية شكري باشا الذي كانوا ينادونه «شكرية خانم» لضعف شخصيته، إذ كان أسعد بك هو والي الفعلي، ولو لم يخرج والي إلى جانبه الشيخ التونسي لما انتهت الفتنة. «وكانت هذه العملية فتنة الرجعيين ضد الاتحاديين، بتحريض من السلطان عبد الحميد»^(٧٩). وقد بلغ المنتسبون لهذا الحزب أعداداً كبيرة، ذكرها محمد كرد علي

(٧٨) مذكرات يوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ٢٣١ — ٢٣٣.

و مذكرات يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد العثمانيين، بيروت ١٩٦٤، ص ٣٦.

(٧٩) مذكرات البارودي، ج ١، ص ٧١ — ٧٢.

فقال « شكل عبد الحميد الحزب المحمدي لما لهذا الاسم من حب وخاصة في بلاد لم تألف ثورة الجند، ولم تتأثر أعصابها بدعوة الأحرار كبلاد الشام، ولهذا كثر الداخلون فيه في بلاد الشام، وقيل إنهم بلغوا سبعين ألفاً، وكان للمال الذي بذله أعوان عبد الحميد تأثير عظيم في نفوس الغوغاء»^(٨٠) وفي حلب استغل أنصار عبد الحميد افتتاح جمعية الإخاء العربي سنة ١٩٠٩، الذي جرى باحتفال بالغ ودخلوا فيها أفواجا، وكانت غايتها المطالبة بحقوق الأمة العربية، لكنها كانت في السر تعمل لضرب جمعية الاتحاد والترقي انتصاراً للسلطان عبد الحميد الذي أوعز بذلك سراً، وظل الشيوخ في حلب موالين لعبد الحميد، حتى إن أحد علماء حلب أرسل فتوى إلى الألبان بجواز ثورتهم ضد دولة الاتحاد والترقي، وقد ذيلت هذه الفتوى بعدة توافيع من قبل تلاميذ ذلك المفتي، فألقي القبض عليهم جميعاً وأرسلوا إلى الآستانة، حيث حكم عليهم بالنفي إلى جزيرة رودوس فأقاموا فيها حتى الاحتلال الإيطالي بعد سنتين أي سنة ١٩١١^(٨١). ونشط أنصار عبد الحميد، فهاجم أحدهم عربة القنصل الفرنسي في حلب وشققها بالخنجر^(٨٢). وقد فسر الأب فرديناند توتل اليسوعي هذا الخبر بأنه من وحي عبد الحميد الذي كان يريد تحويل أنظار الاتحاديين عنه، والاهتمام بتدخل الدول الأجنبية، كي يقوم بثورته المضادة ضدهم. وكانت حادثة الاعتداء على عربة القنصل الفرنسي، قد وقعت قبل أربعة أيام فقط من ثورة عبد الحميد المضادة. وثار الرعب بين

(٨٠) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٣، ص ١٢٠.

(٨١) كامل الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ص ٤٨٨ و ٥٣١.

جاء في ترجمة حياة الشيخ محمد الكلاوي المتوفي عام ١٩١٨ ما يلي «قال الكلاوي: لو كان هؤلاء الناثرون (الاتحاديون) قائمين لاعلاء كلمة الله وتأييد الشريعة المحمدية، لكان قيامهم مشروعاً، وحيث أن قيامهم ليس لهذه الغاية، فإنهم لا ينجحون ولا يتوقفون، ثم تقدم بثلاث عرائض تتضمن الأولى، أن ترك العمل بالشريعة الغراء والاستعاضة بالقوانين الأوروبية لا يجوز، ويجب إبطاؤها والرجوع إلى الشرع، وإلا يجرى القتال إلى النهاية، ووقع على العريضة بعض الشيوخ فقبضت الحكومة على الشيخ الكلاوي ومن وقعها، وأرسلوا للآستانة، ثم نفوا إلى جزيرة رودوس بعد أن استبدل حكم الاعدام بالنفي، بتوسط محمود شوكت باشا (عربي) ناظر الحرية».

محمد راغب الطباخ، أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء، ج ٧، ص ٥٧٦.

(٨٢) الأب فرديناند توتل اليسوعي، ص ٩٧.

المسيحيين وخاصة الأرمن، فأخذوا يستعدون للطوارئ، وكان الوالي ساهراً على الأمن، لكن جواً من الرعب الشامل والخوف سيطر على كل مدينة حلب، وقبل أسبوع من الثورة المضادة، أغلقت مدارس حلب خوفاً من الفتن. «وكانت إطلاقاً رصاصة طائشة سبباً في إغلاق المدينة». واختل الأمن لدرجة توهّم الناس أن عرب البادية سيغزون المدينة، واحتاط الوالي ووضع المدافع في الميدان الكبير إرهاباً، وهرب بعض الناس إلى زحلة^(٨٣). وفي اللاذقية وغيرها من المدن السورية، تأسس في مارس / آذار / ١٩٠٩ فروع للجمعية «الارتجاعية»، وانتمى إليها بعض الناس يقودهم بعض الوجهاء، لمقاومة حزب الاتحاد والترقي وأنصار الدستور، لإعادة النفوذ الحميدي. وتوالت اجتماعاتهم حتى خاف الناس وخاصة المسيحيون من مغبة الأمر، فرفعوا خوفهم هذا إلى التصرف (في اللاذقية)، وهو تركي اتحادي، فجمع أنصار عبد الحميد، وأنذرهم وهددهم بالشنق قائلاً: أنه إذا بدرت أقل بادرة اعتداء على أحد، أو أي تعرض لمكتب الاتحاديين، وأحياء المسيحيين، فإنه سوف يعلقهم، وهم كبار الجمعية المحمدية فوراً، على أعواد المشانق^(٨٤)، ولذا لم يحدث ما يخل بالأمن، وكان هذا أيضاً قبل ثورة عبد الحميد بشهر واحد. وفي هذا الجو المشحون الذي ملأ صدور المسلمين من أنصار عبد الحميد، جرت الحوادث الدامية في أضنه وكسب وانطاكية في لواء اسكندرون، بين «الارتجاعيين» وبين الأرمن، إثر الثورة المضادة التي قام بها السلطان عبد الحميد في ٣١ مارس ١٩٠٩. فاستقبلهم الاتحاديون من مسؤولين وضباط جيش، وأمنوا حياتهم ومعاشهم، وساعدتهم المؤسسات الأمريكية ووجهاء المدينة في اللاذقية، وكان الأسطول الفرنسي يساعد الفارين من الأرمن، الذين كانوا يصلون إلى الساحل ما بين اللاذقية واسكندرون، كما انقذت سفينة انكليزية (فكتوريا)، بعضهم ممن هربوا إلى الجبال الساحلية. وقد عوضت الدولة عمن تضرر من الأرمن بسبب هذه الحوادث^(٨٥). وخلع السلطان عبد الحميد بعد حركته هذه،

(٨٣) نفس المصدر.

(٨٤) مذكرات يوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ١٧٧.

(٨٥) مذكرات يوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ١٧٤ و ١٧٨.

إذ زحف الجيش العثماني، بقيادة شوكت باشا على العاصمة اسطنبول، التي احتلها أعوان عبد الحميد من الجند، وحاصر قصر السلطان (يلدز) ثم اجتمع أعضاء مجلس الأعيان ومجلس المبعوثين، واتخذوا قراراً بخلع عبد الحميد، وتنصيب أخيه محمد رشاد الذي سمي محمد الخامس. وفي مساء ٢٧ أبريل / نيسان / ١٩٠٩، نفى السلطان عبد الحميد مع بعض حاشيته إلى سالونيكاً وسجن في فيلا «آلاتيني». ويقول زين زين «زال ظل الله الذي خيم على الشرق الأسطوري، الشرق الذي كان يعيش بعقلية القرون الوسطى. وبزوال عبد الحميد كان الأتراك قد وصلوا إلى نهاية المطاف من تاريخهم، ذلك التاريخ الذي كان يربطهم بآسيا والشعوب الإسلامية قرابة ست مئة سنة»^(٨٦). لكن سقوط عبد الحميد لم يمهّد أنصاره، برغم أن الحكومة منعت وأغلقت الجمعية المحمدية في جوان / حزيران / ١٩٠٩ وبقوا أقوياء في دمشق^(٨٧)، وتفرقوا وهم يحملون سراً العداء للاتحاد والترقي، حتى من الذين دخلوا في هذه الجمعية صوناً لسلامة أنفسهم، ومن هذا الجو الذي خلفه عبد الحميد ضد الاتحاديين، يمكن لنا أن نفسر نجاح الجمعيات العربية العلنية والسرية ضد الاتحاديين، ونقد العرب المرّ لهم في الصحف، ثم القطيعة التامة كما سنرى. وكان هذا الجو في سورية معادياً للاتحاديين

→ و من قنصل بريطانيا في حلب Raphael A. Fontana إلى السفارة البريطانية في استانبول في ٢٥ أيلول / سبتمبر / ١٩٠٩.

F. O. 371/781 (1909) No 25.

(٨٦) زين زين، نشوء القومية العربية، ص ٧٩—٨٠.

كان اليهودي، عمانوئيل قرصو نائب سالونيك، ممن لعبوا دوراً في مساعدة جمعية تركيا الفتاة على خلع عبد الحميد، وكان هو ممن قدم للسلطان عبد الحميد خمسة ملايين ليرة ذهبية تدفعها الجمعية الصهيونية له مقابل إعطاء الأرض في فلسطين لليهود، فغضب السلطان وطرده، وكان هو نفسه من بين الأشخاص الذين أبلغوا السلطان عبد الحميد قرار خلعه.

خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه، ١٩٠٨—١٩١٨، وبيروت ١٩٧٣، ص ٤٣.

ومذكرات البارودي، ج ١، ص ٧٦—٧٧.

(٨٧) تقرير سنوي للسفارة البريطانية في استانبول في ٣١ جانفي / تشرين الثاني / .

F. O. 371/1002. (1910) No 4235

حتى قبل تبنيهم سياسة تترك العرب، واضطروا بعد خلع عبد الحميد إلى القيام بمحاولات كثيرة، وإلقاء خطب طويلة حتى يعيش المسلمون بأخوة مع المسيحيين^(٨٨)، وحتى تهدأ النفوس المسلمة المضطربة ضد جمعية الاتحاد والترقي، وحتى تهدأ النفوس المسيحية الخائفة من حركات دينية ضدهم وخاصة الأرمن. ولقد كتبت مجلة المشرق «الكاثوليكية» أن الحركة الاجتماعية «بدلت أفراس المسيحيين بعيد الفصح إلى أكراد مفعجة»^(٨٩)، في الوقت الذي كان المسيحيون يرون فيه أن الاتحاديين، لن يفرقوا بين الأديان، ولن يعتمدوا الجامعة الإسلامية التي كان يتبناها عبد الحميد^(٩٠). ولذا كان المفكرون العرب المسلمون المناهضون لحكم السلطان عبد الحميد، يكتبون ويؤكدون أن الدستور ليس منافياً للدين، وأنه اجتهد لصالح الأمة وسياستها ولتقويتها وإعلاء شأنها، مع حفظ الآداب والأخلاق^(٩١). وكانوا بذلك يؤيدون ويساعدون الحكم الجديد ضد رجال الدين، وكانوا ينظرون إلى الجمعية المحمدية الآتفة الذكر، على أنها كلمة حق أريد بها باطل^(٩٢)، وبرغم كتاباتهم بالجرائد ودفاعهم عن الدستور والترك، ووجوب عدم التفرقة العنصرية بين الشعبين، فقد كان بعض القادة والمفكرين من الأتراك، يصفون العرب بأنهم من دعاة التقهقر أو الرجعية، ويقصدون بذلك أنهم من أنصار عبد الحميد. وقد دافعت مجلة النبراس عن العرب وقالت «حرب أقلام لا حرب سهام بين العرب والترك، لقد وُصف العرب أنهم من دعاة التقهقر، وقد ظلم العرب بسبب «بعض الرجعيين»، وأبعد المأمورون العرب وعين في البلاد العربية من لا يفهم اللغة العربية» وتحض المجلة الأتراك، حتى لا يعتبروا

(٨٨) F. O. 371/781 No 28, 25 Nov 1909

(٨٩) مجلة المشرق، بيروت (لويس شيخو) سنة ١٩١٠، ص ٥١.

(٩٠) مجلة المقطم، ج ١٠، ١١ نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٠٨، ص ٨١٥.

(٩١) من مذكرات جمال الدين القاسمي في كتاب ظافر القاسمي، جمال الدين القاسمي وعصره، ص ٢٣٣.

كتبت مجلة المنار بما يخص الاخلاق وفسادها «الفسق العلني والدستور في طرابلس، مما حدا بعلمائها للشكوى إلى الحكومة، لكن لم تفعل شيئاً مع العاهرات الروميات». م ١٣، ج ٩، نوفمبر / تشرين الثاني ١٩١٠ ص ٦٨١.

(٩٢) مجلة النبراس، بيروت (مصطفى الغلاييني) مجلد أول، ج ٥، ٢٠ أيار ١٩٠٩، ص ١٧٣.

أحرار العرب في دمشق وبيروت من أصحاب الرجعية^(٩٣). لكن الاتحاديين أنفسهم كانوا بالأساس قد تبنا سياسة قومية — لا دينية — وتبع ذلك نشاط ثقافي، سمح بالدراسة المقارنة للأديان في كلية الآداب بجامعة أستانبول، وسمح بنقد الأفكار الدينية. وأخذت تراجم أدباء فرنسا في القرن الثامن عشر، كفولتير، وروسو، وبدأ الصراع الفكري بين القديم والجديد^(٩٤)، ولهذا كانت دفاعات القوميين العرب من المسلمين عن الدستور، وأنه ليس ضد الدين، لا طائل تحتها، ولم تستطع إيقاف التيار العربي — الإسلامي المعادي للاتحاديين في المرحلة الأولى بعد الدستور مباشرة، وقبل أن يُنصب هؤلاء القوميون العرب أنفسهم محامين عن حقوق العرب، ضد سياسة الاتحاديين الجديدة في التريك، ولذا فقد كانت كلمة تفضيل من أحد الأتراك للترك، تذهب بمجهود ألف عربي للوثام^(٩٥). وقد كتب رشيد رضا (وكان من أنصار الدستور) «أنه يوجد ٣٠٪ من جمعية الاتحاد والترقي غير دينيين، وهم ماسونيون، إلا في ناحية واحدة، وهي تعصبهم للعنصر التركي، والعلماء المسلمون نفروا من جمعية الاتحاد والترقي، بعدما علموا أنها تعتمد على تخريج الملاحدين من مدارس العاصمة، وأنها تتقرب من النصارى العرب، لأنها تعرف أن المسلمين العرب يطالبون بحقوقهم بالخلافة العربية»^(٩٦).

(٩٣) نفس المصدر، ج ١، م ٩، ١٣ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩٠٩، ص ٥.

(٩٤) The Middle East journal, Washington, July, 1947, P. 277

(٩٥) مجلد المنار، ج ١١، م ١٢، جانفي / كانون الثاني / ١٩٠٩، ص ٨٨١.

(٩٦) نفس المصدر، م ١٦، ج ٢، ٦ ففريه / شباط / ١٩١٤، ص ١٣٦ — ١٤٠.

الفصل الثالث

العلاقات العربية التركية

١٩٠٩ - ١٩١١

الطورانية

وحتى نتبين موقف العرب من الاتحاديين ، بعد أن تخلص هؤلاء الآخرون من العرب أنصار عبد الحميد ، نلقي نظرة على سياستهم العامة ومبادئهم وآرائهم في الدين وعلاقتهم بالإسلام ، حيث اتهموا بالاتحاد كما رأينا قبل أسطر .

قامت ثورة تركيا الفتاة أو الاتحاد والترقي لاعادة العمل بالدستور سنة ١٩٠٨^(١) ضد السلطان عبد الحميد الثاني ، وأعلنت مبادئها في الحرية والمساواة

-
- (١) نص القانون الأساسي العثماني لعام ١٨٧٥ (الدستور) على مايلي :
- مادة ١ — إن الدولة العثمانية تشمل الممالك والخطط الحاضرة والولايات الممتازة ، وهي كجسم واحد لا يقبل الانقسام أبداً لأية علة كانت .
- مادة ٣ — السلطنة السنية هي بمنزلة الخلافة الاسلامية الكبرى .
- مادة ٤ — السلطان حامي الدين الاسلامي وحاكم التبعية العثمانية وسلطانها .
- مادة ٥ — إن ذات حضرة السلطان مقدس وغير مسؤول .
- مادة ٦ — إن حرية وحقوق وأموال ومخصصات سلالة بني عثمان تحت الضمانة العامة .
- مادة ٨ — يطلق لقب عثماني على كل فرد من أفراد التبعية العثمانية بلا استثناء من أي دين ومذهب كان ، ويسوغ الحصول على الصفة العثمانية وفقدانها بحسب الأحوال المعنية في القانون .
- مادة ١٧ — جميع العثمانيين متساوون أمام القانون في حقوق وظائف المملكة ، ما عدا الأحوال الدينية والمذهبية .
- مادة ١٨ — يشترط على التبعية العثمانية معرفة التركية التي هي لغة رسمية للتوظيف في الدولة .
- مجلة المقطم ، مجلد ٣٣ ، ج ٩ ، سبتمبر / أيلول / ١٩٠٨ ، ص ٧٢٢ .

والإخاء، المقتبسة من مبادئ الثورة الفرنسية، وليس في هذه المبادئ ما يعني تعصباً قومياً أو دينياً، لكنها في نفس الوقت لا تعني تمسك الحكم الجديد بالإسلام، كما كانت سياسة عبد الحميد في الجامعة الإسلامية. وقد وجد الاتحاديون صعوبة كبيرة في تحقيق المساواة بين المسلم والكافر (الملحد)، تلك المساواة التي جعلتهم يُتهمون بالاحاد. وقد لاحظ الاتحاديون أنفسهم ذلك، فقد جاء في خطاب طلعت بك أحد الثالث الحاکم (أنور وجمال وطلعت) «كلکم تعلمون أن الدستور ينص على فرض المساواة بين المسلم والكافر، وجميعكم تشعرون أيضاً أن هذا أمر مثالي لا يمكن تحقيقه واقعياً، إن شريعتنا الإسلامية وتاريخنا بجملته، وشعور المثات والألوف من المسلمين، لا بل إن شعور الكفار أنفسهم الذين يقاومون بعناد كل محاولة لتتريكهم، أمور تقف سداً منيعاً يحول دون تحقيق المساواة الحقيقية، ولقد باءت جميع محاولتنا لتتريك الكفار وكسب موالاتهم للعثمانيين، بالفشل الذريع. وأية محاولات أخرى مشابهة لها ستبوء حتماً بالفشل، ما دامت الولايات الصغيرة المستقلة في شبه جزيرة البلقان مراكز لنشر الدعوة للانفصال بين سكان مكدونيا، وعليه لا يمكن أن تكون هناك مساواة بين المواطنين، ما لم نفلح أولاً في تتريك الامبراطورية»^(٢). إذن كانت المساواة تعني إرضاء العناصر المسيحية في البلقان، وكانت تعني في نفس الوقت سياسة لا دينية. ولما فشلت تلك السياسة بسبب المحاولات الاستقلالية في البلقان التي تبعت الدستور مباشرة، رأى الاتحاديون أن يسلكوا سياسة جديدة لضم عناصر الدولة العثمانية، لا بالرجوع إلى الجامعة الإسلامية، بل بتحويل كل سكان الامبراطورية إلى أتراك يتكلمون اللغة التركية، وهذا بالتالي يتوجب التمسك الشديد بهذا الهدف «التتريك» الذي يقتضي نتيجة لذلك إبراز القومية التركية وإحياءها من جديد، حتى ما كان منها سابقاً للإسلام. وإذا كانت تركيا الفتاة قد تبنت سياسة التتريك بسبب فشل سياسة المساواة بين العناصر المختلفة للدولة العثمانية، فهذا لم يكن السبب الوحيد للتتريك، لأن رياح القومية القادمة من أوروبا، وصلت إلى الشعوب الأخرى كالليونان والبلقان،

فتبنوها في معارك استقلالهم عن الدولة العثمانية، وبالتالي هبت على الأتراك أنفسهم، ليحافظوا على وجودهم التركي في امبراطوريتهم العثمانية، ثم كانت ردة فعل العرب على القومية التركية التي تسلطت عليهم، فتمسكوا بالقومية العربية.

أسس القوميون الأتراك الاتحاد الطوراني، ومن اسمه يظهر محاولتهم للعودة بتاريخ الترك إلى ما قبل الإسلام، لأنهم عرفوا بالعثمانيين بعد الإسلام عندما أنشأوا دولتهم، وكان الاتحاد الطوراني يقوم على رابطة الشعوب التي تتكلم اللغة التركية، ومن أشهر كتابهم في هذا الأمر: تكين ألب ويوسف بك ألكجورا أغلو، وفي كتاب «قوم جديد» الذي أثار ضجة (سنراها) في البلاد العربية. وتبث التعاليم الجديدة للطورانية على إحياء الصلات الروحية للمبادئ «التركية الصافية»، ما بين الأتراك العثمانيين والأتراك في الدول الأخرى وخاصة في روسيا وأعدادهم كثيرة^(٣). والذي يهمننا في هذا البحث، هو ماله علاقة من هذه السياسة التركية الجديدة بالعرب، وما نتج عنها من ردة فعل عنيفة وهي:

١ — محاولة الأتراك ترجمة القرآن إلى اللغة التركية، وكان من المعروف أن القرآن أنزل بلغة عربية، وجرى التقليد الإسلامي على أن يقرأ بهذه اللغة، لكن خوف جمعية الاتحاد والترقي من مغبة النتائج، جعلتها لا تفعل ذلك برغم محاولات أنصار ضياء بك^(٤).

٢ — محاولة علمنة الدولة، وهو بالتالي يعني علمنة أنظمة الحكم جميعاً، كالتعليم والقضاء. وهذا الأخير كان مبنياً في الدولة العثمانية على الشرع الإسلامي. ولم يعد يرى القوميون الترك في الإسلام إلا نظام حكم ديني، في الوقت الذي يحاولون فيه تبني نظام علماني، وكان من رأي المفكر الاجتماعي التركي ضياء كوك إلب الذي كان يتخذ موقفاً وسطاً بين الثقافة الأوروبية العلمانية والحضارة الإسلامية، أن المسيحية نفسها قبل الإسلام لم تكن قادرة على ملائمة الحضارة الحديثة قبل

(٣) زين زين، نشوء القومية العربية، ص ٨٨.

(٤) مجلة المقتطف، مجلد ٤٩، ج ٥، نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٦، ص ٤٢٦.

عصر الإصلاح، وظهر ذلك في مجلة Yeni Mejmna الناطقة باسم لجنة الاتحاد والترقي على الرغم من الشخصية النظرية للدولة، حيث الخليفة يملك السلطتين الروحية والزمنية في شخصه^(٥).

٣- حركة إحياء الروح والتاريخ التركي السابق للإسلام، والإضفاء عليه بنظرة قدسية، وتمجيد الأبطال العظام كجنگيز خان وهولاكو (وهما مغوليان وليسوا تركيين)، واتخاذ الأسماء القديمة (قبل الإسلام) أسماء لمن يريد الانتساب إلى بعض الجمعيات الطورانية، مثل «ترك أوجاقي» أي الموقد التركي أو الوطن التركي، و«ترك قوجي» أي التركي الشجاع، فكان مثلاً يستبدل الاسم الاسلامي، كمحمد باسم قديم مثل أوغوز، وكانت الشعارات والاحتفالات في الجمعيات الكشفية «لخاقان الأتراك»، وكانت صورة الذئب التركي مرسومة على أعلامهم^(٦)، ويبدو أن لهذه الحركة الطورانية علاقة بالبيكتاشية (وهي تتمسك باللغة التركية والأساليب التركية، طول الزمن الذي كانت فيه المؤثرات الكلاسيكية، الفارسية والعربية، تسيطر على حياة الأتراك الثقافية، وكانت تتراوح أفكارها بين الخرافات الفجة والالحاد المادي الواضح، وأن هناك علاقة بين البيكتاشية والماسونية الأوروبية)، وقد كان عدد من أعضاء تركيا الفتاة أعضاء في

(٥) The Middle East Journal, Washington, July 1947, P. 277

(٦) مجلة المقتطف، مجلد ٤٩، ج ٥، نوفمبر ١٩١٦، ص ٤٢٦. جاء وصف في هذه المجلة لكاتب

انكليزي عن الطورانية «الطورانية» (بني توران) أي التوران الجديد كانت غايتها:

١- استقلال القومية التركية عن الاسلام، وهذه عبارة الدكتور نوسيج من حديث دار بينه وبين الاتحاديين. ونشر في جريدة درتاج الألمانية.

٢- ترقية الروح العسكرية التركية.

٣- إنشاء علاقات تجارية وغير تجارية مع مسلمي شمال إيران (أذربيجان) وروسيا الآسيوية وجنوب روسيا.

٤- تحرير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية ولها غرض لا يعترف به صراحة، وهو حرمان العرب من حقوقهم القومية، والغرض هو جعل العثماني التركي تركياً أولاً ومسلماً ثانياً، وكانت جمعية ترك أوجاقي تربي الغلمان الترك الناشئة على التدريب العسكري، يؤهلهم لدخول الجيش عند الاقتضاء برعاية أنور باشا. ومعظم شاراتهم وجميع ألقابهم تركية صرفة سابقة لعهد الاسلام بين الترك، ومن كان اسمه عربياً أبدل باسم تركي، وكان في نيتهم ترجمة القرآن لكنهم عدلوا.

الطريقة البكتاشية، وبعضهم كان بكتاشياً وماسونياً ومنهم طلعت باشا ورضا توفيق^(٧).

ونتيجة لهذه العقلية التركية، كان على العرب أن يدافعوا عن الأمور الهامة التالية التي هاجمتها سياسة التتريك الجديدة وهي:

١— الحضارة والتراث الإسلامي، وكانت هذه لاصقة بتاريخ العرب أكثر من الترك، ويعتبرها كثير من العرب إنها نتاج عربي، وأن محاولة الأتراك إبعاد الإسلام عن دولتهم الحديثة يعتبر هجوماً مباشراً على العرب وحدهم من بين كل عناصر الإمبراطورية العثمانية.

٢— اللغة العربية التي تعمل سياسة فرض اللغة التركية على محوها، أو الاقلال من شأنها، في الوقت الذي يفخر العرب، أن لغتهم لغة القرآن.

٣— الهوية العربية أو الشخصية العربية أو الأمة العربية أو القومية العربية التي تحاول سياسة التتريك أن تحول العرب عنها إلى أتراك، وتسلبهم عن أمتهم وتنسبهم تاريخهم ووجودهم.

وكان لابد للدفاع عن هذه القضايا المصيرية، من العمل على إيجاد قوة عربية أو دولة عربية، تستطيع بها مجابهة قوة الأتراك، وهذا ما حدث— وإن كان بصورة مشوهة بسبب التأثير الاستعماري الأوروبي— ونحن سنبحث في مراحل المتتالية التي أدت إلى انفصال العرب عن الترك.

كان هناك انقسام في حركة تركيا الفتاة، فالأمير صباح وعصبته اللامركزية الإدارية التي كان يتزعمها، يطالبان بمساواة تامة بين الأجناس والأديان، وبحكم ذاتي واسع للولايات، ولكن هذا الاتجاه لم يلعب دوراً كبيراً وطويلاً في سياسة تركيا، أما أحمد رضا فكان ورفاقه قوميين أتراكاً قبل كل شيء، يدافعون عن سيطرة العنصر

(٧) رامزور، ص ١٣١. جاء في اقتباس من رسالة لتوفيق رضا «كان موسى كاظم أفندي عضواً في وزارة طلعت باشا، زعيم لجنة الاتحاد والترقي، وكان مثلي ومثل طلعت باشا، بكتاشياً وأستاذاً ماسونياً في نفس الوقت». نفس المصدر هامش ٤٨، فصل ٤، ص ٢٠٢.

التركي واستمراره في الدولة حتى حكم الدستور . وكان ضياء كوك إلب فيلسوف تركيا الفتاة، الذي كان يعتمد على القومية المبنية على اللغة أو العرق، لأن القومية العثمانية هشة، والاعتماد على العنصر التركي واللغة التركية أدى إلى سياسة التتريك، حتى لا تبقى إلا القومية التركية^(٨). أما الرجال الثلاثة الذين حكموا تركيا حتى نهاية الحرب حكماً دكتاتورياً عسكرياً، فهم أنور باشا صهر أسرة السلطان والرجل الأول في الدولة — وكان يقال إنه ابن رجل بولندي مرتد — وكان الرجل الأول في الدولة، ولذلك كان طاهر الجزائري في دمشق، يدعو الدولة العثمانية، بالدولة الأنورية وكان جاويد يهودياً (دونما)، وطلعت من أصل غجري اعتنق الاسلام ديناً^(٩). أما جمال فكان دكتاتورياً لا يغفر لأحد أقل زلة^(١٠). وقد جاء في تقرير للمخابرات العسكرية في الجيش الفرنسي، عن الوضع في تركيا حول القادة الأتراك الثلاثة ما يلي «يحكم تركيا ثلاثة دكتاتوريين مغامرين باسم السلطان الذي لا يفعل شيئاً، وهم يدافعون بعنف عن سياستهم ومستقبلهم، وكلهم شركاء في جرائم كثيرة، وهم جميعاً متفقون ضمناً، أما اختلافاتهم فهي ظاهرة غير حقيقية، وهم يقتسمون الأدوار — كان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى — فطلعت يلعب دور صديق الروس، وجمال صديق الفرنسيين، وأنور صديق الألمان، وجاويد يهودي أصبح مسلماً...»^(١١).

(٨) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص ٣١٨.

« كان السكرتير العام لجمعية الاتحاد والترقي وأقوى زعمائها، ناظم بك، قرأ كتاب ليون كاهون عن تاريخ الترك والمغول في آسيا من نشأتهم سنة ١٤٠٥، وقد ظهر الكتاب سنة ١٨٩٦، واسمه الفرنسي:

Introduction à L'histoire de L'Asie; Turcs et Mongols des origines à 1405

وظاهر الكتاب يرمي إلى جعل روح التركي القومي مستقلة عن الاسلام، ويقال أن أحرار الترك يميلون إليها بناءً على القاعدة القديمة، التي وضعها فجيري اليهودي المجري المعروف وهي أن لا وطن في الاسلام.

المقتطف، م ٤٩، ج ٥، نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٦، ص ٤٢٦.

(٩) زين زين، نشوء القومية العربية (عن Seton-Watson)، ص ٨٦.

(١٠) محمد كرد علي، المذكرات، ج ١، ص ١١٠.

(١١) D. F. G., La guerre 1872-1910, Turquie, Carton 16: 7N 1636, 2° Bureau, renseignement

divers 1914-1918 PP. 9-10

المسيحيون يعارضون السياسة التركية

مضت الأشهر القليلة ما بين بداية الدستور والقضاء على الثورة المضادة لعبد الحميد، وأزاحت جمعية الاتحاد والترقي خصومهم العرب المسلمين من أنصار الجامعة الإسلامية، ومضت أسابيع الفرح بالدستور، وخاصة من قبل المسيحيين الراغبين في حصولهم على المساواة التامة مع المسلمين أمام الدستور، لكنهم كانوا يريدون مساواة دون أن يقدموا واجباً تجاهها، فقد كان من المعروف أن غير المسلمين لا يخدمون بالجيش — حسب الشريعة الإسلامية — لكن الدستور القائم على النظام الأوروبي قد غير القوانين القديمة، واستصدر قانوناً في ٢٥ يوليو / تموز / ١٩٠٩، يوجب على كل العثمانيين بغض النظر عن أديانهم أن يؤديوا الخدمة العسكرية، ولذا أخذ الشباب المسيحيون يهاجرون إلى أمريكا هرباً من التجنيد وكان معظمهم من الفقراء، ففي حلب هاجر في صيف عام ١٩٠٩ ما بين ٥ — ٨ آلاف. ويشكل هذا العدد سدس عدد المسيحيين في المنطقة، كما هاجر أيضاً أغنياء منهم «والمسيحيون» (حسب رسالة قنصل بريطانيا في حلب) لا يجبون الخدمة عندما يتوزعون بين أكتية من المسلمين في الجيش، ويمكن تشكيل وحدات مسيحية تخفف من ذلك، وكانت المذابح في أضنه سبباً لهروب المسيحيين من الخدمة العسكرية»^(١٢). وقد احتجت الصحف اللبنانية على قانون الخدمة العسكرية الخاص بغير المسلمين، ووصفت هذا القانون بالظلم^(١٣). لكن القانون طبق، وكان حدثاً جديداً أن يرى الشباب المسيحيون في الثياب العسكرية لأول مرة، ففي بيروت ذهب الشباب المسيحيون إلى السرايا ومعهم

(١٢) رسالة من قنصل بريطانيا (فونتان) في حلب في ٢٥ نوفمبر ١٩٠٩.

F.O.371/781/, No28.

أخذ الكثيرون يهاجرون بالملات إلى أمريكا وأكثرهم من العمال. الأب فرديناند توتل اليسوعي، ص ٩٨ (٢٩ مايو / أيار / ١٩٠٩).

بلغ عدد المهاجرين السوريين إلى افريقية الغربية الفرنسية في غينيا ٤٧٧ سنة ١٩٠٧ وتزايد العدد حتى وصل إلى ٩٨٦ سنة ١٩١٠.

D. F. Aff. Etr, (D. G.) XII (1910), P. 32

Ibid, X, P. 102 (١٣)

رجال الدين يحضونهم على خدمة الدولة بإخلاص^(١٤). وفي حلب وصل جنود مسيحيون بلباس عسكري، وذهب منهم ١٥٠ جندياً مع الضباط إلى الكنيسة ترافقهم الموسيقى^(١٥). وفي جبل لبنان أرسل اللبنانيون القاطنون في بيروت عريضة موقعة من مئات الأسماء إلى القنصلية الفرنسية، تسترحم عدم اعتبار اللبنانيين (الجبل) القاطنين في بيروت، هم بيروتيين، حتى لا يؤخذ أبناءهم إلى الجندية^(١٦). وتخفيفاً للضجة التي قامت حول هذه المسألة ومسألة هجرة المسيحيين وهروبهم من الجندية، صرح سفير فرنسا في استانبول بأن هجرة السوريين وخاصة الكاثوليك والموارنة والمسيحيين، لا أساس سياسي لها «وربما تكون من الدعاية الإسلامية»^(١٧).

وهناك مسألة أخرى شغلت المسيحيين، وجعلتهم يقفون ضد تطبيق الدستور، وهي قضية وجوب حمل هوية لكل عثماني ومنهم طبعاً اللبنانيون. فاحتج هؤلاء إلى القنصل الفرنسي على حمل التذكرة — وكان ثمنها قرشين للرجل وقرشاً واحداً للمرأة — وأرسل القنصل الفرنسي مذكرة طويلة بهذا الخصوص إلى حكومته^(١٨). وشغلت قضيتان أخريان اللبنانيين، وهما تغيير الدولة لقوانينها بما يخص لبنان، والتي يمكن أن تحولها إلى ولاية عثمانية حسب الدستور وكذلك قضية قانون الصحافة الجديدة^(١٩).

(١٤) مجلة المشرق، عدد قري / شباط / ١٩٠٩، ص ٥٣.

(١٥) الأب فرديناند توتل اليسوعي، ص ١٠١.

(١٦) D. F. Aff. Etr. (D. G.) XII, PP. 167-168.

(١٧) Ibid, P. 40.

(١٨) Ibid, vol IX, P. 196.

(١٩) Ibid, P. 244.

وقع على الاجتماع المرفوع إلى القنصل الفرنسي في بيروت كل من فيليب باخوس، فيليب الخازن، أبو علي راشد، أمين غرب، كامل خوري، أبو توفيق ملاط، سليم وهب.

أمر يوسف فرنكو باشا منصرف لبنان بتطبيق قانون الصحافة العثماني سنة ١٩٠٩، ونفذه في ١٩١٠، لكن الصحف بقيادة فيليب الخازن أضربت في أول جانفي / كانون الثاني /، وتدخلت فرنسا وطلبت من الحكومة التركية عدم تنفيذ القانون بصفتها إحدى حاميات بروتوكول لبنان، وكون القانون مخالفاً للنظام الأساسي لجبل لبنان. (وفي ١٩١٣) جرت ثلاثة محاولة لتأليف نقابة الصحافة.

مجلة الأسبوع العربي، العدد ٩٢١، ٢٥ أبريل / نيسان / ١٩٧٧، ص ١٩.

وقد احتج اللبنانيون أيضاً على تلك القوانين الجديدة . وهكذا فقدت الدولة العثمانية أصدقاء الدستور المؤقتين خلال عام ١٩٠٩ بسبب المساواة في الدستور وبسبب تطبيق هذا الدستور ، أما من الناحية السياسية فقد بنشطت الصحافة « الانفصالية » أو الاستقلالية ، مستفيدة من حرية الدستور ، مطالبة بالاستقلال الذاتي للبنان أو الإستقلال التام^(٢٠) ، كما طالبت اللجنة المركزية السورية في باريس ثانية بالحكم الذاتي لسورية ، مثل اليونان والأرمن^(٢١) ، كما يذكر قنصل فرنسا في القاهرة عن اتصال السوريين الموجودين فيها ، به يشكون من الحكم السيئ التركي في سورية ، ويطالبون بتدخل فرنسا . وقد ذكر القنصل البريطاني في بيروت إثر جولة قام بها في لبنان والجبل (بين الدروز الموارنة) « أن كل لبناني مثل كل مسيحي سوري هو انفصالي من كل قلبه ، ويود حماية أي دولة أوروبية على جبله ، وهو أحسن من الحالة التي هم فيها ، سواء تحت حكم لبنان الذاتي ، أو تحت حكم المشروطية لأكثرية مسلمة في استانبول » ويقول هذا القنصل أنه بسبب محاربة الدولة لتقدم لبنان فقد « قامت في موانئ لبنان حركة عداوية ضد الباب العالي ، وكان القنصل يهدئها ، وهؤلاء يعتقدون أن الحكومة تمنع تطوير الأشغال في الموانئ اللبنانية ، بينما تساعد المراكب الخاصة بالمسلمين ، على عكس الدعاية التي تقول بأن اللبنانيين يحبذون يوماً فيوماً العثمانية ، وأن عددهم قد بلغ ١٥٠٠ في جمعية الاتحاد والترقي^(٢٢) .

(٢٠) D. F. Aff. Atr. (D. G.), IX P. 238, 239, 241 (Nov 1909)

(٢١) Ibid, P. 46. (28 Jan 1909)

جاء في تقرير لقنصل فرنسا في بيروت A. Fouyer Duparr في ١٩ ففري / شباط / ١٩٠٩ مرسل لوزارة الخارجية الفرنسية تعليقاً على كتاب رشيد مطران — ذكرناه سابقاً — الداعي لاستقلال سورية الذاتي ، أنه يمكن لكل العناصر العربية من السكان ، سواء كانوا مسلمين أو متاوله أو مسيحيين ، باستثناء مسيحي لبنان ، أن يتجمعوا في قومية عربية موازية للقومية التركية ، لكن الوقت لم يحن بعد ، كما يبدو لفكر رشيد مطران ، ولا يجرؤ شخص على طرح هذه الأفكار أمام الناس ، لكن سوف يكون لها حظ في الصراع وقد تجد صدئ وترحيباً .

Ibid, PP. 30-32

(٢٢) رسالة من القنصل البريطاني

. F. O. 371/781 (1909) 25 Nov (Cumberbatch) PP. 1-4

وفي هذا العام ١٩٠٩ تأسس حزب «الاتحاد اللبناني» في مصر كما ذكرنا في مقدمة هذا الفصل، ثم أصدر رسالة تحت عنوان «الأماي اللبنانية»، كان أهمها إزالة الإلزام في النظام الأساسي، ليصلح أن يكون دستوراً للحكومة «مستقلة بذاتها»، وانتخاب مجلس الإدارة من قبل مجلس الشعب، وزيادة أعضائه، ووضع نظام للقضاء اللبناني^(٢٢).

بداية الصراع القومي

أما علاقة الاتحاديين بأصدقائهم من القوميين العرب، الذين أيدوا الدستور وكانوا آخر ما تبقى للاتحاديين — بعد تصفية أنصار عبد الحميد، وبعد نفور المسيحيين — فقد كانت في أوائل عام ١٩٠٩، تقف عند نقطة حساسة جداً، فهم مع الاتحاديين وفي نفس الوقت ينظرون إلى كيانهم ولغتهم نظرة خائف من أصدقائهم الاتحاديين، ففراهم يدافعون عنهم ويكتبون بالمجلات والجرائد عن دعمهم وتأييدهم، وقد جاء في مجلة النبراس (وكان صاحبها مصطفى الغلاييني من المدافعين عن العرب واللغة العربية)، أن قوانين الدولة كلها موافقة للشريعة الإسلامية، وأن الجمعية المحمدية كلمة حق أريد بها باطل، وجاء فيها انتقاد لسياسة عبد الحميد بعد خلعه، وثناء على الاتحاديين وحتى دفاع عن الأحكام العرفية التي فرضتها الدولة بعد خلع السلطان عبد الحميد، ودفاع عن الجيش، بأنه جيش عثماني وليس جيش جمعية الاتحاد والترقي، وفيها قصائد شعر كثيرة لشعراء كثيرين لمدح الدستور والاتحاديين^(٢٣)، وكتبت هذه المجلة في الأعداد نفسها تنتقد سياسة الاتحاديين بما يخص اللغة العربية، وعدم الاهتمام بها فتقول «إذا كان يحق أن يكون للغة التركية ساعات كثيرة بالنسبة للعربية لأنها رسمية، لكن كيف تكون ساعات الفرنسية أكثر من العربية» وطالبت أن تكون لغة المحاكم عربية في البلاد العربية، وتوظيف السكان حسب نسبة السكان. وفي الوقت نفسه تنتقد

(٢٢) مذكرات بشارة الخوري، حقائق لبنانية، ص ٨٢.

(٢٣) مجلة النبراس، ١٠، ج ٤، ص ١٢٩، ١٣٧ (٢١ أبريل / نيسان / ١٩٠٩) و ج ٥ ص ١٧٣ — ١٩١ و ج ٦، ص ٢١٢ (١٩ جوان / حزيران /)

الأفكار التي أخذت تُداول — وسمتها الجريدة سعاية — بين العرب في دمشق، وهي أن الخلافة للعرب، فهذا ما سوف يقوض الوحدة بين المسلمين^(٢٤)..... إلخ، وهاجمت جريدة المفيد (وهي قومية عربية للزهراوي) والي بيروت، وانتقدت تصرفاته وحكمه^(٢٥) وفي الوقت نفسه هاجمت الذين يطالبون بفرنسا أو انكلترا من اللبنانيين، لأن الدولتين تعملان على تقسيم الدولة العثمانية^(٢٦). وجاء مثل هذا الكلام في صحف كثيرة كما روت مجلة المقتطف. وفي الوقت نفسه كان بعض الكتاب الترك الاتحاديين، يكتبون مادحين للعرب إبقاءً على تحالفهم مع الحكومة الجديدة، فقد كتب حسين جاهد في جريدة طنين مقالة وصف العرب بأنهم أمة حرة تكره الاستبداد وأصله، وتحب الدستور من صميم قواها. وأظهر أن السوريين من هذه الأمة من أرقاها علماً وفكراً وحرية، ولا تقل عن سائر الشعوب العثمانية الجديدة، واستشهد بآراء البكباشي (كوموندان) جميل بك رسول جمعية الاتحاد والترقي، في سورية بالعرب عامة والسوريين خاصة، بعد أن مكث بينهم مدة طويلة — وهو الذي حض حسين جاهد على كتابة هذا المقال بعد أن شعر بالتهامس بين العرب^(٢٧) — بينما نجد اسماعيل فاضل والي وسورية يصرح أن العرب يودون الاستقلال والانفصال عن سائر العثمانيين، لكنه كان يرى أن العرب منقسمون ومتخلفون «ومن يسمون أنفسهم عرباً من أهالي الشام

(٢٤) نفس المصدر، ج ٩ (نوفمبر / تشرين الثاني / ص ٣١٩، ٣٢٧، ٣٤٧.

كان في المدارس الاعدادية تدرس ساعتان للفرنسية في السنة الثالثة وواحدة للعربية وفي السنة الرابعة اثنتان للعربية وأربع للفرنسية وفي السنة الخامسة ساعتان للعربية وخمس للفرنسية.

نفس المصدر، ج ٦، ص ٢٣٧.

(٢٦) D. F. Aff. Etr, (D. G.) vol IX P. 245 (21 Dec 1909).

(٢٧) النبراس، ١٠، ج ٩، نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩٠٩ ص ٣٣١.

جاء في مجلة المقتطف «إذا كان هنالك من ينشر مقالات تحرض العرب على الانفصال عن الدولة، أو تكره إليهم الحكومة الدستورية، فهنالك جرائد كثيرة تمدح الحكومة الدستورية كل يوم، وتقاوم الجريدة أو الجريدتين اللتين شدتا عن سائر الجرائد العربية، ولم تنشر الجرائد العربية مقالات توصي فيها بالاتحاد والوئام، وتقول أنه لا تقوم قائمة إلا بالاتحاد التام، وإن كان بعض المنافقين يقولون أن العرب يتحسرون على عبد الحميد ولا يخلصون للحكومة الدستورية».

المقتطف، مجلد ٥، ج ٣، أكتوبر / تشرين الأول / ١٩٠٩، ص ٩٤١.

والولايات التي تتكلم العربية، أكثرهم ليسوا من الجنس العربي، ونفى الأخبار التي تقول بإماتة اللغة العربية، وقال بأن سورية، تعد من أرق الولايات العربية العثمانية ما عدا سالونيك^(٢٨). وكان من الأسباب التي جعلت علاقة العرب بالأترك حساسة، هي عدم اهتمام الحكومة الجديدة بالنواحي التعليمية ووظائف الدولة والاقتصاد، واتباعها سياسة فيها تميز وعدم مساواة مع الولايات العثمانية، وإن مقارنة بسيطة لعدد المدارس التي أنشأتها الدولة بعد الدستور توضح ذلك بجملاء:

	المدارس قبل ١٩٠٨	المدارس بعد ١٩٠٨
أضنه (تركيا)	٢٧	١٣٢
أيدين (تركيا)	٢٠٢	٢٣٧
أنقره (تركيا)	٦٢	٢٢٧
بيروت (عربية)	٦٠	٧٦
حلب (عربية)	٥٢	١٦١
سورية الشام	٦٤	٦٥
طرابزون (تركية)	٢٤	١٦٣
الموصل (عربية)	١٩	٣٧
مرعش (تركية)	١	٣٩
القدس (عربية)	٨	٢٢ ^(٢٩)

(٢٨) المقتطف، م ٣٥، ج ٦، ديسمبر / كانون الأول / ١٩٠٩، ص ١١٥٣.

(٢٩) مجلة دار المعلمين، القدس، عدد ٢، فقري / شباط / ١٩٢٦، ص ٩١.

وكذلك لم تراعى الحكومة تعيين موظفين من العرب، وخاصة في المناصب العالية كالمصرفين، وكانت الحكومة قد عزلت بضعة عشر متصرفاً، لكنها «بخلت على العرب بذلك». وكانت نسبة النواب والأعيان العرب غير صحيحة في مجلس المبعوثين. فإذا كانت — كما تقول مجلة المنار — الدولة قد عزلت العرب لأنهم صنائع أبي الهدى وعزة، فلماذا لم تعزل صنائع عبد الحميد؟^(٣٠) وفي الحقيقة لم يكن يوجد بين الـ ٢٤ والياً في مجموع الدولة العثمانية سوى اثنين من العرب^(٣١). وكان أسوأ ما في النظام العثماني هو طريقة الالتزام لجمع الضرائب، وكانت مروعة في كثير من حالات جبايتها، ولم تغير الحكومة الدستورية من هذا النظام، وبقيت «مسألة الأعشار (الالتزام) تثير الضغائن بين الناس، وخاصة الأعيان، وهي مسألة المسائل في كثير من البلاد العربية»^(٣٢).

وبحالة عامة بقيت الحالة بعد الدستور كما كانت قبله، لكن كان من المستحيل إحداث تغيير هام خلال سنة من الحكم الدستوري، إلا أن المنتظرين بشوق لهذا التغيير كانوا يرون فيه تقصيراً مقصوداً أو يرون الحالة مؤلمة، وقد كتب الكثير من العرب عن ذلك وعن تلك الحالة المؤلمة، نذكر مثلاً منها ما كتبه أمين الريحاني معاصر تلك الفترة «كان يزيد في ألم الريحاني في خطبة ورسائله، أن تظل الحالة في البلاد بعد إعلان الدستور كما كانت قبله، تغيرت المظاهر، أما الأوضاع الشاذة فظلت هي هي، ودعا إخوانه لمحاربة هذه الأوضاع. ولم تكن الإدارة العثمانية في عهد الدستور الذي أعلن الحرية والإخاء والمساواة أحسن منها في عهد عبد الحميد...»^(٣٣).

كانت تلك أهم القضايا — غير القومية والسياسية — التي جعلت علاقة العرب بالأتراك على طرفي خيط غير قوي، لكن القضية الهامة التي أثرت على هذه العلاقة، ولعبت بها الدور الرئيسي، هي علاقة القومية العربية بالحكم الاتحادي، في

(٣٠) مجلة المنار، ج ١١، ١٢م، ديسمبر / كانون الأول / ١٩٠٩، ص ٨٨١.

(٣١) جريدة المقتبس، ع ٣٤٧، ١٨ أوت / آب / ١٩١٠.

(٣٢) النبراس، ج ١٠، ٣٠ ديسمبر / كانون الأول / ١٩٠٩، ص ٣٨٥.

(٣٣) مجلة الحديث، عدد ٧، ١٩٤٨، دمشق، ص ٥٣٩.

ستته الأولى وما تلاها، وقد أثر على هذه العلاقة عاملان هامين، هما سياسة التتريك العنصرية التي اتبعها الاتحاديون، وسياسة الحكم المركزي الشديد، وما دار حولهما من قضايا أخرى متممة ومنبثقة من هذين العاملين.

في الحقيقة ومنذ البدء لم يكن للعرب دور هام أو كبير في انقلاب الاتحاديين عام ١٩٠٨، لأن عدد العرب كان ضئيلاً في المدرسة الطبية العسكرية، ولأنهم كانوا قلة في أوروبا، مع العلم أن بعض المسيحيين العرب كخليل غانم (بيروت)، الذي كان صديقاً وزميلاً لأحمد رضا في باريس قد شارك في الكتابة، ونشر في جريدة الهلال باسم تركيا الفتاة ضد حكم عبد الحميد^(٣٤). ويذكر مصطفى الشهابي (معاصر تلك الفترة—من لبنان) أن عدداً غير قليل من الضباط العرب والمدنيين كانوا في جمعية تركيا الفتاة^(٣٥)، لكن لم يذكر اسم أي منهم، ولم يذكر كاتبو المذكرات من العرب وخاصة الضباط، أنهم شاركوا في هذه الجمعية^(٣٦)، وكان الجميع يذكرون اسم، محمود شوكت العربي العراقي، الذي قاد الجيش العثماني وخلع عبد الحميد سنة ١٩٠٩، دليلاً على مشاركة العرب لثورة الاتحاديين، ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار نظرة الترك أنفسهم، أن العرب كانوا في غالبيتهم من أنصار عبد الحميد، ولذا فإن استئثار الأتراك بالحكم والوظائف بعد الدستور، ينسجم مع رأيهم هذا ومع عملهم.

منذ البداية ومنذ إعلان الدستور، انطلقت كلمة تركي وانطلقت رداً عليها

(٣٤) رامزور، مقدمة نقولا زيادة له، ص ١٨.

(٣٥) مصطفى الشهابي، القومية العربية، ص ٦٢.

(٣٦) مثل فوزي القاوقجي (ضابط من طرابلس) وكان في استانبول عند الثورة، نوري السعيد، طه الهاشمي، أحمد قدري، فخري البارودي، عوني عبد الهادي، منير الرئيس، ظاهر القاسمي، يوسف الحكيم.... وغيرهم. ويذكر عزرة دوزرة أن بعض المستنيرين من العرب قد كانوا في جمعية تركيا الفتاة دون ذكر أسماء، لكنه يستنتج أن كتاب طابع الاستبداد للكواكبي كان من آثار اندماج (بعض هؤلاء العرب) بالجمعية المذكورة، لكن لا صحة حقيقية لهذا الاستنتاج. حول الحركة العربية الحديثة، ص ١٧. وقد وجه بعض المهاجرين من السوريين سؤالاً عمن هو صاحب الفضل في قيام الدستور، الأتراك أم السوريون، فأجابته مجلة المقطم بأن الفضل لجمعية الاتحاد والترقي وأكثر أعضائها من الأتراك والألبانيين.

المقطم، مجلد ٣٣، ج ٩، سبتمبر / أيلول ١٩٠٨ ص ٦٠٩.

كلمة عربي. ولم يكن هذا معروفاً، حتى في صفوف العسكريين الترك والعرب، في المدرسة الحربية مثلاً في استانبول، وكانت كلمة عثماني هي المألوفة، لكن بعد إعلان الدستور أخذ الشجار يبدأ في هذه المدرسة بين مجموعات الطلاب العرب من جهة، والأتراك من جهة أخرى^(٣٧)، ومنذ البداية أيضاً صار العرب يُشتمون بشخصي عزة العابد وأبو الهدى الصيادي في استانبول^(٣٨). وفي دمشق كانت لها بداية مشابهة في مدرسة عنبر، تلك المدرسة التي كانت المركز الثقافي والسياسي والقومي للعرب في تلك المدينة، حيث أخذت «نغمة» عرب وترك تتردد، وبدأ الصدام بين الطلاب العرب والطلاب الأتراك، وشكل كلا الطرفين فريقاً من ذوي الأجسام القوية للصراع مع الفريق الآخر^(٣٩). وكان الطلاب الأتراك يمثلون الروايات التي تتحدث عن المجد التركي في المدارس والأندية، ويقومون لها بالدعاية في الجرائد، وكان الطلاب العرب يمثلون الروايات القومية في مكتب عنبر، كطارق بن زياد، ولم يستطع الاتحاديون منع هذه التمثيلية «لأن تيار العروبة كان أقوى منهم». وقد بقي الناس شهوراً يتغنون بهذه التمثيلية، وكان من آثارها وقوع صدام في مدرسة عنبر، اضطر والي سورية نفسه أن يحضر للمدرسة كي ينهي النزاع الذي حدث نتيجة شتم أحد الأساتذة الأتراك للعرب في المدرسة، فهاج الطلاب وأضربوا، وكان ذلك سنة ١٩٠٨ بعيد الدستور، وتبيأت النفوس للثورة، وفشل مدير المعارف في فك الإضراب، لكن الوالي وهو عارف المارديني وهو عربي خطب الطلاب قائلاً «أنا عربي بدوي، وأحب الشهامة، فهاج الطلاب وصفقوا له، ثم أخرج الأستاذ (مصطفى ثابت) بين صفين من الطلاب الهائجين الهازئين به وتم فصله من المدرسة^(٤٠). وحدث التماس والاحتكاك بين مختلف فئات

(٣٧) مذكرات القاوقجي، ص ١٢.

(٣٨) مذكرات يوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ١٧٠، ويذكر الحكيم أيضاً أن الجرائد العثمانية صدرت عنه هجومها على عزة وأبو الهدى بكلمات: بيس عزة، بيس عرب (كلب عزة، كلب عرب).

(٣٩) مذكرات البارودي، ج ١، ص ٥٥.

(٤٠) أوراق البارودي، القسم الخاص، وثيقة رقم ٥٨ (مركز الوثائق بدمشق) وظافر القاسمي، مكتب عنبر، صورة وذكريات، ص ١٠٢.

الطلاب العرب والترك في معاهد استانبول، وكان هؤلاء الطلاب لا يجتمعون إلا ويتناقشون ويتجادلون وينتهي الأمر بخضام ونفور وتأجيج الصدور^(٤١).

في هذا الجو وبعد الدستور بفترة قصيرة، تأسست في استانبول جمعية الإخاء العربي — كما ذكرنا سابقاً — لإعلاء شأن الأمة العربية، والتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي في النهوض بكيان الدولة. واضح أن الغاية هي عربية وليس تركية أو عثمانية، ولذا وصفها جمال باشا بأنها « كانت تهدف للافتراق بين الأمة العربية والترك، وكانت التشويقات والترغيبات لبث هذه الفكرة تجري بانتظام، وكانت المظاهرة، ضد الترك والمدنية التركية وبث فكرة الافتراق، تجري بصورة دائمة. وكان تلقين الناس بأن الافتراق من الأمور السهلة »^(٤٢)، وتذكر مجلة الأسرار (بيروت) تأييداً لرأي جمال باشا، بأن جمعية الإخاء كانت غايتها محاربة حزب الاتحاد والترقي، لكن لجمع كل الملل العثمانية بدون تفريق في الجنس أو المذهب^(٤٣). ويؤكد عزة دروزه هذا الدور لهذه الجمعية، بأنها « سجلت من دون ريب حقيقة بدء بروز الفكرة القومية بمعالمها الواضحة في هذا الدور، وتحفز العرب للانتفاع بالأفق الذي فتحه إعلان الدستور أمامهم والنهوض بكيانهم القومي »^(٤٤). وكان الاتحاديون يشكون برجال جمعية الإخاء وخاصة شفيق المؤيد منهم، الذي أصدر جريدة باللغة العربية للتعبير عن أهداف هذه الجمعية، وكان شكهم آت من اتهامهم ومعرفتهم، بأن شفيق المؤيد يزور السفارة الفرنسية في استانبول، وكانت مخابراتهم تراقب زيارته، وتشك في محاولة تعاون شفيق المؤيد (أعدمه جمال باشا) وغيره مع فرنسا ضد الدولة العثمانية^(٤٥)، وزاد الشك عند

(٤١) نفس المصدر.

(٤٢) القائد العام للجيش الرابع، ايضاحات حول المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بالديوان العربي بعلية،

١٣٣٤، ص ٩ — ١٠.

(٤٣) مجلة الأسرار، عدد ٣٨، ١٩ ديسمبر / كانون الأول / ١٩٣٨، ص ٢.

(٤٤) حول الحركة العربية الحديثة، ص ٢٣.

(٤٥) عزيز بك، الانتخابات والجانوسية في الدولة العثمانية، ص ٢٠ — ٢١، في مركز الوثائق التاريخية بدمشق صور لمراسلات بين شفيق المؤيد وسفير فرنسا في استانبول لكنها في تاريخ متأخر عن هذه الفترة سنأتي عليها في حينها.

الأترك إلى درجة اليقين، أن معظم المنتسبين لهذه الجمعية من العرب، قد أيدوا حركة العصيان (الارتجاعية)، التي قام بها عبد الحميد سنة ١٩٠٩، ولذلك حلوها بعد قمع هذه الحركة وأغلقت جريدتها أيضاً^(٤٦).

كان إغلاق الأترك لهذه الجمعية، أول هزة سياسة في علاقات الاتحاديين الرسميين، مع العرب الرسميين والقوميين، لأن جمعية الإخاء كانت مكاناً لالتقاء نواب العرب في مجلس المبعوثين، ولأنه كان من مؤسسيها وأعضائها البارزين، شخصيات كبيرة كعارف المارديني (والي سورية كما ذكرنا)، وشكري الأيوبي، والأمير محي الدين الجزائري، ومسعود الكواكبي، وندره مطران وغيرهم. وأتت هذه الهزة سريعاً، ولم يمض وقت طويل على إعلان الدستور، لانعدام الثقة وهشاشة العلاقة بين الطرفين أصلاً. وقد تنبأ عارف الشهابي (أعدمه جمال باشا) بسرعة الانفكاك وزعزعة العلاقة، إذ كتب «إن إعلان الدستور ضربة قاضية على قوميتنا، لأن الذين كانوا يكرهون الحكم الاستبدادي كانوا يستجيبون لدعوتنا، فلما أعلن الدستور أخذوا يكتفون به، وسيكون مشوارهم معنا قصيراً»^(٤٧).

كانت كثرة الشباب العرب في استانبول بعد إعلان الدستور، وتنقلهم من بلادهم إليها، واتساع الحركة السياسية العامة فيها، ومنها انتشار الأفكار العربية، كان كل هذا أكبر من أن يتوقف بحل جمعية الإخاء العربي. ورغم أن هذا الحل أتى سريعاً، لكنه أتى معاكساً للتيار وهو في بداية انطلاقه السياسي، وسريعاً ما عوض هؤلاء

(٤٦) مذكرات أحمد قدری، ص ٧.

(٤٧) مصطفى الشهابي، القومية العربية، ص ٦٢-٦٣.

قال شاعر عربي يعبر عن خيبة أمل العرب في الدستور في هذه الفترة:

كنا نعلل بالدستور أنفسنا	بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب
حتى إذا جاء لم يحدث لنا حدث	ولا استجيب لنا في مطلب طلب
وقال آخر:	

لا تصلح الدنيا ولا ناسها	مالم يل الأقوام أجناسها
طلبتم الإصلاح من عصبة	توترت بالانقصاد أقواسها

مصطفى الشهابي، ص ١٠٣، وعلي المحافظة، ص ١٣٧.

العرب إغلاق جمعية الإخاء، بافتتاح نادي عربي في استانبول سموه المنتدى الأدبي، لم يشمل كل العرب فيها رسميين وقوميين وطلاباً وزواراً، وتميز عن جمعية الإخاء بطول عمره إذ بقي حتى سنة ١٩١٥ وكان في ازدهار مستمر، وخاصة في المجال الأدبي الذي يثير العواطف القومية، ومنها تمثيل الروايات العربية على شاكلة ما كان يحدث في مدرسة عنبر، تمجيداً للعرب مقابل روايات الترك بتمجيد أنفسهم. وكانت مثل هذه النشاطات تثير العزة والعواطف العربية، لكنها كانت تثير في الوقت نفسه الحقد وعدم الثقة بين الأتراك^(٤٨)، خاصة وكان الموجهون فيه والعاملون على نشاطه، هم فئة المسؤولين العرب في الدولة العثمانية، كعبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي، وسيف الدين الخطيب (أعدمهم جمال باشا)، وطالب النقيب من العراق. وقد وصف جمال باشا نشاط النادي العربي بأنه كان معادياً للأتراك، ويدعو للقومية والعنصرية إذ «تحول المنتدى الأدبي من مكان تجمع للشباب العرب وتدريبهم وتعليمهم بدلاً من التسكع في شوارع العاصمة، إلى منتدى سياسي تبارى فيه معظم الزعماء العرب، كعبد الكريم الخليل، ورشيد رضا، وسيف الدين الخطيب، وعبد الحميد الزهراوي، والطبيب حسين حيدر، ومما قاله رفيق رزق سلوم الذي كان ينظم الشعر، أنه ليس لديه شعر ضد الدولة، لكنه نظم شعراً يتعلق بمجد العرب ومدنيتهم وإعادة حاكميتهم، ولم يكن في قلوب رؤسائه ذرة من حب الدين والوطن، وكانوا يتحدثون عن الاستقلال والعنصرية والقومية وحقوق العرب المغصوبة، وكان للمنتدى تعليمات خفية لا يعلمها إلا الأعضاء المؤسسون، وكان الأعضاء العاملون على استقلال البلاد العربية، يشنون هذه الأفكار عند عودتهم إلى بلادهم»^(٤٩). وإضافة إلى النشاط القومي

(٤٨) مجلة المنار، م ١٣، ج ٦، يوليو ١٩١٠، ص ٤٦٩.

مثل الشباب العرب في استانبول مسرحية امرؤ القيس، وقام بأدوار التمثيل، سيف الدين الخطيب (دمشق)، عادل الطابع، وزكي التميمي (فلسطين)، بهجت مردم بك (دمشق)، على أبو السعود (دمشق)، كامل الحكيم، وصفي الجندي (حمص)، جميل الحسني، معين الماضي (فلسطين)، توفيق هولو (بعلبك)، وبلغ دخلها وكان عالياً: ٥٦٠ ليرة عثمانية، والثانية ٨٠٠ ليرة، واشترى طالب النقيب تذكرة بـ ٣٠ ليرة ذهبية.

أوراق فخري البارودي، وثيقة رقم ٨/٦٣. (مركز الوثائق بدمشق).

(٤٩) جمال باشا، إيضاحات، ص ١٢-١٣.

للمنتدى الأدبي ، كانت الصحف هي التي بدأت تأجيج العلاقة بين العرب والترك ، إذ عقد العرب في استانبول اجتماعاً واختاروا عبد القادر العظم ، ليعبر باسم العرب عن إخلاصهم للوطن والإخاء والحرية والمساواة ، بدون أي تفريق بين جميع العثمانيين ، وليعبر أيضاً عن احتجاج العرب على ما كتبه الجرائد التركية بحق العرب ، فقبلت الحكومة قوله ومنعت الصحف من التهجم على العرب — وكانت الصحف التركية قد ذكرت العرب بصفات سيئة على أثر حركة عبد الحميد سنة ١٩٠٩^(٥٠) . وكتبت مجلة المقتطف ، أن الأتراك — حسبما تنشر جرائدهم — يشكون بولاء السوريين وانتائهم للدولة العثمانية ، وكتبت بوجوب عدم التعويل على ما كتبه بعض الصحف العربية ، من تحسر على عهد عبد الحميد^(٥١) . وحتى يظهر العرب ولاءهم للدولة ، حضر وفد من سورية ، لتهنئة السلطان الجديد محمد رشاد بجلوسه على العرش ، وقد سر هذا السلطان بتلك الزيارة وقال للوفد السوري ، بأنه جرت خلال الأيام الماضية «برودة بين العرب والترك» ، لكنها زالت سريعاً ، وأنه من المحقق ألا يحدث بينهما سوء ما دام الشعبان مرتبطين بدين واحد^(٥٢) . وكان يعتقد محمود شوكت ، قائد الجيش الذي أنهى حكم عبد الحميد ، أن للنشرات التي كان يصدرها عزرة العابد في أوروبا تأثيراً في دمشق ، وكان يعتقد أن الرجعيين في سورية ، الذين كانوا ينالون الأوسمة المرسعة من عزرة العابد وأبي الهدى الصيادي ، هم الذين قاموا ضد الدستور ، وهم الذين يقفون ضد الدستور . وهدد أمام الوفد بالمشنقة خلال الأحكام العرفية لكل من يقف ضد الدستور ، لكن القاسمي أكد له أن معظم سكان سورية مؤيدون للدستور^(٥٣) . وفي الحقيقة كان الاتحاديون يشكون كثيراً بنشاط السوريين ، وخاصة المثقفين منهم ، حتى أولئك الذين كانوا ضد عبد الحميد كجمال الدين القاسمي وغيره ، إذ قدمهم الاتحاديون للمحاكمة في سبتمبر / أيلول / ١٩٠٩ ، بسبب تشويقهم بعض

(٥٠) مذكرات الحكيم ، سورية والعهد العثماني ، ص ١٧٢ .

(٥١) المقتطف ، م ٣٥ ، ج ٣ ، ١٩٠٩ ، نوفمبر / تشرين الثاني / ص ٩٤١ و ٩٤٣ .

(٥٢) صلاح الدين القاسمي وآثاره ، ص ١٧١ تأليف محب الدين الخطيب .

(٥٣) نفس المصدر ، ص ١٧٩ — ١٨٢ .

الأشخاص لتأليف جمعية النهضة السورية — وقد ذكرناها سابقاً —، وأنها فرع لجمعية في البلاد، كالبن ونجد، وأنها تطلب الاستقلال الإداري، وتريد تشويش الأمور الداخلية بطلب حكومة عربية، وتأسيس خلافة عربية. وكانت الدعوى ضد جمعية النهضة ذاتها، مما اضطر أعضاؤها أن يتقدموا بطلبات ويدخلوا في جمعية الاتحاد والترقي حفظاً لنفوسهم^(٥٤). وكان مركز جمعية الاتحاد والترقي في سالونيك، قد ثار بسبب التقارير التي كانت تصله عن نشاط جمعية النهضة العربية، وتتهم عزة العابد بأنه أسسها، وأنها هي التي نشر رشيد مطران باسمها جريدته «نهضة العرب» في باريس^(٥٥) في الفترة نفسها. وعبرت الجرائد والمجلات عن علاقة العرب بالأترك في هذه الفترة بأنها سوء تفاهم، وكان سببه كما ذكرته مجلة المنار أنه ينحصر في أمرين:

- ١ — تعالي التركي على العربي بجنسه.
- ٢ — التقصير في نشر اللغة العربية.

وقالت هذه المجلة «إن كثيراً ممن بدت بغضاؤهم للعرب ليسوا أصلاً من العنصر التركي باليقين، وإنما أكثرهم أوشاب وأوزاع من عناصر شتى، تتركوا وأسلموا من زمن بعيد أو قريب لأجل مناصب الدولة، فهم لا حظ لهم في الحياة إلا فيها، فلا عجب إذا بغضوا كل من يراحمهم عليها». وحضت مجلة المنار الجرائد، لدعم الوفاق بين العرب والترك، لا تحريك الشقاق^(٥٦). ولا شك أن مجلة المنار كانت تعني جريدة تركية في مصر، حيث كتب فيها أحمد رضا وهو من كبار الاتحاديين، بأنه يرى أن يكون الدستور فيه تفوق الأتراك في كل حال، ولا ينال سائر العناصر شيئاً من الحقوق التي تضر بسلامة المملكة^(٥٧).

(٥٤) مذكرات جمال الدين القاسمي، ص ٤٧١ — ٤٧٥، «سأل المحقق جمال الدين عن أغراض جمعية النهضة وأغراضها الوهاية، وعن عددهم في الشام واتصاله بالتمهدي في اليمن، وأن الشيخ طاهر المغربي (الجزائري) هو المخرض للتمهدي، لأنه مغربي مثله، واتصاله بعزة باشا العابد، ص ٢٠٣.

(٥٥) نفس المصدر، ص ٤٧٤.

(٥٦) مجلة المنار، ج ١٢، م ١٢، يناير / كانون الثاني / ١٩١٠، ص ٩٢٨.

(٥٧) مذكرات كرد علي، ج ١، ص ٧٧. كتب كرد علي في مذكراته «الاتحاديون أعاجم لا يفهمون ولا يعبون

لم يدع عام ١٩٠٩، أو سوء التفاهم في هذا العام بين العرب والترك، مجالاً للشك في أذهان بعض الشباب العرب، أن الاتحاديين يعملون بسياسة تركية عنصرية مركزية شديدة، وقد لاحظوا ما لاحظوا من تخرج وشم للعرب، ومن جدال وصراع كان يدور بين الطلاب العرب والترك في كل مكان. وبعد إغلاق جمعية الإخاء العربي العلنية، فكروا في نوع آخر من العمل للوصول إلى مطالب العرب، وهو العمل السري، وتأسست في هذا العام كما ذكرنا سابقاً الجمعية القحطانية، وجمعية الفتاة. وكان ذلك إيذاناً بمرحلة صراع طويلة بين الطرفين، وكانت دلائله الأولى نقل الضباط من سورية ومكدونية، وجمعهم في الآستانة بسبب الارتياح بهم، بعد أن «كانوا أشد أعوانهم في إعادة الدستور وحفظه، وقد برر الأتراك نقلهم للضباط العرب، بأنه أمر طبيعي يجري في الجيش على كل الضباط من الجنسيات المختلفة، لكن «حساسية الضباط العرب تجعلهم يشعرون أن الأمر مقصود ضدهم، بينما لا يحس الضباط الأتراك بذلك، لأنه لا وجه آخر للتفسير عندهم»^(٥٨). وبدا أن استمرار الجمع بين الترك والعرب في دولة واحدة على أسلوب الاتحاديين، أصبح أمراً عسيراً، حتى إن جريدة المقطم نشرت اقتراحاً على لسان باحث عثماني، أن تنقسم السلطة العثمانية إلى قسمين إداريين، قسم تجري فيه الإدارة باللغة العربية، والآخر باللغة التركية، وأن يكون لكل قسم مجلس نواب خاص، الواحد تجري مباحثه باللغة العربية، والثاني باللغة التركية، ويكون للسلطنة كلها مجلس أعلى، ولا بأس أن تكون مداولاته باللغة التركية، مع إباحة اللغة العربية ولو بالترجمة، وبررت هذا المشروع بسبب قلة عدد سكان الأتراك البالغين

→ أن يفهموا، أقوياء الشكيمة، لا يرضيهم إلا أن يسير كل إنسان في المملكة على برنامجهم الأعرج، بدون بحث ولا نظر، وإلا فالقتل مصيره...» ص ٧٧.

حللت مجلة الهلال سوء التفاهم بين العرب والترك أنه على ثلاثة أشكال: بعض العرب يسيء الظن بالأتراك، ويعتقد أنهم يظهرون المساواة ويضمرون الاستئثار، والبعض الآخر يعتقد سوء التفاهم متبادلاً وعلى الأتراك أن يزبلوه ويدأوا بالتقرب، والثالث وهم الأقلية يعتقدون الخطأ من جانب العرب، ويتعنون الظن بالأتراك، وكانوا صلة الوصل بين الطرفين.

الهلال، م ١٨، ج ١، أكتوبر / تشرين الأول / ١٩٠٩، ص ١٥٦.

(٥٨) المقطف، م ٣٥، ج ٦، ديسمبر / كانون الأول / ١٩٠٩، ص ١٠٨٥.

خمسة ملايين، من مجموع خمسة وعشرين مليوناً لكل العثمانيين، منهم ٨ — ١٠ ملايين عربي تابعين للدولة العثمانية^(٥٩). وهكذا كان عام ١٩٠٩ بداية حاسمة ليس في الصراع بين العرب والأتراك فحسب، وإنما في مستقبل الدولة العثمانية، ولم يكن بالنسبة للاتحاديين برغم قضائهم على ثورة عبد الحميد المضادة عاماً بارقاً (كما عبرت عنه تقارير السفارة البريطانية في استانبول) في البلاد العربية، بسبب مركزية الحكومة، وقلة ثقتها بموظفيها، وقلة عدد العقول الحرة من الولاة والقائمقامين^(٦٠).

فقدان الأمن

يعترف كثير من الكتاب العرب، بأن الدستورين قد قاموا بإصلاحات كثيرة مجازة للتطور العصري، وكان ذلك جهد المستطاع، لأن الظروف السياسية داخلياً وخارجاً أعاقهم من إتمام تلك الإصلاحات، ولم تكن القضية العربية هي التي تشغل الدولة العثمانية فحسب، فقد كانت المصاعب من الضخامة^(٦١) بما هو أكبر من قدرة الدولة، إذ أعلنت بلغاريا استقلالها رسمياً، وألحقت التماس مقاطعتي البوسنة والهرسك بها، وأعلنت جزيرة كريت التحاقها باليونان^(٦٢). ولم تستطع الحكومة التغلب على هذه القضايا. وإذا كانت الحكومة قد استطاعت بالقوة فرض النظام، وثبتت هيبتها بين الناس حتى خافوا ودخلوا في جمعية الاتحاد والترقي، لا عن إيمان وإنما صوناً للنفوس، فلقد كانت تلك الكوارث من أسباب ضياع هوية هذه الدولة، فعادت الحوادث الداخلية لتظهر من جديد في سورية، غير مكترثة بقوة الدولة، عندما هاج سكان حمص وحماه بسبب غلاء المواد الغذائية وخاصة القمح، ونهبوا المستودعات

(٥٩) المقطم، مجلد ٣٣، ج ٦، جوان / حزيران / ١٩٠٩، ص ٦٠٩.

(٦٠) تقرير سنوي عن سنة ١٩٠٩.

F. O. / 371/ 1002, (1910) P. 44

(٦١) انظر مذكرات الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ٢٤٩، وسليمان موسى، الحركة العربية، ص ٢٧،

وعبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ٤٨.

(٦٢) عددت مجلة Questions diplomatiques et coloniales مشاكل الدولة العثمانية في الصرب ومكدونيا

وبلغاريا ولم تذكر القضية العربية.

I Aout 1908 Paris No 275. P. 194

واضطرت الدولة إلى تخفيف الأسعار، وعندها كادت تقوم ثورة مشابهة في دمشق، لولا احتياط الدولة، وعاقبت الدولة الفاعلين بالسجن، وكثرت حوادث التعدي والسطو وقطع الطرق والإغارة على القرى، وسيطرة البدو على الريف^(٦٣)... إلخ. إلا أن ثورتين قامتا في سنة ١٩١٠ في حوران والكرك، وكانتا من القوة والعنف إلى حد اضطرت معه الدولة إلى إرسال الجيش لقمعهما، كما عانت الدولة في نفس السنة ثورتين عربيتين خارج سورية، وهما في اليمن وعسير، إضافة إلى ثورة الألبان ومكدونيا. وقد عبر خليل بك (أحد أعضاء الحكومة) في جلسة لمجلس المبعوثين بأن وضع الحكومة صعب، وأن التنظيم الحكومي لم يأخذ بعد حالته الطبيعية، ويلزمه الوقت، وعدد ثورات ألبانيا ومكدونيا وحوران. وقد جاء في تقارير من سورية من قناصل بريطانيا أرسلتها السفارة البريطانية في استانبول في مايو / أيار / ١٩١٠ لوزارة الخارجية، تعطي صورة فوضى واضطراب واعتداءات من مختلف الأنواع بين البدو وبين المسلمين والمسيحيين، نورد بعضه «قامت عصابات البدو بالاعتداء تحت أنظار الضابطية والبوليس أنفسهم، دون أن يلقوا أي عقاب، وقد اعتدوا على الأجانب في «القرتين» إلى جانب حمص، وكان منهم الدوق ماكلنبرغ شفرن ومهندس بلجيكي، وفي يافا، الأمن ضعيف والدولة ضعيفة، ولا يثق غير المسلمين بالدولة، فمثلاً إذا طلب القائم مقام إلقاء القبض على أحد، فإن هذا يطلق النار علامة التحدي، وتحدث حوادث بين المسلمين والمسيحيين وهي عديدة لكنها غير خطيرة، وحدث حشد لإطلاق سراح السجناء في يافا، وتدخلت القوات، لكن السجناء أطلقوا أنفسهم، ومنع المسلمون في دمشق المسيحيين اليونان من تعليق جرس في الكنيسة، مع أنهم أخذوا إذناً من الدولة، واضطر الوالي إلى مسايرة المسلمين. وسكان شمال سورية وكلهم من المسلمين ويحملون السلاح تحت أنظار الوالي، وهم يحمون أنفسهم، وهم معرضون لغارات البدو العرب والأكراد وقطاع الطرق ولصوص الأغنام، ولم يستطع الوالي فخري باشا أن يفعل شيئاً، لأنه ضعيف برغم أنه يعد كثيراً دون أمل، وقلق المسيحيون في إنطاكية من إطلاق

(٦٣) D. F. Aff. Etr, vol IX, P. 64 et X, P. 48, 9-10

وجريدة المقتبس عدد ٣١٧، مارس ١٩١٠، وعدد ٤٣٧، أوت / آب / ١٩١٠.

سراح عشرين محكوماً بالاعدام، ومائتين آخرين بعفو من السلطان يوم جلوسه، وأحكامهم كانت بسبب اشتراكهم بمذابح الأرمن، ولا يستطيع السوريون أن يقولوا شيئاً للنظام الجديد الدستوري، لكن لا يبقى عدم الرضى دائماً على هذه الحالة، ولبنان — برغم تمتعه بقسط من الحضارة — يعاني من السلطات المعطاة لحاكمه، بتعيين وتسريح الموظفين، والموظفون الجدد يحبون الجدل أكثر من العمل»^(٦٤).

وإذا كان إطلاق سراح المحكومين من المسلمين، يثير ضغينة المسيحيين ضد الدولة، فإنها أهدمت الكثير من المسلمين ممن اشتركوا في حوادث أضنه ضد الأرمن، وكان هذا بدوره أيضاً يثير ضغينة المسلمين وخاصة في ولاية حلب ضد هذه الدولة. وزاد من ضعف هبة الدولة أنها طلبت من السكان أن يتبرعوا بالمال من أجل الأسطول، وهذا ضعف بحد ذاته، إضافة إلى أن الولاة كانوا يلجؤون أحياناً للتهديد حتى يجمعوا المال، مما كان ينفر الأهالي من هذا الفعل، حتى إن بعضهم كان يدعو ألا يكون للدولة أسطول، عن أن يدفع مالا من أجل هذا الأسطول. وجمع الوالي في حلب ٢٠٠٠ ليرة، منها ١٢٠٠ من المسيحيين، و ٨٠٠ من المسلمين^(٦٥)، وفي دمشق ألقت زوجة الوالي كلمة بين النساء لجمع المال للأسطول، فتبرعن بما مجموعه ٦٣٤٥ قرشاً^(٦٦) وكلها مبالغ صغيرة.

وساءت الأمور في حلب ومنطقتها، واختل الأمن كثيراً لدرجة أن سطا الأعراب على عربة البريد بين الاسكندرونة وحلب، ونهبوا منها ٣٠٠ ليرة من أموال الدولة ونهبت قافلة أغنام بين الموصل وحلب، على الرغم من أن ١٣٠ جندياً كانوا يحرسونها، ولم يستطع الوالي تجديد قوة الدرك بسبب نقص المال، حتى ولم يستطع أن يأخذ مالا من «الدفتردار» مسؤول الخزانة، كي يعيد ترميم جسر بين حلب والاسكندرونة هدمته السيول، حتى إن الوالي عندما طلب التبرع بالمال للأسطول في

F. O. 371/1010/ (1910), No 19569, 20 Mai P. 188. (٦٤)

Ibid, 371/1007/ (1910) No 10519. P. 126. (5Mar). (٦٥)

النبراس، ج ١، مجلد ٢، جانفي / كانون الثاني / ١٩١٠، ص ٧٦. (٦٦)

حلب، أجابه أحد المواطنين (راجي الجسر) «إن الحكومة التي كانت تقتل حلب ليس لها حق على مواطنيها» وكان يقصد خط حديد حلب، الإسكندرونه، ووعد الوالي بإنجازه^(٦٧). ومرت حلب وفلاحو المنطقة بأزمة اقتصادية، سببها الفقر الشديد، وظهرت بؤادر ثورة، ونحشي ملاك الأرض الكبار على أرضهم، وحاول الوالي احتواء الثورة بتوزيع الطحين بين الطبقات البائسة على شكل واسع، وكان الوالي قد عاد إلى حلب حتى يجمع الجنود الكافية لتهدة المدينة، وكانت إضافة إلى الفقر توجد الأسباب السياسية المعادية للترك^(٦٨).

وظهرت — مثلما حدث في حلب — ملاحم التمرد في حوران ضد ضريبة الالتزام، ورفض سكان قرية إنخل دفع هذه الضريبة، مما جعل الوالي يرسل حملة عسكرية من مئتي جندي عليها، ضربوها بالمدفع والأسلحة الأخرى، وتسبب هذا الهجوم بأضرار وخراب وقتل ثلاثين رجلاً^(٦٩). وقد فسر محمد كرد علي هذه الحادثة، على أن سببها هو اضطهاد المشايخ للفلاحين الذي أدى بدوره، إلى سوء العلاقة بين الفلاحين والدولة، «وعيد الفلاحين هو يوم خلاصهم من المشايخ الذين يأخذون كل ما يملكون كضرائب»^(٧٠).

ثورة الدروز

وتتابعت مظاهر العصيان والتمرد، سواء عند البدو أو في المدن التي شهدت كلها حوادث ذات أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية، سواء في دمشق أو حمص أو حماه أو حلب أو حوران، ووصلت إلى ذروتها في حوادث جبل الدروز الواسعة. وكان من أسبابها العامة سيادة العقليّة القبائلية والعشائرية والطائفية، التي كانت حتى ما بعد

(٦٧) F. O. 371/1007/ (1910) P. 127

و D. F. Aff. Etr, vol X (1910) 14 Jan, P. 4

Ibid, PP. 10-11. (٦٨)

D. F. Aff. Etr, (D. G.) vol X (9 Jui 1910) P. 177. (٦٩)

(٧٠) المقتبس، عدد ٤٣٣، ٢٧ يوليو / تموز / ١٩١٠.

هذه الفترة (١٩١٠) التي حدثت بها ثورة تمرد الدروز، تتخذ من الغزو عرفاً لها، وكان هناك بين الدروز والحوارة نوع من العداء التقليدي، وخاصة بين زعماء الفئتين، عائلة الأطرش بين الدروز وعائلة المقداد بين الحوارة^(٧١)، وكان البدو أيضاً يمارسون هذا النوع من الغزو بشكل أوسع، ويفرضون الخوة (ابتزاز المال)، وإلا خرجوا ودمروا وقتلوا، وعرف تاريخ سورية بكثير من هذه الحوادث في هذه المرحلة وما سبقها وما تلاها أيضاً. وكانت تتشكل من الدروز عصابات وصلت بغاراتها على مناطق أبعد من حوران، كالقلمون والضمير. وقد جاء في جريدة المقتبس «أنه تألفت عصابة من جبل الدروز، قوامها مائة فارس للإغارة على القلمون والنهب على عاداتهم»^(٧٢). وقد قام الدروز بغارات على عدة قرى في حوران، كمعربا وغصم وجيزة وبصرى، وتغلب الدروز وشركاؤهم البدو على الحوارة، وسلبوهم ما لهم وسلبوا مال التجار أيضاً، كما نهبوا قافلة مؤلفة من مائة جمل محملة بين غصم ومعربا، وبلغ عدد القتلى من الحوارة ستين قتيلاً بينهم نساء^(٧٣). ويذكر سلطان الأطرش (زعيم الدروز) في مذكراته أن سبب حملة سامي باشا الفاروقي قائد حملة الجيش العثماني ضد الدروز، هو نشوب نزاع بين الجبل والحوارة أدى إلى مقتل عدة أشخاص بين الطرفين، وكان أكبرها في ٢٩ يوليو / تموز / ١٩١٠، أما السبب المباشر كما يقول الأطرش، فهو أن الجبل أصبح منذ مطلع القرن حمى لأحرار العرب من كل حذب وصوب^(٧٤)، مع أن التاريخ لا يذكر لنا أن شيئاً ما وقع حتى يهرب أحرار العرب إلى الجبل في هذا التاريخ وقبله، وأن ذلك قد حدث فعلاً بعد هذا التاريخ، وبشكل دقيق في الحرب العالمية الأولى، وخلال حكم جمال باشا في دمشق، وعندما يسرد شكيب أرسلان حوادث الجبل هذه لا يذكر لها

(٧١) نفس المصدر، عدد ٤٣٨، ٣ أوت / آب / ١٩١٠.

(٧٢) نفس المصدر، عدد ٤٣٧، ٢ أوت / آب / ١٩١٠.

(٧٣) جاء في الوثائق الفرنسية هذه D. F. Aff. Etr. (D. G.) vol X, P. 9 أن الدروز بإغارتهم على قافلة

الجمال بين غصم ومعربا، قتلوا ٢٣ مسلماً منهم أربع نساء ومسيحيان وكرديان، المقتبس، عدد ٤٣٧،

٢ أوت / آب / ١٩١٠. ومجلة العرفان، ٢٠، ج ٨، نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٠، ص ٤٣٥.

(٧٤) مذكرات سلطان الأطرش منشورة في مجلة المساء، عدد ٩٧، ٩-١٥ ديسمبر / كانون الأول /

سبباً، ويبدأ الحديث عنها بحملة الفاروقي الذي لو أراد وصفه لوصفه بالسوء، لكنه لم يفعل لأنه ينتمي إلى عمر بن الخطاب^(٧٥). أما الوالي اسماعيل فاضل باشا فله رأي آخر، وهو اعتقاده أن الإنكليز هم الذين شجعوا وحرصوا الدروز على القيام بالتمرد على الدولة «الذي أدى إلى قتل ١٧ مسلماً من منطقة درعا كانوا يدافعون عن بصرى الحرير، حتى أبيدت عائلة المقداد المسلمة.... وأن القنصل البريطاني وضابطاً من الجيش الهندي ظهر في حوران، وكانا يحرضان الدروز — حسب رواية الوثائق الفرنسية —» ولهذا قرر الصدر الأعظم أن ينهي أعمال العصابات^(٧٦). وحاول الأمير علي باشا الجزائري أن يتوسط بين الدولة والدروز واتصل بالقنصل الفرنسي في دمشق، ليبلغ السفير الفرنسي في استانبول للتأكد من الأخبار التي تنوي الدولة أن تقوم بها ضد الدروز^(٧٧). وتوسط شكيب أرسلان أيضاً، وأرسل للدروز ألا يقاوموا الجيش القادم إليهم بقيادة سامي باشا الفاروقي وهو عربي^(٧٨) «ولأنه عربي — كما ذكر سلطان الأطرش — سمح الدروز للقوات العثمانية بدخول الجبل واحتلال القلعة والهضاب، وإلا لو علموا أنه سيتبع معهم خطة عثمانية، لقاوموه في أول الأمر ومنعوه من دخول الجبل، وخاصة بعد أن قلب الأتراك ظهر المجن للعرب». والذي حدث أن وفداً من زعماء الجبل قابل الفاروقي، وعرض عليه مشاكلهم مع الحوارة، فقال الفاروقي بأنه يقصد من حملته سيادة القانون وإعادة الطمأنينة والهدوء إلى المنطقة، وتطبيق القانون كنزع السلاح من الأهالي، وجباية الأموال وتجنيد الشباب، فإذا تم له ذلك دون مقاومة، فقد أقسم ألا يمس إنساناً بإساءة ولا يقوم جيشه بأي تخريب في الجبل^(٧٩). قاد الفاروقي حملة كبيرة مؤلفة من ٢٧ لواء من جنود من مختلف البلاد العثمانية، وأخذ ١٥٠٠ جمل من مسلمي حوران، وتكلفت الحملة ٤٠٠ ألف ليرة تركية، بالإضافة إلى نصف

(٧٥) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ٤٢.

(٧٦) D. F. Aff. Etr. (D. G.) vol XI P. 2 (1910).

(٧٧) Ibid,

(٧٨) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ٤٢.

(٧٩) مذكرات سلطان الأطرش، مجلة بيروت المساء، عدد ٩٨ (١٦—٢٣ ديسمبر / كانون الأول /

مليون فرنك، وأبلغ سامي الفاروقي القنصل الفرنسي في دمشق، أن الحملة ليست لاختضاع الدروز فحسب، بل كي لا يتعدوا حدود الجبل، وأن يسلموا أسلحتهم، وينهي أيضاً غارات البدو في تلك المنطقة. وقام الشيخ سعد أبو سليمان في اللجاة، بمساعدة الدروز حتى منع سامي الفاروقي من إتمام الحصار، فاستقدم الفاروقي قوات جديدة من دمشق وحمص، وتوسط لدى الباب العالي، فأعفى عشيرة الشيخ سعد من نصف الضريبة ومقدارها ١٥ ألف ليرة فاستكانوا وبقي الدروز وحدهم، فحاصروهم الفاروقي من جميع الجهات^(٨٠)، وبدأ القتال في أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٠، واستخدم الفاروقي المدفعية داخل الجبل^(٨١)، واعتقل المئات منهم ونفى الكثيرين، وساق ١٣٠٠ من الشباب للخدمة العسكرية في الأناضول والبلقان^(٨٢). ويذكر أن الدروز فقدوا ٢٠٠٠ قتيل وهو رقم مبالغ فيه^(٨٣)، كما يذكر الأطرش أنهم كبدا العثمانيين ألف قتيل^(٨٤)، لكن بعد ١٨ يوماً، وصل إلى دمشق ستون جريحاً وضابطان من الجيش إلى المستشفى في دمشق^(٨٥). وتم الاتفاق في أول نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٠ على وقف إطلاق النار، على ألا يعتدي الدروز مرة أخرى على اللجاة أو الصفا (منطقتين مجاورتين للجبل في حوران)، واستسلموا لسامي الفاروقي وسلموا خمسة آلاف قطعة سلاح من كل الأصناف وعشرة آلاف مسدس، وكان الناصر لعشرين ألف تركي على ستة آلاف درزي، ومقتل ما يقارب من

(٨٠) D. F. Aff, Etr, (D. G.), vol XI P. 67 (21 Dec 1910)

« وصل إلى حلب جنود مسيحيون بلباس عسكري لإرسالهم إلى حوران » الأب فرديناند توتل اليسوعي، وثائق حلب ص ١٠١.

عفا الوالي اسماعيل فاضل باشا عن الخرم سعد الدين أبي سليمان، وأعطاه مالاً من خزينة الدولة. المقتبس، عدد ٦٠٦، ٢١ ففري / شباط / ١٩١١.

(٨١) المقتبس، عدد ٤٩١، ٤ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٠.

(٨٢) F. O. 371/1246/ No 17172 (1911)

(٨٣) D. F. Aff. Etr, vol XI, P. 2 (2 Jui 1910)

(٨٤) مذكرات الأطرش، مجلة بيروت المساء، عدد ٩٨، ١٩٧٥ (١٦-٢٣ ديسمبر / كانون الأول /).

(٨٥) المقتبس، عدد ٥٠٤، ٢٢ أكتوبر / تشرين الأول /.

٦٠٠ — ٧٠٠ تحت قصف المدافع، وقتل ١٥٠٠ بقرة وحرقت المحاصيل^(٨٦). ولم يقنع الفاروقي بما جمع، بل قرر جمع المتبقي وهو ١٥ ألف بندقية. وقدم الفاروقي كثيراً من الدروز للمحاكمة العرفية، وقد حكم على ستة أشخاص بالإعدام منهم والد سلطان الأطرش، وحكم على آخرين بالسجن والنفي. ونفذ الحكم تبعاً من ٥ مارس / آذار / إلى ١٦ منه ١٩١١. وكانت التهمة كما ذكرها سلطان الأطرش هي «الخروج على الخلافة والكفر بالإسلام»^(٨٧). ويتهم المعاصرون من الدروز أمثال سلطان الأطرش وشكيب أرسلان، بأن الفاروقي قد خدع الدروز وأمنهم، لكنه لم يف بوعده وأعدم زعماءهم، وقد ذكر يحيى الأطرش زعيم الدروز، لشكيب أرسلان أنه إنما نجا من الإعدام، بما قدمه من المال الكثير للقائد (سامي الفاروقي) وكان قد سلم نفسه وحكم عليه فنفي إلى جزيرة رودس، حتى أطلقه الإيطاليون بعد احتلالها، إثر احتلالهم لطرابلس الغرب وحرهم مع الدولة العثمانية^(٨٨). وانتقد محمد كرد علي سياسة الفاروقي مع الدروز وظلمه لهم إذ قال «وقد أجحف الفاروقي في عقاب بعض الدروز بما لا يستحقون، وأعفى من العقوبة أكابر المجرمين، كما أن الفاروقي جمع مالاً من هذه الحملة وأودعها عند أحد التجار، إلا أنه مات بعد أيام وأنكر التاجر على أسرته المال»^(٨٩). وقد وبخ الصدر الأعظم سامي الفاروقي عندما مر به لبعض أمور سورية، ولم يقتنع بما قاله الفاروقي من أن الدروز استسلموا وقبلوا بالحكم الذي سوف يصدر عليهم^(٩٠)، وغضب بسبب نكصه بالوعد لهم، لكن حملة كبيرة بهذا الحجم، ترسل لقمع تمرد ما لا بد ويرافقها مخاطر وقتل، وهذا لا يعفي الصدر الأعظم من إرسال هذه الحملة الضخمة، مع العلم أن الدولة كانت ترسل قوات من الجيش كتلك التي أرسلتها

(٨٦) D. F. Aff, Etr, vol XI, P. 117 (8 Nov 1910).

المقتبس، عدد ٥٠٢، ٢٠ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٠.

(٨٧) مذكرات الأطرش، نفس عدد مجلة بيروت المساء السابق وانظر ناصيف أبي زيد، العصر الدموي لكل

الأحداث، ص ٧١ — ٧٤ دمشق ١٩١٩.

(٨٨) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ٤٦ — ٤٨.

(٨٩) مذكرات كرد علي، ج ١، ص ٨٣.

(٩٠) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ٤٨.

لأنخل، لكنها لم تكن بهذه الأهمية، وربما أرادت الدولة أن تخيف العرب، كي لا ينقضوا عليها في جو سياسي غير ودي بين الأتراك والعرب، وفي جو سادته القلاقل والاضطرابات والتمرد والعصيان، في أكثر من مكان كما ذكرنا، وكانت بدايتها مع الدروز. وذكر سامي الفاروقي أن فقدان العدل وتعقيد الإدارة، هما سبب الإخلال بالأمن، وقال «بأن إقامة العدل هو أساس تهدئة الأمور، وأن التأخير وتعقيد الإدارة بأشكال كثيرة هي ضد مصالح الناس، ويجب أن تزول، وأن العدل والسلام، وتشكيل محاكم بدائية سريعة من قضاة من علية القوم وبلغة البلاد، هي التي تعيد الحق بدون مراجعة»^(٩١). وفي الحقيقة كانت الدولة العثمانية تراقب وتربص بالدروز منذ عام ١٩٠٨ بعد الثورة، إذ جاء في تقرير للسفارة البريطانية في استانبول عن سورية في جويل / حزيران / ١٩٠٨، «أنه من غير المحتمل أن تترك الدولة العثمانية سورية دون أن تبقي فيها قوة كبيرة للدفاع، ولرابعة الدروز، وقدر هذا التقرير تلك القوة التي يمكن سحبها من سورية لهذا الغرض بثلاثين ألف جندي رديف (احتياط)، و ١٠٢ مدفع منها ١٨ مدفعاً جبلياً»^(٩٢).

ثورة الكرك

وأياً كانت أهداف حملة الدولة على الدروز، سواء لاقرار الأمن المضطرب أو لالقاء الرعب بنفوس المواطنين، أو لفرض هيبتها المتدهورة، فإن تلك الحملة لم تحقق هذه الأهداف. إذ سرعان ما تفجرت ثورة عارمة أخرى أعنف من تمرد الدروز، وكانت موجهة مباشرة إلى السلطة. وحدثت هذه الثورة في الكرك (تابعة لولاية سورية)، وهي الآن في دولة شرقي الأردن. وقام بها البدو، وكما هو معروف فإنهم (البدو) لم يكونوا يعترفون بنظام إلا نظام الشيوخ والعشيرة، ولا يقبلون بأنظمة الدولة التي لم تكن موجودة بالفعل، وتجمع شيوخ قبائل العشائر بقيادة عشيرة المجالي، وأعلنوا الثورة، فاحتلوا الكرك وسلبوا كل ما فيها من دكاكين وبيوت. (وكانت الدكاكين في معظمها

(٩١) D. F. Aff. vol XII, P. 52 (1911)

(٩٢) F. O. 371/548/ Juin 1908 P. 230

لتجار من دمشق ومن فلسطين)، ثم هاجموا القلعة وحاصروها، حتى وصلت نجدة من قوة سامي باشا الفاروقي فأنقذت القلعة وطاردت العشائر وقتلت منهم كثيراً وهدمت كثيراً من منازل الكرك انتقاماً، حيث أحرق الجنود سقوفها الخشبية بسبب البرد الشديد^(٩٣). حدث ذلك في ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٠ أي في الشهر التالي لتمرّد الدروز. وجاء في تقرير لقنصل فرنسا في القدس وصف أكثر دقة عن هذه الحوادث فقال «جاءت حملة الفاروقي على الدروز متأخرة، ولهذا لم يقتنع البدو المنتشرون من المدينة المنورة إلى الكرك شرق البحر الميت بجندية الدولة، وكان دافع عصيانهم هو رفضهم للإحصاء الذي كانوا يعتقدون أنه سيؤدي إلى تجنيدهم، مما جعل السلطة تتظاهر بمحاولة إخضاعهم، ولهذا ثاروا وقتلوا الجنود، وقطعوا خطوط البرق، ودمروا السكة الحديدية، وقتلوا موظفيها وبعض المسيحيين من الجوار، وكان المسيحيون خائفين يتوقعون المذابح»، ونسب القنصل أسباباً أخرى سياسية وقومية لحركة البدو^(٩٤). وأيضاً جاء في تقرير آخر، أن عشائر المجالي كانت تدور حول الكرك منذ شهرين لتثور على الدولة، لأنهم رفضوا الإحصاء، ورفضوا تسليم السلاح، وكانوا يشكلون ستة آلاف خيمة. وهجموا في ٥ ديسمبر / كانون الأول /، فنهبا الدكاكين وقتلوا أصحابها ومعظمهم من دمشق، وقتلوا مئتي جندي، وتحصن الآخرون في القلعة، ثم احتل البدو السرايا وخفر الدرك، وذبحوا شكري القائد العسكري الذي اختبأ ببيت أحد المسيحيين^(٩٥). ويذكر تقرير فرنسي آخر، أن عدد القتلى كان ٥٠٠ في الكرك بينهم أربعة من المسيحيين^(٩٦). وقدرت الحكومة الأموال المنهوبة بستين ألف ليرة، ورضيت من الأهالي أن يدفعوا ٣٠ ألفاً مقسطة على خمس سنوات، وقد عاقبت

(٩٣) منير الريس (مذكرات) الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٦ - ٣٠.

(٩٤) D. F. Aff. Etr, (D. G.), XI (1911). PP. 136-137 (9 Dec)

(٩٥) Ibid, PP. 159-161 (15 Dec, 1911)

و F. O. 371/1017 (1910) P. 198.

(٩٦) D. F. Aff. Etr, (D. G.) vol XI (1910) 23 Dec P, 177.

الدولة مائة من البدو وشنت ستة منهم^(٩٧). وإضافة إلى أسباب الإحصاء والخوف من التجنيد، فقد أضاف المحقق التركي سبباً آخر لثورة الكرك، وهو زوال النعمة التي كان يفرقها عبد الحميد على مشايخ الكرك، وخاصة قدر المجالي، شيخ مشايخ الكرك^(٩٨). وعندما بلغ خبر الثورة إلى مسامع سامي باشا الفاروقي، استعد بتسعة ألوية لمقابلتهم، وأقسم «بعد مقتل الجنود في الكرك» بأنه سوف يقتل كل سكان الكرك المسلمين والمسيحيين حتى يتعلم «هؤلاء» حسب رواية قنصل فرنسا في القدس، كيف يكونون مخلصين للدولة، والكرك فيها ستة آلاف ثلاثهم مسيحيون أورثوذكس. والحقيقة حسب رأي القنصل أن المسيحيين لم يشتركوا في الثورة^(٩٩). وفي تقرر لقنصل بريطاني في دمشق، أن سبب الثورة هو رفض الدولة أن تدفع لهؤلاء البدو حراسة الخط الحديدي^(١٠٠)، والحقيقة أن الثورة لم تكن مقصورة على الكرك، لأن قبائل عطية بين معان وتبوك، حاصروا معاً ودمروا السكة الحديدية لمسافة ٣٠٠ كيلومتر، والسبب في ذلك هو سبب الثورة نفسه في الكرك، وهو رفضهم دفع الضريبة للدولة. وقد ثار الفقراء مع بني عطية واستولوا على المنطقة ورفعوا أعلامهم ونصبوا خيامهم من جنوب البحر الميت حتى عربة^(١٠١). واضطر الفاروقي كي يحفظ الأمن والاستقرار، إلى أن يعتقل نوري الشعلان، شيخ عشائر الرولا، وطلب منه أن يسلم ٢٠٠٠ بندقية، وكان يخشى ثورة بدوية أخرى من تلك العشيرة التي حرضت على ثورة الكرك قبائل أخرى^(١٠٢). وكان لسوء الإدارة العثمانية، وخاصة في ولاية اسماعيل فاضل باشا في سورية الذي رفض تعيين قدر المجالي في إدارة لواء الكرك، على الرغم من أنه فاز بأكثرية

(٩٧) المقتبس، عدد ٦٥١، ١٥ أبريل / نيسان / ١٩١١، ومجلة العرفان، ج ١، مجلد ٣، ١ يناير / كانون الثاني / ١٩١١.

و. F. O. 371/1246/ 1911, p. 8.

(٩٨) نفس المصدر، عدد ٧٨٤، ١٨ سبتمبر / أيلول / ١٩١١.

(٩٩) D. F. Aff. Etr, vol XI, PP. 156-158.

(١٠٠) F. O. 371/1017/, 1910, P. 198.

(١٠١) D. F. Aff. Etr, vol XI, 23 Dec 1910, PP. 174-175.

(١٠٢) F. O. 371/1262/ (1911), No 41641. et D. F. Aff. Etr, vol XI, P. 177.

الأصوات في الانتخابات الخاصة بعضوية الإدارة، إضافة إلى الظلم والرشوة والفساد، وإلى التسرع في محاولة تطبيق أنظمة حديثة «أوروبية» على قبائل بدو اعتادت نظام العشيرة فقط في حياتها الطويلة^(١٠٣)، كل هذا جعل الأمور تتفجر على حكم الاتحاديين، ليس في سورية وحسب وإنما على طول الخط الحديدي حتى المدينة المنورة، حين ثارت قبيلة بني علي، ففقطعت الطرق وأغارت على قوافل الحجاج حتى قمعتها الدولة بعنف منذ ١٩٠٨^(١٠٤).

الحرب في الصحف

السياسة التركية هي سبب العداء، والحقيقة هي في انتشار الشعور المعادي إلى الطبقات الدنيا في سورية عامة، ودمشق خاصة، ما بين العرب والترك، والسبب الأهم في ذلك، هو استعمال اللغة التركية واستبعاد العربية، حتى إنه في سلك القضاء، لم يكن القضاة والكتاب يعرفون العربية، وكان بين ثلاثة مستنطقين يوجد واحد يعرف قليلاً من العربية، إضافة إلى العنصرية التركية^(١٠٥). وإن سياسة التتريك التي تتبعها تركيا الفتاة، تجعل العرب وخاصة في سورية، يكرهون الاتحاديين ويرفضون سياستهم هذه، وخاصة (حسب تقرير بريطاني) أنهم — أي العرب السوريين — يرون أنفسهم أعلى ثقافة وحضارة منهم، وهم يرفضون التتريك، ويأسفون لوجود الصهيونية والغزو اليهودي في سورية والعراق^(١٠٦). وبدلاً من اتباع سياسة ملاينة للعرب فإن الاتحاديين، برغم الثورات في سورية وبرغم الكره الآخذ بالازدياد ضدهم، فإنهم ظلوا يمارسون تعصبهم التركي. وقد رفضت اللجنة المركزية للاتحاد والترقي تعيين عضو عربي من دمشق فيها، «لأن ذلك يخالف النظام الأساسي الذي لا يسمح إلا للتركي بذلك، وقد قبلت بعض القوميات بذلك ورفضته أخرى، وكانت لجنة الاتحاد والترقي تأمل في

(١٠٣) منيب الماضي، سليمان موسى، تاريخ الأردن في القرن العشرين، عمان ١٩٥٩، ص ١٨ — ٢٦.

(١٠٤) F. O. 371/561/, 1908, 17 Nov, P. 206.

(١٠٥) Ibid, 1002/, 1910, 3 Aot No 28562.

(١٠٦) تقرير من سفارة بريطانيا في لندن.

F. O. 371/1010/ Mai 1910, P. 301.

أن تسير كل القوميات إلى جانبها»^(١٠٧). لكن العرب رفضوا هذه السياسة، وظلت مطالبهم الرئيسية في هذه السنة، كما كانت وهي المساواة بين العرب والترك، وقد ذكرت مجلة المنار الأسباب التي تجعل الوثام يسود بين العرب والترك في أربعة أمور وهي:

- ١— قطع عروق العصبية الجنسية.
- ٢— العناية بتعليم اللغة العربية.
- ٣— العناية بنشر المعارف والعلوم.
- ٤— الإخلاص التام في تنفيذ القانون الأساسي^(١٠٨).

وعندما أيقن العرب بسياسة النفور من قبل الأتراك، همدت همته في جمع الأموال من أجل الأسطول بعد أن كانوا متحمسين له^(١٠٩). حتى إن رشيد رضا نفسه صاحب مجلة المنار، كان يأمل في زيارته لاستانبول، أن تقرر اللغة العربية كلغة رسمية، مثل اللغة التركية، وتصبح الاثنان رسميتين، لأن هذا كان مقرراً منذ عهد عبد الحميد، ولكنه لم ينفذ^(١١٠). كما فشل رشيد رضا في إقناع الدولة بتأسيس كلية إسلامية في استانبول، لتعليم الدين باللغة العربية ولتعليم بقية العلوم العصرية، على أن تدفع الدولة عشر ليرات ذهبية للمعلم، وماطله الاتحاديون لمدة سنة، ثم أجلوه لأنهم «كانوا يعلمون أنه لن يخدم أغراضهم الخاصة السياسية، ولأنهم يعلمون أن المسلمين العرب يطالبون بحقوقهم في الخلافة العربية»^(١١١).

وزاد الأمر سوءاً بين الطرفين، أن جريدة «إقدام» التركية، نشرت مقالاً وصفت فيه العرب وصفاً سيئاً، وقالت إنهم يبيعون أرواحهم أو حتى أعراضهم بالمال، فهاج النواب العرب، واحتجوا للمجلس والديوان العرفي، فصدر قرار بتوقيف الجريدة، لكن

(١٠٧) Ibid, 371/1017/ Dec 10 P. 77 No 44797.

(١٠٨) مجلة المنار، ج ١٢، م ١٢ يناير / كانون الثاني / ١٩١٢.

(١٠٩) نفس المصدر.

(١١٠) نفس المصدر، م ١٣، ج ٢، م ١٠ فري / شباط / ١٩١٠، ص ١٤٩.

(١١١) نفس المصدر، م ١٦، ج ٢، م ٦ فري / شباط / ١٩١٠، ص ١٣٦—١٤٠.

و F. O. 371/1244/ No 5012/4 Feb 1911.

الشباب العرب تجمعوا أمام مكتب الجريدة، وأهانوا صاحبها وأحيل بعضهم للمحاكمة^(١١٢). كما طلبت سحب العدد من جريدة إقدام، الذي يطعن بالعرب من جميع الولايات^(١١٣). وأخذت الجرائد التركية تكثّر من كتابة المقالات ضد العرب وفيها اتهام لهم، وقد ذكرت مجلة المنار بعض هذه المقالات مثل: ملة مالكة، مستملكات، استقلال العرب، الخلافة العربية، بغض الترك للعرب. وكانت الجرائد التركية تأخذ على العرب عجزهم عن تدوين لغتهم وعجزهم عن نشر الإسلام خارج جزيرتهم. وكان أهمها ما نشر في جريدة «إقدام» عن اقتراح بتنقية اللغة التركية من الألفاظ العربية، وما كتبه بعض الكتاب عن السنوسية. وطعنت بعض الجرائد في المصريين والدمشقيين خاصة^(١١٤). وكان العرب يردون على الصحف التركية في الصحف العربية، كالمنار، والمقتبس، والنبراس، والمفيد، والمقتطف، والمقطم، لكن الصحف التركية كانت أوسع انتشاراً وأكثر دعماً من الحكومة، وفي دمشق لم تكن توجد سوى المقتبس تقوم بدورها الهام، لكنها كانت كثيراً ما تتوقف بسبب اعتراضها على الحكومة، وكان الاتحاديون يحاولون كثيراً أن يضموها لصفوفهم. وفي هذا المجال كتب عبد الرحمن الشهبندر (وزير منذ أيام فيصل في سورية) يفند سياسة التريك للعرب، و«أن ذلك مستحيل، فالعرب لا يمكن أن ينوبوا في غيرهم». وكتبت المقتبس، أن العرب لا يمكن لهم كبقية العناصر العثمانية، إلا أن يعيشوا حياة استقلالية ضمن الجامعة العثمانية^(١١٥). وعن السياسة التريكية كتبت المقتبس في الفترة نفسها، تصف الاتحاديين بتبنيهم لسياسة الاتحاد الاصطناعي، فقالت «إن أكثر المعنيين بالاتحاد والترقي، أرادوا ويريدون أن يكون الاتحاد صناعاً ومكيفاً بكيفيات مخصوصة، ويزيد الآن أن صنيعهم قد لاحظته

(١١٢) المقتبس، عدد ٣١٤، ١٠ مارس / آذار / ١٩١٠.

(١١٣) المقتبس، عدد ٣١٥، ١١ مارس / آذار / ١٩١٠.

(١١٤) المنار، ج ١٢، مجلد ١٢، يناير / كانون الثاني / ١٩١٠.

(١١٥) المقتبس، عدد ٣٥٢، ٢٤ أبريل / نيسان / ١٩١٠، كتب كرد علي أنه توجد في سالونيك ٢٢ جريدة مع أن عدد سكانها ١٥٠ ألفاً، بينما لا توجد إلا القيس في دمشق (٣٠٠ ألف نسمة) ولا تطبع إلا ألفي نسخة، ولا يطبع في بيروت إلا ٣٠٠٠ من مجموع جرائدها، وفي بغداد ٣٠٠ نسخة. المقتبس عدد ٣٩٢، ٩ جوان / حزيران / ١٩١٠.

الكثيرون، بأنهم يريدون أن تتناسى الشعوب جامعتها الجنسية»^(١١٦). وقد حاول رشيد رضا أن ينشر ثلاث مقالات في جريدة «إقدام» التركية ينصف فيها العرب، فرفضت أن تنشر المقالات، وكانت حجتها أن تلك مسائل ملية (تركية) لا علاقة للعرب بها. واستطاع أحمد جودت صاحب جريدة إقدام، بعد أن أغلقتها الحكومة أن يفتحها سريعاً من جديد بعد أن أضاف اسم «يكي» أي جديد لجريدته، ونشر مقالة في جريدة طنين، يدافع عن نفسه عندما كتب عن اليمن وذم العرب، قائلاً إنه إنما فعل ذلك من تلقاء نفسه، وأن الأتراك ليسوا أعداء للعرب، وليسوا سبباً لمقاتله. وكانت مقالته — كما ذكرت المنار — اسفيناً للتفرقة بين العرب والترك^(١١٧). وكانت الصحف التركية تأخذ على عاتقها متابعة تحريك التوتر بين العرب والترك. وكانت جريدة طنين في مقدمتها، فقد هاجمت الصحف العربية على أنها تدير الأفكار العامة المعادية للترك، وردت عليها المقتبس بهجوم شديد، كما أعادت طنين الهجوم على العرب لأنها تنشر أقوال المبعوثين العرب المخالفين كشفيق المؤيد، ولطفي فكري، وشكري العسلي، وأنها تستفيد من تأويل أحاديثهم، فردت المقتبس، بأن صاحب طنين حسين جاهد، ينال ٢٥٠ ليرة ذهبية من أماكن متفرقة من الحكومة، ولهذا فهو ذيل لها. وانتقدت جريدة طنين بأن المدارس الإسلامية في بيروت لا تدرس اللغة التركية، ولهذا فهي تشك في مبادئها العثمانية، ورد عليها المقتبس مهاجماً. وكتب أحمد حكمت (تركي) في جريدة ضيا عدد (١٧) يطالب باتحاد اللسان في السلطنة، (اللسان التركي) حتى تتحد الأفكار ودافعت عن اللغة التركية وإمكاناتها. وزادت الحملة الصحفية السعير، إذ اتهمت جريدة طنين العرب عامة والسوريين خاصة بالخيانة للجامعة العثمانية، ورفضت جرائد العاصمة بالآستانة نشر أي رد عربي، ولهذا سعى حقي العظم لتأسيس جريدة عربية وناذّر عربي بالآستانة، لكن شكري العسلي رد على طنين، معلناً عن ولاء العرب وفخرهم بعثمانيتهم.

(١١٦) نفس المصدر، عدد ٣٨٩، ٦ جوان / حزيران / ١٩١٠.

(١١٧) المنار، م ١٣، ج ٣، أبريل / نيسان / ١٩١٠، ص ٤٦٩.

الصراع في مجلس المبعوثين

ووصل النزاع والشقاق بين العرب والترك، إلى مجلس المبعوثين بين الطرفين واتهم حسين جاهد (تركي) النواب العرب بالتجسس، وأنهم كانوا من عملاء وجواسيس عبد الحميد، وجرت ملاسنة وتهجم، بعد أن رد نائب دمشق شفيق المؤيد العظم (أعده جمال باشا) على حسين جاهد، ووصلت المناقشة إلى الكلام البذيء والتكذيب، ويقال أن شفيق قد صفع طلعت بك وألقى به أرضاً على سلم المجلس مما جعل رئيس المجلس يرفع الجلسة^(١١٨). وفي جلسة أخرى، انتقد شفيق المؤيد العظم ميزانية الدولة التي كان فيها سبعة ملايين ليرة من العجز، فهاجمته جريدة «طنين» التركية، وطالبت جريدة «نير حقيقت» التركية، بإحالة إلى الديوان العرفي لمحاكمته^(١١٩).

وحاول النواب العرب مواجهة السياسة التركية العنصرية، بسياسة عثمانية غير عربية صرفة، وحاولوا تأليف حزب يضم عناصر عثمانية من جميع الأجناس، حتى لا يتهموا بالعنصرية بالمقابل، وبذلك طبقوا المادة الرابعة من قانون المجلس ولم يؤلفوا جمعية خاصة بهم كالأكرد والأرمن والشركس والترك، فألفوا الحزب الحر المعتدل، وأدخلوا فيه بقية العناصر، وقد دخل فيه فعلاً بعض المبعوثين الأتراك والأرناؤط والكرد، وكان شعار هذا الحزب أن يكون الحكم فدرالياً، والإدارة في الولايات مستقلة، ويكون الجيش حامياً للدولة من الخارج، وحافظاً للأمن في الداخل. وكان رشدي الشمعة (نائب عن دمشق) من مؤسسي هذا الحزب والداعين له في سورية^(١٢٠) (أعده جمال باشا). لكن مثل هذه المحاولات لم تكن لتستطيع أن تقف في وجه التيار التركي العنصري في هذه السنة، وأصبحت حالة العرب مع الدستور أو حال العثمانيين من

(١١٨) المقتبس عدد ٣٧٦، ٢٢ أيار ١٩١٠.

(١١٩) نفس المصدر عدد ٣٧١، ١٦ ماي / أيار ١٩١٠.

(١٢٠) المقتبس، عدد ٤٣٤، ٣٠ جويه / تموز / ١٩١٠، عدد ٤٣٨، ٣ أوت / آب / ١٩١٠.

غير الترك — كما عبر عنه كرد علي — كحال الأعمى ، فتارة يرون الدستور ولا يراهم وتارة يراهم ولا يرونه فمن الأعمى ؟ (١٢١)

وكانت الحكومة التركية لا تخفي كرهها لنواب سورية، وخاصة منهم شفيق المؤيد العظم ورشدي الشمعة وخالد البرازي (نائب عن حماه) وشكري العسلي، لأنهم كانوا يقومون بدعاية واسعة ضدها أو ضد العصملي (Osmanli) (١٢٢) كما كانت هي تقول، وكان هؤلاء بالنسبة للعرب في سورية يقومون بعمل شجاع وبطولي، لإظهار حق العرب والدفاع عنهم ضد الاتحاديين العنصريين، ولذلك جرى احتفال واستقبال جماهيري واسع، لدى عودتهم إلى سورية (١٢٣)، وخاصة لشفيق المؤيد العظم، بسبب مشاجرته في مجلس المبعوثين مع حسين جاهد، وكان ذلك الاستقبال الجماهيري تعبيراً عن أن الصراع لم يكن رمزياً فقط بل وصل إلى الشعب البسيط. وتكلم رضا الصلح في جلسة ٢٠ مارس / آذار / ١٩١١، فانتقد الحكومة وقال أن الإدارة هي سبب ثورة لواء الكرك، وانتقد نظام ضريبة (العشر)، وطالب كما فعل مدحت باشا بضريبة الخمس، وتحدث عن شراء اليهود لأرض فلسطين، وطلب تأخير ضريبة التمتع، ووجه الكلام لجاويد وزير المالية قائلاً «أنت ذكي لكنك مغرور، ويجب أن تتعلم ليس منا فقط، بل من الذين هم أحمق منا جداً» (١٢٤). وهاجم نائب حماه خالد البرازي والي سورية السابق اسماعيل فاضل باشا، الذي كان سوء إدارته سبباً لثوري حوران والكرك، وطالب بإرسال ولاية وموظفين من أي جنس كانوا شرط أن يعرفوا اللغة العربية، وبرهن على حسن نية العرب للسلطنة، بما فعله شريف مكة لمقاتلة العصاة مع جنود الدولة،

(١٢١) نفس المصدر، عدد ٣١٧، ١٣ مارس / آذار / ١٩١٠.

كتب محمد كرد علي «العرب متأخرون وكل الأمم تنزل بهم الضربات، ولا يخرج لهم إلا بالعلم ولا فائدة من إثارة قضية تركية عربية، وسبب احتقار الترك للعرب هو أنهم بنوا مدارس وتعلموا، بينما كانوا يرون أن العرب مازالوا في جهالة، ولو لا رابطة الدين لزاد ازدراؤهم.

نفس المصدر، عدد ٣٦١، ٤ سبتمبر / أيلول / ١٩١٠.

(١٢٢) D. F. Aff. Etr, vol XI, (1910) P. 66.

(١٢٣) F. O. 371/1002/ (1910) 3 Dec, No 28562.

(١٢٤) المقتبس ٦٣٤، ٢٦ مارس / آذار / ١٩١١.

واتهم والي اليمن أبنه سبب الثورة فيها، وقال إنه إذا كان العرب موضع شبهة في العهد البائد(١)، فليس الآن ذلك صحيحاً^(١٢٥). وطالب النواب العرب جميعاً بجعل التدريس باللغة العربية في المدارس العربية، وشكل النواب العرب في مجلس المبعوثين حزباً عربياً يدافع عن مصالح العرب، وقد أرسل كثير من علماء دمشق وكرتابها وتجارها برقية إلى النواب العرب، بواسطة حقي العظم، يشكروهم على سعيهم بتأليف حزب عربي، ويحتجون على من لا يقدر حرية النواب، فأجابهم حقي العظم يشكرهم باسم النواب العرب^(١٢٦).

وكان الغزو الإيطالي ثغرة جديدة، جعلت المبعوثين العرب يشعرون، أو يزيدون من ثورتهم السابقة ضد الاتحاديين، واتهموهم بالتهاون في الدفاع عن قطر عربي. وحمل شكري العسلي الاتحاديين مسؤولية التخلي عن طرابلس الغرب، وقال إن العرب هم الذين حاربوا، مع أن الحكومة عاملت الأهالي بشكل سيء، ولم تساعد في حربهم، وانتقد عقلية جمعية الاتحاد والترقي وعنصريتها^(١٢٧). كما نشر مقالاً شديداً في جريدة النبراس (Nibras) ضد الحكومة التركية، لإضاعتها طرابلس بسبب الإهمال والسياسة، وليس هذا فحسب، بل لأنها كانت تصرف المال على أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في بنغازي، وليس على السلاح والذخيرة لأولئك العرب الذين يناضلون ليخلصوا بلادهم، وأضاف في الجريدة بأن العرب لا يصلون إلى المراكز العالية، وأن الضباط العرب الكبار يسرحون إذا لم يصبحوا أدوات بيد لجنة الاتحاد والترقي، وأن الحكومة تعمل

(١٢٥) نفس المصدر، ٤٦٩٤، ٤ حزيران ١٩١١.

(١٢٦) نفس المصدر، ٤٦٦٨، ٤ أيار ١٩١١.

(١٢٧) المقتبس، عدد ٨٥٦، ٣٠ ديسمبر ١٩١١.

كتب رشيد رضا عن طرابلس الغرب وعلاقتها بالاتحاديين فقال «نزعة الجنسية الشيطانية لم تنتشر كثيراً في طرابلس، لأنه قلما يوجد فيها من قرأ جريدة عبيد الله، وجريدة طنين وأمثالها، فلا تزال الرابطة الاسلامية هي الحاكمة في قلوبهم، وما وصل إليها من جواسيس ايطاليا ضعيف، ويوجد بينهم من يرشدهم إلى أن الترك إخوتهم في الاسلام، وأن كل الظلم الذي عرفوه منهم بسبب الجهل، وأنهم كانوا يظلمون في بلادهم كما يظلمون في البلاد العربية وغيرها، وأن الدولة دخلت في طور جديد يرجى أن يصلح بها حال الجميع» النار، ج ١٢، م ١٤، ديسمبر ١٩١١، ص ٩٣٠.

جهدها لتسبب التوتر بين المسلمين والمسيحيين، لتعوق التقدم ولخلع العرب عن قوميتهم، ولتشجيع الصهيونية بالتوسع في سورية وفلسطين، لكن العرب صمموا على الخلاص من ذلك، كما تخلصوا من طغيان عبد الحميد، ولهذا هم يمدون يدهم لحزب الحرية والائتلاف الذي يدعم الحرية^(١٢٨). وكان شكري العسلي خصماً للصهيونية، وقد رفض اقتراح الاتحاديين بيع ثلاثة ملايين (دونم) لليهود في فلسطين، بمساعدة وزير المالية جاويد^(١٢٩)

مطالب العرب بمساواتهم بالوظائف والإصلاح

تجب الملاحظة أن عيون العرب أصبحت مفتحة بشدة ضد سياسة الاتحاديين، ويحسبون ضدهم كل هفوة، في الوقت الذي لم يكن فيه الأتراك، وخاصة الجرائد المتعصبة تداري الموقف، وكانت تزيد الأزمة حدة. وفي سنة ١٩١٠ تضاعفت ميزانية المعارف لكن — كما ذكرت المقتبس — كانت الغنيمة للآستانة وما جاورها، ولم تستفد البلاد العربية لا في المدارس ولا الكتاتيب ولا المكاتب، وأن نظارة المعارف (وزارة المعارف) وعدت أن ترسل ٢٥ طالباً من كل ولاية للدراسة في أوروبا، فلم تنفذ ذلك إلا مع الأتراك الذين نالوا حصتهم وكانت ٩٥٪ من مجموع مخصصات الولايات جمعياً^(١٣٠). ويكاد لا يخلو عدد من جريدة المقتبس، إلا ويحمل شكوى من قلة المدارس، أو من المعلمين الأتراك الذين لا يعرفون العربية، وهم يعلمون حتى النحو

(١٢٨) من سفارة بريطانيا في الآستانة.

F. O. 371/1236/ No 50573, 12 Jan 1911.

(١٢٩) مذكرات كرد علي، ج ١، ص ١٥٩، لم نخض كثيراً في بحث النشاط المتعلق بفلسطين مع أنه كثير، فقد بحث مفصلاً في مؤلفات كثيرة، نذكر منها كتاب خيرية قاسمية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي

١٩٠٨—١٩١٨

(١٣٠) المقتبس، عدد ٤١٥، ٦ جويه / تموز / ١٩١٠.

«غالبية تلاميذ المدارس الحكومية هم من الترك الذين يطلبون الوظائف ويعتبرونها حقاً لهم، ويجب على الحكومة أن تعلم اللغة العربية لساناً لا قاعدة، ولا يزيد الطلاب العرب عن ١٠٪ من مجموع الطلاب في المدارس الحكومية. المقتبس، عدد ٣٩٢، ٩ جوان / حزيران / ١٩١٠، وعدد ٥٣٠، ٢١ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٠.

العربي، ونقلت مقالاً لجريدة Times البريطانية لمراسلها في دمشق يصف حالتها بحسنتها وسيقاتها في ٢٣ سبتمبر / أيلول / ١٩١٠ فذكرت «أن دمشق سنة ١٩٠٧ هي نفسها دمشق في هذه السنة، ولم يتغير فيها شيء إلا في لون ملابس العسكر التركي، فالأهالي هم في الذهب والإياب، والبوليس هو هو في التبخر في أحياء المدينة، والكلاب هي هي تنام نهاراً في منتصف الشوارع، وتنبح ليلاً لا يرعجها قط، ما حل بأخواتها من القضاء عليها في الآستانة، ولا يزال الغبار يملأ الأماكن حول المدينة، وبلاط الأزقة المكسرة وقرقعة العربات عليه تصم الآذان، وما استحدث سوى مسرح تطرب فيه أصوات مغنيات إسرائيليات ومصريات في جوار مركز الحكومة، وما زاد الكهرباء إلا قليلاً، والكلام مع متنوري دمشق قليل الجدوى، لأن دمشق لا تزال بعد الدستور كما كانت قبله في عام الجمود. وقد ازدادت الحرية قليلاً وكثرت الجرائد والمطابع التي تنتقد الحكومة، والمراقب لا يلاحظ أدنى تغيير، كما حصل في أزمير أو حتى بيروت، ولا تزال الحركة في دمشق سطحية، ولعل حملة سامي الفاروقي تعطيهم درساً، فيعلمون علم اليقين أن الزمان قد تغير»^(١٣١). وجاء في جريدة المقتبس نفسها أنه لم يتغير شيء بالنسبة للإدارة بعد الدستور عما قبله، فما زال التعيين والنقل والتبديل والفوضى، وتعيين الموظفين الذين لا يحسنون لغة أهل البلاد، حتى إن الحكومة تعزل الموظفين من الوالي فما دون، وتعين بدلاً عنهم بلا سبب^(١٣٢). وكانت الجرائد العربية تراقب ما يجري في المدن التركية وتقارنها بالمدن العربية، كي تتخذها دليلاً على سوء سياسة الاتحاديين ضد العرب، فذكرت مجلة النبراس أن الحكومة أسست في قسطنطيني كلية، بينما تفضلها بيروت لتأسيس مثل هذه الكلية، لأنها تساويها بالسكان وهي أقل منها مدارس ابتدائية وثانوية^(١٣٣). كما كانت تحض على وجوب قبول الناس بالإحصاء، حتى يكثر عدد العرب بالنسبة للأتراك الذين يقبلون عليه، وكان

(١٣١) المقتبس، عدد ١٠١٣، ١ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٠، عن جريدة الأحوال.

(١٣٢) نفس المصدر، عدد ١٩٠٤، ١٩ فري / شباط / ١٩١١، وعدد ٤٠٥٤١، ٤ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١١.

(١٣٣) النبراس، ج ٤، مجلد ٢٦، أبريل / نيسان / ١٩١٠، ص ١٤٤.

العرب يخشون الإحصاء خوفاً من الجندية، إذ كانت الدولة تسوق كل سنة آلافاً من المجندين من سورية إلى اليمن، وكان معظمهم يموتون هناك بالحرب أو من الجوع أو الهلاك على الطريق، وضربت النبراس مثلاً على مضار الهروب من الإحصاء، بأن القرية التي يكون سكانها خمسمائة لا يوجد لهم في سجل النفوس سوى ٥٠ - ٦٠ خوفاً من هذه الجندية، وحتى يبقوا في الأرض يفلحون ويزرعون^(١٣٤). وكانت هذه المراقبة التنافسية تشمل أعداد العناصر العثمانية، لإظهار تفوق العدد التركي على غيرهم وخاصة العرب، الذين يبلغون ضعف الأتراك، وكان هذا من الأسباب والمطالب القوية للمساواة بعدد الموظفين، وخاصة المناصب العليا التي حرم منها العرب. وتدل سالنامه سنة ١٩١١ على الفرق الكبير بين عدد العرب والأتراك في مناصب الوزراء والأمناء العامين، فقد جاء في هذه السالنامه الإحصاء التالي لمناصب الحكومة في الآستانة:

	نظاره مابين	خزينة	وكلاء	صدارة	شورى الدولة	محاسبة	علية	عدلية	خارجية	داخلية
ترك	٧	٢٨	١٠	٣١	٦٣	٥٥	١١٨	١٩٥	٣٥	٤٦
روم			١		٢	١		١٤	٣	١
أرمن			١		٢	١		١٧	٤	
عرب					١					
يهود								١	٣	١

(١٣٤) نفس المصدر، ج ٨، ٢٠ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٠، ص ٣٣٠، وكتبت هذه المجلة هأن الدولة تبتز الضرائب باسم النافعة والمعارف لتنفقها في استانبول، ولا يستفيد دافعو الضرائب منها في بيروت شيئاً. نفس المصدر، ج ٧، ٢٤ جوان / حزيران / ١٩١٠، ص ٢٨٥.

ويوضح الجدول التالي وظائف الأمانة العامة: (١٣٥).

	أمنية عمومية	مالية	رسومات	معارف	تجارة	غابات	سكة الحجاز
ترك	٢٩	١١١	٦٠	٧٦	١٠٠	٥٩	٤٢
روم	١	٤	١		٦	١١	٥
أرمن		١١	٦	٧	١١	٩	
عرب				١			
يهود		١٣	١		٣		

واضح من هذين الجدولين أن للأتراك الحصة الكبرى، وللعرب الحصة الصغرى التي تكاد لا تذكر، مع أنهم أكثر عدداً بالسكان من كل الفئات المذكورة. وكان هذا أحد الأسباب الهامة للخصام بين العرب والترك. وقد عبر عنه النائب شكري العسلي (عن دمشق) في مجلس المبعوثين إذ قال «إن في وزارة المالية ١١١ تركياً و ١٣ اسرائيلياً وعشرة أرمن وأربعة أروام، ولا يوجد واحد من العرب، فقاطعه أحدهم بأن شوكت باشا أعظم رجل من العرب، فقال شكري يوجد ١٥ مليون عربي ولا يوجد إلا شوكت واحد، وانتقد قلة الموظفين العرب مع كثرة المتخرجين منهم» (١٣٦)، فرد بعض الأتراك أنهم (الأتراك) خدام العرب وخدام الحرمين الشريفين (١٣٧).

(١٣٥) سالتامة، عدد ٦٥٣، ٧ أبريل / نيسان / ١٩١١، ص ٣.

(١٣٦) العرفان، ج ١، مجلد ٣، ١ أبريل / نيسان / ١٩١١، ص ٣١٩، والمقتبس عدد ٦٤٤، ٦ أبريل / نيسان / ١٩١٧.

كان محمود شوكت ابن موظف تركي يعمل في العراق وقد ولد محمود في هذا البلد، وكان نصف عربي لأن أمه عربية كما أكدت مجلة المنار، وتسلم أخوه حكمت سليمان منصب رئيس وزراء العراق سنة ١٩٣٦، ولم يبد على محمود شوكت أي تعلق أو تمسك بالعرب بل كان يعمل كتركي قح.

المنار، مجلد ١٣، ج ١٠، نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٠، ص ٧٨٨، وسليمان موسى، ص ٢٧. (١٣٧) العرفان، ج ١، مجلد ٣، ١ أبريل / نيسان / ١٩١١، جاء أيضاً في كلمة شكري العسلي المذكورة أعلاه في مجلس المبعوثين «هل من المعقول أن الأمة العربية التي منها صاحب الاختراعات والاكتشافات في إنجلترا وأمريكا، ومنها عضو في مجلس المبعوثين في الولايات المتحدة الأمريكية، ووال على جزائر الفلبين ونظار في الوزارة المصرية، هل من المعقول أن أمة كهذه ليس فيها شيان أكفاء لوظيفة مقيد (مسجل) في دائرة الصدارة أو مميز قلم الداخلية» (عريدة وضجيج في المجلس). جريدة المؤيد ٦٣٣٤، ٨ أبريل / نيسان / ١٩١١، وتوفيق برو ص ٢٨٥.

والحقيقة أنه لم يكن للعرب سوى وزارة الأوقاف ولم تكن دائمة، وكان الاتحاديون ينفقون ٨٠٪ من الأموال العامة على البلاد التركية المحضة. وعندما كان يقول العرب للأتراك — حسب رواية الملك عبد الله — «نحن وأنتم أهل الإسلام» «قالوا نعم، لكن نحن السادة وأنتم التبع» (١٣٨). وجدير بالملاحظة أن العربي إذا ما تنقف في العهود السابقة بثقافة الأتراك، وأدخل نفسه فيهم كان يجد السبيل للوصول إلى منصب عالٍ في الجيش أو الوظائف المدنية أو بطانة السلطان. لكن عندما جاء الاتحاديون عزلوا الكثرة الساحقة من كبار الضباط والموظفين العرب، وعينوا أتراكاً بدلاً عنهم، حتى لم يبق في الجيش سوى ضابط عربي واحد برتبة لواء (جنرال) هو زكي باشا الحلبي، ولم يعد حتى للعرب الذين يجيدون اللغة التركية مكان في وظائف الدولة العليا. وتحدث أيضاً عمر منصور (نائب طرابلس الغرب) في مجلس المبعوثين وانتقد الحكومة لسياستها العنصرية، وعدم ثققتها بالعرب — بسبب تآزرهم مع الألبان — وطالب بوزارة الأوقاف أن تكون للعرب، لأنهم إنما عينوا سليمان البستاني (نائب بيروت) نائباً للرئيس إرضاءً للمسيحيين (١٣٩). وتهجم بعنف على الحكومة في ختام كلمته. واعتبر القنصل الفرنسي في بيروت، تعيين سليمان البستاني (المسيحي)، تحولاً في سياسة الاتحاد والترقي أخذ يحدث منذ عدة شهور (١٤٠). وانتقد شكري العسلي تقصير الحكومة بما يخص التدريس، وانتقد وزير المعارف، ورفض والي بيروت تحويل مدرسة الصنائع التي أسست فيها، إلى مدرسة إعدادية، حتى لا يرسل أبنائها إلى المدارس الأجنبية، وانتقد تدريس التجويد والقرآن باللغة التركية، مع أن القانون يقضي بتعليم العربية في المدارس العربية، وتمنى أن تحول نفقات المفتشين إلى مدارس ابتدائية (١٤١). ونقل شكري العسلي وشفيق المؤيد العظم وتوفيق (بك) مبعوث الكرك مطالب العرب، في مقابلة

(١٣٨) مذكرات عبد الله بن الحسين، ص ٤٥.

(١٣٩) المقتبس، عدد ٥٧٦، ١٧ جانفي / كانون الثاني / ١٩١١.

(١٤٠) D. F. Aff. vol XII (1911) 17 Mai, P. 112.

(١٤١) المقتبس، عدد ٦٩٧، ٧ ماي / أيار / ١٩١١. العراق ج ٣، م ٣، ماي / أيار / ١٩١١،

ص ٣٥٨.

لهم مع وزير الداخلية جلال بك ، من خلال تقرير مطول عن حالة سورية ، وطالبوا فيه بتعيين وإل جديد ، لأن الحالي لم يقيم بأي عمل نافع ، وطالبوا أيضاً بتعيين متصرف ملكي عاقل وحكيم ويعرف اللغة العربية إلى الكرك حتى يصلحها^(١٤٢) .

كما جاء في بيان سابق لفارس الخوري في الانتخابات ، « أصبح مبعوثاً فيما بعد ووزيراً و رئيس وزراء في سورية » ماتخله من إصلاح ليس للعرب فقط كما ذكر العسلي فيما بعد ، بل لهم وللعثمانيين أيضاً ، وقال إنه سيعمل على تحقيق الأمانى التالية لو صار مبعوثاً (عن دمشق) :

- ١ — إبطال عقد القروض وإيقاف الدين العمومي .
- ٢ — الاحتفاظ باللغات القومية ، مع تمهيد السبيل لتعليم اللغة الرسمية .
- ٣ — سياسة المودعة والمجازرة مع الدول الأجنبية .
- ٤ — إلغاء بعض الامتيازات الأجنبية .
- ٥ — إطلاق حرية المطبوعات .
- ٦ — إلغاء ضريبة الأعشار واستبدالها بـ ٥ ٪ من الحاصلات .
- ٧ — الدفاع عن حقوق الأمة العربية تجاه الأمم العثمانية ومساواتها معها .
- ٨ — جعل الخدمة العسكرية سنتين والبدل ٤٠ ليرة .
- ٩ — الاحتجاج على الحكومة الحاضرة على إسرافها ، وبهظ كواهلنا بالديون التي لا طاقة لنا فيها^(١٤٣) .

وكتب الدكتور عزة الجندي (دمشق) (أعدمه جمال باشا) ، وهو من الشباب الذين هجموا على مقر "جريدة إقدام في استانبول عندما شتمت العرب وأحيل للمحاكمة ، يعبر بمرارة عن عدائه لسياسة الاتحاديين ، ويرى محصلتها خلال ثلاثة أعوام من الدستور — سيئة جداً — فهو يقول « إن أعمال حزب الاتحاد والترقي خلال ثلاثة أعوام حسب أفعاله كانت كما يلي :

(١٤٢) المقتبس ، عدد ٧٣٣ ، ١٥ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١١ ، نقلاً عن جريدة يكي إقدام التركية .

(١٤٣) نفس المصدر ، عدد ٥٦٩ ، ٩ جانفي / كانون الثاني / ١٩١١ .

- ١— يسيء الظن بكل ما ليس تركياً.
- ٢— يحتكر الإدارة ويعطيها لمتعصبة الترك حتى الجاهلين منهم ويسب ويحتقر كل من خالف مبدأه.
- ٣— يتهم بإيقاع الفرقة والشقاق كل من يطلب حقه وخاصة إذا كان عربياً.
- ٤— يتسلط على النواب ويحاول منعهم من التحدث ويحقرهم ويشتمهم في الجرائد.
- ٥— إخضاع العناصر الأخرى بالقوة.
- ٦— الذبذبة في السياسة الخارجية.
- ٧— يتهدد بالوعيد والتهديد كل من يخالفه بالنفي والإدارة العرفية.
- ٧— يرفض أية جمعية أخرى غيره ولو كانت جمعية خيرية توزع الطعام على الفقراء أو لتشيد المدارس.

والحاصل أنه يريد أن يكون وحده لا شريك له . ولن يكون الجيش مطية لرجال الاتحاد والترقي فهو الذي هدم الحكم الاستبدادي وهو الذي يكسر رقاب عباد المطامع والتآله والجبروت» (١٤٤).

المعتدلون

لكن كان يوجد بين الأتراك من يخالف مثيري النزعة العنصرية التركية ضد العرب، ومنهم على سبيل المثال، حسن فهمي (نائب سينوب)، ورسول جمعية الاتحاد والترقي إلى البلاد العربية، حيث صرح في بيروت مثنياً على العرب، ودعاهم إلى وجوب الاتحاد وعدم مؤاخذه جميع الأتراك بسبب سياسة بعضهم^(١٤٥). وكتبت جريدة «تصوير أفكار» التركية، مقالاً تنتقد فيه إرسال موظفين أتراك لا يعرفون العربية إلى البلاد العربية وتعتبر تترك العرب من العبث^(١٤٦). وكتبت خالدة أديب (الأديبة التركية)، أن إمبراطورية عثمانية مصغرة لا تستطيع أن تكون قوية عزيزة الجانب، في

(١٤٤) نفس المصدر، عدد ٧٨٢، ٦ سبتمبر / أيلول / ١٩١١.

(١٤٥) نفس المصدر، عدد ٣٦٤، ٣ سبتمبر / أيلول / ١٩١٠.

(١٤٦) نفس المصدر، عدد ٣٥٨، ١ ماي / أيار / ١٩١٠.

وسعها أن تقف في وجه الدول المتفوقة المتحفزة للانقضاض عليها، إلا إذا حصل تفاهم تام وتعاون تام بين الأتراك والعرب، وأن العرب كانوا يتقدون وطنية، وكانت فكرة محمود شوكت — العربي الأصل — جديدة بالاعتبار، وهي إقامة مملكة مزدوجة تركية — عربية يكون مركز الحكومة فيها مدينة حلب في سورية، أما إذا كان مثل هذا التدبير سيحول دون تجزئة الأقطار الإسلامية وتفكيكها، فأمر يقع في نطاق الحدس والتخمين، لكنها فكرة كان ينبغي أن يكون لها حظ من التجربة^(١٤٧). والدكتور توفيق رضا انتقد سياسة الاتحاديين التعصبية، وقال إن الدستور لا يكون إلا كلمة لا معنى لها إذا لم تحترم الحرية السياسية والحقوق الأساسية وحرية القول، وإذا لم تعامل العناصر كلها معاملة واحدة، بمقتضى أحكام الدستور. وقد لاحظ الدكتور المذكور (توفيق رضا) استبداد الاتحاديين تجاه العرب خاصة، وذلك أن جميع العناصر غير التركية كالأرمن والروم والألبان والشركس والكرد قد ألفوا بعد إعلان الدستور جمعيات ونوادي، وقد فعل العرب مثلهم، لكن الاتحاديين لم يعادوا إلا جمعية الإخاء العربي، إذ أجبروا أعضائها أخيراً على إغلاقها^(١٤٨). وقد استقال أمير الألاي (جنرال) صادق بك (مرخص) مسؤول الجمعية الاتحاد والترقي، حتى يبعد الضباط عن السياسة، ونشر بياناً أن تكون جمعية العثمانيين من غير تقرير جنس وتعصب جنسي^(١٤٩).

ولم يكن كل نواب سورية من المعارضين للدولة وخاصة ممن نجحوا بمساعدتها، كنواب حلب الستة الذين كانت الثقة معدومة بينهم^(١٥٠)، وكسليمان البستاني نائب بيروت الذي عين نائباً لرئيس مجلس المبعوثين، وقد قصد الاتحاديون من تعيينه تخفيف الحملة والاتهام ضدهم وإرضاء العناصر المسيحية أيضاً كونه مسيحياً. وظل خلال هذه الفترة عند حسن ظن الاتحاديين، إذ كان يدافع عن سياستهم حتى في أشد ما

(١٤٧) زين زين، نشوء القومية العربية، ص ٩١ — ٩٢. ومجلة النعمة، دمشق، عدد ٢٦، ففري / شباط / ١٩٦٣، ص ٥٦.

(١٤٨) ناصيف أبي زيد، العصر الأموي، ص ٨٣ — ٨٤.

(١٤٩) المنار، ١٤م، ج ٥، ماي / أيار / ١٩١١، ص ٣٧٨.

(١٥٠) F. O. 373/781/ 25 Oct 1909, P. 28.

كان العرب يهاجمونهم به وهو اهما لهم اللغة العربية . فقد خطب في بيروت في احتفال كبير ، وقال إن الدولة تسعى لتدريس العربية التي هي لغة قسم كبير من السكان ولغة الدين الرسمي ليس في البلاد العربية فحسب بل في البلاد الأخرى ، وأنه قد شكلت لجنة لدراسة أحسن الطرق لتدريسها^(١٥١) . وفي مصر ، وباحتفال جرى لتوديع البستاني هاجم رفيق العظم الدولة العثمانية ، « لأن جريدة طين قالت بعد فتنة حوران ، أن على الدولة إرسال عشرة آلاف عسكري لرش دوش بارد على سورية ، كما انتقد سياسة الدولة ضد العرب ، فقام سليمان البستاني (الرئيس الثاني لمجلس المبعوثين) ودافع عن الحكومة التركية وحبا للعرب ومؤازرتها للغة العربية وتعيينها للموظفين العرب في الدولة والسفارات والقائمقامين ، وأن الموظفين الأتراك في بيروت لا يشكلون سوى ٧٪ من الموظفين العرب ، وطالب بوجوب مؤازرة العرب للدولة^(١٥٢) .

وهكذا ما كان يجتمع المجلس العمومي في هذه السنة ١٩١١ ، إلا وكان لمسألة اتحاد العناصر الصادر في أول عمل سياسي ، وقد قال السلطان « إن الضامن لنجاة هذه الدولة ، هو شعور العثمانيين جميعاً بشعور واحد نحو إعلاء هذا الوطن ، وعائشين بأخوة كاملة . ورأى مجلس الأعيان ، أن ارتباط عناصر الدولة برباط لا يصيبه الوهن هو الضامن ، أما مجلس النواب فقد قال ، بأن أهم أسباب السعادة لهذه الدولة هو أن تقوى المودة والأخوة بين العناصر^(١٥٣) . ولقد عبر سليمان البستاني عن الموقف بين العرب والترك تمام التعبير ، عندما عدد شكايات العرب على لسان مبعوثهم وعدد ما أنجزته الدولة لحل هذه الشكايات ، وقد أنصف الطرفين ، لأن الدولة لم تكن معادية للعرب بكل ما تحمل للكلمة من معنى ، ولم يكن قصدها القضاء على العرب ، إلا أن سياستها المؤيدة والمتحيزة للأتراك ، كانت تشعر العرب بأنها ضدهم ولا تهتم بهم كما يجب ، هذا على الأقل من الجانب الطيب من هذه الحكومة . جاء في خطاب البستاني ، أن المبعوثين العرب قد اهتموا بأمر اللغة العربية وتعريضها وحاولوا التقرب

(١٥١) المقتبس ، عدد ٣٣٦٤ ، سبتمبر / أيلول / ١٩١٠ .

(١٥٢) النبواس ، عدد ٣٣٦ ، ج ٨ ، ٢٠ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٠ ، ص ٣٣٠ — ٣٣٦ .

(١٥٣) المقتبس ، عدد ٦٥٩ ، ٢٤ أبريل / نيسان / ١٩١١ .

والتفاهم مع الأتراك، ودافعوا عن العرب ضد الوشاة والخونة والمتملقين، وكان لنواب سورية فضل في رفع المظالم، كالرسوم غير المشروعة، وأيدوا الدستور وأضفوا عليه صفة مطابقتها للشرع الإسلامي، ودفعوا التهم الموجهة ضد الجرائد العربية. وبدورها كانت الحكومة تلبية طلبات العرب، كرفع الظلم عن المهاجرين والوعد القاطع بإصلاح طريق بيروت — دمشق على حساب النافعة، وتأجيل طلبه العلم المسلمين من سوقهم إلى الجندية، وتمديد المدّة بصورة كافية كي يؤخذ المهاجرون من المسلمين والمسيحيين بعد عودتهم إلى الجندية. وشرعت وزارة العدل في رفع الظلامة الخاصة، بأن المحاكم تستعمل اللغة التركية في المحاكمات في البلاد العربية، وأخذت تدخل اللغة العربية فيها، كما لبّت وزارة المعارف طلبات العرب، ونقلت المعلمين الأتراك الذين لا يعرفون اللغة العربية في المدارس العربية، ورضيت الحكومة بتعيين الأطباء السوريين المتخرجين من معاهد أجنبية في خدمة المستشفيات والبلديات، وكان هذا محظوراً، وأعيد إلى الخدمة بناءً على طلب المبعوثين العرب، الموظفون العرب إلى دوائر المالية برغم أنهم لا يعرفون لغة الدولة الرسمية «التركية» (١٥٤) إلخ.

محاولة الاتحاديين الإصلاح

يبدو أن هذه الحوادث والخلاف المتصاعد بين العرب والترك، قد أقنع الاتحاديين أن الدستور الذي أعادوه وعملوا به منذ ١٩٠٨ وحتى نهاية هذا العام ١٩١١، لا يمكن أن يزيل فكرة الجامعة الإسلامية، كما أدركوا أن القوة الرابطة في الجامعة الإسلامية أقوى مما كانوا يتصورونه سابقاً، ولذا قرروا تبني برنامج جديد، وهو الاتحاد الإسلامي على الأقل في سياستهم الخارجية، وعقدوا لذلك اجتماعاً لجمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩١١ في سالونيك، كان من مقرراته كما ذكرت جريدة التايمز (The Times) في ٢٧ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١١ «وجوب عقد مؤتمر سنوي في استانبول، يضم وفوداً يمثلون جميع البلدان الإسلامية لبحث الشؤون التي تهم العالم الإسلامي، ويجب تأسيس فروع لجمعية الاتحاد والترقي في جميع الأقطار الإسلامية،

(١٥٤) المقتطف مجلد ٣٧، ج ٥، نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٠، صص ١٠٨٨ — ١٠٩٠.

ولا سيما في روسيا وإيران.. ويقال أيضاً أن رابطة كبيرة للاتحاد الإسلامي تأسست إلى جانب جمعية الاتحاد والترقي وعرفت باسم «جمعية خيرية حمية»، وقد كتب الشيخ عبد الخالق البغدادي، وكان عضواً في الجمعيتين (الاتحاد الإسلامي والاتحاد والترقي) أن الإسلام لا يمكن أن يلتقي مع الأديان الأخرى، وكان يقصد أن أي تقدم يحرزها العالم الإسلامي، ويكون مصدره الحضارة الأوروبية، أمر لا يمكن تحقيقه، وهذا بلا شك عودة عن الدستور وعودة إلى سياسة الجامعة الإسلامية، حتى إن أحمد رضا وكان من أتباع الفيلسوف الفرنسي أوغست كونت، وأول رئيس لمجلس المبعوثين كان مقتنعاً أن الدين الإسلامي هو القوة الوحيدة التي يمكن أن توحد العناصر المتباينة في الإمبراطورية العثمانية، وكان يرى أن واجب كل مسلم أن يعمل جاهداً للحفاظ على سلامة الامبراطورية العثمانية، وضمان بقائها^(١٥٥). وانتقدت مجلة (تصوير أفكار) التركية لقب تركيا أو شبان الترك، وقالت بوجود ذكر الحكومة العثمانية أو السلطنة العثمانية، حتى لا تغضب العناصر الأخرى^(١٥٦). ولا بد أن الموقف قد وصل إلى درجة خطيرة من عدم الثقة بين العرب والترك، حتى اقتضى من الاتحاديين إعادة النظر بسياتهم، حتى إن أحد كبار الحكومة في العاصمة، صرح لأحد مبعوثي العرب بقوله «إننا وصلنا بسياسة الأطفال (شباب الاتحاديين) إلى درجة من سوء التفاهم، صار يخيل إلي فيها إذا رأيتك مقبلاً لمعانقتي، أنك واثب علي لتفتك بي، وأنت يخيل إليك مثل ذلك»^(١٥٧) وكان الخوف الشديد من أن هذا النفور يتجاوز الساسة والمفكرين والمبعوثين ليصل إلى عامة الناس، وعندها إذا تغلغل هذا الشعور فيهم أصبح من الصعب نزع^(١٥٨). وكان حسين جاهد (تركي متعصب) هو الذي يثير النفور ويعمق الشقاق بين العرب والترك بما يقوله ويكتبه حسب رأي شكري العسلي^(١٥٩).

(١٥٥) زين زين، نشوء القومية العربية، ص ٨٥ نقلاً عن Handbooks, No 96 a PP. 68-69.

(١٥٦) المقتبس، عدد ٦٢٥، ٥ مارس / آذار / ١٩١١.

(١٥٧) المنار، ج ١٠، م ١٣، نوفمبر ١٩١٠، ص ٧٨٧.

(١٥٨) نفس المصدر.

(١٥٩) المقتبس، عدد ٧٦٥، ٢٧ أوت / آب / ١٩١١.

وتحقيقاً لسياسة الاتحاديين الجديدة، وإزالة سوء التفاهم مع العرب، زار وفد اتحادي من سالونيك سورية لبحث الموقف فيها، وما تتحدث عنه الجرائد، وما هي مطالب السوريين من الحكومة، في جوان / حزيران / ١٩١١. ولدى وصوله إلى دمشق، كتب شكر العسلي مطالب العرب وهي تكرار لأقواله وأقوال المبعوثين العرب، لكن لا بأس من أن نكره نحن أيضاً. كتب العسلي «إن العرب حائقون على من يعلمون الأحكام القرآنية بالتركية، خلافاً لما صرح به ناظر (وزير) الداخلية، والعرب غاضبون لأن الدولة قربت الأسفال والجواسيس من أمثال طنين، لتفرق العرب عن الترك، وهما عنصران متحابان، والعرب غاضبون على من يرسلون ولاية لا يستحقون لولا نفاقهم للاتحاديين، أن يكونوا قائمقامين، وغاضبون على من جعلوهم يترحمون على العدل أيام عبد الحميد، وغاضبون على نقل الضباط العرب إلى أماكن بعيدة، وغاضبون على من أغضبوا الدولة بطيشهم وعدم تدبرهم، وغاضبون على من استبد بالأمر أكثر من عبد الحميد، فهذه شكايات العرب وليس لهم شكاية من العنصر التركي نفسه الذي يشكو الشيء نفسه» (١٦٠).

توتر وأحداث

ويبدو أن وفد الاتحاديين من سالونيك لم يستطع أن يحل الخلاف مع العرب، ولهذا أصدرت جمعية الاتحاد والترقي في دمشق، منشوراً ووزعته في المدينة تهدد فيه كل من ينشر الفرقة والنفور بين العرب والترك (١٦١). حدث هذا في الوقت الذي أخذ فيه أعضاء جمعية الاتحاد والترقي من العرب في سورية ينسحبون منها دون خوف، بعد أن ألفوا وسمعوا النقد المرّ العربي ضد الاتحاديين، ففي دمشق (حي الميدان وهو حي عزة باشا العابد) استقال كثير من الأعضاء، «لأن مقاصد جمعية الاتحاد والترقي لا تنطبق

(١٦٠) نفس المصدر، عدد ٧١٢، ٢٥ جوان / حزيران / ١٩١١ «ذكر رضا نور الذي سجن سنة، أن الحكومة استخدمت جواسيس العهد البائد لأنهم يعرفون المداخل والخارج، وأن بعض المبعوثين يراقبهم جاسوسان من دائرة الأمن العام. نفس المصدر عدد ٧٠١، ١٢ جوان / حزيران / ١٩١١.
(١٦١) المقتبس، عدد ٧٨٢، ٦ سبتمبر / أيلول / ١٩١١ ومجلة الحرب العظمى، ص ٧٠٥.

مع أمياهم القومية» ، وفي اللاذقية أقفل حزب الاتحاد والترقي أبوابه بعد أن تركه كل أعضائه ، وتقاسم أعضاؤه أشياءه «بعد انكشاف نواياه» ، وفي جبل عامل في لبنان انسحبت الدفعة الأخيرة من هذا الحزب بسبب «سياسة الاتحاديين ضد القومية العربية المتفانية في عثمانيتها ، وإهمالهم أمر المعارف في البلاد العربية عموماً ، ولاستئثار بضعة أشخاص بأمور الجمعية» ، وإصرار حزب الاتحاد على تعديل المادة / ٣٥ / من الدستور بما يجعل الشورى في خطر عظيم» وأرسلوا برقيةً بذلك إلى بيروت . وانسحب معظم الحمويين من جمعية الاتحاد والترقي ، ولم يبق فيها غير الراغبين في التوظيف^(١٦٢) . وفي نفس الوقت كان العرب يتجهون نحو حزب الحر المعتدل ، الذي كان يتبناه المبعوثون العرب ، ونحو حزب الحرية والائتلاف الذي أسس في أواخر ١٩١١ ، وكان يضم المعتدلين من الأتراك ومن العناصر الأخرى ومنهم العرب . وكان هذا الحزب منافساً ومضاداً لحزب الاتحاد والترقي ، ولذلك مال العرب نحوه ، وخاصة الطبقة المتعلمة . وأسست له المكاتب في جميع المدن السورية ، وكانت الصحف العربية تناصره ، كالحضارة لعبد الحميد الزهراوي في الآستانة ، وجريدة الإصلاح في بيروت ، وجريدة المقتبس في دمشق ، ودخل فيه المبعوثون العرب ومعظم الشخصيات السياسية العربية^(١٦٣) .

وصل النزاع في سورية حتى إلى أعضاء جمعية الاتحاد والترقي أنفسهم ، بين العرب منهم والأتراك (للسبب المذكورة نفسها سابقاً) ، إلا أنه أخذ اتجاهاً دينياً وكأنه عودة للجامعة الإسلامية ، «إذ هاجم اثنان من نواب العرب الحكومة الاتحادية في مقر جمعية الاتحاد والترقي في بيروت ، ودعوا أنفسهم بالعثمانيين المسلمين ، وانتشر الخبر

(١٦٢) المقتبس ، عدد ٢٩ ، ٧١٦ ، جوان / حزيران / ١٩١١ و ٨٧٧ ، ١٤ جاتي / كانون الثاني / ١٩١٢ ، و ٧٧٣ ، ٥ سبتمبر / أيلول / ١٩١١ .

(١٦٣) مذكرات الحكيم ، بيروت ولبنان ، ص ٣٧ ، كان عبد الحميد الزهراوي يطالب بإنشاء فرع لحزب الحر المعتدل في بيروت وغيرها من المدن السورية ، نظراً لتعدد المذاهب والعناصر والمشارب فيها تعدداً هائلاً ، إنقاذاً لروح الغلب السائدة في الحزب الآخر (حزب الاتحاد والترقي) .
جريدة الحضارة عدد ٧٩/٢ ، ١٢ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١١ .

وشاع بين السوريين الغاضبين على الأتراك، لعدم اهتمامهم ولعدم اعترافهم باللغة العربية^(١٦٤). كان هذا بعد شهر واحد من وصول وفد سالونيك إلى سورية لرأب الصدع بين العرب والترك، وأخذت جمعية الاتحاد والترقي تفقد أثرها في سورية، في الوقت الذي كان شكري العسلي يستقبل كثيراً من الزوار كنشاط معادٍ للاتحاديين^(١٦٥). ويتساءل القنصل البريطاني في دمشق (Cumberbatch) «كيف يسلك عرب سورية تجاه سياسة الاتحاديين وسياسة التتريك! ولا بد أن يحدث الصراع بزعامة شكري العسلي عضو دمشق»^(١٦٦). وكان هذا القنصل يعتقد بأن حدة الصراع زادت هذا العام ١٩١١، بسبب تأثير ثورة اليمن ضد الدولة — وكان كثير من جند الدولة الذين حاربوا اليمنيين من السوريين —، ويعتقد أن كل السوريين يجذبون الانفصال، ولا يعرف من أين أتت هذه الفكرة ولا المنظمة التي تحملها، وكان الدليل لديه هو اصرار العرب على استعمال اللغة العربية^(١٦٧)، ويشبه رأيه كثيراً ما كانت تكتبه جريدة طنين التركية، بنعت العرب أنهم يحبون الانفصال عن الدولة العثمانية.

وخلال هذا الصراع القومي السياسي جرت في حلب حوادث اجتماعية بين الأغنياء والفقراء، كانت امتداداً لحوادث السنة السابقة (١٩١٠). وكان شتاء هذا العام (١٩١١) السبب في تفجيرها، إذ انخفضت درجة الحرارة انخفاضاً شديداً وملأت الثلوج حلب وحمص وحماه، وقلت المؤونة والثياب، وتفاقم الجوع، ولم يصل من الأغنام التي عبرت نهر الفرات من الموصل إلا ثلاثون ألفاً من أصل ٢٧٠ ألفاً نفقت كلها من شدة البرد. وتبرع القناصل، الانكليزي والفرنسي والإيطالي كل بخمسين ليرة، وجمع الوالي الأعيان المسلمين والمسيحيين، وجمع ١٦٠٠ ليرة، وهدد

(١٦٤) من سفارة بريطانيا في استانبول.

F. O. 371/1246/ No 26746, 4 Jui 1911, P. 7.

(١٦٥) من سفارة بريطانيا في استانبول.

Ibid, P. 8.

(١٦٦) من سفارة بريطانيا في استانبول.

Ibid, 371/1246/ 2 Dec 1911, PP. 5-6

(١٦٧) Ibid, 371/1246/ No 13116, 4 Jui 1911, P. 8.

الوالي الأثرياء وملاك الأرض المسلمين، لأنهم ظلام الفقراء (عن طريق الجرائد)، وثار الفلاحون وأخذوا قرى الأغنياء وتركوا لهم قرية واحدة، كما تحرك البدو وأخذوا لهم دوراً. وأخذت جريدة الشعب (وهي لشباب مسيحي) تهاجم الأشراف، كما أيد نائب من حلب الوالي، وانتشرت أخباره ضد الظالمين، وقيلت القصائد، وأرسل الإقطاعيون والوجهاء برقيات إلى استانبول تطالب بنقل الوالي حسين كاظم بك... فطلب منه وزير الداخلية أن يستقيل أو يقيله، كما طالبه بحفظ الأمن خلال هذه الفترة، حتى يتم تعيين والٍ، وانقسمت حلب إلى قسمين، ملاك الأرض المسلمين والأشراف من جهة، والمسلمون الفقراء والمسيحيون من جهة أخرى. وكان عدد الشرطة في حلب غير كافٍ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً بالغاً. وذهب الوالي إلى استانبول، وقابل وزير الداخلية، وعاد منتصراً واستقبله في حلب خمسون ألفاً، ليس بينهم وجيه أو أحد من ملاك الأرض المسلمين^(١٦٨)، الذين تقدموا إلى رئاسة مجلس النواب بمحضر عام بواسطة مبعوث حلب، نافع باشا الجابري، يشكون فيه سوء تصرف واليهم الذي ينشر منشورات تضر بالدستور، وطالبوا بأخذ ثمن أملاكهم ليهاجروا، لأنه لم يعد في طاقتهم تحمل الأذى والذل لمخالفة القانون الأساسي، ومنافاة أصول الحقوق الشخصية^(١٦٩). وفي حماة وحمص ثارت الاضطرابات وبدأت الفوضى ضد ضريبة العشر على المحصول، لكن الدولة قمعتها دون إراقة دماء بل بالسجن، لكنها أعدمت ستة من الذين اشتركوا في ثورة الكرك، وعاقبت مائة من البدو بالسجن لنفس السبب، لكن البدو لم يكفوا عن معاداة الدولة، فكانوا يغيرون على خطوط الهاتف في منطقة دمشق

(١٦٨) رسالة القنصلية البريطانية F. O. 361/1246/ No 41662, P. 19, 8. فيها رسائل القنصل البريطاني في حلب ودمشق (٢٣ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١١).

جاء في وثائق حلب عن برد حلب في هذا الشتاء «بلغت درجة الحرارة من ١٠—١٨ تحت الصفر وتساقطت الثلوج، وقطعت الطرق، وعطلت الأشغال، وهلك المواشي، وارتفعت أسعار الوقود واللحوم ارتفاعاً فاحشاً، وأرسل الوالي يطلب المال من الآستانة، ووزع القناصل والأشاقية والكهنة والرهبان وكثيرون من الأغنياء الحسنات». الأب فرديناند توتل اليسوعي، أخبار ٢٤ جانفي / كانون الثاني / ١٩١١، ص ١٠٢.

(١٦٩) المقتبس، عدد ٥٨٦، ٢٥ ماي / أيار / .

ويقطعونها^(١٧٠)، كما ثار عرب الرولا ضد الدولة لأنها اعتقلت زعيم عشيرتهم نوري الشعلان خلال حوادث الكرك^(١٧١). وحاولت الدولة تلافي تلك الحوادث المتكررة، التي انتقلت إلى الطوائف وسكان المدن، وأخذ المسؤولون يتصلون بزعامات تلك الفئات ويلوِّحون لها بالتهديد، قبل أن تثور وخاصة مثل الفئات شبه المستقلة، كالعلوين الذين زارهم والي بيروت، وكانوا يبلغون في ولايته (٨٠ ألفاً)، وطلب منهم الخضوع للدولة كما خضع الدرّوز، فطلبوا منه أن يمهّلهم حتى الربيع التالي، حتى يعطوه جواباً على إنذاره القاطع، بتسليم السلاح ودفع الضرائب، لكنهم أخيراً رفضوا تسليم سلاحهم، كما رفضوا نقلهم إلى آخر الإمبراطورية، وكان من المتوقع أن يتخذ الفاروقي موقفاً حاسماً ضدهم، مثلما فعل الدرّوز^(١٧٢)، لكن ثورة الكرك المجاورة للدرّوز في وقت لاحق، ووفاة الفاروقي بعد تلك الحوادث هي التي أنقذتهم من عقاب الدولة. كما اتصلت الحكومة بشيوخ القبائل في بئر السبع ودعتهم إلى دار الحكومة في غزة، واستقبلتهم بحفاوة ووعدتهم أن توزع السلاح عليهم، لأنهم — كما رأى قنصل بريطانيا في القدس — أي البدو، هم الوحيدون الذين تعتمد عليهم الحكومة في الظروف الحاضرة (حرب الدولة مع إيطاليا وغارة سفن الأسطول الإيطالي على بيروت)، لكن شيوخ البدو خرجوا وأعلنوا رضائهم الظاهري واتفاقهم مع الحكومة، لكن الحقيقة حسب رواية أحد الشيوخ من تلك القبائل، وكان مخبراً عند الانكليز، أنهم خرجوا «يلعنون الحكومة، ويدعون لله أن يخلصهم منها»^(١٧٣).

وكانت الأحداث المؤثرة تتوالى على الدولة الواحدة إثر الأخرى، على اختلاف أنواعها القومية والسياسية والاجتماعية، وقبيل أن ينتهي العام الثالث (لثورة الدستور

(١٧٠) من كمرباتش إلى سفير بريطانيا في استانبول.

F. O. 37/1246/ No 41662 (23 Oct) 1911 P. 8.

Ibid, 371/1487/ No 1173. 3 Jan 1911. (١٧١)

(١٧٢) من كمرباتش قنصل بريطانيا في بيروت عن طريق السفارة البريطانية في استانبول إلى وزارة الخارجية البريطانية.

Ibid, 371/1246/ No 26747, 4 Jui 1911.

(١٧٣) رسالة من القنصل البريطاني H. E. Sataw في القدس F. O. 371/1492/ 2 Fev 1912.

١٩٠٨) وهو عام ١٩١١، قامت إيطاليا بالهجوم على طرابلس الغرب، وكان له انعكاسه على سورية وخاصة على المسيحيين، أو على علاقة المسلمين بالمسيحيين، على الرغم من أن الوثائق البريطانية تذكر أن إعلان الحرب الإيطالية اقترن بالهدوء في سورية، وأخذ الناس يلبون دعوة الحكومة للتبرع من أجل حرب طرابلس، كما قامت المظاهرات في المدن تنادي بإعلان الجهاد ضد إيطاليا^(١٧٤). وأعلنت الدولة عن تجنيد كل الشباب فوق العشرين سنة، حتى الذين دفعوا البديل العسكري (٥٠ ليرة ذهبية)، وأخذ الإيطاليون بالرحيل من سورية^(١٧٥). ولم يكن القلق والاضطراب والخوف يرايل قلوب الأرمن، إثر المذابح في إنطاكية التي امتدت إلى غير الأرمن أيضاً، من غير المسلمين حيث اتخذت الدولة الاحتياطات الكافية، واستدعت الدرك من حلب ووزعوا في المدينة، وكانوا على اتصال مع القنصل البريطاني، الذي كان يرقب الأحداث ويرسل الأخبار^(١٧٦). أثارت هذه الحرب من جديد قلق المسيحيين، وخاصة أخبار الانتصارات التركية في الجرائد، وخشي المسيحيون أن يتحرك المسلمون، ويتشجعوا ضدهم، وقد ترك بعض المسيحيين مدينة بيروت إلى داخل البلاد، وبذلت الحكومة جهداً كافياً لتهدئة الأحوال وطمأنة المسيحيين. وحفظ النظام^(١٧٧)، ومع كل هذا جرت حوادث قتل وجرح بين المسلمين والمسيحيين في بيروت^(١٧٨). وفي يافا سرت شائعات بأن المسلمين سيدبحون المسيحيين، وأرسل القناصل الأجانب أخباراً إلى حكوماتهم، وأكدت الشرطة الأخبار بأن شيئاً سيجري عند التبرع للهِلال الأحمر، لكن شيئاً لم يحدث، إلا مظاهرة قام بها الافغان (مائة) وطلبوا سلاحاً للحرب

(١٧٤) الأب فرديناند توتل اليسوعي، وثائق حلب، ص ١٠٤ (٢٩ أبريل / نيسان / ١٩١٢).

وتقرير السفارة البريطانية في استانبول. F. O. 371/1487/ 1 Nov 1911.

(١٧٥) وثائق حلب، ص ١٠٣.

(١٧٦) من سفارة بريطانيا في استانبول.

F. O. 371/1248/ No 17183. 3 Mai 1911.

(١٧٧) من السفارة البريطانية في استانبول.

F. O. 371/1487/ Nov 1911.

(١٧٨) D. F. Aff. Etr, vol XII Dec 11, 1911, P. 219.

فوعدهم القيادة وسجلت أسماءهم وصرفتهم، وأبلغ قائد الدرك المسلمين بألا يفعلوا شيئاً، وطمأن القناصل الأجانب عن ذلك^(١٧٩). وفي حلب اضطرب الأهالي لسماعهم بضرب الإيطاليين لمرفاً بيروت، لكن الحكومة وعدت الأهالي بالنضال حتى أعادت إليهم الهدوء^(١٨٠). وكانت ولاية بيروت تعاني صعوبة في فصل الخصومة بين «مسلم ومسيحي»، أو «عربي وتركي» وخاصة في سياسة الاتحاد والترقي: تركيا للأتراك^(١٨١). وكان الوطنيون العرب المعادون للأتراك، لا يثيرون مثل هذه الخلافات والعصبيات، ولذلك اتهم شكري العسلي الاتحاديين بأنهم هم الذين يثيرون التوتر بين المسلمين والمسيحيين — كما ذكرنا سابقاً —. وكتب عبد الحميد الزهراوي في تلك الفترة: نحن مسلمون لكن لا نريد اتحاداً يكون فيه خارجه غير المسلمين من أبناء وطننا، ونحن عثمانيون لكن لا نريد خارجه العثمانيين من غير الأتراك^(١٨٢)، وبقيت مهاجرة بعض السكان ظاهرة مستمرة في سورية، ولم تكن لجمع المال والخلاص من الفقر فحسب، لكنها كانت تخلصاً من الجندية وخاصة بين المسيحيين^(١٨٣)، وقد وصف فرديناند توتل اليسوعي تلك الفترة المهاجرة بالآفة، إذ قال في وثائق حلب، «أصبحت المهاجرة إلى أمريكا آفة لأنه يهاجر كل يوم ٣٠ — ٤٠ شخصاً، ومنهم عيال برمتها، وسهل ذلك أجور النقل التي هبطت إلى ١٦ دولاراً^(١٨٤). وفي تلك الفترة كانت تقابل هجرة المسيحيين العرب من سورية هجرة اليهود إلى فلسطين. أما جبل لبنان فشغلته مسألتان، الخدمة العسكرية، وفرض ضريبة على زراعة التبغ

(١٧٩) تقرير قنصل بريطانيا في القدس.

F. O. 371/1292/ No 42640/ 14 Oct 1911.

(١٨٠) وثائق حلب، ص ١٠٣ وتقرير من سفارة بريطانيا في استانبول.

F. O. 371/1487/Nov 1911.

(١٨١) رسالة من سفارة بريطانيا في استانبول.

F. O. 371/1246/ No 41662 (24 Oct 1911) P. 9

(١٨٢) جريدة الحضارة عدد ٥٤/٢، ٢٠ أبريل ١٩١١.

Ibid, F.O, P.10. (١٨٣)

(١٨٤) الأب فرديناند توتل اليسوعي، وثائق حلب، ص ١٠٤.

بالببوت^(١٨٥). وهكذا أصبح واضحاً من هاتين السنتين ١٩١٠ و ١٩١١، أن النزاع العربي التركي حوّل القضية إلى قضية عرب وأتراك، ولم تعد المشكلة عثمانية داخلية، بل قومية لكلا الطرفين. ولقد جاء في مذكرة للسفير البريطاني في استانبول في جوان / حزيران / ١٩١٠ يصف تلك الحالة وسوءها بين العرب والترك فقال «إن العرب على العموم شعروا بخيبة أمل شديدة، عندما تبينوا بعد الدستور أن الاتحاديين سيطروا على الأمور وتبنوا سياسة تركية مركزية، في الوقت الذي كان العرب يتوقعون فيه حكماً لا مركزياً، تتطور فيه الولايات العربية في ظل مزيد من الحرية الذاتية تحت الحكم العثماني، أما الآن فقد انتهت رابطة الخلافة بين الطرفين، وأصبحت القضية قضية أتراك وعرب»^(١٨٦).

كما لعبت الظروف الدولية التي عانتها الحكومة، دوراً هاماً في علاقة العرب بالأتراك، فإضافة إلى ثورات الدروز والكرك في سورية عام ١٩١٠، وثورات اليمن وعسير في تلك السنة والتي تلتها، وثورة الألبان في السنتين المذكورتين، التي كان من المفروض أن تجعل الاتحاديين يسالمون العرب ويتحدون معهم، ثم جاء الاحتلال الإيطالي لبلد عربي هذه المرة وهي ليبيا، ولم تكن الدولة قادرة على الدفاع عنها بسبب بعدها، وضعف أسطولها الذي لم يكن يستطيع الوصول إلى شواطئ ليبيا المحاصرة من قبل الأسطول الإيطالي، كما أنه لم يكن باستطاعتها إرسال قوات برية عن طريق مصر، بسبب الوجود الإنكليزي فيها، كل ذلك جعلها ترسل عدداً من الضباط الأتراك والعرب، كأنور ومصطفى كمال وعزيز المصري وجعفر العسكري، لشدّ أزر مقاومة الليبيين العنيفة ودعمها وتنظيمها، وأرسلت إيطاليا سفنها، فضربت المدن الساحلية العثمانية ومنها بيروت، واحتلت بعض جزر بحر إيجة لإجبار الدولة على سحب قواتها من ليبيا، وهذا ما حدث إذ حلت الدولة مجلس المبعوثين في ٢٥ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٢، وعقدت الصلح مع إيطاليا في ١٧ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٢،

F. O. 371/1246/ P. 15. (١٨٥)

F. O. 371/1007/ Jul. 28, 1910. (١٨٦)

ومنحت ليبيا استقلالها حتى لا تضطر إلى الاعتراف باستيلاء إيطاليا عليها (١٨٧).

وبرغم كل الصعوبات فقد أنجزت الدولة عدة مشاريع هامة، كمد خط الحديد بين دمشق وبيروت، وتعبيد الطريق البري بينهما، وإعادة إصلاح الخطوط الحديدية التي دمرها البدو في الأردن، وتسيير البريد بين حلب وبغداد يومياً بعد أن كان أسبوعياً، وتسيير مراكب تجارية في نهر الفرات (بوساطة شركة انكليزية. واختصرت مدة السفر من عشرين يوماً إلى سبعة أيام، ونظمت المدن بوضع أسماء للشوارع والحارات وأرقام للبيوت والدكاكين، وربطت مخافر الشرطة والدرك بالتلفون، وحول التوقيت في الساعة إلى التوقيت الغربي، وتم افتتاح مدارس حكومية وأهلية وطائفية، وتوسعت صلاحيات الولاة، وأصبح لديهم مجالس عامة للنظر في شؤون الولاية، مما حسن شيئاً بعض الأمور الإدارية (١٨٨) إلخ.

سقوط الاتحاديين وآمال العرب عام ١٩١٢

كان عام ١٩١٢ عاماً هاماً جداً، بالنسبة لعلاقات العرب مع الأتراك، ففيه تخلت الحكومة التركية الاتحادية، عن متابعة الحرب والنضال ضد الاحتلال الإيطالي لطرابلس، واتهمها العرب بأنها سحبت قواتها لحرب اليمن وعسير أي لحرب العرب. ولإزاء عجز الحكومة عن متابعة الحرب، حلت المجلس النيابي (المبعوثين) في ٢٥ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٢، تمهيداً لعقد الصلح مع إيطاليا. وأجرى الاتحاديون انتخابات نيابية جديدة، واستعملوا فيها كل الضغط والتزوير حتى أحرزوا أغلبية ساحقة في مجلس المبعوثين، ولم ينجح من خارج حزبهم سوى أربعة مبعوثين (١٨٩). واتهم العرب الحكومة بخيانة الحق والانتخابات، فكتب عبد الحميد الزهراوي قائلاً «إن الانتخابات النيابية هي خيانة الأمانة، كادت تقضي على الأمة والوطن، لولا لطف رباني وعناية إلهية، وأن الأمة فضحت فضيحة كبيرة، إذا انقسمت إلى قسمين، قسم أباح

(١٨٧) سليمان موسى، ص ٢٨ — ٢٩.

(١٨٨) الأب فرديناند، ص ١٠٣ — ١٠٤، ومذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ٢٩ وغيرها.

(١٨٩) سليمان موسى، الحركة العربية، ص ٢٩.

لنفسه خيانة الأمانة فتفنن بالتزوير واغتصاب رأي الناس، وقسم جمد ولم يتحرك، والطرفان مثل بعضهما^(١٩٠) وأندز الزهراوي بثورة كثرة الألبان لاسترداد هذه الحقوق المغتصبة. وحتى إن بعض المتطرفين الحاقدين على الأتراك عموماً والاتحاديين خصوصاً، يفسر أن الاتحاديين تخلوا عن طرابلس الغرب، حتى لا يكون للعرب عدد كبير في مجلس المبعوثين^(١٩١). لكن فشل الاتحاديين ضد إيطاليا، وثورة ألبانيا في هذا العام، أدت إلى نفور الرأي العام منهم، وإلى قيام اعتصام ضدهم في الجيش، فاستقالت وزارتهم في جوييه / تموز / ١٩١٢، وتألّفت وزارة من الائتلافيين والمعتدلين، وحلت هذه الوزارة مجلس المبعوثين في شهر أوت / آب /، ولما يمضي عليه سوى أربعة أشهر، وحاولت تطبيق الإصلاح في الولايات على أساس اللامركزية، كأفضل وسيلة للوقوف في وجه أطماع الدول الأوروبية^(١٩٢).

كان تسلم الائتلافيين والمعتدلين للحكم، بدلاً من الاتحاديين متنفساً للعرب من ضغط الاتحاديين، ومبعث سرور لهم، لأنهم بالأساس — ونعني النواب العرب في مجلس المبعوثين — كانوا قد انضموا إلى زملائهم النواب الألبان والأرمن وبعض معتدلي الترك، وألفوا حزب الحرية والائتلاف الذي لاقى رواجاً بين العرب، بسبب كرههم للاتحاديين، وظنوا أن الأمور أخذت تسير في اتجاهها الطبيعي، وأن العرب سينالون حقوقهم في حكم لا مركزي. والتقى العرب والأتراك في هذا الحزب مع بعضهما بثقة وأخوة، وأقيمت الحفلات الكبرى في سورية، وحضرها من الجانبين نواب عرب، كشكري العسلي وأتراك، كلطفي فكري^(١٩٣)، ولقيت ثورة الألبان — وكان نوابها من

(١٩٠) جريدة الحضارة، عدد ١٢٣، ١٥ أوت / آب / ١٩١٢.

(١٩١) عبد المسيح انطاكي، حرب الانتخابات في الدولة العلية العثمانية، مصر، بلا تا، (جوييه / تموز / ١٩١٢) ص ٩. وانظر الملحق عن برنامج دعاية لأحد المرشحين السوريين.

(١٩٢) سليمان موسى، ص ٢٩.

(١٩٣) مذكرات يوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ٣٨. ذكر الحكيم أن حفلة كبرى أقيمت في بيروت سنة ١٩١٢، حضرها عدد كبير من الحزبين الائتلافيين والاتحاد والترقي، وجمع كبير، وكان الصفاء سائداً بين الفريقين، وكان شكري العسلي ولطفي فكري (تركي) المختفي بهما. ص ٣٨.

حزب الائتلاف كما ذكرنا — تعاطفاً من العرب الحاقدين على الاتحاديين^(١٩٤) — وفي هذا الجو الملائم للعرب، وانتشار أفكار اللامركزية التي تبنتها الحكومة الائتلافية تأسس حزب اللامركزية الإدارية العثماني في مصر، خلال حكم الائتلافيين، يحمل فكرة الائتلافيين اللامركزية نفسها^(١٩٥). وفي هذه السنة نفسها تأسست في الآستانة جمعية أخرى هي جمعية العلم الأخضر العلنية، وكانت غايتها تقوية الروابط بين الطلبة العرب في المدارس العليا العثمانية، وبث الروح الوطنية فيهم. وأصدرت هذه الجمعية جريدة لسان العرب، التي أصبحت لسان حال المنتدى العربي، وعاشت الجمعية حتى الحرب العالمية الأولى^(١٩٦). وبعد سقوط الاتحاديين من الحكم وانحياز القوميين العرب إلى حزب الحرية والائتلاف، أراد وجهاء دمشق وبيروت وغيرهما، أن لا يفسحوا المجال إلى هؤلاء القوميين، كي لا ينفردوا بالنفوذ في سورية، وكان هؤلاء الوجهاء — أمثال عبد الرحمن باشا اليوسف ومحمد باشا العظم — يرون أن تبقى لهم الصدارة في شؤون سورية، كما كانوا من قبل، لأن الحكومة التركية الاتحادية، ومن قبلها حكومة عبد الحميد، كانت تعتمد على هذا النوع من الناس لمساعدتها في الحكم، ولذلك أسسوا حزباً جديداً أسموه حزب الإصلاح — وهو غير مرتبط بأحد الحزبين الاتحادي والائتلافي —، وكانت غايته الحقيقية هي الزعامة التقليدية، ولهذا لم ينحازوا لأي من الحزبين القوميين حتى لا يفقدوا تلك الزعامة، إذا ما تسلم الحزب الآخر الحكم، أما الإصلاح أو ما فعلوه من أجل الإصلاح، فلم نعرفه بسبب انضمام كثير من أعضائه وانطوائهم تحت لواء الاتحاديين، بعد عودة الحكم إليهم كشكيب أرسلان، وأسعد الشقيري (من سورية)، وعبد العزيز شاويش من مصر، وعبد العزيز الثعالبي من تونس، والشيخ سليمان الباروني في ليبيا^(١٩٧). ومن أوجه الصراع بين القوميين والإصلاحيين الذي جرى في دمشق وبيروت، أن القوميين أرسلوا إلى السلطان العثماني

(١٩٤) الغزي، ص ٥٣١.

(١٩٥) عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ص ٣٤ — ٣٥.

(١٩٦) مجلة الحرب العظمى، ص ١٢، وعلى المحافظة، ص ١٤٥ — ١٤٦.

(١٩٧) مذكرات أحمد قنري، ص ١٩، ومذكرات يوسف الحكيم، بيروت ولبنان، ص ٣٩.

برقية باللغة العربية، يطلبون منه أن يحل البرلمان لأنه عقد في زمن الوزارة القديمة (الاتحادية) التي هددت العدالة، وتبنت الظلم والعنف لانتخاب أعضاء حزبها «خونة الوطن»، لكن الوالي في دمشق حض بعض السوريين «الذين أصبحوا من حزب الإصلاح» فأرسلوا بريقة معاكسة، وكتبوا مضبطةً حتى يوقعها أكبر عدد، فاغتاظ رجال الاتحاد العثماني المناوئ (الائتلافيون) وفضحت جريدة المقتبس محاولة الوالي، فسجن أحمد كرد علي، وهرب أخوه محمد إلى مصر^(١٩٨). وفي هذه السنة أيضاً أسس بعض اللبنانيين «جمعية بيروت اللبنانية»، — كما ذكرنا في أول هذا الفصل، لتوسيع حدود لبنان واستقلاله — ورفعوها إلى وزارة الخارجية الفرنسية مستفيدين من الجو المتساهل الجديد^(١٩٩).

وكان عام ١٩١٢ عام الاستعداد والتهيؤ عند العرب، لوضع مطالبهم في صورة أكثر جدية وإصراراً عما كان يحدث قبل، من مطالبات في مجلس المبعوثين أو في كتابات الجرائد ضد تعصب الاتحاديين العنصري، والالحاح على إنالة العرب حقوقهم القومية في المشاركة في الحكم واعتبار اللغة العربية رسمية في البلاد العربية. وسبب هذا الاستعداد الهام في هذا العام، بشأن مستقبل سورية، هو وصول الصراع بين انكلترا وفرنسا عليها ذروته في ذلك التاريخ — وسنذكر ذلك الصراع في فصل خاص — فأصبح العاملون للقضية العربية أحد اثنين، إما مخلص للقضية ويريد أن يحقق آمالها دون مساعدة دولة أجنبية، أو دون التعامل مع دولة أجنبية، وإما عامل من أجلها، لكن كان يرى ألا خلاص لها إلا بمساعدة دولة أجنبية. ولذلك أخذ الطرفان يستعدان عندما علما بنوايا فرنسا وبريطانيا من أجل سورية. كتب الكثيرون عن نوايا بريطانيا وفرنسا تجاه سورية، ونهبوا عن ذلك الخطر أو «المساعدة» حسب ميول الكتاب. فشكيب أرسلان كان يتحدث في كل مكان عن أن الأجانب يريدون إلقاء الشقاق بين العرب والترك، ليستغلوا هذا الشقاق لمنافعهم ويستولوا على البلاد، ويحولوها

(١٩٨) D. F. Aff. Etr. vol XIII (1912) Aout, P. 295.

(١٩٩) مذكرات بشارة الخوري، ص ٧.

مستعمرات لهم، وكان يكذب دعاويهم المزعومة لمساعدة العرب على الاستقلال، لأن غايتهم تقسيم سورية وفلسطين والبلاد العربية^(٢٠٠). وكتب أحمد قدري عن ترديد الأندية الأوروبية، بتقسيم الدولة العثمانية بعد حرب البلقان، وأن العرب خشوا من ذلك كي لا تصبح بلادهم مناطق نفوذ، فتنادى المثقفون والمفكرون في ١٩١٢ للعمل على درء هذا الخطر^(٢٠١). وكتب ساطع الحصري عن مطالبة فرنسا وانكلترا للدولة العثمانية، بوجوب ضمان مصالحهما في سورية^(٢٠٢). وجاء في ترجمة حسني باقي زاده أنه كان يعمل لتحقيق اللامركزية، وتوسيع المأذونية العثمانية، ليحصل القرين والملكة الاقتدار على الحكم الذاتي رويداً رويداً، وفي ذلك نجاة الدولة العثمانية من خطر التقسيم، ونهضة لأبناء الناطقين بالضاد^(٢٠٣). وانتشرت في البلاد العربية شائعات عن اتفاق الدول لاقتسام تركيا ومنها سورية، التي ستكون تحت إدارة فرنسا^(٢٠٤). ونهت جريدة المؤيد الصادرة في القاهرة يوم ٢ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢، أنه لا توجد قضية سورية، لأن الدول الأجنبية تتحدث عن مستقبلها، فهي جزء من الامبراطورية العثمانية^(٢٠٥). وكتبت جريدة أبابيل في ٥ أوت / آب / ١٩١٢ في بيروت، أن الأوروبيين سيحتلون البلاد الإسلامية^(٢٠٦). وكتب عبد الحميد الزهراوي قائلاً في جريدة المدينة «دخل الأجانب كلاً من تونس ومصر والآن في طرابلس الغرب، وأصبحت سواحل نجد والعراق اليوم شجية، وقولوا لي هل الآن سورية هنية البال فارغة الفكر من المخاوف»^(٢٠٧).

ونبه والي بيروت في ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢ الصدر الأعظم برسالة له

-
- (٢٠٠) شبيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ١٠٦.
(٢٠١) مذكرات أحمد قدري، ص ١٥.
(٢٠٢) ساطع الحصري، يوم ميلون، بيروت، ١٩٦٦، ص ٥٠.
(٢٠٣) الطباخ: أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء، ص ٥٥١.
(٢٠٤) D. F. Aff. Etr. vol. XIII (1912) 29 Jan, P. 25.
(٢٠٥) Ibid, vol. XV P. 76.
(٢٠٦) Ibid. P. 4.
(٢٠٧) جريدة المدينة عدد ٩١/٣، ٥ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٢.

عن توجه قسم عظيم من السكان في سورية نحو فرنسا أو بريطانيا^(٢٠٨). وأعلن بوانكاريه رئيس وزراء فرنسا رسمياً عن مصالح فرنسا في سورية^(٢٠٩)... إنلخ من هذه الاعلانات. ولذلك لا نجد حوادث داخلية في سورية ضد الدولة، كالتى رأيناها في السنين السابقة، وتخلو الوثائق الانكليزية والفرنسية حتى أواخر ١٩١٢ من ذكر حوادث، كما كان قنصلهما يسجلون عادة، إلا من حريق كبير حدث في دمشق، أو اعتصام السجناء في حلب ومقتل بعضهم فيه^(٢١٠). وسبب الهدوء الذي خيم على معظم هذه السنة، يعود إلى صراع الدولة مع إيطاليا كى لا يشغل العرب الدولة عن أداء واجبها، ويعود إلى الراحة والسكون، بعد سقوط حكومة الاتحاديين، وتسلم الائتلافيين والعرب منهم، كما يعود إلى أن الترقب والعمل الجدي الخطير، يحتاجان في العادة إلى تجهيز واستعداد وتهيؤ، وكلها تجري في سكون. ولقد فسرت مجلة المقتطف (م ٤٢، ج ٦، حزيران / جوييه / ١٩١٣، ص ٥٦٣) ذلك السكون «بأنه نار مخبوءة تحت الرماد، ففي اليمن لم تنطفئ بعد، وأنه بعد فشل حرب تركيا مع دول البلقان، لا بد أن تكثر متاعبها وسيكون أكثرها مع العرب».

لكن أحد مظاهر الصراع العثماني الايطالي ظل ظاهراً للعيان على شكل هجوم من بعض المسلمين على المسيحيين، كونهم غرباء عن بلادهم وعن الدولة العثمانية. وانتقد الزهراوي تلك الظاهرة «وسماع نغمة، أن غير المسلمين، كأنهم غرباء عن البلاد، وعما يصيبها من شدائد (حرب طرابلس الغرب)». وكان يطلب استعمال

(٢٠٨) كرد علي، خطط الشام، ج ٣، ص ١٢٩.

(٢٠٩) D. F. Aff. Etr. vol XV, 7th Dec 1912. P. 43.

(٢١٠) من سفارة بريطانيا من استانبول.

F. O. 371/1494/ No 362 (29 April) 1912.

جاء في رسالة من قنصل بريطانيا في دمشق أن حريقاً شب في حارة البازار في ٢٦ أبريل / نيسان / ١٩١٢، وامتدت النار بسبب الريح من حارة البازار إلى خمسة أحياء أخرى قبل التمكن من السيطرة على النيران، واحترقت المحلات التجارية وقدرت الخسارة بـ ٩٠٠ ألف ليرة تركية وأرسل القنصل البريطاني ألف ليرة كمساعدة مستعجلة.

F. O. 371/1487/ (1912) No 1137.

كلمة عثماني، لتبدل على جميع الأديان حتى يرتبط الجميع بالوطن^(٢١١). وجاء في تقرير لقنصل فرنسا في بيروت، أن الجو مشحون ضد الأعراب والمسيحيين، وأن المسلمين يعلنون أن ساعة الجهاد قد دقت. ولهذا هجم مسلم على مسيحي فيها وأطلق عليه النار، وجرت محاولات أخرى كثيرة ضد رجال الدين المسيحي^(٢١٢). جرى ذلك في وقت كانت تثير فيه صحف المسلمين مخاوفهم من الأوروبيين «الذين يحاولون ذبح المسلمين، وأن الأوروبيين الذين يحتلون البلاد الإسلامية باسم الإنسانية، إنما يذبحون المسلمين في كل مكان». وفي نفس الوقت كانت الجرائد المسيحية، تنتقد ظهور قوات عثمانية عسكرية، لأنه يخالف لبروتوكول حكمه، مع أن الشاطئ اللبناني تعرض لغارة الأسطول الإيطالي، ولابد للدولة من تجهيز القوة للدفاع عنه، وفي الوقت نفسه كانت البرقيات والأخبار تنقل تعلق بعض سكان المناطق المسيحية بفرنسا^(٢١٣).

واجهت الحكومة الائتلافية نكبة جديدة إضافة إلى عقد الصلح مع إيطاليا في نوفمبر / كانون الثاني / ١٩١٢، وهي حرب البلقان، حيث اتفقت بلغاريا واليونان والصرب والجبل الأسود مع بعضها، وشنت حرباً ضد الدولة العثمانية، وأثار الاتحاديون وكانوا خارج الحكم، الرأي العام والغوغاء وملأوا قلوب الناس بالحماسة للحرب، فدخلت الحكومة الائتلافية الحرب وتخلت عن فكرة التفاهم السياسي الذي لم يعد له موضع. لكن البلقانيين انتصروا خلال فترة قصيرة، واقتربت جيوشهم من استانبول واستولوا على سالونيك وحاصروا أدرنه، فاضطرت حكومة كامل باشا إلى توقيع هدنة في ٣ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢ خوفاً من سقوط العاصمة. وظلت الحكومة في السلطة حتى ٢٣ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٣ عندما أسقطها الاتحاديون، إذ عاد

(٢١١) الحضارة، عدد ٨١/٢، نوفمبر ١٩١١.

(٢١٢) D. F. Aff. Etr. vol. XIV (1912) 21 Sep, P. 25.

(٢١٣) Ibid, P. 10 (5 Aout 1912).

Ibid. vol. XIII (1912) 29 Jan, P. 25.

كانت القوات العثمانية في لبنان تتألف من ٢٥٠ / مشاة، ٨٥٠ / فرسان، ١٣٠ / ميلشيات لبنانية والمجموع ٤٥٠ / رجلاً. Ibid, P. 38.

أنور من طرابلس ، بعد أن كسب دعاية واسعة لشخصه في محاربة الإيطاليين ، وكانت حكومة كامل باشا تميل للصلح مع دول البلقان ، فقام الاتحاديون بهجوم على رئاسة الوزراء في ٢٣ المذكور وقتلوا وزير الحربية ، وأجبروا كامل باشا على الاستقالة ، وتألقت وزارة جديدة برئاسة محمود شوكت باشا الاتحادي .

الفصل الرابع

حركة العرب الإصلاحية

كان لابد أن تترك هزيمة الدولة أمام إيطاليا، وهزيمتها أمام ألبانيا ودول البلقان، انعكاساً على العرب وعلى العاملين في القضية العربية، أو بالأحرى على الجمعيات السورية، لتضاعف نشاطها في طلباتها العادلة، ولتتخذ بعد ذلك طريقاً أكثر صراحة في الإصلاح والحكم الذاتي^(١)، وخاصة من حكومة تعتبر صديقة للعرب، وللعناصر الأخرى من غير متعصبي الأتراك. واستفاد العرب من هذا الجو وأخذوا يظهرهم نواياهم ومطالبهم علناً، بعد أن أخذ حزب اللامركزية الإدارية العثماني في القاهرة، يقوم بنشاطه الواسع، ويرسل كتبه ورسله ومناشيريه إلى سورية. وحدث اجتماع سياسي في جنوب صيدا، حضره أكثر من مائتين من المسلمين السنة والشيعية في ديسمبر / كانون الثاني / ١٩١٢، واتخذوا قرارات هامة — حسب رواية القنصل الفرنسي في بيروت — بإقامة إمبراطورية واسعة دون مساعدة القوى الأخرى، تقوم على الجامعة العربية ويكون لها خليفة عربي. ويقول القنصل الفرنسي إن المؤتمرين أرسلوا عرائض، «لطلب الحماية الانكليزية»، وأرسلوا منها إلى كتشنر المفوض السامي البريطاني في مصر. وكان يتوارد كثير من هذه الأخبار عن رغبة بعض السوريين في حماية بريطانيا، والانضمام لمصر تحت سلطة الخديوي، أو لطلب حماية فرنسا. وكان كامل الأسعد هو رئيس الاجتماع^(٢). ولا بد من الذكر أن صيدا، كانت أحد المراكز الهامة للقضية العربية،

(١) The Middle East Journal, Washington, July 1947, P. 278.

و Jacques, J. Tabet, La Syrie, Paris 1920. P. 23.

(٢) D. F. Aff. Etr, vol. XV (1912) PP. 89-90.

حيث نشطت فيها أحزاب الحرية والائتلاف بعد فشل فرع الاتحاد والترقي فيها بعد سنة ١٩١١، وحزب الفتاة وحزب العهد. وكانت فئة من الحرية والائتلاف فيها، قد اتصلت بحزب اللامركزية في القاهرة، وتفاوضت معه ضد الاتحاديين حتى ما بعد نشوب الحرب العالمية الأولى، والجدير بالذكر أيضاً أن كثيراً من العاملين أو المؤسسين العرب لبعض الجمعيات، كالفتاة أو العهد، كانوا أعضاء هامين وبارزين في حزب اللامركزية في مصر، كعبد الكريم خليل، وعبد الحميد الزهراوي، وعوني عبد الهادي، ومحب الدين الخطيب وغيرهم، حتى إن الأمر اختلط على جمال باشا فيما بعد في أثناء محادثاته للوطنيين، في انتساب بعض هؤلاء إلى جمعية معينة أو غيرها في صيدا وفي غيرها^(٣). وعن هذا النشاط العربي في سورية في نهاية عام ١٩١٢، جاء في رسالة للقنصل البريطاني العام في بيروت في ٤ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢، أن خطة المسلمين السوريين هي الاستفادة من ضعف الدولة العثمانية، لطلب حكم ذاتي أو نصف ذاتي في سورية، يمكن وصفه بأنه حركة انفصالية عربية، وقد انتشرت أخبار هذه الحركة في كل مكان، حتى إن السلطات التركية منعت الجرائد المحلية في خوض هذا الموضوع الذي تنشره كل الجرائد في مصر، وخاصة لأنه يشكل دعاية لبريطانيا^(٤). وجاء في تقرير للسفير البريطاني Lowther في الآستانة إلى لورد غراي في ١٥ ديسمبر / كانون الثاني /، أن ما يشاع عن الحكم الذاتي أو الحركة الانفصالية في سورية، هو نتيجة لسياسة التتريك ضد العرب الذين توحدوا في خط واحد، وخاصة الانفصاليين في سورية، وقال إن الميول الصهيونية في لجنة الاتحاد والترقي، تساهم في خلق هذا الموقف الذي يجب أن تكون بريطانيا مستعدة له^(٥).

(٣) مجلة الأسرار، عدد ٨، ٤ ماي / أيار / ١٩٣٨، ص ٢-٤، وأوراق عوني عبد الهادي، ص ١٠.

(٤) F. O. 371/1522 (1912) No 79.

وانظر طلس، ص ٤٤.

(٥) F. O. 371/1522/ No 1072 (15 Dec 1912).

الحركة الاصلاحية في بيروت

وفي هذا الجو المتسامح والنشاط الواسع والعلمي للعرب، وخاصة على صفحات الجرائد، كتب والي بيروت، أدهم بك في ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢ رسالة إلى الصدر الأعظم أنه يتجاذب البلاد عوامل مختلفة، ولقد وليّ قسم كبير من الأهالي وجهه شطر إنكلترا أو فرنسا لاصلاح الحالة التعسة التي هم فيها، فإذا نحن لم نأخذ بالاصلاح الحقيقي، نخرج البلاد العربية من يدنا لا محالة. فأرسل الصدر الأعظم إلى الوالي يؤيد الأهلين على عرض مطالبهم. والحقيقة أن القصة بدأت باجتماع بعض أعيان المسلمين والمسيحيين البيروتيين بالوالي أدهم بك، الذي لم يكن اتحادياً وبينوا له ضرورة اصلاح الجهاز الإداري في الدولة فكان ما ذكرناه^(٦). وعلى كل كانت هذه الحركة كأنها صدى لدعوة اللامركزية، أو بادرة استجابة لها، لأنها تحمل المبادئ والمطالب الاصلاحية نفسها التي دعت إليها اللامركزية في القاهرة. وبناءً على موافقة الصدر الأعظم كامل باشا، اجتمعت المجالس العمومية في الولايات العثمانية لوضع لوائح في الاصلاحات الضرورية لها. وفعلت بيروت ذلك، واجتمع عدد كبير من الوجهاء في بلدية بيروت في ٣١ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢، ووضعوا المنهاج المطلوب وسلموه إلى الوالي الذي أرسله بدوره إلى العاصمة. وكان منهاجاً مفصلاً أو مشروع دستور أو قانون، وقام على مبدأ اللامركزية الإدارية والمحلية، بحيث يبقى ما يتعلق بكيان وسلطة الدولة وشؤونها الأساسية والعامة، من خارجية وتشريعية وعسكرية واقتصادية في يد العاصمة، ويدخل ذلك في تعيين رؤوساء الدوائر العليا، وتكون الأمور المحلية من تعليم وزراعة وصناعة وتجارة وعمران وطرق وأوقاف من اختصاصات سلطة الولاية. واجتماع مجلس الولاية هذا، سمي أوعرف، بالجمعية الاصلاحية البيروتية، وبلغ أعضاؤها ٨٦ عضواً^(٧)، منهم سليم علي سلام، وأحمد مختار بيهم، وخليل زينية، والدكتور أيوب

(٦) كرد علي، خطط الشام، ج ٣، ص ١٢٩، وخير الله، ص ٣٩.

(٧) كان منهم ٤٢ مسلماً، ١٦ من الروم الأرثوذكس، ١٠-١٢ من الموارنة، ٦ من الروم الكاثوليك، ٢ من الانجيليين و ٢ من السريان و ٢ من الأرمن الكاثوليك و ٢ من الطائفة اللاتينية و ٢ من اليهود.

زين زين، نشوء القومية العربية، ص ٢١٠.

F. O. 371/1775 (1913), No 8, 24 Jan 1912.

ثابت، والشيخ أحمد طباره، وألبير سرسق وغيرهم من كل الطوائف. وعقدت هذه الجمعية أول اجتماع لها في ١٢ ديسمبر / كانون الأول / وانتخبت (بالانتخاب السري) لجنة تنفيذية عدد أعضائها ٢٥ عضواً^(٨)، ثم أصدروا نشرة سموها (Réveil) اليقظة، وأسسوا نادياً سموه نادي الإصلاح، حيث كانوا يجتمعون مرة بعد أخرى للتداول في جميع شؤون الإصلاح التي تهم العامة من الناس. ويتلخص منهاج هذه الجمعية أو مطالبها التي طلبتها من الوالي في جلستها الثالثة في ٣١ ديسمبر / كانون الأول / — كما ذكرنا — والتي تضمنت خمسة عشر بنداً بما يلي:

- ١ — الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في دوائر الولاية الحكومية.
 - ٢ — أن يكون رؤساء الدوائر الحكومية في الولاية ملمين باللغة العربية.
 - ٣ — أن يكون بقية موظفي الدوائر الحكومية من أبناء الولاية.
 - ٤ — تأليف مجلس تمثيلي في الولاية له سلطة محلية واسعة، منها إقرار ميزانية الولاية.
 - ٥ — أن يقضي أبناء الولاية الخدمة العسكرية فيها أيام السلم.
 - ٦ — تعيين مستشارين أجانب في دوائر الولاية الحكومية من قبل العاصمة العثمانية^(٩).
- وعلى منوال الجمعية الاصلاحية في بيروت أنشئت جمعية البصرة الاصلاحية بزعامة طالب النقيب، نائب البصرة في مجلس المبعوثين.

كانت قرارات الجمعية الاصلاحية في بيروت، تعبر عن لقاء مصلحي لعدة

(٨) وهم مختار بيهم، الدكتور أيوب ثابت، سليم علي سلام، خليل زينية، جان تويني، كامل الصلح، بئرو طراد، محمد ابراهيم الطيارة، ابراهيم حكيم، أحمد حسن طيارة، محمد الفاخوري، جان نقاش، رزق الله أرقش، سليم البواب، حسن الناطور، جميل الحسامي، جرجي رزق الله، البير بسول، يوسف افاني، حبيب فرعون، عبد الحميد الغندور، ألبير يوسف سرسق، عبد الباسط فتح الله، فؤاد حنش، جان ستروس.

زين، نفس الصفحة.

(٩) المنار، ١٦ م، ماي / أيار /، ص ٣٩٢ — ٣٩٥، وعلي المحافظة، ص ١٤٥ — ١٤٦ ورسالة من قنصل بريطانيا في بيروت.

F. O. 371/1775 (1913). 24 Jan. P. 246.

اتجاهات سياسية في سورية، بحسب التركيب السياسي لأشخاص حزب اللامركزية الإدارية في مصر ونوعياتهم. فاللامركزية ترضي سياسة هذا الحزب، والاعتراف باللغة العربية ترضي القوميين العرب، وتعيين مستشارين أجنب يُرضي بعض الفئات المتعاطفة مع الأجنب، وبشكل خاص الموارنة في لبنان المتعاطفين مع فرنسا. خاصة وأنهم أعلنوا في هذا العام نفسه عن شدة تمسكهم وتعاطفهم مع فرنسا. وكانوا يحاولون من وراء ذلك الانفصال عن الدولة العثمانية، وتشكيل دولة لبنان الكبير^(١٠). ولم يكن ذلك وليد هذا العام، بل كان منذ تأسيس جمعية الاتحاد اللبناني في مصر سنة ١٩٠٩ حيث جاء في السنة التالية ١٩١٠ أخذ رجالات الدولة من الآستانة، لمفاوضة الجمعية في مطالبا التي حصرتها في نقاط هامة، كفتح الموانئ اللبنانية للبواخر الأجنبية، وإنشاء محاكم للتجارة في جبل لبنان، والسماح بتصدير التبغ اللبناني من الموانئ العثمانية، وإعادة سهل البقاع إلى لبنان، وإعادة حدود لبنان الشمالية والجنوبية التي أخذت منه إليه، وفتح الملاحات في لبنان، ومنع احتكار الملح، وإباحة تصدير المشروبات والكحول، لأن هذه المطالب خارجة عن بروتوكول تعيين المتصرف. وفي عام ١٩١٢ أُلّف بعض الشخصيات المسيحية اللبنانية جمعية بيروت اللبنانية — كما ذكرنا — وتقدموا بعريضة إلى وزارة الخارجية الفرنسية بوساطة قنصلها العام في بيروت الميسو جورج بيكو، لتوسيع حدود لبنان واستقلاله^(١١). وكان بشارة الخوري (رئيس جمهوري لبنان فيما بعد) يرى في ذلك الوقت، أن لبنان يتزع إلى الاستقلال، وإلى توسيع حدوده، وأن اللبنانيين كانوا يبنون آمالاً كبيراً على سياسة فرنسا^(١٢). ولا شك في وجود تلك النزعة الاستقلالية لدى غالبية الطائفة المارونية في لبنان، حتى إن البطريك إلياس الحويك، بطريك الموارنة كان حريصاً على استقلال لبنان، لدرجة أن قدمه لم تطأ الولايتين المجاورتين^(١٣).

(١٠) D. F. Aff. Etr. vol Xv (1912) 5 Dec, P. 39.

(١١) مذكرات بشارة الخوري، ص ٨٢.

(١٢) نفس المصدر، ص ٦٥.

(١٣) مذكرات يوسف الحكيم، بيروت ولبنان، ص ١٠١.

وكان رأي جمال باشا في الجمعية الاصلاحية البيروتية وقراراتها، أنها كانت تمس عزة نفس الحكومة، لأنها أرادت وضع الإدارة بيد مفتشين ومستشارين أجنب، وأن الخطة الاصلاحية كانت تستدعي ضعف الحكومة، وبث مقاصد الخيانة، بسبب وجود بعض الأشخاص فيها أمثال، رزق الله أرقش، وخليل زينية، وجرجي رزق، وهم من أعضاء النهضة اللبنانية التي أسست في وقت لاحق، وكان جمال باشا يعلم بصلة هذه الجمعية بفرنسا، حتى نعتها بذلك على أساس اتصال أفراد عثمانيين بدولة أجنبية لمقاصد سياسية انفصالية^(١٤).

وكان حزب الاتحاد اللبناني في مصر يؤيد أيضاً، الاصلاحات المبنية على الحكم الذاتي الفعال، وتوسيع حدود لبنان، ويرى رئيسه (اسكندر عمون) أن هذه الأشياء وحدها هي القادرة على إعادة الهدوء إلى لبنان، وإيقاف الهجرة المدمرة، وأن كل إصلاحات أخرى تقوم على غير هذه القواعد، ستكون بلا فائدة^(١٥). أما حزب اللامركزية، فكان يمارس نشاطه على كل الأوجه، فهو علني في مصر، ويرسل نشرات إلى سورية، ويؤيد اللامركزية، ويوزع المناشير الثورية السرية والعلنية للانفصال الصريح عن الدولة العثمانية، ويحرض العرب ضد الحكومة التركية، ويؤيد الاتجاه السوري، والاتجاه اللبناني، ولا يمانع بمساعدة من الدول الأجنبية. ووجدنا في الوثائق الفرنسية دعوة من حزب اللجنة الوطنية العليا إلى كل المواطنين العرب، (Comité superieur national Arabe) مجهولة بلا توقيع ولا تاريخ ولا مكان). لكنه يرجح أنها من حزب اللامركزية، وزعت في سورية في الفترة التي كانت جمعية بيروت الاصلاحية تعقد اجتماعاتها لإشعار الحكومة التركية، بأن مطالب الاصلاحيين معتدلة إذا ما قيست بما جاء في هذه الدعوة حتى تلبها. وجاء في هذه الدعوة سرد لثورات العرب ضد الترك في حوران واليمن ونجد والحجاز والعراق، وتدعو لتخليص الوطن وتحريره، وأنها سوف تقيم

(١٤) أحمد جمال باشا، ايضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي بعلية، مطبعة طنين ١٣٣٤، ص ٣٤-٣٨.

(١٥) D. F. Aff. Etr, vol XIV (1912) 20 Nov. P. 145.

و F. O. 371/1522/ No 54463, 15 Dec.

مراكز للجهاد في سورية وفلسطين والعراق ، وبرنامج الانفصال التام عن الدولة العثمانية ، وتشكيل امبراطورية عربية آسيوية في حدودها الطبيعية ، من وادي دجله Tigre والفرات Euphrate حتى خليج السويس L'isthme ومن البحر المتوسط حتى مجرى عُمان ، ويكون رئيسها سلطان عربي مسلم ، وتضم هذه المنطقة الجزيرة العربية بما فيها الحجاز (١٦-١٧) تشبه هذه الأهداف وتنطبق على حدود المنطقة التي قدمها رجال العربية الفتاة ، عندما أعلموا الشريف حسيناً شريف مكة بأهدافهم ، ليقوم بموجبها بثورته ضد الأتراك . وإذا كانت الحوادث الفعلية كادت تختفي في هذه السنة — كما ذكرنا — ، فإن الصراع السياسي وصراع الصحف كان عالياً ، خاصة وأن غياب الاتحاديين عن الحكم فترة أشهر قصيرة (جويه / تموز / ١٩١٢ حتى جانفي / كانون الثاني / ١٩١٣ —) جعلت خصومهم ينتفون كل ما في صدورهم من غضب ضدهم ، سواء أكانوا من الأتراك أو العرب . فقد قال لطفي بك ، وهو من الائتلافيين ، يخاطب الاتحاديين «إنكم تريدون بالوحدة العثمانية سلب العناصر الأخرى حقوقها ، ولقد أرتكم سياستكم فشلها في هذه السنوات الثلاث ، ولم ترجعوا إلى الآن عن خطئكم» (١٨) . وكتب عبد الحميد الزهراوي مندداً بسياسة الاتحاديين السابقة فقال «كان من جملة أخطاء السياسة الاتحادية للحكومة منع الاجتماعات والخطب في الساحات العامة والأندية ، ووضع مبالغ باهظة على الجرائد ، وإغلاق المخالفة منها وإهانة أعظم خطباء الأمة ، وحبس المعارضين ، وإباحة قتل بعضهم ، واستخدام ضباط الجيش في هذا السبيل أيضاً ، وقد أرسلوا ضابطين إلى سورية لهذا القصد بصفة أنهما مفتشان على أبنية الرديف (العسكر الاحتياط) ، وعزل كثير من المأمورين لمعارضتهم مخالفة القوانين وترفع من يقبل ذلك» (١٩) . وكان إغلاق الجرائد يجري على

(١٧-١٦) D. F. Aff. Etr. vol XV (1912) 16 Dec, P. 93.

(١٨) جريدة المدينة ، عدد ١٢٦ ، ٥ سبتمبر / أيلول / ١٩١٢ .

(١٩) نفس المصدر ، كتب كرد علي يصف تدمير الاتحاديين من نقد جريدته المقتبس ، فقال «كان الاتحاديون يتأففون من نقد الجريدة ، لأنهم كباقي الأتراك في كل أدوار التاريخ مع العرب ، لا يريدون أن يعترفوا لهم بشيء من الحقوق ، حتى لا يرفعوا رؤوسهم أمام غالبيتهم وسادتهم ، وكانت المركزية في عهد الاتحاديين أشد ما عهد من نوعها» . مذكرات كرد علي ، ج ١ ، ص ٧٦ .

نطاق واسع ولدى أي نقد ضد سياسة الحكومة، حتى إن أحمد طباره أصدر أربع صحف بالتالي وأغلقتها السلطة. ولا بد أن نذكر شيئاً يصل إلى حد السخرية والطفرة، إذ أغلقت الحكومة أربع صحف بالتالي، وكانت كلما أغلقت صحيفة يغير صاحبها شيئاً في اسمها ويصدرها من جديد، وكانت أسماء هذه الصحف الأربع: حمارة بلدتنا، والحمارة، والبغلة، وجراب الكردي، كما أغلقت ثلاث صحف في اللاذقية لصاحبها (محمد عقدة) باسم: أبو نواس، وعكاز أبو نواس، وأبو نواس الجديد^(٢٠)—وأبو نواس هنا شخصية هزلية—. وعبد الحميد الزهراوي نفسه، اضطر إلى فتح صحف كثيرة كلما أغلقتها الحكومة مثل: المفيد، صدى المفيد، لسان العرب، الفتى العربي، فتى العرب^(٢١)، ولذلك زاد عدد الصحف كثيراً، ففي بيروت وحدها وصل عدد الصحف في عام ١٩١٢ وحده (٣٧) جريدة محلية منها (٨) صحف يومية، و (١٧) أسبوعية، و (١٢) شهرية، أو ربع سنوية، وصدر في طرابلس أكثر من عشر صحف يومية وأسبوعية وشهرية^(٢٢). لذلك خرجت هذه الصحف عن مهمتها الأصلية وعن مهمتها القومية. ولم تكن إلا صحف قليلة جدية تستحق أن تسمى صحفاً^(٢٣).

لكن لم تطل الفرحة بالائتلافين، ولا بالعرب، ولا بهذه الصحف الكثيرة، ولم تتحقق الإصلاحات، ولم يمض على صياغتها أكثر من ثلاثة أسابيع، حتى أطاح الاتحاديون بالوزارة الائتلافية ورفضوا شروط صلح دول البلقان، فتابعت هذه الدول الحرب وسقطت أدرنه، لكن ائتلاف دول البلقان فيما بينهم، مكن الاتحاديين من استعادة أدرنه، ولذا اعتبر أنور بطلاً، وعلت سمعة الاتحاديين، وتحكموا من جديد بقوة ومركزية أكثر، مع أنهم فقدوا بقية أملاك الدولة في أوروبا ماعداً جزءاً صغيراً بقي تابعاً لها، وتعطلت التجارة، وتوقف الاقتصاد في سورية بسبب الحرب البلقانية، وبسبب

(٢٠) حضور، ص ١١٣—١١٤.

(٢١) شمس الدين الرفاعي، تاريخ الصحافة السورية، مصر، دار المعارف، ص ٢٣٥.

(٢٢) عبد الكريم غراية، سورية في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٦١—١٩٦٢، ص ١٨٥.

(٢٣) Revue du Monde Musulman, tomp 14 vol, 5 Mai 1911, P. 191.

حريق سوق الحميدية في دمشق، وبسبب انتشار الهواء الأصفر (الكوليرا)^(٢٤)، حتى إن الدولة خفضت قيمة عملتها^(٢٥).

نقلت الحكومة الجديدة الوالي (غير الاتحادي أدهم بك)، وعينت بدلاً عنه أبو بكر حازم بك، وكانت تلك المدة ما بين شهري ديسمبر / كانون الأول / وجانفي / كانون الثاني /، قد مضت بتسويق من وزارة الداخلية التي أجابت على لائحة الإصلاح بتاريخ ١٤ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٣، أن الحكومة العثمانية سنت قانوناً لإدارة الولايات مؤسساً على قاعدة تفريق الوظائف وتوسيع المأذونية، وفقاً للمادة ٨ من القانون الأساسي، فالمصلحون لم يكتفوا بهذا التسويق لأنهم لم ينالوا مطالبهم، فأخذوا ينشرون أهدافهم ومطالبهم في كل مكان، وظلوا مصرين على تحقيقها، ونشرتها جريدة النهضة (Reveil) في ٢٠ شباط / فريه /^(٢٦). ودعم الوالي الجديد لجنة الإصلاح، لكنه أبلغ الإصلاحيين في اجتماعه بهم في ١٢ و ١٣ مارس / آذار /، بأن الدولة ترفض البند الخاص بالاستعانة بالأجانب، ولهذا فإن الحكومة بصدد وضع قانون بخصوص الإصلاح، ولهذا خاب أمل الإصلاحيين بعد أن وجدوا في حازم بك عوناً لهم. واحتج الإصلاحيون على موقف الحكومة، حتى إن شكري العسلي رفض تعيينه حاكماً في اللاذقية ما لم تتحقق الإصلاحات، وأن ليس له أمل في حكم تلك المنطقة وليس لذلك حظ من النجاح، وقال إنه سيتسلم أي وظيفة إذا حققت مطالب الإصلاح. واستقال سليم سلام لنفس السبب، واستقال عضوان من دائرة الأملاك، ولهما مركز هام في دوائر المسلمين، وتبعهما كل أعضاء غرفة التجارة العثمانية ومعظم أعضائها من المجلس البلدي. وقد اتحد المسلمون والمسيحيون وانتخبوا — برهاناً على

(٢٤) مجلة المشرق، عدد ٩، سبتمبر، ١٩١٢، ص ٣٦٣.

(٢٥) الأب فرديناند، وثائق حلب، ص ١٠٤.

(٢٦) من القنصل البريطاني العام كمبرياتش.

F. O. 371/1775/ No 28.

وانظر العصر الدموي، ص ١٠٥.

و D. F. Aff. Etr. vol XVII (1913) P. 42.

هذا الاتحاد — مسلماً ومسيحياً كرئيسين لنادي الاصلاحين^(٢٧). وفي ٩ نيسان / أبريل / ١٩١٣، أعلن الوالي إقفال نادي الاصلاح، بحجة أن الجمعية الاصلاحية تخالف قانون الجمعيات العثماني، إضافة إلى منفاة بعض المطالب التي تقدم بها الاصلاحيون لأحكام القانون الأساسي. وجاء في بيان الوالي أيضاً أن الدولة سنت قانوناً للاصلاح في كل الولايات العثمانية، يؤمن الاحتياجات الخصوصية لكل ولاية، وإذا كان ثمة نقص فإن الحكومة بالاشتراك مع مجلس المبعوثين (الذي سيجتمع قريباً) ستلأ في هذا النقص. ولذا وبموجب القانون، يمنع اجتماع الجمعية المذكورة التي ليس لها كيان قانوني ولا حاجة لها بعد ذلك، وإذا ما تصدى القائمون بها للإجتماع فسوف تطبق الحكومة القانون بحقهم^(٢٨). نشرت كل صحف بيروت أمر الوالي بإغلاق الجمعية محاطاً بإطار أسود، ولم تنشر أي شيء غيره، وبقيت صفحاتها الثلاث بيضاء دلالة على الحزن والغضب^(٢٩). وذهب بعض الاصلاحيين إلى القنصلية البريطانية، ثم إلى القنصلية الفرنسية، للاحتجاج على عمل الوالي. ونصحهم القنصل البريطاني، بأنهم يستطيعون أن يعقدوا اجتماعهم في قاعة الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأمريكية الآن)، لأنهم كانوا يعتبرون في تلك الفترة أنهم يجتمعون على أرض أجنبية حسب قانون الامتيازات الأجنبية المعمول به في الدولة العثمانية، ولهم ملء الحرية بعقد أي اجتماع من اجتماعات جمعية الاصلاح في قاعة المدرسة الأمريكية بناءً على رغبة الشعب، الذي ألح عليها في عقد جلستها، والاقرار على خطة يتبعها البيروتيون إزاء فعل واليهم، فتقرر بعد مناقشات طويلة الاتفاق على إغلاق المحلات والمخازن، لتوقيف الحركة المالية والتجارية في ذلك الثغر التجاري.

(٢٧) من كميراتش. F. O. 371/1775/ No 28, PP. 390-391.

ومن القنصل العام الفرنسي في بيروت. D. F. Aff. Etr. vol. XVII (1913) P. 56.

(٢٨) جريدة المفيد عدد ١٣٤٨، ٩ أبريل / نيسان / ١٩١٣. وانظر صورة البلاغ في الملحق في نفس الجريدة.

ومن كميراتش. F. O. 371/1775/ No 31 P. 399.

(٢٩) من قنصل بريطانيا العام في بيروت.

F. O. 371/1775 (1913) No 31 P. 399.

و. D. F. Aff. Etr, vol XVIII. PP. 166-169.

«نزل قرار الجمعية برداً وسلاماً على قلوب الأهالي وأغلقت المحلات التجارية أبوابها يوم السبت، ولم يكن يرى المار في شوارع بيروت إلا بعض الحوانيت الصغيرة فاتحة أبوابها....»^(٣٠). عمت الاضطرابات والمظاهرات مدينة بيروت، واعتقل الوالي خمسة من أعضاء لجنة الاصلاح، وأصر المتظاهرون على إطلاق سراحهم إضافة إلى إغلاق المدينة في ١٢ أبريل / نيسان /، وتدخل القنصل البريطاني بعد طلب الأهالي (المسلمين والمسيحيين)، وبعد عدة مقابلات منفردة مع كل من الوالي وأعضاء لجنة الاصلاح، تم الوصول إلى حل بين الوالي وبين عضوين من بيروت اختارهما القنصل، وتم اطلاق سراح الخمسة بعد الظهر، وعاد الناس إلى أعمالهم. وهدد الوالي بسجن الخمسة وكل أعضاء النادي الاصلاحى إذا لم تفتح المدينة، فكلم القنصل الناس وأعلمهم بخطورة الموقف ونتيجة عملهم، فخضعوا، وكانت هذه أول حَدَثٍ للاصلاح في سورية، وتضامن المسلمون والمسيحيون، وأعلنت لجنة الاصلاح أن ليست لها مقاصد انفصالية، كما أبلغ القنصل الوالي، بأن تدخله لا يعتبر مناصرة للاصلاحيين، ولكنه لاصلاح الأمر.. والموقف متوتر والشعب متحفز، وإذا اعتُبر الاصلاحيون كمغربين فإن المظاهرات ستجدد^(٣١). أما القنصل الفرنسي في بيروت فلا يذكر دور القنصل البريطاني في تهدئة الأمور وإعادة فتح المدينة، بل عزا ذلك إلى توسط وجهاء بيروت، كمحمد بك بيهم، وجوزيف بك سرسق. وتعهد الوسطاء بالألا يتكرر مثل ما حدث. ووجه الشخصان المذكوران (بيهم وسرسق) دعوة للمواطنين بوجوب فتح المدينة، وإعادة الأعمال حياً بالوطن وإخلاصاً له وتنقيذاً لأمر الحكومة، وبعد تلك الوساطة، أطلق رئيس الوزراء محمود شوكت سراح المعتقلين الخمسة، وفي نفس الوقت هدد أهالي بيروت بعدم القيام بأي عمل مخل، وإذا كانوا يريدون الاصلاح فعليهم أن يبلغوا الحكومة عن طريق نوابهم في المجلس، كما نشر الوالي كتاباً على الأهالي، يحضهم

(٣٠) زين زين، ص ٢١١، عن جريدة المقطم عدد ٧٣١٢، ١٦ أبريل / نيسان / ١٩١٣.

(٣١) من كميراتاش القنصل البريطاني في بيروت. P. 413. No 34. P. 371/1775 (1913) F. O.

فيه على الابتعاد عن المسيئين الذين سببوا الاضراب، وقد هددتهم بالعقوبات القاسية، وهم لا يبلغون خمسة أو ستة ممن جعلوا التجار والناس يغلقون مخازنهم^(٣٢).

رافقت أحداث بيروت هذه مؤثرات داخلية وخارجية لزيادة تفجيرها أو حمايتها. وقد أخذ رجل حضر من الآستانة يحض المسلمين في المساجد، ويحرضهم على المسيحيين، فوقف منه المسلمون موقفاً معاكساً، وطلبوا منه أن يكف عن ذلك فغادر إلى الاسكندرية^(٣٣)، ويبدو أنه كان مدفوعاً من طرف الحكومة كي يحدث خللاً في وحدة السكان بشأن الإصلاح. كما تحرك الشيوخ من أنصار الحكومة المعروفون بولائهم الدائم للحكومة، أمثال الشيخ عبد العزيز الدرة من حوران، والشيخ عبد العزيز شاويش المصري، وشكيب أرسلان قائمقام الشوف، ووقفوا ضد الاصلاحيين واعتبروهم خونة، كما أن الشيعة غيروا موقفهم ودعموا الوالي ضد الاصلاحيين. وشجع إضراب بيروت رجال الدرك في جبل لبنان، فأضربوا عن أداء واجبهم ما لم تزد رواتبهم وتطراً على حالتهم تحسينات أخرى، فوعدهم حاكم لبنان وسكتوا^(٣٤).

وفي الوقت نفسه كانت سفن انكليزية وفرنسية وألمانية تجوب منطقة الساحل السوري، ترقب الأحداث، حتى إن الوالي في بيروت شكر قنصل بريطانيا فيها، على وجود السفن الحربية الانكليزية من أجل الساحل والبلد، وقال إن لديه الكفاية من السفن لإقامة الأمن، ولهذا طلب منه أن تغادر السفن الانكليزية الساحل^(٣٥).

ووصل إلى استانبول رئيس أركان الجيش الثامن العثماني قادماً من سورية، لدعم موقفه من المحكمة التي رفضت إدانة محرري الصحف الذين دعموا موقف الاصلاحيين، كما عمد الوالي حازم بك إلى تعيين متصرفين للاذقية وطرابلس من العرب

D. F. Aff. Etr. vol. XVIII (1913) PP. 169-172. (15 April) (٣٢)

F. O. 371/1775, No 36, 24 April, P. 434. (٣٣)

Ibid. 371/1775 No 39, 13 Mai. P. 458. (٣٤)

Ibid, No 31, 5 April. P. 411. (٣٥)

في سورية، إرضاءً لبعض الأسر في دمشق ولجذب العرب نحو بيروت^(٣٦). وكانت ولاية بيروت تضم بيروت وعكا وطرابلس الشام واللاذقية. كما أصدر وزير الداخلية أمراً بقبول الطلبات المكتوبة باللغة العربية في المناطق التي فيها أكتوية عربية^(٣٧)، وكان هذا عقب الأحداث مباشرة، لتهدئة خواطر العرب والمدافعين عن اللغة العربية.

وإصراراً على الإصلاح، أرسل ١٣٠٠ رجل من أعيان بيروت برقية إلى الصدر الأعظم، يطلبون منه أن يسمح لجمعية الإصلاح بعقد اجتماعاتها من جديد، لكنه رفض وأصر على وجوب إبلاغ مبعوثهم بذلك كي يتقدموا بها إلى مجلس المبعوثين، أما إذا شاء الأهلون أن يؤسسوا جمعيات وأن يتقدموا بمطالب تخالف الدستور والقوانين المعمول بها فإن الحكومة ليست على استعداد أن تنظر في مطالبهم^(٣٨). واحتجت اللجنة العليا لحزب اللامركزية الإدارية في مصر على قرار الحكومة بإلغاء الجمعية الإصلاحية في بيروت، وأرسل رفيق العظم برقيتين شديتين إلى الصدر الأعظم، وإلى والي بيروت، تظهران غضب حزب اللامركزية من أعمال والي بيروت، ونشرت جريدة المقطم والمؤيد هاتين البرقيتين، وذكرت الأهرام أن حل اللجنة كان غير شرعي، لأن اللجنة الإصلاحية في بيروت قد تشكلت بشكل قانوني. وتوقع قنصل فرنسا في القاهرة، أن تتصاعد الأهداف السياسية، فتصل بالعرب إلى حد المطالبة بخليفة عربي^(٣٩).

(٣٦) Ibid, No 39, 13 Mai. P. 458.

(٣٧) D. F. Aff. Etr, vol. XVII (1913) 21 April, P. 209.

(٣٨) زين زين، نشوء القومية العربية، ص ٢١٢، عن المقطم عدد ٧٣٠٩، ١٢ أبريل / نيسان / ١٩١٣.

و D. F. Aff Etr, vol. XVII (1913) 15 April P. 171.

(٣٩) Ibid. 13 April, P. 190.

جاء في برقية رفيق العظم إلى الصدر الأعظم ما نصه «إن مصادرة والي بيروت لجمعية الإصلاحية في عملها القانوني، استبداد منكر مضيع لآمال الأمة، وموجب للتقاطع بين الهيئتين، فتداركوا سوء العاقبة بعزل الوالي ونقض عمله، ولا تسنوا للشعب سنة سيئة بمخالفة القوانين».

المقطم، عدد ٧٣١٠، ١٤ أبريل / نيسان / ١٩١٣، ص ٥.

وهكذا عاد اليأس من جديد من عدم اتفاق الفئتين الكبيرتين في الدولة العثمانية، العرب والترك، بعد أن شعروا بشيء من الأمل زمن الائتلافين، وقد كتب عبد الحميد الزهراوي في هذه الفترة يصف تلك الحالة قائلاً «مرن كبار العلماء وأقطاب الأمة على اليأس من الصلح بين هاتين الفئتين الكبيرتين من الأمة، حتي كأن هذا الأمر — أي الصلح بينهما — ليس مما يعني الأمة»^(٤٠)، لكن يبدو أن أحداث بيروت كانت تنتظر نتائج غير التي تمخضت عنها، لأن الأمر كان قد وصل إلى ضباط الجيش العثماني من العرب في دمشق وبيروت، وربما كانوا يخططون لانقلاب عسكري، لكن الوقت الذي حدثت فيه الحوادث لم يكن مناسباً، فقد جاء في رسالة لقنصل فرنسا في بيروت «أن ضابطاً عربياً صغيراً في الجيش العثماني، قد وصل حديثاً من دمشق إلى بيروت — خلال الأحداث — وأن القنصل الفرنسي في دمشق، قد نبه زميله في بيروت عن سفر هذا الضابط، وجعل يراقب تحركاته في بيروت، ويعتقد قنصل بيروت حسب مصادر أخرى من المسؤول السياسي في القاهرة، الذي كتب منذ وقت قصير، أن الضباط العرب طلبوا من زعماء الحركة الإصلاحية في بيروت مهلة حتى يتمكنوا خلالها، وفي الوقت المناسب، من القيام بانقلاب عسكري. ويقول القنصل بأنه سيخبر بكل ما يعلم عن مقاصد (مؤامرات) الضباط العرب في الجيش العثماني»^(٤١).

المؤتمر العربي في باريس

لم تكن حركة جمعية الإصلاح في بيروت منعزلة، فقد كانت تدعمها التشجيعات من القاهرة (من اللجنة العليا لحزب اللامركزية وبقية السوريين العاملين فيها)، ومن جمعية البصرة في العراق، ومن دمشق، ومن باريس^(٤٢) حيث لعبت الجالية العربية الكبيرة فيها (أكثر من ٣٠٠ شخص)، دوراً سياسياً هاماً يعتبر متمماً لما

(٤٠) المنار، م ١٦، ج ٣، مارس ١٩١٣، ص ٢٢٥.

(٤١) D. F. Aff. Etr, vol XVII (1913) 21 April, P. 209.

(٤٢) من قنصل بريطانيا في بيروت.

F. O. 371/1775/ No 36 (28 April) P. 453.

قامت به جمعية الإصلاح في بيروت، خاصة وأن جمعية العربية الفتاة التي انتقلت إلى باريس — كما ذكرنا — كان مؤسسوها لا يزالون في باريس، وكانوا يقومون بنشاط سري واسع من أجل الحركة العربية. وفي نفس الفترة التي كانت الحكومة التركية تسعى لاختتام الحركة الإصلاحية في بيروت أي في أوائل شهر أبريل / نيسان / ١٩١٣، كانت تلك الجالية العربية تقوم لإعداد مؤتمر يعقد في باريس، وانتخبت لجنة تحضيرية من ثمانية أشخاص، أربعة منهم من جمعية الفتاة وهم: عبد الغني العريسي، وعوني عبد الهادي، وجميل مردم، ومحمد المحمصاني (مسلمون)، وأربعة آخرون مسيحيون هم: شكري غانم رئيس الجمعية السورية المركزية المؤسسة في باريس والتي تعمل بالتفاهم مع فرنسا، وندره المطران (أحد المطالبين باستقلال لبنان تحت حماية فرنسا)، وشارل دباس (أصبح رئيس جمهورية في لبنان)، وجميل معلوف^(٤٣)، والجميع من سورية. وكانت مهمة اللجنة التحضيرية الاتصال بالشخصيات العربية ودعوتهم لحضور المؤتمر، وتهيئة انعقاد المؤتمر وتوضيح أهدافه، في ظرف أصبح مستحيلاً عقد مثله في أرض عثمانية، بعد عودة الاتحاديين للحكم والتعصب والمركزية. وفي ٤ أبريل / نيسان / وجهت هذه اللجنة دعوة إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني في مصر، وجاء في الدعوة «لقد جمعتم في برنامجكم الأماني التي يرتادها أبناء العرب لسعادتهم وترقيتهم في كل حين، لذلك أوقفنا أنفسنا لخدمة غايتكم النبيلة، واعتبرناكم مصدراً لما نتوقع أن نقوم به في هذه الديار إزاء مناظرات الجرائد، ومغامز الخطباء في الأندية السياسية على الاجتماع والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن المحبوب من الطوارئ، وإصلاح أمور بلادنا على أساس اللامركزية. وبعد المناقشات ارتأت أن تعقد مؤتمراً للعرب، تظهر فيه للأجانب أن العرب يدرون عادية الاحتلال من أية دولة كانت، ويحفظون بحياتهم الوطنية، وتصارع الدولة العثمانية بوجوب تطبيق الإصلاحات اللامركزية في بلاد العرب»^(٤٤).

(٤٣) اللجنة العليا لحزب اللامركزية في مصر، المؤتمر العربي الأول، القاهرة، مطبعة البوسفور، ١٩١٣،

ص ٥.

(٤٤) نفس المصدر، ص ٦-٨، وعلى المحافظة، ص ١٤٨-١٤٩.

وقد حددت الدعوة أبحاث المؤتمر بما يلي :

- ١ — الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال .
- ٢ — حقوق العرب في المملكة العثمانية .
- ٣ — ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية .
- ٤ — المهاجرة من سورية وإليها^(٤٥) .

لبنى حزب اللامركزية الدعوة، وقرر إرسال مندوبين عنه لحضور المؤتمر والمشاركة في أعماله . وهما عبد الحميد الزهراوي، واسكندر عمون (رئيس حزب الاتحاد اللبناني

→ بعد موافقة اللجنة العليا لحزب اللامركزية على حضور المؤتمر، أذاعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر، بياناً على العالم العربي في بلاد الدولة العثمانية وفي المهاجر جاء فيه : إن مناظرات الأجناب ومغامزات السياسة العامة، قد أوقفتنا على استقراء ما يجري بشأن البلاد العربية، وخاصة زهرة الوطن سورية، ولم يبق بين جمهور الناطقين بالضاد، من لا يعلم أن ذلك نتيجة سوء الإدارة المركزية . فحدا بنا ذلك إلى الاجتماع في هذه المدينة، والبحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الأرض المترعة بدم الآباء ورفات الأجداد، من عداء الأجناب وانقاذها من صيغة التسيطر والاستبداد، وإصلاح أمورها الداخلية على أساس ما يتطلبه أهل البلاد من قواعد المركزية، حتى يشتد بها ساعدنا وتستقيم قناتنا، فينقطع بذلك خطر الاحتلال أو الاضمحلال، وتتفي مذلة الرق، وتخفت نامة الاستعباد، ويظهر للاعبين بخياة الشعوب أننا أمة تأتى الضيم ولا تستسلم للذل . وبعد المداولة تقرر عقد مؤتمر للعرب يقوم به السوريون، فتقد إليه وفود البلاد العربية والمهاجرين السوريين من مصر وأمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية والبلاد الأوروبية، فتمثل فيه الأمة العربية المنتشرة في أقطار الأرض، وتحق كلمة التضامن الاجتماعي والسياسي لهذه الأمة في هذا المؤتمر، حيث نيسط فيه للأمة الأوروبية، أننا أمة مستمسكة ذات وجود حي لا ينحل ومقام عزيز لا يضام، وخصائص قومية لا تنزع، ومنزلة سياسية لا تفرع، ونصارع الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا، وأن حياتنا أقدس حق من حقوقنا، وأن العرب شركاء في هذه المملكة، شركاء في الحرية، شركاء في السياسة، وأما في داخلية بلادهم فهم شركاء أنفسهم ومتى تمت المناقشات حمل المؤتمر قراراته إلى حيث يتم عليها التصديق وينق التنفيذ، وبعد فإننا ندعو كل من يخفق قلبه لأمة العرب صغيراً أو كبيراً، أن يلبي داعي الوطن، لاسيما أرباب الزعامات في مقاعد الجمعيات، فعليهم نعتد وإلهم نتجه، فإما أن ينضموا إلى وفود المؤتمر، وإما أن يعثوا إليه بالرسائل البرقية واليديّة، يظهرن فيها ارتياحهم حتى يدلي المؤتمر ببحته وتستوثق قوته بقوة أمته، وهنالك ينبثق اليقين، فيطل على هذه الأمة فجر الحياة من بين طيات الغسق وركام الظلمات ٥٠٠ . المؤتمر العربي، ص ٧ — ١٠ .

وعزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ص ٣٨ — ٣٩ .

نفس المصدر، المؤتمر العربي الأول، ص ٧ — ١٠ . (٤٥)

في مصر)، ولبت الجمعيات والأحزاب الأخرى تلك الدعوة. أما اللجنة الاصلاحية في بيروت فقد أرسلت ستة من أعضائها هم: أحمد مختار بيهم، وخليل زينية، والشيخ حسن طباره، والدكتور أيوب ثابت، والبرت سرسق وسليم علي سلام. وكان خليل زينية والدكتور أيوب ثابت من الموقعين على عريضة إلى وزارة الخارجية الفرنسية، لتوسيع حدود لبنان وضم بيروت له ووضعها تحت الحماية الفرنسية. وقد جمع الأهالي لهذا الوفد مبلغ ألف ليرة تركية لنفقات السفر، وحملوا معهم تفويضاً من الهيئات الدينية المسيحية في لبنان كي يتحدثوا باسم ولاية بيروت في أوروبا^(٤٦)، وذكر قنصل بريطانيا في بيروت، أن هؤلاء المندوبين سيقابلون اللجنة الفرنسية السورية المؤلفة من (دزينة) من الفرنسيين المهتمين بشؤون سورية، وليس لهم علاقة بلجنة المؤتمر العربي السوري، وأنهم (أي الوفد) سيقدمون أنفسهم أولاً إلى السفارة العثمانية في باريس، وقد يصلون إلى لندن والعواصم الأوروبية الأخرى^(٤٧)، ويبدو أن الوفد قد أذاع عن مهمته هذه في أوروبا، ولم يذكر عن أنه مسافر لحضور المؤتمر العربي السوري، حتى لا تعارض بذلك السلطات التركية في بيروت التي لم تكن تعلم بمهمتهم بالتأكيد، لأن السفارة البريطانية في باريس، أرسلت تسأل السفارة العثمانية في المدينة المذكورة عن رأيها بالاصلاحيين القادمين من بيروت إلى أوروبا، فأجاب السفير العثماني بأنهم عثمانيون، ولا يمثلون جمعية خاصة بهم، مع أن لبعضهم ميولاً ذاتية، لكن البقية يطالبون باللغة العربية ووضعها في مكانها الطبيعي، وأضاف بأن الفرنسيين لم يستقبلوهم رسمياً لا من قبل الوزير ولا من قبل المدير العام، بل من مساعده السياسي وبعض الموظفين الصغار، ولم يعطوهم أي تشجيع في مهمتهم، وقيل لهم بأن الوقت غير مناسب^(٤٨). وحضر أيضاً إلى باريس للاشتراك بالمؤتمر ثلاثة عن المهاجرين العرب في الولايات المتحدة الأمريكية، ومندوب واحد عن المهاجرين في المكسيك، وثمانية من الجالية العربية في باريس، ومندوب واحد

(٤٦) انظر نص التفويض الملحق.

F. O. 371/1775/ No 47, 30 Mai 1913, P. 490. et No 36, P. 453.

F. O. 371/1775/ No 36. P. 475. (٤٧)

Ibid, No 346, 26 Jui 1913. P. 493. (٤٨)

عن الجالية العربية في استانبول، وهو عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي فيها. وحضر اثنان من وجهاء بعلبك وهما محمد حيدر وابراهيم حيدر، وقد مثل العراق، توفيق السويدي وسليمان عنبر، وكان يعيشان في باريس للدراسة^(٤٩). وذكر توفيق السويدي أنه هو الذي أقنع زملاءه أن يطلقوا على المؤتمر اسم المؤتمر العربي بدلاً من المؤتمر السوري^(٥٠)، لأن كل أعضائه كانوا في الحقيقة من سورية ولم يكن فيه سوى هذين العراقيين، حتى إن لجنة البصرة الاصلاحية لم ترسل مندوبين عنها إلى المؤتمر، مما سيكون لذلك أثر غير طيب على علاقات الاصلاحيين العرب السوريين بالعراقيين فيما سيأتي ونذكره.

وقبل انعقاد المؤتمر انتخبت الوفود لجنة إدارية من عبد الحميد الزهراوي رئيساً، وشكري غانم نائباً للرئيس، وسليم سلام، واسكندر عمون، والشيوخ أحمد طباره، وندره المطران وكلاء، وعبد الغني العريسي، ومحمد الحمصاني، وعوني عبد الهادي، وجميل مردم كتاباً بالعربية، وشارل دباس كاتباً بالفرنسية^(٥١).

انعقد المؤتمر بين ١٨ و ٢٣ جوان / حزيران / ١٩١٣ في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان في باريس^(٥٢). وكانت كلمات الأعضاء تدور كلها حول اللامركزية وضرورة الاصلاح. ولم يبحث المؤتمر مسألة انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، ولم يتطرق مطلقاً إلى ذكر ذلك. وقد أوضح اسكندر عمون نائب المؤتمر في كلمته، أهداف اللامركزية السياسية وأغراضها البعيدة، إذ قال «توهم بعض أنصار النظام المركزي من إخواننا الأتراك، أن الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة، وهو أمر بعيد عن الصحة، فإن الأمة العربية لا تريد إلا استبدال شكل الحكم الفاسد — الذي يكاد يودي بالدولة — بالحكم الذي يرجى منه وحده الصلاح

(٤٩) المؤتمر العربي في مارس / آذار /، ص ١٤ — ١٦.

(٥٠) سليمان موسى، (في مقابلة مع توفيق السويدي سنة ١٩٦٦) ص ٣٧.

(٥١) المؤتمر العربي، ص ٢٧، وعلى المحافظة، ص ١٥٠.

(٥٢) D. F. Aff. Etr, vol. XIX (1913) P. 184.

والنجاح لنا ولهم، وهو الحكم على قاعدة اللامركزية. ولو كانت الهيئة الحاكمة اليوم من صميم قريش لكان موقفنا معها موقفنا هذا نفسه.

«قلنا إن العرب لا يريدون الانفصال عن الأتراك، ونزيد على ذلك أنهم لا يميلون لفئة منهم دون أخرى، ولا ينصرون حزباً على حزب، وإنما هم يريدون إصلاحاً ينهض بالبلاد من عثرتها، ويفتح لها السبيل لمجاراة سائر الأمم في مطالب الحياة، فالحزب الذي يقوم بهذا الإصلاح هو لهم وهم له».

«أما إذا أبت الأمة التركية إلا الهلاك، فالعرب معذرون إذا هم ترددوا قبل أن يلقوا بأنفسهم معها في الهوة».

«والنتيجة أن الأمة العربية لا تريد الانفصال عن الدولة، ولا نصرة حزب على حزب أو جنس على جنس، وإنما تريد استبدال نظام الحكم الحاضر بنظام يناسب حاجة كل العناصر على اختلاف شؤونها، فيكون بمقتضاه لأهل كل ولاية الكلمة العليا في إدارة شؤونهم الداخلية، ويكون لمجموع الأمة العثمانية سلطة عليا نيابية قائمة على النسبة الصحيحة لإدارة الشؤون العامة».

«ومعنى ذلك أننا نريد حكومة عثمانية، لا تركية ولا عربية، حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات، فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق، ولا يحرم فريق من حق من الحقوق لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين، عربياً كان أم تركياً أو أرمنياً أو كردياً مسلماً أو مسيحياً، إسرائيلياً أو درزياً» (٥٣).

وتكلم عبد الغني العريسي عن حقوق العرب القومية ووجوب التمتع بكيانهم القومي داخل الدولة العثمانية، فقال «لا تتطرق إلينا فكرة الانفصال عن هذه السلطة، ما دامت حقوقنا مرعية محفوظة، فارتباطنا بهذه الدولة يتراوح إذن بين ضمان هذه الحقوق، فإن كثر كثر وإن قل قل.....»

«الحق في كل تكوين سياسي قائم على نوعين، حق فرد وحق جماعة، والجماعات كثيرة، وأجلها مكانة جماعات الشعوب، فللشعوب حق غير حق الأفراد... هل للعرب حق الجماعة؟»

«إن الجماعات في نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق، إلا إذا جمعت على رأي العلماء الألمان، وحدة اللغة ووحدة العنصر، وعلى رأي علماء الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادات، وعلى مذهب الفرنسيين وحدة المظمت السلسل. فإن نظرنا إلى العرب من هذه الوجوه السلسلة، علمنا أن العرب تجمعهم وحدة لغة، ووحدة عنصر، ووحدة تاريخ، ووحدة عادات، ووحدة مظمت سلسل. فحق للعرب بعد هذا الببان أن يكون لهم رأي كل علماء السلسلة دون استثناء حق جماعة، حق شعب، حق أمة. تتساءلون عن ماهية هذا الحق لجماعة الأمة العربية، فبباناً لهذا الحق أقول: أول حق لجماعة الشعوب حق الجنسية (القومية) فنحن عرب قبل كل صيغة سلسلة، حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة، رغباً عما كان يتناوبا من حكومة الآستانة من أنواع الإدارات، كالامتصاص السلسل أو التسخير الاستعماري أو الذوبان العنصري»^(٥٤).

وأكد ندره المطران على القومية العربية، على أنها العامل الأساسي الذي يجمع العرب على اختلاف أديانهم فقال «إذا كانت النعة الجنسية فضيلة في النفس، فلست أعرف أمة أشد تأثراً بعواملها من الأمة العربية. لما قدم أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين إلى بلاد الشام، وجدوا حارساً على أبوابها من الغسانيين، وهم عرب نصارى يتقدمهم ملكهم جبله بن الأيهم، إلا أن هؤلاء بدلاً من قتال المسلمين والوقوف في وجوهم، عطفوا عليهم عطف الأخ، فتركوا الجامعة الدينية والرابطة السلسلة اللتين كانت تقضيان عليهم بموالاة الروم، وخطبوا ود ولاء الناطقين

(٥٤) المؤتمر العربي، ص ٤٣-٤٥.

بلسانهم من بني أمتهم العرب . فمهّدوا لهم السبل ، وفتحوا الطرق ، ومكنوهم كل التمكن من فتح البلاد»^(٥٥) .

كان المؤتمر مقتصرأ على السوريين من العرب ، ولذلك فسر عبد الحميد الزهراوي غياب المصريين عنه ، لأن الدولة العثمانية لا تملك في مصر حق الحكم والإدارة ، فقال «نحن نحترم إخواننا المصريين ، ونحترم آراءهم ، وهذه المناسبة أعتذر لأنني لم أجد فرصة قبل الآن لتحية الأمة المصرية . والآن نحبي إخواننا المصريين ، ونبدي حرمنا لآرائهم ، ولنعرف أن مصر عربية عثمانية ، ولكن بما أن لها إدارة خاصة لا ينفذ فيها رأي العثمانيين ، وكذلك للبلاد العثمانية إدارة لا ينفذ فيها رأي المصريين ، لذلك أرجو أن يكون هذا عذراً لبقاء مناقشة العثمانية الداخلية ، منحصرة فيمن لآرائهم حق التأثير في أحوالهم»^(٥٦) .

وأكد عبد الحميد الزهراوي على كلمة ندره المطران ، التي عبرت بشكل غير مباشر ، عن عدم وجود تأثير للعامل الديني في علاقة العرب ببعض ، فقال «إن الرابطة الدينية عجزت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية ، وأنا لا أرجع إلى التاريخ لأبرهن على هذا ، بل حسبي ما لدينا الآن من الشواهد الحاضرة . انظر إلى الحكومتين العثمانية والفارسية ، كيف لم تقو رابطتهما الدينية على إزالة خلاف بسيط بينهما ، وهو الاختلاف المتعلق بالحدود . «العاطفة الانسانية لم تقدر مرة من المرات ، أن تحمل أميراً مسلماً على التنازل عن حقوقه لأمر آخر من المتدينين بدينه ، حتى ولو كان هذا خليفة»^(٥٧) .

اجتمع المؤتمر في ٢١ جوان / حزيران / ١٩١٣ واتخذ القرارات التالية :

١ — إن الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية ، فيجب أن تنفذ بوجه السرعة .

(٥٥) نفس المصدر ، ص ٥٨ .

(٥٦) نفس المصدر ، ص ١١٥ .

(٥٧) نفس المصدر ، ص ٢٠ ، وعلي المحافظة ، ص ١٥٠ — ١٥٢ .

٢ — من المهم أن يكفل للعرب التمتع بحقوقهم السياسية ، وذلك بأن يشتركوا في إدارة المملكة المركزية اشتراكاً فعلياً .

٣ — يجب أن تنفذ في كل ولاية عربية إدارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها .

٤ — كانت ولاية بيروت قدمت مطالبتها بلائحة خاصة صودق عليها في ٣١ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٣ بإجماع الآراء ، وهي قائمة على مبدئين أساسيين وهما : توسيع سلطة المجلس العمومية ، وتعيين مستشارين أجانب . فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين الطلبين .

٥ — اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب (المبعوثين) ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية .

٦ — تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية ، إلا في الظروف والأحيان التي تدعو إلى الاستثناء الأقصى .

٧ — يتمنى المؤتمر من الحكومة العلية أن تكفل لمصرفية لبنان وسائل تحسين مالياتها .

٨ — يصادق المؤتمر ، ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية .

٩ — سيجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنية .

١٠ — تبليغها أيضاً للحكومات المتحابة مع الدول العثمانية .

١١ — يشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية شكراً جزيلاً لترحابها الكريم بضيوفها .

وألقى المؤتمر بهذه القرارات الملاحظات الثلاث التالية :

١ — إذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر ، فالأعضاء المنتمون إلى لجان الإصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية ، إلا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين إليها .

٢ — ستكون هذه القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين ، ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج ، وطلب تنفيذه .

٣ — يشكر المؤتمر مهاجري العرب على وطنيتهم في مؤازرتهم له، ويرسل لهم تحياته
بوساطة مندوبيهم^(٥٨).

كان الموقف في سورية، خلال هذه الفترة، يتجاذبه عاملان، يمكن القول
بأنهما للدفاع عن النفس وعن الكيان العربي، وهذان العاملان هما:

- ١ — الوقوف ضد الأطماع الأوروية المسيحية.
- ٢ — الوقوف ضد القوة العثمانية الاتحادية (الأتراك المتعصين)، وخاصة بعد عودتهم
للحكم إثر انقلابهم على الائتلافيين^(٥٩).

ولقد أفلت الزمام من يد الاتحاديين في بيروت بعد قيام حركة الإصلاح، واصرار
العرب على هذا الإصلاح، وتوجههم نحو مدينة أوروية هي باريس، للاستمرار في
نشاطهم ومطالبهم بتحقيق اللامركزية، والإصلاحات الأخرى. تلك التي رفضتها
الحكومة الاتحادية في بيروت. وكان عمل العرب هذا تحدياً سافراً للاتحاديين الذين
عجزوا عن تدبير الموقف بأنفسهم، بالطرق المقبولة، فلعجؤوا إلى التهديد والقتل. واتهم
الوالي باغتيال زكريا طباره (ابن عم الشيخ أحمد طباره) الذي حضر مؤتمر باريس، ثم
شنقه جمال باشا في بيروت، وهو من نادي الإصلاح «وكان لقتله أثر ومغزى سياسي،
وقد يكون المسؤولون عن قتله من حول الوالي»^(٦٠). كما حاول (الاتحاديون) الخروج
من موقفهم الخطر، بإثارة السوريين ضد الأوروبيين والمسيحيين، لكن دون نجاح يذكر،
ولهذا ظلوا في موقفهم الحرج، وجهاً لوجه مع السوريين الذين أضحت الصورة واضحة
في عيونهم، وأن أملهم كان في حكم لا مركزي يعرئ مصالحهم القومية، ويخلصهم من
الفساد المتمثل في الموظفين، وفي دفع الضرائب الكثيرة، (زادت منذ ١٩١٢) دون
فائدة ترجى، وفي البطء الشديد في التقدم الاقتصادي، وفي جمع الأتراك للمال من

(٥٨) المؤتمر العربي، ص ١١٣ — ١٢١، والمنار، ج ٩، م ١٦، يوليو / تموز / ١٩١٣. ص ٧١٧ — ٧٨٧.

D. F. Aff. Etr, vol. XIX, P. 95. و

(٥٩) تقرير مخابرات البحرية البريطانية.

F. O. 371/1775/ 16 Jui 1913. P. 535-540.

D. F. Aff. Etr, vol. XVIII (1913) 16 Mai. P. 63. (٦٠)

سورية بكل مناسبة (للأسطول — لحرب طرابلس)، وفي الخوف من سوق الجند الاحتياطي من هذه المنطقة. وكان من المحتمل أن تنتقل تلك الحركة المعادية للأتراك في سورية إلى الجنود السوريين الذين يحملون عواطف المواطنين نفسها، وقد يقتلون الضباط الأتراك القلائل في بيروت (٥ — ٦ ضباط)، ولهذا قد تضطر تركيا إلى إرسال قوات عسكرية لحفظ الأمن، وربما تكون بيروت هي مركز الصراع، مع العلم أنه توجد منظمات سرية أشد خطراً، وتوجد أخرى أقل خطورة في يافا وطرابلس^(٦١). ويؤكد هذا الخبر عن الجنود السوريين ما جاء عن وصول ضابط عربي من دمشق إلى بيروت لغاية عسكرية سياسية — كما ذكرنا منذ عدة صفحات — كما يؤكد ما حدث في دمشق من عصيان عسكري بين الجنود السوريين الاحتياط العائدين من اليمن، إذ وصلت قوة (لواء) من ٧٠٠ رجل من المدفعية إلى دمشق، ولدى مرورهم في الشوارع تهاجم الناس عليهم، وعاملوهم معاملة سيئة، فذهب ١٥٠ منهم بالقوة إلى المسجد الأموي بسلاحهم، وعصوا الأوامر وطالبوا بإطلاق سراحهم. حاصر الوالي مع قوات الدرك والشرطة الجامع، لكن برقية وردت من استانبول بتسريحهم. وكان الشيخ بدر الدين (الحسني) نقيب الأشراف قد حاول التدخل في الجامع لحل الأزمة قبل وصول البرقية. وقد تركت هذه الحادثة أثراً سيئاً في نفوس الأهالي في دمشق الذين قلت ثقتهم بالحكومة، وشجعت آخرين في الوقت الذي كانت الحكومة تجري تنقلات واسعة بين الموظفين في سورية^(٦٢)، مما أثار الاشاعات الكثيرة حول مصير الدولة — وكان المؤتمر العربي معقوداً في باريس —.

لما بلغ الحكومة التركية خبر عقد اجتماع المؤتمر العربي في باريس، قاومته بكل الوسائل، وحاولت الوقوف في وجهه، فاستدعت بعض أنصارها من العرب، كطه المدور صاحب جريدة الرأي العام، لنشر مقالات في المسائل العربية، خلاصتها أن مطالب العرب كانت بسبب خطأ الصحف التركية التي سببت الخلاف بين الطرفين.

(٦١) F. O. 371/1775/ 16 Jun 1913 (PP. 535-540).

(٦٢) من القنصل العام البريطاني في دمشق.

Ibid, 471/1844/ No 42. 10 Jun 1913.

كما حاولت الحكومة الاتحادية إقناع الحكومة الفرنسية بألا تسمح بعقد هذا المؤتمر على أرضها، وحرّضت عبد العزيز شاويش للدعوة لمؤتمر الجامعة الإسلامية^(٦٣). وحملت الصحف التركية كثيراً على المؤتمر، وخاصة جريدة طنين لسان حال جمعية الاتحاد والترقي التي كتبت بمناسبة انعقاد المؤتمر «إن هؤلاء المؤتمرين باسم العرب النجباء، الذين نظموا بروغرامهم، وأعدوا معدات الاحتلال، وأخذوا يوزعون النشرات السرية، ستكون لهم عاقبة أليمة جداً. والذين قاموا يصيحون في وجههم، يصح لكل واحد منهم أن يتكلم عن ولاية عربية برمتها»^(٦٤). وذكرت الصحيفة نفسها في عددها الصادر في ٦ جويلية / تموز /، تحت عنوان «مؤتمر غريب» «إن موقعي بيان المؤتمر دخلوا في الجنسية الفرنسية، ولم يبق لهم أقل صلة بالعربية والإسلامية. فمؤتمرهم الذي يعقد في باريس على ما جاء في بيانهم عارٍ من كل أهمية، وإذا كان موقعوه يسعون حقيقة باسم العرب، فلماذا لا يدعون مندوبين من كل البلاد التي ينطق سكانها بالضاد»^(٦٥). وكتبت أيضاً «ما تزال تتوالى الاحتجاجات من مدن سورية ضد المؤتمر السوري، والسوريون يجندون نفوسهم ضد منظميه وخاصة ضد خير الله خير الله المتعاطف مع الفرنسيين.....، ولقد خرجت كل كتابات المؤتمر من ريشة أكثر فرنسية، حيث أثبتت أنه ليس صديق السوريين والعرب»^(٦٦). وكتبت «تصوير أفكار» قبيل انعقاد المؤتمر: «عن الإخلاص والتعلق بالوطن، والمظاهرات المستمرة للتعلق الشديد بالخلافة، أو السلطنة، في سورية، وأن مشايخ المدينة المنورة أرسلوا برقية ضد المؤتمر السوري»^(٦٧). وأوعزت الحكومة إلى أصدقائها من المسؤولين العرب، كي يرسلوا بقرقيات احتجاج مضادة للمؤتمر. فأرسل عبد الرحمن اليوسف (ثري كردي ونائب عن دمشق)، وشكيب أرسلان^(٦٨) الذي اتفق مع الوالي عارف المارديني في دمشق،

(٦٣) مجلة الحرب العظمى، ج ٢٥، ص ٢٥.

(٦٤) أسعد داغر، الثورة العربية، القاهرة ١٩١٦، ص ٧٥-٧٦، وعلى اخفاضة، ص ١٥٤.

(٦٥) نفس المصدر.

(٦٦) D. F. Aff. Etr, vol XIX 1913, 16 Juin, P. 77.

(٦٧) Ibid, 10 Juin, P. 43.

(٦٨) Ibid, P. 36.

للإبراق إلى الآستانة باستنكار المؤتمر، « فأشار الوالي إلى الأعيان، والعلماء، ورؤساء المذاهب والبطارقة والمطارين. فأمضوا جميعاً برقيات إلى الباب العالي، بأنهم لا يعرفون هذا المؤتمر، وتقدمت البرقيات في هذا المعنى من جميع المدن السورية ». هذه رواية شكيب أرسلان^(٦٩). أما عبد الرحمن اليوسف، فقد عقد اجتماعاً في بيته مع الاتحاديين، وأرسل برقية إلى الصدر الأعظم، « وزيف تواقع كثيرة ضد الائتلافيين في باريس كبرقيات احتجاج^(٧٠)، وهاجمت الصحف شكري العسلي، وعبد الوهاب الانكليزي لإرسالهما عن حزب الائتلاف برقيات للمؤتمر السوري في باريس تأييداً له^(٧١). واحتج كثير من مسلمين ومسيحيين بطلب من الحكومة على هذا المؤتمر^(٧٢). كما استدعت حكومة الآستانة وفداً من سورية ستمتهم بالاسم وهم: محمد باشا العظم، وعبد الرحمن باشا اليوسف، وعبد المحسن الاسطواني، وأمين الترزي، والشيخ أسعد الشقيري، ومحمد باشا المخزومي، والدكتور حسن الاسبر. وكانت الغاية هي بحث المسألة العربية، ومطالب السوريين. وكانت الحكومة تريد من وراء ذلك اجهاض المؤتمر العربي في باريس، حتى أن شكيب أرسلان سمي اجتماع الوفد السوري مع بعض أعضاء الحكومة الاتحادية في الآستانة بمؤتمر الآستانة. وتكلم في الاجتماع خليل بك رئيس مجلس النواب، عن ضعف الدولة إثر حرب البلقان، ووجوب لمّ الشمل. وأعلن أعضاء الوفد مع من انضم إليهم من العرب في الآستانة — كالشريف علي حيدر وغيره — أن أعضاء مؤتمر باريس لا يمثلون سوى أنفسهم، وأنهم يعملون بوحى الدول الأجنبية، وأنهم لا يريدون فعلاً استقلال سورية. وطالب الوفد أيضاً بما كان يبحثه أعضاء مؤتمر باريس، من أمور تتعلق باللغة العربية، والاعتناء بها، وتوسيع صلاحية الولايات. كما طالبوا بتأسيس جامعة عربية مثل جامعة استانبول المسماة بدار

(٦٩) مذكرات شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ١٠٨ — ١٠٩.

(٧٠) من الفصل البيطاني العام في دمشق.

F. O. 371/1844/ No 42. 10 Juin 1913.

F. O. 371/1844/ No 42. 10 Juin 1913. (٧١)

Ibid, 371/1775/ P. 498 et D. F. Aff. Etr, vol XIX, P. 134 (27 Mai 1913). (٧٢)

الفنون . وقابل الوفد السلطان . وأقامت لهم الحكومة مأدبة حافلة في فندق بيرا بالاس . ثم دعي إلى مأدبة عند ولي العهد . وقررت الدولة إقامة الجامعة (دار الفنون) في المدينة المنورة^(٧٣) .

صلح مخادع

لكن تأييد المؤتمر في سورية وغيرها من الدول العربية، والدعاية التي رافقته في صحف أوروبا، وفشل الاتحاديين في إفشال المؤتمر، لسبب آخر نراه مهماً جداً وهو أن المؤتمر نفسه لم يعلن انفصال العرب عن الدولة العثمانية، وكل طلباته كانت اللامركزية في الدولة العثمانية، بحيث تركت نوعية القرارات هذه الفرصة واسعة للاتفاق مع الدولة على الإصلاحات الداخلية. وقد أبلغ المؤتمر بها السفارة العثمانية في باريس. وكانت الحكومة الاتحادية تعرف أن الوفد الذي أتى للاستئذان لا يمثل فكر الأحزاب القومية، بل يمثل الزعامة العائلية التقليدية المتراجعة أمام الأفكار الجديدة، كما أن الحكومة خشيت من ازدياد شقة الخلاف بحيث لا يعود الاتفاق ممكناً. إضافة إلى أن محمود شوكت باشا نفسه قد اغتيل قبل أسبوع من عقد المؤتمر. إضافة إلى خروج الدولة ضعيفة من حرب البلقان، وإلى جنوحها للتفاهم مع العرب، حتى تتمكن من تصفية خصومها الائتلافيين من الأتراك أنفسهم الذين قتلوا محمود شوكت، انتقاماً لناظم بك وزير الدفاع الائتلافي الذي قتله الاتحاديون، وعلى رأسهم أنور باشا. كل هذه الأسباب جعلت الاتحاديين يتراجعون عن خطة النجاة واللامبالاة تجاه المؤتمر. وهكذا قرروا الاتصال به، فأرسلوا مدحت شكري بك إلى باريس وهو سكرتير اللجنة المركزية لحزب الاتحاد والترقي، من أجل التفاوض مع رجال المؤتمر^(٧٤). لكن شكيب أرسلان يذكر في مذكراته «سيرة ذاتية» رواية تبدو غريبة عن أسباب إرسال الاتحاديين لندوب عنهم إلى باريس، للاتفاق مع العرب أعضاء المؤتمر العربي، ولتلك الغرابة

(٧٣) مذكرات شكيب أرسلان (سيرة ذاتية) ص ١١٢ و ١١٣ .

و D. F. Asf. Etr, vol. XX 10 Aout 1913. P. 56.

(٧٤) مجلة الحرب العظمى، ص ٢٧، ج ٢٥.

نذكرها هنا . فقد كتب شكيب أرسلان « أرادت الدولة أن تتلافى مسألة العرب ، فاتفقت مع فرنسا ومنحتها امتيازات كثيرة اقتصادية في سورية ، وبمقابلة ذلك أسمعت فرنسا الرجال الذين عقدوا هذا المؤتمر في باريس كلمات استدلوها منها أنها تخلت عنهم ، بعد أن كانت وعدتهم النصر ، فضعفت آمالهم فيها . ويقال أن مختار بيهم ، والزهرراوي ، وسلام ، وطياره ، لحظوا أن مراد رفاقهم من المسيحيين لم يكن استقلال سورية ، ولكن فصلها عن تركيا ، ووضعها تحت حماية فرنسا . فعند ذلك نفروا من رفاقهم المسيحيين ، وراسلوا الدولة في الرجوع إليها ، ولكن على شكل يحفظ شرفهم . وكانت الدولة يومئذ تريد تلافى الأمور ، فأرسلت إليهم مدحت شكري من أقطاب الاتحاد والترقي . فقابلهم في باريس ، وتقرر رجوعهم إلى الآستانة ، وتطبيب خواطرهم . وعندما أبرم الاتحاديون هذا القرار ، فكر بعضهم بأنه لا يجوز تطبيب خواطر الذين ذهبوا إلى المؤتمر السوري في باريس ، بدون رأي الحزب الآخر الذي بقي متمسكاً بالوحدة العثمانية ، وكنت أنا بطبيعة الحال من أشهر رجال هذه الفئة » (٧٥) .

شكل المؤتمر وفداً من ثلاثة أشخاص ، برئاسة عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي في الآستانة ، ليتفاوض مع الحكومة العثمانية في الآستانة ، في سبيل الوصول إلى اتفاق يرضي آمال العرب ويحقق مطالبهم . وحوالي منتصف جويلية / تموز / ، أعلنت الحكومة التركية أنها قد توصلت إلى اتفاق مع العرب ، تمنح بموجبه الولايات العربية جميع المطالب التي تقدموا بها . وفي ١٣ جويلية / تموز / ١٩١٣ نشرت جريدة المقطم نص هذا الاتفاق الذي أرسله إليها رفيق بك العظم رئيس حزب اللامركزية في مصر ، وقد أرفق به الرسالة التالية :

« معلوم أن مندوب جمعية الاتحاد والترقي الذي فوضت إليه مخابرة لجنة المؤتمر في باريس ، والاتفاق معها على وجوه الإصلاح المطلوب في البلاد العربية ، كان قد أمضى اتفاقاً مع اللجنة المذكورة يتضمن الاعتراف بحقوق العرب في المملكة العثمانية ، وإجراء الإصلاح في البلاد العربية على قواعد اللامركزية الإدارية ، وإن اللجنة العليا لحزب

(٧٥) سيرة ذاتية ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

اللامركزية التي عقد المؤتمر باسمها، كانت قد رأت أن تؤخر نشر صورة الاتفاق المذكور إلى حين تصديق مجلس الوكلاء العثماني عليه، وبما أن الحكومة العثمانية قد أعلنت رسمياً تصديقها على ذلك الاتفاق، فقد رأت اللجنة من اللازم نشر صورة الاتفاق المذكور ليطلع عليها الجمهور» (٧٦).

وقع على هذا الاتفاق طلعت بك وزير الداخلية في الحكومة العثمانية، وعبد الكريم الخليل رئيس المتدنى الأدبي ومعتمد الشبيبة العربية. وتضمن الاتفاق البنود التالية:

١ — يكون التعليم الابتدائي والاعدادي باللغة العربية في جميع البلاد العربية، كما يكون التعليم العالي بلغة الأكرية، وإنما يكون تعليم اللغة العثمانية إجبارياً في المدارس الاعدادية.

٢ — يشترط في رؤساء المأمورين بوجه عام أن يكونوا واقفين على اللغة العربية، أما سائر المأمورين فسيعينون من قبل الولاية. إلا أن الحكام ومأموري العدلية الذين يتولون أعمالهم بإرادة سنية سيعينون من المركز. وأما الولاة فيستثنون من القيد السالف الذكر.

٣ — إن العقارات والمؤسسات الوقفية المشروط صرفها إلى الجهات الخيرية المحلية، ستترك إلى مجلس الجماعات المحلية، على أن تدار من قبلها وفق شروطها الخاصة.

٤ — الأمور «النافعة» ستترك إلى الإدارة المحلية.

٥ — إن الأفراد العسكريين سيؤدون خدماتهم العسكرية في وقت السلم داخل البلاد العربية في دوائر مناطق الجيش التي ينتسبون إليها، إلا أن الجنود الذين لا بد من إرسالهم في الحالة الحاضرة إلى الحجاز والعسير واليمن، سيرسلون في جميع الولايات العثمانية ضمن نسبة معينة.

(٧٦) المقطم، عدد ٧٣٨٨، ١٥ جويه / تموز / ١٩١٣. عن زين زين، نشوء القومية، ص ١٠٣. والمؤتمر العربي، ص د-هـ، وساطع الحصري، نشوء الفكرة القومية، ص ٢٢١-٢٢٣. وعلي المحافظة، ص ١٥٥-١٥٦.

٦ — إن المقررات التي تتخذها مجالس المديريات العامة ضمن صلاحيتها القانونية ، ستكون نافذة على كل حال .

٧ — سيقبل كمبدأ أساسي ، أن يكون في الوزارة ثلاثة من العرب على الأقل ، كما أنه سيكون في الدوائر المركزية عدد مماثل لذلك من العرب بصفة مستشارين أو معاونين . وسيعتبر من الأسس المقررة ، أن يكون في كل من لجان المأمورين ، وشورى الدولة ، ومجلس المشيخة الإسلامية ، ومجالس سائر الدوائر المركزية ، إثنان أو ثلاثة من العرب . كما يكون في كل وزارة أربعة أو خمسة موظفين من درجات مختلفة أيضاً من العرب .

٨ — سيكون في الحالة الحاضرة خمسة ولاية ، وعشرة متصرفين من العرب . كما وأنه ستزال المغدوريات التي قد تكون لحقت بالموظفين العرب ، في الدوائر الملكية والعدلية والعلمية ، الذين لم يرفعوا بالنسبة إلى سائر زملائهم ، وأما فيما بعد فسيكون تعيين الموظفين وترفيعهم وتأديبهم وفق قانون خاص .

٩ — سيعين في مجلس الأعيان من العرب بنسبة اثنين عن كل ولاية عربية .

١٠ — سيعين في كل ولاية مفتشون متخصصون من الأجانب في الدوائر والمصالح التي تحتاج إلى ذلك ، وستقرر صلاحيات هؤلاء المفتشين وواجباتهم بنظام خاص يكفل الحصول على الفوائد الانضباطية والاصلاحية المطلوبة والمتنطرة .

١١ — سيسد النقص الموجود حالياً في ميزانيات الدوائر التي تركت إدارتها إلى الولايات عن طريق إضافة الموارد الكافية لميزانية الولاية ، وسيخصص نصف حصيلة ضريبة المسقفات إلى الإدارات المحلية ، على أن تصرف لأُمُور المعارف^(٧٧) .

لكن بنود هذا الاتفاق لم تنشر بتمامها في الآستانة ، كما نشرتها الصحف العربية أو المؤتمر العربي ، بل وردت ناقصة من بعض البنود الهامة ، وخاصة عن تعيين وزراء وولاة وموظفين عرب في الحكومة وأعدادهم . كما أغفل إعلان الحكومة التركية المتعلق

(٧٧) المؤتمر العربي الأول ، ص ٥٥ هـ . ونشرتها جريدة «Reveil» في ٥ أوت / آب / ١٩١٣ ، (انظر الملحق) .

باتفاق الاصلاح هذا، ذكر أي اتفاق مع طرف آخر هم العرب في المؤتمر في باريس . وجاء الإعلان في بلاغ نظارة الداخلية العثمانية في ٢٠ جويه / تموز / ، وذكر أن أسباب هذه الاصلاحات كان نتيجة مخبرات أجرت مع الولايات بشأن الاصلاح ، وتضمن خمسة بنود فقط عن الأوقاف ، والخدمة العسكرية ، في الولايات العربية والتدريس باللغة العربية في الابتدائي ، ويبقى اللسان التركي في المدارس الاعدادية ، ويحول إلى العربية في التدريس العالي ، إذا أمكن ، وعن تعيين الولاة والموظفين . وفي آخر توصية يبذل مزيد الاهتمام في العمل بمقتضى ذلك^(٧٨) . وفي ٢٣ جويه / تموز / نشرت صحف الآستانة إرادة سلطانية بشأن الاصلاح في البلاد العربية ، هو تكرار لبلاغ نظارة الداخلية . لكن بنوده أصبحت أربعة ، وبحث أمر إدارة الأوقاف والجندية والتعليم باللغة العربية ، وتعيين موظفين عارفين باللغة العربية . وكانت الإرادة السلطانية قد صدرت بناءً على قرار مجلس الوكلاء الذي أقر الاصلاحات المذكورة ، ولم يذكر أيضاً أي شيء عن المؤتمر العربي في باريس ، ولا عن الاتفاق معه^(٧٩) .

لا شك بأن الصيغة التي أعلنت الحكومة التركية بها الاصلاحات ، وحذفها الاتفاق مع العرب ، وحذفها لتعيين وزراء وولاة عرب ، وعدم ذكر المؤتمر الأول في باريس ، كان حفظاً لماء وجه الحكومة ، كي لا يقال أنها ضعفت وخشيت من المؤتمر العربي ، بعد أن رفضت منذ وقت قصير الاصلاحات نفسها ، لا بل أقل منها في الجمعية الاصلاحية في بيروت . ومع ذلك فقد اتهمت بهذا الضعف ، لكنها على الأقل لم تعترف صراحة بوجود كيان عربي يمثله أناس خارج مجلس المبعوثين ، أو خارج الإرادة السلطانية . والذي يثبت خوف الحكومة من اتهامها بالضعف ، أنها اشترطت ابقاء الاتفاق سراً « حتى لا يطالب أبناء العناصر الأخرى بشروط مماثلة . لكن رفيق العظم فضح الاتفاق ، ونشره بجريدة المقطم ، كما ذكرنا . ولذا أعلنت جريدة « طنين » التركية تكذيباً لخبر الاتفاق ، وقالت « إن الحكومة ترغب في إجراء الاصلاح لا عملاً

(٧٨) المنار ، ج ٩ ، م ١٦ ، جويه / تموز / ١٩١٣ ، ص ٧١٨ — ٧١٩ .

و F. O. 371/1845/ No 818 .

(٧٩) المنار ، ج ٩ ، م ١٦ ، جويه / تموز / ١٩١٣ ، ص ٧٢٠ .

بالاتفاق المزعوم، بل برغبة خالصة منها». وقد قابل العرب إعلان الإدارة السلطانية بالابتهاج، لكن الاصلاحيين لم يغتبطوا بالتعديلات الكثيرة والتحفظات التي وضعتها الحكومة^(٨٠)، كما ذكرنا أيضاً.

كان مؤتمر باريس في الحقيقة تنويعاً لنشاط حزب اللامركزية في مصر، والجمعية بيروت الاصلاحية، والجمعية العربية الفتاة من جهة سياسية، لكنه كان يعبر عن مرحلة لقاء هام في الاتجاه السوري المسيحي مع العربي القومي المسلم. لكنه هذه المرة كان على صعيد الواقع وليس على صعيد المبادئ والجمعيات. وفي هذا المؤتمر تنازل الطرفان عن التمسك بالمبدأ الديني — وإن كان تمسكاً ظاهرياً —، وبذلك أصبحت المعادلة الجديدة هي: الاتجاه العربي السوري الذي يمكن أن يرضي الطرفين في تلك المرحلة التي لا بد من التعاون بينهما، في الصراع ضد الاتحاديين الأتراك — غير الدينين أيضاً —، ولا بد من ذكر أمر هام وهو، أن أعضاء المؤتمر العربي في باريس، كانوا جميعاً من سورية، ما عدا اثنين مع أنهم أتوا من بلدان كثيرة، وهو بطبيعة الأمر يدل على بداية بروز القضية السورية من القضية العربية في فكر العاملين للقضية العربية، إرضاءً للعاملين للقضية السورية واللبنانية، تحت ضغط الظروف السياسية (الاتحادية) وسياسات الأجانب المرسومة. وجاء في كلمة الشكر التي وجهها عبد الحميد الزهراوي إلى بيشون وزير خارجية فرنسا عند نهاية المؤتمر معبراً فيها عن «كرم فرنسا، وعن الأمل بالأخوة بين المسيحيين والمسلمين، وبين السوريين واللبنانيين»^(٨١). هل كانت هذه قضية المؤتمر أم أنها أصبحت قضية وَحَلَّتْ بالأخوة!!! إن عبد الحميد الزهراوي نفسه، رئيس المؤتمر، يفسر الموقف الذي حدث في المؤتمر، في رسالة بعثها إلى صديقه رشيد رضا صاحب المنار، قال له فيها «كنت قد فصلت لكم إذ جئت باريس، كيف وجدت أمر مؤسسي فكرة المؤتمر فوضي، وكيف تعبنا في ستر الأمور وإيجاد المؤتمر مرونقاً بتوفيق من الله تعالى فوق المأمول، وبعد انقضاء المؤتمر تفرق الجمع

(٨٠) جريدة الأهرام، القاهرة، رقم ١٠٧٨٠، ١٥ أوت / آب / ١٩١٣، من سليمان موسى، ص ٤٠.

(٨١) D. F. Aff. Etr, vol. XX, 1 Jui 1913. P. 2.

الذي لفق تلفيقاً، ثم بعد قليل نفذ صبر البيروتيين، فذهبوا إلى بلادهم عن طريق استانبول، وبقيت ياعزيزي وحدي أمثل الفكرة، وبقي خليل زينية وأيوب ثابت، وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية ولا قطرة واحدة، حتى ولا من الجامعة السورية، وإن همهما بيروت وحدها لا شريك لها، ولكن لأنهما متعلمان سايراني وسائرتها، وتوادينا جيداً حتى سفري، ولم يكن مثل هذا التواد ولا ريعه بينهما وبين رفقتهما البيروتيين المسلمين، لو عجلت تلك الأيام ورجعت على الفور إلى مصر، لبقيت المسألة مقطوعة ببراء، ولكن استهزاء الأفراد والجماعات والأقوام بأشخاصنا وجماعتنا وقومنا، لكن الله عز وجل سلم من هذا....» (٨٢).

بعد صدور الإدارة السلطانية بالاصلاحات — رغم بترها لكثير منها — ساد بين العرب والترك جو صافٍ، وعلاقات حميمة، وأخوة صادقة بين المبعوثين العرب وبين المسؤولين الأتراك، بدءاً من السلطان محمد رشاد، وولي عهده إلى الوزراء وباقي الموظفين، وأقيمت الحفلات، وألقيت الخطب الرنانة في تمجيد الوحدة بين العرب والترك. واستقبل الصدر الأعظم وفداً عربياً، كان فيه الشريف علي حيدر وعبد الكريم الخليل في ٥ آب / أوت / ١٩١٣، عبر فيه الصدر عن سروره بزوال سوء التفاهم بين العرب والترك، وعن نيته بتحسين الأحوال الاقتصادية في الولايات العربية، وتوفير السعادة للعرب «أخلص الشعوب للخلافة في الامبراطورية العثمانية، وشكر عبد الكريم الخليل الصدر ورجاه الاسراع في تحقيق الاصلاحات. وفي مسار نفس اليوم أقام الاتحاديون مأدبة عشاء في فندق توقيتليان، حضرها خمسون رجلاً من كبار الترك، منهم طلعت باشا، وجمال باشا، وأنور باشا (٨٣). وفي نفس الشهر الطيب أوت / آب /، وصل إلى استانبول ثلاثة عن المؤتمر العربي السوري في باريس وهم «سليم علي سلام، والشيخ أحمد حسن طباره، وأحمد مختار بيهم لدراسة الوضع والاصلاحات بين العرب والترك، فاستقبلهم السلطان محمد رشاد في ٢٣ منه، وشكره الوفد لتكرمه

(٨٢) المنار، ج ٣، م ١٩، أوت / آب / ١٩١٦، ص ١٧٥ — ١٧٦.

(٨٣) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، القاهرة، بلا تا (بعد ١٩٥٧) ص ٦١ — ٦٢. وزين زين، نشوء القومية العربية، ص ١٠٣.

باستقبالهم، وعبروا له عن محبة العرب وإخلاصهم للعرش، ووعدهم السلطان بأنه سيفعل كل جهده لتحسين الأوضاع في الولايات العربية. وأقامت جمعية الاتحاد والترقي في نفس اليوم مساءً مأدبة دعت إليها أعيان الترك والعرب، بمن فيهم الوفد العربي المذكور، وجميع الوزراء. وتكلم عبد الكريم الخليل والشيخ أحمد طباره، وأعربا عن إخلاصهما ومحبتهما «للهلال العثماني»، وتكلما عن ضرورة توثيق عرى الأخوة بين العرب والأتراك، وعن وجوب تحقيق الوعود بالاصلاح التي قطعها الأتراك على أنفسهم (٨٤).

(٨٤) «.... وفي ٢٧ أوت / آب / زار أعضاء الوفد ولي العهد، فقابلهم بعطف وحفاوة عظيمين، وخطب سليم سلام بالتركية معرباً عن تعلق العرب بسموه لما يسمعون عنه عن محبته لهم. ثم عقبه عبد الكريم الخليل، فتكلم بالمعنى نفسه، وخطب أحمد طباره بالعربية، فاستهل كلامه بـ: أحاطب سموكم بلسان عربي مبين، لسان القرآن الكريم والنبي العربي العظيم القائل «من أحب العرب فيجب أن يحبه»، وقال «إن ما سمعته عن حب سموه للعرب تحققه هو الآن بنفسه، وتمنى لو يزور سموه سورية، فشكر سموه للوفد هذه العواطف شكراً جزيلاً، ووعد بأن يبذل قصارى جهده لاصلاح الحال في البلاد العربية.

«وأولت جمعية الاتحاد والترقي في مساء يوم الأربعاء ٢٧ أوت / آب / وليمة شائعة للشبيبة العربية، دعت إليها وفد الاصلاح وجميع الوزراء العثمانيين، وبعض عظماء الترك والعرب في الآستانة، ولما فرغوا من الطعام، وقف فتحي بك، فتكلم باسم جمعية الاتحاد والترقي قائلاً ما ترجمته «في اجتماع مضى كهذا الاجتماع، تبودلت عواطف السرور بالاتفاق الذي تم بين العرب والترك، فأعيد الآن ما أبديته من السرور في ذلك الاجتماع، أمام أعضاء وفد المؤتمر العربي المؤلف من سليم أفندي سلام، والشيخ أحمد طباره، ومختار بك بيهم، وأشكر لهم مساعيهم الحميدة، وغیرتهم الصادقة، وأرجو أن يكون لهذا الاتفاق مقدمة عهد سعيد للأمة والدولة...».

ورد عليه عبد الكريم الخليل بكلمة طيبة، ثم تلاه الشيخ أحمد طباره فتكلم باسم وفد المؤتمر.... وقال في الختام:

«ويتساءل فريق من الناس.... أيها السادة، قائلين: أتظهر الحكومة هذه الاصلاحات من حيز الوعود إلى عالم الوجود...، فالذي أراه، أنه ليس من مصلحة الدولة البر بالوعد فقط، بل أن تسبق أعمالها أقوالها من الآن، وأن تعتمد على الله وعلى نفسها وعلى الأمة في إنجاح الوطن، فتصبح الأمة العثمانية على اختلاف مذاهبها يداً واحدة في انهاض الوطن وإسعاده، ولنا في عظيم استعداد أنبائنا خير كفيل للنجاح في أقرب آن..».

زين زين، نشوء القومية العربية، ص ٢١٣، عن مذكرات أسعد داغر، ص ٦٣—٦٥.

انشقاق بين العرب

لم يكن اتفاق المؤتمر العربي في باريس مع الحكومة نهاية للخلاف بين الطرفين ، لأنه من الأساس ، لم يكن المؤتمر يمثل كل العرب ، ولم تكن الحكومة صادقة النية لتحقيق هذا الاتفاق ، لأنها قبلته مرغمة بعد أن شهرت به كثيراً ، كما مر معنا ، لكن العلاقات سارت بشكل مدارات من كل طرق نحو الآخر حتى الحرب العالمية الأولى ، مع ظهور بوادر هامة للخلاف بشكل غير مباشر ، كانت تأتي أيضاً من قبل أطراف عربية أخرى ، إضافة إلى المؤتمر نفسه . ففي خلال شهر الاحتفالات بين العرب والترك أوت / آب / ١٩١٣ ، كانت جمعية البصرة الاصلاحية في طريق التكوين برعاية طالب باشا النقيب ، عضو في مجلس (المبعوثين) ، وأحد زعماء حزب الحرية والائتلاف . لكن كما يبدو كانت هذه الجمعية الهامة في العراق تختلف في فكرها عن الجمعيات السورية ، أو عن المؤتمر السوري من ناحية المبدأ ، لأنها ظلت تحمل الاتجاه العربي الاسلامي ، بينما تبلور الاتجاه السوري (المسلم — المسيحي) في مؤتمر باريس إلى عربي سوري . والسبب هو كثرة المسيحيين في سورية بالنسبة إليهم في العراق . فمن المبادئ التي طالبت بها جمعية البصرة :

- ١ — العراق أرض عثمانية تحت الهلال .
- ٢ — لا امتيازات للأجانب .
- ٣ — تركيا دولة عثمانية تحت سلطة الخليفة ، وليست الامبراطورية .
- ١٨ — اللغة العربية لغة رسمية في القضاء .
- ١٩ — تشتق القوانين (حسب الامكان) المدنية ، وقوانين العقوبات ، من الشريعة .
- ٢٤ — تعليم العلوم والفنون بالعربية .
- ٢٧ — منع البغاء بين النساء المسلمات^(٨٥) .

(٨٥) رسالة من سفارة بريطانيا في استانبول (مارلنغ) عن تفصل بريطانيا في البصرة .

F. O. 371/1845, No 818, 25 Sep 1913.

جاء في بنود جمعية البصرة البنود الأخرى التالية :

٤ — تفويض الأمور إلى السلطنة وفروعها .

وقد لاحظ ذلك الخلاف الاتحاديون، وخاصة طلعت وزير الداخلية، وأخذ يستغله لإيقاع الفرقة في الاتجاه العربي، ما بين الإسلامي لجمعية البصرة، والمسيحي-الإسلامي، للمؤتمر العربي السوري في باريس. وقد كتب بذلك قنصل بريطانيا في البصرة إلى السفير البريطاني في الآستانة فذكر «فراح طلعت بك مع بعض الأتراك من جمعية تركيا الفتاة يوغرون صدور أعضاء هذا الوفد (البصراوي) ضد الوفد العربي السابق، قصد إيقاع الشقاق بينهما، على أساس طائفي، أي شطرهما إلى مسلمين ضد مسيحيين». كما أن وفد البصرة طالب بإصلاحات أوسع من التي اتفق عليها الاتحاديون مع مؤتمر باريس. وكان خلافه مع الاتحاديين ليس نابعا عن اختلاف وجهات النظر عن الإصلاحات، ولا هو عن روح انفعالية، بل عن كره

-
- ٥- ينفذ الوالي قرارات الحكومة.
- ٦- ينتخب نائب عن كل ١٢٥ ألف في الولاية.
- ٧- المجلس العام له حق مناقشة كل شيء.
- ٨- له حق زيارة الشرطة والدرك.
- ٩- ينتخب لجنة من أعضائه.
- ١٠- تنفذ اللجنة القرارات للمجلس.
- ١١- تعود أموال الوقف للمجلس.
- ١٢- توزع أراضي الدولة على الناس والقبائل.
- ١٤- يخاسب الموظفون عن طريق الوالي، ثم يرفع إلى المجلس الأعلى للولاية.
- ١٥- يعين ويسرح الموظفون حسب قرار المجلس، وللوالي حق التسريح إذا حصل على $\frac{2}{3}$ الأصوات.
- ١٦- تعود أموال الجمارك والبريد للحكومة المركزية.
- ١٧- تأسيس قضاة للصالح.
- ٢٠- تأسيس محاكم استئناف مدنية.
- ٢١- تعيين مفتشين للمحاكم المدنية يعرفون العربية وعادات البلاد.
- ٢٢- يخدم المجتهدون في مناطقهم في حالة السلم.
- ٢٣- يخدم الضباط الذين يعرفون العربية في مناطق عربية، حتى لا يحدث سوء بينهم وبين الناس.
- ٢٤- تعلم العلوم والفنون بالعربية.
- ٢٥- يستثنى المزارعون من الخدمة العسكرية لمدة عشرين سنة والبنّاؤون لمدة ثلاثين سنة.
- ٢٦- ينظم المجلس العام كل شيء ليكون دليلاً في كل دوائر الدولة. Ibid.

للاتحاديين^(٨٦). ومن هذا الاتجاه تأسست جمعية العهد بقيادة الضابط عزيز المصري في ٢٨ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٣. لأن هذه الجمعية اعتمدت على العسكريين، وكان العراقيون يشكلون الغالبية منهم، وكانت جمعية العهد ذات طابع عراقي، مثلما كان الجمعيات الأخرى كالفتاة ذات طابع شامي. ويقول نوري السعيد الضابط العراقي وأحد مؤسسي جمعية العهد، بأن الجمعيات العربية لم يكن هدفها غير الإصلاح وإدارة لامركزية، ولم ترد الانفصال عن الدولة العثمانية، لأن رجال هذه الجمعيات كانوا على علم بمطامع أوروبا في الدولة العثمانية، ولقناعتهم بأن العرب ليست لهم القوة التي تمكنهم من تأسيس حكومة عربية مستقلة، والمحافظة على كيانها^(٨٧). وكان الخوف من مطامع أوروبا أحد الأسباب الهامة في الاختلاف بين الاتجاه العراقي الراض لها، وبين الاتجاه العربي السوري المطالب بالمستشارين الأجانب: «مع وجود فئة من العراقيين ممن كانت تشارك في إدارة العراق وممن كانوا يدرسون في استانبول، من الطلاب، ومن يتعاونون مع الحكومة، كانت هذه الفئات راضية عن اتفاق الاتحاديين مع السوريين — حسب تقرير من قنصل فرنسا العام في بغداد — واعتباره كافياً، بينما عبر فريق آخر بريقة فيها إنذار بوجود تطبيق اللامركزية التي تسري في روح العراقيين^(٨٨). وإذا كان خلاف الاتجاه العربي — البصراوي — عن مؤتمر باريس السوري، قد تأيد باتجاه لامركزي عربي في جمعية العهد التي تقول بوجود تحويل الدولة العثمانية إلى قسمين: عربي وتركي تحت التاج العثماني، فإن مؤتمر باريس السوري نفسه، كان قد تأثر هو ذاته باتجاه معاكس آخر، هو اتجاه لبناني انفصالي عن الدولة العثمانية، بل ربما عن البلاد العربية. إذ تأسست جمعية النهضة اللبنانية في بيروت، وكان مؤسسوها فيليب الخازن، ودعبيس المر، وخليل زينية، ويوسف الغليون. وكانت لها شعبات في باريس برئاسة شكري غانم، وفي مصر برئاسة اسكندر عمون، وفي أمريكا برئاسة نعيم المكرزل، وكان معظمهم من الأعضاء البارزين في لجنة بيروت الإصلاحية،

(٨٦) من مارلنغ في استانبول عن البصرة. F. O. 371/1845/ No 818, 25 Sep 1913.

(٨٧) مذكرات نوري السعيد، ص ٧.

(٨٨) D. F. Aff. Etr, vol. XX, 9 Sep 1913. P. 49.

وفي مؤتمر باريس . وكانت غاية الجمعية تكبير لبنان ، وضم مناطق مجاورة له ، وتأسيس حكومة لبنانية مستقلة فيه تحت حماية فرنسا . وقد لعب أفراد هذه الجمعية دوراً هاماً كواسطة بين الأطراف الكثيرة ، حتى تم عقد مؤتمر باريس (٨٩) .

ظل العرب والاصلاحيون يلاحقون الحكومة التركية من أجل تنفيذ الإصلاح ، وكان المتشككون منهم ، كشكري العسلي ، لا يصدقون أن الاتحاديين سيعطون للعرب أيّاً من حقوقهم في اللامركزية ، والوظائف ، واستعمال اللغة العربية . ولم يكن قد مضى وقت طويل على شهر جوييه / تموز / الذي اتفق الاتحاديون فيه مع مؤتمر باريس عندما بدأت تلك الملاحقات العربية . ففي مقابلة لشكري العسلي مع قنصل فرنسا في دمشق ، انتقد العسلي بمرارة الحكم التركي ، وطالب بتنفيذ الإصلاح ، وشكا من أن القروض التي حصلت عليها الدولة من فرنسا ، ستستخدمها لشراء المدافع والبواخر والأسلحة ، وأن الأتراك متى أصبحوا أقوىاء ، فإنهم سوف يكمنون أفواه العرب ، ويلقمونهم حجراً ، وأن عداؤهم لمؤتمر باريس هو الذي جعلهم يعترفون ، ويعتمدون على أتباعهم ، وخاصة في دمشق ، لكنهم (الاتحاديين) اضطروا إلى أن يساموا مؤتمر باريس على الإصلاح ، لكن لم يتحقق حتى الآن شيء من ادعاءاتهم (٩٠) . — كانت تلك المقابلة حجة جمال باشا لشنق العسلي —

وفي استانبول ، طالب عبد الحميد الزهراوي الذي وصل إليها في أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٣ بتنفيذ الإصلاح . ودخل في مباحثات جديدة مع مدحت شكري (٩١) . قد تكون تمخضت عن موافقة الاتحاديين بتوظيف بعض الشخصيات العربية في المناصب العليا ، ومنهم عبد الحميد الزهراوي . وفي القاهرة أعلن حزب اللامركزية العثماني بياناً مطولاً ، فيه خلاصة مطالب العرب « العثمانيين » في الدولة ، وبين

(٨٩) عزيز بك ، ص ٢٧٦ — ٢٧٨ عن تقرير للسفير العثماني في باريس رقم ٧٣٨ في مايو / أيار / ١٩١٣ .
والمناظر ، ج ٨ ، مجلد ١٧ ، يوليو / تموز / ١٩١٤ ، ص ٦١٨ — ٦٢٣ ، وانظر ، ناصيف أبي زيد ، العصر الديموي ، ص ١٠٢ .

(٩٠) D. F. Aff. Etr, vol. XX (1913) 19 Aout. P. 49.

(٩١) مجلد الحرب العظمى ، ج ٢٥ ، ص ٢٩ .

فيه نقض الدولة لاتفاق باريس، لأنها لم تف بوعودها، وأصدرت بياناً يخالف في كثير من وجوهه ما جاء في الاتفاق. وأن العرب المخلصين الذين تظلمهم راية الهلال العثماني لا يمكن إلا أن يريدوا لها البقاء، ولا يكون ذلك إلا بحكم الإدارة اللامركزية الواسعة التي صدق السلطان على مطالب العرب الاصلاحية فيها (وعددها بنقصها). وأرسل الحزب البرقية التالية إلى الصدر الأعظم:

«اليوم تظهر لكم الأمة العربية رأيها وإرادتها بالبرق من كل جهة، وتطالب بلسان أهل الرأي فيها بإعلان اللامركزية الإدارية الواسعة في كل ولاياتها. فلجنة حزب اللامركزية بمصر، تنهي إلى فخامتكم أنها تؤيد هذا الطلب الحق بكل قوتها، راجية من حكمة حكومتكم إحلال رأي الأمة الموافق للشرع والدستور محل الاعتبار والقبول»
رئيس حزب اللامركزية بمصر
رفيق العظم^(٩٢).

وذكر البيان تحت فقرة: صفوة القول وخلاصته «أن كل أهل الولايات العربية يطلبون اللامركزية الواسعة... ولا ينافي اتفاقهم العام بعض المطالب الخاصة المختلفة لبعض الجمعيات، كطلب جمعية بيروت الاصلاحية أموراً مخالفة لبعض مطالب جمعية البصرة مثلاً...، فطلاب الاصلاح كلهم إل ب واحد، وكلمتهم واحدة، والأمة كلها معهم تشد أزهرهم، وتنبذ من يخالفهم نبذ النوى. ولا يمكن أن تسكن هذه الحركة، وتسكت الأحزاب والجمعيات عن الصراخ أمام الأمة والحكومة، بالتلهي ببعض قشور المطالب، وما هو مطلوب منها في المرتبة الثانية، أو ما هو منها بمنزلة القروع من

(٩٢) المنار، ج ١١، م ١٦، نوفمبر ١٩١٣، ص ٨٤٩—٨٥٨.

جاء في البيان تحت عنوان «مظاهر العرب السلمية اليوم» «تشعر حكومة العاصمة بما تنبض به قلوب العرب العثمانيين في مشارق الأرض ومغاربها— في هذا اليوم تستوي الشمس على كرسياها في القبة الزرقاء— وفخامة الصدر الأعظم مستو على كرسية في الباب العالي، ووفود طلاب اللامركزية من العرب واقفون في إدارات البرق (التلغراف) في سورية وفلسطين والجزيرة العربية والعراق، وفي أوروبا، وأمريكا، بخاطبون فخامتكم عن برهان الأمة العربية على شدة إخلاصها لدولتها....».

نفس المصدر، ص ٨٥٧.

الأصول. وذكرت من جديد بمطالب العرب، وبنتها هذه المرة على مطالب الحرية، وهي:

- ١ — حرية الشعب في هيئاته النيابية (في انتخاب مجلس المبعوثين).
- ٢ — حرته في أمور المعارف (باللغة العربية).
- ٣ — حرته في أمور النافعة، والشؤون الاقتصادية، بأن تكون بأيدي المجالس المحلية.
- ٤ — اعتبار اللغة العربية رسمية في جميع الولايات.

وجاء في نهاية البيان إنذار للحكومة العثمانية إذا لم تحقق هذه المطالب، فإن العرب، مالم يأخذوه بسلام، قد يأخذوه بغير سلام..

«فمتى نالت الأمة هذه الأصول السياسية، تساهلت فيما عداها.... وإلا عملت كل ما في طاقتها للوصول إلى حقها، في إحياء لغتها، والحياة بها، وإحياء أرضها والتمتع بخيراتها، ومنافعتها، ومن أراد الحياة الشريفة الطيبة لا يلام، وإذا سعى لها سعيها نالها بسلام أو غير سلام، ومتى أرادت الأمة فعلت، ومتى سارت وصلت، وتلك سنة الله في جميع الأمم، ولن تجد لسنة الله تبديلاً»

في ٩ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٣

القاهرة^(٩٣).

أما في سورية، فكانت تجري الأمور بترقب تنفيذ الإصلاحات، وكانت الأحداث الصغيرة أو الكبيرة لا تنتهي، والاستفادة من حرية الدستور أدخلت طابعاً جديداً في حياة العمال والموظفين، وهو الاضراب للمطالبة بأي شيء، أو الاعتراض على أي شيء. فعمال النسيج في حلب أضربوا بسبب قلة رواتبهم، والطريف في اضراب آخر، هو إضراب المؤذنين في حلب، لأن المجلس البلدي أصدر قراراً يحتم عليهم لبس البنطال (البنطلون)^(٩٤). وكان الولاة يأتون ويذهبون بعد قضاء فترة قصيرة، لا يستطيعون من خلالها أن يفعلوا شيئاً حتى لو أرادوا، فهذا علي منيف بك،

(٩٣) المنار، ص ٤٥٨.

(٩٤) وثائق حلب، ص ١٠٦ (حوادث أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٣).

ينقل من حلب إلى بيروت بعد قضاء ثلاثة أشهر في حلب، «لم يأسف أحد على نقله، لأنه لم يعمل شيئاً يذكر به خلالها». والشيء غير المستحب الذي فعله، حتى ذكره الأب فرديناند توتل اليسوعي بهذا الكلام، أنه جمع مجلسي الإدارة والبلدية والمنتخبين الثانويين للمبعوثين، وكان عدد الأعضاء ٥٧، منهم أربعة مسيحيين فقط، ولم ينتخب أحد منهم، «مما أثار استياءهم»، حتى نعت هذا الوالي بأنه ضد المسيحيين، بينما كان الذي قبله غالب بك، لا يتكلم إلا بالتركية، مع أنه يفهم اللغة العربية^(٩٥). وكان يجري في حلب صراع بين مؤيدي الإصلاح العربي^(٩٦) وخاصة من المسيحيين، وبين المسلمين الذين كانوا يعتقدون، أن الإصلاحيين عملاء للأجانب، مثلما كان يجري في بيروت. ولم يكن من شيء يجري في حماه وحمص وحوران، إلا غارات البدو المتكررة، وسرقة الأغنام، وعجز الحكومة عن قمع تلك الحركات التي كانت تجري أمام أنظار المسؤولين، وحتى ضد التجار من الهنود الانكليز. وكانت الحكومة ترسل المفتشين من القضاة من منطقة إلى أخرى، بسبب كثرة الجرائم والفساد بين الموظفين، وكانت تتخذ الأحكام بطرد الفاسد، لكن لم يكن الجدد أفضل من السابقين، وظل الفساد مستشرياً^(٩٧)، ولم تكن الدولة قادرة دائماً على سوق الحملات العسكرية، كحملة سامي الفاروقي ضد الكرك التي عادت وأصبحت، مسرحاً لكثير من عمليات النهب والقتل.

وفي بيروت، وقف واليها الجديد على منيف صامتاً تجاه الطلبات القديمة الإصلاحية. وكان يجب بأنه «سوف يرى ما يعمل»^(٩٨)، وكان ذلك خلال انعقاد المؤتمر السوري في باريس. وبعد اتفاق الحكومة مع هذا المؤتمر، نقل علي منيف، وحل محله وإل جديد وهو بكر سامي بك (وهو شركسي كان والياً على البصرة)، وهو رقم

(٩٥) نفس المصدر، (حوادث ففريه / شباط / ١٩١٢ ويناير / ١٩١٣) ص ١٠٣، ١٠٥.

(٩٦) «أهان بعض الرعايا شركسي كنيدي صاحب جريدة التقدم، المعارضين لمبدئه، في الدفاع عن العرب

وحقوقهم». نفس المصدر، حوادث يونيو / تموز / ١٩١٣، ص ١٠٦.

(٩٧) F. O. 371/1844/ No 42, 10 Jui 1913.

(٩٨) Ibid, 371/1775/ Jui 1913, P. 509.

٢٥ من الولاة في بيروت خلال خمس سنوات. وكان نقله إلى بيروت نتيجة الاتفاق المذكور. وعند وصوله إلى بيروت في أكتوبر / تشرين الأول /، افتتح حديثه بالعودة إلى الخليفة والخلافة ليشد العرب إلى الأتراك^(٩٩). ووصفت جريدة (Reveil) لسان النادي الاصلاحى خطاباه لدى قدومه، بأنه « كان خروجاً عن الابتذال المعتاد، لمثل هذا النوع من الخطابات المعروفة. جاء في خطاب بكر سامي بك « أنه يحمل لسكان سورية من كل المذاهب، تحيات الخليفة الذي قابله عند قدومه، وأن الخليفة يعبر عن ثقته بتعلق السوريين بالخلافة والوحدة العثمانية، وأنه لا يشك لحظة واحدة بإخلاصهم العميق. وأن الحكومة لا تنسى البيروتيين، وسوف تنفذ الاصلاحات، التعليم باللغة العربية، وإنشاء مدرسة للعلوم تدرس أيضاً باللغة العربية، وسوف تنقل معهد الحقوق من سالونيك إلى بيروت. أما بلدية بيروت، فقد وجدها متعبة لا تليق خدماتها بمدينة جميلة كبيروت، وسوف يعمل من أجلها، وطلب منهم المساعدة والتضحية مع الحكومة من أجل ذلك. ووعد بأن يكون الموظفون المحليون عارفين اللغة العربية، ووعد شخصياً بأن يتكلم العربية إذا بقي في بيروت، وسيجبر كل الموظفين من مساعديه كي يفعلوا مثله^(١٠٠) ».

وظلت علاقة العرب بالاتحاديين أواخر عام ١٩١٣ وأوائل ١٩١٤، علاقة صداقة ظاهرية، فيها تودد من الاتحاديين، ومماطلة في تنفيذ كل الاصلاحات. وكان زعماء الاتحاديين يزورون المنتدى الأدبي، ويلتقون مع الزعماء العرب، ويدون تعلقهم بهم، ويدارونهم. ونشرت جريدة، «طنين» أن الاتحاديين عادوا عن سياسة التتريك، بعد اتفاقهم مع جمعية الشبيبة العربية، التي يمثلها المنتدى الأدبي في الآستانة، وأشبهوا هذا الاتفاق بالاحتفالات والمآدب. وقد حضر طلعت وجمال احتفال المنتدى بالمولد النبوي الشريف، (وكان في فقري / شباط / ١٩١٤) ووعد طلعت بك أن يخطب في

(٩٩) Ibid, 371/1848/, 29 Oct, 1913, PP. 5-6.

(١٠٠) Reveil, 11 Octobre 1913, Beyrouth (en) F. O. 371/1848/ P. 8.

المكان نفسه في العام القادم، باللغة العربية، وطلب باستمساك الترك بالعرب، وأنهم إذا فروا يتبعونهم ويلتزمونهم، وقد سر العرب بذلك^(١٠١).

أما الإصلاحات التي طبقوها، فكانت أن أسسوا في مراكز الألوية والولايات في سورية، مدارس تجهيزية تدرس العلوم العربية، وإلى جانبها المدراس القديمة التركية في كل مظاهرها. ووضعت الصيغ العربية إلى جانب الصيغ التركية في أوراق الجلب إلى المحاكم، وأخذت الحكومة تقبل الشكاوي باللغة العربية. وعين بعض رجال الشام في الوظائف العليا^(١٠٢)، وعين خمسة من العرب في مجلس الأعيان، وكان منهم عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر. أما عن الولاة والوزراء العرب، وبقيّة الإصلاحات، فلم تنفذ. واستطاع الاتحاديون أن يشقوا العرب ويثيروا بينهم الخلاف، بتعيين الخمسة في مجلس الأعيان، لأن ذلك مخالف لقرارات مؤتمر باريس التي توجب رفض قبول المناصب في الدولة، ما لم تحقق كل الإصلاحات على أساس اللامركزية. ولما كانت تلك الإصلاحات لم تتحقق، لذا عدّ قبول هؤلاء للمناصب خروجاً على اتفاق الإصلاحيين العرب، وترك تعيين الزهراوي صدى غير مستحب، مع أنه قبل بالمنصب بعد رضى حزب اللامركزية في مصر. وأدى الخلاف هذا إلى فتور في النشاط والاستبشار الذي بدا فترة من الزمن، كما قال عزة دروزة^(١٠٣). وأخذت الجرائد العربية تنهزاً بمن يسافر إلى الآستانة، وتنتعه بأنه ذاهب لطلب منصب أو وظيفة. وقد ذكرت مجلة الإخاء — حماه — أن «عبد الغني العريسي صاحب جريدة فتى العرب، وطه مدور صاحب الرأي العام، ذهبا إلى الآستانة للإصلاح أم للحصول على الوظائف! نرجو ألا يرجعا خائبين، لأنهما أحدثا بأقلامهما ضجةً وقرقعةً»^(١٠٤). ودافع عبد الكريم الخليل في اجتماع في ٧ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٢ في الآستانة في (بك أوغلو)، عن قبول الزهراوي للمنصب، بسبب أطماع الأجانب واستغلالهم فرصة الخلاف بين العرب

(١٠١) المنار، ١٧م، ج ٧، جوان / حزيران / ١٩١٤، ص ٥٣٦.

(١٠٢) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٣، ص ١٣٠.

(١٠٣) حول الحركة العربية الحديثة، ج ١، ص ٤١.

(١٠٤) مجلة الإخاء، حماه، ج ٤، جوييه / تموز / ١٩١٤، ص ٢٨٠.

والترك^(١٠٥). ودافع رفيق العظم عن تعيين الزهراوي، وقال إن دخول بعض العرب الوظائف العثمانية هو تسهيل للتفاهم، وكان يرد على الجمعية السورية في نيويورك التي اعترضت على دخول بعض العرب المناصب التركية^(١٠٦). وكانت وجهة نظر الزهراوي «أنه إذا أحجم المخلصون، حل محلهم المنافقون وطلاب المنافع». وأرسل كتاباً إلى رشيد رضا يرر قبوله المنصب. قائلاً «أخوكم عين بعون الله وعنايته، عضواً لمجلس الأعيان، فبشروني بأنكم راضون عن قبولي بها، والله يشهد أنني إنما قبلت لاتمام العمل، وتعلمون قلة الرجال عندنا يأخني. يعترض بعض المعجلين، فالأمر في هذا متروك لحكمتكم وهمتكم، بل أرى أن تقديم شكر للصدارة يكون مؤيداً لاتمام العمل، ومن الله سبحانه التوفيق»^(١٠٧). أما رشيد رضا، فكان رافضاً معاتباً للزهراوي على عمله وقبوله المنصب، لكن أمام الأمر الواقع الذي فرض الزهراوي فيه منصبه على حزب اللامركزية دون استشارتهما، وافق رشيد رضا والحزب على أن يمضي في هذه التجربة، وألا ينضم إليه أحد من المقيمين خارج المملكة. وكان رأي رشيد رضا بعمل الاتحاديين هذا، «أن جعله من الأعيان، هو أحبولة يريد بها الاتحاديون اصطلياد المخلصين من طلاب الإصلاح في خارج المملكة، ليفتكوا بهم، بعد جلبهم إليهم جملة واحدة، وإن وجوده وحده (الزهراوي) هنالك وإق له وفيه فوائد، منها أنه تجربة للاتحاديين وحجة عليهم»^(١٠٨)، وقد أثبت الضجة حول قبول الزهراوي فقط، لأنه الوحيد ممن عين من العرب في مجلس الأعيان من أعضاء مؤتمر باريس، أو رجال العرب

→ حكمت محكمة بداءة بيروت على محمد الناطور، مدير جريدة المفيد، لأنه نشر رسالة عنوانها «كتاب السباب والشتم، يعبر بها أحد جنباء الآستانة، ليسب بها أصحاب الجريدة. وادعت المحكمة أن الجريدة حققت العرب (كذا)، ولهذا غرم بعشرين ليرة، وسجن شهر، ثم أنشأ صاحبها الجريدة عبد الغني العريسي وفؤاد حنتش جريدة باسم فتى العرب.

مجلة لغة العرب، بغداد، ج ٧، م ٣، جانفي / كانون الثاني / ١٩١٤، ص ٣٨٧.

(١٠٥) مجلة الأسرار، ص ١٥. (كان تعيين الزهراوي في ٢ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٤).

(١٠٦) مجلة الحرب العظمى، ج ٢٦، ص ٧-٦.

(١٠٧) المنار، ج ٣، م ١٩، أوت / آب / ١٩١٦، ص ١٧٤.

(١٠٨) نفس المصدر، ص ١٧٤.

الاصلاحيين، بينما كان الأربعة الآخرون غرباء عن الحركة القومية. وكان عبد الحميد الزهراوي شبه يائس من حركة العرب نحو الإصلاح، وأنهم لم يصلوا إلى النهوض والاستعداد الكافي لذلك، وهذا ما شجعه على قبول المنصب. وله رأي «غير حسن في الاصلاحيين وعرب الشام والعراق عامة». ولا بد أنه كون هذا الرأي بعد أن قارن العرب في داخل نفسه «بالاتحاديين أولياء الأمور مباشرة، وأصحاب السلطة المتسلمين بعزائم شديدة ماضية، والناوين نية قاطعة، أن يجددوا شباب الدولة، بقدر ما تسمح به الظروف، ويشتهون أن يخلص إليهم العرب، ويساعدهم فضلاؤهم في هذا السبيل». وهي مقارنة حاكم بمحكوم — دون تكافؤ^(١٠٩).

عودة العلاقات السيئة

والمهم أن الاتحاديين خرجوا منتصرين في صراعهم مع العرب، أو مع الاصلاحيين المنشقين على أنفسهم، وربما كانت هي خطتهم بالأساس التي نفذوها في اتفاقهم مع أعضاء مؤتمر باريس، وشجعهم ذلك على المضي بسياستهم الاتحادية، مع إظهارهم الدائم تقربهم للعرب. ونفذوا خلال هذه الفترة وحتى إعلان الحرب العالمية الأولى، ثلاثة أمور خطيرة، أعادت علاقتهم مع العرب إلى وضعها السيء كما كانت قبل التصالح، وهي:

أولاً — اعتقال الضابط عزيز علي المصري، وقد حدث في شهر ففريه / شباط / ١٩١٤، أي بعد شهر من تعيين الأعضاء العرب الخمسة في مجلس الأعيان. ولعل الاتحاديين كانوا قد أحسوا بتأسيس جمعية العهد، لكنهم لم يكونوا متأكدين من علاقة عزيز المصري بها، لأنهم لم يتهموه بذلك. وكانت التهمة الموجهة إليه، هي تهمة لا أخلاقية عن سرقة أموال الجيش التي سلمها إليه أنور في برقة في ليبيا، وأنه سلم برقة للإيطاليين مقابل رشوة، وأنه سعى إلى إقامة مملكة عربية في شمال إفريقيا. أما هو فقد كان عضواً في جمعية الاتحاد والترقي، حتى تبين سياستها المعادية

(١٠٩) نفس المصدر، ص ١٧٧.

للقومية العربية، فتعاون مع زميله الضابط سليم الجزائري، وشكل الجمعية القحطانية ذات الأهداف العربية، وأرسل للحرب في اليمن سنة ١٩١٠ حيث بذل جهداً كبيراً حتى أتم الصلح بينها وبين الدولة^(١١٠). وقد ذكر له فضله وجميله قائد فرقته الميرالاي إحسان بك في اليمن^(١١١)، ثم حارب ضد الغزو الإيطالي في ليبيا، وأبلى بلاءً حسناً، ولما عاد إلى استانبول بعد مؤتمر باريس، ورأى مؤامرات الاتحاديين وعزوفهم عن تحقيقات الإصلاح، أسس جمعية العهد حتى سجن. وأثار سجنه مشاعر العرب في مصر وسورية والبلاد العربية، وشغل الجرائد العربية والأوروبية، ودعا شيخ الأزهر لاجتماع عام حضره ألوف المصريين، وخطب المحامون وأثنوا على عزيز المصري وعلى خدماته للدولة — وكان من الخطباء رفيق العظم — وأرسل الجميع بريقة للصدر الأعظم، فأجاب أنور باشا ناظر الحرية، بأن المجلس الحربي مستقل تمام الاستقلال، لا يطرأ عليه أقل تأثير^(١١٢). وذهبت الوفود المصرية إلى لورد كتشتر المعتمد البريطاني في مصر، تطلب منه تدخل بريطانيا بالطرق الدبلوماسية^(١١٣). وأجلت بريطانيا التدخل، حتى صدر الحكم بالإعدام، وكان السفير البريطاني في استانبول سير لويس مالت يعتقد بأن الحكم سيخفف، وقابل الصدر الأعظم، وكلم طلعت بك وزير الداخلية، وخفف السلطان الحكم إلى ١٥ سنة سجن. وكثرت الاتصالات، وكتبت جريدة التايمز مثيرة أهمية باللغة على إطلاق سراحه، وعلى مستقبل العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية. وغضب الضباط العرب، وصاروا يقسمون في أي مكان يجتمعون به أن يثأروا لإعدامه بالقتل وسفك الدماء. وأخيراً بعد جهود السفير البريطاني، صدر عفو عن عزيز المصري في ٢١ في الشهر نفسه أبريل / نيسان / الذي حكم عليه^(١١٤)، فسافر إلى مصر، حيث استقبل استقبالاً حماسياً. ويقول

(١١٠) انطونيوس، ص ١٩٨.

(١١١) المنار، ج ٢، م ١٥، جانفي / كانون الثاني / ١٩١٢، ص ١٥٤.

(١١٢) المنار، ج ٤، م ١٧، مارس / آذار / ١٩١٤، ص ٣١٣—٣١٧.

(١١٣) انطونيوس، ص ١٩٨.

(١١٤) الوثائق البريطانية المتعلقة بقضية عزيز المصري في Gooch and Temperley, X 2. PP. 832-838.

جورج أنطونيوس عن الهزة التي تركتها محاكمة عزيز المصري في نفوس العرب ، بأنها « كانت أعنف وأعمق من أية هزة أخرى سببها أي عمل مفرد من أعمال الطغيان التركي ، وقد هزت نفوس المفكرين ، ولذلك انقوت عزم العرب على وجوب نيل حريتهم »^(١١٥) . وكانت المذكرات البريطانية — كأنها تعرف — تعزي سجنه إلى أسباب قومية سياسية عربية ضد الاتحاديين ، ولم تكن مقتنعة بالأسباب المعلنة ، وكان تدخلها لصالح عزيز المصري من سياستها الخاصة نحو المنطقة كما سنرى^(١١٦) .

وذكرت مجلة الأسرار ، أن العرب تدخلوا لدى الصدر الأعظم والجنرال ليمان

(١١٥) انطونيوس ، ص ١٩٩ .

أصدرت جريدة التايمز سلسلة من أربع مقالات افتتاحية لمدة ستة أسابيع ، كانت كلها دفاعاً صريحاً عن عزيز المصري . وذكرت في عدد ٩ أبريل / نيسان / ١٩١٤ مايلي « لو أن هذا الظلم الذي أحاق بالضابط العربي الباسل ، أعقبه مالا يمكن أن يسمى إلا جريمة قتل بحق القانون ، فإن العلاقات بين الحكومة العثمانية ومصر ستأثر تأثراً خطيراً ، وربما لن يقتصر الأمر على العلاقات بين تركيا ومصر وحدها . نفس المصدر ، ص ١٩٨ .

قامت مصر عن بكرة أبيها ، تطلب الافراج عن عزيز المصري ، على ألسنة الجرائد وبالرسائل البرقية إلى الباب العالي ، وإرسال الوفود إلى الأستانة . وفي قصيدة شوقي التي نعى بها الطيارين الأتراك الذين ماتوا وهم في طريقهم إلى مصر ، وهم (فتحي وصادق ونوري) ، ذكر منها أبياتاً ، يسترحم السلطان العثماني لاطلاق سراح عزيز المصري منها :

هذا مقام أنت فيه محمد	والرفق عند محمد مأسول
بالله بالاسلام بالجرح الذي	ما انفك في جنب الهلال يسيل
إلا حلت عن السجين وثاقه	إن الوثاق على الأسود ثقیل
أيقول واشي أو يردد شامت	صنديد برقة موثق مكبول
هو من سيفك أغمده لريبة	ما كاد يغمد سيفك المسلول
فاذكر أمير المؤمنين بلاءه	واستبقه إن السيوف قليل

(١١٦) في مذكرة من السير لويس مالت سفير بريطانيا في استانبول ، إلى سير ادوارد غراي وزير الخارجية البريطانية في ٢٤ فبراير / شباط / ١٩١٤ . عن عزيز المصري ، جاء فيها « بأن الصدر الأعظم أخبرني بأن اعتقال عزيز المصري كان لموقعه من الحكومة بعد عودته إلى استانبول ، واعتقد بناءً على مصادر أخرى ، أن السبب كان سياسياً . فعزيز المصري كان دون شك أحد القادة القوميين في مجموعة الضباط الشباب العرب وغيرهم الذين لم يكونوا راضين عن الحكومة الحالية ، ومن الصعب تقييم هذه المجموعة ، لكن كما وصل لعلمي ، أن بعضهم على الأقل كانوا قائمين بتخطيط كبير أو صغير ، لتنظيم حركة يكون هدفها تحرير المنطقة من الموصل إلى الخليج الفارسي من الحكم العثماني ، وأنهم قد أقاموا الاتصالات مع مختلف

فوساندرز رئيس الشعبة الألمانية في الآستانة، إضافة إلى تدخل السفراء الأجانب حتى أطلق سراحه. لكن خوف الاتحاديين من الحركة العربية، وخاصة من الضباط العرب بعد إحساسهم بما كانوا يبيتون^(١١٧)، واعتقالهم لعزيز المصري نتيجة لذلك، عمدوا إلى إحالة كبار الضباط العرب في الجيش على التقاعد، وأخذوا يبعدون الشباب من الضباط العرب من وحداتهم في سورية والعراق واستانبول إلى المناطق البعيدة، وقد نفذ أنور باشا هذه الإجراءات بعد أن تسلم منصب وزير الحرية^(١١٨). وربما كان فرار نوري السعيد الضابط العربي الكبير في مدرسة الأركان الحرية في استانبول، إثر اعتقال عزيز المصري — ونوري السعيد من مؤسسي العهد — دليلاً على وصول الحركة القومية إلى الجيش (وهو أمر خطير)، وحافزاً أيضاً على تصرف الاتحاديين، وتنجيتهم للضباط العرب قبل أن يفوت الأوان ويفعلوا ما يخططون له، وهكذا اشتد الخلاف بين الترك والعرب^(١١٩).

→ القادة المحليين، بما فيهم شيخ الكويت الذي نالوا تعاطفه، وأنهم سيطرون المنطقة التي يتمتعون بها بمنطقة الشيخ المذكور».

F. O. 9033/7963/ 14/44/ No 117.

وفي رسالة أخرى من مالت في ٩ مارس / آذار / ١٩١٤ «أخبرني الصدر الأعظم أن عزيز المصري كان يتفاوض سراً مع الحديوي الذي كان يتآمر سراً مع الإيطاليين عن تنفيذ خط حديد مريوط. ودهشت لهذه الأخبار... ولنفترض ذلك صحيحاً فمن الأفضل إعادته حتى لا يتآمر مع الضباط العرب ضد الحكومة....».

Ibid, No 153.

وفي رسالة أخرى في ٢ أبريل / نيسان / أن أحد أصدقاء عزيز بك المصري أتى برسالة من السنوسي في برقة، يذكر فيها أن أنور باشا وعد السنوسي بإرسال كمية من المال والذخيرة على يد عزيز المصري، وأن أنور لم يف بوعده ولم يرسل شيئاً، وكانت غايته إيقاع الشقاق بين السنوسي وعزيز المصري، وتهديد الرسالة بإفشاء الخبر إذا لم يطلق سراح عزيز المصري وكان طلعت من الراغبين بإطلاقه إلا أنور...».

F. O. 16768/7931/4/44. No 249.

Gooch and Temperley X2, P. 833, 834, 836. من

(١١٧) مجلة الأسرار، ص ١٥—١٦.

(١١٨) سليمان موسى، الحركة العربية، ص ٤٠.

(١١٩) مجلة الأسرار، ص ١٦.

ثانياً — قام الاتحاديون بكل جهد، حتى استطاعوا أن يتخلصوا من النواب العرب في مجلس المبعوثين السابق، الذين كانوا عثرة كبيرة ضد الاتحاديين، أمثال شكري العسلي، وشفيق المؤيد، ورشدي الشمعة. ولهذا زيفوا الانتخابات، وفرضوا النواب الذين يريدون، حتى إنهم أنجحوا نواباً أتراكاً عن ولايات عربية، وأقي مثل من أمثال كثيرة عن ذلك التزوير، أن طلعت بك أرسل إلى والي بيروت سامي بكير، يخبره أنه يجب أن ينجح في انتخابات ١٩١٤ سليم سلام، ويسقط سامي الصلح. وهذا ما حدث فعلاً، وقد احتج سامي الصلح إلى الوالي، بأنهم وضعوا الصندوق في مكان خاص يمكن فتحه والتلاعب به، وهذا ما حدث^(١٢٠). واستطاع الاتحاديون أن يملكو الأغلبية الساحقة في مجلس المبعوثين والأعيان، بعد أن تخلصوا من معارضهم حتى من الأتراك من حزب الحرية والائتلاف، وبذلك اعتبروا أن الأمة العثمانية موافقة على سياستهم، مادام أن مجلس المبعوثين كان «كخاتم مطاط»، يستعمله أصحابه كلما اقتضى الأمر. وتخلص الاتحاديين من النواب العرب المعارضين، شعروا أنهم أصبحوا سادة الموقف العربي أيضاً، لأنهم ما كانوا ينظرون إلى رجال العرب الاصلاحيين الذين عينوهم بالمناصب العليا، سوى أنهم رجال يهتمهم الوظائف والمناصب والمصالح الشخصية، وهو ما حصلوا عليه. وقد ذكر جمال باشا في مذكراته أنه «لم يكن هم المتزعمين لحركة الاصلاح، سوى طلب الوظائف العالية لأنفسهم، مثل عبد الكريم الخليل، وأن عبد الحميد الزهراوي كان طامعاً في مشيخة الإسلام، ولهذا لم يكن راضياً عن تعيينه في مجلس الأعيان. وأن عبد الكريم الخليل الذي اتخذ لنفسه لقب «مفتش عام الجمعية اللامركزية السورية، لم ينجح في انتخابات مجلس المبعوثين...»^(١٢١). ونلاحظ فعلاً الفرق بين مطالب النواب العرب في المجلسين

(١٢٠) F. O. 371/2134/ No 29, 16 Mai 1914.

كان عدد نواب هذا المجلس ٢٤٥ منهم ٢٠٩ مسلمون، ١٥ أرثوذكس (روم)، ١٥ أرمن، ٣ يهود، ٢ عرب أرثوذكس، ١ كاثوليك كلداني، والجنسيات: ١٤٢ أتراك، ٦٩ عرب، ١٥ أرمن، ١٦ أروام، ٣ اسراليون.

الخلال، ٢٢م، ج ٩، حزيران ١٩١٤، ص ٧٠٨.

(١٢١) مذكرات أحمد جمال باشا، ص ٩٣ — ٩٤.

الأولين ، وبين مطالب مجلس ١٩١٤ التي لم يتعد بها النواب العرب عن المطالبة بأمور إدارية ، كمطالبة سليم سلام بإصلاح مدراس البنات ، ومطالبة فارس الخوري (دمشق) بإصلاح البريد^(١٢٢) . لاشك كان ذلك دليلاً على سيطرة الاتحاديين وسكون العرب .
ثالثاً — العودة من جديد ، إلى الروح القومية التركية المتعصبة ، التي أخذت تعبر علناً عن عداوتها الشديد العنيف ، لما هو عربي وإسلامي ، وأنشأ الاتحاديون جمعية «ترك أوجاغي» ومعناها الموقد التركي أو الوطن التركي ولها أربعة فروع :

ترك يوردي أي المملكة التركية .

ترك بكليشي أي العلم التركي .

ترك دريكي أي شبان الترك .

ترك كوجي أي قوة الترك .

وانتشرت هذه الفروع في مدن الأناضول وقراه ، برعاية الحكومة وتشجيعها لنشر الطورانية التي تسربت أيضاً إلى الجيش ، فأثارت العداوة بين الضباط العرب والأتراك . ومن هذه التعاليم على سبيل المثال ، نحن أتراك ونعجب من تسميتنا عثمانيين ، فمن هو عثمان الذي نتنسب إليه ؟ إنه تركي جاء من التاي ، واجتاح هذه البلاد بجيشه التركي ، فانتسابنا إلى أصله أشرف من انتسابنا إليه . ولقد خدعنا بجهل أسلافنا في الماضي فبئس الأسلاف الذين أنسوننا قوميتنا^(١٢٣) .

كانت تلك العودة إلى الروح التركية نتيجة لهزيمة الجيش التركي في الحروب البلقانية . ومع أنهم استطاعوا استرداد أدرنه ، فقد كانت الهزيمة مفاجئة فقدت فيها تركيا معظم الأجزاء الأوروبية منها . وقد قضت هذه الحرب على كل السياسات المعتدلة التي يمكن أن يتبعها الاتحاديون لإنقاذ تركيا وبنائها من جديد . قضت النكسة النفسية على التردد ، وأزالت الوهم ، ودفعت بالاتحاديين لاتخاذ قرارات حاسمة . لقد أيقظت الهزة العنيفة نفوس مختلف الطبقات التركية ، وعلى رأسهم المفكرين والمستنيرين . فكانت

(١٢٢) مجلة الحرب العظمى ، ص ١٣ — ١٥ .

(١٢٣) العصر الدموي ، ص ١١٤ — ١١٥ .

تلح عليهم رغبة جامحة لابقاظ الروح الوطنية التركية، وكانت الطورانية^(١٢٤). والحقيقة أن الأتراك هم الذين عانوا الهزيمة، أما العرب فقد سمعوا بتلك الحرب، ولم يعانها إلا من كان منهم يحارب في صفوف الجيش العثماني، لكنهم رأوا رؤية العين شيئاً قليلاً من نتائجها، إذ أخذت سورية وبشكل خاص حلب، تشهد جموعاً من آلاف من المهاجرين الأتراك المسلمين من سالونيك، بسبب هذه الحرب حتى غصت بهم حلب، وكاد الموقف يتفجر بينهم وبين الأحياء المسيحية إثر انفجار قنابل في هذه الأحياء، حيث اهتمت الإشاعات هؤلاء المهاجرين بأنهم ينفذون أعمالاً تعصبية انتقامية. ووصلت أعداد أخرى (١٥٠٠ ألباني)، ونزلوا المساجد في حلب وهم في طريقهم إلى الرقة ليحلوا محل (٣٠٠٠ لبيي) كانوا قد وصلوا إثر حرب إيطاليا ضد طرابلس عائدين إليها بمساعدة إيطاليا^(١٢٥).

وكان ظهور كتاب «قوم جديد»، ضربة قاصمة على علاقات العرب بالأتراك، ذلك الكتاب الذي أثار ضجة عظيمة بين العرب، وأثارهم بعنف ضد الاتحاديين، وقد فسر هذا الكتاب القرآن كما شاء، وطالب بإلغاء الزوايا والمساجد ماعدا التي بناها السلاطين، وطالب بإلغاء الخطبة في صلاة الجمعة باللغة التركية، وحض على ترجمة القرآن، وسفّه الذين يعلقون أسماء الخلفاء الراشدين (العرب) في الجوامع التركية، في الوقت الذي لا يذكر فيه أسماء الخلفاء الأتراك الذين قدسهم الأحاديث النبوية، كما زعموا^(١٢٦).

وبعد صدور هذا الكتاب، نشرت جريدة إقدام التركية مقالاً عنيفاً ضد العرب، فيه نقد مرّ لهم، وأحدث ضجة بين الطلاب العرب في استانبول، فناروا وهاجموا مكتب جريدة إقدام، وكسروا الزجاج والنوافذ بالحجارة، وبعثوا برقية احتجاج إلى الصدر الأعظم بسبب إهانة الجريدة للعرب. وترك هذا المقال أثراً سيئاً في نفوس

(١٢٤) زين زين، نشوء القومية العربية، ص ١٠٨، عن Handbooks, No, 96C et D. P. 19.

(١٢٥) F. O. 371/2135/ No 20, 27; mai 1914.

(١٢٦) المنار، م ١٧، ٢٤ جوان / حزيران / ١٩١٤، ص ٥٤٤.

العرب في الولايات العربية العثمانية ، وردت صحف سورية والعراق ، ودافعت عن العرب وهاجمت الأتراك بعنف مظهرة غضبها وكرهها الشديد .

هكذا كانت العلاقة بين العرب والترك ، قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ، حيث أخذت قضية سورية والبلاد العربية تدخل في التخطيط الأوروبي الفعلي ، بحيث لم يعد لا الأتراك ولا العرب ، مقررين حقيقيين لتاريخ مستقبل تلك المنطقة ، بل أصبح الانكليز والفرنسيون هم المقررين والمنفذين بالفعل ، وهو موضوع الفصل التالي .

الفصل الخامس

**التنافس الافرنسي - الانكليزي
على سورية حتى بداية الحرب
العالمية الأولى ١٩١٤**

إن الشرق الأدنى، وسورية في قلبه، كان دائماً شديد الارتباط كموقع جغرافي بأهميته الاستراتيجية بشكل لا يمكن الفصل بينهما، وهذا الموقع، كان يمثل جسراً إلى آسيا، لكنه كان يتفوق بأهميته على الجسور الأخرى، وشرائين المواصلات التي تؤدي إلى المشرق في العالم. وكانت سورية عبر العصور ساحات للجروب، مثلما كانت ميادين لتصارع الأفكار، وفيها شواهد كثيرة مازالت باقية تدل على ذلك.

. ومن هذه الأمثلة القرية في التاريخ حول جذب هذا الموقع لأطماع الانكليز أو الفرنسيين، نجد شاهداً بارزاً في حملة نابليون على مصر، ثم سورية في عام ١٧٩٨—١٨٠١، حيث استقر في مصر لمدة ثلاث سنوات، لكنه وقف أخيراً أمام أسوار عكا التي ساعدها الانكليز ضده. لا شك في أن نابليون كان يريد أن يجعل من تلك المنطقة مركزاً ضد الوجود الانكليزي في الهند، «وإذا كانت عكا نفسها تنطوي على مصير عظيم لأعداء بريطانيا، فمن يجزؤ على القول أن حلم نابليون كان وهماً وخيلاً؟» وكانت عبقرية العسكرية على صواب في تقرير أهمية هذه البلاد، فما قولك بجبل لبنان، هذه القلعة الطبيعية الكبيرة القائمة بين العالم الشرقي والغربي^(١). ولقد كان انتصار الأسطول الانكليزي على الفرنسي في أبي قير، باعثاً شديداً للسرور لدى الساسة البريطانيين، ولدى شركة الهند الشرقية. ولقد كتب الكولونيل الانكليزي

(١) Colonel Churchill, Mount Lebanon, a ten years residence from 1842 to 1852, vol 1

(London 1853) PP. VII-IX.

تشرشل في منتصف القرن التاسع عشر، يقول «إذا كانت بريطانيا ترغب في الحفاظ على سيطرتها في الشرق، ينبغي لها بشكل أو بآخر، أن تدخل سورية ومصر في نطاق نفوذها وسيطرتها»^(٢).

وبعد ستين عاماً من حملة نابليون بونابرت، شهدت سورية أو جبل لبنان بشكل خاص، قوات فرنسية جديدة تحتل تلك المنطقة لفترة مؤقتة، ولإيقاف الحرب الطائفية التي حدثت بين الدروز والمسيحيين في لبنان عام ١٨٦٠، التي كانت قد سبقتها أحداث أدت إليها في سنة ١٨٤١، وكانت على شكل اضطرابات، ثم حرب أهلية سنة ١٨٤٥، ثم ثورة الفلاحين ضد الاقطاعيين في شمال لبنان سنة ١٨٥٧. وكانت نتيجة حرب ١٨٦٠ قتل عدة آلاف من الطرفين في لبنان، وفي دمشق أيضاً، حيث لعب الأمير عبد القادر الجزائري المنفي في سورية من قبل فرنسا، دوراً هاماً في حماية المسيحيين في دمشق، مما استحق ذكره أمام أعدائه. ولا شك أن أحداث لبنان هذه، كانت إضافة إلى أسباب التعصب الديني المحلي بين السكان، إحدى قضايا المسألة الشرقية، التي انتهت إلى وضع نظام دولي، تضمنه فرنسا، وانكلترا، وروسيا، والتمسا، وبروسيا^(٣). وهذا يعني حرمان فرنسا من التمتع وحدها بحق السيادة والوجود في هذه المنطقة، وكان ذلك كله من فعل بريطانيا المنافس الأول لفرنسا. لقد كانت بريطانيا ترقب تطلعات فرنسا نحو سورية، وخاصة بعد أن طردت صديقها محمد علي باشا من سورية عام ١٨٤٠. إذ كتب السفير البريطاني في استانبول رسالة إلى وزير خارجيته اللورد رسل (Russell) جاء فيها «إذا نزل جيش فرنسي في بيروت، فإن جزءاً كبيراً من السكان الذين يعتبرون أنفسهم فرنسيين (موارنة لبنان) سينضم فوراً إلى الجيش الفرنسي، وبما أن الغاية من هذه الحملة الفرنسية العسكرية، هي بعث الرعب

(٢) نفس المصدر، عن زين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان، بيروت، دار النهار، ١٩٧١، ص ١٦، وانظر في الملحق مجموعة خرائط لسورية.

(٣) انظر، فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، بيروت، ١٩٥٩، ج ٢، ص ٣٤٤. وانظر أيضاً، جان بيشون، بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى، ترجمة عزة دروزة، بيروت، ١٩٤٦، ص ٦٨.

في نفوس الآخرين من السكان ، أو إخضاعهم ، فمن المتوقع أن تزداد قوة فرنسا ازدياداً عظيماً من كلتا الناحيتين الأدبية ، والمادية ، وذلك عبر ترويع الفئات الأخرى التي يشكو منها الموارنة أو عبر القضاء عليهم»^(٤) .

لم تكن بريطانيا تخشى في الحقيقة ترويع الفئات الأخرى ، بقدر ما تخشى من سيطرة فرنسا على سورية ، ولذا سارعت بريطانيا إلى توقيع بروتوكول في باريس في ٣ آب ١٨٦٠ حدد بموجبه بقاء القوات الفرنسية بستة أشهر ، ثم أعيد تحديدها في ٥ آذار ١٨٦١ . وبعد مفاوضات طويلة مددت حتى ٥ جوان / حزيران / ١٨٦١ ، وكانت بريطانيا شديدة الحرص على ألا يطول بقاء الفرنسيين في لبنان .

واقتربت بريطانيا من سورية أكثر إذ احتلت جزيرة قبرص سنة ١٨٧٨ ، عندما تنازلت الدولة العثمانية عنها ، مقابل تعهد بريطانيا بحماية ممتلكات السلطان الآسيوية ضد روسيا ، ولم تشأ أن تأخذ مصر أو سورية بسبب الحساسية الشديدة لدى فرنسا بالنسبة لهتين المنطقتين . لكن بريطانيا لم تتأخر كثيراً ، إذ احتلت مصر عام ١٨٨٢ ، وأخذت تهتم بالمنطقة العربية بعد أن اقتنعت بأنه لا بد من انحلال الامبراطورية العثمانية . وهكذا اتجهت شطر المشرق العربي ، في الوقت الذي احتلت فرنسا فيه الجزائر وتونس في المغرب العربي ، ورغم الاتفاق الودي بين الدولتين عام ١٩٠٤ ، فإن الصراع من أجل سورية بقي محركاً لكلا الدولتين حتى الحرب العالمية الأولى حول هذه المنطقة .

على أنه يجب ألا ننسى بداية النفوذ الألماني في الدولة العثمانية ، عندما أخذت ألمانيا حق الامتياز في مد سكة حديد بغداد من الدولة العثمانية سنة ١٩٠٣ ، وكذلك زيارة الامبراطور الألماني لدمشق سنة ١٨٩٨ ، وزيارته لقبر صلاح الدين الأيوبي ، وإلقائه كلمة في دار البلدية ، يطمئن بها السلطان والمسلمين ، بأنهم سيجدون في امبراطور ألمانيا الصديق الدائم لهم . وقد حاول أن يمس وتراً حساساً لدى العرب باستعمال

Great Britain, F. O. Correspondence relating to the affairs of syria, 1850-1861, Part I, P. (٤)

الأسلوب العاطفي الذي يعتمد على الضرب على وتر الدين. وكان قبلها بستة أيام قد وصل إلى فلسطين وُدشن الكنيسة اللوثرية في القدس. وتركت زيارته هذه لسورية انطباعاً إسلامياً طيباً لدى السكان، وكان أفضل مما كانت تصرح به الدول الأوروبية الأخرى بشأن الدولة العثمانية^(٥).

وعند سقوط عبد الحميد عام ١٩٠٨، كانت علاقته ببريطانيا وفرنسا فاترة بسبب تقربه من المانيا. وتسلم الاتحاديون الحكم أملاً في تجديد شباب الدولة العثمانية فماذا حدث؟

لكن قبل أن نتحدث عن علاقات فرنسا وبريطانيا مع سورية خلال فترة هذه الدراسة، نلقي نظرة سريعة على علاقات فرنسا القديمة بسورية، لأن هذه العلاقات تميزت عن كل العلاقات الأوروبية الأخرى بسورية.

بدأت هذه العلاقة — حسب بعض الروايات الأوروبية — سنة ٧٦٥م في أثناء حكم بيبان القصير (Pepin le Bref) في فرنسا، قبل شارلمان الذي تسلم مفاتيح الأماكن المقدسة في القدس^(٦). ويرجعها آخر إلى شارلمان، حيث أرسل له هارون الرشيد الخليفة العباسي بعثة سياسية تحمل إليه مفاتيح كنيسة القبر المقدس، حيث أنشأ الإمبراطور شارلمان في القدس مأوى للعجزة وبعض منشآت دينية^(٧). ثم أتت الحملات الصليبية الأولى، وكان معظمها من الفرنسيين، وأسسوا لهم ممالك لاتينية في الساحل السوري والقدس وفلسطين، وربما كانت مملكة غودفري دو بويون (Godfrey de Bouillon) في القدس، أهم هذه الإمارات التي كانت تُعد انتصاراً فرنسياً بالدرجة

(٥) جان يشون، ص ٩٣، وزين زين، الصراع الدولي، ص ٥١.

(٦) Helen Cameron Gordon (Lady Russell), Syria as it is, London 1939, P. 2.

(٧) جان يشون، ص ١١٢.

اتمس بطريرك أورشليم من الإمبراطور شارلمان، لما بدأ أفول بيزنطة بعد الفتح العربي، باسم الشعوب المسيحية حماية الأماكن المقدسة، فظفر الإمبراطور من هارون الرشيد بامتياز الحماية، وظل حق التدخل هذا سارياً إلى أن أصبح انتداباً بعد اثني عشر قرناً.
فريدريك زريق، نهضة العرب، ص ٩٠.

الأولى . وفي حملة لويس التاسع (القديس لويس) يُروى أنه عندما وصل إلى عكا بعد الإفراج عنه في مصر ، حيث كان أسيراً في مدينة المنصورة ، أرسل برسالة إلى أمير الموارنة ، مؤرخة في ٢١ ماي / أيار / ١٢٥٠ جاء فيها :

«.... أما نحن وأولئك الذين سيخلفوننا على عرش فرنسا ، فإننا نجز لأنفسنا أن نوفر لسمومك ولشعبكم الحماية ذاتها التي نوفرها للفرنسيين أنفسهم ، كما أننا سنعمل دوماً ما ينبغي عمله لتوفير السعادة لكم»^(٨) .

«وقد عني لويس التاسع بالمقامات المقدسة في القدس ، نفس العناية التي فعلها شارلمان ، ومنها التخصصات المرتبة لها»^(٩) .

ثم أتت البعثات الإرسالية ، ووصل المرسلون الفرنسيون إلى سورية ولبنان خاصة ، وأخذوا يؤسسون المدارس والرهبانيات ، وكان أول من قدم هم الفرنسيين سكان إلى فلسطين عام ١٢٢٠ ، ثم اليسوعيون عام ١٥٧٨ ، والكبوشيون عام ١٦٢٥ ، والعازاريون سنة ١٧٨٣ . وأصبح لبنان المركز الرئيسي لنشاط الإرساليات التبشيرية الفرنسية في الامبراطورية العثمانية ، حيث استطاعوا أن يصفقوا هالة عظيمة حول فرنسا .

ثم حصلت فرنسا على حق الامتيازات الأجنبية سنة ١٥٣٦ في عهد فرانسوا الأول ملك فرنسا والسلطان العثماني سليمان القانوني ، وهي التي عرفت بـ (Capitulations) ، وبموجب هذه الامتيازات ، تمكنت فرنسا من فرض نفوذها في سورية والشرق الأدنى ، ليس فقط في المجال التجاري حيث ترددت البعثات وزادت التجارة ، بل لأنها حصلت على حق حرية العبادة وحماية المسيحيين عامة ، والكاثوليك خاصة «وبذلك رفعت من شأن المسيحيين في سورية»^(١٠) . وجددت الدولة العثمانية هذه الامتيازات ثماني مرات حتى عام ١٧٤٠ . وفي سنة ١٧٠١ تعهد لويس الرابع عشر للبطريرك الماروني (الدويهي) بحماية الموارنة في جبل لبنان . واستمر من بعده لويس

(٨) زين ، الصراع الدولي ، ص ٣٣ .

(٩) جان يشون ، ص ١١٢ .

(١٠) Helen Cameron, P. 2-3 .

الخامس عشر، ولويس السادس عشر باتباع نفس الحماية^(١١). وفي الثورة الفرنسية تابعت الحكومة الفرنسية نفس السياسة الدينية نحو المشرق برغم أنها اتبعت سياسة معادية للاكليروس، لأن الامتيازات الأجنبية تتيح لها الاستفادة من هذا السياسة، وكان هذا مطابقاً للمبدأ الذي عبر عنه غامبيتا (Gambetta) بقوله الشهير «إن عداوة الاكليروس ليست من المواد التي يسوغ تصديرها إلى خارج البلاد»^(١٢). كما ذكر غامبيتا للمنسيور شارمتان (Mgr Charmettant) «إن الكردينال لافيـجيري (Lavegirie) والمرسلين التابعين له في سورية، قد أدوا إلى فرنسا خدمات لا يستطيع جيش أن يؤديها، نعم خدمات، لا يستطيع جيش كبير أن يؤديها أو أسطول»^(١٣). وجددت الامتيازات في عهد نابليون بونابرت سنة ١٨٠٢ الذي تابع سياسة ملوك فرنسا، حيث قوى العلائق التجارية بين البلدين. وظلت سياسة فرنسا الدينية معمولاً بها، ووصلت إلى ذروتها في حماية المسيحيين بحوادث لبنان عام ١٨٦٠. وظلت كذلك حتى بداية القرن العشرين. وكانت تدعم هذه العلاقات الدينية علاقات اقتصادية هامة لفرنسا في سورية، مستفيدة من حق الامتيازات الأجنبية. «وقد بلغت التجارة الفرنسية في المشرق في القرن السابع عشر والثامن عشر حداً من الازدهار فاق الوصف، حتى حصرت مرسيليا في قبضتها جميع صلات المشرق الاقتصادية، وغدت حلب مركزاً لـقنصلية فرنسية عظيم الأهمية، وكان ذلك بفضل وزراء المالية والبحرية والتجارية الفرنسيين أمثال «كولبير، وسينالييه، ويونشارتران، وموريا، وشوازول». وكانت الشركات الخاصة الفرنسية تدعم نشاط الحكومة، حيث كان تجهز سورية باللوازم البدائية للصناعة والزراعة ورؤوس الأموال»^(١٤). ومثال معبر عن ذلك هو تجارة

(١١) Helen Cameron, P. 3. و زين زين، الصراع، ص ٣٤.

(١٢) ساطع الحصري، يوم ميلون، (مذكرات) بيروت، بلا تا، ص ٢٦.

(١٣) ذوقان قرقوط، ص ١٦. عن Mgz Charmettant, Lettres ouvertes a nos hommes d'Etat, PP. 13. 35.

(١٤) فريدريك زريق، نهضة العرب، ص ٩٢.

ظلت فرنسا تحلم طيلة القرن التاسع عشر و نحن إلى ذكرى الحملة الفرنسية وبطولة نابليون في الشرق، وتعمل على توطيد أواصر القرى الروحية والثقافية والاقتصادية بينها وبين شعوب الشرق الأوسط، مما جعل

الحرير بين فرنسا وسورية، كما ذكرت غرفة التجارة في مدينة ليون (Lyon) «إن سورية وهي بلاد الحرير المرتبطة بسوق ليون العظيم، الذي أصبح منذ افتتاح قناة السويس أعظم مراكز العالم للمواد الحريرية، ترسل لنا مقدار خمسمائة ألف كيلو من الحرير سنوياً، بما قيمته ٢٥ مليون فرنك، ولم يكتف مواطنونا باستيراد المنتجات المعدة محلياً، بل أقاموا هناك وخاصة في لبنان مصانع للغزل، وأصبحت الشرائق التي كان شراؤها يتطلب كل سنة رؤوس أموال هائلة، تُشتري بأرباح أموالهم الموظفة هناك، وفضلاً عن أنهم أصبحوا يعرفون مراكز الانتاج في تلك البلاد، فقد أقاموا علاقات وثيقة مع الأهالي في كافة المناطق الزراعية حتى حوافي الصحراء، وباتوا في تلك الديار يجسدون فرنسا التاريخية»^(١٥). وكانت فرنسا تأتي الأولى فعلاً بين الدول الأجنبية في التجارة السورية ببعض المواد كالحرير وبذور القطن والجلود^(١٦)، وكانت بعض الدول الأخرى تسبقها في التجارة في مواد أخرى، لكن من المهم في هذه اللوحة السريعة أن نذكر، أن فرنسا كان لها توظيفات رأسمالية كبيرة، بلغت أكثر من ١٢٠ مليون فرنك في السكك الحديدية التي بلغ طولها ٥٠٠ كم المنطلقة من بيروت، كما أن فرنسا قد أسست مرفأ بيروت بمبلغ ٤ مليون فرنك، و ١٠ ملايين صرفتها لإنشاء شركة الريجي، و ٤٥٠ ألفاً في شركة غاز بيروت. وقد كانت الأموال الفرنسية الموظفة في سورية تتجاوز ١٥٠ مليون فرنك عام ١٩١١. وكان لفرنسا ثلاثة خطوط بحرية تصل ساحل البحر المتوسط الشرقي وهي: المساجيري (Messageries) للنقل السريع والعادي، وشركة سيبريان فاير (Cyprien Faber)، ولها خط مباشر بين بيروت ومارسيليا، ومن ثم

→ لفرنسا في تلك الأرجاء منزلة روحية وثقافية لا تبارى، وذلك برغم ما منيت به من فشل ذريع في سياستها العامة في المنطقة.

محمد رفعت، تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية، مصر، دار المعارف ١٩٥٩، ص ٢٣٥.

D. F. Aff. Etr, Turquie (869), P. 29. (١٥)

Emir Ali Abdul Aziz, étude sur L'histoire des relations économiques Franco-Syrienne, (١٦)

Saint Gilles 1936. P. 26. et Atala, la Syrie, Paris, 1919, PP. 36-39

يربط بالخطوط العالمية، والشركة البحرية الاستعمارية التي تربط بيروت وشرق البحر المتوسط بمرسيليا بشكل خاص^(١٧).

إضافة إلى التأثير الفرنسي السياسي والديني والاقتصادي في سورية، فقد كان التأثير الثقافي المدعوم من الحكومة الفرنسية هو الظاهرة الواضحة أمام الناس، وخاصة في لبنان. ففي معظم مدن لبنان وسورية (بيروت، دمشق، حلب، طرابلس، زحلة...) كانت البعثات التبشيرية تفتح المدارس والمؤسسات الثقافية الدينية، أو العلمانية، وأهمها الجامعة اليسوعية في بيروت. وكانت تنتشر في أنحاء البلاد مدارس كلها تعمل على نشر اللغة الفرنسية حتى بين المسلمين، ناهيك عن المسيحيين. وقد استطاعت هذه المؤسسات أن تتفوق على المؤسسات الغربية الأخرى، الأمريكية أو الانكليزية أو الألمانية أو الروسية، وكان لها سنة ١٩١٠ أكثر من مائة مدرسة، يتعلم فيها أكثر من عشرة آلاف طالب، وكانت الروح الفرنسية تغلب على طابع التربية التي كانت كل الإرساليات تمارسه، وقد حققت نجاحاً بذلك. وكانت البعثات في البداية تقوم على تقديم الخدمات الطبية، والتبشير بالانجيل، وهما وسيلتان متلازمتان ومؤثرتان في نفوس الكبار، أما الأطفال، فإن المدارس هي التي تستطيع أن تغرس في نفوسهم مايريده منشئو هذه المؤسسات، حتى يستطيعوا الحصول على النتائج المأمولة في الأجيال الطالعة وأثرها الأكيد في حياة سورية الاجتماعية والخلقية^(١٨).

(١٧) المقتبس، عدد ٤٥٠، ١٧ أوت / آب / ١٩١٠، وذوقان قرقوط، ص ١٨.

George Samné, la Syrie, Paris, 1921, PP. 157-159.

بنت فرنسا ما بين ١٨٩٨ و ١٩١١ الخطوط الحديدية التالية: خط شمال سورية الموصل بخط الشرق السريع وبالعراق ثم خط دمشق-بيروت، رفاق حلب، حمص-طرابلس، وخط دمشق-درعا، المزريب، درعا-حيفا إلى مصر ومنه خط القدس. وكان لفرنسا أيضاً تزام شمال وجنوب بيروت ومساهمة في شركات الجر والتنوير في سورية الداخلية.

(١٨) زين نور الدين زين، نشوء، ص ٥١-٥٢، وقرقوط، ص ١٩٤.

لقد حقق الفرنسيون نجاحاً في بعثاتهم التعليمية أكثر من الأمريكيين، وبلغ العرب في المدارس الفرنسية مستوى أرق في العلم من أقرانهم في المعاهد الأمريكية.

ادوارد عطية، العرب، ترجمة محمد قنديل البقلي، القاهرة ١٩١١، ص ٨٣.

وكان لفرنسا في سورية جهاز دعائي يعمل على نشر نفوذها الثقافي أو السياسي أو الديني، يتمثل في مجموعة من الصحفيين والصحف التي تعمل على توطيد النفوذ الفرنسي، كصحف السكان، والاتحاد اللبناني، والأحوال، والنفير، وزحلة الفتاة، والثبات، والبشير. وكان من دعائهم خير الله خير الله «عضو المؤتمر العربي في باريس» الذي كان يعمل في جريدة (Le Temps)، وكان يكتب لها عن أحوال سورية، وكان رزق الله أرقش، وخليل زينية على مثال خير الله. وكانت فرنسا تدفع الأموال للصحف للكتابة في صالحها أو لاسكات من يكتب ضدها. وكانت وزارة الخارجية الفرنسية تلح كثيراً على قناصلها، للعمل على إصدار صحف تنطق باللغة الفرنسية، وإيجاد مدراء مسؤولين محليين، وتقدير المعونات المالية اللازمة لذلك^(١٩). وكانت الدعاية الفرنسية تحاول أن تضفي على النفوذ الفرنسي في سورية طابعاً حضارياً ثقافياً، يعبر عن مصالح عاطفية أكثر مما يخفي تحته من مصالح اقتصادية^(٢٠). وبرغم كل السمعة العالية التي نشرتها عن رسالتها الثقافية، فإن فرنسا كانت تملك أكثر من ٦٥٪ من مجموع مصالح الدول الأخرى باقتصاد تركيا، إذ كانت لها غالبية البنوك، والسكك الحديدية، والموانئ، والمناجم، والغاز، والتبغ، والطرق، والاستثمارات الزراعية، والصرافة، والشركات العقارية^(٢١).

والحقيقة أن النفوذ الفرنسي لم يكن مجرد فرض أو دعاية في سورية، لأنه كانت توجد فعلاً فئات من السوريين تحب فرنسا كل الحب، وتخلص لها كل الإخلاص، وترى أنها مرتبطة فعلاً مع فرنسا في روابط تاريخية، أخذ بموجبها ملوك فرنسا على عاتقهم حب وحماية المسيحيين، وخاصة الكاثوليك، والموازنة بشكل أخص. ولا بأس أن نورد

(١٩) وثيقة رقم ٩/٢٨ من ملف الحركة العربية (مركز الوثائق التاريخية بدمشق) ورقم ٤٧/٦٦. وعد رئيس

الوزراء الفرنسي بلوم رئيس الكلية اليسوعية في بيروت بمساعدة مالية كبيرة، لما تقوم به من عمل جيد في نشر الثقافة الفرنسية في الشرق.

مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ٣٣.

(٢٠) أنيس منصور، الماشيون والثورة العربية الكبرى، بيروت، ١٩٦٦، ص ٥٨.

(٢١) Comte R. de Gontaut Biron, Comment la France s'est installée en Syrie Paris, 1922, P. 2.

أقوال بعض المسيحيين المتعاطفين مع فرنسا عن فرنسا . فقد كتب جبرائيل رباط الرومي الملكي في محاضرة له عن منطقة حلب مايلي « تعاقبت أجيال وتصمرت قرون ، والشرق وفرنسا مرتبطان بعرى صداقة مخلصه ، واعتبار متبادل وحماية ، كأنهما شعبان أوجدتهما الطبيعة ليتجاذبا فيتحابا ، فلم يستطع الزمان ، ولا البعاد أن يوقف تيار هذا التجاذب ، أو يضعفه حتى استحال اتحاداً » وقال « فرنسا ، هاقد بلغت إلى هذا الاسم العزيز ، فرنسا ، ألم تكن مع الحقيقة منذ أكثر من ثمانمائة سنة ، الأمة المحبوبة الممتازة لدى سكان منطقتنا على كل من سواها »^(٢٢) . وكتب ندره مطران في كتابه عن سورية (وهو عضو المؤتمر العربي في باريس) « لبنان مسيحي وفرنسي ، ولبنان هو المفتاح الاستراتيجي والاقتصادي لسورية »^(٢٣) . وكتب يوسف السودا عن استقلال لبنان ، وهو معاصر لهذه الفترة « إذا سعى اللبنانيون إلى الاستقلال ، كانت فرنسا مطمح أبصارهم ، وغاية آمالهم ، ولهم عليها حق التاريخ وحق الحب ، وما هي من ينكر مثل تلك الحقوق »^(٢٤) ويذكر أيضاً فضل اللبنانيين ونصرتهم للصليبيين ضد الفاطميين ، ونصرتهم للروم ضد العرب أيام معاوية حتى انقذت القسطنطينية من السقوط^(٢٥) . وجاء في كتاب تنوير الأذهان في تاريخ لبنان لمؤلفه إبراهيم الأسود « عرفت أيتها الدولة الكريمة «فرنسا» أن محبة اللبنانيين لك قديمة العهد ، وتحققت تهافتهم على إثبات رغائبهم في بقاء مقاليد الانتداب إليك »^(٢٦) وكتبت مجلة المشرق ، وكانت تصدرها الكلية اليسوعية بإدارة لويس شيخو « ما أصلت الأتراك سيف نقتمهم على اللبنانيين إلا لصدق وطنيتهم ، وتمسكهم بامتيازاتهم ، وفرط حبهم وإخلاصهم للأمة الفرنسية حامية ذمارهم » وقالت في مكان آخر « وجد السوريون منذ القديم في فرنسا ما يلائم طباعهم ويحتجزهم إلى معاملة الفرنسيين »^(٢٧) .

(٢٢) القس جبرائيل (حلب ومنطقتها ، ترجمة فتح الله قسطن ، حلب ١٩٢٠ ، ص ٤٩ ، ٧ .

(٢٣) Nadra Moutran, La Syrie de Demain, Paris 1916, P. 30.

(٢٤) يوسف السودا ، استقلال لبنان والاتحاد اللبناني في الاسكندرية ، الاسكندرية ١٩٢١ ، ص ٤٢ .

(٢٥) نفس المصدر ، ص ٣٠ ، ٣١ ، ١٥٠ ، ١٦٧ .

(٢٦) إبراهيم الأسود ، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان ، بيروت ١٩٣٠ ، ج ١ ، ١٩٢٥ ، ص ٣ .

(٢٧) المشرق ، مجلد ١٩ ، جوان / حزيران / ١٩٢١ ، ص ٤٠١ و ص ٥١ .

هذا قليل من كثير في هذا المجال ، لكن الذي كان يراه بعض المسيحيين حياً وإخلاصاً لفرنسا لم يكن يراه المسلمون هكذا ، ولم نثر على أية شهادة أو كلمة من مسلم ، حتى لو كان صديقاً للفرنسيين ، تعبر عن تلك العلاقات الطيبة التاريخية بين فرنسا وسورية ، وهو منطقي ، لأن تلك العلاقة بنيت على أساس ديني مسيحي ، ولهذا يمتنع حكماً أي كلام من شاهد مسلم ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل اعتبرت تلك العلاقة ، أو موالاة فئة من المسيحيين ، وخاصة الموارنة نحو فرنسا عملاً غير طيب وغير منطقي وغير ودي بالنسبة لفئة عريضة من المسلمين ، وخاصة من اهتم بمصير البلاد العربية في أواخر الدولة العثمانية . وكما ضربنا المثل بحب رجال الدين المسيحيين لفرنسا نضرب مثلاً برجل دين مسلم معروف ومشهور هو الشيخ محمد عبده ، الذي قضى عدة سنوات في بيروت ، بعد نفي الانكليز له أواخر القرن التاسع عشر ، وقدم خلالها سنة (١٣٠٤ هـ أي ١٨٩٢) لائحة للاصلاح في القطر السوري إلى والي ولاية بيروت ، وصف فيها ميول السكان على اختلاف أنواعهم ، وقال عن الموارنة « يعتقد الموارنة أنفسهم فرنساويين وهواهم للدولة الفرنسية ، لاعتقادهم أنها حامية لهم ، وبما قدمت لهم من مدارس على أساس التربية الفرنسية ، وإبعادهم عن معرفة حقوق أوطانهم ، حتى وكأن التلميذ يخرج منها وكأنه أتى من فرنسا لا يعلم من أحوال وطنه ودولته ، إلا ما يعلمه بعض السياحيين والأجانب ، وهمهم التوظيف لدى قناصل فرنسا ، وهي تدفع كل سنة الدنانير الوفرة حتى تتم هذا الفساد »^(٢٨) . وكتب محمد جميل بيهم (معاصر لتلك الفترة) « من جراء تدخل الدول في لبنان ، ومحاولة كسب الطوائف بواسطة قناصلها ، أصبح أهل لبنان موزعي الميول ، بين فرنسي ، وانكليزي ، وروسي ، وعربي ، وعدو العروبة . وأن فرنسا كانت تعد لاحتلال سورية ولبنان ، استناداً إلى علاقات فرنسا القديمة بطوائف الكاثوليكية »^(٢٩) . وكتب أيضاً « نشطت القنصلية الفرنسية في بيروت بالاتفاق مع الموالين لها القداماء من أجل أن يكون ثغر بيروت مع لبنان من نصيبها حين اقتسام إرث الرجل المريض . وأن النواقيس كانت تدق في جبل

(٢٨) محمد عبده ، لائحة الاصلاح ، بيروت ، (١٣٣١ هـ) ، ص ٥ - ٦ .

(٢٩) محمد جميل بيهم ، عروبة لبنان ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٠٥ .

لبنان (كسروان) مهللة ترحيباً، بمرور بارجة فرنسية أمام الساحل»^(٣٠). وكتب محمد كرد علي «لقد أصلحت المدارس الأجنبية وأفسدت، أصلحت بتلقين بعض معارف الغرب، وأفسدت لأنها أضعفت في النفوس حب الوطن بتحببها أوطاناً غير أوطانهم، وتعريفهم إلى رجال غير رجالهم، وانحلال عقدة الوطنية. إن المدارس الأجنبية في الشام جنت عليها أعظم جناية، فهي أشبه بالسارق، لأنها سرقت الأرواح والنفوس والأفراد، وهي أسوأ أنواع السرقات»^(٣١).

ويوجد المعتدلون بين الطرفين، المسلمين والمسيحيين الذي كانوا يرون أنه يوجد مسيحيون تشبعوا بروح الغرب، كما يوجد مسيحيون عرب مازالوا موالين للدولة العثمانية. وهكذا كان يمكن تقسيم «لبنان بشكل خاص» إلى مشارك أو غير مشارك بالنسبة للتعاون مع العرب، فمن مازالت تسري فيه تأثيرات الحروب الصليبية، ينزع نحو الانفصال والاتجاه إلى الغرب وخاصة فرنسا، ومن تأثر عبر القرون الطويلة بالثقافة والعروبة والروابط الدينية الإسلامية، ينزع نحو التعاون العربي^(٣٢).

لكن بحالة عامة كانت الطوائف في سورية مقسمة حسب حماية الدول الأجنبية لها وحسب قانون الامتيازات الأجنبية كالتالي:

- ١—الموارنة والكاثوليك تحت حماية فرنسا.
- ٢—الأرثوذكس تحت حماية روسيا.
- ٣—البروتستانت والدروز تحت حماية بريطانيا.
- ٤—السنة مرتبطون بدولة الخلافة^(٣٣).

(٣٠) محمد جميل بيهم، العهد المخضرم في سورية ولبنان، ١٩١٨—١٩٢٢، بيروت ١٩٦٢، ص ١٩٦.

(٣١) محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٨٠—٨١.

(٣٢) Grassmuck (George), Kamal Salibi, reformed administration in Lebanon, Beirut, 1955,

P. 3.

والمقتبس، عدد ٣٨٣، ٢٠ ماي / أيار / ١٩١٠.

(٣٣) مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ٩.

ولم يكن هذا الأمر ثابتاً جداً، إذ كانت هذه الطوائف وخاصة غير الثابتة تتحول بولائها وحمايتها، فقسم من الدروز كان يقبل بالحماية الانكليزية، حتى إن الانكليز أرسلوا أسقفاً بروتستانتياً إلى حوران لبث الدعاية بينهم، كما كان البروتستانت أيضاً يقومون بالتبشير بين عشائر العلويين، وكان المتأولون يتحولون بين الدولة وبين الحماية الفرنسية أحياناً، وكانت فئة من الدروز اليزيكية تميل لفرنسا، وكان كل هذا في دوره إلى التلاشي قبل الحرب العالمية الأولى، وكان من المفروض ألا يدوم بعد الحرب التي سعرته من جديد، برغم إلغائه رسمياً من قبل الدولة العثمانية، عندما ألغت قانون الامتيازات الأجنبية قبيل الحرب (أكتوبر / تشرين الثاني / ١٩١٤) (٣٤).

فرنسا تريح المعركة السياسية

وفي سنة ١٩٠٨، سنة الانقلاب الاتحادي ضد السلطان عبد الحميد الثاني، كانت تلك التقسيمات الطائفية، وحمايتها من الدول الأجنبية لازالت قائمة، وكانت محور التنافس الكلامي و السياسي الصريح أو المبطن بين انكلترا وفرنسا حول سورية، وكانت مهام القناصل لهتين الدولتين في مدن سورية تتركز على الانتباه الشديد على هذه الطوائف، وعلى مدى علاقتها بتلك الدولة، ومحاوله جذب الطوائف الأخرى، بغض النظر عن سياستهما العامة تجاه الدولة العثمانية. وكأنه كان لهما سياستان، الواحدة عثمانية خارجية، والأخرى سورية طائفية. فهذه هي بريطانيا تراقب بحذر قوة الجيش العثماني في سورية، وما يمكن أن تجهزه الدولة العثمانية لمراقبة الدروز (أصدقاء بريطانيا) كما تدعي، أو للحرب والدفاع، وفي الوقت نفسه كانت تصور التقارير البريطانية من

(٣٤) محمد عبده، المصدر السابق، ص ٦-٩، والحكيم، بيروت، ص ٩، جان بيشون، ص ١١٤. «كانت حماية فرنسا تشمل أيضاً الروم اليونان والكلدان والأرمن والموارنة الذين يبداهم رسائل من لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر تتضمن صراحة أنهم في حماية فرنسا. وكان مؤتمر برلين عام ١٨٧٠ قد اعترف بحق حماية كل دولة للطائفة التي تدين بها في الدولة العثمانية. وفي سنة ١٨٨٨ أصدر البابا أمراً يعترف بحق حماية فرنسا فقط، وعدم مراجعة غيرها. وعندما زار غليوم القدس عام ١٨٩٨، صرح بأنه حامي الكاثوليك الأتكان فرفض البابا ذلك وأقر لفرنسا بحقها علناً».

جان بيشون، ص ١١٢-١١٤.

سفارتها في استانبول أو من قناصلها، أنه يمكن — ولا بد أن يكون ذلك خطة سابقة لأوانها — في هذه الحالة عزل سورية نهائياً عن تركيا، بإنزال قوة عسكرية بحرية في خليج الاسكندرون (شمال سورية)، وأن إنزالاً آخر أيضاً في حيفا، لا بد أن يكون له تأثير كبير في قصر يلدز^(٣٥) (قصر السلطان العثماني). وسوف تناقش هذه الخطة بين فرنسا وبريطانيا في بداية الحرب، وسوف ترفضها فرنسا حتى لا تتمكن القوات الانكليزية من احتلال أي جزء في سورية. وكان قلق بريطانيا أيضاً كبيراً من جراء وصل خط حديد بغداد الذي بنته ألمانيا بالخط الحديدي المؤدي إلى دمشق والحجاز، لما في ذلك من خوف من بداية النفوذ الألماني في سورية، وخاصة بعد الدعاية العريضة التي كان الألمان يقومون بها، وكانت بدايتها صداقة ألمانيا مع السلطان عبد الحميد، التي تمخضت عن زيارة قيصر ألمانيا للقدس ودمشق، كما ذكرنا سابقاً. وقد نبه سفير بريطانيا في استانبول حكومته إلى مسألة وصل هذا الخط الألماني^(٣٦).

واستمراراً لتأثير نفوذها في سورية، طلب القنصل البريطاني في القدس أن يفتح لبريطانيا مكتب بريد خاص «للتأثير السياسي»^(٣٧). وكان للدول الأجنبية، حسب قانون الامتيازات الأجنبية، الحق في فتح مكاتب بريد خاصة، ليس للدولة العثمانية أي رقابة عليه ولا أي حق مالي. وقام في نفس السنة ١٩٠٨ الكابتن سايكس (Captain Sykes) وهو موظف سابق في السفارة البريطانية في استانبول، بجوله في أنحاء سورية قدم فيها لوزارة الخارجية البريطانية تقريراً مطولاً عن الأرض والسكان والاقتصاد والطرق والحكم العثماني... إلخ^(٣٨).

وكانت الدولة العثمانية قد عينت في بيروت الوالي يوسف باشا، وكان ذا سمعة طيبة حسب تقرير القنصل البريطاني، لكن هذا ختم تقريره بقوله «لكنه ميال

F. O. 371/548/ (1908) 25 Jui, PP. 229-230. (٣٥)

Ibid, 371/538/ (1908) 19 Jui, PP. 179-180. (٣٦)

Ibid, 371/542/ (1908) PP. 71-72. (٣٧)

Ibid, 371/542/ (1908) 21 Apr. PP. 28-44. (٣٨)

لفرنسا». وكانت للمحافل الماسونية في سورية — وكانت للمحافل الماسونية علاقة هامة في حزب الاتحاد والترقي — علاقة وارتباط مباشر مع رئاسة تلك المحافل في بريطانيا، أو إيطاليا، أو فرنسا التي كانت بلا شك «تحمل اتجاهات سياسية». ونفى القنصل البريطاني من أن يكون لمحفل السلام المتعلق بالمحفل التابع لبريطانيا اتجاه سياسي، بينما أكد أن محفلي صنين في ضهور الشوير في لبنان، ومحفل لبنان في بيروت التابعين للمحفل الفرنسي — الايطالي هما اتجاه سياسي مماثل لهمايتين الدولتين^(٣٩). ولا بد من ذكر ملاحظة هامة، أن غاية الشعب تنظر إلى المحافل الماسونية نظرة فيها ريبة وشك وعدم اطمئنان، وأنها ملحدة وضد الدين.

ومن جانب القناصل الفرنسيين في سورية كان الاهتمام شديداً لابقاء العلاقات التاريخية الفرنسية السورية على استمراريتها، وعلى استمرار حق الحماية على الكاثوليك، وكان قنصل فرنسا في بيروت يطلب من وزراء خارجيته وجوب دعم الحماية الفرنسية، ووجوب وضعها أيضاً على المسيحيين الأرثوذكس، وعلى المهاجرين السوريين واللبنانيين إلى أمريكا الجنوبية. وكان ينظر بعين الريبة والحذر إلى علاقة الدروز، وخاصة الجنبلاطين وصدقاتهم ببريطانيا. وذكر مقابلة لنسيب جنبلاط مع القنصل الانكليزي، ووجوب مراقبة الطوائف الأخرى، كالموارنة، والأرثوذكس، وكان يعتقد بأن موقف هذه الطوائف قد يثير المشاكل فيما بينها^(٤٠).

وإذا كان جبل لبنان، قد حصل على استقلال ذاتي سنة ١٨٦١ إثر الحرب الطائفية، فإنه لا بد من تأكيد حقيقة ظلت تتحرك في نفس الاتجاه، وهي أن فئة من

(٣٩) F. O. 371/561/ (1908) No 77, & Nov. P. 47.

(٤٠) D. F. Aff. Etr, (d. G.) Politique intérieure, vol. VIII (111). 1908. PP. 2-3, 96-103.

كتب جورج كيرك من وجهة نظر انكليزية «كان اعتماد الفرنسيين على المارونيين من أهل لبنان، وكان شعور الطوائف المسيحية الأخرى نحوهم فاتراً، وأن غالبية المسلمين تكن لهم كراهية قلبية، وتسهلاً لمهمتهم عولوا بلا حرج على سياسة فرق تسد، بأن يستغلوا ويوسعوا شقة الخلافات الدينية التي نكبت بها سورية أكثر من أي بلد في الشرق الأقصى». جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط. ترجمة عمر الاسكندري، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٢٥٤.

المسيحيين أو الموارنة بشكل خاص، وهم من أصدقاء فرنسا كانوا يقودون التيار الاستقلالي أو الانفصالي عن الدولة العثمانية، بينما لانجد لذلك شياً لدى الدروز أو البروتستانت، وربما يدل هذا على شيء من الحث والتحريض، الذي كانت تقوم به فرنسا مع أصدقائها الموارنة، فهاهي اللجنة المركزية السورية التي تعمل من قلب فرنسا وتطالب بتمتين الصداقة مع فرنسا، وتطلب حماية فرنسا لكل سورية ولكل السوريين، تعلن في ٢٥ ديسمبر / كانون الأول / ١٩٠٨ عن عواطفها الطيبة نحو أبناء سورية الأمجاد وتطلب من الدولة العثمانية الاستقلال الذاتي أو الحكم على طريقة «البرلمان الغربي»^(٤١). وكان هذا تأكيداً لنفس النداء أو التصريح الذي وجهه ندره مطران في باريس إلى السلطان العثماني، في نفس التاريخ، يطلب فيه إعطاء سورية حكماً محلياً وبرلماناً. وإن أي تحرر أو خلاص لسورية سيكون بلا شك — حسب رأي أصدقائها المسيحيين — نفوذاً لفرنسا إن لم يكن حكماً تاماً^(٤٢). لكن فرنسا ظلت على الأقل تساوي بريطانيا، في تلقي شكاوي اللبنانيين عندما كانت لا تطبق الدولة العثمانية حكم البروتوكول الخاص بلبنان، وكانت القنصليات الانكليزية والفرنسية تميز عن باقي قنصليات الدول الأخرى الموقعة على بروتوكول لبنان، وتبارى في استقبال المشتكين، وتقبل عرائضهم، وتتدخل بعدها سفارتاهما في اسطنبول. ولم يكن الأمر يقف عند استقبال المواطنين وسماع شكاويهم، بل كان القناصل يقومون بدور تنفيذي وتدخل مباشر، أو إيجاد حلول للمواطنين تجاه الدولة. كما فعل القنصل الانكليزي (Cumberbatch) في بيروت، عندما قامت في مينائها حركة عدائية ضد الدولة لتحييها — حسب رأي عمال وأصحاب السفن اللبنانيين — مع المسلمين وتفضيلهم في أعمال الميناء على المسيحيين، واستطاع هذا القنصل أن يهدئ ويوقف تلك الحركة. وكان هذا القنصل ومن خلال جولة واسعة في لبنان يعتقد أن كل الأحزاب المختلفة في لبنان تحترم الأمة الانكليزية، وأن كلامه هذا كما يدعي «كلام حقيقي لا زائف»^(٤٣).

(٤١) D. F. Aff. Etr, vol. VIII (111), 25 Dec 1908, PP 257-258.

(٤٢) Ibid, PP. 256.

(٤٣) F. O. 371/781/ 25 Nov 1909, PP. 1-4.

وكانت بريطانيا تحاول أن تصلح بين أصدقائها الدروز، وتزيل ما بين زعمائهم من خصومات، كالخصومة بين الجنبلاطين والأرسلانيين، حتى لا تستغل هذا الخلاف جهات أخرى. لكن القنصل الفرنسي في بيروت، كتب عن جولة القنصل البريطاني هذه، بأنها كانت خروجاً عن المألوف، لأنها تضمنت زيارة للطوائف، لكن القنصل البريطاني لم يزر الموارنة — وقد زارهم في الجولة الثانية^(٤٤) — وبذلك خرج عن منطقة التأثير الفرنسي، لكنه زار الدروز ولقي كرمأ لا يوصف. وبدورها كانت وزارة الخارجية الفرنسية تتلقى التقارير من أصدقائها السوريين المسيحيين، تحضها على العمل بقوة وسرعة قبل أن يفلت الزمام من يدها، وتتسلمه قوى دولية أخرى، كألمانيا التي تحالف الدولة العثمانية وأنه إذا تحركت هذه الدولة (العثمانية) ضد لبنان، فإن ألمانيا سوف تهدم القلعة الكاثوليكية الفرنسية في لبنان^(٤٥). وكان اللبنانيون يتشبثون بفرنسا كي تمنع الدولة العثمانية من تغيير حكم لبنان وتحرمه استقلاله.

وأخذت في هذه السنة ١٩٠٩ تترد إشاعات كثيرة، ونقلتها الصحف — وستظل تتطور وتتضخم حتى سنة ١٩١٢ — إن بريطانيا تريد الاستيلاء على سورية وربطها بمصر، وكانت بدايتها تقول أن خديوي مصر، سيشتري أراضي السلطان عبد الحميد بين قونيا وحلب، وأنه زيادة على الفائدة المادية التي ستحصل عليها مصر من هذه الأراضي، فإنها تحمل رغبة بزيادة نفوذها السياسي في سورية وفلسطين^(٤٦).

(٤٤) D. F. Aff. Etr, vol. IX (112) 17 Oct 1909, PP. 201-204.

(٤٥) Ibid, PP. 96-101. (6 Juin 1909).

جاء في رسالة (بلا توقيع) إلى وزارة الخارجية الفرنسية بعنوان «Au Patériotisme Français» نطلق آخر نداء نحو روح فرنسا الحية للمساعدة والتخليص من أيدي السياسة السيئة والمنافسة وبعده الأسباب التي تتعلق بها وهي دورها البحر متوسطي، وحقوقنا، وامتيازاتنا، واستقلالنا وتاريخ الحكم الدولي... بالدم الذي أراقه الفرسان في سبيل القديس لويس، وكان القديس لويس ونابليون يعرفان تلك المشاعر نحو فرنسا ويعرفان تحريض انكلترا أو ألمانيا ضدها... وإذا تحركت تركيا ضد لبنان فإن ألمانيا سوف تهدم تلك القلعة... وكل العالم يعرف أن الإرساليات العديدة والمؤسسات ورجال الدين الكاثوليك في الشرق يعتمدون على السلطة الروحية المباشرة للبابا تحت حماية فرنسا.. Ibid.

(٤٦) F. O. 371/1002/ No 4235, 31 Jan. 1909.

وقد أرسل الوزير المفوض الفرنسي في القاهرة رسالة إلى حكومته في أبريل / نيسان / ١٩٠٩ ، وذكر فيه أطماع ألمانيا في فلسطين وأن انكلترا سوف تضم فلسطين وسورية في أقرب مناسبة ، حسب وجهة نظر بريطانيا نحو سورية ، وحسب الأسباب التاريخية الاستعمارية ، وهي تذكر (رسالة القنصل) أن سورية كانت دائماً مطمحاً (Convoitée) لأولئك الذين يحكمون مصر ، وأن هذا الطموح كان منذ بونابرت ومحمد علي في مصر ، وينصح الوزير المفوض الفرنسي حكومته بالأترك الساحة في سورية أمام انكلترا . كما أبلغ حكومته باتصال « السوريين » الموجودين في مصر به ، وقد وصفوا له حكم الأتراك السيئ ، وطالبوا أن تكون « فرنسا في سورية »^(٤٧) . وقد وصفت جريدة الأحوال البيروتية (موالية لفرنسا) اهتمام السير أولدن غورست ، المفوض السامي الانكليزي في مصر ، بسورية وبموقعها الهام في العالم ، وبأرضها لتستدل على أطماع الانكليز في سورية . لكنها ذكرت وصفاً غير لائق من أولدن غورست نحو السوريين ، وكان هذا لاشك يسبب التنافس بين أصدقاء الانكليز وأصدقاء الفرنسيين حول مصير سورية ، إذ جاء في هذه الجريدة « كتب السير أولدن غورست عن سورية قائلاً : لها موقع من أهم المواقع في العالم ، خصبة ومناخها طيب ، وهي بلا شك أرض الميعاد ، لكن سكانها لا يعرفون فضلها ، ولا يعرفون كيف يستخرجون كنوزها ، وقد تعودوا على الطاعة العمياء »^(٤٨) .

وقد يكون الاهتمام بسورية من قبل الانكليز أو من الفرنسيين جعلهم هؤلاء يتعاملون مع بعضهم ، وكأن الدولة العثمانية لم تعد موجودة ، وإشعاراً من إنكلترا بمقام فرنسا في سورية — وكان الصراع السياسي في أول مراحلها — أبلغ المفوض السامي الانكليزي في مصر زميله الفرنسي ، بأن سفينة انكليزية ستدخل المياه السورية ، وفعلاً دخلت السفينة في ١٨ أبريل / نيسان / ١٩٠٩^(٤٩) .

D. F. Aff, Etr, vol. IX (112) 26 April 1909. PP. 81-82. (٤٧)

Ibid, 7 April, PP. 54-56. (٤٨)

Ibid, 18 April, PP. 59-60. (٤٩)

ولم يكن لهذا التنافس الانكليزي-الفرنسي خافياً، بل كان مجالاً واسعاً في الصحف حسب ولائها. فالصحف المورانية تطلب الحكم الذاتي أو الاستقلال للبنان، بينما كانت صحف المسلمين تطالب بالبقاء في الدولة العثمانية. وقد كتبت جريدة المفيد (مسلمة) تستهجن مطالبة بعضهم بفرنسا والبعض الآخر بإنكلترا، في الوقت الذي تعجل فيه الدولتان على تقسيم الدولة العثمانية، وقد ضاق ذرعاً القنصل الفرنسي في بيروت من هجوم جريدة المفيد على سياسة فرنسا تجاه سورية، واقترح على وزارة خارجيته أن تحتج لدى حاكم لبنان، لكن والي بيروت أجاب القنصل الفرنسي بأنه لا يستطيع أن يجد من حرية الصحافة، إلا أنه وجد عدراً آخر وأغلق هذه الجريدة فيما بعد^(٥٠). ويبدو أن فرنسا أرادت إدخال المسلمين في سياستها الخاصة بسورية دعماً لسياستها الثابتة الدينية المسيحية، فطلبت من قناصلها فيها أن يرسلوا لها تقارير دقيقة عن الأشخاص المسلمين ذوي الأهمية. وقد أرسل القنصل الفرنسي في دمشق لائحة بهؤلاء كان يحدد فيها قابليتهم للاتصال بالأجانب، أو صداقتهم أو رفضهم لهم^(٥١)، وهو سبيل ذكي للاتصال بهم.

وكان تدخل الانكليز والفرنسيين في شؤون سورية الداخلية، يصل إلى حد التدخل بالأمور الصغيرة أو الخاصة بالحكم العثماني ذاته. لكن عندما كانت تدخل ألمانيا كعنصر منافس، كان الموقف الانكليزي والفرنسي يتوحد ضد النشاط الألماني. وكانت الدولة العثمانية تستخدم ضباطاً انكليز، أو ألمان، أو فرنسيين كمدرسين للدرك في حلب وغيرها. وكانت الدولة العثمانية قد نقلت ضباطاً انكليز من سالونيك إلى حلب لهذه الغاية، ثم وصل مجموعة من الضباط الألمان الفرسان لتعليم الدرك في دمشق وحلب. وعندها تقدمت بريطانيا باقتراح إلى الحكومة العثمانية، أن تعين ضباطاً

(٥٠) Ibid, 21 Dec, P. 245. et vol X (1910) Jan P. 27.

(٥١) جاء في وصف قنصل دمشق لأحد المسلمين المهمين في دمشق وهو (س.ب) «عربي من المذهب الوهابي، ذو علم واسع، وهذا يعني أنه طليق في علم الدين مالم يعرف المسلمون مثله، ويبدو حراً وحقيقياً (يحتفي بالقادمين إليه) وهو اجتماعي مع الأجانب.

Ibid, 13 Juin 1909. P. 121.

فرنسيين لهذه المهمة في سورية (بدلاً من الألمان) لأن «لفرنسا مصالح فيها»، لكن الحكومة العثمانية رفضت وجهة النظر الانكليزية، وأوضح المسؤولون الأتراك، بأنهم لم يحددهم الحق بإرسال من يريدون وإرجاع من يريدون، وهم الذين يستبدلون الفرنسيين أو غيرهم^(٥٢).

ومن التدخلات الانكليزية الفرنسية المشتركة وجود السفن الحربية لكل منهما تجوب المياه السورية، وكانت تصل إلى الموانئ أو المياه القريبة من الساحل، إن كان في الاسكندرونه، أو اللاذقية لتقديم العون للأرمن، أو لنقلهم إلى جهات أخرى، أو لإجائهم على سفنهم أثناء وقوع الحوادث مع الأتراك في هذه المنطقة^(٥٣)، حتى إن دارعة (بارجة) فرنسية روعت مرة سكان بيروت عندما، أطلقت نيران مدافعها، وظن الناس أن الأسطول الإيطالي يهاجم بيروت. وتبين بعد ذلك أن النار كانت خليبية، لكن لأي سبب، ومن هذه التدخلات أيضاً تدخل السفارة البريطانية ثم الحكومة البريطانية من أجل صراع حدث بين شركة أجنبية لمد الماء في لبنان وبين الحكومة العثمانية التي لم تدفع المال^(٥٤).

ومن أجل طلب الحكومة العثمانية من اللبنانيين وجوب حمل تذكرة هوية، ثمها قرشان للرجل وقرش واحد للمرأة، أرسل القنصل الفرنسي لوزارة خارجيته مذكرة طويلة، وكانت انكلترا وفرنسا تطبقان قانون الامتيازات الأجنبية بشكل حرفي، ولا تغضان النظر عن أصغر الأمور. وبناءً على هذا القانون كانتا تجيزان لنفسيهما التدخل في الشؤون الداخلية^(٥٥). وقد احتجتا مع القناصل الآخرين للدولة العثمانية على خرق البوليس في دمشق لهذه القوانين، لأنهم دخلوا أماكن محمية لهؤلاء القناصل، وطلبتا نقل قائد الشرطة ومعاونيه، ومراعاة عدم دخول الأماكن المحمية إلا بعد موافقة القنصل،

(٥٢) F. O. 371/781/ No 28, 25 Nov 1909 et 371/1017/No 44796/ 7 Dec 1910.

(٥٣) انظر يوسف الحكيم، مذكرات، سورية والعهد العثماني، ص ١٧٨.

(٥٤) المقتبس، ٨٢٨، ١٣ نوفمبر /تشرين الثاني/ ١٩١١. و F.O.371/1494/ No19306,7Mai(1912).

(٥٥) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية (مذكرات)، ص ٥٢.

أو بحالات خاصة كالجرائم، وكان البوليس قد دخل أحد المحلات، وكان صاحبها أحد السوريين المشمولين بقانون الامتيازات الأجنبية، لأنه يعمل لدى إحدى القنصليات الأجنبية في دمشق. وكان البوليس يقوم بمهمة ملاحقة رسمية لأحد الناس لدى دخوله إلى هذا المحل^(٥٦).

وبدخول إيطاليا الحرب ضد الدولة العثمانية سنة ١٩١١ في طرابلس الغرب يكون قد دخل عنصر أجنبي آخر في الصراع الدولي حول المنطقة العربية. إذ أثارت هذه الحرب خوفاً واضطراباً بين المسيحيين، وكادت تثير فتناً وقلاقل مسلحة بين المسلمين والمسيحيين في سورية. وازدياد الاهتمام الألماني في سورية في المجال الزراعي، وإرسال الخبراء الألمان الذين بلغوا مئتين في حلب فقط، ووصول قطار محمل بالمواد من طرابلس إلى حلب لإكمال خط حديد بغداد، تكون العوامل المؤثرة الأجنبية أصبحت كثيرة تتنازع هذا البلد الصغير. وقد أجمل القنصل البريطاني العام في بيروت تلك المؤثرات الأجنبية، التي كانت تعمل منذ القديم حتى وصلت إلى ما هي عليه من أهمية وخطر عام ١٩١١، وكان هذا العام نفسه وما بعده قد شهدا نشاطاً دولياً مكثفاً حول اقتسام أملاك الدولة العثمانية بين الدول الأوروبية، ولمن ستؤول بناءً على ذلك ملكية سورية. وذكر في تقريره إحصاءً عن سكان سورية بمن فيهم اللبنانيين، لكنه استثنى القدس من الإحصاء دون ذكر سبب، ولذا يمكن تفسير ذلك بما ستؤول إليه حالة ومستقبل القدس إلى غير العرب خلال الحرب وبعدها وحتى الآن. جاء في تقريره «وتصادق فرنسا الكاثوليك في سورية، مع أنها تطردهم مع كل الفئات الدينية الأخرى من فرنسا. وهي تتقرب إليهم جميعاً وتعني بكنائسهم، وقام القنصل الفرنسي في بيروت بتلك الرعاية للمسيحيين والكنائس والمدارس، وزار البطريرك الماروني ويطبق معه علاقات صداقة. وهنالك تنافس روسي وألماني وفرنسي في المنطقة، وإن إرسال سفينة حربية فرنسية إلى سورية، في أثناء الحرب الإيطالية التركية لحماية المسيحيين، دليل على أن فرنسا تريد أن تلعب دوراً في سورية، وسوف تأخذ فرنسا الجانب الديني، وتناصر

الموارنة على الماسونيين . ولألمان معاهد كاثوليكية في سورية كالمستشفيات والمدارس . كما تقوم روسيا برعاية الأرثوذكس وتفتح لهم المدارس والمستشفيات . وتثيل البروتستانت في سورية ، بالانكليز ، والسكوتلانديين ، والأمريكيين ، والألمان ، والبعثات الدانماركية . والبروتستانت لا يعانون في سورية أكثر من الفئات المسيحية الأخرى في الدولة العثمانية . ومدارس الأرمن تخضع للأمريكيين الذين يقومون بنشاط بين عشائر العلويين ، وقد خصصوا لذلك بعثة من عشرين أمريكياً يساعدهم ٤٨ علوياً . كما تعمل البعثة الألمانية الانجيلية في بيروت وفلسطين ... والمحمديون لهم الحماية الخاصة من الدولة ، حيث هم الأكثرية ، وقد ثار شعورهم ضد المسيحيين خلال حرب طرابلس ..» (٥٧) .

(٥٧) F. O. 371/1236/ No 47157 (6 Nov 1911).

جاء في هذا التقرير أن عدد سكان سورية يقدر بـ ٢٨٩٣ر٤٠٠ نسمة ما عدا سنجق القدس ويقسمون حسب الطوائف كما يلي : محمديون : ١٦٤ر٠٠٠ ، لاتين : ١٠ر٣٠٠ ، موازنة : ٣٠٨ر٣٠٠ . واليونان الموحدون : ١٤٠ر٠٠٠ ، سريان : ٤٥ر٦٠٠ ، أرمن : ١٨ر٩٠٠ ، كلدان : ١ر٧٨٠٠ ، يعقوبيون سوريون : ٤٥ر٦٠٠ ، نساطرة وأرثوذكس : ١٥ر٠٠٠ ، أرمن غريغوريون : ٢٣ر١٠٠ ، بروتستانت : ٢٠ر٠٠٠ ، يهود : ٥٠ر٠٠٠ ، دروز : ١٥١ر٠٠٠ ، علويون : ٨١٩ر١٠٠ ، اسماعيلية : ٩٠٠٠ ، أجانب : ١٣ر٩٠٠ والمذاهب الكبيرة هي : الكاثوليك الرومان ، الأرثوذكس اليونان ، البروتستانت ، اليهود ، المحمديون (المسلمون) .
— للأرمن ١٠٧ مدارس فيها ٦٠٠٠ طالب (أمريكية) .
— للعلويين ١٨ مدرسة فيها ٦٤٠ طالباً (أمريكية) .

— البعثة الانجيلية الألمانية ٣١ شخصاً يعملون في مستشفى القديس John في بيروت ولهم ميم ومدرسة فيها ٣٢٠ طالباً وفي حيفا لهم مكانان لخدمة الكنيسة والتمريض من قبل مرضات زائرات وأساتذة لروضة الأطفال ، ويشارك في مستشفى القديس يوحنا John أطباء انكليز وأمريكيون وألمان ، ولألمان ميم في القدس اسمه (Schenellers) باسم مؤسسه ، وله أرض زراعية في سهل شارون قرب الناصرة ، ولهم في القدس مدارس عملية (Operates) ، كما لهم في بيروت وأماكن أخرى ، ولهم مدرسة المعهد في حيفا وكذلك المدرسة الانجيلية ، والدانماركية لهم بعثة من ٨ أشخاص يساعدهم ١٧ سورياً بـ ٤٥٠ طالباً ، ولهم مخطط لأعمال طبية وكنسية ، والبروتستانت من الانكليز (٢٠٠) ومن الأمريكيين (١٥٠) في سورية يقدمون خدمات طبية في ٢٨ مدينة وعندهم أكثر من ٤٠ طبيباً وضعف العدد من الممرضات المتعمرات . وقد كانت زيادة امبراطور ألمانيا تقوية للبروتستانت في أعين المسلمين على حساب الكاثوليك والأرثوذكس في أثناء زيارته وخطابه في دمشق ، وحته للمسلمين على فهم جديد لأهميتهم في دمشق ، وأهمية البروتستانت تتركز في حيفا حيث هم ٥٠٠ شخص ، معظمهم زراعيون ولهم كنيسة ومدارس ومصحات . وللبيوت (إضافة إلى نشاط حركتهم وشراء الأراضي) الشركة الانكليزية — الفلسطينية ، والبنك

←

وبعد أن تبين أن الاحتلال الإيطالي لطرابلس الغرب هو دائم، وأنه تم بموافقة الدول الأوروبية الأخرى، وأن الاتصالات الأوروبية فيما بينها، والتحالفات ضد الأطماع الألمانية المتنامية في الدول العثمانية، كل هذا جعل كل دولة تتخذ لها خطأً وسياسة يوافق مصلحتها. وكانت كل واحدة تحاول جذب الدول الأخرى للموافقة على خططها. وفي عام ١٩١٢ كان تحديد المصالح الأوروبية في سورية، وفيه تحولت الشائعات وكلام الصحف إلى قرارات سياسية من قبل الحكومة الفرنسية، وقرارات أخرى موافقة من قبل الحكومة الانكليزية. ويستطيع من يقرأ الوثائق لهذا العام أن يقرر أن الصحافة هي التي جرت الحكومات إلى اتخاذ الموقف المحدد، وكان القناصل يحركون ويضخمون هذه الأقوال، وكأنها أصبحت حقيقة واقعة. وكانت الصحف الموالية للانكليز أو الفرنسيين تعطي صورة مخالفة عن الواقع الذي تراه الصحف الأخرى. ويمكن بسهولة أن نتبين أن مسألة سورية وهي مازالت في الدولة العثمانية أخذت تبرز وتظهر على شكلين:

آ: حسب رغبة فرنسا وأصدقائها من السوريين، تميز هذا الاتجاه لخلق:

- | | |
|-----------------|------------------------|
| تحت حماية فرنسا | ١ — دولة سورية ولبنان. |
| | ٢ — دولة سورية. |
| | ٣ — لبنان. |

ب: حسب رغبة بريطانيا وأصدقائها من السوريين وتميز هذا الاتجاه من أجل:

- ١ — ربط سورية بمصر تحت الحماية الانكليزية.

وفي الوقت نفسه ظل الاتجاه العربي المسلم يعمل للحصول على اللامركزية في سورية وتبقى ضمن الدولة العثمانية.

→ الألمانى الفلسطينى، وبنك سالونيك. والحمديون هم الأكثرية في دمشق وحلب، وينظرون بتعال إلى المسيحيين واليهود، بينما هم كأقلية في بيروت يؤلفون الطبقة الدنيا، وهم عنيفون ويستغلون عطف الحكومة ولا يخافون العقاب، ويستعملون العنف الشخصي، والصحف المحلية تجند وتثني على الاتحاد الاسلامي الذي أسسه السلطان عبد الحميد.....

انتشرت شائعات في بداية ١٩١٢ عن اتفاق الدول الأوروبية لاقتسام تركيا، ومنها سورية التي ستكون تحت إدارة فرنسية، وبشكل خاص بما يتعلق بالجمارك، وأن فرنسا سوف تحتلها احتلالاً، وأن أحد السوريين الموجودين في مصر (عثمان العظم)، قد أتى إلى بيروت لهذه الغاية^(٥٨)، ولذا أخذت الصحف المسيحية، التي تنتظر قدوم الفرنسيين، تنتقد بمرارة وجود القوات العثمانية في لبنان^(٥٩)، لأن ذلك لابد أن يعرقل دخول القوات الفرنسية. وسرت شائعات أخرى بين المسلمين في سورية، أن بريطانيا ستحتل «مناطق محفوظة لفرنسا»، حسب رسالة سفير فرنسا في استانبول، ويعيد هذا السفير قصة العلاقات التاريخية والثقافية الفرنسية مع سورية، وكذلك التضحيات التي قدمها الفرنسيون والسوريون حفاظاً على هذه العلاقة، لكنه ذكر أن سورية أرض صالحة للزراعة بشكل استثنائي، ولهذا كله ولطبيعة السكان، ولاعتبار النظام العام الذي يتبعونه، يسمح السفير لنفسه بلفت انتباه وزير خارجيته ويذكره بالدعاية التي يقوم بها عملاء بريطانيا في سورية، من أن مصر وسورية كانتا دائماً موحدتين، كما تكتب عادة جريدة المفيد^(٦٠). كما كتبت جريدة (Le Temps) في ٢٨ أبريل / نيسان / تحذر من اهتمام بريطانيا في سورية^(٦١).

وفي مصر، كانت فئات من السوريين المسيحيين العاملين بالسياسة منقسمة إلى قسمين، الأول يوالي بريطانيا، لأنها اعتنت به، ووظفت عدداً من أفرادها في وظائف عالية في دوائر الدولة في مصر وفي السودان وفي الجيش الانكليزي، وكانت جريدة المقطم، والمقتطف، والأهرام، والمؤيد. من أنصار الحكومة البريطانية، وتعيش بكنفها. والقسم الثاني كان مؤيداً لفرنسا، وخاصة من ذوي الاتجاه اللبناني الصرف، أو الاتجاه اللبناني - السوري، كالاتحاد اللبناني، ولجنة أرز لبنان، والجالية المارونية، وأفراد آخرين في حزب الاتحاد السوري في مصر.

(٥٨) من قنصل فرنسا في بيروت (29 Jan 1912) D. F. Aff. Etr. vol XIII

(٥٩) Ibid. P. 38.

(٦٠) D. F. Aff. Etr, vol. XIII (116) 30 April 1912, PP. 84-87.

(٦١) Ibid, P. 90.

وأخذ قناصل فرنسا في سورية ومصر، وكذلك سفيرها في استانبول، يرسلون التقارير إلى حكومتهم، تحمل حب وتأييد مجموعات من السوريين، وتحمل في كثير من الأحيان معنى بدعوة فرنسا إلى حكم سورية ولبنان. فتقرير يحمل صداقة كامل الأسعد زعيم الشيعة في لبنان لفرنسا، وكان لذلك أهمية كبيرة «لأنه ينشر محبتها في منطقة مازالت ضعيفة فيها»^(٦٢). وعريضة من سكان (دير القمر) إلى وزير الخارجية الفرنسية، عن علاقة فرنسا الإنسانية مع سورية ولبنان «وأن سكان دير القمر رجالاً ونساءً وأطفالاً يعتبرون أنفسهم بقية المستعمرة القديمة الفرنسية الضائعة في أعماق الشرق»، ويطالبون بأن يكون لهم عضو في مجلس إدارة لبنان، وأن يكون لديهم مندوب فرنسي أو أجنبي لحفظ مصالحهم^(٦٣). وفي تقرير آخر من (De France) قنصل فرنسا في مصر، يحمل العواطف الطيبة التي فوض الاتحاد اللبناني في مصر داود عمون أن يظهرها لها^(٦٤)، كما أرسل دو فرانس تقريراً آخر حدد فيه عدد سكان سورية بـ ٣٥ مليون، منهم ٧٠٠ — ٨٠٠ ألف مسيحي، إضافة إلى ٥٠٠ ألف مسيحي في المهجر أيضاً (أمريكا) وبذلك يكون السكان المسيحيين حسب رأيه ١٣ مليون، وأن هؤلاء — كما ادعى — يديرون صحافة تلعب دوراً هاماً بالدعاية لفرنسا — عدا المقطم في مصر التي تميل للانكليز، والأهرام تميل للسوريين — وأن لفرنسا الدور الديني الأول في سورية وفلسطين، «وسوف يكون الامتحان جدياً بالنسبة لمستقبل سورية في حالة التفكك السريع للامبراطورية العثمانية»^(٦٥). وطالب الاتحاد اللبناني في مصر بتشكيل حكومة لبنانية ذاتية، تمثل القوى فيه، وقد وقع اسكندر عمون على هذا الطلب^(٦٦). كما تقدم بعض الأشخاص البارزين اللبنانيين بعريضة إلى وزارة الخارجية الفرنسية

(٦٢) Ibid, vol XIV (117) 14 Oct. 1912, P.32.

(٦٣) كانت العريضة موقعة من: سعيد البستاني، بول انطونيوس، جوزيف شكري.

Ibid, P. 19 (28 Oct 1912).

(٦٤) Ibid, vol. XIII (116) 5 Mai 1912. P. 101.

(٦٥) D. F. Aff. Etr. vol. XIV, 25 Nov 1912, P. 47.

(٦٦) Ibid, P. 145. (20 Nov 1912).

بوساطة قنصلها في بيروت ، يطلبون فيها توسيع حدود لبنان ، ووضعه تحت الحماية الفرنسية^(٦٧) ، كما تقدمت اللجنة اللبنانية في باريس تطالب بحقوق لبنان تحت إمرة أمير أجنبي وحكومة أوروبية « وهذا أقل المطالب »^(٦٨) . وكانت توجد تقارير مرفوعة إلى وزارة الخارجية الفرنسية ، من بعض المهتمين السوريين بقضية سورية ولبنان ، وضعت على شكل مذكرتين :

الأولى خاصة بلبنان ، تتحدث عن تاريخه ومصائبه ومصيره ومستقبله ، وكان تاريخها ٢٣ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٢ .

والثانية خاصة بسورية بنفس التاريخ المذكور ، وتقول بأنه ينتظر سورية ثلاث حالات :

- ١ — الاستقلال التام .
- ٢ — الاستقلال الذاتي ، أي الحماية تحت قوة أجنبية (فرنسا أو انكلترا) .
- ٣ — ربط سورية بمصر^(٦٩) .

وطلبت جمعية الدراسات الاستعمارية والبحرية (الفرنسية) في جلستها المنعقدة في ٢ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢ في فندق العلماء في باريس Savants ، أن تكون سورية في حالة انسلاخها عن الامبراطورية العثمانية تحت سلطة فرنسا ، وأنه يجب ألا يسمح لأية سلطة أخرى غيرها أن تتمتع بهذا الحق^(٧٠) .

وكتبت جريدة (Le Temps) عدة مقالات متتالية عن سورية ، حددت في عدد ٢٣ نوفمبر / تشرين الثاني / جميع حقوق فرنسا التاريخية منذ أيام لويس التاسع ، وفرنسا الأولى ، ونابليون في سورية ، وأن البابا فوضها بحق حماية المسيحيين في سورية ، وتحدثت عن نداء بوانكاريه للدولة التركية ، كي تأخذ الاعتبار الكبير لتجنب المذابح

(٦٧) الحكيم ، مذكرات ، بيروت ولبنان ، ص ٤١ .

(٦٨) D. F. Aff. Etr, vol. XIV, 23 Nov 1912, P. 105.

(٦٩) Ibid, 25 Nov 1912, PP. 114-119.

(٧٠) Ibid, vol. XV. P. 3.

ضد المسيحيين، وذكرها بأن فرنسا تملك حق حمايتهم الذي تقره المعاهدات، والعادات، والمصالح، والمشاعر....، وتلك هي من سياسة فرنسا القانونية والدينية في كل المشرق....^(٧١).

وإلى جانب هذا النشاط الفرنسي المكثف حول مستقبل سورية ولبنان، والوصول إلى درجة الاقتناع والتسليم من جانب فرنسا، بأن المسيحيين، وأكثريتهم من الكاثوليك ينادونها لحكم بلادهم بأي طريقة كانت، وللرغبة لدى قسم كبير من الصحافة الفرنسية كي تبسط فرنسا سلطتها، بحقها التاريخي، على سورية. وكذلك إلى جانب كثير من الهيئات الفرنسية الأخرى التي كانت تحمل نفس الآراء، وصلت هذه القضية إلى ذروتها عندما تبنتها الحكومة الفرنسية رسمياً — وسنذكر ذلك بعد قليل — إلى جانب كل هذه الاعتبارات، السياسية الدينية المسيحية من قبل فرنسا، وأصدقائها الذين بنوا تلك الآراء، وكأن سورية تخضع فقط لرغبة فئة من المسيحيين فيها المطالبين بحماية فرنسا، وعدم إعطاء رأي الأكثرية من المسلمين الوزن الحقيقي لهم في تقرير مصيرهم. لاحظ القنصل الفرنسي في دمشق ذلك الخطأ في تبني فرنسا لسياستها المسيحية، وأخذ بعين الاعتبار المسلمين في سورية، ووجوب مراعاتهم ووضع أمير عليهم من دينهم وعاداتهم وتقاليدهم، كما هو في مصر، ونبه حكومته إلى خطر الحماية الفرنسية القائمة على دعم المسيحيين وحمايتهم، فقال في مذكرة له في ٣ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢ «إن تمسك فرنسا بتقاليدها في سورية، كحماية المسيحيين، يجعل قضية هذه الحماية في حالة متدنية، لأنه يجب أخذ المسلمين بعين الاعتبار، ووضع أمير عليهم من دينهم، ومن عاداتهم، وتقاليدهم كما في مصر، ولا تظهر هذه القضية في بيروت بنفس القوة التي تظهر فيها في دمشق، حيث يجب الأخذ بعين الاعتبار، وجود وطنيين كشفيق المؤيد، وشكري العسلي، ومحمد كرد علي، وعبد الوهاب الانكليزي»^(٧٢). ولاحظ قنصل فرنسا في القاهرة تلك القضية الحساسة في

F. O. 371/1521/ No. 49863. (٧١)

D. F. Aff. vol. XV. 3 Dec 1912, P. 19. (٧٢)

سياسة فرنسا بين المسلمين والمسيحيين في سورية، ونبه حكومته إلى وجوب تغيير الخطة الفرنسية في سورية عند احتلالها (من قبل فرنسا)، مراعاة لقضية المسلمين، فقال في مذكرة له في ٥ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢ إلى وزارة الخارجية الفرنسية «إن لفرنسا أرضية قوية لدى المسيحيين، وحتى إن الأرثوذكس التابعين لروسيا سوف يكونون مع فرنسا، والذي يخشى هو ترديد بعض المسلمين القول بأن احتلال فرنسا لسورية يعني انتصار المسيحية على الإسلام، ويجب الانتباه لهذه المسألة، حتى إنه في حالة احتلالنا فهي سوف تجربنا على تعديلها.... ولقد تلقى الموارد عطفنا ودعمنا في الشائعات التي تخص مستقبلهم»^(٧٣).

أما قضية ربط سورية بمصر تحت الحكم الانكليزي، فقد كانت — كما ذكرنا — شائعات أطلقتها الصحف الموالية لبريطانيا، ورددتها الصحف الموالية لفرنسا، تنذر بالخوف، وقد بدأت هذه الشائعات خلال سنة ١٩٠٩ وتكررت خلال سنة ١٩١٠، إذ جاء في تقارير بريطانية من سورية ثم أرسلتها السفارة البريطانية في استانبول إلى لندن، أن العرب في سورية يرفضون سياسة التتريك والصهيونية والغزو اليهودي، ولذا فهم ينظرون إلى الخديوي كالحاكم العربي الوحيد، الذي يجدون فيه الأمل في يوم من الأيام تحت ظل بريطانيا، وأنهم بذلك سوف يحصلون على مركز مميز عن بقية العرب في الدولة العثمانية^(٧٤). ثم ترددت تقارير فرنسية كثيرة، تحمل أخبار القناصل الفرنسيين في سورية ومصر، عن قصة ربط سورية بمصر، ووضعها تحت الحماية الانكليزية، وقد حذر (De France) قنصل فرنسا في مصر حكومته من محاولات بريطانيا الرامية إلى تنفيذ تلك الخطة، وهي ربط سورية بمصر^(٧٥). كان هذا في ففريه / شباط / ١٩١٢، ثم كرر نفس التحذير في يونيو / حزيران /. لكن كان هذه المرة مقروناً بالخوف من رغبة بريطانيا بتوحيد سورية ومصر^(٧٦). وأرسل سفير فرنسا في لندن

(٧٣) Ibid, 5 Dec, P. 39.

(٧٤) F. O. 371/1010/ No 19596, 29 Mai 1910, P. 301.

(٧٥) D. F. Aff. Etr, vol. XIII 27 Fev, 1912, P. 39.

(٧٦) Ibid, P. 167.

معلقاً على آراء دو فرانس الخاصة بسورية، وبمحاولة بريطانية ضمها لمصر فقال «إن السوريين مدينون لفرنسا تقريباً بكل ما يملكون من مميزات وفوائد سياسية، ومعنوية، ومادية، وهم دائماً في حاجة لها في مختلف أمورهم، ونحن مستعدون لتقديمها، وحتى دون أن نتفق مع وجهات نظرهم، لكن يمكننا أحياناً فهم تفكيرهم، وسوف يدركون خلال تطورهم العدد الكبير من المشاريع التي أنجزتها فرنسا في سورية»^(٧٧) وأرسل سفير فرنسا في استانبول تقريراً يتحدث فيه عن رغبة بريطانيا بتوحيد سورية مع مصر، ويكرر عواطف السوريين الطيبة نحو فرنسا^(٧٨). وفي تقرير آخر من قنصل فرنسا في القاهرة في ٩ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٢، يتحدث عن آمال السوريين، وكيف تحاول بريطانيا تحقيقها، وهي بلا شك موجهة ضمناً ضد الدولة العثمانية، لأن الأمر لا يقف عند حد سورية، بل يصل إلى الخلافة وإرجاعها للعرب، فقال «اجتمع وجهاء المسلمين هنا (في القاهرة) والعرب بمناسبة الحرب التركية البلقانية، وطالبوا بالمطالب التالية:

١ — الاستقلال الذاتي الكامل لسورية.

٢ — جعل الخليفة عربياً في الأناضول محاطاً بدولة عربية، ولا يمكن للسلطان العثماني أن يكون الخليفة، والحدودي يعمل منذ فترة على انهاض المجتمع، وأن رحلة أخيه إلى سورية وأمريكا لها نفس الأهداف، وسوف تدعم بريطانيا ذلك، كما تكلم (الحدودي) أيضاً مع شيخ السنوسيين الكبير «وسوف يكون لسلطان المغرب تأثير في الخلافة التي تقر له بها الوثائق»^(٧٩) استناداً إلى ما تدعيه الوثائق الفرنسية.

وأكد دو فرانس في تقرير آخر أيضاً محاولات كشتنر المفوض السامي البريطاني في مصر، الذي يختلف عن سابقه كرومر والدون هورست، لأنهما كانا يحاولان فقط، المحافظة على مصر، التي أصبحت قلب الامبراطورية البريطانية، بينما هو يريد أن

(٧٧) Ibid, P. 10 Juillet 1912, P. 281.

(٧٨) Ibid, P. 11 Jui 1912, P. 284.

(٧٩) Ibid, vol XIV, 9 Nov 1912, P. 59.

يحيطها بدرع، أما بالنسبة لاحتلال سورية، بعد اختلال التوازن في البحر المتوسط عقب الحرب الإيطالية—الطرابلسية والحرب البلقانية، فهي مسألة حياة أو موت بالنسبة لبريطانيا، وذكر من جديد قضية الخلافة الماثرة في مصر في اجتماعات المسيحيين والسوريين (٨٠).

وفي لبنان، طلب الطلاب السوريون في المدارس الأمريكية في بيروت من القنصلية البريطانية أن تكون بريطانيا هي حامية لسورية تحت الحكم الانكليزي—المصري، بينما طالب الموارنة السوريون من فرنسا والقوى الأخرى بتخطيط حدود لبنان^(٨١)... وفي رسالة لدو فرانس إلى مسيو بوانكاريه رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية ينفي أن للسوريين عواطف مع الانكليز^(٨٢)، وهذا يناقض كثيراً من كتبه السابقة.

وفي إحصاء لعدد سكان سورية، ادعت التقارير الفرنسية أنه لا يوجد إلا ٣٥ ألفاً من أصل ٣٥ مليون (وهو عدد سكان سورية آنذاك) يجذبون انكلترا، وهم البروتستانت، وطلاب الجامعة الأمريكية في بيروت وحلب^(٨٣).

وثمة تقرير آخر لسفير فرنسا في استانبول، يتحدث فيه عن نشاط بعض السوريين من أجل ربط بلادهم بالانكليز، أو بالحكم الانكليزي في مصر، برغم

Ibid, 20 Nov, 1912, P. 69. (٨٠)

Ibid, vol. XIV, 18 Nov 1912, P. 85. (٨١)

Ibid, 20 Nov, 1912, P. 95. (٨٢)

(٨٣) جاء في هذا الإحصاء: عدد المسلمين ١٥ مليون، متاوله ١٥٠ ألفاً، شركس ٥٠ ألفاً، تركان ٥٠ ألفاً، كرد ٥٠ ألفاً، فرس ٨ آلاف، دروز ٢٠٠ ألف، علويون ١٧٠ ألفاً، اسماعيلية ٢٥ ألفاً، يزيديه وغيرهم ١٥ ألفاً، أما المسيحيون فهم: الكاثوليك: موارنة ٥٠٠ ألف، يونان كاثوليك ١٢٠ ألفاً، سريان ١٥ ألفاً، أرمن ١٥ ألفاً، كلدان ٧ آلاف، لاتين ٥٠ ألفاً، والمسيحيين الأرثوذكس: يونان: ٢٥٠ ألفاً، سريان ١٥ ألفاً، أرمن ١٥ ألفاً، كلدان ٥ آلاف، بروتستانت ٣٠ ألفاً، اسراييليون ٢٠٠ ألف والمجموع العام المسلمون ١٨٠٨ مليون والطوائف الاسلاميه الأخرى ٤١٠ آلاف والكاثوليك ٧٠٧ آلاف والأرثوذكس والآخرون ٣٣٣ ألفاً والمجموع العام ٣٤٥٨ مليون.

Ibid, P. 147.

نشاط قناصل فرنسا في دمشق، وبيروت، وحلب، والقدس. «وبرغم تأثيرنا الاقتصادي في هذه البلاد»^(٨٤).

وأعاد من جديد دو فرانس ما تذكره الجرائد الميالة للانكليز عن ربط سورية بمصر^(٨٥). وفي رسالة أخرى له تحدث عن استمرار الخديوي بنشاطه لإقامة وحدة إسلامية أو عربية، وإقامة إمبراطورية عربية من جديد، يكون لها خليفتها تحت تأثير الهيمنة الانكليزية^(٨٦). ولا شك أن هذه المعلومات كانت تحركها مناشير حزب اللامركزية الإدارية العثماني، أو بما كانت تعرف بالمناشير الثورية، وفيها برنامج عن الانفصال العربي عن الدولة العثمانية، وتشكيل إمبراطورية عربية آسيوية يكون عليها سلطان عربي مسلم، وتضم الجزيرة بما فيها الحجاز^(٨٧). وكانت هذه النشاطات السورية في مصر مشجعة من قبل الانكليز، باعتقاد فرنسا، وإن طرح مثل هذه القضايا مع انطلاق الشائعات من مصر أيضاً عن تحركات الخديوي والخلافة، يعطي الانطباع عن رغبة الانكليز — من وراء ظهر فرنسا — بضم سورية إلى مصر. وكانت هذه الدعاية تعزى لكثشنر الذي كان يسعى خلف هذه الأهداف في مصر وفي سورية أيضاً، إذ أبلغ قنصل فرنسا في بيروت حكومته، بأن المسلمين في لبنان قد اجتمعوا في ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢ (في منطقة الجنوب)، واتخذوا قرارات شبيهة بما حدث في مصر، وهي إقامة إمبراطورية كبيرة تقوم على الجامعة العربية، ويكون لها خليفة عربي، وأن المجتمعين قد دعوا إلى الحماية الانكليزية وأرسلوا بذلك برقية إلى اللورد كثشنر^(٨٨).

وخلال هذه العاصفة من التقارير والتخوف من احتلال الانكليز لسورية، كتبت جريدة المقطم في مصر، أن البعض أعطى سورية لانكلترا، والبعض الآخر

Ibid, vol XV, 3 Dec, 1912, P. 21. (٨٤)

Ibid, 11 Dec, 1912, P. 68. (٨٥)

Ibid, 12 Dec, 1912, P. 74. (٨٦)

Ibid, 16 Dec, 1912, P. 93. (٨٧)

D. F. Aff, Etr, vol XV, 16 Dec, 1912, PP. 89-90. (٨٨)

أعطائها لفرنسا، لكنها مازالت متمسكة بالامبراطورية العثمانية^(٨٩). كما كتبت جريدة (حط بالخرج لصاحبها فخري البارودي) الهزلية في دمشق، أن الانكليز سيحتلون فلسطين وسورية، ولهذا أرسل القنصل الفرنسي في دمشق رسالة إلى وزير خارجيته ذكر فيها «أنه ربما يأخذ الدمشقيون هذا القول على محمل الجد مع أن جريدة حط بالخرج جريدة هزلية»^(٩٠). كما كتبت جريدة المؤيد في القاهرة في ٢ جانفي / كانون الثاني /، أنه لا توجد قضية سورية إلا في أذهان الصحف الفرنسية والحكومة الفرنسية التي يعرف السوريون أنها حامية للمسيحيين، فالألمان، والترك، والانكليز، والسوريون أنفسهم يعرفون أنه لا توجد قضية سورية لأنها جزء من الامبراطورية العثمانية^(٩١).

أما موقف الحكومة الفرنسية، فقد ظل حتى ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢ مترثاً، ورغم إلحاح الأخبار لاتخاذ موقف جاد أمام الأطماع الانكليزية في سورية. وأعلن رئيس الوزراء الفرنسي المسيو بوانكاريه في رسالة له إلى مسيو بول كامبون سفير فرنسا في لندن، أن السوريين طلبوا مراراً كثيرة حماية فرنسا، لكنها رفضت نداءهم، ولهذا فالقضية تبقى تركية ولا يجوز أن تكون تحت حماية «الألمان» أصدقاء الأتراك، وذكر رئيس الوزراء أيضاً أنه أبلغ دو فرانس في مصر عن قصة رحلة اللورد كتشنر إلى سورية، وعن الضجة التي يقوم بها الانكليز بشأن سورية^(٩٢).

أما موقف الانكليز من هذه القضية، فقد كان بشكله الرسمي مشجعاً لتبني فرنسا سياسة ترعى بها مصالحها في سورية — كما سنرى — وكان ينكر أية علاقة لانكلترا في سورية أمام المسؤولين الفرنسيين على الأقل، أو في سياستها الرسمية. فخلال اجتماع (Sir A. Nicolson)، أمين عام وزارة الخارجية البريطانية بالسفراء الأجانب، لدراسة الموقف الخطير بمستقبل ألبانيا والبلقان في ٢٥ نوفمبر / تشرين الأول / ١٩١٢ في لندن، قيل إن فريد باشا الألباني نائب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء التركي) سابقاً

(٨٩) Ibid, vol XIV, 22 Nov 1912, P. 143.

(٩٠) Ibid, vol XIII, 20 Mar 1912, P. 48.

(٩١) Ibid, vol XV, 2 Dec, 1912, P. 76.

(٩٢) Ibid, 18 Nov, 1912, P. 81.

— وكانت له علاقة مصاهرة بخديوي مصر ، فإنه متزوج من ابنة الخديوي — الذي كان سيصبح رئيس دولة ألبانيا المستقلة بالاتفاق مع الباب العالي ، قد اقترح توحيد سورية مع مصر — وربما تحدث مع الخديوي بهذا الشأن — وكان رأي نكلسون ، أنه من الصعوبة بمكان ، أن يقبل الباب العالي بذلك ^(٩٣) . ولم يذكر نكلسون نفيّاً أو رفضاً لهذه القضية .

وفي ٢٦ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٢ أبلغ المسيو كامبون السير ادوارد غراي وزير الخارجية البريطانية ، بالشائعات التي ذكرت في مصر ، عن سفر كتشنر إلى سورية — وهذا أثار صحف باريس — لأن فرنسا لها مصالح كثيرة في سورية وتعلق عليها أهمية كبيرة ^(٩٤) .

وأكد القنصل البريطاني في بيروت في ٤ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢ ، تلك الشائعات التي ترددها الأوساط الفرنسية عن احتلال بريطانيا المقبل لسورية ، وعزاها إلى أن السوريين من غير الكاثوليك ، وبعض الكاثوليك أيضاً ، يطالبون باحتلال بريطانيا لسورية ، وأن السلطات التركية منعت الجرائد المحلية من الخوض في هذا الموضوع ، بينما تنشره الصحف المصرية على نطاق واسع ، وأن الموازنة في لبنان والكاثوليك يميلون لفرنسا ، وأن زيارة الكابتن الفرنسي ، قائد الطراد الفرنسي ، لبيروت — وهو فيها حالياً — تقوي هذا الشعور . وقد زاره كثير من اللبنانيين ، ومنهم ٢٠ من رجال الدين يطلبون جميعاً الحماية الفرنسية . ويقال إن فرنسا ستقيم في لبنان حكماً تحت سلطتها ، وأنها عينت القنصل الفرنسي في بيروت لهذه الغاية ^(٩٥) .

وأكد هذه الأخبار سفير بريطانيا في استانبول (Gerard Louthier) في ١٥ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢ ، مشيراً على حكومته ، بالألا يؤكد القناصل

(٩٣) Gooch, vol IX 2 Part, P. 228. عن F. O. 50769/42842/12/44 No 576, 28 Nov 1912.

(٩٤) F. O. 371/1522/ No 580.

(٩٥) F. O. 371/1522/ No 79, 4 Dec, 1912.

زار الطراد الفرنسي جول فري ميناء جونية ، وزار قائده بطريك الموازنة زيارة رسمية ، بيشون ، ص ١٢٢ .

البريطانيون هذه الأخبار، حتى يُنفي التنافس الانكليزي — الفرنسي فقال « عما يشاع في إقامة حكم ذاتي في سورية تحت حماية أو رعاية بريطانيا، فإن هذا نتيجة لسياسة التريك ضد العرب، الذين أصبحوا في خط واحد، وخاصة الانفصاليون منهم في سورية، وأن على الانكليز أن يكونوا مستعدين للأحداث، ونتيجة لذلك فإن الميول الصهيونية في لجنة الاتحاد والترقي تساهم أيضاً بذلك، ويجب أن ينفي القناصل الانكليز هذه الأمور، حتى لا يقال عن وجود تنافس بين فرنسا وبريطانيا، وخاصة وأن المناقشات دائرة في لندن مع روسيا أيضاً، التي لها مصالح مع ٣٠٠ ألف أرثوذكسي، يجب أن تبقى الدول الثلاث على خط واحد، وخاصة لأن لألمانيا مصالح في الاسكندرونه ومنطقة سورية الشمالية»^(٩٦).

ولقد نفى فعلاً، وزير الخارجية البريطانية ادوارد غراي، أطماع بريطانيا في سورية لنفس الأهداف التي ذكرها سفيره في استانبول، وأرسل إلى كتشنر يخبره بأن الصحف الفرنسية تؤكد عن طريق ضباط البحرية، بأن سكرتير كتشنر، والقنصل البريطاني في بيروت، يميكان الدسائس لاحتلال سورية، وأنه (غراي) قد أكد للحكومة الفرنسية، بأن هذا غير طبعي، وليس للانكليز مقاصد وآمال في سورية. وأكد غراي لكتشنر أن هذا فعلاً أمر غير طبعي^(٩٧).

وفعلاً أكد ادوارد غراي نفيه لمطامع بريطانيا في سورية، وأبلغ الحكومة الفرنسية بذلك. إذ أرسل بوانكاريه رسالة إلى سفيره في لندن يؤكد له فيها، أن السير ادوارد

(٩٦) Ibid, No 1072.

(٩٧) Ibid, No 92, 7 Dec, 1912.

نشرت الصحيفة الألمانية Frankfurter Zeitung برقية من جريدة Temps بأن ضابطاً انكليزياً في السفينة Barham أخبر حاكم طرابلس في لبنان بأن البحارة الانكليز إذا نزلوا إلى سورية لحفظ الأمن فيسبقون دائماً. وهي مسألة وراءها قائد السفينة الألمانية برسلو الراسية في الاسكندرونه، وأن كلامه هذا ينبع من مصالح ألمانيا في سورية. ويقال بأن كتشنر سيلتقي بالمحمدين في يافا وحيفا وبيروت لاحتلال بريطانيا سورية.

Ibid, No 24, 2 Dec 1912 (From Dresden)

غراي قد أكد له استمرار السياسة الفرنسية — الانكليزية، وعدم من هذه العلاقة بما يخص سورية، وأن ليس لانكلترا أية أطماع أو أغراض فيها^(٩٨).

أجاب كتشنر في ٨ ديسمبر / كانون الأول / ادوارد غراي، بأن المسألة لا أساس لها من الصحة، وأن الموضوع عبارة عن وجود عدد كبير من السوريين المسلمين والمسيحيين في مصر، وهم يفضلون بريطانيا على فرنسا في الإدارة، وقيمون أملاً في نجاحهم في المستقبل على ارتباطهم بمصر، وأن بعض الصحف قد ذكرت دعوة بعض السوريين المسلمين والمسيحيين لكتشنر لزيارة سورية، لكنه لم يستقبل أحداً بهذا الخصوص، ولم يسمع شيئاً بعد ذلك ولا تسمع دسائس عن سورية^(٩٩).

وقد أصبحت قضية سورية حساسة بالنسبة للسياسة الانكليزية تجاه فرنسا. حتى أن السير ادوارد غراي لم يشأ أن يناقش مع السفير الألماني (Herr Von Kiderlen) في معرض أزمة البلقان، أي موضوع عن آسيا الصغرى، ولا حتى خط حديد بغداد. وقد أظهر مسيو كامبون له قلقه من جراء اجتماعه بالسفير الألماني، وخشيته من تطور علاقات ألمانيا ببريطانيا، فأجابه ادوارد غراي، بأن الصحف الفرنسية مازالت تستمر في الحديث عن تأمر بريطانيا في سورية، وأكد له أن بريطانيا لا تدبر أية دسائس ضد سورية، وليست لها أهداف ولا آمال فيها، ولم يجز مع سفير ألمانيا أي شيء بهذا الخصوص^(١٠٠).

وكانت فرنسا تخشى من علاقة ألمانيا الجديدة ببريطانيا، لأن الصحف الألمانية أخذت تهتم بمسألة سورية، وقد ذكرت إحدى الجرائد الألمانية عن مصالح فرنسا في سورية التي تتذرع بها فرنسا لاحتلال سورية، وقالت إن هذا الأمر وهم في خيال الصحافة الفرنسية^(١٠١).

(٩٨) D. F. Aff. Etr., vol XV, 7 Dec 1912, P. 43-98.

(٩٩) F. O. 371/1522/ No 85, 8 Dec, 1912.

(١٠٠) Gooch, IX, Part 2 P. 250. عن F. O. 52328/5569/12/44/ No 593, 5 Dec 1912.

(١٠١) D. F. Aff. Etr., vol. XIV, 17 Nov 1912, P. 79.

وكذلك إيطاليا، فقد أرادت أن تستغل فرصة التنافس الانكليزي الفرنسي على سورية، لتطالب ببعض الجزر والأراضي في شرقي البحر المتوسط وفي آسيا الصغرى، وقد أثار سفيرها باجتماعه مع ادوارد غراي قضية سورية، وماذا يجري في فرنسا من أجلها. واقترح أن يطرح موضوع سورية بين قناصل الدول الأوروبية الست أثناء اجتماعاتهم من أجل حل قضية ألبانيا والبلقان. فأجاب ادوارد غراي، بأن كل ما يفعله هو انكار أية دسائس تقوم بها بريطانيا، أو انكار أية خطط تخص سورية، وأن ليس لديه أي سبب يجعله يفكر، بأن فرنسا تصمم على أي ضربة بما يخص سورية «وطبعاً إذا أثبتت القضية السورية، فإن القوى الأخرى ترغب في طرح قضاياها بما يخص تركيا، وفكرت أنه لا حاجة لمناقشة قضية سورية» (١٠٢).

وإزاء ضغط الصحف الفرنسية على حكومتها بما يخص سورية، وإزاء تقارير الدبلوماسيين وآراء الاقتصاديين الفرنسيين، ولما أعلنت بريطانيا عن موقفها بالابتعاد عن سورية، وأنها لن تناقش القضية السورية، كان لابد من اتخاذ موقف فرنسي رسمي تجاه هذه القضية التي كثر الكلام فيها. عرضت القضية على مجلس النواب (البرلمان) الفرنسي في ٢١ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٢، وألقى بوانكاريه خطاباً مطولاً، تحدث فيه عن مشاكل البلقان، وعن العلاقات الدولية، التي ظلت تعيش أوضاعاً مؤقتة، كادت تتحول إلى أوضاع دائمة، وتحدث عن العلاقات الطيبة بين فرنسا وبريطانيا، التي لم تكن في يوم من الأيام أحسن منها، وتحدث عن سورية فقال «نحن مصممون على الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا في الشرق، وستسعى فرنسا لبذل كل ما يجب، لصيانة هذه التقاليد المقدسة وحماية «كرامتنا القومية»» (١٠٣).

ثم تكلم في مجلس الشيوخ في ٢٤ ديسمبر / كانون الأول / وعرض لمسألة سورية فقال «ولست بحاجة للقول، بأن لنا مصالح تقليدية في سورية ولبنان بوجه

Gooch, IX, Part 2, PP. 323-324. (١٠٢)

D. F. Aff. Etr, vol XV, 21 Dec, 1912, P. 110. (١٠٣)

خاص، ونحن مصممون على حمل الجميع على احترامها، وأستطيع أن أضيف على ذلك بكل سرور هذه الجملة:

«لقد توهم بعضهم أن هنالك اختلافاً بيننا وبين انكلترا حول هذه المصالح، وأقول إنه ليس لنا ما يرر وجود هذا الوهم، فقد صرحت بريطانيا بكل صدق ومودة أنها لا تنوي القيام بأي عمل في تلك الأراضي، وأنه ليس لها أي مطمع سياسي أو غير سياسي فيها بأي شكل من الأشكال، ونحن عازمون عزماً أكيداً على المحافظة على سلامة أراضي تركيا في آسيا، ولكن لن نتخلى عن أية عاطفة من العواطف التي نحملها، ولن نتنازل عن شيء من مصالحنا أو ندعها عرضة لأي خطر»^(١٠٤).

نشرت الصحف الفرنسية تصريحات بوانكاريه، تعلن اوتياحها لسياسة فرنسا التي تعمل لحفظ مصالحها في سورية ولبنان، وكان هذا كلاماً جديداً من حكومة فرنسية، لأن مثل هذا الكلام لم يصدر عن مسؤولين فرنسيين منذ زمن طويل. وجذبت جريدة (Le Temps) سياسة بوانكاريه المخالفة لسياسة بيشون في موقف فرنسا من سورية، وجعلت السوريين واللبنانيين يعرفون أن بوانكاريه يعينهم في كلامه^(١٠٥).

وترددت تأييدات السوريين واللبنانيين المسيحيين من أصدقاء فرنسا لتصريح بوانكاريه. ففي احتفال ديني جرى في الكنيسة المارونية في الاسكندرية في ٢٦ ديسمبر / كانون الأول /، طلب فيه البطريرك ميشيل معوشي، واسكندر عمون، (رئيس الاتحاد اللبناني في مصر) من مندوب فرنسا في الاحتفال، معاونة فرنسا للبنان، وقالوا بأن كل اتصال بلبنان هو ارتباط بفرنسا^(١٠٦)، وأرسل القنصل الفرنسي في الاسكندرية يتحدث عن تحيات البطريرك الماروني لفرنسا، وأنه على صلة حميمة

(١٠٤) Ibid, P. 110, 134, 142.

وانظر أمين سعيد، أسرار الثورة العربية، بيروت دار الكتاب العربي بلا تا، ص ١٣٢-١٣٣. وبيشون، ص ١٣٨.

(١٠٥) Ibid, P. 142.

و F. O. 371/1522/ No 539, 24 Dec, 1912.

(١٠٦) D. F. Aff. Etr, vol. XV, 26 Dec, 1912, P. 153.

البطريك الماروني في لبنان^(١٠٧)، وأرسلت اللجنة اللبنانية في بيروت، مباركتها لبوانكاريه، بشأن تصريحه من أجل سورية^(١٠٨). وأيدت الجمعيات اللبنانية والصحف السورية المنتشرة في المهجر سياسة فرنسا الجديدة نحو سورية، كجمعية نهضة جبل لبنان المؤسسة في البرازيل، التي طالبت بحقوق لبنان تحت التأثير المعنوي والسياسي والعالي لفرنسا^(١٠٩)، وكبث جريدة أبو الهول في البرازيل في أول ففريه / شباط / ١٩١٣ في سان باولو (S. Paulo)، تؤيد تصريحات بوانكاريه وتطلب من السوريين دعمها «إن بوانكاريه يحب بلادكم أكثر منكم فاعتبروا»^(١١٠). كما أرسل المسيحيون اللبنانيون في السودان رسالة شكر إلى بوانكاريه بمناسبة تصريحه بشأن سورية^(١١١). وامتدح القس زوين (ماروني) (Mgr Zouain) في كلمة له نشرتها جريدة (Journal des Debats) ألقاها في جمعية الدراسات الاستعمارية والبحرية في باريس في ١٧ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٣، امتدح بها بوانكاريه لكلمته في مجلس النواب الفرنسي، وإصراره على ألا ترتبط سورية بأية قوة أجنبية غير فرنسا، بعد انفصالها عن الحكم التركي^(١١٢) ونشرت جريدة (Echo de Paris) في ٩ ففري / شباط / ١٩١٣ تهنئة الجالية السورية في فرنسا للمسيو بوانكاريه بمناسبة انتخابه رئيساً للجمهورية، وقوله بأن السياسة التي تبناها في سورية سوف يتابعها خلفاؤه من بعده^(١١٣). أما كيف كان تأثير تصريح بوانكاريه على بريطانيا والدول الأخرى؟

فسر السفير البريطاني في باريس تصريح بوانكاريه بشأن سورية، بأن الصحف الفرنسية أثارت قصة مصالح بريطانيا في سورية، حتى تتخذها وسيلة كي تعلن فرنسا

(١٠٧) Ibid, 26 Dec, 1912, P. 156.

(١٠٨) Ibid, vol XVI, 1 Fev 1913, P. 144.

(١٠٩) D. F. Aff. Etr, vol XV, 24 Dec 1912, PP. 122-123.

(١١٠) Ibid, vol XVI, P. 139.

(١١١) بتوقيع اسكندر فوزان، خطار كنعان. Ibid, 9 Jan 1913, P. 35.

(١١٢) F. O. 371/1775/ No 87.

(١١٣) Ibid, P. 361.

رسمياً عن مصالحها في سورية، «وهذا ما حدث»^(١١٤). وفُسرت جريدة (Times) الانكليزية، أن عدم اهتمام بريطانيا بسورية لا يعني تحديد ما هية هذا الاهتمام، ونشرت مقالات متتابعة عن معارضتها لسياسة فرنسا في سورية، ولما تدعيه وتكتبه جريدة (Le Temps) الفرنسية^(١١٥). فقد كتبت جريدة (The Times) في ٢٣ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٣، أن بريطانيا ليست كما تزعم فرنسا أنها متفقة معها على إعلانها الخاص بسورية، وأعادت رفضها لمطالب فرنسا في مقال آخر في ٢٨ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٣^(١١٦). وقد تركت هذه المقالات أثراً سيئاً على العلاقات البريطانية—الفرنسية، حتى إن ادوارد غراي قد ذكر ذلك أمام السفير الألماني في مقابلة بينهما في ٢٤ جانفي / كانون الثاني / وعرض عليه مقالة جريدة التايمز، وقال بأن ما ذكره لكامبون عن عدم اهتمام بريطانيا في سورية — كما ذكرته الجريدة — لا يعني تغيير وضعها السابق «الذي هو غرضنا الذي نحافظ عليه». وكان من رأي السفير الألماني المحافظة على آسيا الصغرى وضممان وحدتها^(١١٧). وكان رأي السفير الألماني في روما أشد لأنه ذكر في وقت سابق أمام سفير بريطانيا في روما في ٦ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٣، أن دول الوفاق الثلاثة، إذا أرادت ابعاد ألمانيا بما يخص تقسيم آسيا الصغرى وسورية دون مشاورتها، فإن ذلك سيقود بشكل حتمي إلى الحرب، وأن ألمانيا لا تتحمل مراكش ثانية في تركيا^(١١٨). وكانت أهداف ألمانيا اقتصادية في تركيا كخط حديد بغداد، ومشاريع أخرى التي لا بد أن تتأثر، فيما إذا أصبحت سورية فرنسية — حسب رأي سفير فرنسا في برلين — وأن تلك المصالح تقع في حيفا وبيافا وأن، الاسكندرونه سوف تغدو ألمانية^(١١٩). كما أرسل سفير فرنسا في برلين — عن تقرير لقنصل فرنسا في رودوس (Rhodes)، أن ألمانيا قد اتفقت مع النمسا لتحديد مناطق

Ibid, 371/1522/ No 539. (24 Dec 1912). (١١٤)

Ibid, 371/1775/ No 84. (١١٥)

D. F. Aff. Etr, vol XVI, P. 73, 103. (١١٦)

F. O. 371/1775/ No 84. (١١٧)

Gooch, Part X2, P. 660 (No 454). (١١٨)

D. F. Aff. Etr, vol XVII, 18 Mars 1913, P. 63. (١١٩)

نفوذها في تركيا، ويوصي سفير فرنسا في استانبول، وقنصلها في القاهرة، بوجوب إعادة تأكيد مصالح فرنسا في سورية، وإعطائها دفعة جديدة مقابل ذلك^(١٢٠).

وأثار تصريح بوانكاريه إيطاليا، وخاصة ما أخذت تنشره من مقالات جريدة (Le Temps) حول سورية ومصالح فرنسا فيها. وخلال لقاء السفير الإيطالي في لندن بادوارد غراي في ٩ جانفي / كانون الثاني / أبدى السفير خوف حكومته من سياسة فرنسا نحو سورية، فأجاب غراي بأنه ينتقد الصحف الفرنسية لإصرارها على الاستمرار في إثارة هذه القضية، ورأى السفير أن إعلاناً بضمان أملاك تركيا ربما يخفف من خوف إيطاليا^(١٢١). وكانت إيطاليا تخشى بأنه في حالة تقسيم الدولة العثمانية، وربط الجزر الإيجية باليونان، وإعطاء سورية لفرنسا، فلا يبقى لإيطاليا شيء لتحتله في البحر المتوسط الشرقي. وقد اقترح ادوارد غراي بناءً على ذلك، أن يقوم المسيو بوانكاريه بتهدئة رئيس الوزراء الإيطالي الماركيز دي سان جيليانو (Marquis di San Guiliano) بما يخص سورية، وربما يساعد هذا على تخفيف أزمة الجزر اليونانية، التي تتعلق بها إيطاليا^(١٢٢). وكانت الحكومة الإيطالية ترى الاحتفاظ بجزيرة رودوس وجزيرة أخرى، حتى يتضح ما إذا كانت فرنسا ستحتل سورية وتأخذ ميناء بيروت أيضاً، وفي هذه الحالة فإنها (إيطاليا) يجب أن تحصل على ميناء من تركيا بالمقابل^(١٢٣). وظلت مخاوف إيطاليا تتحرك وتثار من جديد كلما كتبت عنها الصحافة الفرنسية، حتى إن السفير الإيطالي في لندن طلب في ٣٠ جانفي / كانون الثاني / من ادوارد غراي، أن يتأكد من موقف الدول الأوروبية، وعدم تدخلها في آسيا الصغرى، وخاصة فرنسا بما يخص سورية. وعندما قال غراي إن إيطاليا تستطيع أن تتأكد بنفسها من فرنسا، أجاب السفير بأن رئيس وزرائه يفضل أن تفعل بريطانيا ذلك — لزيادة التأكيد — وقد حدث ادوارد غراي المسيو كامبون في ١ ففري / شباط / عن الموضوع فأجاب كامبون، بأن

Ibid, 14 Avril, P. 166. (١٢٠)

F. O. 1585/106/13/44/ No 10 from Gooch No 480 IX, 2, P. 382. (١٢١)

Ibid 1773/106/13/44/ No 28 (10Jan), Gooch, Ibid, P. 388. (١٢٢)

Ibid, 2913/106/13/44/ No 35. Gooch, Ibid, P. 409. (١٢٣)

السفير الفرنسي في روما قد تحدث مع وزير الخارجية الإيطالية، وأبلغه تأكيد احترام فرنسا لسورية، وأن وزير الخارجية الإيطالية قد قال إنه لم يكلف سفيره في لندن لبحث هذا الموضوع مع ادوارد غراي، لكن هذا الأخير ذكر أن كامبون لم يكن دقيقاً تماماً، لأن السفير الإيطالي ذكر تلك القضية مرات كثيرة^(١٢٤). وقد جاء في الوثائق الفرنسية أن سفير إيطاليا في لندن، قد صرح إلى ادوارد غراي، بأن الحكومة الإيطالية ليس لها مطامع أرضية في سورية، لكن يجب ألا يكون لفرنسا بالمقابل مطامع أرضية في جزر بحر إيجه^(١٢٥).

ومن الولايات المتحدة الأمريكية، أرسل سفير فرنسا لوزارة خارجيته ينصح باتخاذ الحرص الشديد في معالجة المسألة السورية، لأنه يوجد اثنتا عشرة جريدة سورية تكتب من وجهة نظر عربية، وفي نيويورك وحدها توجد ثمان جرائد، وكان قنصل فرنسا فيها — حسب توصية سفير فرنسا في الولايات المتحدة — يعمل بين أهم جالية سورية فيها من أجل تحييد سياسة فرنسا في سورية^(١٢٦).

كما أن سفير فرنسا في ألمانيا قد نصح حكومته أيضاً، بالأ تذييع الصحف الفرنسية أخبار السياسة الفرنسية، وخاصة تجاه الدولة العثمانية، بسبب مطامع ألمانيا في سورية وفلسطين، وبسبب مصالح إيطاليا وروسيا فيها أيضاً، وقال إنه يجب انتظار موت الرجل المريض — الدولة العثمانية — الذي طال مرضه، ومن ثم يتم كل شيء بعد ذلك^(١٢٧).

كما كتب سفير فرنسا في لندن إلى حكومته، عن الأثر السيء الذي لقيته

(١٢٤) Ibid 5383/253/13/44/ No 84, 1 Fev, Gooch Ibid, No 585, P. 471.

(١٢٥) D. F. Aff. Etr, vol. XVI, 3 Fev, 1913, P. 145.

(١٢٦) D. F. Aff. Etr, vol XVI, 25 Jan, 1913, P. 100.

جرائد نيويورك السورية هي: الهدى (فرنسية)، مراد المغرب (أرثوذكس — روسية انكليزية). الاتحاد

(مارونية)، البيان (درزية)، المهاجر، الدليل، جرس الكردي، الصباح. Ibid

(١٢٧) Ibid, 6 Jan 1913, P. 20.

تصريحات جريدة (Le Temps) بالنسبة لعلاقات فرنسا في سورية، ولتصريحات بوانكاريه نفسه، وأن هذا الأثر السيء قد خلق جواً سيئاً بين المسلمين في سورية ومصر، وخاصة ممن يحيطون بالحدودي، وأن ادوارد غراي قد قال بأن العالم يعرف، أننا متفقون مع فرنسا على سورية، كما تتفق برلين وروما (١٢٨).

وكتب قنصل فرنسا في بيروت يعدد مصالح روسيا في سورية، وهي مدارس ومستشفيات في مناطق مختلفة كحمص مثلاً، وأن القنصل الروسي في بيروت قد صرح بأنه لا يعطي الأحداث في سورية أهمية بالغة، حيث يجب أن يكون السوريون وحدهم المهتمين بأموالهم (١٢٩).

ولا شك أن إعلان فرنسا عن مصالحها في سورية، قد ترك عاصفة معارضة لها بين جميع الدول الأوروبية، حتى من حليفتها بريطانيا، لأن هذا الإعلان جاء في وقت معقد من المسألة الشرقية، حيث كانت حرب البلقان ضد الدولة العثمانية قائمة، وكانت الدول الأوروبية في حالة اجتماع ومفاوضات مستمرة بالنسبة لحل مسألة البلقان وألبانيا، ولولا أن سورية كانت جزءاً من الدولة العثمانية التي تتصارع الدول عليها، لما ترك هذا الإعلان ذلك الأثر الكبير، لكن مصالح فرنسا في سورية، مع أنها خاصة بها حسب رأي فرنسا — وليس لأنها جزء من الدولة العثمانية — لم تكن في عرف الدول الأوروبية، إلا أنها نوع من تصفية الدولة العثمانية، والكل يطلب حصته، ولذا تعقدت الأمور أمام فرنسا في سياستها نحو سورية، بينما استطاعت أن تفرض نفوذها وحمايتها على المغرب في نفس السنة، واستطاعت أن تفاهم مع الدول العثمانية، وحتى مع ألمانيا صديقة تركيا، لأن المغرب لم يكن أصلاً داخلاً في المسألة الشرقية والدولة العثمانية كسورية.

أما موقف الدولة العثمانية نفسها من سياسة فرنسا، فلم يكن عنيفاً لكنه جاء رافضاً لها، وجاء على لسان جريدة (إقدام) الناطقة باسم جمعية الاتحاد والترقي، التي

Ibid, 13 Jan 1913, P. 42. (١٢٨)

Ibid, 13 Feb, 1913, PP. 173-174. (١٢٩)

ذكرت إدعاء فرنسا بمصالحها في سورية، ودفاعها عنها وإستشهادها بكلام بوانكاريه في البرلمان الفرنسي، وقالت هذه الجريدة إن «الفرنسيين غير عادلين، ويجب على العثمانيين أن يعلنوا أن سورية كأي جزء من الدولة العثمانية، بحاجة إلى إصلاح، وأنه يجب البدء بالإصلاح في سورية نفسها، ومع خطورة ما تقوله فرنسا يجب المحافظة على العلاقة الطيبة معها» (١٣٠).

وجدير بالذكر أن تصريح بوانكاريه، وتعليقات الصحف الفرنسية قبله وبعده، كانت متزامنة تماماً مع الحركة الإصلاحية التي قامت في بيروت في ديسمبر / كانون الثاني / وما بعده، ولا شك في أنه كان لها أثر فعال في تشجيع الإصلاحيين على عقد مؤتمرهم في باريس في صيف ١٩١٣، خاصة وإن قسماً كبيراً من هؤلاء الإصلاحيين، كانوا من أعوان فرنسا وأصدقائها والمطالبين بانفصال سورية أو لبنان عن الدولة العثمانية، ووضعها تحت حماية فرنسا، كأرشد، وزينيه، ومطران. وإذا كنا قد فصلنا كثيراً في تصريح بوانكاريه وأثره، فلأن هذا التصريح ولأن سياسة فرنسا المتمسكة بسورية، قد بقيا الاتجاه الفرنسي الذي تم تحقيقه فيما بعد رسمياً وفعلياً في تاريخ سورية. ولذا لم يكن مجرد تصريح سياسي لموقف طارئ، بل يدل على سياسة ثابتة لفرنسا نفذتها تماماً بعد سنوات.

اهتمام بالشخصيات والجمعيات السورية

كانت خطة فرنسا أو خطة قنصلياتها في سورية ومصر، هي جذب الشخصيات السورية المسلمة نحو سياستها، بعد تصريح بوانكاريه، الذي قام على أساس العلاقات التاريخية، وهي العلاقات المسيحية، التي كان يجب أن تجتذب المسلمين لسياستها حتى يتم لها النجاح في سورية، لأن دعاية بريطانيا وسياستها قامت على ربط سورية بمصر، على أساس أن يكون الخديوي في مصر خديوياً أو أميراً أو خليفة على مصر وسورية، وهو المسلم، وكان ذلك من تلقاء ذاته، لا يلقي معارضة

المسلمين المبدئية، أما سياسة فرنسا التاريخية المسيحية نحو سورية، فسوف تلقى مصادقة أنصار فرنسا من المسيحيين فقط، بينما تلقى معارضة كل المسلمين من ناحية مبدئية أيضاً، وهذا ما حاولت إصلاحه إصلاحاً وليس تغييراً جذرياً، مما جعل المسلمين دائماً يتعدون عنها، وهذا ما سوف يؤثر كثيراً في المستقبل على سياستها، وسنذكره في حينه.

وكان من الشخصيات السورية الهامة جداً في تاريخ الدولة العثمانية، وهو عزة باشا العابد (الدمشقي)، مستشار السلطان عبد الحميد الثاني، والعنصر الفعال في مد خط حديد الحجاز، من تلك الشخصيات التي اتصل بها الفرنسيون. إذ قابله دو فرانس في القاهرة في ٨ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٣، وكان القنصل الفرنسي يحاول أن يستفيد منه لكنه لم يكن يثق به. وربما كان عزة العابد نفسه، يحاول أن يستغل القنصل الفرنسي لفائدته الشخصية، ولذا تظاهر للقنصل بحب فرنسا، بينما يشك القنصل الفرنسي بأنه تركي أو يميل للانكليز، لكن المهم أن القنصل الفرنسي قال «لا يضايقنا أن يكون عزة العابد أحد العاملين لفرنسا بين من يعملون في سورية، وبالنسبة لحقوقنا في سورية فإن عزة باشا قد يتصل بنا، برغم ما يقال عنه أنه ميال للانكليز. وأنه قد وصل للقاهرة واستقبله عبد الكريم قاسم الخليل رئيس المنتدى الأدبي، الذي يعمل لإقامة خلافة عربية، وربما يتصل به من أجل هذا الهدف» (١٣١).

واتصل القنصل الفرنسي في دمشق بمحمد كرد علي، صاحب جريدة المقتبس

(١٣١) D. F. Aff. Etr, vol. XVI, PP. 27-30.

وما قاله عزة العابد للقنصل الفرنسي حسب رواية الأخير «إن أكتية السكان في سورية تقول أن فرنسا أم سورية، وكلهم يعرفون ما سوف يحدث ويتمنونه، لا يحبون الأتراك، ومعظمهم يطلب الانفصال التام عن تركيا، أو اللامركزية، ومعظمهم من الموظفين، وهناك قليل من يفضل البقاء مع الدولة العثمانية، والأرثوذكس أتباع روسيا يريدون أن تكون سورية تحت جميع القوى، وهناك قليل من يريد ربط سورية بمصر، وعلى فرنسا أن تحقق مصالحها وتراعي السوريين المسلمين. وفي سورية رجلان مؤثران يمكن لفرنسا أن تستفيد منهما، وهما أحمد بك الشمعة، وعبد الرحمن اليوسف، وكل العرب لا يحبون تركيا الفتاة...».

Ibid.

عدة مرات من أجل ضمه لصالح فرنسا، وكان يأمل هذا القنصل أن يميل كرد علي لفرنسا، ويكتب متعاطفاً معها، وقد ذكره مرة بقوله « يبدو أنه قد اتخذ موقفاً ملائماً معنا »، لكنه أعاد تصريحاً آخر في وقت لاحق لكرد علي، بأنه لا يكتب أية عواطف تجاه فرنسا، ثم عاد وتعاطف مع فرنسا، وكان ينتقد الأمور الإدارية والفساد في سورية (١٣٢).

كما زار شكري العسلي (عضو المبعوثين السابق ونائب دمشق) القنصل الفرنسي في دمشق، وانتقد بمرارة الحكم التركي، وكان يطالب بالإصلاح. وأعاد القنصل الفرنسي على مسمعه ما كان قد قاله لمحمد كرد علي، بأن سورية ستحصل على المساعدات من فرنسا، « وأنه علينا تحقيقها ». وذكر القنصل الفرنسي، أن كثيراً من الوجهاء السوريين الآخرين، تحدثوا إليه حديثاً مماثلًا لحديث العسلي، وهو طلب الإصلاح. وكان القنصل الفرنسي يذكر لهم دائماً « أنني أؤكد باستمرار من كل قلبي أنهم سوف يحصلون على مطالبهم العادلة » (١٣٣). — وسنناقش قصة هذه الاتصالات عند بحث محاكمات جمال باشا للسوريين واعدادهم بتهم الاتصال بفرنسا.

ومن الشخصيات السورية المعروفة الذين اتصلوا بفرنسا، يحيى الأطرش أحد زعماء الدروز الذي نفاه الأتراك بعد حوادث جبل الدروز سنة ١٩١٠ إلى جزيرة رودوس، إذ تقدم بطلب إلى القنصلية الفرنسية في رودوس كي تساعد على الخروج منها، وتعهده بأن يكون مخلصاً ووفياً للقنصل وفرنسا طول حياته، ووعد بأنه إذا رجع للجبل، فسيعمل لصالح فرنسا (١٣٤). كما اتصل عبد القادر الجزائري (حفيد الأمير عبد القادر) بالفرنسيين، من أجل مساعدة يحيى أيضاً (١٣٥). لكن يحيى الأطرش ذكر شخصياً لشكيب أرسلان، أنه لم يكن يريد أن تحتل فرنسا سورية، وكان يفضل

Ibid. vol XVII, 7 April 1913, P. 147, et vol XVI, 1 Dec, P. 9. et XX, 17 Oct. et 22 Oct, P. (١٣٢)

Ibid, vol XX, 19 Sep 1913, PP. 87-88. (١٣٣)

Ibid, vol XIX, 25 Mai, et 27 Jui, PP. 130-132. (١٣٤)

Ibid. (١٣٥)

عليها انكلترا، لكنه اضطر إلى توقيع التعهد للعمل من أجل فرنسا في سورية، حتى قبلوا إطلاق سراحه الذي اشترطوه وأخبروا به السلطات الإيطالية في رودوس. وقال إنه كان آمياً ورضي بالتوقيع على أي كلام، فوق ذلك التعهد. وعندما وصل إلى القاهرة، عهد الفرنسيون به إلى جبرائيل نقلا صاحب جريدة الأهرام ليراقب حركاته ويلازمه^(١٣٦).

واستقبل القنصل الفرنسي في دمشق (Emil Piat) وهو يتقن اللغة العربية، عمر الجزائري في دمشق — وكان قد زاره لأول مرة في باريس سنة ١٩١١ ديسمبر / كانون الثاني / —. كما زار الأمير علي هذا القنصل في ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٣، وكان القنصل ينتظر زيارة الأمير الثالث (ورما هو عبد الله بن عبد القادر). وكانت فرنسا تعتبر هؤلاء من رعاياها الجزائريين، وكانت تعطيهم رواتب معينة — وكان سعيد الجزائري يعتبر هذه الرواتب تعويضاً عن أملاكهم في الجزائر التي أخذتها فرنسا — وكانت هذه تحاول الاستفادة منهم ومن مجموع المهاجرين الجزائريين، وكانت تراقب أحوالهم وتكتب لتذكر الحكومة العثمانية، أنها تحمي هؤلاء الجزائريين، وأنهم ليسوا من مواطني الدولة العثمانية، وخاصة أولئك الذين هاجروا إليها من الجزائر. وكان قد زار الأمير علي بن عبد القادر الجزائري باريس حتى يدافع عن المسيحيين (وقد تدخل لصالحهم في الكرك)، لكنه أعلن أن زيارته كانت من أجل حركة الإصلاح التي تنوي الدولة أن تقوم بها في دمشق وحلب وبيروت^(١٣٧).

ونشطت الخارجية الفرنسية، وسفراؤها، وقناصلها، بالاهتمام بالسوريين

(١٣٦) شكيب أرسلان، مذكرات، سيرة ذاتية، ص ٤٣ — ٤٤.

Ibid, vol XVI 26 Jan 1913, P. 103, et vol. XX, 17 Oct 1913, P. 122. (١٣٧)

جاء في كتاب الايضاحات عن المسائل السياسية لجمال باشا (بخصوص محاكمات الوطنيين) أن عمر الجزائري ابن عبد القادر من تبعية فرنسا وكان يتقاضى راتباً قدره (٣٠) ليرة، ص ٥٨. بشأن اعتبار المغاربة تابعين عامة للحماية الفرنسية وليس للدولة العثمانية، انظر ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٢٢١.

المهاجرين في أرجاء العالم ، لكسب ثقتهم ولدعمهم سياسة فرنسا في سورية . فهذا وزير الخارجية الفرنسية يطلب من قنصل فرنسا في جوهانسبرج ، وجوب حماية المسيحيين السوريين في موزامبيق . وهذا نائب القنصل الفرنسي في البرازيل يرسل بمذكرة جوابية إلى حكومته ، يعلمها عن نشاط واهتمام بقية القناصل الفرنسيين في الدول المجاورة بمسألة السوريين ، أما في البرازيل فقد قال إنه تم تأسيس جمعية لبنانية بتوجيه من القنصلية الفرنسية ، وأن السوريين حسب تقرير هذا القنصل ، فقد كانوا « يفضلون الاتصال بالقنصلية الفرنسية عن الاتصال بالقنصلية التركية » . وأن غالبية المهاجرين السوريين يعملون تحت الراية الفرنسية^(١٣٨) . وكنا ذكرنا أن سفير فرنسا في الولايات المتحدة ، قد طلب من قنصل فرنسا في نيويورك أن يهتم بالجالية السورية فيها^(١٣٩) ، وجاء في جواب لقنصل فرنسا في أستراليا على رسالة وزير خارجيته ، بأن السوريين في أستراليا مهتمون بالتجارة ، وليس بينهم اهتمامات أخرى ، وقليل منهم من درس في المدارس الدينية « ويمكن القول بحالة عامة أن عواطفهم نحو فرنسا لكنهم تجار قبل كل شيء »^(١٤٠) وجاء في جواب لقنصل فرنسا في (Para) عن عدد السوريين في كل منها ، والأمازون ، ومارانهاو ، وبيوهي ، وكايرا (Caera) ، والمجموع ٣٦٠٠ شخص . وللجالية السورية جريدة في موراوس (Mauraoes) فقط ، كما أجاب المفوض الفرنسي في هايتي أنه لا توجد صحف سورية فيها ، أما في السنغال فيؤيد السوريون فرنسا^(١٤١) .

وفي سورية نفسها ، طالب السفير الفرنسي في استانبول بحكومته ، بزيادة القناصل الفرنسيين في المدن السورية ، وافتتاح نيابة قنصلية في حمص ، وتعيين وكلاء

D. F. Aff. Etr, vol. XVII, 7 April 1913, P. 150. (١٣٨)

Ibid, 22 April, PP. 215-216, et 20, 23 Mai, PP. 102-104.

Ibid, vol XVI, 25 Jan 1913, PP. 100-101. (١٣٩)

Ibid, vol XVII, 14 Mars 1913, P.42. (١٤٠)

D. F. Aff. Etr, vol. XX, 7 Juillet 1913, P. 10, vol XVI, 30 Juin 1912, P. 131, vol XVI, 3 (١٤١)

Sep 1914, P. 212.

قناصل في الناصرة، ونابلس (Naplouse)، وصفد (Safed)، وطبريا (Tibriliade)،
«لزيادة نشاط فرنسا في سورية» (١٤٢).

وبسبب هذا الاهتمام الرسمي الفرنسي، أخذت تؤسس الجمعيات السورية
واللبنانية، حيث يوجد السوريون واللبنانيون في أمريكا أو أوروبا أو إفريقيا، وأخذت
تلك الجمعيات تنشط لصالح فرنسا، وترسل الكتب المتلاحقة إليها تحضها على الاهتمام
بسورية، وعلى حمايتها واحتلالها وتخليصها من الأتراك. وأخذت الجمعيات السورية
واللبنانية الموجودة في فرنسا وتحت رعايتها، كالجمعية السورية المركزية، والجمعية السورية
من أجل الإصلاح والدفاع في سورية، ولجنة الشرق في باريس، واللجنة اللبنانية في
باريس، تقوم بنشاط واسع. حتى إن اللجنة المركزية برئاسة شكري غانم اتصلت
بالجمعيات السورية واللبنانية في العالم تحت حماية فرنسا. وقد نشطت الجمعيات
السورية في فرنسا بشكل واسع خلال عقد المؤتمر العربي فيها في يونيو / حزيران /
١٩١٣، وكان لشخصياتها أثر في عقد هذا المؤتمر وتقريبهم من الفرنسيين الرسميين
الذين قبلوا استضافة المؤتمر العربي في باريس، «لأن فرنسا بلد الحرية للجميع». ومن
تلك النشاطات الواسعة والمستمرة كان اجتماع اللجنة اللبنانية في باريس، برئاسة
شكري غانم ورئيس اللجنة في القاهرة اسكندر عمون، ورئيس اللجنة في نيويورك،
نعوم مكرزل، وبعض الأعضاء من الجاليات اللبنانية في أمريكا وإفريقية، وحدث هذا
الاجتماع في ٢٦ حزيران ١٩١٣ في نفس الفترة التي اجتمع فيها المؤتمر العربي، وقدم
الاحتجاجات التالية ضد تركيا:

١ — ضد الاتجاه القاضي بحل مجلس إدارة لبنان، على الرغم من حصانة الأعضاء
المنتخبين حسب نظام حكم لبنان.

٢- ضد فرض الضرائب الجديدة الخاصة بتغطية العجز في ميزانية لبنان، حيث رفضت تركيا سداده على الرغم من تعهداتها، واتفاقاتها الخاصة بذلك^(١٤٣).

توقيع شكري غانم (رئيس)

خير الله خير الله (سكرتير).

ونشرت اللجنة المركزية من أجل الإصلاح والدفاع عن المصالح السورية بياناً في باريس في ٢٢ أوت / آب / ١٩١٣، تعدد فيه الصعاب التي تلاقها سورية، وهي أكثر بلد متقدم في الامبراطورية العثمانية. وعددت طغيان الأتراك، ومذابجهم وانتشار الجرائم... وطالب بتحقيق الإصلاح وإنالة السوريين حقوقهم^(١٤٤). كما نشرت لجنة الشرق في باريس بياناً في ١٥ ففريه / شباط / ١٩١٣، بأنها تقبل أي مستقل لسورية (ضم، استقلال، حكم ذاتي، فرنسي، لكن لا تقبل بالترك^(١٤٥). وطالبت بعد عدة أيام اللجنة السورية المركزية بالإصلاح^(١٤٦).

ومن هذه النشاطات أيضاً، وفي الفترة نفسها ما بين انعقاد المؤتمر الإصلاحي في بيروت والمؤتمر العربي في باريس، اجتماع عدد كبير من الجالية السورية في باريس، وكانوا مائة في أبريل / نيسان / ١٩١٣ برئاسة قس الكنيسة السريانية في باريس. وكانت غاية الاجتماع التحضير لعقد مؤتمر في باريس تبحث فيه القضية السورية، وستناقش فيه فكرتان أساسيتان:

١- مطالبة تركيا بتحقيق حكم ذاتي إداري في سورية.

٢- في حالة عدم قبول هذا المطلب، يُصار إلى العمل لوضع سورية تحت الحماية الفرنسية^(١٤٧).

D. F. Aff. Etr, vol. XIX, P. 129. (١٤٣)

Ibid, vol XX, 22 Oaut 1913, PP. 58-90. (١٤٤)

Ibid, vol XVI, 15 Fev, 1913. P. 187. (١٤٥)

Ibid, 21 Fev, 1913, P. 200. (١٤٦)

D. F. Aff. Etr, vol. XVII, 16 April 1913. PP. 185-189. (١٤٧)

ومما لا شك فيه أن هذا الاجتماع كان أحد النشاطات السورية المرعية من فرنسا والذي أدى مع غيره من النشاطات الأخرى — التي ذكرناها عن المؤتمر العربي في حينها — إلى عقد المؤتمر العربي في باريس برعاية فرنسا، حيث استقبل بيشون وزير الخارجية الفرنسية بعد انتهاء المؤتمر أعضاء مكتبه، حيث قدمهم شكرى غانم، رئيس اللجنة اللبنانية في باريس، إلى الوزير المذكور ليتلقى شكر الزهراوي رئيس المؤتمر على «كرم فرنسا وأمل الأخوة بين المسيحيين والمسلمين وبين السوريين واللبنانيين» (١٤٨).

وفي هذه الفترة وما بعدها — خلال الحرب — أخذت تنشر الكتب والكتيبات عن مصالح فرنسا في سورية وعن كل المؤسسات التي تملكها في سورية من مدارس ومستشفيات وطرق حديدية وثقافية فرنسية (١٤٩)..... إلخ. وتركز في فرنسا أيضاً مجموعة من السوريين المثقفين الذين كانوا يعملون للدعاية الفرنسية في سورية، ويسوغون احتلال فرنسا لسورية. ونذكر منهم — وسنذكرهم في الفترات اللاحقة — الدكتور جوزيف صابوني الذي كان يعمل مربياً في قصر السلطان عبد الحميد، الذي أخذ يحض فرنسا على احتلال سورية وجبل لبنان في الحال وقبيل دخول تركيا الحرب. وكان يعتقد أن السوريين قادرون على تجهيز جيش من ١٠٠ — ١٥٠ ألف رجل للدفاع ضد الأتراك، والأجانب، ويقدم تحليلات كثيرة توجب هذا الاحتلال (١٥٠).

Ibid, vol . XX, 1 Juil. 1913, P. 2. (١٤٨)

(١٤٩) انظر تقريراً مطولاً عن المؤسسات الفرنسية في سورية، Ibid, XVIII, PP. 126-130. من هذه الكتب التي ظهرت في هذه الفترة

G. Poignant, les intérêts Français en Syrie (1913)

و Atala, les trois solutions de la question Syrienne (1913)

و L. Le Fur, Le protectorat de la France sur la Catholique d'orient (1914)

و Senator E. Flanrin, Nos droits en Syrie et en Palestine (1915)

و C. G. Bassine, la question du Liban (1915)

و Counte Gressaty, la Syrie Française (1916)

و H. Boudoion, La Syrie, champs de bataille politique (1920)

Ibid, Guerre 1914-1918, Turquie (Syrie-Palestine) vol 1 (867). PP. 11-17. (١٥٠)

وكانت فرنسا ترعى السوريين فيها بشكل مميز ، وخاصة بعد بداية الحرب ، لأنها زجت بالأتراك المقيمين فيها في المعتقلات ، وسمحت للسوريين الإقامة أحراراً في باريس . ويذكر عوني عبد الهادي أحد السوريين أو الفلسطينيين الذي كان يعيش في باريس في تلك الفترة ، « أن معاملة السوريين بالحسنى إن دلت على شيء ، فإنما تدل على مطامع فرنسا الاستعمارية في سورية » ، ومن أشكال هذه الرعاية ، أن التاجر اللبناني الكونت شديد ، قدم عوني عبد الهادي إلى مدير المحاسبات في أحد بنوك فرنسا ، على أنه سوري يجرى في عروقه دم فينيقي ، فقبل في الوظيفة . وكان هو وزملاؤه على علم باعتماد فرنسا على شكري غانم ، ودعايته الاستعمارية لفرنسا ، كما كانت فرنسا تحاول استخدام هؤلاء الشبان السوريين في بث الدعاية لها في البلاد التي تقيم فيها جاليات سورية في أوروبا وغيرها « ولذلك تركتهم أحراراً فيها ، وكان جميل مردم من الذين أوفدتهم لأمريكا لهذا الغرض » وقد قبل عن ضيق حال (١٥١) .

وربما كان أهم مظهر للاهتمام الفرنسي في سورية بشكل فعلي مؤثر على السكان ، هو إرسال عدد من سفن أسطولها إلى الساحل السوري في نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٣ . وكانت تتألف من ست دارعات ، وعدة طرادات ، ومدمرات ، ونسافات . ولقي جندها كل احترام في بيروت ، وبالغت الحكومة المحلية بإكرامهم . ودعاهم الوالي إلى وليمة حضرها قنصل فرنسا في بيروت . وفي اليوم الثاني توجه الأميرال الفرنسي إلى جونه بدارعتة ، فزار البطريك الماروني إلياس الحويك ، ورد البطريك له الزيارة إلى الدارعة . وجرت في ذلك اليوم مظاهرة في لبنان تعبيراً عن العلاقة الطيبة بين فرنسا ولبنان . كما زار الوفد الفرنسي زحله ولقي احتفالاً نادراً . وتوجه الأسطول الزائر بعد ذلك إلى القسطنطينية بدعوة من السلطان محمد رشاد لأمراله « دوه لايار » ، وأقام له احتفالاً بقصره يلدز أجلسه خلاله عن يمينه (١٥٢) . وذكر الحكيم بمذكراته هذه الزيارة لساحل لبنان فقال : « وكانت الغاية من هذه الزيارة إظهار اهتمام فرنسا بلبنان ،

(١٥١) أوراق عوني عبد الهادي ، ص ١٠ - ١٦ .

(١٥٢) مجلة الأسرار ، عدد ١ ، ١٠ أبريل / نيسان / ١٩٣٨ ، ص ١٣ - ١٤ .

وبأنها هي التي عضدت طلب اللبنانيين بتخصيص مرفأً جويهم لرسو البواخر الأجنبية» (١٥٣).

خطوط حديدية اقتصادية وسياسية

وكما ذكرنا لم تقف — أو ربما لم تقدر أن تقف — الدولة العثمانية موقفًا شديدًا تجاه إعلان فرنسا عن سياستها في سورية، وكانت الدول الأوروبية وما زالت في مناقشات واتفاقات بشأن الدولة العثمانية، وكانت فرنسا تتبع سياستين تجاهها، الواحدة اظهار الصداقة لها، والثانية إظهار حقوقها وعلاقاتها في سورية. وبسبب ضعف الدولة العثمانية فقد ظل الاتجاه الأول سائدًا على العلاقة الفرنسية العثمانية. وكان مظهر الصداقة إكرام السلطان لقائد الأسطول — كما ذكرنا قبل سطور — وفي هذه السنة أيضاً وبسبب تخوف فرنسا من خط حديد بغداد الألماني، الذي لو وصل إلى الاسكندرون لاعتبرت فرنسا ذلك تخلياً عن مصالحها في سورية للألمان — حسب رأي سفير فرنسا في القسطنطينية — ولهذا تقدمت فرنسا^(١٥٤) — مقابل حصول الألمان على مشاريع أخرى، منها تعهد ببناء مرفأً الاسكندرونه — للحصول على بعض الامتيازات عن طريق بومبار سفير فرنسا في القسطنطينية في ففريه / شباط / ١٩١٣، ومنها طلب حق تمديد خط حلب — رياق جنوباً إلى الرملة، وطلب امتياز إنشاء مرفأً طرابلس الشام ويافا. وقد قبل الباب العالي في ديسمبر / كانون الثاني / ١٩١٣، ثم ألحق باتفاق مالي عقد في أبريل (نيسان) ١٩١٤^(١٥٥). وفي هذا الاتفاق سوف تستعمل فرنسا جزءاً من الخط الحجازي برغم أنها لم تنبه، كما اتفقت معها على أن تعفي من الضرائب مئآت المؤسسات الفرنسية الموجودة في الدولة العثمانية، واعتبار مهاجري تونس وفاس كرعاء فرنسيين مثلهم مثل الجزائريين^(١٥٦).

(١٥٣) مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ١٠١، وانظر F. O. 371/1775/ No 33, April 1913.

(١٥٤) D. F. Aff. Etr, vol, XVII, 18 April 1913, P. 185.

(١٥٥) جان بيشون، ص ١٣٣.

(١٥٦) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٦٥ ص ٢٢١.

F. O. 371/2133/ No 159, 16 April 1914.

كما اتفقت فرنسا وألمانيا في ففريه / شباط / ١٩١٤، بشأن الخطوط الحديدية في سورية، نصت على أن يطلب الألمان امتيازاً لمذ سكة حديد بين حلب واسكندرونه، مع ربط السكة الحديدية بسكة حديد بغداد، ولا يعترض الفرنسيون على ذلك لأنهم بالمقابل سيطلبون امتيازاً لمذ سكة حديد تربط حماء بطرابلس الشام، من جهة وبدير الزور من جهة أخرى، مع ربط هذه السكة بخط حديد بغداد، كما نص على ألا تتعدى أعتبال الفرنسيين ومشاريعهم مسافة ٦٠ كيلومتراً شمال خط طرابلس الشام—دير الزور، وألا تتعدى مشاريع الألمان ٦٠ كيلومتراً جنوب خط اسكندرونه—حلب. أما المنطقة الواقعة بينهما فلا يختص بها أحد الطرفين، كما اتفق الطرفان على تنظيم أوليات المشاريع أيضاً، بشكل يضمن استفادتهما من الدولة العثمانية، آخذين بعين الاعتبار مالية الدولة العثمانية، وامكانية الاستفادة من القروض المقدمة لها. لتنفيذ المشاريع، فتكون الاستفادة مضاعفة^(١٥٧).

أما موقف بريطانيا من مذ خط حديدي من قبل فرنسا في فلسطين يصل إلى الحدود المصرية، فكان موقفاً معارضاً لذلك، خوفاً من زيادة نفوذ السوريين في مصر ومن ربط مصر بسورية، وهما بلدان «يتكلمان لغة واحدة». وجاء هذا الاعتراض على لسان كتشتر في ١١ مايو / أيار / ١٩١٣ حيث قال «بأنه لا لزوم لهذا الخط، لأن البواخر تقوم بهذه المهمة، والتجارة غير كبيرة بين البلدين المتجاورين، كما أن لذلك مخاطر على الأمن، وهو يزيد من تأثير السوريين الموجودين في مصر من مختلف الأصول، والذين تجمعهم مع المصريين لغة واحدة، وبسبب جوار البلدان. ولا يجب زيادة هذا التأثير، وخاصة فإن نشاطهم يجعلهم أهلاً لاستلام الوظائف والكتابة، وحتى مرتبة الوزارة، وتركيا أصبحت دولة آسيوية، بعد أن كفت عن كونها أوروبية، ولهذا أهمية لمصر فيما وراء قناة السويس واتصالها بفلسطين، واتجاه الحوادث الآن في سورية (الحركة الاصلاحية) يسير إلى اللامركزية، وهذا يعني حكومة غير قوية أو ثابتة، أو تقع تحت قوة عظمى، وبهذا يكون من المحتمل في المستقبل القريب أن يحل التأثير

(١٥٧) Ibid. وساطع الحصري، البلاد العربية، ص ٢١٨—٢١٩.

الأجنبي — لا شك يعني كتشنر فرنسا — محل التركي في المنطقة بين الحدود المصرية والفرات، ولهذا أثر فعال حتمي على هذا القطر» (١٥٨).

وكانت هذه القضية بالنسبة لفرنسا أكثر من كونها مد خط حديدي في فلسطين، بل هي اعتبار فلسطين جزءاً من سورية، حتى تكون في المستقبل تحت الاحتلال الفرنسي أو لا تكون. وقد حدث خلاف حول هذه المسألة، بين سفير فرنسا في استانبول، وبين المسؤولين عن الشؤون السورية في وزارة الخارجية الفرنسية، الذين كانوا يرون في مد خط حديدي، أهمية بالغة وخاصة عندما يبدأ من حلب. أما السفير فقال إنه من الصعب اعتبار فلسطين من سورية، حتى تكون تحت الاحتلال الفرنسي وخاصة القدس. بينما يقول مسؤولو وزارة الخارجية، إن فلسطين امتداد لسورية وسوف يكون لها في المستقبل تأثير متبادل، وسيقوي هذا التأثير وجود الخطوط الحديدية المشتركة «وكل ما يدافع عن مصالحنا في سورية سيكون له تأثير هام بالنسبة لفلسطين» (١٥٩). لكن هذه القضية لم تستمر مثار خلاف بين الدولتين، لأن مشاريع مد الخطوط الحديدية لم ينفذ في سورية بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى. على أن الجدل السياسي الخاص بسورية، وحساسية الدولتين من بعضهما، ظل سائداً، وكان الفرنسيون يهتمون قنصل بريطانيا في بيروت بنشر نفوذ دولته ومعارضة نفوذ فرنسا (١٦٠). حتى إن غراي عندما كان يعلن عن عدم معارضته لسياسة فرنسا في سورية، كان في الحقيقة يقصد عدم تشجيعها، «لأن معارضة فرنسا والتدخل في سورية سوف يجعلها (فرنسا) أكثر نشاطاً في التدخل في شؤونها وشؤون لبنان» (١٦١).

ومن نشاطات هذا القنصل البريطاني وزيادة نفوذه، أن أهالي شكا وأنفا وهم

F. O. 371/1813/ No 45. (١٥٨)

D. F. Aff. Etr, vol XVII, 18 April, P. 185. (١٥٩)

F. O. 371/1775/ No 87 (1913). (١٦٠)

Ibid, 25 Jan 1913. (١٦١)

من الأرثوذكس — وكان من المفروض حسب حماية الأوروبيين للمسيحيين ، أن يتصل هؤلاء بالقنصل الروسي — لكنهم تقدموا بعريضة إلى القنصل البريطاني يطلبون مساواتهم بالموانئ والدروز ، كي يكون لهم في شكا ميناء ، كما للموانئ ميناء في جونية — بفضل الفرنسيين — وكما للدروز في النبي يونس ، حسب بروتوكول الحاكم الجديد الذي عين ذلك . ثم شكر الأهالي بعد مدة القنصل لأن السفن أخذت تدخل شكا ولأنه تم تعيين موظف جمرك وأمن عام فيها^(١٦٢) .

وظلت هذه الحساسية حتى قبيل الحرب العالمية الأولى التي تحالف فيها الطرفان ، وربما كانت تخرج بالحوادث عن حقائقها . فعندما وصل المسيو موريس باري (Murice Barrès) ، عضو الأكاديمية الفرنسية ونائب باريس ، إلى سورية في زيارة للمناطق الساحلية في اللاذقية ، حيث القلاع القديمة والكنائس الصليبية ، قال قنصل بريطانيا في بيروت « ويعتقد أن زيارته كانت لدراسة أحوال كل طوائف سورية كما رأى وكما سمع ، خدمة لغايات فرنسا في سورية ، وقد زار كل المؤسسات في بيروت ، وزار سورية ، وكانت فرصة لتأكيد تأثير فرنسا في سورية ، وكانت الصحف المالية لفرنسا تبرز كلماته دائماً بقوة »^(١٦٣) .

ولا شك أن تعيين فرنسا لقنصل جديد نشيط هو جورج بيكو ، كان له تأثير شديد على الانكليز ، ولم يكن سلوك هذا القنصل كبقية القناصل في بيروت ، من حيث أنه يمثل دولة في أرض دولة أخرى ، بل « كان يتعامل — حسب رواية القنصل البريطاني — بما يخص الشؤون اللبنانية ، ويتحدث بصفة مقيم سياسي في منطقة تحت حماية دولته أكثر منه قنصلاً عاماً »^(١٦٤) .

ويؤكد كثير من السوريين واللبنانيين هذا الوصف لجورج بيكو إذ قيل « أما حبه للبنان فحب الوصي للموصى عليه ، وحب الراشد للقاصر ، فيه الكثير من العطف

Ibid, 371/1785/ No 66. 18,30 Dec 1912. (١٦٢)

Ibid, 371/2135/ No 32, 12 Mai 1914. (١٦٣)

Ibid, (١٦٤)

والكثير من الشفقة، وشعاره: (لبنان لنا، لا حياة له بدوننا، تلك هي عظة الأجيال، أصبح التقليد الصالح للماضي آية الحاضر والمستقبل). وعند دخول تركيا الحرب وقف جورج بيكو منتصباً أمام مودعيه اللبنانيين بقامته الفارعة، وقال لهم «إلى اللقاء القريب، إنها مسألة أيام معدودة، سأعود إليكم على رأس جيشنا المنتصر»^(١٦٥) لكن مضت سنوات أربع.

ومن بروز نشاط القناصل: دو فرانس في القاهرة وكمبرياتش البريطاني في بيروت، وبيكو الفرنسي في بيروت أيضاً، كان يبدو أن الصراع قائم في سورية بدرجة حرارة أعلى مما هي حقيقة بين الحكومتين الانكليزية والفرنسية. وكان آخر ما نقله دو فرانس قبيل بداية الحرب أن الشائعات — التي كان يحكيها هؤلاء القناصل أو المتصلون بهم أو الصحف التابعة لهم، والتي كانت تدخل المنطقة في دوامة سياسة لا تهدأ — قد انتشرت في القاهرة عن تعيين الأمير عمر طوسون باشا (Omar Tousson Pacha)، وهو أحد أفراد الأسرة الخديوية في مصر والياً على سورية، وأن هذه الشائعات قد انتقلت إلى سورية^(١٦٦). وأصبح كل تحرك من جانب يثير الشكوك لدى الجانب الآخر، حتى أن اللورد كتشنر أرسل يستشير سفير بريطانيا في القسطنطينية، فيما إذا كان هناك شيء غير طبيعي، إذا زار اللورد كولم ستورات (Colum Stuart) سورية لمدة عشرة أيام — تلافياً لانتقاد فرنسا — فأجابه السفير أن هذا من شأن السلطة التركية، لكنه استدرك — لنفس السبب الخاص بالحساسية تجاه فرنسا — أن زيارة السيد (Greg) إلى سورية منذ سنتين قد كانت محل نقد من الصحف الفرنسية، وأن زيارته قد أعطيت أهمية خاصة^(١٦٧).

ومن منطلق هذا الموقف الذي يراقب فيه كل طرف الآخر بعين مفتوحة

(١٦٥) مذكرات بشارة الخوري، حقائق لبنانية، ص ٨٥، ٩٣.

ذكر الحكيم أن بيكو حدد الأيام المعدودة بـ ١٥ يوماً، مما جعل المراقبة تشدد على الساحل السوري. لبنان وبيروت، ص ١٥٠.

(١٦٦) D. F. Aff. Etr. vol. XX, 18 Dec 1918, P. 171.

(١٦٧) F. O. 371/2133/ No 253, 7 April 1914.

أرسلت بريطانيا بعض قطع أسطولها الحربي والمصري، إلى مياه سورية في الفترة التي كان الأسطول الفرنسي يزور الساحل السوري أيضاً، وقد زارت السفن الانكليزية بيروت والاسكندرونه وحيفا ويافا. وكان من هذه السفن، الخديوية، والأمير عباس — وهي سفن مصرية تزيد من شائعات الحكم المصري لسورية — إضافة إلى السفن الانكليزية الأخرى^(١٦٨). وفي نفس التاريخ كانت بعض سفن الاسطول الألماني تجوب الساحل السوري، وتأخذ ناحية الاسكندرونه^(١٦٩). والجدير بالذكر أن الوضع السياسي في سورية في هذه الفترة (مارس / آذار / — أبريل / نيسان / ١٩١٣) كان يشهد صراع الاصلاحيين مع الدولة العثمانية، وبالتالي يدل على اهتمام كل تلك الدول وإبراز قواها ومصالحها في سورية.

لكن إذا كانت فرنسا هي المطالبة الأولى بسورية، وبريطانيا تنافسها، وكان هذا هو الحال المسيطر عليها قبيل الحرب العالمية، فإن كلاً من ألمانيا وروسيا حاولتا أيضاً إظهار اهتمامها وإبراز نفوذها قبيل الحرب أيضاً. فإضافة إلى تواجد قطع الأسطول الألماني في ميناء الاسكندرونه، فقد لاحظت فرنسا أن ألمانيا أخذت تبدي أطماعها في هذا الميناء لوصل خط حديد بغداد إليها. وفي نفس الوقت أخذت تصدر في ألمانيا كتب تبحث في علاقات ألمانيا بسورية ومستقبلها، وتبرز المواقف السورية المعارضة لفرنسا، وخاصة من الفئات غير الكاثوليكية، والفئات القومية التي كانت تتطلع إلى التعاون مع القوى الأخرى^(١٧٠). ولا شك أن هذا كان استمراراً لبداية تطلع ألمانيا نحو سورية منذ اهتمام الامبراطور الألماني نفسه وزيارته لسورية التي ذكرناها سنة ١٩٠٥. وربما يكون سعيد الجزائري وأخوه عبد القادر، من تلك الفئات المضادة لفرنسا والمؤيدة للقوى الأخرى كما جاء في الكتاب الألماني. أما هذه القوى فهي ألمانيا، حيث أخذ عبد القادر وجماعة من السوريين الذين استقبلوا الامبراطور كالشيخ الكزبري، يقومون

Ibid, 371/1775/ No 53, 29 Mars 1913. (١٦٨)

Ibid, No 34, 24 April 1913. و

Ibid. (١٦٩)

D. F. Aff. Etr, (Guerre 1914-1918-Turquie, Syrie-Palestine) 4 April, P. 12, 173-185. (١٧٠)

بالدعاية لألمانيا، كما أن سعيد الجزائري أخذ يهاجم القنصل الفرنسي في دمشق وبتهمة بالعمل ضد سورية^(١٧١)، وكان سعيد الجزائري في ذلك الوقت يتبنى الدعوة للجامعة الإسلامية.

أما روسيا فقد أخذت أيضاً — قبيل الحرب — تتصل لتحقيق مصالحها في شمال سورية، وخاصة في الاسكندرونة، حتى يكون لها فيها قوة توازي وجود الانكليز في جزيرة قبرص — على رأي قنصل فرنسا في دمشق — لكنها إذا كانت لا تريد أن تشق طريقاً لها من القوقاز حتى خليج الاسكندرون فهي في الوقت نفسه، لا تريد أن ترى هذه المدينة (الاسكندرونة) تقع تحت إدارة دولة أخرى غير صديقة^(١٧٢). وكان سفير بريطانيا في استانبول، يعتقد بأن فرنسا ستصادق روسيا من أجل ضمان موافقتها عندما تضع يدها على سورية وفلسطين عند نهاية الحكم التركي^(١٧٣)، ويتفق التفسير الفرنسي والانكليزي عن الموقف الروسي، لأن الحرب شهدت تحالف روسيا وفرنسا ومنافستها في سورية أي بريطانيا. ولم تنس روسيا أيضاً في هذه الفترة قصة حمايتها للأرثوذكس المسيحيين في سورية، فأرسلت قنصلياتها في بيروت ودمشق دعوة إلى بطريرك الأرثوذكس غريغوريوس حداد، لحضور احتفال يقام بمناسبة اعتلاء أسرة رومانوف العرش في موسكو. فطلب من الدولة العثمانية الإذن بالسفر. وحضر الاحتفال الكبير في موسكو حيث أكرمه روسيا — حسب رواية الوثائق البريطانية — وقلدته واحداً من أعلى الألقاب الروسية، كما أعطت ألقاباً أخرى صغيرة لبعض الأرثوذكس. وقيل بأن روسيا أعطت البطريرك أيضاً ٥٠ ألف روبل، كما منحه السلطان العثماني وسام العثمانية المرصع بالماس. وكان تفسير القنصل البريطاني في بيروت لهذا الاهتمام الروسي، ولتلك الزيارة، أنه كان نتيجة للصراع الديني الذي دار في سورية سنة

(١٧١) D. F. Aff. Etr, (Guerre) vol 11 (868) 18 Feb 1915, PP. 3-4.

و Ibid (Dossier général) vol XXI, 12 Jun 1914. P. 154.

(١٧٢) Ibid, 9 April 1914, P. 86.

(١٧٣) F. O. 371/1790/ No 47, Dec 1913.

١٩١١ (١٧٤). وقد يكون قصده حوادث الأرمن والاضطراب المسيحي إزاء احتلال إيطاليا لليبيا، لأنه لم يحدث صراع بمعنى الكلمة في سورية بين الطوائف الدينية في هذا العام.

ومع أن هذا البحث لا يشمل الحركة الصهيونية وفلسطين، فلا بد من إشارة عابرة إلى عقد المؤتمر الصهيوني في بال في هذا العام ١٩١٤، وإلى زيادة روتشيلد إلى بيروت — على اعتبار أن هذه الزيارة نوع من النشاط الأجنبي الآخر، إضافة إلى ماذكرناه بما يخص سورية — حيث قابل الوالي وتبرع بعشرين ألف فرنك للمدارس الإسلامية في بيروت، و ٢٠٠ كتاب تركي، وتبرع بكمية مساوية للجنة المحلية للأسطول العثماني. وقد كتبت جريدة الرأي العام (البيروتية) بأن هذا التبرع يدل على إكرام وكرم من روتشيلد، لكن هذه اللفتة الكريمة كانت بدافع رغبة القيادة (الإسرائيلية) كي ترى النضال الإسلامي ضد الحركة الصهيونية في فلسطين قد توقف (١٧٥).

وإذا عرفنا أن هذا النشاط الصهيوني سينضم بكل قوة إلى الحلفاء وخاصة بريطانيا خلال الحرب، نكون قد رأينا الصورة واضحة للدول الأوروبية وسياساتها تجاه سورية قبل إعلان الحرب العالمية الأولى (١٧٦)، فلنر ماذا حدث خلال هذه الحرب وكيف حدد الأوروبيون والصهاينة مستقبل سورية.

(١٧٤) F. O. 371/1785/ No 17, 18 Fev 1913. et No 57, 2 Juin 1913.

(١٧٥) D. F. Aff. Etr, (D. G.) vol XXI, 16 Mars 1914. P. 51.

(١٧٦) قبيل دخول تركيا الحرب ظلت الصحف الموالية لفرنسا تمدحها وترجو لها النصر، بينما كانت الصحف الموالية للحكومة العثمانية ترجو لألمانيا والنمسا النصر، وكان بينهما صحف محايدة. مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ١٣٨.

الفصل السادس

**فصم العلاقة العربية - التركية
على مشانق جمال باشا
١٩١٥ - ١٩١٦**

موقف العرب الطيب

ذكرنا في نهاية الفصل الرابع أن العلاقة بين العرب والأتراك لم تكن صافية، وتوتر الجو بين السكان في سورية لدى اندلاع الحرب في أوت / آب / ١٩١٤. وكان يخشى من إثارة الفتن ما بين المسيحيين والمسلمين، وكان هؤلاء الأخيرون يخشون من ضرب الساحل بقنابل أساطيل الحلفاء^(١) وقد أرسل قائد الفيلق الشامي زكي باشا، رسالة إلى أنور باشا، يخبره بحساسية الموقف في سورية، وطلب منه أن يعيد إليها بعض شخصياتها من السوريين (المبعوثين) من استانبول، كعبد الرحمن اليوسف، وشكيب أرسلان، حتى يكونوا بين عشائهم كالدروز، والأكراد، للتأثير عليهم من أجل المحافظة على الهدوء والنظام، ومنع الاضطراب والفتن. وفعلاً قابل أنور باشا بعض المبعوثين، وطلب منهم السفر إلى سورية، والسهر وجمع الكلمة^(٢).

ووقف أيضاً رجال الإصلاح العرب موقفاً طيباً مع الدولة العثمانية، ونسوا أو أجلوا خلافاتهم معها، ولم يستغلوا موقفها الحرج بالاستعداد للدخول في الحرب. وقد شعروا هم أنفسهم بخطر الموقف، حتى على البلاد العربية إذا ما انكسرت الدولة العثمانية، ولذا لزموا الوقوف إلى جانبها، وكانوا يتمنون ألا تدخل الحرب، لكنهم كانوا

(١) D. F. Aff. Etr, Guerre 1914-1918, vol 1 (867) 16 Oct. 1914, P. 18.

(٢) شكيب أرسلان (مذكرات) سيرة ذاتية، ص ١٢٨ — ١٢٩.

عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً، بعد أن كان للاتحاديين الأكثرية المطلقة في مجلس مبعوثين ١٩١٤. وأوقف هؤلاء نشاطهم السياسي، وتقدم الشباب العربي للخدمة في الجيش خدمة للدولة. ونحن نستشهد بعدة أمثلة على هذه السياسة العربية المؤيدة للدولة العثمانية، منها رسالة خاصة من عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي في استانبول، أرسلها إلى صديق له في مصر في ٦ أوت / آب / ١٩١٤ قال فيها:

«أنا على وشك السفر إلى سورية، لأن التدابير التي اضطرت حكومتنا السنية إلى اتخاذها درءاً لخطر الحرب العظمى، تقضي على كل عثماني مخلص لدولته وأمته، أن يبذل جهده في سبيل تنفيذها على أحسن مايرام، وستكون مهمتي في سورية جمع كلمة الأمة على شد أزرها الحكومة، والسعي لمنع كل ما يحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية. وقد وعدتني الحكومة، بأن تشد أزرني في هذه المهمة، وتجيئني إلى كل المطالب العادلة التي أطلبها منها، باسم الأمة العربية أو باسم الأفراد من أبنائها. فلنكن كلنا يدأ واحدة، لانقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوروبية، وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها، لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا، والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأنأ وأعلى مقامأ»^(٣).

ووجه رشيد رضا (صاحب مجلة المنار، وأحد الأعضاء البارزين في حزب اللامركزية العثماني في مصر) رسالة إلى المسلمين في سورية، يطلب فيها منهم وجوب الوقوف إلى جانب الدولة فقال:

«أشكر لكم ما أظهرتموه من النجدة والهمة والاخلاص والطاعة للدولة، وبذل الأنفس والأموال والثمرات لها، والكف عن طلب الإصلاح منها، وتقديركم الحال الحاضرة قدرها، حتى إنكم سبقتم في هذا أرقى أمم الأرض التي سكنت عن جميع مطالبها ومنازعاتها الداخلية»^(٤).

(٣) مجلة الحرب العظمى، ١٢، ج ١٥، ص ١٦. وناصيف أبي زيد، ص ١١٣.

(٤) أمين سعيد، ثورة العرب، ص ١٣٧. وسليمان موسى، الحركة العربية، ص ٩٨-٩٩.

وكتب أحمد مختار بيهم، أحد زعماء بيروت الاصلاحيين، وعضو مؤتمر باريس في ٢٦ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٤ وقبل خمسة أيام من دخول الدولة العثمانية الحرب — حيث جاء في رسالته إعلان إخلاص العرب للترك في هذه الحرب «ألغينا أحزابنا وتناسينا اختلافاتنا الداخلية، لأن المصلحة المشتركة تقضي بذلك، وسوف يرى إخواننا الترك، ولا سيما الاتحاديون، من أعمالنا في هذه الحرب، ما يظهر لهم عظم إخلاصنا للعرش العثماني، وتفانينا في خدمة الوطن المشترك، ونحن الآن على أحسن ما يرام مع حزب الحكومة، الذي أظهر وطنية عظيمة في هذه الأزمة الشديدة، وسنظل كذلك إن شاء الله إلى الأبد»^(٥).

وكذلك أوصت جمعية العربية الفتاة، بوجوب الوقوف إلى جانب الدولة، فأصدرت تعليماتها إلى أعضائها بذلك، وجاء قرارها بهذا النص:

«ينتج عن دخول تركيا الحرب، أن مصر الاجزاء العربية في الدولة باتت مهددة بخطر شديد، فيجب بذل أقصى جهد لضمان تحريرها واستقلالها، وقد تقرر ذلك أنه في حالة ظهور مطامع أوروبية في هذه الأجزاء، ينبغي على الجمعية أن تعمل إلى جانب تركيا في سبيل مقاومة النفوذ الأجنبي مهما كان نوع شكله»^(٦).

وكتب سليم الجزائري في ١٥ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٤، إلى أحد أصدقائه السياسيين، بوجوب مساعدة الحكومة الاتحادية بعد الاتفاق معها، ووجوب الاخلاص لها. ورفض محمد الحمصاني البقاء في مصر بعد إعلان التعبئة، «لأنه خيانة ألا يقوم الإنسان بواجبه في الموقف العصيب»^(٧) وكان نصيب هؤلاء جميعاً (ما عدا رشيد رضا) الاعدام على يد جمال باشا.

وأصدر عزيز المصري تعليمات إلى رجال جمعية العهد، بألا يكونوا أداة للقيام بأي عمل عدائي ضد الدولة العثمانية، وإذا كان دخولها الحرب يعرض البلاد العربية

(٥) مجلة الحرب العظمى، ١م، ج ١٥، ص ١٦.

(٦) حسين فوزي النجار، الشرق العربي بين حربين، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٠.

(٧) مجلة الحرب العظمى، ١م، ج ١٥، ص ١٦. وناصيف أبي زيد، ص ١١٤.

للعزو الأوروبي، فعليهم أن يقفوا إلى جانب تركيا، حتى يحصلوا على كافة الضمانات القوية حيال الأهداف الأوروبية في تلك البلاد^(٨).

وجاء في مذكرات أسعد داغر (أحد أعضاء الجمعيات العربية السورية) قوله «أستطيع أن أجزم الآن، بأنه لم يكن بين العرب يوم إعلان تلك الحرب من فكر بالانتفاض على الترك أو الاساءة إليهم، بل كان تفكيرهم كله منصباً على محاولة منعهم من الاشتراك فيها، والتعاون معهم على اجتناب ويلاتها ودرء أخطارها»^(٩).

وقد حض سعيد الجزائري أحد الزعماء في سورية الشريف حسيناً كثيراً، كي يقف إلى جانب الدولة العثمانية، وكان من رأيه في هذه الحرب أن الصليب يحارب الهلال، ولا يجوز للحسين ابن رسول الله، إلا أن يكون على وفاق مع الخليفة العثماني^(١٠).

الاستعداد للحرب وإلغاء الامتيازات الأجنبية (Capitulations)

عاشت سورية حالة شبيهة بحالة الحرب، قبل أن تدخل الدولة العثمانية هذه الحرب في ٥ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٤. وغدت مسرحاً للتحركات العسكرية القادمة من تركيا والقادمة من شمال العراق، وأخذت تظهر بينها القوات والمعدات الألمانية، وعلى رأسها الكولونيل الألماني فون كرسنشتين (Kressenstein)، الذي وصل دمشق في أكتوبر / تشرين الأول / ^(١١). وكانت الغاية من تجميع هذه الأعداد الكبيرة من الجيش في سورية، مهاجمة قناة السويس، واحتلال مصر، وتخليصها من القوات الانكليزية. وكان الحلفاء على علم بتلك الغاية، فأرسل السفير البريطاني في

(٨) كيرك، ص ١٩٣. D. F. Aff. Etr, vol. III (869), 7 Juin 1915, P. 64. وحسين فوزي، ص ٢٠.

(٩) مذكرات أسعد داغر، ص ٧٠. وسليمان موسى، الحركة، ص ٩٩.

(١٠) الأمير سعيد الجزائري، جهاد نصف قرن، ص ص ٥٤-٦٢.

(١١) F. O. 371/2146/ P. 32. et 371/2140/ No 619, 23 Sep. 1914. et 371/2143. P. 87.

تقارير من قناصل بريطانيا في حلب وبافا وبيروت وسفارتها في الآستانة. كان عدد القوات التركية حسب التقارير البريطانية المذكورة: ٤٠ ألفاً في سورية (الجيش الثامن) و ٢٠ ألفاً في شمال سورية وأزمير، ووصل من الموصل ٢٥-٣٠ ألفاً، و ٦٠٠ بحري منهم ٢٠٠ من الألمان.

الآستانة إلى الصدر الأعظم، مذكرة يحذره من الخطر الذي تقوم به تركيا باستعدادها لشن حملة على قناة السويس، ويؤكد له أن وضع مصر سيقى كما هو إذا بقيت الدولة العثمانية على الحياد^(١١).

ورافق وصول هذه القوات، حملات دعائية متواصلة وقوية لصالح الألمان بين السكان، تقوم على أساس ثناء الامبراطور الألماني على الدين الاسلامي، وأن الألمان يحاربون من أجل الاسلام ضد روسيا والحلفاء. وانتشرت هذه الدعاية بين المسلمين، حتى إن الانكليز والفرنسيين أخذوا يفتشون عن دفاترهم القديمة، وأصدقائهم التاريخيين أو التقليديين في سورية، كي لا يقعوا تحت الدعاية الألمانية، ويحافظوا على صداقة فرنسا وبريطانيا. وأخذت توزع الأموال لمقاومة الدعاية الانكليزية — وقد وزع منها حسب رواية القنصل البريطاني في حلب — ١٥ ألف ليرة ذهبية بين البدو، و ٣٥ ألفاً بين السكان السوريين الآخرين^(١٢). واستطاعت بذلك الدعاية الألمانية أن تستقطب حولها مجموعات كبيرة من الناس، لأن هذه الدعاية كانت مرافقة بالنشاط الكبير للسوريين من أنصار الحكومة العثمانية، كعبد الرحمن اليوسف وشكيب أرسلان وأسعد الشقيري. ووزعت مناشير بين الناس، تحمل توابع عشرات الأسماء من مختلف البلاد الاسلامية، صادرة عن جمعية العلماء الاسلامية، تحض المسلمين على محاربة فرنسا وروسيا وانكلترا دفاعاً عن الاسلام، وفيها تأييد لألمانيا^(١٣)، لكن هذه الدعاية كانت ضعيفة في لبنان — كما ذكر مالت سفير بريطانيا في استانبول — وقد تؤدي إلى عكس غايتها، لأن مسيحيي لبنان كانوا يأملون بفشل الحملة على مصر، وبذلك يمكن للحلفاء أن يحتلوا سورية ولبنان^(١٤). إلا أن جو الحرب وحالة المشتريات الحكومية الواسعة والعسكرية من الناس، خلق شعوراً عاماً من القلق، وعدم التشجع في الانقياد وراء العواطف المؤججة لهذه الحرب. ولهذا أخذ الناس يميلون لجمع

(١١) Ibid, 371/2140/ No 619, 23 Sep 1914. Mallet-Constantine

(١٢) Ibid, 15 Oct. 1914. P. 343.

(١٣) Ibid, 371/2146/ No 28, 21 Oct. 1914.

(١٤) Ibid, 371/2140/ 2 Oct. 1914, No 967. P. 333, Mallet.

المال خوفاً من المستقبل الخطر، لا سيما عندما أخذت الحكومة تستعمل القوة لسوق الحيوانات للجيش. وفي حلب أخذت الدولة تجمع الجلود والخشب والدواب لمعدات الحرب^(١٥). في ٢ أوت / آب / ١٩١٤، أي بعد ثلاثة أيام من نشوب الحرب العالمية، عقدت تركيا معاهدة تحالف مع ألمانيا، ريثما تستعد لدخول الحرب إلى جانبها. وفي ٩ منه أعلنت إلغاء الامتيازات الأجنبية. وكان من فوائد هذا الإلغاء حسب رأي جمال باشا، هو تحرير الدولة العثمانية من القيود، والتخلص من امتيازات جبل لبنان «لنقذف بنظام لبنان الأساسي من حلق»^(١٦) وأمور كثيرة أخرى تخص الدولة العثمانية.

وصدرت الأوامر إلى والي بيروت، بإلغاء الامتيازات الأجنبية، وطلبت أن يعبر الشعب عن فرحته بهذه المناسبة العظيمة. ووزع الأمر وانطلق البوليس إلى أحياء المسلمين. وخرج الناس — حسب رواية القنصل البريطاني في بيروت — «وهم لا يعرفون لأي شيء يفرحون، قد يكون متعلقاً بالحرب أو غيره. وهتفوا ضد الأجانب وخاصة فرنسا، وروسيا وإيطاليا، وحيوا ألمانيا والنمسا. واستمرت المظاهرات لليوم الثاني، واحتشد الناس أمام القنصلية الألمانية، وساروا إلى أحياء المسلمين، وخاف المسيحيون ومكثوا في أماكنهم حذرين، ومنهم من ذهب إلى الجبل، لكن البوليس كان يحمل أمراً بمنع التعدي عليهم أو على الأجانب. ثم أقام الوالي سامي بكير حفلاً دعاً إليه الكثير احتفاءً بتلك المناسبة»^(١٧).

وإزاء هذا الموقف، احتج السفير البريطاني — بناءً على تقرير قنصله في بيروت — على خرق السلطة التركية لنظام لبنان، ومحاولتها تحريض فئات من السكان ضد الفئات الأخرى. وكان القنصل البريطاني يقصد بهذه الفئات تلك الفئات التي

(١٥) Ibid. 371/2143/ No 63, 7 Nov 1914. P. 188. ووثائق حلب أكتوبر/ تشرين الأول / ١٩١٤،

ص ١٠٧.

(١٦) مذكرات أحمد جمال باشا، ص ٤٩٩.

(١٧) (بيروت) F. O. 371/2143/ No 60, 14 Sep. 1914. PP. 264-268.

حاول الأتراك والألمان استئثارها إلى صفهم وهم الدروز، أصدقاء الانكليز، وتحريضهم على الموارنة والأرثوذكس، لكن القنصل البريطاني اتصل بالدروز وأبلغهم (اللعبة)، فوعده الدروز بأنهم لن يفعلوا شيئاً، لا بل سوف يحمونهم^(١٨). ورغم إعلان النفير العام، فقد ظلت الصحف الموالية لكل دولة تكتب المدائح لها، فالصحف الموالية لفرنسا تابعت سيرتها الأولى، وكانت ترجو لفرنسا النصر، بينما كانت الصحف الموالية للدولة العثمانية ترجو لألمانيا والنمسا النصر. وكان هناك فريق حيادي ثالث. وقد أصدرت الدولة بعد النفير ١٩١٤ مرسوماً بفرض ضريبة الحرب وقدرها ٣٪ على موظفي الدولة، كما أصدرت قراراً في ١٤ أوت / آب / من العام المذكور، ينص على وجوب ذكر دين الشخص في هويته. وكان هذا تسهياً لتمييز الناس أو ولائهم للدولة وخاصة في منطقة لبنان. ونشطت شعب أخذ العسكر، حتى تضايق الناس. وبدأت المراقبة على الرسائل، وأخذ رجال الخفية (المخابرات)، والتحري يقومون بدور واسع، حتى قضى ذلك على الثقة بين الناس، وحتى بين الأهل والأصدقاء^(١٩).

جمع زكي باشا قائد الجيش الرابع في سورية، ولاية سورية وبيروت وحلب ومتصرفي القدس ودير الزور وجبل لبنان، وأعلمهم بالموقف، ووجوب اتخاذ الإجراءات لحفظ الأمن، وأوصى بشكل خاص حاكم جبل لبنان بوجوب إخماد اللبنايين إلى السكينة، وقطع علاقاتهم مع أوروبا، وبقتاتهم مخلصين للدولة العلية^(٢٠). وكان ذلك بعد دخول الدولة الحرب في ٥ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٤. وكان هذا القائد، يساوره الشك والقلق، من أن المسيحيين في لبنان، قد يقومون بثورة ضد الدولة، تنفيذاً لرغبة الحلفاء. ولهذا كان يرى أن يجمع السلاح منهم. وكلم بذلك شكيب أرسلان بعد وصوله من استانبول، لكن الأخير أقنعه بعدم لزوم ذلك، لما يثيره من قلق واضطراب، حيث يتيقن المسيحيون من أن سحب سلاحهم يعني فقط محاولة قتلهم دون أن يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم، وأقنعه أيضاً بأنه مستعد أن يحاربهم بالدروز

(١٨) القسطنطينية. Ibid, No 63, P. 188 (7 Nov 1914), et No 623 (4Oct. 1914).

(١٩) مذكرات الحكيم، لبنان وبيروت، ص ١٣٣.

(٢٠) نفس المصدر، ص ١٥٥.

فيما إذا فعلوا ما يخاف منه زكي باشا . وقد أيد سامي بكير والي بيروت تلك الخطة ورفض جمع سلاح المسيحيين^(٢١) . وكانت الدولة العثمانية تخشى فعلاً على سورية ، وتخشى أن يحتل الحلفاء سواحلها ، وكانت على علم برغبة فرنسا في احتلالها ، ولهذا أرسلت برقية في ٢٣ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٤ تحت رقم (١٨٥٢-١٩٥) تطلب فيها من القنصليات المحايدة في بيروت ، أن تسعى حتى لا تتعدى الأساطيل الحليفة على السواحل السورية ، وإلا فإنها بالمقابل تصدر جميع مؤسساتها الدينية والثقافية . ولقد نفذ الحلفاء ذلك ، حتى لا يسفكوا دماء أصدقائهم الذين سيحتلون بلادهم^(٢٢) .

وكان الخوف متبادلاً في سورية ، فالمسيحيون يخشون من مذابح تقيمها الدولة العثمانية ضدهم ، والمسلمون في الساحل يخشون من نزول الحلفاء وضرب مدنها بالقنابل . ومن هذا الخوف نزع آلاف من المسلمين من الساحل إلى الداخل ، من بيروت إلى دمشق وغيرها من المدن ، عند دخول الدولة العثمانية الحرب ، وبالمقابل خاف المسيحيون عاقبة ذلك حتى لا يعتبروا أنهم السبب في هذا النزوح ، إلا أن الوالي سامي بكير كان حسن التصرف ، وأمن جميع السكان على أنفسهم . وقد تجمع قسم كبير من الأهالي في الثكنة العسكرية في بيروت ، وخطب فيهم بوجوب حسن معاملة المسلمين للمسيحيين . وحدث مثل ذلك أمام قنصليتي ألمانيا والنمسا في تلك المدينة^(٢٣) . والجدير بالذكر أنه منذ دخول الدولة العثمانية الحرب ، حاصرت سفن الحلفاء وخاصة الأسطول الفرنسي ، سواحل سورية ومنع إليها الدخول أو الخروج ، كما منع الاستيراد والتصدير^(٢٤) ، وبذلك كانت بداية مأساة وضياعاً مادياً ومعنوياً وصلت إلى حد الكارثة عام ١٩١٦ عندما حدث الحصار من الخارج وكذلك القحط من الداخل .

(٢١) شكيب أرسلان ، سيرة ذاتية ، ص ١٣٢ .

(٢٢) عزيز بك ، الاستخبارات والجاسوسية في الدولة العثمانية ، ص ٤٠ .

(٢٣) شكيب أرسلان ، سيرة ذاتية ، ص ١٣١ .

(٢٤) D. F. Aff. Etr, vol I (867) 13 Dec. 1914, P. 82.

وإزاء شك الحكومة بالقنصليات الأجنبية المتحاربة معها، وخاصة فرنسا وعلاقتها ببعض رجالات البلاد، أرادت تفتيش هذه القنصليات للأطلاع على ما فيها من أسرار، وتتطلع على أسماء المتعاملين معها. إلا أن الوالي سامي بكير، عملاً بنصيحة شكيب أرسلان رفض تفتيش هذه القنصليات، حتى لا يثير قضايا ومشاكل قد تكون الدولة بغنى عنها، خاصة وأن كثيراً من الرجال الذين كانوا يترددون على القناصل الأجانب، يشغلون وظائف مهمة في الدولة ويخلصون لها. وظل سامي بكير مصراً على موقفه حتى نقل إلى ولاية حلب، وحل مكانه عزمي بك الذي حدث التفتيش في زمانه، ونبشت أوراق القنصلية الفرنسية^(٢٥). وكان لها من العواقب الشيء الكثير مما سنذكره في حينه. وكان والي سورية خلوصي بك مستاءً جداً من قناصل دول الحلفاء، لأنهم احتجوا عليه بسبب ما نشرته بعض الصحف في دمشق — قبيل دخول تركيا الحرب —، من أن الجيش الألماني يتناول غداً الغذاء في باريس، وسيكون بعد أيام قلائل في بطرسبرج. جمع خلوصي بك (في ١٢ نوفمبر / تشرين الثاني /) كل تراجم قنصليات دول الحلفاء، وأمر بنقلهم جميعاً بالقطار من دمشق إلى قيصريّة في الأناضول. ونفذ الأمر بشكل فجائي، ولم يقبل شفاعاة أحد، لأنه صرح أن ذلك هو قرار الحكومة وليس قراره، لكن جمال باشا كان في أضنه، وقد تشفع به هؤلاء عند وصولهم إليها، قد صرح بأن إبعاد هؤلاء هو من صنع الوالي خلوصي، ولا دخل للحكومة به. وقد بررت الحكومة فعلها بإبعاد هؤلاء التراجع، وهم مسيحيون سوريون، بأنه من اجراءات الحرب، وحسب قانون مخالفات هذه الاجراءات. كما تم إخراج معظم رعايا الدول المتحاربة من سورية، وحتى من كان يعمل بالتمريض والمستشفيات مثل الراهبات^(٢٦).

(٢٥) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ١٣٣ — ١٣٤.

(٢٦) ناصيف أبي زيد، العصر الدموي، ص ١٣٦ و ١٣٧ — ١٤١. وشكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ١٣٢.

جمال باشا حاكم سورية

بعد دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا، أصبحت سورية ذات أهمية استراتيجية خاصة بالنسبة لها. لأنها أصبحت المر الوحيد ما بين الأناضول والمنطقة العربية، بعد محاصرة الحلفاء لسواحل سورية. وكانت أيضاً ممراً ما بين العراق والأناضول عن طريق حلب وخطها الحديدي. ولذا كان لا بد من حراستها، والحفاظ عليها بكل قوة وشدة. وكان هذا أحد الأسباب الهامة التي دعت الدولة لتعيين جمال باشا حاكماً عسكرياً لها، لأنه كان أحد الثلاثة الأقوياء (أنور وطلعت وهو)، الذين يحكمون تركيا. ويُذكر أيضاً أن تعيين جمال حاكماً لسورية، كان بقصد إبعاده عن استانبول من قبل أنور، حتى لا يزاخمه السلطة، وقد ذكر تقرير من سفارة بريطانيا في أثينا، أن جمال باشا لم يكن مرتاحاً لنقله إلى سورية، ولهذا فهو مستعد أن يزحف بجيشه نحو القسطنطينية^(٢٧)، كما جاء في مذكرات مورغنتو سفير الولايات المتحدة في استانبول، أن أصحاب السلطة في الآستانة قد أبعدوا جمالاً إلى سورية بسبب خوفهم من رغبته في التفرد في الحكم^(٢٨)، ولقد وافق جمال على الاتفاق مع ألمانيا برغم توقيع الدولة على هذا الاتفاق دون علمه، كما وافق على دخول الدولة الحرب برغم أنه كان معروفاً بأنه صديق للفرنسيين. وقد زار باريس في شهر جوييه / تموز / ١٩١٤ لاقناع الفرنسيين بتحقيق بعض المطالب الهامة للدولة العثمانية، لكن فرنسا لم تتعهد له بشيء. والذي حدث أن أنور باشا دعا جمالاً، بعد عشرة أيام من دخول تركيا الحرب، وناشده باسم الوطن، أن يتقلد قيادة الجيش الرابع في سورية، لشن حملة على قناة السويس، مع احتفاظه بمنصب وزير البحرية، وقد وافق جمال، وغادر استانبول في ٢١ نوفمبر / تشرين الثاني / ووصل إلى دمشق في ٥ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٤. وقد حكم سورية حكماً مطلقاً لمدة ثلاث سنوات. وكان حكمه هذا قد أصبح جزءاً من تاريخ سورية خلال الحرب. لهذا، نلقي عليه أو على صفاته بعض الضوء كي يتيسر لنا

(٢٧) F. O. 371/2176/ tel No 197, 12 Dec. 1914.

(٢٨) مذكرات سفير أمريكا في الآستانة (هنري مورغنتو). تعريف فؤاد صروف، القاهرة ١٩٢٣، ص ٦٣.

فهم سلوكه في سورية، وأي روح من العظمة حملها عندما غادر استانبول، بقصد غزو مصر وفتحها من جديد.

جاء في وصف عزيز بك، ضابط الاستخبارات التركية له فقال « كان جمال باشا الرجل التركي العصري، لذلك ترأس نادي (تورك أوجاقي) أي الوطن التركي، وهو نادي الشباب والشابات. وقد ودعه الشباب وداع الأبطال، وكان يتخيل نفسه عند انتقاله من تركيا إلى سورية، كأنه الاسكندر يحاول فتح البلاد العربية، مع أنها كانت تابعة للدولة العثمانية ... » (٢٩).

ووصفه يوسف الحكيم وكان يعرفه شخصياً « بأنه اشتهر بالحزم والشدة وقوة الإرادة، مذ كان والياً على أضنه، بعد النكبة التي أصابتها باقتتال العنصر الأرمني والتركي أثر قيام الجمعية المحمدية والمؤامرة الارتجاعية، فوطد الأمن وقام باصلاحات جمّة. لكنه حين جاء إلى سورية كان شر خلف لخير سلف (زكي باشا)، وظهرت على يده نقمة السلطة التركية على العنصر العربي » (٣٠). وجاء في وصف هنري مورغنتو، سفير الولايات المتحدة الأمريكية في استانبول، عن جمال باشا مايلي :

« لم يكن جمال محبوباً من سكان العاصمة لقسوته وسفكه للدماء، إذ حكم بالاعدام على ١٣ رجلاً من نخبة رجال تركيا في يوم واحد، عندما عين حاكماً لاستانبول، ونفى وسجن وأعدم ... وكان يعرف أن الاعدام من واجباته اليومية وهو يجمع القوة والشراسة، فلا يقدر أحد أن يرى فيه لطفاً وإيناساً، كانت عيناه سوداوين إذا نظر اخترق الصدور، وضحكته كانت ممزوجة بشيء من المعاني الوحشية ولم يستطع أنور وطلعت إخضاعه، فحسنا بعينيه فتح مصر حتى يبعدها، وهو يكره كل الشعوب غير التركية كالعرب، مسلمين ومسيحيين ويونان وأرمن ويهود وشركس، وكان طموحه يدفعه للاختلاف مع أنور وطلعت ... » (٣١). وكان

(٢٩) عزيز بك، ص ٦٥.

(٣٠) مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ١٥٩.

(٣١) مذكرات مورغنتو، ص ٨، ٦٥.

لأنور كل التصرف في الحروب الأوروبية، وطلعت كل التصرف في الشؤون الداخلية، وجمال الدكتاتور المطلق في كل شؤون آسيا الصغرى وسورية... وكل واحد منهم يحاذر أن يتدخل في أصغر شيء بالنسبة للآخرين^(٣٢)...

ووصفه شكيب أرسلان أحد المقرين إليه «كان جباراً قد بطش بالخلق، ورجفت منه القلوب، وتعود ألا يقف في وجهه أحد... وكان مستقلاً تمام الاستقلال في سورية، وكان الحزب التركي الطوراني مؤيداً له في استانبول، بحيث أن أنور وطلعت والجميع كانوا يومئذ، يتجنبون المساس بجمال خوفاً من الفئة الطورانية...^(٣٣)».

ووصفه صديقه محمد كرد علي بقوله «كانت عنده غيرة دينية وشعور إسلامي (في أحاديثه)، لكنه كان في المسائل السياسية، لا يغفر لأحد زلة إذا حاد قيد أنملة عن قانون الوطنية العثمانية، وكان يقول لو أن ابنه أتى أمراً لأغرقت في البحر حباً بسلامة الدولة، ثم أبكي عليه لأنه ابني»^(٣٤). ووصفه خلوصي بك والي سورية في نفس الفترة التي كان جمال بها حاكماً لسورية بأنه سفاح^(٣٥).

لندع أقواله وأعماله في سورية، تكمل سيرته التي أصبحت لاصقة به، وأصبحت تاريخاً بارزاً ومميزاً لآخر ثلاث سنوات للحكم العثماني في سورية، بدت بالغة الشذوذ حتى عن هذا الحكم.

حل جمال باشا محل زكي باشا الحلبي، وكان هذا الأخير قد رفض رأي القائد الألماني فون كرايس في سورية لغزو قناة السويس، ما لم تمد سكة حديدية، وتهياً مستلزمات الحملة، وكان يرى أن الجيش الرابع في سورية غير قادر وغير مهياً لمثل هذه الحملة. وكان الألمان على عجلة من أمرهم لفتح جبهة جديدة في الشرق، تخفف عنهم

(٣٢) Papers relating to the foreign relation of the united States, the Lansing papers 1914-1920.

Washington 1939. vol 1, P. 783.

(٣٣) شكيب أرسلان، مذكرات (سيرة ذاتية)، ص ١٧٦.

(٣٤) مذكرات كرد علي، ج ١، ص ١١٠.

(٣٥) المصدر السابق، ص ١٤٣.

الضغط في الجبهة الغربية الأوروبية، ولهذا لم يترشح له الألمان^(٣٦)، كما أن الاتحاديين يريدون بدله رجلاً قوياً في سورية، يخضعها للدولة تمام الخضوع، ويقضي على الأفكار العربية والغربية أيضاً، ويكون كفؤاً وقادراً على تنفيذ حملة السويس^(٣٧). وهكذا غادر زكي باشا دمشق وعين مندوباً في ألمانيا، وغادر به القطار دون أن يشعر به أحد.

غادر جمال باشا استانبول، وأعلن لمودعيه أنه لن يعود قبل فتح مصر^(٣٨). ولقي الترحاب والحفاوة البالغة والتكريم العظيم خلال مروره في مدن سورية، من حلب إلى حماه إلى حمص فحلبك فدمشق. وقد مدحه الشعراء بقصائد الترحيب، ولقبه الناس بفاتح مصر. وكان هو يبدو كأنه مقبل فعلاً على تحقيق هذه الأمنية. وقد وصف علي فؤاد بك رئيس أركانه، تلك الحفاوة لأنه كان يرافقة في رحلته فقال:

« وقد استقبلنا في دمشق استقبلاً حافلاً ليس فيه زيادة لمستزيد، فازينت المدينة احتفاءً بقدم فاتح مصر، وتراكم الألاف من الناس إلى موقف القطار، وفيهم رجال الدين وقادة جندها وسادة البلاد وعلمائها وخطباؤها وشعراؤها وقناصل الحكومات فيها. وذبحت الأضاحي، وألقيت القصائد التي هي أشبه بأحاديث المناجاة، وانصرف الناس مبتهجين متحمسين، وكان يوماً لا نظير له »^(٣٩).

كما وصف جمال نفسه استقبال السوريين له بالترحيب فذكر «أنهم أظهروا وطنية كبرى وإخلاصاً، وقد امتلأ قلبي سروراً إذ رأيت وشعرت، أن غالبية العرب، لا تحجم عن بذل ما يطلب منها من التضحيات، في تلك الحرب لتحرير الخلافة الإسلامية»^(٤٠). لكن شكيب أرسلان الذي كان بين مستقبلين جمال باشا في محطة البرامكة في دمشق، لم يذكر شيئاً في سيرته الذاتية عن نوع الاستقبال أو الاحتفال

(٣٦) الجنرال علي فؤاد باشا، كيف غزونا مصر، الترجمة العربية، بيروت ١٩٦٢، ص ٣١. ومذكرات يوسف

الحكيم، لبنان وبيروت، ص ١٢٨.

(٣٧) عزيز بك، ص ٣٨.

(٣٨) مذكرات مورغنتو، ص ٦٥.

(٣٩) علي فؤاد، ص ٥٢—٥٣.

(٤٠) مذكرات جمال باشا، ص ٢٤٩.

(٤١) مذكرات أحمد قدرى، ص ٤٠.

بجمال. وذكر أحمد قدري لقاء السوريين لجمال باشا فقال، بأنهم استقبلوه بقلوب ملؤها الحماسة، مأخوذين بمظاهره الودية وتصريحاته حول تعزيز الصلات بين العرب والترك^(٤١).

وأخذ جمال بعد وصوله إلى دمشق يتقرب إلى الاصلاحيين، ويتودد إلى زعمائهم، أمثال عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي، الذي تطوع للتأثير على أبناء منطقته في صيدا وصور، للانخراط في الجندية والدفاع عن الساحل. وكان محمد كرد علي صاحب جريدة المقتبس، وعبد الغني العريسي صاحب جريدة المفيد، يحضنان في مقالاتهما على وجوب معاضدة الدولة في الحرب. وعبر جمال باشا عن تعلقه وحيه للعرب في أول خطابه له في دمشق، في حفل كبير حضره عدد كبير من رجال العرب وشبابهم. وقد قال في ذلك الخطاب «اعملوا على ترقية العرب والعروبة، جددوا مدنيتكم... إن البرنامج الذي عقد حزبنا عزمته على تنفيذه لاصلاح حالة العرب، لأوسع كثيراً مما قد يخطر ببالكم، ولست لأجس شراً من بقاء العرب والترك متحدين ونخاضعين لخليفة واحد، بل من انفصال أحدهما عن الآخر كشعبين مستقلين. يجب علينا أن نعمل كثيراً لإدراك هذه الغاية، واليوم أراني قادراً على أن أؤكد لكم، أن الأمازي التركية والأمازي العربية لاتعارضان مطلقاً، فالترك والعرب ليسوا سوى إخوان في غاية الوطنية، وربما أكمل بعضهم مجهود بعض. إن غرض رجال تركيا الفتاة، هو إيقاظ الشعور الوطني في الأمة التركية، وتدريب مواطنهم على العمل وتحريرهم من النير السلافي وتقويتهم.... إن الشعبين العربي والتركي مقضي عليهما بالفناء في اللحظة التي يتخاذلان فيها...»^(٤٢). لكنه غضب عند نهاية الخطاب، لأن مجموعة من الضباط الاحتياط الذين كانوا يتلقون تدريباتهم العسكرية حتى يتخرجوا ضباطاً، وكانوا حوالى ثمانين، قد أخذوا ينشدون نشيداً وطنياً حماسياً، حتى شعر جمال باشا بأن السقف كاد يطير من فوق رأسه، وكان الذي أغضبه من هذا النشيد العربي الوطني هو معناه:

نحن جند الله شبان البلاد نكره الذل ونأبى الاضطهاد

(٤٢) مذكرات جمال باشا، ص ٣٤٠-٣٤٣، وقدري ص ٤٠، وسليمان موسى، الحركة، ص ١٠٣.

فبادر جمال باشا من فوره إلى حل هذه المجموعة، وألغى مدرسة ضباط الاحتياط، وفرقهم على ميادين القتال في الدردنيل والقوقاس، ولم يرجع منهم بعد الحرب إلا أفراد قلائل. كان جمال على علم بنمو الحركة الوطنية العربية، ولذا قرر درء الخطر وتفريق الجند العربي، وما كان تودده للعرب إلا من أجل حملة قناة السويس التي شكل العرب معظم جنودها. ومع كل هذا استقبل الوطنيون خطابه بالارتياح، وأتى أعيان دمشق وأقسموا بين يديه على القرآن، بأن يكونوا عوناً للدولة يعطونها كل ولائهم وكل جهودهم للدفاع عن الإسلام ضد الانكليز والفرنسيين. ويذكر هو أن سياسته كانت مع السوريين العرب سياسة تسامح وصفح، وأنه لم يدع أسلوباً إلا اتبعه لتوحيد الأفكار والمشاعر الوطنية لدى العرب^(٤٣).

لكنه لم يكن هكذا مع جبل لبنان، وإنما كانت لديه القناعة بأن المسيحيين اللبنانيين يعملون لفرنسا ويتصلون بها دائماً. ولهذا أذاع عليهم بلاغاً دعاهم فيه إلى الإخلاص للدولة، واعدأ باستمرار عطف الدولة على استقلالهم الذاتي^(٤٤). وكان قسم كبير من اللبنانيين يتصلون فعلاً بفرنسا سواء، من داخل لبنان أو من الخارج والمهجر، والأمثلة كثيرة نذكر منها في هذه الفترة عند وصول جمال باشا في سورية، اتصال الأب شارك عبلا (Charles Abela) بالقنصل اليوناني وإخباره عن وصول القوات التركية في ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٤ إلى زحلة، واقتراح إنزال قوات حلفاء، وقال: بأنه سيشارك بخمسة آلاف ماروني عندئذ في الحرب معهم ضد الترك، لكن جمال باشا سبق هذا الأب ورحل الجزويت عن المنطقة^(٤٥). وكان جمال باشا أيضاً يحمل في نفسه لدى قدومه إلى دمشق أفكاراً سابقة ومتكاملة عن البطريك الحويك بطريك الموارنة، وعن أوهانس باشا متصرف جبل لبنان، وكان يعتبر الأخير خائناً يخدع الفرنسيين^(٤٦)، ولهذا أراد جمال أن يعاملهما باحتقار وقسوة، على عكس

(٤٣) مذكرات أحمد قدرى، ص ٤٠، وسليمان موسى، الحركة، ص ١٠٤، وعزيز بك، ص ٧٩.

(٤٤) مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ١٥٩.

(٤٥) F. O. 371/2480/ 31 Dec. 1914, PP. 129-130.

(٤٦) عزيز بك، ص ١٣٥.

سلفه زكي باش الذي كان يعاملهما بأدب. أراد جمال باشا أن يحضر البطريك الحويك وأوهانس باشا إلى دمشق لإبقائهما فيها، لكنه قبل بعد توسط كبير أن يكتف أن يرسل الحويك مطارينه من الدرجة الأولى للسلام عليه في دمشق بدلاً منه بسبب مرضه حتى يشفى، وحتى لا ينكسر خاطر الموارنة، وعندها يأتي الحويك للسلام عليه^(٤٧). وإن مقارنة بين طلب زكي باشا وجمال باشا لأوهانس كي يحضر ثم للبطريك أيضاً، تعطينا صورة عن طريقة تعامل جمال باشا مع شخصيات لبنان. جاء في برقية زكي باشا لأوهانس « حضرة صاحب الدولة أوهانس باشا متصرف جبل لبنان، أرجو أن تفضلوا بزيارتي في المقر العام للمذاكرة في أمور هامة، وإعلامي سلفاً بموعد قدومكم ». أما برقية جمال باشا فهي « متصرف جبل لبنان، تعالوا غداً لمقابلتي في دمشق. قائد الفيلق الرابع جمال »^(٤٨). ولنلاحظ الاستصغار الذي أتى بطلب الديوان العرفي لاحتضار البطريك الياس الحويك « إلى قائمقام جونيه — أرسلوا حالاً حنه زوجة طنوس من قرية الكفور، والياس حويك البطريك الماروني »^(٤٩).

ونفى جمال باشا أعداداً كبيرة من وجهاء ورجال لبنان وبينهم من المسلمين، لكنه لم يرسلهم إلى الأناضول كما حدث مع تراجمة القنصليات الأجنبية. بل نفاهم إلى القدس، بسبب علاقتهم المحققة عنده مع قنصليات الدول المحاربة للدولة، وذلك من قبيل الاحتياط الذي لا بد منه في حالة الحرب حسب رأيه^(٥٠). وظن جمال أن الأمور استقرت له بتودده إلى العرب المسلمين في سورية ويقسوته تجاه اللبنانيين، حتى يخافوا ولا يفعلوا شيئاً مضرًا بالدولة، كانت هذه سياسته المعتدلة قبل غزوه لقناة السويس، وكان اعتداله ناجماً عن رغبته بنجاح حملته ولم يكن راغباً أن يفعل شيئاً يؤثر على نتائجها.

(٤٧) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ١٣٦—١٣٧.

(٤٨) مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ١٦٠.

(٤٩) مذكرات الحكيم، لبنان وبيروت، ص ١٧٣.

(٥٠) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ١٤٧.

وقد هدد القناصل البريطانيين في دمشق، بأنه إذا ضربت الاسكندرونة أو حدث اضطراب لأهلها، فسوف يكون مضطراً برغم إرادته للانتقام منهم في الحال (في دمشق)، ولهذا طلب هؤلاء القناصل (وكانوا قد تجمعوا في دمشق بأمر الحكومة التركية) من وزارة الخارجية البريطانية ألا تفعل شيئاً ضد المدن غير المدافع عنها، حتى لا تتعرض أرواحهم للخطر، وكان اتصالحهم عن طريق القنصلية الأمريكية. كما قرر جمال أن يعدم الانكليز بمقابل العثمانيين الذي يقتلون في الاسكندرونة، وهو الذي يحدد العدد. ولذا طلب القناصل أيضاً من السفن الانكليزية ألا تضرب الاسكندرونة. وكان عدد الانكليز ٥٠٠، واعتبرهم جمال باشا سجناء في دمشق^(٥١). وقد يكون جمال باشا تصور أيضاً، أنه حمى بذلك ساحل سورية من ضرب سفن الحلفاء، بينما كان يعد حملة قناة السويس.

الحملة على قناة السويس

جمع جمال قواته من سورية من الجيش والمتطوعين، وطلب من وهيب باشا وإلى الحجاز أن يقود قواته من هناك إلى عمان. وكان من المفروض أن يقود الحسين بن علي أو أحد أبنائه المتطوعين من الحجاز إلى عمان أيضاً. لكن الحسين احتج بوجوب بقائه في مكة ليدافع عن الحجاز، كما اعتذر ابنه علي الذي قاد المتطوعين وبقي في المدينة. لكن جمال باشا لم يعدم وجود أعوان له من السوريين أمثال شكيب أرسلان الذي قاد المتطوعين الدروز، وعبد الرحمن اليوسف الذي أرسل متطوعة الأكراد، وبلغ مجموع الحملة العثمانية اثني عشر ألفاً^(٥٢).

لم تكن هذه الحملة العسكرية سرية، وكان جمال باشا قد أعلن أنه أتى من أجل تنفيذها، كما أن الإنكليز والفرنسيين كانوا على علم بتحركات القوات العثمانية بأدق التفاصيل. وتوجد تقارير كثيرة في وثائقهم تدل على هذا التحرك. ولذا كان الإنكليز

(٥١) F. O. 371/2481/ No 15633, 14-17, Dec. 1914.

(٥٢) علي فؤاد، كيف غرونا، ص ٨٠، وشكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ١٤٠-١٤٦.

بعد أن جمعوا قواتهم في الاسماعيلية وقناة السويس، ينتظرون وصول الجيش العثماني، كي يصطادوه اصطيداً وهو يعبر القناة، التي تعتبر حاجزاً منيعاً يصعب على قوة صغيرة مثل الجيش العثماني أن يخترقها. وقد قدر تقرير حربي فرنسي أن قوات جمال باشا المخصصة التي غزت قناة السويس كانت سبعين ألف رجل، وهو رقم مبالغ فيه. وذكر أن مدفعيتها كانت ضعيفة وأثرها قليل^(٥٣). وفي تقرير حربي فرنسي آخر، أن محاولة جمال باشا غزو قناة السويس، واستعداد الانكليز لمقابلته، قد يؤديان إلى غزو سورية نفسها، لايقاف مظالم جمال باشا، وكان التقرير يأمل ألا تفعل بريطانيا ذلك دون الاتفاق مع فرنسا. ونتيجة لهذه المعركة — حسب رأي التقرير المذكور — فإن تركيا ستطرد من البلاد العربية، وهو بداية اقتسام الامبراطورية العثمانية. وفي كل الأحوال، وبلا شك، فإن السلم المرتقب سيتأخر قليلاً بسبب مقاومة تركيا^(٥٤). ونتيجة لهذه المعركة التي انكسر فيها الأتراك، صرح الجنرال ماكسويل قائد القوات البريطانية في مصر، بأنه يقدر — بعد تنظيم جيشه — أن يحتل دمشق خلال أسابيع^(٥٥).

والذي حدث أن قوات جمال باشا التي عبرت النقب وصحراء سيناء على الجمال والأقدام، قد عبرت طلائعها في ليل ٢ ففريه / شباط / قناة السويس عند القنطرة. واستطاع الانكليز أن يفتحوا نيران مدافعهم وسفنهم الحربية المنتظرة، وأسروا الأربعمائة الذين عبروا، وأصيب بقية الرجال بنيران كثيفة، ومع ذلك استمر القتال طول النهار دون أمل بالعبور والنجاح، فأصدر جمال باشا أمره بالانسحاب إلى بير السبع^(٥٦). وكان الأتراك يتوقعون نصب جسر على القناة يحتفظون به مدة، ريثما يشور المصريون ضد الانكليز لكن شيئاً لم يحدث. وكان الزعيم الوطني المصري فريد بك، قد أعلن في ٣ ديسمبر / كانون الأول / في صحافة استانبول أنه يؤيد حملة السويس، وكان

(٥٣) تقارير من D. F. G. Carton 16: 7N 1639, Turquie 20 Fev 1915, P. 1.

(٥٤) الكولونيل Maucourps من البعثة الفرنسية في مصر. Ibid, 15 Dec, 1915, PP.1-10.

(٥٥) Ibid, P. 1.

(٥٦) كرد علي، خطط الشام ج ٢، ١٣٦.

يأمل بمساعدة المصريين والسودانيين والليبيين^(٥٧). وجدير بالذكر أن الأتراك حركوا قوة وطنية ليبية ضد مصر في نفس الوقت، لكنها فشلت أيضاً، كما أن أمراء الجزيرة كابن سعود وابن الرشيد وغيرهما قد ساعدوا على تجهيز الحملة بالجمال. وكانت تلك الحملة إحدى المغريات الألمانية لأنور باشا بدخول الحرب معها، لأن ألمانيا ستعيد مصر لدولته من الانكليز.

ولقد أبلى الجنود العرب — مع الآخرين — بلاءً حسناً في هذه المعركة، وكانوا يشكلون الفرقة الخامسة والعشرين. وقد ذكرهم جمال باشا نفسه في مذكراته فقال « وقد ساد بين رجال الحملة — لا فرق بين الأتراك والعرب — شعور العطف الأخوي، ولم يكن بينهم من يضمن بحياته دفاعاً عن إخوانه. والواقع أن الحملة الأولى على القناة كانت برهاناً ساطعاً، على أن غالبية العرب الساحقة انضموا إلى الخلافة بقلوبهم وجوارحهم. أما العرب الذين تألفت منهم الفرقة الخامسة والعشرون، فقد أدوا واجبهم بمنتهى الاهتمام والاخلاص ». وقد فوجيء جمال باشا بتصوراته السابقة عن العرب، إذ رأى العكس فقال « ولكن مسألة المسائل التي تعتبر على جانب عظيم من الأهمية، هي أنه لم تحدث حادثة خيانة واحدة أو فرار بين عرب سورية وفلسطين، الذين تكونت منهم وحدهم فرقة المونة^(٥٨) ».

تسرع جمال باشا وأرسل برقية بنجاح الحملة — لدى نصب الجسور — بينما كان الانكليز يكمنون للحملة — لكنه عاد وأرسل إلى أنور يعلمه بالحقيقة. وبرغم هذا الفشل، أراد جمال باشا أن يظهر بمظهر الفاتح المنتصر، فأمر بتزيين دمشق بالرايات والأنوار الكهربائية، واستعرض الجيش وأخذ يبرر الهزيمة بأنها محاولة استطلاعية للعدو، وأنه في حقيقة الأمر يعد جيشاً قوياً لمهاجمة القناة، ولذا اتخذ من القدس مقراً عسكرياً، وأخذ يوهم الناس بأنه فعلاً يعد للحملة الثانية الكبيرة، وأن الجيوش الاسلامية سوف تحتل القناة، حتى إنه أمر ببناء خط حديدي يصل إلى بئر السبع

(٥٧) عزيز بك، ص ٤٨.

(٥٨) مذكرات جمال باشا، ص ٢٦٤ و ٢٨٠.

وطوله ١٠٠ كم، وقد كلف مهندساً لبنائه، واشترى أشجار الصنوبر من لبنان لهذا الغرض، واحتفل بتدشينه في ١٧ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٥^(٥٩). وجاء في تقرير بريطاني، أن خسائر العثمانيين في غزوة قناة السويس كانت ١١٠٠ قتيل و ٨٠٠ أسير و ٧٠٠٠ جريح^(٦٠).

أما رواية الأتراك فقد ذكرت، أن الفرقتين اللتين حشدهما جمال باشا على القناة، قد نصبتا الجسور عند الاسماعيلية، لكن ستة طرادات انكليزية فتحت النار وأغرقت الجسور وقتلت — حسب قول جمال باشا — ١٩٢ رجلاً وجرحت ٣٨١ وأسرت ٧٢٧. وجدير بالذكر أيضاً أن معظم الجنود الذين عبروا القناة كانوا من العرب^(٦١).

القضاء على نظام لبنان

لقد حدثت المعركة في ففريه / شباط / ١٩١٥، وأخذ جمال باشا في الشهر التالي يقوم بتصرفات عدائية نحو السكان، وخاصة في لبنان في الشهر اللاحق أي في مارس / آذار /، فهل كان الفشل في غزو مصر هو السبب، وهل كان قد قرر أشياء كثيرة يجربها في سورية، لكنه أجعلها تأجلاً حتى يتم حملته وما ينتج عنها؟ يؤكد كثير ممن كتبوا مذكرات عن هذه الفترة، أن جمال باشا قد انقلب فعلاً من صديق أو متظاهر بالصدقة للعرب إلى عدو ظالم وقاتل (وسفاح)، وهذا ما لقب به في سورية وما ظل يعرف به. وقد دامت هذه الفترة الطيبة أربعة أشهر قبل أن يبدأ باللبنانيين، وستة أشهر عندما أتى دور السوريين لينالوا من ظلمه. وهنالك من يقول، إن جمال باشا، عندما قدم إلى سورية كان يعلم بوجود مؤامرة وثورة تدبر ضد تركيا في سورية، وأجل التحقيق بها حتى مابعد حملة السويس، وفي كل الأحوال كان في رأس جمال

(٥٩) مذكرات الحكيم، لبنان وبيروت، ص ١٧١، وعزيز بك، ص ٨٣.

(٦٠) F. O. 371/2485/ No 32528 (16 Mars 1915).

انظر حول هذه الغزوة. D. F. Aff. Etr, vol 868 (11) PP. 117-126 (2-3 Fev 1915).

(٦١) كرد علي، خطط الشام، ج ٣، ص ١٣٦.

باشا رأي سابق وثابت عن سورية، وأنه مصمم على ضربها، أما الوقت فليس تحديده هو المهم. وجاء في كتاب الاستخبارات العثمانية لعزير بك أن جمال باشا، عندما أتى إلى سورية، كان يحمل في جيبه مشروعين خطيرين:

١— إلغاء الامتيازات الخاصة بلبنان لعام ١٨٦٠، وإخضاعه للسلطة العثمانية.

٢— القضاء على الفكرة العربية، ثم تترك العرب (٦٢).

ويؤكد شكيب أرسلان — وهو صديق ومقرب ووسيط لدى جمال باشا — هذه الآراء فهو يقول «ويظهر أن جمال باشا تعهد لهم (الاتحاديين) بأن يقضي على الروح العربية في سورية، على شرط أن يتركوه حراً في العمل، وأن لا يعرقلوا مساعيه، فلذلك بدؤوا بسياسة جديدة لم تكن معهودة من قبل...» (٦٣).

في مارس / آذار /، بدأ جمال باشا بتنفيذ مخططة في سورية، فحل مجلس إدارة لبنان في ٢٣ منه، لأنه كان يعتقد أن أعضائه على صلة بالفتنصليات الأجنبية. ولذا نفى أكثرهم إلى الأناضول. وتوقفت المراسلات بين متصرف جبل لبنان والصدارة العظمى، وأصبح جمال باشا هو المسؤول الأول في كل المنطقة، وعين أحد رجاله (رضا بك) ليكون الحاكم الفعلي في جبل لبنان، وعين مجلس إدارة جديدة في الربع الأخير من مايو / أيار / راعى فيه العدد والنسب الطائفية. ثم أتبع جمال باشا كثيراً من رؤساء الدوائر الحكومية اللبنانية، وكبار موظفيها المعروفين بميولهم نحو فرنسا وروسيا وبريطانيا، بمجلس الإدارة الأول الذي حله، ونفاهم أيضاً إلى الأناضول، وقد قابلهم شخصياً وأوعز لهم بالسفر، وكان منهم الأمير آلاي سعيد البستاني قائد الجند اللبناني، وجرجس صفا رئيس دائرة الحقوق الاستثنائية، ومصطفى عماد وسليم باز وغيرهم. ثم أخذ يملأ الوظائف التي شغرت بمن كان يرى فيهم الكفاءة والاحلاص للدولة، وكان رضا باشا هو الذي يقترح الوظائف والأسماء، ومتصرف لبنان يصدر القرارات (٦٤).

(٦٢) عزير بك، ص ١٢٩.

(٦٣) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ١٥٥.

(٦٤) مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ١٦٢—١٧٥.

وبدل جمال باشا ثياب الدرك اللبناني إلى ثياب تشبه الدرك العثماني . وعندما أدرك أوهانس باشا متصرف جبل لبنان ، نوايا جمال باشا من تصرفاته وتدخله في شؤون المتصرفية ، حاول أن يعترض ، وأرسل برقية إلى الصدارة العظمى . لكنه تلقى جواباً يحتم عليه أن يساعد جمال باشا ، لكن أوهانس عاد وأرسل برقية أخرى للصدارة العظمى ، أظهر مخاوفه من أن يلغي جمال باشا امتيازات جبل لبنان وفي ذلك خطر على الدولة ، لأن الجبل اللبناني سيثور على الدولة ويتصل بالحلفاء . عندها استدعى جمال باشا أوهانس في جوييه / تموز / ، أوت / آب / وأسمعه قارص الكلام ، وأبلغه ضرورة استقالته ففعل ذلك . وعين بدلاً منه علي منيف بك مستشار وزارة الداخلية متصرفاً على جبل لبنان . وبذلك ألغى امتيازات جبل لبنان ودفع أنصاره فتظاهروا في بيروت ، مؤيدين إلغاء الامتيازات الأجنبية ، والخلاص من القناصل الأجانب^(٦٥) . وكان برنامج جمال باشا لأعماله في سورية بالأساس يقوم على :

١ — استبدال الحكومة بأشخاص يثق بهم .

٢ — إيجاد مدارس حكومية بدلاً من الإرساليات الأجنبية وخاصة للبنات .

٣ — تدريب أبناء البلاد .

٤ — إبعاد العناصر الأجنبية أو المتفرجة من أبناء لبنان الخطرين على سياسته في المناطق الساحلية والداخلية^(٦٦) .

وكان إلغاء الامتيازات في جبل لبنان أحد هذه الأهداف ، واستبدال الموظفين أيضاً بمن يثق بهم . وكان جمال يردد كثيراً قول جمال الدين الأفغاني « لا يصلح الشرق إلا حاكم مستبد عادل » . وكان يقول بأن الشدة هي خير علاج لتسكين أوجاع اللبنانيين ، فهم قوة لا يهزمهم إلا القوة ، فإذا عرفت كيف تتفوق عليهم عرفت أن تخضعهم . وكان جمال باشا ممتعضاً من موقف اللبنانيين العاطفي نحو فرنسا وبريطانيا ، دون مراعاة كون الدولة العثمانية في حالة حرب معهما ، ولذا صمم على فعل شيء وهو

(٦٥) مجلة الأسرار ، عدد ٣٩ ، بيروت ، ٢٦ ديسمبر / كانون الأول / ١٩٣٨ ، ص ٨ و ١١ ، وعزيز بك ، ص ١٣١ .

(٦٦) عزيز بك ، ص ١٣٥ .

إخراج بعض المتنفذين منه من أصدقاء فرنسا، وكان قد صرح بهذا القول إلى أوهانس باشا^(٦٧). كان جمال باشا يحمل هذه الأفكار المسبقة قبل وصوله إلى سورية، واقتنع بصحتها من الحوادث التي جرت. إذ حاصرت أساطيل الحلفاء، منذ بداية الحرب، الساحل السوري، وقامت بعض هذه السفن بضرب مواقع معينة، كضرب الدارعة الفرنسية (جان دارك) لبعض من ساحل لبنان وضرب الدارعة الروسية (اسكولت) الساحل السوري بما فيه بيروت، في ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٤، فهاجر أكثر من عشرة آلاف إلى دمشق خلال أسبوع واحد، «تضامناً مع الدولة»، وهذا مما جعل جمال باشا لا يثق بالمسيحيين، لأنه لم يهاجر أحد منهم إلى دمشق، فانتظر حتى يبعد المسيحيين عن بيروت حتى الوقت المناسب. ولذا وحرصاً على الدفاع — كما قال جمال باشا — «فقد حصنا السواحل لمنع الانزال المعادي، من اللاذقية إلى طرابلس في بيروت، ولذا اضطررنا لاحتلال بعض هضبات جبل لبنان، الذي يكن أهله عداوة لنا والذي تطمع فيه فرنسا». وقد احتلت القوات العثمانية جبل لبنان في جو بارد جداً، ومات منها الكثير، وأذاع جمال باشا بلاغاً على السكان، أنذر بتعريض كل من يتصل بالحلفاء إلى المحاكم العرفية. ثم أخذ تنفيذاً لخطته بنفي الشخصيات اللبنانية، حتى يمنع أي تحرك سياسي ضد الدولة^(٦٨).

لم يترك احتلال لبنان بقوة الجيش العثماني، ولا إلغاء امتياز، أثراً بارزاً في تاريخ سورية، مثلما تركه حادثان كبيران أيام جمال باشا، أولهما إعدام مجموعة من قيادة الحركة القومية العربية، حتى لقب الناس جمال باشا بالسفاح بسببه، والثاني جرى في الوقت نفسه وهو المجاعة التي تسببت بموت الآلاف.

مشاقق جمال باشا

أما إعدام جمال باشا للوطنيين، فهي قصة روى كثير من الكتب العربية

(٦٧) مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ١٦١، وعزيز بك، ص ١٣٥.

(٦٨) مجلة الأسرار، عدد ٥، ١٣ مايو / أيار / ١٩٣٨، ص ٧٦، ومذكرات الحكيم، لبنان، ص ١٨١.

مأساتها، لكنها تكاد تجمع على رأي، أن المتهمين كانوا أبرياء من التهم التي وجهها إليهم جمال باشا، وأنهم لم يقوموا بأي عمل ضد الدولة العثمانية يوجب شنقهم، ولذا يكون إعدامهم ظلماً محضاً، هذه الكتب نفسها تصف المعدمين أنهم شهداء القومية العربية، وفي قولهم هذا تناقض مع تبرئتهم من العمل ضد الدولة العثمانية. أما نحن فنزيل هذا التناقض معتمدين على الأحداث والوقائع التي نرويها، والتي شارك فيها غير جمال باشا والعرب، ونعني الانكليز والفرنسيين.

عندما دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء، أحرق قناصل دول الحلفاء أوراقهم السرية. وشوهد الدخان يتصاعد من مداخنهم لمدة طويلة. ويقال إن جمال باشا قد علم من طلعت باشا الصدر الأعظم، بوجود أوراق في هذه القنصليات تمس أمن الدولة، لكن والي بيروت سامي بكير بك رفض تفتيش القنصليات حتى جاء خلفه عزمي بك فنفذ التفتيش، وقد ذكر والي سورية خلوصي بك هذه الأوراق لجمال باشا عند قدومه، وأطلعه عليها، فطلب منه حفظها بالسري، لأنه كان يعد لحملة السويس^(٦٩). وهذه الأوراق وجدت في صندوق أودعه القنصل الفرنسي في بيروت (جورج بيكو) لدى القنصلية الأمريكية. وحصلت عليه السلطة التركية بالقوة — ضد الأعراف الدبلوماسية — بعد أن أفشى سرها ترجمان القنصل الفرنسي، فيليب زلزل إلى جمال باشا خوفاً من العقاب والنفي كبقية التراجمة الذين نفاهم جمال باشا إلى الأناضول^(٧٠). ولم يجد الأتراك أية أوراق في قنصليتي بريطانيا في دمشق وبيروت. وذكر بعض من اتصل بالقنصل الأمريكي في بيروت، أن جمال باشا تعمد ألا يدهم القنصلية الفرنسية إلا بعد أن يستأذن استانبول بذلك. واستغرق هذا شهرين لعودة الجواب. وكان يرى في هذه المدة وقتاً كافياً حتى تحرق القنصليات أوراقها. لكن السؤال الهام هنا هو، لماذا ترك جورج بيكو قنصل فرنسا في بيروت، هذه الأوراق الهامة ولم يحرقها مثل القناصل الآخرين؟ إن كلمة بيكو لمودعيه عند مغادرته بيروت

(٦٩) سليمان موسى، الحركة العربية، ص ١٠٩.

(٧٠) مجلة الأسبوع العربي، بيروت، عدد ٦٢١، (١٣ مايو / أيار / ١٩٧١)، ص ٣٩.

بعد دخول تركيا الحرب، قد توضح لنا شيئاً، إذ قال وعلى مسمع السلطة التركية، بأنه عائد إلى هذه البلاد (بيروت)، بعد خمسة عشر يوماً، أي بعد هزيمة الدولة العثمانية. وقد فسر بعض المقرئين من القنصل الأمريكي في بيروت، أن تصريحات بيكو هذه (العنصرية)، لو كانت أخف من ذلك، ولو أحرق بيكو أوراقه لكان أجدى له ولدولته. ويحتمل فيليب زلزل ترجمان القنصلية الفرنسية، الذي أبلغ السلطات التركية بوجود الأوراق، جورج بيكو مسؤولية ترك الأوراق وما جرت راعها من مصائب. وعندما كتب زلزل ذلك إلى مجلة «أولستراسيون»، نشرت الخبر صحيحاً ثم غيرته بعد يومين وصحته، وذكرت أن القنصل الأمريكي هو المسؤول، لأنه خضع لطلب السلطة التركية وسلمها السجلات مما لم يسبق له مثيل في تاريخ القنصليات^(٧١). واتهم الفرنسيون زلزل — رداً على اتهامه لهم — بأنه هو الذي دل الأتراك على الملفات، وقد نبذوه بعد الانتداب بعد أن كان مقرباً لهم^(٧٢). لم نثر على تفسير من جورج بيكو يرر فيه تركه لأوراق القنصلية. وهناك عدة احتمالات لتفسير فعله، وهو أن جورج بيكو كان على علم بخطة انزال قوات حليفة (انكليزية وفرنسية) على الساحل السوري (في الاسكندرونة)، وكان يتوقع سقوط سورية تحت هذه القوات في وقت قصير، ولذا قال لمودعيه بأنه سيعود بعد ١٥ يوماً، لكن الحملة لم تنفذ لأن فرنسا عارضتها حتى لا تدخل القوات الانكليزية سورية كما ذكرنا في الفصل السابق، وحتى تنفرد فرنسا باحتلال سورية. وقد يكون رفض فرنسا للإنزال العسكري في اسكندرونة هو معرفتها باتفاق الانكليز مع العناصر الوطنية العربية في الجيش العثماني، الذين كانوا سيستغلون الإنزال العسكري لتنفيذ عملية ثورة وانقلاب عسكري في سورية ضد السلطة التركية — وسنذكر ذلك في حينه — وكانت فرنسا لا تقبل أيضاً بخروج سورية من يدها، حتى لو حكمها أبناؤها بمساعدة الانكليز. ومن الاحتمالات التي يمكن إيرادها على ترك بيكو للأوراق في جدار القنصلية هو معرفته بأن السلطات التركية سوف تعثر عليها،

(٧١) مجلة الأسبوع العربي، بيروت، عدد ٦٢١، ٣ ماي / أيار / ١٩٧١. في هذا العدد بحث عن قصة

اعداد جمال باشا للسوريين، شارك فيه عدد من الباحثين والمؤرخين ص ٣٦ — ٣٩.

(٧٢) محمد جميل بيهم، العرب والترك، ص ١٦٨.

وهو بذلك يريد زيادة حدة الصراع بين العرب والترك، وهو ما حدث فعلاً، إذ كانت إعدامات جمال باشا هي القشة التي قصمت ظهر الجمل في علاقات العرب بالأتراك. وأهم وأسوأ احتمال لهذه القصة، هي كأن ييكنو قد أوكل للأتراك بصورة غير مباشرة، تصفية العاملين في الحركة العربية، لأنه كان يعتقد بأن هؤلاء لابد أن يقفوا في وجه فرنسا عندما ستضع يدها على سورية، والدليل على ذلك، أنها ألقت بزملائهم السوريين الذين لم يعدوا في السجون، بعد انتدابها على سورية.

أما جمال باشا فهو الذي اعتقل الوطنيين، وحاكمهم أمام محكمة عسكرية عرقية، وأعدمهم دون تصديق من السلطان العثماني. فما هي الظروف التي جعلته يقدم على هذا الفعل الخطير؟

في الحقيقة هنالك مجموعة أسباب جعلت جمال باشا ينفذ إعداماته في ذلك التاريخ وهي:

١— لم يعد بحاجة مباشرة لاسترضاء العرب، بعد فشل حملته على قناة السويس، التي شكل فيها الجنود العرب الغالبية. ومن أجل هذه الحملة أجل النظر بأوراق القنصلية الفرنسية حتى لا يثير العرب عليه.

٢— كانت استانبول في نفس الفترة (١٩١٥—١٩١٦) تتعرض لهجوم بحري من أساطيل إنكلترا وفرنسا، واضطر جمال باشا إلى أن يرسل إلى منطقة العمليات هذه في غاليبولي، ثلاث فرق هي الثامنة والعاشرة والخامسة والعشرين من سورية، ولم يبق فيها إلا قوات قليلة لا تكفي للدفاع عنها، ولذا لجأ جمال باشا—وكما ذكر في مذكراته— إلى العنف والاعدام حتى يمنع أي ثورة تقوم في سورية، وكان هو يعرف الشعور العام المعادي لحكومة الاتحاديين من قبل الشعب في سورية وفي لبنان. وكانت الاشاعات التي تصل إلى جمال باشا أنه لدى المسيحيين (فقط) ١٥٠ ألف بندقية حديثة، وهم مستعدون للحرب ضد الدولة العثمانية، ووصف جمال باشا الحالة في سورية في تلك الفترة فقال « كانت الحالة خطيرة في سورية في أثناء محاكمات عالية، لأن القوات العسكرية قليلة، وكلها عربية، ولو قامت ثورة لما

استطاع هو أن يوقفها، ولا يمكن أن يأتي بقوات من تركيا، لأن معركة الدردنيل كانت في أشدها^(٧٣).

٣— تمكن الأتراك من صد الأسطولين الفرنسي والانكليزي في غاليبولي، وهذا أعطاهم شعوراً بالقوة والنصر، وأعطاهم ثقة في انتصار حليفهم ألمانيا في المعارك الأخرى، فاستغل جمال باشا هذه القوة، ويطش بخصوم الاتحاديين من القوميين العرب، واستغل فرصة الحرب لتحقيق ذلك. وفي الحرب تسود الأحكام العرفية ويخرق القانون بكل سهولة.

٤— كان أنور باشا على علم بوجود نشاط داخلي ثوري في سورية، وكان ذلك من الأسباب — حسب رواية جمال باشا — التي جعلت أنور باشا يرسل جمالاً إلى سورية ليعيد إليها النظام^(٧٤). وكان جمال يحس — دون معرفة أكيدة — أن الحلفاء متفقون مع رجال الحركة الوطنية العربية في سورية، وأن الثورة ستقوم حالما يقوم الحلفاء بالإنزال العسكري في الساحل السوري. كان هذا أهم وأخطر سبب دفع جمال باشا لاعداد الوطنيين، وبرغم أنه بني على الشك، لكن شك جمال باشا، وإحساسه بقيام ثورة في سورية بالاتفاق مع قوات حليفة تنزل في الساحل السوري كان صحيحاً، إذ ورد في الوثائق البريطانية — كما سندكر — عن وجود خطة واتفاق لقيام عصيان أو انقلاب عسكري في سورية، حالما تنزل القوات الحليفة على الساحل، كما تبين الأحداث العربية — سندكرها بعد قليل — أن الحركة الوطنية العربية كانت قد اتصلت بالانكليز عن طريق الحسين، وعن طريق الضباط العرب أنفسهم كالفاروقي، وأن الجميع كانوا يعدون لثورة تقوم في سورية، والدليل على ذلك هو هروب بعض الضباط العرب من وحداتهم في الجيش العثماني دون سبب عدا اشتراكهم في جمعية العهد أو الفتاة اللتين كانتا تعدان للثورة^(٧٥). وبداية الأمر كان من صيدا بلد عبد الكريم الخليل، حيث

(٧٣) مذكرات جمال باشا، ص ٣٦٩ — ٣٤٧.

(٧٤) نفس المصدر، ص ٢٣٨.

(٧٥) مذكرات فائز الغصين عن الثورة العربية، دمشق مطبعة الترقى، ١٩٥٦، ص ٥.

كشفت أيام الوالي سامي بكير جمعية الفتاة في صيدا ومنطقة جبل عامل، لكن التحقيق السطحي لم يكشف كل الحقيقة لجمال باشا، حتى علم رسمياً عن طريق أسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع وكامل الأسعد أحد زعماء المنطقة ونائب بيروت اللذين أخبراه، وكان في القدس، بوجود مؤامرة عصيان وثورة يدبرها عبد الكريم الخليل مع رضا الصلح، في منطقة صيدا وصور. فأمر باعتقالهما والتوسع في التحقيق^(٧٦). وكان جمال باشا قد زاد شكه في أمر عبد الكريم الخليل، عندما سأله مرة في ماي / أيار / ١٩١٥ عن السر في ولاء الاصلحيين في سورية للدولة، في الوقت الذي مازال فيه الاصلحيون في مصر، يتابعون هجومهم العنيف ضد الدولة ويشيرون حولها الأكاذيب. فاضطرب عبد الكريم الخليل واقترح على جمال باشا أن يسافر إلى مصر، لاقناع الاصلحيين فيها كي يتوقفوا عن حملاتهم ضد الدولة. وزاد هذا الكلام من شك جمال باشا، وأخذ يكون فكرة عن وجود شبكة منظمة بين سورية ومصر تعمل ضد الدولة، في الوقت الذي كانت مخاوفه كبيرة من إنزال حملة على الساحل السوري، والموقف العثماني العسكري ضعيف في سورية، بعد إرسال القوات التي فيها إلى غاليبولي. وسأل جمال باشا عبد الكريم الخليل، كيف يقدر أن يسافر إلى مصر في حالة الحرب هذه بين الانكليز والأتراك، فأجاب عبد الكريم الخليل إجابة الواثق أو الساذج، بأنه سيجد وسيلة للوصول إلى هناك^(٧٧). إذن لا بد من ارتباط له مع مصر حتى يتمكن من السفر. وكان الأتراك حتى من قبل جمال باشا يشكون في أمر عبد الكريم الخليل، وقد أصدرت النيابة للتحقيق في أن عبد الكريم الخليل يدعو الناس للتوقيع على مضابط يطلبون فيها حماية بعض الدول الأجنبية، وصدف أن كان فائز الغصين، المكلف بالتحقيق في ذاك الوقت في

(٧٦) مجلة الأسرار، عدد ٧، ١٧ ماي / أيار / ١٩٣٨، ص ٤-٦.

(٧٧) مذكرات جمال باشا، ص ٣٥٥-٣٥٦.

وصف كرد علي عبد الكريم الخليل فقال «كان على شيء من البلاءة مهملاً لأوراقه، وربما يتركها في أيدي من لا يعرفهم وخرج لقضاء حاجة، وعهده عهد أولاد طاشين».

مذكرات كرد علي، ج ١، ص ١١٤.

منطقة جبلة ولم يثبت له شيء قد أخبر عبد الكريم الخليل في استانبول فيما بعد ، عن تلك القصة ، فاستغرب هذا الأمر ، لأن طلعت بك وزير الداخلية ، كان يظهر له مودة كبيرة في استانبول في تلك الفترة^(٧٨) . ويبدو أن عملية الاعتقال والتحقيق ، لم تكن إلا خطوة للتخلص من الحركة العربية ، استغل الأتراك فيها الحرب لفعل ذلك . إذ وردت برقية من استانبول لقيادة الجيش الرابع في سورية تقضي باتخاذ جميع الوسائل لتشتيت تيار العرب القومي وتزريق شملهم . وقد نقل أحد ضباط أركان حرب الجيش هذا الخبر إلى بعض الضباط ، مما جعلهم يهربون قبل أن يقتك بهم جمال باشا . وقد حذر خالد الحكيم (وكان ضابط احتياط) كلاً من عبد الوهاب الانكليزي ، وشكري العسلي ، وعبد الرحمن الشهبندر ، وأشار عليهم بالهروب ، لكن لم يهتموا بالأمر كثيراً ورفضوا الفرار من دمشق ، بينما هرب الحكيم والغصين والشهبندر فيما بعد ، وأعدم عبد الوهاب الانكليزي وشكري العسلي^(٧٩) .

شكل جمال باشا محكمة عسكرية عرقية في عاليه في لبنان ، وأخذ يعتقل الناس مجموعات مجموعات ، ولم يصدق أحد من الناس أن المعتقلين خونة ، وكان معظم الناس يفسرون أن جمال باشا يريد إرهاب الناس كافة ، حتى لا ينتفض أحد على الدولة خلال الحرب . وكانت المعاملة سيئة جداً في المعتقل ، تقوم على أنواع رهيبية من التعذيب الوحشي ، وقد ذكر فائز الغصين وصفاً لتلك الحالة وقد اعتقل شخصياً « كان الضرب أخف أنواع التعذيب ، وكان رجال التعذيب ينخزون الموقوفين بالإبر ، ولا يدعونهم ينامون لمدة ثلاث ليالي ، كما كانوا يضغطون الرأس بين الصدغين بآلة حتى يكاد يخرج المخ من العينين ، وكانوا لا يقدمون الخبز والماء إلا كل يومين بأقل ما يمكن ، كما يضرب البعض بالفلقة على رجله ، وكانت الثياب تلتصق بالأجسام من الضرب والدماء ، وكانوا يحلقون لحى الشيوخ ويسجنون الشباب بأماكن مظلمة ويمنعون التكلم مع الآخرين ، ولا يسمح لأحد بالقراءة أو الكتابة أو مطالعة الجرائد ، أما وضع القيود بأرجل

(٧٨) متكرات الغصين ، ص ١٩ .

(٧٩) متكرات الغصين ، ص ٩ .

المساجين وصفعهم بالأكف ، فهذا من الأمور البسيطة»^(٨٠) . ووصف فارس الخوري (نائب عن دمشق) في أثناء اعتقاله ، أن صراخ المعتقلين كان يصل إلى السماء من شدة التعذيب ، وكان هؤلاء يوافقون على الاعتراف بما يريد المحققون كقتل جمال باشا ، وطرده الأتراك من سورية ، وتعيين فيصل ملكاً عليها . وقد نجا فارس الخوري من التعذيب وعومل باحترام بوساطة طلعت باشا وزير الداخلية ، لأن لفارس الخوري حصانة ، لكن جمال باشا لم يطلق سراحه إلا بكفالة حتى حوكم وبريء^(٨١) . ومن شدة التعذيب قطع شكري القوتلي (رئيس الجمهورية السورية فيما بعد) شرايين يده ، حتى سال الدم خارج الزنزانة ، فنقل وأسعف ونجا بالمستشفى من أحكام الموت مع أنه عضو في جمعية الفتاة^(٨٢) . وكان جمال باشا نفسه يتدخل بالتحقيق ويهدد بالتعذيب الشديد ، وكان يريد أن يتثبت من أن مخاوفه من قيام ثورة في سورية بالاتفاق مع الحلفاء كانت حقيقية . وكان يجبر المتهمين على الاعتراف بمحقات يتصورها^(٨٣) ، كما فعل برفيق رزق سلوم ، الذي كتب وصفاً عن ذلك إلى والدته بوساطة الخوري الذي زاره قبل إعدامه ، وكان جمال باشا غاضباً منه ومن شعره ، الذي كان يلقيه أمام المسؤولين الأتراك في أثناء عرض المسرحيات^(٨٤) . قبل ذلك الوقت .

(٨٠) نفس المصدر ، ص ٤٩ .

(٨١) محمد الفرجاني ، فارس الخوري وأيام لا تنسى ، بيروت ١٩٦٥ ، دار الغد ، ص ٥١ .
سئل فارس الخوري في التحقيق ، عن خطبة نارية ألقاها في الآستانة ، فأجاب بأنه ألقاها على مسامع الاتحاديين المسؤولين ، وأنه نادى باتحاد الأمتين العربية والتركية ووجوب معاملة العرب باللين والرفق حتى تطمئن النفوس ويذول النفور ، نفس المصدر ، ص ٤٣ .

(٨٢) عبد اللطيف يونس ، شكري القوتلي ، حياة أمة في رجل ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ، ص ١٢ .

(٨٣) أوراق نزيه المؤيد ، وثيقة رقم ١٣/١٣ ، الوثائق التاريخية دمشق ، مارس / آذار / ١٩١٦ .

(٨٤) من شعر رفيق سلوم بمدح العرب :

إن كان في موتي حياة تترجمي	للغرب أقبل يا حمام وعجـل
ومن شعره في ذم الترك والحقه عليهم :	
فالترك اسمهم فيه قد اجتمعت	كل الرذائل من ذل ومن عار
كونوا على الترك أبطالاً ضراغمة	صبوا الصواعق من جمر ومن نار
واستجلبوا لي كأساً من دماهم	لأنني أبتغي شرب الدم الجاري

هلال رزق سلوم ، الشهيد رفيق رزق سلوم ، حمص ، مطبعة جريدة الفجر ، ١٩٦١ ، ص ٣١ .

وقد ذكر كمال بك ، مستنطق ديوان الحرب ، لأحمد قدري بعد الافراج عنه «إننا نحكم بالشنق على كل من يؤثى به إلى هنا ، كي لا يبقى في بلاد العرب ، من يفكر بالانتفاض على الدولة العثمانية» . وعندما طلب أحمد قدري من شكري بك ، رئيس ديوان حرب عالية في دمشق ، أن يعطف على المعتقلين ، أجابه والدمع يترقرق في عينيه ، بأنه ليس في وسعه تلبية ذلك ، لأن جمال باشا مصر كل الاصرار على شنق أكبر عدد ممكن من المعتقلين ، وبخاصة أولئك الذين يخشى أن يقوموا بحركة من الحركات في سبيل قضية بلادهم ، وأنه لم يتمكن من حمله على العدول عن رأيه برغم المحاولات الكثيرة» (٨٥) .

كان أعضاء المحكمة العرفية يأتمرون بأمر جمال باشا ، وهو الذي يحدد لهم مقابل الأسماء الأحكام التي يتوجب عليهم إصدارها . وكانت مهمة أعضاء المحكمة الأساسية ، أن يصفوا إلى جمال باشا شخصية المتهم ، فإذا ذكروا أنه رجل ذكي قوي يمكن أن يخشى جانبه ، كان معنى ذلك أن يكتب جمال باشا حكم الاعدام إلى جانب اسمه ، ولم يكن ينجو من حكم الاعدام إلا الأبله أو من يتظاهر بالبله ، أو من يرشي الديوان العرفي ، حتى يكتبوا عنه أنه أبله . وقد ذكر شكري بك ، رئيس الديوان العرفي ، أن الحكم على رجال الدفعة الثانية عدل أربع مرات بأمر جمال باشا ، فكان في كل مرة يخرج أناساً من قائمة المدومين ويدخل غيرهم . وأخيراً أبلغه بشكله النهائي في ٥ ماي / أيار / ١٩١٦ فنفذ كما أمر (٨٦) .

وذكر كرد علي القريب جداً من جمال باشا ، أن هذا هدد بالقتل أعضاء الديوان العرفي ، إن لم يحكموا على المتهمين السياسيين ، فوافق بعضهم على القتل اضطراراً لا اختياراً (٨٧) .

وذكر شكيب أرسلان صديق جمال باشا ، بأنه عندما «صمم على شنق

(٨٥) مذكرات أحمد قدري ، ص ٥٥ .

(٨٦) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ج ١ ، ص ٧٥ ، وسليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ١١٤ .

(٨٧) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٣ ، ص ١٤٠ .

المعتقلين، استدعى شكري بك رئيس الديوان الحربي العرفي إلى دمشق، وسلمه أسماء ٤٠ شخصاً يجب الحكم عليهم بالاعدام، فراوده شكري بك كثيراً، ودافع كثيراً، فهدده بالقتل كما قال. ولما قال له إن وجدانه لا يرتاح إلا الحكم بالموت إلى على ثلاثة وبالأكثر على خمسة، استحضر أعضاء الديوان وهم ضباط شبان لا يخرجون على إرادته، وكانت النتيجة الحكم على ٢١ فقط» (٨٨).

أما خلوص بك، والي سورية، فقد كان على خلاف مع جمال باشا بشأن الاعدام، وقد اجتمع بأعضاء المجلس العرفي، وقال بأنهم اتهموا بضرب من التلفيات (أنزل الله البلاء بهم) (أي الاتحاديين). وطلب خلوص بك من استانبول إيقاف جمال باشا عند حده، واحتج على تصرفات جمال باشا وحكمه الاستبدادي، فكان جواب استانبول أن يعود خلوصي بك إليها (٨٩)، وكان خلوصي بك غير راضي عن سياسة تفريق جمال باشا بين العرب والترك (٩٠).

ويرى علي فؤاد باشا، رئيس أركان حرب جمال باشا، أن أحكام الاعدام وتنفيذها من قبل جمال باشا، لم تكن خطأ، لأن جمال باشا كان في موقف حرج يرر عمله، ولو لم يعدم هؤلاء الرجال، لقامت الثورة في سورية واتسعت، ولما كان استطاع أن يتغلب على الموقف. لكن كان عليه أن يقف عند هذا الحد من الأعمال، خاصة بعد أن هابه رجال الحركات الوطنية ولم يتحركوا ضد الدولة، لكنه لم يفعل، بل أخذ يلح وظل يلح على زميليه أنور وطلعت، كي يسمح له بمحاكمة الدفعة الثانية الذين وردت أسماؤهم في أوراق القنصلية الفرنسية، «وهذا خطأ فادح ارتكبه، وجعل العرب يمتقون حتى لقبوه بسفاح سورية، وهم على حق» (٩١).

لكن مسؤولية الخوف على سورية، التي كانت تورق جمال باشا من غزو الحلفاء

(٨٨) مجلة المنار، القاهرة، ١٩٢٢، مجلد ٢٣، ج ٢، ص ١٣٢.

(٨٩) مذكرات كرد علي، ج ١، ص ١١٨.

(٩٠) يوسف الحكيم، مذكرات، لسان وبيروت، ص ٢١٥.

(٩١) نقلاً عن أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٧٦-٧٧.

للساحل السوري، يمكن اعتبارها نوعاً من التشبث بالأوهام، كي يعدم هؤلاء الرجال، لأن أنور وظلعت قد أجاباه على برقيات وكتبه الكثيرة عن احتمال قيام ثورة في سورية، يقوم بها السوريون في حالة انزال الحلفاء لجيوشهم فيها، جاء في جوابهما تحت رقم ٣٧٥٠ شيفره موجهة إلى رئاسة أركان الحرب العامة، قول بعدم احتمال مهاجمة العدو لسورية، وأنه من المتعذر إمداد الجيش الرابع بقوات أخرى، لأن جمال باشا كان قد طلب تعزيزات له بعد أن تأكد من اتصال القادة السوريين ببعض رجال القبائل — وهو صحيح — المؤيدة لهم، كما طلب استبدال الفرقة العربية ٢٦، ونقلها من درعا في سورية إلى الرملة في فلسطين، لمواجهة العدو وحربه، لأنه بات لا يثق بالضباط العرب الذين يترقبون سقوط الدولة العثمانية ويخافون من سقوطهم معها، ولهذا كانوا يحاولون إقامة امبراطورية عربية، وتلك الفكرة التي رسمها رجال الجمعيات السرية السورية ودعاة الحلفاء. وكان جمال باشا يرى أن القوات العثمانية في لبنان لا تكفي للدفاع عنه في حالة مهاجمته. هذا هو رأي خليفة محمد جمال باشا في سورية^(٩٢)، وقد أورد أمراً ذا أهمية كبيرة، من أن السوريين كانوا يخافون من أن يسقطوا مع سقوط الدولة العثمانية، ولهذا سارعوا في محاولة إنشاء امبراطوريتهم قبل أن يحتل الأجانب بلادهم، وهذا ما يفسره بعضهم، من أن عبد الكريم الخليل، لما علم بإمكانية انزال الحلفاء قوات لهم في الساحل السوري، أراد القيام بالثورة في سورية حتى يشكل دولة عربية قبل أن يحتلها الأجانب وهي عثمانية. ووصف أحمد قدرى تسرع عبد الكريم الخليل بعدم الاحتياط في عمله، واعتقد جمال باشا بوجود ترابط بين حركة عبد الكريم الخليل وبين الانزال المرتقب، وحاول في المحاكمة اثبات العلاقة، لكنه لم يستطع برغم أن العلاقة موجودة مع الانكليز، لكن ربما عن غير طريق عبد الكريم الخليل، بل عن طريق رجال الحركة اللامركزية في مصر، وبعض الضباط السوريين، وبعض رجال القبائل العربية. وذهب عبد الكريم الخليل وزملاؤه شتقاً في الدفعة الأولى في ٢١ أوت / آب / ١٩١٥، وكانوا ثلاثة عشر، نفذ الحكم في ١١ منهم في الميدان الرئيسي في بيروت، الذي سمي ميدان

(٩٢) جمال باشا (الصغير) كيف جلت القوات العثمانية عن بلاد العرب، ترجمة فؤاد الميداني بيروت،

الحرية، وكان عشرة منهم مسلمين والآخر مسيحيًا، وكانوا من مناطق مختلفة من بلاد الشام، من دمشق، وبيروت، وبيعلبك، وحماه، وجنين^(٩٣)..... وكانوا جميعاً في عمر الشباب وقد استقبلوا الموت بشجاعة وصدور رحبة. وتذكر بعض الكتب العربية كلمات تدل على الإقدام والتضحية والفداء في سبيل الأمة والمجد، قد تغنى بها هؤلاء، وهم يصعدون إلى المشانق^(٩٤). وتهنأ هنا كلمة عبد الكريم الخليل، لأنها تدل على أن جمال باشا قد قتله بسبب سر يعرفه عنه، ولا بد أن يكون محاولة فصل سورية والبلاد العربية عن الدولة العثمانية كما سنرى، لأن عبد الكريم الخليل أصبح من الأشخاص المقربين لجمال باشا. قال عبد الكريم الخليل وهو يساق للموت «أشهدكم أيها القوم أننا لم نأت أمراً فرياً يوجب وقفنا هذه، وإني آسف على ما أظهرته من الإخلاص للدولة منذ نشوب الحرب، ولكن الاتحاديين أبوا إلا أن يعلنوا عداؤهم لهذا العنصر الكريم، الذي لا يملك من أمره شيئاً. فإذا كان جمال باشا يتهنأ بإضرام الثورة لاستقلال العرب، فلا بد من ضحايا لهذا الاستقلال، ولنكن نحن أول هذه الضحايا. إنني أعرف السبب الحقيقي الذي شتقني جمال باشا لأجله، وسيعرفه التاريخ»^(٩٥).

وجفت القلوب وخاف الناس عندما رأوا صبيحة ٢١ أوت / آب / ١٩١٥ الأجسام المعلقة، وشعر جمال باشا بالراحة لهذا الخوف، وأسرع في تلافي موجة السخط العارمة التي حلت بالناس، الذين لم يصدقوا أن الذين أعدمهم جمال باشا، كانوا حقاً خونة. وكان هؤلاء المعدمون كلاً من عبد الكريم الخليل، صالح حيدر، مسلم عابدين، نايف تلو، محمود الحمصاني، محمد الحمصاني، عبد القادر الخرسا، محمود العجم، سليم عبده الهادي، نور الدين القاضي، علي الأرنازي، كما حكم بالاعدام على حافظ السعيد نائب يافا في مجلس المبعوثين والشيخ سعيد الكرمي (مفتي قضاء طولكرم) وخفف الحكم للمؤبد بسبب كبر سنهما. وقد مات الأول في

(٩٣) سميح الزين، ٦ ماي / أيار / قصة شهداء الوطن، ١٩٦٦، ص ٢٢، وناطونيوس ص ٢٨٠، وعزة دروزة، حول الحركة العربية، ج ١، ص ٤٣-٤٥.

(٩٤) انظر العصر الدموي، ص ١٧٠-١٧٨.

(٩٥) أمين سعيد، الثورة العربية، ج ١، ص ٨٥، وسليمان موسى، الحركة، ص ١١٣.

السجن. وقد تأخر وصول إشعار المحاكمة إلى حسن حماده. وهو موظف، فتابع عمله، حتى إذا تسلم الإشعار ذهب لعالية الحضور المحاكمة، لكنه قرأ اسمه في الجريدة وهو في الفندق، أنه محكوم بالاعدام فعاد إلى دمشق واختفى عند أحد أصدقائه، وتزوج من ابنته حتى انتهت الحرب. كما حكمت المحكمة على أكثر من سبعين شخصاً من سورية ولبنان وفلسطين كان معظمهم مقيماً في مصر. وأخذ جمال باشا يكثر من الحفلات والمآدب، للوجهاء ورجال الدين والشيوخ، ويقربهم إليه محاولاً تسكين الخواطر، لكنه كان في الوقت نفسه يعمل على تفريق آخر الفرق العربية العسكرية، واستبدالها بفرق من جنود أتراك، حتى يطمئن من أن ثورة في سورية أصبحت مستحيلة. ولم يكتف جمال باشا بذلك، بل عمد إلى أسلوب الإرهاب والنفي الجماعي، مما جعل جميع الناس يرتاعون من النتائج التي قد تصيبهم دون تحديد، لأن النفي كان شاملاً عاماً وبآلاف، ولم يقتصر على من أضر بالدولة، أو من يشك في أنه يمكن أن يضر الدولة، أوله مداخلات مع الأجانب، بل نفيت عائلات ورجال كثيرون لا ذنب لهم إلا أنهم من عائلات ذات نفوذ ووجاهة متوارثة، وكان كثير من هذه العائلات ممن خدم الدولة خدمات طويلة من أزمان طويلة^(٩٦). والحقيقة أن جمال باشا كان ينفي كل العائلة رجالاً ونساءً وأطفالاً، وكان يعتقد أن ذلك خير من نفي الرجل وحده، وكان المنفي يأخذ راتباً بسيطاً من الدولة، ثم حاول جمال باشا أن يأتي بأتراك بدلاً من هؤلاء العرب المنفيين. وصيغ قرار في مجلس المبعوثين يقضي بإعطاء العرب المنفيين، وقد أصبحوا آلافاً، أراضي في الأناضول وتؤخذ أرضهم في سورية لتعطي للأتراك. ولولا معارضة العرب الشديدة لنفذ القرار^(٩٧) ولحدث استبدال بالسكان، وهذه تدل بكل بساطة على نزعة عنصرية شيطانية من جمال باشا، الذي لم يكن يقر أن عمله هذا يعتبر نفيّاً، بل نقلاً للمشبهين الذين لم تثبت عليهم تهم لتقديهم للمحاكمات، واحتياطاً من نشاطهم الضار بين الأهالي، وأنه ألحق بهم أسوأهم جميعاً، وأنهم أعطوا النفقات والموارد، ونقلوا بكل احترام، ولم تصادر أموالهم وهم

(٩٦) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ١٨٤.

(٩٧) نفس المصدر، ص ١٩٠.

مواطنون هناك^(٩٨). ولقد درس مجلس الوزراء التركي تقريراً بالعفو عن المنفيين، وإرجاعهم إلى بلادهم، لكن هذا المجلس لم يستطع أواخر عام ١٩١٦ أن يصدر قراراً بالعفو عنهم، مادام جمال باشا قائداً عاماً في سورية. وكان جمال باشا حتى ذلك الوقت ذا سمعة عالية لدى الدولة العثمانية، لأنه لم يمكن الانكليز من التقدم في غزة برغم فشل حملته على السويس السابقة التي أساءت إلى سمعته. ولذا كان مجلس النظر يرى أن حفظ جمال باشا لسورية من الاحتلال، يقابل أخطائه الفادحة فيها. وكان الانكليز قد تمكنوا من احتلال قسم من العراق، بينما سلمت سورية وفلسطين حتى ذلك الوقت من الاحتلال، وكان هذا يعزز موقف جمال باشا. وقد أرسل مجلس النظر مندوباً، وهو مدحت شكري، إلى جمال باشا في دمشق لاقناعه بالعفو عن المنفيين، فرفض ولم يقدر أنور باشا على إصدار العفو إزاء إصرار جمال باشا، أما طلعت فقد وعد أن يسوي القضية وكان هو الصدر الأعظم^(٩٩)، وهكذا ظل جمال يلقي بنكباته على رؤوس السوريين. فبعد إعدام القافلة الأولى سادت موجة إرهاب جديدة في حريف ١٩١٥، ولم يكن ذلك بعيداً عن ذلك الإعدام، إذ بدأت حكاية أوراق القنصلية الفرنسية، وكان الحكم على نخلة مطران باكورة الأحكام، إذ حكم عليه بالنفي إلى ديار بكر، والسجن المؤبد بتهمة خيانة الوطن، لأنه طلب معونة فرنسا. وقد أبلغ الحكم أمام السراي وألبس فروة مقلوبة وكبيلت يده بالحديد وراء ظهره، ووضع على رأسه قبعة من الشعر، وعلق على صدره الحكم مكتوباً على قطعة قماش. ثم أجلس في عربة وكان يصفع بجذاء مبلل، وطيف به في شوارع دمشق، وتجمع الناس، ولاحق الأطفال هذا المنظر الغريب، وكان ينال من الشتائم والضرب الشيء الكثير، وفي طريقه إلى منفاه في ديار بكر، دبرت له الحكومة طريقة وقتلته^(١٠٠)، وجرت إعدامات أخرى فردية.

ثم جاءت محاكمة الدفعة الثانية من رجال الحركة الوطنية، الذين تم اعتقالهم في حريف ١٩١٥، وكانت التهمة الموجهة إليهم هو اتصاهاهم بالقنصل الفرنسي، والتآمر

(٩٨) جمال باشا، ايضاحات عن المسائل السياسية، ص ١١٣—١١٥.

(٩٩) سيرة ذاتية، ص ١٩١—١٩٣.

(١٠٠) أبي ناصيف، العصر الدموي، ص ١٧٧—١٨٠.

معه ضد الدولة العثمانية، لفصل سورية عنها، ووضعها تحت الحماية الفرنسية، مع العلم أنه لم يذكر إلا أربعة أشخاص ممن حوكموا وكانت لهم علاقة بالقنصلية الفرنسية كما ذكر كتاب (الإيضاحات) حول تلك المحاكمات الذي أصدره جمال باشا. لكن جمالاً استغل المناسبة وزج بكل رجال الحركة العربية، وأراد بذلك أن يخلط الحابل بالنابل ويشوه سمعة هؤلاء الرجال، لأنه وجد نفعاً على علاقة بالقنصلية الفرنسية، وقد فرض هو شخصياً الأحكام وأعطاهما إلى شكري بك، رئيس ديوان الحرب بعالية، لتلاوتها. والدليل الأكيد على ذلك هو مارواه علي فؤاد بك، رئيس أركان جمال باشا، إذ قال «بأن المقدم شكري بك، قدم إلى جمال باشا في فندق فكتوريا في دمشق، وأخبره بأن محاكمة الدفعة الثانية قد انتهت، وأن المحكمة قد وضعت الأحكام كما هي مقتتعة بها، وأن المحكومين بالاعدام يبلغون ثلاثة أو أربعة أشخاص. وقبل كتابة الأحكام نهائياً تعرض المحكمة هذه الأحكام على جمال باشا. وكان علي فؤاد بك قد أوصى شكري بك أن يتضرع إلى جمال باشا ويرجوه ألا يتشدد في الأحكام، فإذا ما ألح جمال باشا على التشديد يقول له «أرجوك يا باشا، فكر في التاريخ».

لكن شكري بك فشل في مهمته، وضاعت كل التوصيات والكلمات الطيبة لإثناء جمال باشا عن الاعدام. فقد كان هذا الأخير قد علم بنوع الحكم عن طريق ضباطه في عالية، ولهذا بادر شكري بك لحظة دخوله إليه بشدة وجفاء قائلاً: ماذا؟

أجابه شكري بك بقصة انتهاء الأحكام لعرضها أخيراً عليه، وقدم له القائمة، فتناولها جمال باشا، وأخذ يكتب حذاء كل اسم نوع الحكم دون أن يقرأ رأي المحكمة المكتوب، وكانت أحكام جمال التي كتبها هي: إعدام، إعدام....

وتذكر شكري بك توصية علي فؤاد بك فقال «يا باشا، أرجوك فكر في التاريخ» فصاح جمال باشا في وجهه: التاريخ، فليتحطم على رأسك... وهدده بالقتل واستدعى بقية أعضاء الديوان العرفي، فأذعنوا لأمره ولم يرفض منهم إلا ملححم حماده اللبناني، ووقف إلى صف شكري بك الذي استقال من رئاسة المحكمة بعد ذلك،

وعاد إلى الآستانة . وكان قبله الميرالاي تحسين بك رئيس الديوان العرفي ، قد رفض أحكام الاعدام فنقله جمال^(١٠١) .

وعاد شكري بك يحمل حكماً بالاعدام على ٢١ شخصاً ، وفقاً لإرادة جمال باشا ، وهذا يعني أنه أضاف من ١٧ — ١٨ حكماً بالاعدام زيادة على ما كانت ستحكم به المحكمة العسكرية . كان هذا بلا شك إذن انتقاماً من رجال الحركة العربية الاصلاحية ، وليس تنفيذاً لأحكام عادلة ضد خونة ومتآمرين على الدولة ، لأن جمال باشا جانب القانون والعدالة اللذين كانا خارج عقليته ، وكانت هذه الأحكام ، برأي جمال باشا من جهة أخرى ، هي التي حفظت سورية من نشوب ثورة فيها ، خلال عامين ونصف منذ إعلان الشريف حسين ثورة في يونيو / حزيران / ، وقال جمال باشا في مذكراته « إن مبادرته إلى تنفيذ أحكام الاعدام ، كان لها تأثير كبير في المحافظة على سلطة الحكومة وسطوتها ونفوذها في بلاد ، سممتها الدعاية الانكليزية والفرنسية عدة سنوات »^(١٠٢) .

وهكذا يتبين أن سبباً آخر كان وراء هذه الاعدامات لا لأن القانون كان ينفذ بعدل على هؤلاء المنكوبين .

وفي صباح ٦ مايو / آيار / ١٩١٦ استيقظت دمشق وبيروت على أعواد المشانق في ساحة الشهداء لكل منهما ، البرج في بيروت والمرجة في دمشق ، وهي تحمل أجساد عدد من الرجال المعروفين في الوسط العربي والعثماني والرسمي ، ونفذ الحكم في فجر ذلك اليوم . وفي دمشق أعدم كل من ، عبد الحميد الزهراوي (عضو مجلس الأعيان ورئيس المؤتمر العربي في باريس) ، شفيق المؤيد (عضو المبعوثين سابقاً) ، الأمير عمر الجزائري ، شكري العسلي (عضو مجلس المبعوثين سابقاً) ، عبد الوهاب المليحي

(١٠١) ساطع الحصري ، مجلة العربي ، عدد ٣٠ ماي / أيار / ١٩٦١ . (نقلًا عن مذكرات الجنرال علي فؤاد بك باللغة التركية سنة ١٩٥٤) .

والمنار ، مجلد ٢٣ ، ج ٢ ، ص ١٣٢ . ومذكرات الحكيم ، بيروت ولبنان ، ص ١٦٦ .

(١٠٢) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٨٢ — ٣٨٣ .

(الانكليزي)، رشدي الشمعة (عضو مجلس المبعوثين سابقاً)، رفيق رزق سلوم.

وفي بيروت أعدم العقيد سليم الجزائري، والعقيد أمين لطفي الحافظ، وعبد الغني العريسي (صاحب جريدة المفيد)، والشيخ أحمد طباره (صاحب جريدة الاتحاد العثماني)، والأمير عارف الشهابي، وتوفيق البساط، وسعيد عقل (رئيس تحرير جريدة الناصر)، وجلال البخاري، وسيف الدين الخطيب، وبترو باولي، ومحمد الشنطي، وجرجي الحداد والدكتور علي عمر النشاشيبي، وعمر حمد.

ومن الغريب أن يعدم عبد الحميد الزهراوي دون محاكمة، لأنه كان عضواً في مجلس الأعيان ولم يكن تجوز محاكمته إلا بأمر من السلطان نفسه، وقد سبق إلى المشتقة مع الآخرين. بينما يذكر كرد علي أن الزهراوي كان يحاول أن يوقع به في أثناء المحاكمة، وهذا يدل على أنه قدم للمحاكمة التي كانت غير رسمية بالنسبة له. ولقد أسقط جمال باشا اسمه من البلاغ الذي نشره يوم ٧ ماي / أيار / ١٩١٦ بأسماء المعدمين وأسباب إعدامهم، حتى لا تؤخذ عليه حجة. ونشرت جريدة الشرق التي كان يصدرها جمال باشا، ويحررها محمد كرد علي وشكيب أرسلان، في دمشق بلاغ جمال باشا عن الإعدام والمحاكمة، باللغتين التركية والعربية ووزعت مجاناً، وفي اليوم نفسه^(١٠٣)، كما أصدر كتاب إيضاحات عن المحاكمات وصور وثائق القنصلية الفرنسية. لكن هذا الكتاب لم يكن حجة مع جمال باشا، ولهذا اعترض طلعت على إصداره لأن فيه أشياء تفضح الظلم، لكن جمال باشا أصر وأصدر الكتاب.

ولقي رجال الدفعة الثانية أيضاً الموت بشجاعة، وفاهوا بكلمات تدل على إخلاصهم لوطنهم وقومهم، وأنهم يدفعون دماءهم مقابل حرية أمتهم. وقد وصف الكتاب العرب والترك ذلك الموقف الرهيب وسجلوا الكلمات والأغنيات التي كان يرددونها أولئك الصاعدون نحو المشانق. وكان عددهم واحداً وعشرين، نفذ الحكم في

(١٠٣) جريدة الشرق، ٦ ماي / أيار / ١٩١٦، دمشق ومذكرات كرد علي، ج ١، ص ١١٦.

سبعة منهم في دمشق و ١٤ في بيروت، وكان سبعة عشر منهم مسلمين والباقيون مسيحيين (١٠٤).

ولم تعلن الأحكام قبل الشنق، إذ في ليلة ٦ ماي / أيار / دخل السجناء وقرأ أسماء واحد وعشرين، وطلب منهم أن يرتدوا ملابسهم ويلحقوا به، ونقل الذين نفذ فيهم الحكم في دمشق بالقطار، ونقل الآخرون إلى بيروت بالعربات، ووجد كل فريق المشائق في انتظاره. وفي الساعة السادسة صباحاً كان الموت قد خيم على المدينتين، وقد تعمد جمال أن يتغيب عن دمشق في ذلك اليوم فخرج إلى الغوطة للاستراخ.

وتابع جمال باشا أحكامه فحكم بالنفي على ٣٠٠ أسيرة سورية، كما حكمت المحكمة على أشخاص آخرين بالسجن مدداً مختلفة. وتابع جمال اعتقالاته وأحكامه بالاعدام في شهر حزيران / جوان /، واعتقل كلاً من أمراء الألوية المسرحين، شكري الأيوبي، وعبد الحميد القلطي، وشكري القوتلي وآخرين من دروز ومسيحيين ومسلمين بحجة مؤامرة لاغتياله. وكانت غايته من ذلك اقناع الآستانة بأن المؤامرة مازالت مستمرة. وحكمت المحكمة مجدداً بالاعدام على شكري الأيوبي واثنين آخرين، لكن الحكم نقض (١٠٥) — سنذكر ذلك بعد قليل —.

لقد كان اعدام هذه الدفعة أكثر وقعاً وإرهاباً في النفوس، وهذا ما توخاه جمال باشا، والذي زاد من الخوف والألم، أن القسم الأعظم من الذين أعدمهم، كانوا معروفين بوطنيتهم وإخلاصهم. ولقد شل بذلك جمال باشا أيدي الآخرين الذين لم يعتقلوا. وكان فيصل بن الحسين في دمشق عند اعدام، وقد توسط كثيراً، وفعل أبوه ببرقياته راجياً أيضاً عدم اعدام، دون طائل.

(١٠٤) انظر العصر الدموي، ص ٢٢٤. وانطونيوس، ص ٢٨٤.

(١٠٥) سليمان موسى، الحركة العربية، ص ١١٦—١١٧، والمنار، مجلد ٢٣، ج ٢، ص ٢٠٨.

من الأسرى المعروفة التي نفاها جمال باشا: المؤيد، العظم، أسرة الأمير عبد القادر الجزائري، الكيلاني، الشمعة، عبد الهادي، الحسيني، المطران، حيدر، العابد. وهذه الأسرى تخص أناساً من المحكومين. كما نفى جمال باشا كثيراً من أهل اللجاة (جنوب دمشق) رجالاً ونساء وأطفالاً.

ملكرات الغصين، ص ٥٠.

إن هذه القضية التي اعتبر يوم ٦ مايو / أيار / من أجلها يوم الشهداء في سورية قضية هامة في علاقات العرب بالأترك. وحتى الآن لم يكشف النقاب عن الوثائق التركية الخاصة بهذه المرحلة، أو الخاصة بعلاقات العرب بالأترك، لكن بالاعتماد على مذكرات جمال باشا وبعض الوثائق العربية والأجنبية، وما كتبه العرب في مذكراتهم عن هذه المرحلة، يمكننا أن نناقش قضية هامة لها فروع. وهذه القضية هي قصة اتهام هؤلاء بالخيانة. فما صحة ذلك، وما ملابسات تصديق أحكام الاعدام وعلى من تقع المسؤولية... الخ؟

يعتبر جمال باشا، هو المسؤول عن تنفيذ أحكام الاعدام، في الدفتين وما بينهما من إعدامات فردية، لأنه صدق فوراً على الأحكام، ونفذها دون انتظار تصديقها من السلطان، لأنه كما قال، يمكن أن يحصل على ذلك فيما بعد، ولأنه قد حصل على تصديق من وزير الحربية والداخلية، أي أنور وطلعت. وقد اعتمد على السلطة الاستثنائية المخولة له كقائد عام للجيش في سورية، بتنفيذ الأحكام دون تصديق من السلطان. وقد استغل جمال باشا هذه الصلاحية الإستثنائية، التي وضعت أصلاً لمعالجة الحالات العسكرية التي تحدث في أثناء الحرب، حيث تُستوجب السرعة لتلافي الأخطار العسكرية فقط. ويقول جمال باشا إنه استشار قاضي القضاة، ونفذ الأحكام «مما أدخل الرعب في قلوب العصاة»^(١٠٦). لكن تطبيق هذا القانون على قضايا سياسية، استغرق النظر فيها عشرة أشهر، لا يقنع أحداً.

كما أن التهم التي أعدم بها هؤلاء الرجال، وتعود في معظمها إلى الانتساب إلى الجمعيات والأحزاب التي كان السلطان العثماني قد أصدر عفواً عنها في ٢٩ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٣، وعن كل الجرائم السياسية التي حدثت قبل ذلك التاريخ، بينما عمد جمال باشا إلى تنفيذ تلك الاعدامات عن الجرائم المعفي عنها نفسها، مخالفاً

(١٠٦) مذكرات جمال باشا، ص ٣٦٩.

بذلك السلطان وعفوه، لكن هذا لا يبدو مستغرباً، إذ أعدم جمال باشا، عندما كان حاكماً على استانبول، أحد أقرباء السلطان، برغم توسط هذا السلطان^(١٠٧).

ولم يكن جميع مجلس الوزراء التركي على علم بتنفيذ الاعدامات، ولقد احتج الصدر الأعظم سعيد حليم باشا بشدة ضد جمال باشا، لأنه نفذ الاعدامات دون قرار مجلس النظار (الوزراء)، وكان السلطان محمد رشاد نفسه يردد قائلاً «إنني أنا بريء من دم الذين قتلهم جمال باشا في سورية»^(١٠٨).

وعقب الهدنة سنة ١٩١٨، وفي أثناء التحقيق في مذابح الأرمن، عثر أمين التميمي وكان عضواً في هذه اللجنة — وكان مفتشاً في وزارة الداخلية العثمانية قبلاً — على برقيتين متبادلتين بين أنور وجمال، ذكر أنور وزير الحربية ووكيل السلطان في برقيته، أن وزير العدل غاضب من تنفيذ الاعدام دون موافقة مجلس الوزراء والسلطان، وكان جواب جمال باشا، بأنه يعرف ميوعة خليل بك وزير العدل، أما الإرادة السنية «فليس أسهل عليكم من تدبير أمرها...»^(١٠٩).

وبحمل شكيب أرسلان صديق أنور وطلعت، هذين الوزيرين نصيباً من مسؤولية جمال باشا بتنفيذ الاعدام، وقال في مذكراته «من واجباتي أمام ذمتي أن أقول ما أعتقد، وهو أنهما قد أرخيا العنان لجمال باشا في سورية عمداً، ليكون مسؤولاً في المستقبل عن تلك الأعمال، التي لا تجوز في عقل ولا عرف ولا قانون ولا سياسة»^(١١٠)، ويذكر شكيب أرسلان وهو في دمشق، أنه أراد أن تتدخل ألمانيا لمنع تنفيذ الاعدام، ولهذا طلب من قنصلها في دمشق (لوفيفد)، أن يكتب بذلك إلى دولته ففعل وكتب إلى سفارته في استانبول، لكن بعد أسبوع جرى الاعدام ولم يرد جواب^(١١١).

(١٠٧) المنار، مجلد ٢٣، ج ٢، ص ١٢٧.

(١٠٨) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ١٥٩.

(١٠٩) عزة الدروزة، حول الحركة العربية، ج ١، ص ١٥٩.

(١١٠) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ١٦٠.

(١١١) المنار، مجلد ٢٣، ج ٢، ص ١٢٣.

ويروي محمد كرد علي عن لسان أنور باشا ، في أثناء زيارته الأخيرة لسورية والمدينة المنورة ، والتي كتب كرد علي كتاباً خاصاً عن رحلة أنور هذه سنة ١٩١٦ سماه الرحلة الأنورية ، أن أنور أثناء مروره بعالية « قال بصورة استنكار : أما قتلتم بعد هؤلاء الخونة ؟ »^(١١٢) ، مما يؤكد مسؤولية أنور المباشرة من خلف جمال باشا لتنفيذ أحكام الاعدام .

وبعد سقوط القدس في ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٧ ، وقبل مغادرة جمال باشا نهائياً لسورية ، أمام دعوة لأكثر من مائتي شخص في دار الحكومة في دمشق ، ألقى خطاباً حاول فيه تبرير إعداماته ، بأنها كانت قدراً وطلاعاً له ، وأن اعدامات السوريين كانت مطابقة للقانون ، وجاء في كلمته هذه « أن طالعه قضي عليه أن ينزل العقوبات بأعداء الدولة ، فكان هو الذي قتل جماعة صالح باشا (ابن الصدر الأعظم خير الدين التونسي ومن أصهار السلطان) ، كما قتل في سورية من ارتكبوا ما يعاقب عليه القانون ، في سبيل سلامة الدولة »^(١١٣) .

ويحمل غالبية الكتاب والمؤرخين والذين عاشوا تلك الفترة ، جمال باشا مسؤولية الاعدام ، ومنهم يوسف الحكيم وكان أمين سر متصرفية لبنان ، وإدمون رباط كبير أمناء حاكم جبل لبنان الذي ذكر « بأن صلاحية كبيرة أعطيت لجمال باشا ، وكانت قيادة الجيش الرابع هي المشرفة على محكمة عالية ، وأن المصادقة على الاعدام كانت من جمال نفسه »^(١١٤) .

ويذكر الدكتور زين زين رأيه بهذه القضية ، التي بحث فيها وفي علاقات العرب بالأتراك ، أن الوثائق العثمانية لم تفتح بعد عن أحداث تركيا الفتاة لعام ١٩٠٩ ، ولا عن التاريخ العثماني المتعلق بتاريخ العرب ، لكنه يقول ، بأنه لم يعرف فيما إذا كان جمال باشا

(١١٢) كرد علي ، خطط الشام ، ج ٣ ، ص ١٤١ .

(١١٣) مذكرات كرد علي ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(١١٤) مجلة الأسبوع العربي ، بيروت ، عدد ٦٢١ ، ٣ ماي / أيار / ١٩٧١ ، ص ٥١ .

قد أخذ موافقة من السلطان على اعدام أولئك الرجال، أو هو الذي يتحمل المسؤولية وحده، أم هل صدرت إليه أوامر ونفذه^(١١٥).

وقد مرت (كمران)، ابنة جمال باشا في بيروت سنة ١٩٧١، وذكرت لمجلة الأسبوع العربي التي قامت بتحقيق واسع بشأن قضية الاعدامات، أن أباهما غير مسؤول عن تنفيذ الاعدامات، لأن الأوامر صدرت إليه من الآستانة «باتخاذ هذه المواقف»^(١١٦).

وبرغم الوثائق العثمانية، التي لم تفتح بعد عن ملف هذه القضية وغيرها من علاقات العرب بالترك خلال الحرب العالمية الأولى، — حاولنا نحن الاطلاع على الوثائق العثمانية دون طائل عام ١٩٧٩ — فإن مذكرات جمال باشا نفسه، ومذكرات أصدقائه من العرب والأتراك، تؤكد أن جمال باشا أعدم هؤلاء الرجال بتصديقه هو شخصياً، وموافقة أنور وطلعت، ودون الحصول على موافقة السلطان. وأن هذه المسألة ليست ذات أهمية أو تقبل الجدل بعرف جمال باشا، لأنه اعترف بها ولم ينكرها وكرر مرات كثيرة تنفيذه لها. حتى إنه قال لأنور في (رحلته لسورية)، بأنه إذا كانت سياسته (جمال) لا تعجبه (أنور) فلينقله وليأت بآخر بدلاً منه ممن ترضيه سياستهم^(١١٧). وإذا كان أنور قد لام جمالاً على سلوكه، وإذا كان ذلك قد حصل فعلاً، فإن التفسير هو أن أنور قد أرخى العنان لجمال — كما قال شكيب أرسلان — وأن جمالاً قد أطلق لنفسه هذا العنان إلى آخر مداه، بشكل أضر بالدولة العثمانية نفسها، التي كان فيها أنور الرجل الأول فيها برغم وجود السلطان. ولهذا أرسلت الحكومة العثمانية، وفداً تركياً مؤلفاً من بضعة عشر شخصاً من أعيان الأتراك وكبارهم، من الأعيان، وأعضاء مجلس الأمة، إلى سورية لتطبيب خواطر العرب إثر حوادث اعدامات جمال باشا، ونفيه لآلاف الناس ممن لا يعرف كلمة عن السياسة. وكان من هذا الوفد صلاح جمجوز

(١١٥) نفس المصدر.

(١١٦) نفس المصدر، ص ٥٣.

(١١٧) مذكرات كرد علي، ج ١، ص ١٧١.

بك وعصمت بك والي الآستانة سابقاً. وعقد هؤلاء مع أعضاء الحكومة جلسات وحفلات، وأقيمت المآدب، دعي إليها أعيان الشام، وتكلم أعضاء الوفد التركي المذكور في موضوع واحد هو الوحدة العثمانية الإسلامية. وتبين أن الغاية من ذلك كانت ترميم ما خربته سياسة جمال باشا، واستلال أحقاد العرب مما فعله بهم، ولم يسر جمال باشا في أثناء إلقاء القصائد من ذكر أي شيء يخص أصل العرب أو مجدهم^(١١٨)، لأنه كان قد قرر مع حزبه نهائياً تترك العرب في سورية. ولم تستطع الكلمات التي ألقىت أن تعيد الأرواح التي أزهقت، أو تجعل العرب يشعرون بالرضى عن سياسة الدولة، أو سياسة جمال باشا في سورية الذي ظل يصر على أن سياسة الشدة والبطش، هي التي تمنع الثورة ضد الدولة حتى في هذه المآدب، وهذا ما نصح هو به سفير النمسا، كي تأخذ دولته بالشدة التشيكيين الذين كانوا يفرون إلى الروس، بمثل ما اتخذ بحق العرب في سورية. وكان رأي جمال باشا — بعد إعلان ثورة الحسين في يونيو / حزيران / ١٩١٦ — أن العرب راضون بالدخول تحت حماية الكفار، وأنه يجب القصاص منهم بسبب خيانتهم^(١١٩).

إذن أدركت الحكومة العثمانية لكن بعد فوات الأوان، وبعد اندلاع الثورة العربية بقيادة الحسين أن أعمال جمال باشا في سورية، قد سببت لها المصائب، وأنها كانت إحدى أسباب ثورة الحسين. لذلك أرادت أن تحد من سلطته، وقررت أن تُرسل الأحكام التي تصدرها محكمة جمال باشا إلى الآستانة، بما يتعلق بالأمور السياسية إلى ديوان التمييز العسكري، في استانبول، وعندما أرسلت أحكام الاعدام بحق شكري الأيوبي واثني آخرين، عرضت الملفات على هذا الديوان، فقرر نقضها لأن الجرم المنسوب للأشخاص لم يدخل حيز التنفيذ، وبرغم ذلك أبقى جمال باشا هؤلاء في السجن، حتى ما بعد مغادرته سورية^(١٢٠).

(١١٨) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ٢٠٩.

(١١٩) نفس المصدر، ص ٢١٢ و ٢١٥ — ٢١٦.

(١٢٠) سليمان موسى، الحركة العربية، ص ١١٨ — ١١٩.

ولقد وضعنا جانباً الكره الاتحادي التركي الطوراني ضد العرب ، ومحاولات
تثريك العرب ، والأحقاد القديمة ، وعقلية جمال باشا التسلطية العنيفة ، وأردنا أن نبحث
في حقيقة الاتهامات التي أعدهم بموجبها جمال باشاً أولئك الرجال ، حتى نصل إلى
الحقيقة دون عواطف ، وحتى نعرف الحقيقة الهامة ، وهي هل أعدهم هؤلاء لأنهم وطنيون
مخلصون أم لأنهم خونة كما قرر جمال باشا ؟

إن جمال باشا استغل وجود بعض الأشخاص ، المتصلين فعلاً بالفرنسيين لغاية
التخلص من الحكم العثماني ، ووضع سورية أو لبنان تحت حماية فرنسا ، أو دمجهم
بالآخرين كي يشوه سمعة كل الرجال ، حتى إنه أعدهم سبعة من المجرمين العاديين ، كي
يضفي طابعاً إجرامياً على كل الرجال الذين أعدهمهم . ولهذا توجد حقيقة لا لبس فيها
وهو أن المعدمين ليسوا جميعاً من نوعية واحدة ، ولا سياسة واحدة ويمكن تقسيمهم إلى
الفئات التالية :

١ — وطنيون أرادوا أن يكونوا شركاء فعلاً في حكم الدولة العثمانية ، لا محكومين عند
الأتراك ، وكانت غايتهم في البدء الحكم العربي اللامركزي ، ثم تطور بفضل سياسة
النقمة الاتحادية وخاصة من جمال باشا ، إلى استقلاليين عرب ليس لديهم مانع
من أن يتعاونوا مع أية قوة توصلهم إلى الاستقلال ، حتى لو كانت قوى أوروبية
مسيحية ، لأن الأتراك أنفسهم يتعاونون مع الألمان والنمساويين الأوروبيين
المسيحيين .

٢ — شباب عرب متحمسون يعملون لحياء مجد العرب ، وقد ساروا في الاتجاه القومي
العربي الذي كان يتغلغل في النفوس في تلك الأيام .

٣ — رجال يعملون لاستقلال لبنان على أنه مسيحي وليس عربياً تماماً .

٤ — رجال يعملون لوضع سورية ولبنان تحت الحماية الفرنسية .

٥ — ألاف من المنفيين لا يعرفون شيئاً عن السياسة ولا لماذا حدث نفيم .

وكان معظم المعدمين هم من الفئة الأولى والثانية ، وكانت تتراوح الاتهامات ،

كما جاءت في كتاب ايضاحات^(١٢١) الذي أصدره جمال باشا عن هذه القضية، ما بين الانتساب إلى الجمعيات، وعلى الأخص حزب اللامركزية في مصر، الذي كان يسعى إلى تأسيس خلافة في مصر، تحت حكم الانكليز، أو جعل سورية تحت حماية فرنسا وبريطانيا، أو استقلال سورية تحت حكم أمير مسلم. وقد اعتمد على أوراق القنصلية الفرنسية، وعلى الرسائل التي أرسلها حقي العظم من مصر إلى أعضاء اللامركزية في سورية، وعلى الاعترافات التي أخذت بالقوة والتعذيب، وقد أعدم بعضهم دون أن ييوح باسم أحد من زملائه، كمحمد المحمصاني وأخوه، وهذا يدل على أن جمال باشا حكم بناءً على المعلومات المعروفة مسبقاً، لأن كثيراً من قادة الجيش ظلوا في قياداتهم، كياسين الهاشمي، ورستم حيدر، وعلي رضا الركابي، مع أنهم منتسبون جميعاً إلى جمعيتي الفتاة والعهد، اللتين أعدم بعض الرجال ممن كانوا من المنتسبين لهما. وكل الاتهامات كانت نظرية، لأنه لم يجر تنفيذ أي عمل حتى يستوجب الاعداد حسب القانون التركي المعمول به، ونحن لا نملك إلا قرارات جمال باشا، بينما لا نعرف شيئاً عن المحاكمات ولا عن دفاع هؤلاء عن أنفسهم، وهذا يدل على أن جمال باشا كتب ما أراد في كتابه، ولم يذكر شيئاً في صالح المحكومين، بل ذكر أنهم اعترفوا. وبرغم كل ذلك فلنر هذه الاتهامات:

الاسم	التهمة	الاتصال بالأجنبي
عبد الحميد الزهراوي	انتساب إلى الجمعيات	لا اتصال
شفيق المؤيد	انتساب إلى الجمعيات	له اتصال مع الفرنسيين لاستقلال سورية
شكري العسلي	انتساب إلى الجمعيات	له اتصال بفرنسا ويدعو للافتراق وتشكيل امارة سورية واستدعاء قوات فرنسية لسورية
عبد الغني العريسي	انتساب للأحزاب	لا اتصال

(١٢١) إيضاحات، ص ٤٤—٤٨.

لا اتصال	انتساب للأحزاب	سيف الدين الخطيب
لا اتصال	انتساب للأحزاب	محمود المحمصاني
لا اتصال	انتساب للأحزاب	محمد المحمصاني
لا اتصال	انتساب للأحزاب	صالح حيدر
لا اتصال	انتساب للأحزاب	عبد الوهاب الانكليزي
لا اتصال	انتساب للأحزاب	رفيق سلوم
لا اتصال	انتساب للأحزاب	عمر حمد
لا اتصال	انتساب للأحزاب	عارف الشهابي
لا اتصال	انتساب للأحزاب	عبد الكريم الخليل
لا اتصال	انتساب للأحزاب	الشيخ أحمد طباره
لا اتصال	انتساب للأحزاب	أمير عمر الجزائري
كان يتقاضى الأموال من الفرنسيين		
وكان يهد لفرنسا		
لا اتصال	انتساب للأحزاب	علي الأرنازي
لا اتصال	انتساب للأحزاب	حافظ السعيد
لا اتصال	انتساب للأحزاب	محمود العجم
لا اتصال	انتساب للأحزاب	محمد مسلم عابدين
لا اتصال	انتساب للأحزاب	سعيد الكرمني
لا اتصال	انتساب للأحزاب	سليم عبد الهادي
لا اتصال	داعي استقلال عربي	سليم الجزائري
لا اتصال	رئيس جمعية العهد بحلب	أمين لطفي
لا اتصال	انتساب للجمعيات السرية	عبد القادر الخرسا
لا اتصال	انتساب للجمعيات السرية	رشدي الشمعة
لا اتصال	انتساب للجمعيات السرية	محمد الشنطي
لا اتصال	انتساب لجمعية النهضة اللبنانية واستقلال لبنان	جورجي حداد
لا اتصال	انتساب لجمعية النهضة اللبنانية واستقلال لبنان	سعيد عقل
لا اتصال	انتساب لجمعية النهضة اللبنانية واستقلال لبنان	بترو باولي
لا اتصال	انتساب لجمعية النهضة اللبنانية واستقلال لبنان	سبط علي
(حكم خمس سنوات)	انتساب للجمعيات السرية	محمد سالم مظلوم
له اتصال بالفرنسيين	انتساب للجمعيات السرية	نوري القاضي

لا اتصال
لا اتصال (١٢٢)

انتساب للجمعيات السرية
انتساب للجمعيات السرية

توفيق البساط
جلال البخاري

نلاحظ في هذه المجموعة أربعة أشخاص متهمين بالاتصال بالقنصلية الفرنسية، وهم شفيق المؤيد العظم وشكري العسلي والأمير عمر الجزائري ونوري القاضي. لكن ليس كل اتصال مع قنصل أجنبى يعني الخيانة. ولنأخذ على ذلك مثال شكري العسلي — ذكرناه في الفصل الثاني — الذي زار القنصل الفرنسي في دمشق، كما تذكر وثائق وزارة الخارجية الفرنسية في سبتمبر / أيلول / ١٩١٣، وقد انتقد بمرارة الحكم التركي، وطالب بالاصلاح، وقال له القنصل الفرنسي كما قال سابقاً لمحمد كرد علي بأن سورية ستحصل على مساعدة فرنسا، وأن على فرنسا أن تحقق ذلك. وقال شكري العسلي بأن الأتراك يقتربون الأموال لشراء أسلحة لقتل العرب. وكان عداؤهم كبيراً للمؤتمر السوري في باريس، لكنهم اضطروا للاعتراف به والتضامن معه، لكن لم يحققوا شيئاً من ادعاءاتهم. ويقول القنصل الفرنسي بأن وجهاء كثيرين غير العسلي، حدثوه بذلك وكان هو (القنصل) يؤكد لهم بأن فرنسا تسعى دائماً لتحصل سورية على مطالبها العادلة» (١٢٣).

كان ما قاله شكري العسلي للقنصل من نقد للحكم التركي، يقوله في مجلس المبعوثين دائماً وعلى صفحات الجرائد، وكانت آراؤه أمام القنصل هي الاصلاحات التي كان يطالب بها أيضاً في مجلس المبعوثين. ولم يطلب انفصلاً عن الدولة العثمانية، ولا مالاً فرنسياً، ولا جيشاً لاحتلال سورية. فهل كلامه هذا يجعله يستحق الاعدام، وهل خان الدولة العثمانية؟ ألم يكن هذا القنصل يعرف رأيه مسبقاً، كما عرف رأي كرد علي وآخرين، فهل إذا سمعه من شكري العسلي كان خيانة من الأخير الذي لم يطلب منه ولا من فرنسا شيئاً؟ وهل استحق محمد كرد علي صديق جمال باشا الاعدام مع أنه قابل القنصل مرات؟ وكان القنصل يذكر في إحداها أنه أخذ يتعاطف مع

(١٢٢) إيضاحات، ص ١١٥ — ١٢٥.

(١٢٣) D. F. Aff. Etr, vol. XX. 19 Sep 1913, PP. 87-96.

فرنسا، وفي أخرى أنه لا يتعاطف مع فرنسا، بينما لم يذكر شيئاً حول ما إذا كان شكري العسلي قد قبل حتى مساعدة فرنسا لسورية في سبيل الإصلاح! إذن لابد أن يكون سلوك العسلي المعادي للاتحاديين في مجلس المبعوثين هو سبب قتله، بينما كان كرد علي يكتب في جريدته أحياناً مع الترك وأخرى ضدهم، ولم يستحق القتل مع أنه كالعسلي زار القنصل الفرنسي.

أما عمر الجزائري وبقية أسرة عبد القادر الجزائري، فقد كانوا على اتصال مع القنصل الفرنسي بسبب كونهم جزائريين، وكانت فرنسا تعتبرهم من رعاياها، وتدفع لهم رواتب كتعويض عن أملاكهم الموروثة في الجزائر، ومع كل هذا فلم يكن هؤلاء الجزائريون مع جهة واحدة، وكان بعضهم يصادق فرنسا وآخرون يصادقون ألمانيا وغيرهم يقدم ولاء لتركيا، وكان بعضهم يبدل ولاءه من حين لآخر. وكان علي الجزائري صديق الألمان وقد وعده العثمانيون بإمارة الجزائر^(١٢٤)

ضربنا هذه الأمثلة عن أصعب الحالات فكيف بالاعدامات الأخرى التي جرت بسبب انتساب رجالها إلى حزب اللامركزية العلني وهل يكفي هذا لإصدار أحكام الاعدام...؟

ويمكن بسهولة معرفة الفرق بين الاتصال بالدولة الأجنبية، عندما يحمل هذا الاتصال طلب الانفصال عن الدولة، وبين وضع سورية أو لبنان، بطلب رسمي، تحت حماية فرنسا، كتلك الوثيقة التي تقدم بها ميشيل التويني ويوسف الهاني وبترو طراد وأيوب ثابت ورزق الله أرقش وخليل زينية إلى وزارة الخارجية الفرنسية في مارس / آذار / ١٩١٣ يطلبون فيها وضع سورية تحت حماية فرنسا وتوسيع لبنان^(١٢٥). ومن هنا يتبين أن جمال باشا، حاول بسوء نية أن يحاسب الحالتين المذكورتين الحساب نفسه، مع ظاهر الفرق الكبير بينهما، ويدرجهما تحت ذنب واحد هو الاتصال بالأجنبي لغاية غير وطنية.

Ibid, 17 Oct, 1913, P.122. et vol XI, 26 Mars, 1916, P.43. (١٢٤)

(١٢٥) إيضاحات، ص ٣٨ - ٤١.

أما من أعدمهم جمال باشا دون العثور ضدهم على أية وثائق تدينهم، فقد برر جمال باشا عمله بأنه من باب القتل السياسي. وقد فضح جمال باشا نفسه، عندما أراد أن يثبت جرم الاعدام بالوثائق التي عثر عليها في القنصلية الفرنسية، أو بما حدث في المؤتمر السوري في باريس في يونيو / حزيران / ١٩١٣، وأثبت العكس أي أثبت وطنية هؤلاء الرجال، عندما استشهد بكلماتهم على أنها ضدهم. ونجد أنه في كتابه «إيضاحات»، قد استشهد بكلمة ألقاها أحمد مختار بيهم في وزارة الخارجية الفرنسية، بعد انتهاء المؤتمر السوري في باريس، وكان بين وفد من هذا المؤتمر ذهب لشكر فرنسا على سماحها بعقد المؤتمر في بلدها، وجاء في كلمة بيهم «إننا نحترم الفرنسيين، ولكن لا نرضى أن يكونوا رؤساء علينا، بل نرغب معاضدتهم في اصلاح أحوالنا، بشرط أن نبقى عثمانين. وليس السوريون كما قيل لكم، يفتحون صدورهم لفرنسا». وفي حجة جمال باشا ضد عبد الغني العريسي، نجده يبرئه من تهمة التعامل مع الأجانب، إذ أورد في كتابه إيضاحات ما ظن أنه ضد العريسي، إذ كتب: أن عبد الغني العريسي قد اعترف أثناء المحاكمات، أن بيشون وزير خارجية فرنسا، كتب بعد المؤتمر إلى جميع القناصل الفرنسيين في البلاد العثمانية قائلاً «تحقق لدينا أن الحركة الاصلاحية قد انقلبت علينا — عن تصريح الوفد — ولذلك أظهروا أنفسكم أنكم تساعدونها لاكتساب قلوب الأهلىن، وفي الخفاء اسعوا لقتلها»، وجمال باشا نفسه ذكر في مذكراته أن بيشون، قد أبرق نص تصريح أحمد مختار بيهم إلى الميسو يومبار السفير الفرنسي في استانبول^(١٢٦). أليس في ذلك حقاً براءة لأحمد مختار بيهم وعبد الغني العريسي!

وفي رأي كمران ابنة جمال باشا بهؤلاء المعدمين قالت وهي تحاول أن تبرر عملهم، وفي الوقت نفسه تبرر عمل أبيها، إنهم يعتبرون شهداء بالنسبة للعرب، وخونة بالنسبة للدولة العثمانية^(١٢٧). ولا بد هنا من طرح السؤال التالي وإن كنا

(١٢٦) مذكرات جمال باشا، ص ٤٧٤، وإيضاحات ص ٦٠.

(١٢٧) مجلة الأسبوع العربي، عدد ٦٣١، ٣ ماي / أيار / ١٩٧١، ص ٥٣.

سنبحثه في مكانه بعد صفحات ، وهو أن جمال باشا أعدم هؤلاء على أنهم أرادوا فصل البلاد العربية عن جسم الدولة العثمانية بمساعدة الدول الأجنبية ، فرنسا وبريطانيا ، ووضعها تحت حماية هذه الدول الأجنبية ، فما هو إذن رأي التاريخ بجمال باشا الذي اتصل بفرنسا وبريطانيا وروسيا ، لفصل البلاد العربية عن الدولة العثمانية ، وليكون هو سلطاناً عليها ، ويصبح حليفاً لهذه الدول ضد دولته ، في نفس الفترة التي كان يعدم بها هؤلاء الرجال ...؟

حاول كثير لدى جمال باشا Lieفو أو يخفف الأحكام عن المحكومين دون فائدة واتصل به أصدقاؤه والمسؤولون في الدولة ، سواء أكانوا أتراكاً أم عرباً ، كخلوصي بك والي سورية ، وشكيب أرسلان عضو مجلس المبعوثين وصديقه الخاص ، وأسعد الشقيري الذي وشى له بعبد الكريم الخليل وكان مفتياً للجيش الرابع ، وقبل رتبة جمال باشا في المأدبة الكبرى التي أقامها . آل البكري لجمال باشا من أجل التوسط للمحكومين بإيعاز من أسعد الشقيري نفسه ، أمام جمع كبير Lieفو عن المعتقلين^(١٢٨) لأن أسعد الشقيري عندما وشى هؤلاء لجمال باشا ، لم يكن يعتقد أن جمال باشا سيعدمهم أو سيفرق في اعدامهم ، وبذلك سيكتب التاريخ أنه كان سبباً في موت نفر من الأبرياء . لكن لم يكن يعلم أن جمالاً سيطلق يده في الاعدام حتى النهاية ، مثله مثل أنور باشا الذي أطلق يد جمال باشا وهذا مدها أكثر بكثير مما يتخيله أنور أو أسعد الشقيري أو غيره ، وربما كان الشقيري يعتقد أن العقوبة لن تتعدى السجن وحفظ سلامة الدولة العثمانية الإسلامية . لقد نهى جمال باشا أسعد الشقيري بألا يعود إلى مثل هذا العمل^(١٢٩) (التوسط) . وبوساطة شكيب أرسلان سلمت أسرة حيدر ابنها صالح حيدر ، فأعدمه جمال باشا ، وعندما ذكر له شكيب ذلك ، وأنه لولاه لما سلم صالح نفسه ، قال جمال بأنه كان سيقبض على الأسرة جميعاً^(١٣٠) .

(١٢٨) مذكرات كرد علي ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

(١٢٩) نفس المصدر .

(١٣٠) سيرة ذاتية (مذكرات شكيب أرسلان) ص ١٦٢ .

وأقامت أسرة الهاني حفلة كبرى في بيروت، على شرف جمال باشا كتبت فيها على الخبز، وحفرت على الصحون، وكتبت على ثياب الخدمة عبارة «العفو عند المقدرة من شيم الكرام»، وفي نهاية السهرة تقدمت حنية دوماني زوجة يوسف الهاني المعتقل إلى جمال باشا، وطرحت عند قدميه كل مجوهراتها وقالت له ليصرف ثمنها على الأطفال الذين يتمتهم الحرب فداءً لزوجها، فأجابها وفي عينيه صلابة الحرب وشراسة القيادة «خذي حلاك واصرفي ثمنها في تعليم أبنائك حب وطنهم»^(١٣١). وفي ٤ أبريل / نيسان / شتى يوسف الهاني. وذكرت كمران أن أباهما طلب من يوسف الهاني، أن ينكر توقيعها على العريضة الموجهة لوزير خارجية فرنسا من أجل طلب حماية فرنسا لسورية حتى يعفو عنه فرفض^(١٣٢).

ومما يجدر ذكره في إعدامات جمال باشا، تلك العملية التي وازن فيها جمال باشا باعدام الأخوة، فلقد أعدم محمد ومحمود المحمصاني المسلمين، وعندما جاء دور فيليب الخازن وأخيه فريد، أعدمهما جمال باشا أيضاً، وعندما توسط بعضهم للبقاء على حياة واحد من الخازنين رفض وقال: إنها عملية التوازن «توازن إيجون»^(١٣٣).

ورفض جمال باشا توسط فيصل بن الحسين الذي كان في دمشق، وقد يكون لتهديد الحسين بن علي بعد القيام بثورته بأنه سيعدم عشرة من الأسرى الأتراك عنده، مقابل كل عربي يعدمه جمال باشا، أثراً رادعاً حتى توقف جمال بعد الدفعة الثانية عن الاعدام السياسي في سورية^(١٣٤).

ومما يؤكد تصميم جمال باشا على الاعدام، أن شكيب أرسلان راجعه وطلب الصفح والعفو عن المعتقلين من عقوبة الاعدام فحسب، وقال بأن العفو سوف يثير نقمة الشعب عليهم، ويفقدون بذلك مكانتهم في البلاد، فأجاب جمال باشا بيت

(١٣١) مذكرات الحكيم، لبنان وبيروت، ص ١٦٨، والأسير العربي، العدد السابق، ص ٤٥.

(١٣٢) الأسبوع العربي، العدد السابق، ص ٥٣.

(١٣٣) نفس المصدر، ص ٣٩.

(١٣٤) كرد علي، خطط الشام، ج ٣، ص ١٤٢.

شعر مقابل (بالتركية) بأن العفو لا يؤثر في الخائن مثلما الماء الجاري في الصخر لا يطفىء الزبد الكامن فيه، ويمثل هذا القول أجاب فيصلاً بأن الخونة سينالون عقابهم. وكان جمال باشا يردد بأنه يغرق ابنه في البحر إذا أتى أمراً ضد سلامة الدولة ثم يكي عليه لأنه ابنه. ولم يقبل نصيحة أرسلان بأن اعدامه للمحكومين سيجعل منهم شهداء بنظر الشعب^(١٣٥)، وهذا ما حدث برغم اختلاف نوعية المعدمين، فقد أصبح يوم ٦ ماي / أيار / عيداً للشهداء في سورية ولبنان. وقد حاول علي فؤاد بك، رئيس أركان جمال باشا، التوسط للعفو، كما أن أنور باشا نفسه وعد بأن يوصي جمال باشا لكن دون فائدة، ولم ينشِ جمال باشا عن عزمه في القتل^(١٣٦) وهل يكون استغل نشوة ظفر الأتراك في الدردنيل، وفي كوت العمارة في العراق، فتشجع هذا الرجل على التمادي في الإعدامات..؟

وإذا كنا قد بينا مسؤولية جمال باشا في الاعدام، ومسؤولية جورج بيكو في ترك وثائق قنصليته دون إحراق، فلا بد للأمانة من ذكر شخص ثالث اعتمد على رسائله جمال باشا في هذه الاعدامات، وهو حقي العظم، سكرتير حزب اللامركزية في مصر، الذي كان مستمراً في إرسال الرسائل^(١٣٧) دون حذر إلى سورية، بحث ويحرض على العمل ضد الأتراك، ويشتم ويتوعد هؤلاء الأتراك، وكان هو مطمئناً في مصر تحت حكم الانكليز ورعاية أصدقائه الفرنسيين، ويكتب المناشير الثورية حتى دون علم قيادة حزب اللامركزية، ويرسلها مع أشخاص أو في البريد الفرنسي، مما جعل جمال باشا يشك في الأمر، فكيف بالرجال في سورية يعلنون إخلاصهم، بينما القيادة في مصر ما تزال تنشط ضد الأتراك؟ وكان ما عرضه من حكاية عبد الكريم الخليل. وكان حقي العظم يرسل مناشيره إلى محمود الحمصاني الذي أعدم بسبب «شجاعة حقي العظم». لكن حقي العظم يحمل مسؤولية أو جزءاً من مسؤولية الاعدام، لا لأنه أرسل هذه المناشير مدفوعاً بروح قومية عربية، بل لأنه كان يعمل لاستقلال

(١٣٥) سيرة ذاتية، ص ١٧٢، وكرد علي، مذكرات، ج ١، ص ١٥٥.

(١٣٦) سيرة ذاتية، ص ١٧٥-١٧٦.

(١٣٧) مذكرات أحمد قذافي، ص ٣٠-٣١، والوثائق التاريخية، دمشق، رقم ٦١/٧٩، بلا تا.

سورية ووضعها تحت حماية فرنسا، وقد جاء ذلك في رسالة أرسلها إلى سامي البكري في شهر أوت / آب / ١٩١٨ أي قبيل دخول فيصل إلى دمشق (أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٨)، ليوصلها إلى أخيه فوزي العامل مع فيصل، ليوصلها بدوره إلى فيصل، يقترح فيها أن يكون ملكاً على سورية تحت ظل فرنسا *Sous L'égide de la France* فإذا قبل فيصل، فإن حقي يتصل به كمفاوض ويطلب رداً سريعاً^(١٣٨). وبذلك يكون دوره في رسائله إلى من أعدهم جمال باشا مكماً لدور ييكو في القضية نفسها وربما للأهداف نفسها.

لكن ماذا كان موقف فرنسا من هذه القضية، قضية الاعدامات التي نسبها جمال في غالبيتها إلى علاقة قسم من المحكومين بفرنسا. احتجت لجنة الشؤون الخارجية الفرنسية ضد اعدامات جمال باشا، وخاصة من أجل أولئك الرجال من أصدقاء فرنسا، وخاصة عمر الجزائري حفيد عبد القادر الجزائري^(١٣٩). وكانت تنقل أخبار سجن أخبار إعدامات جمال باشا وخاصة قنصليتها في مصر، كما كانت تنقل أخبار سجن الرجال المحسوبين على فرنسا، كنخلة مطران وبطريك الأرثوذكس اليونان. وجاء في أحد رسائل قنصل فرنسا في مصر بأن إعدام عمر الجزائري وفريق من اللبنانيين والسوريين، يخلق لفرنسا واجباً خاصاً يمس حقوقها ومصالحها^(١٤٠).

بعد انقضاء ثلاث سنوات على اعدام القافلة الثانية في جانفي / كانون الثاني / ١٩١٩، وبعد نهاية حكم الأتراك في سورية، أرسل آباء وأمهات وأخوات الرجال الذين أعدهم جمال باشا إلى رئيس الجمهورية الفرنسية مسيو بوانكاريه، رسالة يصفون فيها حالتهم المحزنة وتاريخ عذابهم، ويطلبون العدالة والانصاف^(١٤١). ألم يتصور جمال باشا أنه عندما شق هؤلاء كان يظن أنه يقطع رأس فرنسا برغم ما كان

(١٣٨) رسالة من Coulondre في القاهرة بتاريخ ١١ أوت / آب / ١٩١٨.

D. F. Aff. Etr. Levant 1, P. 231.

Ibid. (D. G.) la guerre, vol 873 (XII), 24 Juin 1916, P. 114. (١٣٩)

Ibid, P. 169. (7 Juillet 1916). et vol 868 (17 Feb 1915), P. 65. (١٤٠)

D. F. Aff. Etr. Levant 7, 1 Jan 1919, P. 105. (١٤١)

يعرف من صداقة لفرنسا . في الشهر التالي للاعدام أي في جوان / حزيران / ١٩١٦ ، قطع جمال باشا رأس قالب كاتو ، وقال بأنه سوف يقطع رأس فرنسا بهذه السهولة^(١٤٢) . لبث فرنسا نداء الآباء والأمهات ، أو ربما بادرت هي للاعتراف بجميل أولئك الذين قدموا أرواحهم في سبيل صداقة فرنسا ، كما جاء في مرسوم الاعتراف بهم ، واعطائهم أوسمة مختلفة — تاريخ منح الأوسمة يأتي بعد تقديم طلب أولياء المعدومين بثلاثة أشهر ، فهو في ٧ مارس / آذار / ١٩١٩ — جاء في نص المرسوم الجمهوري مايلي :

مادة ١ — يمنح وسام جوقة الشرف لكل من السوريين الآتية أسماؤهم ، الذين أعدموا من أجل عدائهم للسلطات التركية ، ليقبوا مخلصين ومتعلقين بفرنسا ، الحامية التقليدية لبلادهم .

لمرتبة ضابط عظيم

شفيق المؤيد العظم ، رشدي الشمعة (دمشق) ، عبد الحميد الزهراوي (حمص) ، شيخ أحمد طبارة (بيروت) ، فريد خازن ، فيليب خازن ، جوزيف هاني (بيروت) ، صالح حيدر (بعلبك) ، نخلة مطران باشا (بعلبك) ، محمد المحمصاني ، محمود المحمصاني (بيروت) .

لمرتبة فارس

عبد القادر خرسا (بيروت) ، محمد العجم (بيروت) ، نوري القاضي (بيروت) ، عمر حمد (بيروت) ، عبد الله داغر (طرابلس الشام) ، سيف الدين الخطيب (دمشق) ، توفيق البساط (صيدا) ، عارف الشهابي (حاصيا) ، شكري بك العسلي (دمشق) ، سليم الجزائري (دمشق) ، عبد الوهاب الانكليزي (دمشق) ، رفيق رزق سلوم (حمص) ، مسلم عابدين ، نايف تالو ، سليم عبد الهادي ، سعيد

Ibid (D. G.) vol 873 (VII), P. 86. (١٤٢)

الكرمي (عين كرم)، نافع بك السيد، سعيد عقل، جورج خداد، بترو باولي،
الأب، حايك، علي سيوفي البيطار (حماء).

باريس ٧ مارس / آذار / ١٩١٩
التوقيع برانكاريه

وفي التاريخ نفيه صدر أعلى وسام أعطي للأمير عمر عبد القادر الجزائري وهو
صليب قائد من جوقه الشرف^(١٤٣).

لم يذكر هذا المرسوم أن هؤلاء قد أعدموا في سبيل بلادهم، بل لأنهم بقوا أوفياء
متعلقين بفرنسا، حامية بلادهم التقليدية، أحقاً أعدموا جميعاً من أجل صداقة فرنسا
حاميتهم التقليدية، كان جمال باشا لا يزال حياً (قتل في جوييه / تموز / ١٩٢٢
بموسكو على يد أرمني) وكان يمكنه أن يعتمد على نص تكريم فرنسا للمعدومين ويقول:
أما قلت لكم إنهم كانوا يعملون لفرنسا...! لقد كان أكثر الناس غلاة في حب فرنسا
يقرون هذا الحب بحب دينهم المسيحي ووطنهم سورية أو لبنان، وقد جاء في مجلة
المشرق، لسان الكاثوليكين الموارنة في لبنان عن اثنين من الذين أعدموا، وهما الأخوان
فيليب وفريد الخازن، بأنهما نشأاً على حب الوطن، وحب فرنسا، واتمسك بالدين،
وأنهما خدما مجريديهما (الأرز) مدة عشرين سنة، الدين والوطن وفرنسا^(١٤٤).....
وإذا كيف فرنسا وحدها!

أما الوثائق البريطانية فقد كانت تنقل أغلب الأحيان ما تكتبه الجرائد المصرية
عن تلك الاعدامات، ولم تذكر شيئاً عن أصدقائها ممن انهمم جمال باشا بالعمل
لتسليم بلادهم للانكليز إلى جانب الفرنسيين، ولم تمنح أيأ منهم وسام الصداقة كما
فعلت فرنسا، هل هو انكار لهذه العلاقة وتبرئة للمعدومين، أم أنه نكران للجميل،

(١٤٣) Ibid, Levant 10, P. 214.

(١٤٤) مجلة المشرق، عدد ٦، جوان / حزيران / ١٩٢١، ص ٤٠١ و ٤٠٣.

لكنها ذكرت فقط أن جمال باشا أعدم مجموعة من الرجال يحملون عواطف
للحلفاء (١٤٥).

الفصل السابع

**سورية بين تأمر جمال باشا
وبين الموت بالحرب والوباء
والمجاعة**

تآمر جمال باشا

والشيء الغريب في هذه القضية، أن جمال باشا كان على اتصال مع الروس والفرنسيين والانكليز، في فترة الاعدامات نفسها. وكانت المفاوضات دائرة بينه وبينهم، لكن، لا بريطانيا، ولا فرنسا طلبت أثناء هذه المفاوضات من جمال باشا، ألا يعدم هؤلاء الرجال، أو ألا يغرق في ذلك، أو يتوقف عند حد معين. والأغرب من ذلك بالنسبة لجمال باشا، أنه كان يعدم الوطنيين بحجة اتصاهاهم بالأجانب، لفصل سورية والبلاد العربية عن الدولة العثمانية، في الوقت نفسه الذي كان فيه يفاوض هؤلاء الأجانب على الأهداف نفسها.

كان اتصال جمال باشا بالحلفاء قد تم عن طريقين، طريق الروس وطريق الانكليز في مصر. فلقد أرسل صديقه السويسري الجنسية، (وكان مدير المصرف العثماني في بيروت) واسمه نوفيل Nouville، إلى الجنرال البريطاني ماكسويل حاكم مصر في أوت / آب / ١٩١٥، وكانت غايته تسليم سورية للانكليز والفرنسيين سلماً، شرط أن يعين عليها أميراً. وقد أكد دو فرانس في رسالة له إلى وزارة خارجيته هذه الأخبار في نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٥، وذكر أيضاً أن الجنرال الانكليزي ماكسويل أرسل لجمال، بأن مصير سورية ليس بين يديه ولا يدي جمال باشا^(١).

(١) D. F. Aff. Etr, vol 871, (V), 16 Nov. 1915, P. 14. et vol 869 (III) 11 Juill 1915, P. 111.

ومذكرات الحكيم (بيروت ولبنان) ص ٢٨٢.

ويبدو أن القصة انتهت في مصر إلى هذا الحد، بينما كانت تأخذ اتجاهاً ملحاً وجدياً عن طريق سazanoff وزير الخارجية الروسية. وقد اتصل جمال باشا بسazanoff بوساطة دكتور أرمني اسمه زابريف Zabrieff، يعمل في بوخارست، وكانت شروط جمال باشا الأولية حتى يقوم بحركة ضد الحكم التركي والألمان هي: ١— يعترف الحلفاء باستقلال الأجزاء الآسيوية التالية من تركيا، ويكون جمال باشا هو سلطان لهذه الأقاليم، وهي: سورية وفلسطين والعراق والجزيرة وكيلىكيا وكردستان.

٢— يكون الحكم وراثياً فيها.

٣— سيعلن جمال باشا سقوط حكومة استانبول، وأن السلطان سجين الألمان وسيدخل في حرب ضدهم.

٤— يمدد الحلفاء بالقوى والأسلحة اللازمة.

٥— في نهاية الحرب يقدمون مساعدات مالية.

٦— يوافق جمال باشا على التخلي عن المضائق واستانبول.

٧— يوافق على خطة لضمان سلامة الأرمن ولإمدادهم بالمؤن خلال الحرب.

وكان من رأي سazanoff، أنه ينبغي على جمال باشا أن يضعف الدولة العثمانية، إن لم ينجح في إسقاطها، ومن رأيه أيضاً الدخول في مفاوضات سرية معه، ويطلب رأي وزارة الخارجية البريطانية^(٢).

أجاب إدوارد غراي، وزير الخارجية البريطانية، بأن لبريطانيا مصالح في الجنوب بما يخص مطالب العرب، وإذا كان العرب مستعدين، فإنهم أنفسهم سوف يقومون ضد الحكومة التركية الحالية، وأن بريطانيا تحرص على المناقشة مع العرب أكثر من غيرهم، وفي حالة جمال باشا، فيجب أن يتفق مع العرب، «وفي الحقيقة ليس لحركته نصيب من النجاح، مالم يفصل العرب عن الأتراك، وإن توارث السلطنة في أسرة جمال

(٢) F. O. 371/2442/ No 2004/44. 29 Dec. 1915.

و D. F. Aff. Etr, vol V (871) 28 Dec. 1915, P. 128.

باشا يثير العرب، وأما امداده بالمال والسلاح، فهي مسألة صعبة التنفيذ، ويجب أن يخبر سazanوف فرنسا لأنها مهتمة بعمق في سورية، ولا يمكن اتخاذ أي أمر في تلك المنطقة دون رضا فرنسا^(٣). أرسل هذا الرد إلى بوكاتان Buchanan سفير بريطانيا في بطرسبرغ في ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٥، فرد هذا برسالة إلى ادوارد غراي، أوضح فيها رأي سazanوف، بأن مفاوضات جمال باشا تهم فرنسا وبريطانيا أكثر من روسيا، وأن روسيا ليس لها علاقة بالمنطقة التي حددها جمال باشا. وقال أيضاً بأن السفير الفرنسي وجد صعوبة في مناقشات سابقة مع وزير خارجية روسيا، في مسألة الأماكن المقدسة التي كان يرى سazanوف أنها لا تخص سورية^(٤).

وكان من رأي حكومة الهند البريطانية، ألا تقوم بريطانيا بأي مفاوضات مع جمال باشا، لأن ذلك يفسد خطتها مع العرب، عندما يعلمون أن بريطانيا ستسلمهم إلى جمال باشا، وستحدث بذلك الخسارة في مصر والجزيرة العربية والعراق. وتفتح ابلاغ فرنسا وروسيا بذلك، لأن قصد جمال باشا هو فسخ العلاقة ما بين العرب والانكليز^(٥).

وكان رأي آرثر نيكلسون، أن جمال باشا لم يقدم هذه الاقتراحات وهو مستعد لها وأن جمالاً سينكشف بوضوح أكثر، فيما لو تم معه الحديث مباشرة، لكنه أيضاً ليس من الرأي أن نمنع سazanوف من متابعة اتصالاته معه، التي يمكن أن تؤدي إلى خلق شقاق بين الأتراك. ويقترح على السيد ادوارد غراي، أن يعلم الحكومة الروسية بالمفاوضات الجارية مع شريف مكة، ويعرفها بالمفاوضات المتعلقة بخلق امبراطورية عربية في احتمال آخر^(٦).

«رفضت فرنسا اقتراح روسيا بشأن الاتفاق مع جمال باشا، لأنه مخالف لمبدأ

F. O. 371/2442/ No 2011112 (29 Dec. 1915). (٣)

Ibid, 371/2767, No 2003 (31 Dec 1915). (٤)

F. O. 371/2767/ No 5824. 10 Jan. 1916. (٥)

D. F. Aff. Etr, vol. 871 (V), 29 Dec. 1915, P. 131. (٦)

التحالف الثلاثي، وربما هو غير موافق لبريطانيا. وفرنسا ترفض الدخول في أي اتفاق أو ترتيبات بالنسبة لتركيا، وخاصة إذا كان صادراً من أترك استانبول، لأنه يثير التحفظ، وتتوقع فرنسا أن تكون وجهة النظر الروسية، عن الإمبراطورية العثمانية مطابقة للوجهة الفرنسية التي تهتم بها فرنسا. واستغربت الحكومة الروسية موقف فرنسا لرفضها. والخطأ برأيها كله من جمال باشا، الذي تقدم باقتراحه عن طريق عميل أرمني لروسيا من أجل روسيا، وترى فرنسا أن الأخبار التي وصلتها تدل على أن روسيا هي التي رفضت، لكن ذلك مخالف للحقيقة، لأن وزير الخارجية الروسية قصد إخبار الحكومة الفرنسية، وأسر لها، بأنه يفكر أن مثل هذا الاقتراح قد يثير الاضطراب في تركيا، وهذا تفسير حقيقي، وهو رأي بوكاتان في رسالته واقتراحه إلى ادوارد غراي في ٣٠ ديسمبر/ كانون الأول / ١٩١٥»^(٧). وكانت الحكومة الفرنسية تشك بصدق المبعوث الأرمني، وطلب وزير الخارجية الفرنسية من سفرائه إبلاغه الحقيقة. وكان من رأيه أيضاً (وزير الخارجية الفرنسية) وجوب إبلاغ الحكومة الروسية عن مفاوضات فرنسا وبريطانيا بما يخص العرب وسورية وآسيا الصغرى^(٨).

واقترح سazanوف من جديد، أن يتفاوض الحلفاء الأربعة وبشكل مباشر، بما يخص المستقبل الجديد في العالم العربي. لكن بريطانيا رفضت التفاوض مع المندوب الأرمني. ثم أرسل سazanوف من جديد يتحدث عن المفاوضات مع جمال باشا، ويؤكد أن المفاوضات متحقق من الوصول إلى نجاح مؤكد ومضمون فيما إذا أخرجت القوى الحليفة لوقت آخر اتفاقاتها بين بعضها — وكان سazanوف يأمل بالنتيجة أن تشاركه حكومة باريس ولندن الرأي، وأنه يمكن حل العقد الداخلية في المسألة التركية، وأن ذلك يمكن أن يبدأ عن طريق الوسيط، حيث يذهب إلى مصر ويتصل بوزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية^(٩).

F. O. 371/2492/ No 201258. (٧)

D. F. Aff. Etr, vol V (871) 28 Dec. 1915. P. 130. (٨)

Ibid. 20 Jan. 1916. P. 195. (٩)

وإزاء اصرار سazanوف قبل رئيس وزراء فرنسا بمتابعة التفاوض مع جمال باشا، كما قال السفير الروسي في باريس، وأن وزارة الخارجية الفرنسية ستكون على علم بذلك، واقتُرحت أن تقوم بريطانيا بمفاوضة جمال باشا كما قامت بمفاوضة الشريف حسين، وهي تطلع حليفتيها على المفاوضات من وقت لآخر، وهذا — برأي فرنسا — أفضل^(١٠).

كانت القيادة التركية على علم باتصالات جمال باشا، ولم يكن أنور قادراً على عمل شيء ضده. وهذا أمر يظل بلا حل مقنع في هذه القضية التركية، فكيف تدع القيادة رجلاً يتآمر ضدها مع أعدائها الذين يحاربونها، وكيف لا تحاكمه بعد عزله وتنزيل مكانته، هل كانت خطة من جمال باشا ترمي إلى تفريق الحلفاء؟ وقد فطن الانكليز لذلك وأفسلوا خطته.... هناك تساؤلات كثيرة قد تبقى سرّاً حتى فتح الوثائق التركية.

أما إحساس أنور ومعرفته بما يفعل جمال، فقد ورد في مذكرات خلف جمال باشا وهو محمد جمال باشا (الصغير)، فقد جاء فيها «اتخذ أنور باشا خطته مع طلعت بك وخليل بك بالغاء الجيش الرابع واستبداله بجيش عام لكل البلاد العربية. وكان الاجتماع برئاسة الصدر سعيد حليم باشا، وكان الجيش الجديد هو جيش الصاعقة، وهو الذي خطط له الألمان، وقد أبقى أنور باشا ذلك سرّاً على جمال باشا، لأنه كان خائفاً من مطامعه في فصل البلاد العربية عن الدولة العثمانية. ولقد كانت لجمال فعلاً هذه الرغبات، لكن سياسته في سورية هي التي منعت من تنفيذ خطته، وكان أنور يريد مباغطة جمال باشا حتى لا يقوم بأي تحرك...»^(١١).

وكان الألمان على علم بخطة جمال باشا، وكانوا يعلمون أن له بعض الميل لفرنسا، وربما كانوا قد سمعوا أشياء تتعلق بمراسلات سرية بينه وبين الفرنسيين في أثناء الحرب

(١٠) F. O. 371/2767. No 3216, (6 Jan. 1916).

(١١) جمال باشا الصغير (كيف جلت)، ص ١٢—١٣.

نفسها. هذا ما ذكره شكيب أرسلان في مذكراته ويضيف في الهامش «يقال إن جمالاً راسل فرنسا على أن ينفصل عن الدولة ويصطلح مع الحلفاء على أن يجعلوه أميراً مستقلاً في الشام وفلسطين، وأن الفرنسيين مالوا إلى هذه الفكرة لولا معارضة الانكليز لها والله أعلم». «فكان ذلك باعثاً للألمان على المبالغة في مداراته، ولهذا كانوا يقولون لي، إنهم في حالة سياسية تحملهم على الصبر على جمال باشا، لئلا يقعوا في شر أعظم (الاتفاق مع الحلفاء) «وإنما كان يظهر لي أنهم، إذا لاحت لهم فرصة، لا يتأخرون عن نصح تركيا بصرفه عن القيادة العامة في سورية»^(١٢). ولابد أن نذكر بهذه المناسبة أن الألمان أنفسهم، أيقنوا من استحالة حكم جمال باشا لسورية بسبب كره الشعب له. ولهذا اتصلوا ببعض القادة السوريين في دمشق — وكانت للألمان أطماع في سورية — للعمل يداً واحدة، مقابل تعهدهم باستقلال سورية التام تحت إشراف ألمانيا. وكان الألمان ينشرون الدعايات ضد الأتراك في سورية، ويستميلون العرب. ولولا بطش جمال باشا لتأمر بعض السوريين معهم، ولكن خوفهم من الاعداد مثلما حدث في عالية هو الذي منعهم من ذلك^(١٣). وقد أكد تقرير للمخابرات البريطانية من دمشق، ومن المقربين من الألمان، أن هؤلاء الألمان فكروا بإعطاء سورية والعراق حكماً ذاتياً للتقرب من شريف مكة واعطائه الحكم الذاتي أيضاً^(١٤). كما أكد مصطفى كمال في تقرير له إلى وكيل القائد العام في حلب، أن الألمان سوف يقطعون سورية من جسم الدولة العثمانية، ويضمونها إلى مستعمرات ألمانيا في افريقية، التي ما كان يجب على القيادة التركية التغافل عنها^(١٥).

وذكر عزيز بك ضابط الاستخبارات التركي قصة اتصال جمال باشا مع الفرنسيين، وباختصار أرادهم أن يساعده ويروجوا له للمناداة به أميراً على سورية، ثم يضع يده بيدهم، لكنهم رفضوا وانقطعت المفاوضات. ويضيف أن الفرنسيين قبلوا

(١٢) مذكرات شكيب أرسلان (سيرة ذاتية)، ص ٢١٨.

(١٣) جمال باشا الصغير (كيف جلت)، ص ٣٧.

(١٤) F. O. 371/3060/ No 169829 (29 Aout) 1917. Bern. Suiss.

(١٥) جمال باشا الصغير (كيف جلت)، ص ٣٦.

بتولية جمال، لكنهم رفضوا شروطه الأخرى، كالحكم الوراثي، والقضاء الامتيازات، والاستعانة برؤوس الأموال الفرنسية... (١٦).

فجأة تسكت الوثائق البريطانية والفرنسية عن المفاوضة مع جمال باشا، ولا شك في أن الطرفين لم يكونا راغبين في هذه المفاوضة، لأنها تعرقل مفاوضات بريطانية مع العرب — وكانت جارية —، ولأن فرنسا لا يمكن أن تتنازل عن سورية لجمال باشا، في الوقت الذي كانت تجري مفاوضات اتفاقية سايكس — بيكو. ولهذا فشلت جهود جمال باشا في أن يكون أميراً على سورية حيث تحدد بالاتفاقية المذكورة مصير سورية.

ومن المشاريع التي تفاوض بها جمال باشا خلال حكمه في سورية، هو اتصال الصهاينة به عن طريق الجاسوسة ناتاليا داودوفيتش، (والتي كانت واسطة الاتصال بين جمال والفرنسيين في القدس)، وكان فؤاد بك سليم مندوب جمال باشا، قد اجتمع مع شخص لم يعرف اسمه، واقترح على جمال باشا مشروعاً خلاصته:

- ١ — إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.
- ٢ — لا يشمل الوطن القومي كل فلسطين، بل منطقة تعينها الدولة العثمانية، ينشئ بها اليهود قرى يطلق عليها اسم الوطن القومي الاسرائيلي.
- ٣ — يحق للحكومة العثمانية اسكان المسلمين في القرى اليهودية، على ألا يزيدوا عن نصف عدد اليهود فيها.
- ٤ — يخضع اليهود القادمون إلى القوانين المحلية مهما كانت جنسيتهم.
- ٥ — لا تعرقل الدولة العثمانية الهجرة اليهودية، لكن لا يحق لليهود سكن المناطق الأخرى، إلا بإذن الدولة، كما لا تأخذهم الدولة للخدمة العسكرية.
- ٦ — تكون المستعمرات اليهودية مستقلة، من الوجهة الإدارية، والموازنة، وطرق صرف الأموال.
- ٧ — مقابل ذلك تقدم الجمعية الصهيونية قرضاً للدولة العثمانية، وتساعد في مشاريعها السياسية.

ثم قدم المندوب اقتراحاً بوساطة ناتاليا داودوفيتش (لمعرفة سر اتصال جمال باشا بالفرنسيين)، ينص على مفاوضات جمال باشا، بشأن خديوية مصر، وحكمه عليها، ووضع القوات الصهيونية تحت تصرفه في فلسطين، وتأمين المال له، ومساعدة الدولة العثمانية لكسب الحرب.

استشار جمال باشا عزيز بك والدكتور فؤاد بك وفؤاد بك سليم، وتقرر إرسال برقية إلى الآستانة، فأتى الجواب من أنور في ١٠ سبتمبر / أيلول / ١٩١٥ تحت رقم ٧٨٩ خصوصي، برفض المفاوضات، وأن البحث في هذه المسألة مضية للوقت، وقد تخلق فتنة بين المسيحيين واليهود. لكن جمالاً استمر يفاوض أكثر من شهر، دون فائدة، إلا أنه أصبح صديقاً للصهيانية، وصار يدافع عن اليهود، وعارض الحكومة العثمانية في قرارها إبعاد اليهود عن السواحل الفلسطينية^(١٧).

ومن المشاريع الخاصة بسورية التي خطط لها رجال السلطة الأتراك، كأنور، وطلعت، وجمال، مشروع تحويل سورية إلى خديوية، يرأسها ولي العهد يوسف عز الدين. وكانت الغاية من هذا المشروع، هي: أولاً التخلص من ولي العهد، لأنه كان على خلاف مع طلعت وأنور، وكانت علاقته سيئة بهما. كما أن لطموح أنور كي يصبح السلطان الجديد، (وهو صهر عائلة السلطان)، ولطموح طلعت كي يصبح رئيس الجمهورية التركية، سبباً في خلق هذا المشروع، للتخلص من نفوذ عائلة السلاطين وإبعادها عن استانبول والأناضول. وقد اشترك في هذا المشروع جمال باشا، وخليل بك رئيس مجلس المبعوثين، والبرنس سعيد حليم باشا. وتدخلت ألمانيا وأعلن سفيرها في الآستانة موافقة بلاده على ذلك، واستعدادها للمساعدة، كما أعلن سفير النمسا في الآستانة عن ذلك أيضاً. وكان من رأي سفير ألمانيا، أن ذلك يوطد نفوذ السلطنة العثمانية في بلاد العرب، ويستميل أبناء هذه المنطقة، كما يسمح بالغاء الامتيازات الأجنبية في لبنان. وكانت غاية ألمانيا من مساعدة المشروع، إبعاد نفوذ

(١٧) نفس المصدر، ص ١٩٤.

فرنسا وبريطانيا عن سورية، وجعل كلمة ألمانيا هي العليا. كما أن أنور باشا، وطلعت باشا استشارا ولي العهد، وبعض كبار السوريين، الذين فاضهم طلعت، أمثال عبد الكريم الخليل، وعبد الحميد الزهراوي، والدكتور سعيد حيدر، ويوسف سرسق، والأمير شكيب أرسلان، وعبد الرحمن باشا اليوسف، وكلهم وافقوا وقطعوا لأنور باشا عهداً، بتأييد المشروع، وتأييد السوريين أنفسهم. لكن ولي العهد رفض المشروع، لأنه يبعده عن ولاية العهد. وقد مات منتحراً، وقيل أن أنور باشا دبر مقتله، ولذلك أرسل أنور باشا شكيب أرسلان إلى الدروز، وعبد الرحمن باشا اليوسف، وأسعد الشقيري، إلى القبائل العربية ليستميلوها، وقد خطوا خطوات بعيدة في ذلك. لكن عندما أخفق زكي باشا في المشروع، أرسل أنور جماً، فأبدل هذا الموقف السياسي كل التبديل^(١٨).

وعندما أتى أنور باشا في زيارة لسورية والحجاز، ومر في حلب قادماً إليها من استانبول في شهر ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٦، وكانت شائعات تروج في كل البلاد، من أن أنور قد هرب من استانبول، نجاة بحياته من الخطر، بسبب وفاة البرنس عز الدين، ولي العهد. وفي حلب أمر الناس بتزيين المدينة، لكن الفقر والشقاء جعلهم لا يتحمسون لذلك^(١٩).

وهكذا لم يرَ هذا المشروع التركي عن سورية النور، كما لم ير النور مشروع جمال مع الحلفاء. و بقيت سورية تؤلف عدة ولايات من الدولة العثمانية، حتى خروجها منها سنة ١٩١٨، حيث بدأ المشروع الانكليزي-الفرنسي (سايكس-بيكو) بالتنفيذ على أرض سورية. والسبب الرئيسي في فشل مشاريع الأتراك وحتى الألمان، هو في الأطماع السياسية للأطراف المتحاربة الأوروبية. والمتنصر هو الذي يقدر على تنفيذ مشاريعه، ولو احتاجت إلى القوة التي يبقى المتنصر يملكها. أما الخاسر فلم يعد موجوداً، (لا أنور، ولا جمال، ولا طلعت، ولا الامبراطور الألماني)، ولهذا ضاعت

(١٨) عزيز بك، ص ٧٣-٧٧.

(١٩) وثائق حلب، ص ١١٠، ومجلة الحرب العظمى، ج ١٦، ص ٧.

مشاريعهم في الهواء . ولو انتصر الألمان والأتراك ، لتغير الموقف كله في سورية وغيرها . وإذا كان اسم جمال باشا ، قد قرن بأذهان الناس ، وفي التاريخ ، بأنه أعدم مجموعات من السوريين ، ونفى الكثير منهم ، وأنهم لقبوه بالسفاح لذلك ، فإن اسمه مقرون أيضاً ، بأحداث كبيرة ، (كالحرب العالمية الأولى) ، ومآسيها ، والمجاعة التي فتكت بالآلاف من سكان سورية ، وخاصة لبنان . فإن كانت سمعته قد نجت من الذم من قبل الذين لا يعملون بالسياسة بسبب إعداماته ، فإنها لم تنج بسبب الموت المنتشر في كل مكان بسبب الجوع .

وبسبب سطوة جمال باشا ، وجبروته ، وعنفوانه ، وتصرفه كأنه فرد مستقل عن الدولة ، لا يقيم وزناً لحكومته ، ولا قيادتها ، اعتبر وحده مسؤولاً عن كل ما جرى في سورية . بينما لو وقف بعدل إلى جانب الناس ، لكانت تلك المسؤولية قد علفت بالحكومة ذاتها . ونذكر حادثاً طريفاً يدل على نفسية جمال ، وتصرفه كما يشاء ، فعندما رقى السلطان العثماني أنور باشا إلى رتبة الفريق ، أذاع بذلك هذا بلاغاً كالمعتاد . فما كان من جمال ، إلا أن أبرق بالتهنئة إلى أنور ، ووقع بتوقيع « الفريق الأول جمال » ، مما اضطر أنور إلى تغطية الموقف ، وتقادي النتائج ، فاستصدر إرادة سنية ، بلغها في اليوم نفسه إلى جمال مهنتاً إياه بالمثل^(٢٠) .

إرهاب ومصادرات

إن الحروب كوارث بحالة عامة ، وكذلك كانت في سورية . ففي بيروت هلع اللبنانيون من شدة الخوف ، وحدث الاضطراب لدى سماع خبر دخول تركيا الحرب . وبدأ جمع الجند وإعلان القرعة العامة وفي دمشق ، كانت الحالة طبيعية ، فالناس منشغلون في أعمالهم يحرثون ويتاجرون كالمعتاد في عهد السلم ، ولدى إعلان الحرب ، وكان يوم الاثنين ، لم يعد يظهر شاب في الشوارع ، وأغلقت المحلات ، وشلت الأعمال

(٢٠) روى خير هاتين البقيتين ، عزة دروزة ، أثناء عمله في مصلحة البريد في دمشق في تلك الفترة . حول الحركة العربية الحديثة ، ج ١ ، ص ٤٤ .

وبدا الخوف والقلق على وجوه الناس، خوفاً من عجزهم عن تأمين قوتهم في الأيام الآتية^(٢١). وفي حلب استعظم الناس قانون الحرب (سفر برك)، وهو النفير العام الذي لا يرحم أحداً، وقالوا بأن هذا مما خبأه الاتحاديون، لأنهم اقتدوا بألمانيا فأعلنوا النفير العام^(٢٢).

عندما وصل جمال باشا إلى سورية، كانت الحرب معلنة، وكانت الحالة المذكورة تخيم على الناس، وأخذ ينظم جمال أموره ليقبض على البلاد بيد من حديد، فحكم لبنان مباشرة بعد أن طرد متصرفه، وألغى الامتيازات الأجنبية، واحتله عسكرياً، وسرح وعزل من لا يثق به من الموظفين ونفى التراجع وغيرهم كثيرين، ممن كان يعتقد أنهم ميالون لفرنسا والحلفاء. وعين بدلاً عنهم من أتباعه، وفرض قانون الخدمة العسكرية الاجبارية، وعزل من الولاة من لا يطيعه كلية، وقبض على الأجهزة الإدارية برجاله، حتى إن عزمي بك والي سورية (خلف خلوصي بك)، برغم كره جمال له وكان قد طرده إلى استانبول كي يستقيل من هنالك، لم يجرؤ على ذكر أسباب ذلك لطلعت، حتى لا يعتقد أنه ينتقد سياسة جمال باشا في سورية^(٢٣). وسيطرت الروح والإدارة العسكرية على أجهزة الإدارة المدنية. واستعان جمال باشا بالجواسيس من مختلف الأنواع، لمراقبة المدن والإرساليات الدينية، وخاصة البطريركية المارونية. وكان ينفق ٣٠٠ ليرة ذهبية، لمراقبة هذه الإرساليات، على ٣٨ جاسوساً منهم عشرة للبطريركية المارونية، و ٣٥٠ — ٤٠٠ ليرة ذهبية على ١٨ شخصاً لمدينة بيروت، و ٥٠٠ ليرة على ٢٢ شخصاً في جبل لبنان. وكان في ولاية دمشق ٦٢ جاسوساً براتب ٥ — ١٠ لكل منهم. وفي ولاية حلب ١٨ جاسوساً، ومتصرفية القدس ٢٢ جاسوساً، منهم ١٠ يهود. وكان جمال مهتماً بتحركات اليهود والمسيحيين، وكانت رواتب جواسيس اليهود ضعفي رواتب الآخرين. وكان جمال باشا يصرف أيضاً أموالاً طائلة بين البدو، لكن دون فائدة، وكان يصرف ١٠٠٠ ليرة ذهبية على القبضايات،

(٢١) مجلة الحرب العظمى، ج ١٥، ص ٢٨ و ١٥.

(٢٢) الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ص ٥٦٢.

(٢٣) سيرة ذاتية، ص ١٧٨.

الذين يحرسونه، وعلى عدد من رجال الدين، لأنه كان يعتقد أن هؤلاء تأثيراً على الشعب، لتنفيذ خطته في الوصول إلى خديوية سورية. وكانت هناك فئة من طبقات الأغنياء، تتناول من خيرات جمال باشا، وكانوا يقيمون له الحفلات، بينما كان الفقراء يتضورون جوعاً. وكان جمال يصرف أيضاً مبلغ ٥٠٠ ليرة ذهبية للصحفيين مع الورق لطبع صحفهم^(٢٤).

ومن أساليبه الشديدة التي اتبعها لإرهاب الناس، هو طلبه من البطريك الياس الحويك، كي يأتي ويزوره في دمشق. واعتذر هذا بالمرض، ثم تم تدبير الأمر بأن يأتي البطريك إلى صوفر في لبنان، حيث يكون فيها جمال، ويلتقي به ويزوره ويسلم عليه^(٢٥). وكانت غايته إذلال أكبر رجل دين مسيحي في سورية، كي يدرك الآخرون حقيقة ما يريد جمال باشا. وفي هذا المجال وضع جمال باشا يده، على المدارس والمستشفيات الأجنبية، وأكثرها فرنسي، وحولها إلى معاهد عثمانية، وأرسل من كان باقياً من الرهبان والأساتذة إلى دمشق، واستعاض عنهم بأتراك وبعض السوريين. كما حول بعض الأديرة إلى ثكنات عسكرية^(٢٦)، ففي حلب مثلاً احتل الأتراك دير الآباء اليسوعيين. وبعد عدة أشهر (نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٥) ألغى جمال باشا الرهبانية اليسوعية، وأمر بأن يغير اليسوعيون العثمانيون زيهم واسمهم. وفي ١٩١٧ أغلقت بعض الكنائس للصلاة، وفتحت للعسكر، وصار المسيحيون يقيمون شعائهم الدينية في البيوت الخاصة^(٢٧). وحول جمال باشا الكلية الطبية اليسوعية إلى كلية طب عثمانية، واستحضر لها أطباء أتراكاً، وأعفت تلامذتها من الخدمة العسكرية، فأقبل عليها الطلاب كثيراً. ولم يمس جمال الكلية الأمريكية، بسبب حياد الولايات المتحدة في الحرب بالنسبة لتركيا. واستولى جمال باشا على الكلية الأزهرية

(٢٤) عزيز بك، ص ١٠١-١٠٦.

(٢٥) D. F. Aff. Etr, vol V (871) 25 Nov 1915, PP. 86-87.

(٢٦) مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ٢٤٨.

(٢٧) وثائق حلب، ص ١٠٧، ١٠٨، ١١١.

(الإسلامية) الخاصة بالشيخ أحمد العباس، حيث نفاه إلى سورية من بيروت، لأنه كان من طلاب الإصلاح^(٢٨).

وفي أبريل / نيسان / ١٩١٦، صدرت الأوامر في حلب، بتحويل الكنائس إلى مستشفيات، وكذلك المدارس. كما حول مائة وخمسين (١٥٠) بيتاً من بيوت الأغنياء لتطبيب جرحى الحرب^(٢٩). وأخذ جمال باشا ينقل الرهبان من أديرتهم المطلة على البحر، إلى الداخل، حتى لا يتصلوا بالسفن الفرنسية والزوارق التي كانت تقترب من الساحل ليلاً، خوفاً من التجسس، وخاصة بعد احتلال الفرنسيين لأرواد^(٣٠).

وكان من المعروف أن الدولة العثمانية، تصدر براءات تعيين رؤساء الدين المسيحي، وتوافق على انتخابهم، ماعدا الطائفة المارونية، التي كان يقترن تثبيت رجال الدين فيها بموافقة من البابا، حتى كانت الحرب. فتدخل جمال باشا ونصح البطريرك الحويك، بالكتابة إلى استانبول، للحصول على التثبيت. فكتب وأتاه الجواب بالموافقة^(٣١).

والتف حول جمال جماعة من المداحين، الذين يريدون الوظائف والمنافع، واستطاع بسطوته وذهبه وجواسيسه، أن يدخل الشك في قلوب الناس، حتى يسعوا لديه ضد بعضهم، وبذلك يسهل عليه حكم مجتمع يراقب نفسه بنفسه من أجل الحاكم. وكان جمال باشا يسر عندما يعلم، أن الشعب يعتبره كالغول^(٣٢). وعندما زار أنور باشا سورية، أقيمت الاحتفالات للثنتين، وكتبت جريدة الاخاء على سبيل المثال «إن سورية ومن جاورها مدينة لدولة جمال باشا، الذي ما فتى يربها بعنايته، ويدير شؤونها بدارية، ويشفق عليها بجنوه، ويحكم فيها بعدله، ويربها بحكمته، واضعاً الأساس الوطيد للمستقبل المجيد» وأنشد أحد الشعراء قصيدة:

(٢٨) مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ٢٤٨.

(٢٩) وثائق حلب، جوييه (تموز) ١٩١٦، ص ١١٠.

(٣٠) مذكرات الحكيم، بيروت لبنان، ص ٢٧٠.

(٣١) نفس المصدر، ص ٢٧٨.

(٣٢) عزيز بك، ص ٦٥.

جمال التهاني في سما الشام أزهر — وبدر المعالي في حمى العرب أنور (٣٣)
ولقد جرى لهُذين الرجلين استقبال ومدح وتعظيم وتبجيل في كل مكان مرا فيه، في حلب، وزحلة، وبيروت، والقدس، ودمشق، والمدينة المنورة. وقد تبارى في مدحهما المداخون من المسلمين والمسيحيين، والجرائد، والشعراء، والأدباء، والمشايع، باللغة العربية والتركية. والأمر الغريب أن أحداً منهما، لم يرد بكلمة على كل تلك المدائح، ولم يبيناً سياستهما، ولا شيء آخر إلا من بعض التبرعات الصغيرة الشأن.

وكان هذا الكلام يقال بعد اعدام الدفعة الأولى وقبيل الثانية (مارس / آذار / ١٩١٦). في جو الإرهاب والخوف، وكان جمال باشا يصدر قراراته وينفذها، دون العودة لرأي الدولة أو استشارة أحد، لا من الأتراك ولا من العرب. وكان أكثر شيء أخاف الناس، هو قانون النفير أو الجندية الإجبارية. وكان معظم الناس يفضلون الموت جوعاً في بلادهم، على الذهاب والموت في الحرب، بسبب سمعة الجندية السيئة وما يناله العسكري من ظلم وجوع وسوء معاملة. وتَشَطَّتْ شُعْبُ أخذ العسكر، مما جعل الناس يتضايقون. وتشددت السلطة في القاء القبض على الرجال. وقد صارت هذه العملية تجارة رابحة لرجال الدرك، حتى صار الناس يسمونهم «الحيلة». وكان

(٣٣) محمد كرد علي، الرحلة الأنورية إلى الأضواء الحجازية والشامية، بيروت المطبعة العلمية ١٩١٦، ص ١٠٣ و ١٧٦.

أقامت النساء السوريات في دمشق حفلاً على شرف أنور باشا وجمال باشا، واعتذر الأول وحضر جمال باسمه واسم أنور. وقد قدمت لأنور صورة من حرير لفتاة عثمانية، تلتف بالعلم العثماني، وتحمل في يدها صورة لأنور، وصورة أخرى قدمت لجمال باشا، تظهر مصر وقناة السويس تدعوان جمال باشا لتخليصهما مما وقع عليهما، وفوقها صورة ملاك حامل صورة القائد جمال باشا، وعندئذ تقدمت بنت محمد فوزي العظم، وألقت كلمة بالتركية ترحب بالقائدين العظمين، ثم تلتها سكرتيرة الجمعية النسائية، أخت سامي باشا مردم بك، التي قدمت كلمة بالعربية، وقالت إن دمشق تتمتع باطمئنان يضمن تقدمها. ثم وقفت ابنة أحمد الإيش وقدمت كلمة باللغة العربية، تمدح الخليفة العظم، والقادة النبلاء، وتشكرهم لتأسيس مدرسة للأيتام والفقراء، التي عينت مديرة لها إطاعة لرغبة القائدين المحبوبين. ثم شكرهم جمال باشا لاستقباله الحسن، ووعد بأن حركة عظيمة ستظهر في سورية عما قريب، وسيضمن نجاحها في المستقبل، وعندئذ قدم ٢٠٠ ليرة ذهبية باسم أنور و ٢٠٠ باسمه. جريدة المقتبس، ٨ مارس / آذار / ١٩١٦.

الناس يتندرون برشوة هؤلاء الحيلة. وقامت أجهزة الدولة بالدعاية وصرح فيها بأن كل مسلم قادر على حمل السلاح، عليه أن يكون مجاهداً. وجرت من أجل ذلك الاحتفالات الكبيرة، وتليت فيها المواعظ والخطب الحماسية، وكانت جموع غفيرة من الناس تحضر هذه المراسم^(٣٤). وزاد خوف الناس من العسكرية الاجراءات الشديدة التي نفذها جمال باشا، منها إعدام بعض الفارين من الجندية، وجرى ذلك سنة ١٩١٥. وكان الناس لا يعرفون في سورية مثيلاً لهذه القوانين من قبل. وكان الدرك يدهمون البيوت، فإذا وجدوا رجلاً أخذوه بالقوة، وإذا هرب أطلقوا عليه النار. وقد يكون منكود الحظ عندما كانت تجري القرعة بين هؤلاء الفارين إلى بيوت أهلهم، وتنفيذ حكم الاعدام بمن تحكمه القرعة منهم. كما أن جمال باشا قد فوض الضباط الأتراك، بتنفيذ أحكام الاعدام في الأفراد الذين يرون أنهم يستحقون الموت، بسبب الفرار، أو الخوف من الحرب،.... في واحد من كل عشرة^(٣٥).

وقد جمعت الدولة من سورية، سبعمائة وعشرين قرعة، من سن الثامنة عشرة حتى الخامسة والأربعين. وكان معدل ما يجمع من كل صنف، ثمانية آلاف جندي، وبذلك يكون مجموع المجندين السوريين ٢٤٠ ألف مقاتل، فر منهم حسب الاحصائيات الرسمية إلى آخر الحرب نحو ١٥٠ ألف جندي، وقتل نحو ٤٠ ألفاً. وبسبب النفير العام الذي مازال محفوظاً في رؤوس الأحياء من تلك الفترة، وفي رؤوس أولادهم الذين سمعوا قصصه باسم «سفر برلك»، وبسبب العسكرية والجيش والحرب جرت أمور رهيبة بحق السكان. يقول كرد علي «ولو أردنا تفصيل ما وقع من الجيش ولأجل الجيش، وأهمه استباحه الأعراض المصونة، والعبث بالمقدسات والمشخصات، لاقتضى ذلك مجلدًا برأسه. فقد فسدت الأخلاق، ونضبت موارد البلاد الحيوية يوماً بعد يوم، وقل الفحم الحجري، وقطعت الأشجار كحطب بدلاً منه، سواء كانت أشجاراً مثمرة أم لا. وقد سمح جمال للضباط والعرفاء والنقباء بقتل واحد من عشرة من

(٣٤) الغزي، نهر الذهب، ص ٥٦٧ و ٦٢٧.

(٣٥) كرد علي، خطط الشام، ج ٣، ص ١٤٦.

الفارين». «لقد ظلم الضباط والجند وعمال الحكومة الناس باسم الجيش والتكاليف الحربية، حتى ضاقت صدور الناس، واشتأزوا من الدولة، كما طالت الحرب وغلت مراحل الأحقاد، وساءت الأخلاق، ولم يجسر أحد على انتقاد الدولة خوفاً من العذاب الشديد. وقد جمع أنور ١٥ مليون جندي تركي، وترك أسرهم بلا معيل، وكان يعطي لكل جندي ربع ريال شهرياً»^(٣٦).

وبرغم أن جبهة حرب كانت قائمة في فلسطين بين الانكليز والأتراك المدافعين عن سورية، فإن الجنود السوريين لم يحاربوا فقط في هذه الجبهة، وإنما سيقوا إلى الجبهات الأخرى في جناق قلعة، ورومانيا، ودبروجه، وقفقاسيا، والعراق، والسويس، وسيناء. وهلك منهم عشرات الآلاف. وكانت هذه الحرب وبالأعلى الشام، وكانت من أشأم الحروب، إذ اجتمعت فيها المصادرات، وفقد المواد الغذائية، والمجاعة، إضافة إلى خراب الحرب نفسها، وظلَّ جمال باشا الخيم على البلاد كالموت، وانتشار التيفوس والطاعون.

وأخذت الحكومة تصادر المواد على اختلاف أنواعها «من أجل الجيش» ففرضت عند إعلان الحرب على التجار، باسم التكاليف الحربية، أن يقدموا ما عندهم من بضاعة إلى الحكومة، عن طريق لجنة المبايعة، وكانت هذه اللجنة تقدر ثمن البضاعة وتعطي صاحبها وصلاً بالقيمة لوقت غير معلوم. وصدر أمر بعدم بيع التجار بضائعهم إلا بعد حصولهم على إذن خاص من الحكومة^(٣٧).

وصادرت الدولة كل المواد الغذائية باسم إعانة الجيش، كما فرضت التكاليف الحربية وجبت الضرائب بالقوة والإهانة وسمتها إعانة. وزادت نسبتها ٥٠٪ على الأملاك و ٢٥٪ على الأرض. وفرضت على كل شخص، إعطاء ربع ما عنده من غنم وحبوب

(٣٦) نفس المصدر، ص ١٤٥—١٤٦.

F. O. 371/2783/ No 219935. et 371/2490/ No 113752 (17 Oct. 1915).

D. F. Aff. Etr, vol. V (871) 2 Sep. 1915. P.110.

(٣٧) الغزي، نهر الذهب، ص ٥٦٣.

وبقر وجمال وجبن وسمنة من الأهلين . وباسم التكاليف الحرية كانت الدولة تسخر نساء القرى، حتى يقمن بتصويل (تنظيف) الحبوب، وكانت تسخر ما بقي من الرجال في الأعمال الأخرى، كقطع الأشجار. وكانت الحكومة تصادر المركبات والعجلات وبقر الزرع والبغال والخيل والجمال لجر المدافع. حتى إن المصادرات شملت مواد لا يستعملها الجيش أو لا يحتاج إليها، كالحرير والعطور. ودخلت المصادرات إلى البيوت، لتأخذ من كل بيت ما يمكن أن يستفيد منه الجيش، كالصفائح الفارغة (زيت الكاز) لوضع السمن الذي سيرسل للجيش. وجمع الجيش كثيراً من الأكياس للمئها بالحبوب المصادرة لإرسالها للجيش. هذا إضافة إلى أن الجيش قد وضع يده على كثير من المساكن والفنادق والخانات، وأنزلوا فيها الجنود بدون أجر. كما تحول قسم كبير من المساجد إلى ثكنات للجيش والسوقيات^(٣٨).....

ونتيجة لسياسة المصادرة وسوق جميع الرجال للحرب، واختفاء الذهب، وفقد النقود، وخاصة بعد إعلان الحصار من قبل الحلفاء، أغلقت المصارف أبوابها، وأغلقت المعامل، وضيق التجار الصغار دائرة أعمالهم، وتعطلت الصناعة، وبيعت الحاجات الخاصة بأسعار قليلة، وتعطلت مواسم الحصاد بسبب قلة الرجال، وأخذت المواد الغذائية في الاختفاء، حتى انقطعت نهائياً كالسكر والأدوية والثقاب والكاز والأقمشة. وخلال مدة قصيرة من إعلان الحرب، أغلق جهرمك بيروت أبوابه. حتى تم رفع الرسوم على بعض الأصناف من البضائع مائة بالمائة. وكان يوجد في ذلك الميناء بضائع تزيد قيمتها عن مليون دولار، ولم يتمكن أصحابها من تخليصها. وخلال وقت قصير نفذت المواد، ونجأ الناس ما عندهم. واضطر التجار إلى تقديم لوائح بما يملكون، وانقطع ورود المال من المهجر، لأن تركيا منعت التعامل بالحوالات المالية المسحوبة على لندن، وكانت ٩٩٪ من الحوالات مسحوبة على لندن. واستغل الأغنياء هذا الظرف الخطير، فاحتكر التجار المواد، واستغلوا الشعب بطرق غير شريفة، إذ

(٣٨) مذكرات الغصين، ص ٤٤ — ٤٥.

وانظر. F. O. 371/2490/ No 113752 (17 Oct. 1915).

كانوا يبيعون المواد بأسعار خيالية، بعد أن بدأت المجاعة. ولم تمنع الدولة هذه الاحتكارات، لا بل شارك التجار كثير من الضباط والمسؤولين الأتراك فاغنوا. وكثر الربا، حتى إن ٥٥ ليرة ورقية، انقلبت بعد الحرب إلى ٣٥٠ ليرة ذهبية^(٣٩). وكان مثلاً والي حلب بدري بك قد ربح أموالاً كثيرة من متاجرته بالحبوب، وحيث كان يشتري بوساطة شركائه من التجار المحتكرين القمح من الفلاحين بالقوة، حيث كان يبيع بألف ما اشتراه بسبع مائة، وهو ثمن الشنبل (قطار)، وكان يركب «سيارة متكناً على الأريكة والناس يصرخون في الشوارع جوعان، جوعان، حتى يموت البعض وهو لا يلتفت لأحد. وكان يصفه الناس بأنه تاجر وليس والياً^(٤٠). كما أقام على منيف، والي بيروت، شركة مساهمة، اشترك فيها الأثرياء من اللبنانيين مساهمة، وكان سعر السهم ٢٥٠ ليرة ذهبية، وأخذ والي المذكور يجلب الحبوب ويخزنها في مستودعات كثيرة، وقد ربح هو وشركاؤه مبالغ طائلة. ويذكر أنه كان يوزع القمح على النساء مقابل أغراض غير شريفة^(٤١). واستغل التجار فرصة ندرة المواد وغلاء سعرها الباهظ، وأخذوا يجلبون المواد المفقودة، من نجد تهريباً عن طريق الصحراء أو بالاتفاق مع المسؤولين، لأن ابن سعود لم يحارب الانكليز، وكانت تصل البضاعة الانكليزية إليه عن طريق الهند، وقد سدت هذه البضاعة حاجة حتى لمتطلبات الجيش العثماني، كما أحضر كثير من التجار، بضائع ألمانية ونمسوية، بوساطة بعض المسؤولين وبالشراكة معهم، وعن طريق وسائل نقل الحكومة نفسها^(٤٢). وقد سدت هذه المواد النقص الرهيب، ومكنت من يملك مالاً أن يشتري بسعر غالٍ ما يبقيه حياً.

(٣٩) مجلة الحرب العظمى، ٢م، ج ١٦، ص ١٥.

و F. O. 371/3046/ No (85973) 25 Sep. 1915.

D. F. Aff. Etr, vol IV (870) Aout. 1915. PP.34-37.

(٤٠) مجلة الشعلة (حلب) عدد ٦، ديسمبر / كانون الأول / ١٩٢٠، ص ٢١٥، والغزي، ص ٦٢٥.

(٤١) D. F. Aff. Etr, vol. XII (878) 6 Aout. 1917. P. 142.

ويقال أن علي منيف بك جمع ٧٥ ألف قرش وكذلك نقيب بك.

وانظر ابراهيم الأسود، تنوير الأذهان بتاريخ لبنان، ص ٥٧.

(٤٢) كرد علي، غوطة دمشق، ج ٤، ص ١٣٤.

الجماعة والوباء

والمصيبة الثانية التي حلت في سورية خلال الحرب، هي انتشار وباء التيفوس والكوليرا في مختلف أنحاءها. وقد فُتِكَ التيفوس في حلب في أواخر ١٩١٤ بالسكان، وخاصة الفقراء فتكاً ذريعاً، وبلغت ضحاياه الآلاف، وكان يموت كل يوم من ٢٠٠ - ٣٠٠ شخص^(٤٣). وانتشر أيضاً في بيروت، وأصاب ٢٥٪ من عدد سكانها وأصبح معدل الوفيات عالياً^(٤٤). كما حصّد التيفوس ٢٥٪ من سكان جنوب فلسطين إضافة إلى الكوليرا والحمى^(٤٥). وزاد الموقف سوءاً، انتشار الكوليرا أيضاً في سورية، وخاصة في منطقة حلب وبين الجنود، وقد مات فيها ألفان منها ومن البؤس. وقد وصف أحد الضباط الألمان بأنها أي الكوليرا تقاتل ثلاثة جيوش، بسبب انتشارها الواسع. ولقد استحضر الألمان ثلاثمائة ألف إبرة، وأجري اختبارها في المخابر الجرثومية، وأخذ هؤلاء الألمان في سورية يغسلون الماء، أما الأتراك والسكان فلم يفعلوا ذلك، وكانت الديزانتيرية والملاريا والحمى، من مكمّلات الحالة الصحية الفاسدة، التي سادت سورية في تلك الفترة^(٤٦).

وفي هذا الجو البائس، أخذت تصل إلى سورية، جموع المهاجرين الأرمن من الأناضول، إثر الحوادث الدامية التي جرت بينهم وبين الأتراك، وقد وصلوا بحالة بائسة إلى دير الزور وحلب، وأخذهم البدو إلى مضاربهم، وتزوجوا من فتياتهم، ووشعوهن بالزرقة تجميلاً ظن، وأعانونهم وأكرمهم. كما عامل الخلبيون الأرمن معاملة حسنة، وتزوجوا منهم. ووصل عددهم في حلب إلى ٦٠ ألفاً، بينما تجاوز عدد الذين دخلوا

(٤٣) ينكر كتاب رثاق حلب أنه مات عشرة آلاف من التيفوس في حلب (١٨ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٤)، ص ١٠٩.

(٤٤) D. F. Aff. Etr, vol. XI (877), 3 Mai. 1917, P. 30.

(٤٥) تقرير من أحد المسؤولين الأمريكيين في شركة ستاندر أوليل الأمريكية في ١٠ جويليه / تموز / ١٩١٧، ونرى فيه مبالغة. F. O. 371/3050/ No 158286.

(٤٦) Ibid, 371/2783/ No 221220, 4 Nov. 1916.

و D. F Aff. Etr, vol. VII (873), 5 Juillet 1916, P. 147.

سورية ثلاثمائة ألف، ومات قسم كبير منهم من الجوع والبرد والمرض وخاصة التيفوس . وتسبب وصولهم بزيادة جديدة في أسعار المواد^(٤٧) . وذكر ضابط سوري في تقرير له ، في أثناء رحلة في القطار من حلب إلى دمشق ، التي استغرقت ثلاثين ساعة لأن القطار كان يسير على حطب الأشجار ، بسبب انقطاع الفحم الحجري ، أنه رأى جموع الأرمن يسرون على مقربة من الخط الحديدي وقدر من مات منهم بألف بسبب الجوع والتيفوس ، ومن وصل منهم انتشر حول دمشق في القرى حيث اعتنى بهم السكان . لكن هؤلاء الأرمن ، نشروا التيفوس الذي حملوه من الأناضول وحلب^(٤٨) . كما أن السائر بين دمشق وبيروت ، كان يرى جموع الأرمن في حالة محزنة ، حيث قتلهم البؤس والجوع والمرض . وكذلك عاملهم السوريون معاملة حسنة . وجمال باشا نفسه قد تزوج بإحدى بنات الأرمن (روز) لأنها أرادت أن تخدم قومها عن طريقه . وهناك من عاملهم من الولاة الأتراك معاملة حسنة ، كجلال بك متصرف دير الزور الذي يذكره الأرمن بالشكر . ومنهم من عاملهم بالقسوة كخلفه زكي بك أو جمال باشا^(٤٩) ، إذ دبروا لهم مقتلة للثأر أو لغيره بسبب اتصاّهم بالأجانب ، وهي مسألة تخص القضية الأرمنية في كل الأحوال .

وتطغى على كل المصائب التي ذكرنا ، المجاعة التي حلت في سورية . والشيء المساوي أن هذه المصائب جميعاً حدثت في الوقت نفسه ، أو ربما حدثت المصائب الأولى في قلب المجاعة ، فكانت أسوأ جو تسود فيه الحرب العالمية الأولى في سورية بشكل لم تعهده من قبل . وكان لتلك المجاعة الرهيبة سببان : الأول من الطبيعة نفسها ، والثاني من الدولة والمحتكرين خلال سني الحرب . أما السبب الأول فيعود إلى موجات الجراد الوافدة من الصحراء إلى سورية في شهر أبريل / نيسان / ١٩١٥ ، حيث قضى على كل الزرع ، ولم تشهد سورية مثيلاً لتلك الأعداد من الجراد منذ أربعين سنة ،

(٤٧) الغزي ، ص ٥٨٠ .

(٤٨) F. O. 371/2781/ No 6/19. W. O. 25 Sep. 1916 .

(٤٩) الحكيم ، لبنان ، ص ١٦٤ — ١٦٥ ، ومجلة المشرق مجلد ٢٠ ، (١٩٢٣) ، ص ٥٦٤ .

عندما حطت أسرابها على بيروت ودمشق وحلب ودير الزور وأضنه، كما أن قلة الأمطار أثرت على موسم سنة ١٩١٤، لكنه بقي موسماً جيداً وكان كافياً لمصادرات الحكومة. ثم اجتاحت البلاد أيضاً موجة من الحر الشديد قضت على الآمال بموسم جيد سنة ١٩١٦-١٩١٧، لأنها أحرقت المزروعات أيضاً حيث بلغت درجة الحرارة (١٢٥) ف في الظل عند الظهر) في الصيف و (١١٢) ف الساعة السادسة و ١٠٩ ف عند الفجر)، وكانت الخسارة كبيرة جداً إذ بلغت ٦٢٥ كغ لكل هكتار بدلاً من التقدير المبدئي لها وهو ٢٧٥ كيلوغراماً للهكتار^(٥٠). وزاد الحال في سورية سوءاً، أن الأناضول كان يعاني من حالة مماثلة في تدمير المواسم. ومن العوامل الطبيعية أيضاً، التي أثرت بشكل خاص على لبنان، أن غزارة الأمطار والثلوج على جبل لبنان وقفت حائلاً ما بينه وبين سورية الداخلية في أوائل ١٩١٥^(٥١)، ومنعت وصول الحبوب إليه مما جعل لبنان يبدأ بمعاناة نقص القمح قبل سورية، وقبل مصيبة الجراد، ولهذا كانت نتائج المجاعة عليه أشد، لأنه عانى مدة أطول، إضافة إلى قلة إنتاج القمح في جبال لبنان. كان يمكن أن تكون النتائج أقل خطورة، لو كانت خسارة المواسم قد جرت في ظروف عادية غير ظروف الحرب. لكن الحقيقة أن الحرب، وسياسة الدولة العثمانية أو جمال باشا، هي التي أوصلت المجاعة إلى درجة الخطر القصوى، وجعلت تفتك بآلاف الناس.

أما السبب الثاني، وهو الأهم، لأنه الفاعل الحقيقي لكارثة لم توضع كل الجهود بكل إخلاص لتداركها، فهو أن الحكومة صادرت معظم الرجال والحيوانات منذ بدء الحرب سنة ١٩١٤. فقلت اليد العاملة ونقصت مساحة الأرض المزروعة ٤٠٪. وبذلك كان النقص في الانتاج الزراعي قد تجاوز أكثر من ٢٥٪ النقص، الذي كان يحدث في ظروف أخرى معتادة. كان هذا في موسم ١٩١٤-١٩١٥، لكن الدولة شرعت تصادر كل المواد الغذائية، وخاصة القمح، فأخذت أسعاره تغلو

(٥٠) F. O. 371/2783/ No 221220/ 4 Nov. 1916.

(٥١) ابراهيم الأسود، تنوير الأذهان، ج ٣، ص ٥٤-٥٦.

بشكل غير متوقع أو معروف من قبل، كما زادت أسعار جميع السلع الأخرى، حتى بلغت أرقاماً خيالية، وخاصة بعد وصول الجراد. ونضرب مثلاً على أسعار المواد ما بين سنتي ١٩١٥—١٩١٦ إذ بلغ سعر طن القمح ١٢٠ ليرة ذهبية، بينما كان راتب الموظف ليرتين في الشهر. وكانت الليرة الذهبية لا تشتري أكثر من بضع كيلوغرامات من الخبز، كما بلغ ثمن صفيحة زيت الكاز بضعة ليرات ذهبية من ٥—٦. وكيلو الطحين ٢٢٥ فرنكاً فرنسياً مقابل ٢٥ر. قبل الحرب، و ٢٠٠ غرام سكر ١١ فرنكاً فرنسياً مقابل ٢، والزبدة بـ ١٢ فرنكاً مقابل ٢، و ٢٠ لتر بترول بـ ١٢٥—١٣٨ فرنكاً فرنسياً مقابل ٣٥ر، وأوقية (٢٠٠ غرام) رز بـ ١٣ فرنكاً فرنسياً، وأوقية الصابون بـ فرنكاً، والقهوة بـ ٣٥، ودزينة الكبريت بـ ٦، وزجاجة الكحول للاشتعال بـ ١٧ فرنكاً^(٥٢). (راتب الموظف ٥٠ فرنكاً فرنسياً في الشهر).

وزاد الموقف سوءاً، إضافة إلى مصادرات الدولة، أن أصدر والي سورية ووالي حلب أمراً بمنع تصدير الحبوب إلى لبنان وفلسطين في سنة ١٩١٥. وعندها أخذت المجاعة تفتك بالفقراء والطبقة والوسطى، وأخذ هؤلاء يبيعون كل ما يملكون بأسعار زهيدة، مقابل قليل من القمح. وقد باعوا شبابيك بيوتهم وسقوفها والقرميد، وأخذوا يتركون قراهم خاصة في لبنان، ويتجهون نحو داخل سورية. وكانوا يأكلون الأعشاب، واضطرت النساء إلى العمل كخادومات، أو الزواج من البدو لتأمين حياتهم. وزاد الأمر سوءاً، وصول الأرمن، وانتشار الأمراض التي ذكرنا. وكان الجوع يأكلون في فصل الربيع الحشائش والأعشاب وقشور الخضار، يلتقطونها من يؤر القمامة في الأزقة، فيدركهم الوباء وتنتفخ البطون، ثم يسقطون موتى في الشوارع والأزقة، حتى ضاقت المقابر بالموتى. وكان الأطفال والصبية يتسولون في الشوارع والأسواق، وكان بعضهم يخطف كل ما يرى من الباعة أو الناس من الغذاء، حتى إن الجنود الجوع، كانوا

D. F. Aff. Etr, vol. (871), V, 3 Nov. 1915, PP. 18-20. et vol (875) IX, 11 Jan. 1917, PP. (٥٢)

164-108. et F.O.371/3046/ No. 185973, 25 Sep. 1917, P.8.

ومير الرئيس، الكتاب الذهبي، ص ٥١—٥٢.

ينقضون على الباعة فيخطفون ما معهم، وكانوا يتركون صفوفهم، ويخرجون مشاة يرتادون الأسواق عليهم يخطفون شيئاً، ولذا فقد كان الباعة الجوالون يهربون لدى رؤيتهم من بعيد^(٥٣). «وقد أضعف الجوع الفقراء، لدرجة لم يستطيعوا معها النهب والسرقة، ورضخوا للقدر والموت، بينما المستودعات مليئة حرهم بالمواد الغذائية، وبيوت الأغنياء عامرة بموائد الترف والبذخ، دون أن يجسر أولئك الجياع على مهاجمتها..... وقد باع معظم الناس كل ما يملكون، مقابل الحصول على بعض الغذاء»^(٥٤). لقد كتب كثير من العرب وغيرهم. وصفاً لتلك المأساة في مذكراتهم، وأصبحت تلك الأيام عندهم تاريخاً لا ينسى، تاريخ «سفر برلك». وذكر الشيخ علي الطنطاوي ما كان يراه في دمشق «كان الناس يقفون أرتالاً أمام كوة الفرن، يطلبون الخبز بالذهب، فلا يجدون، لأن الألمان استأثروا بأطياب القمح، وتركوا للناس شر الحنطة وأخبث الشعير، وكان الناس يأكلون قشور البطيخ، وينبشون المزابل من الجوع. واختفى الرجال لأن الحرب أكلتهم، ثم زاد الأمر قبحاً، عند مرأى جثث الأطفال والنساء، الذين ماتوا من الجوع صباح مساء في الشوارع. لقد تحولت دمشق إلى نصفين، نصف مقبرة ونصف مستشفى لمن ينتظر الموت»^(٥٥). «وفي دير الزور وصلت المجاعة حداً رهيباً في شتاء ١٩١٧، ومات كثير من الناس، وأكلوا لحوم الحيوانات «لحوم البشر». ومات من البدو نسبة عالية وهاموا في البراري يلتمسون الحشائش البرية»^(٥٦). وكتبت جريدة The Times اللندنية في ١٥ سبتمبر / أيلول / ١٩١٦ عن المجاعة ما يلي «....وقد رأينا النساء والأطفال على جوانب الشوارع بأعين مغمضة ووجوه شاحبة، ومن الطبيعي أن نرى الناس يفتشون في قمم الزبالاة عن قشر البرتقال والعظام القديمة،

(٥٣) منير الرئيس، الكتاب الذهبي، ص ٥١-٥٢، وإبراهيم الأسود، تنوير الأذهان، ص ٥٦.

(٥٤) مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ٢٥٤.

(٥٥) علي الطنطاوي، دمشق، دار الفكر، ١٩٥٩، ص ٦٠.

وانظر مقالة بعنوان شاهد عيان يند فراغاً في التاريخ، لمحمد جميل بيهم عن المجاعة وحكم الاتحاديين في سورية ولبنان، نشرها في مجلة العربي (الكويت) عدد ٣١، ١٩٦٢، وأعاد نشرها في مجلة كلية الآداب عدد ٧، ١٩٧٥، جامعة بنغازي - ليبيا، ص ٤٢٦.

(٥٦) مجلة الشرق، مجلد ٢٠، سنة ١٩٢٣، ص ٥٧٠.

والنفايات الأخرى، وكانوا يأكلونها بشراسة، إذا وجدوها، وفي كل مكان نرى نساء تبحث عن أعشاب للأكل على جوانب الطرق...»^(٥٧). وفي تقرير للمخابرات العسكرية الفرنسية، عن الموقف في سورية في ٥ أبريل / نيسان / ١٩١٧ جاء فيه «.... لم يكن الموقف محزناً في سورية كمثّل هذه الأيام... فلبنان يموت من الجوع، وقد مات ما بين ١٥٠ — ١٨٠ ألفاً فيه، ولم يبق فيه إلا ٢٣٠ ألفاً بينهم ٣٠ ألف محارب، يطلبون الانضمام إلى الحلفاء، ولم يصل بيروت سوى ١٢ طناً من الحبوب، وأصبح سعر الرطل (٢٥٠٠ غرام) ١٦ فرنكاً، وهو لا يوجد، وحالة الجند الغذائية سيئة، وهم يتقاضون ٥ قروش يومياً ثمن الطعام، والليرة الورقية تساوي ٢٨ بدلاً من مائة، والجنود يخطفون كل ما يجدونه، وقد نهبت النساء السوق في بيروت تحت سمع السلطة....»^(٥٨).

واختلفت التقديرات عن عدد الموتي من المجاعة التي رافقها مرض التيفوس، وهناك التقارير الصادرة عن الحلفاء أو أنصارهم في سورية، تبالغ في العدد لتضخيم جريمة جمال باشا والأتراك بحق السوريين عامة، واللبنانيين المسيحيين خاصة، ومعظمها يذكر أن جمال باشا افتعل تلك المجاعة حتى يذبح المسيحيين بطريقة أخرى، هي الجوع، لأنهم من أنصار الحلفاء والفرنسيين خاصة. وقد كتبت مجلة الشعلة في حلب أن «الأهالي أدركوا أن الحكومة ستميتهم جوعاً، فبادروا لشراء مؤونتهم....»^(٥٩). وكتبت The Times في ٢٣ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٦ أن «تلك المحاولة (المجاعة) ما هي إلا لإنهاء السكان المسيحيين»^(٦٠)، وفي تقرير للمخابرات البريطانية، ذكر أن المسيحيين واليهود، كانوا يعاقبون إذا رفعوا أسعار البضائع، بينما لا يعاقب الباعة المسلمون من أجل ذلك^(٦١). وكتبت مجلة الشرق الأدنى Near East في

(٥٧) F. O. 371/3046/.

(٥٨) D. F. G. Turquie, archive de la guerre 1872-1910- Carton (16) 7N/ 639, 2^o Bureau renseignement divers 1914-1918- Rapport en 30/7/1917.

(٥٩) الشعلة، عدد ٩ مارس / آذار / ١٩٢١، ص ٣٣٦—٣٣٩.

(٦٠) F. O. 371/3046/.

(٦١) Ibid, 371/2783/ No 221220, 4 Nov. 1916.

٢٨ أبريل / نيسان / ١٩١٦ في لندن، تطلب من حكومات الحلفاء، أن تفعل شيئاً لمساعدة المسيحيين في سورية، من المصير الرهيب الذي لاقاه إخوانهم الأرمن^(٦٢) وفي تقرير بريطاني آخر، يذكر أن الاتحاد والترقي قرر معاقبة سكان جبل لبنان، بسبب عواطفهم مع الحلفاء فأجاعهم حتى الموت...^(٦٣). وفي تقرير بريطاني أيضاً، أن جمال باشا أعدم واعتقل كثيراً من الذين عواطفهم مع الحلفاء، ويقوم بالفظاعات، وقتل اللبنانيين بالمجاعة^(٦٤).... إلخ. وهناك تقارير فرنسية ومن أصدقاء فرنسا تتحدث عن المجاعة في سورية عامة، وفي لبنان خاصة^(٦٥). وقد جاء في وثائق حلب عن شهر أوت / آب / ١٩١٨ من رسالة عن المجاعة في حلب وبيروت ولبنان، وصف فيها حالة المسيحيين التعيسة، وصفاً هائلاً وقال بأنه يتعجب لسكوت الجرائد الأوروبية عنها^(٦٦).

والحقيقة أن لبنان عانى من المجاعة أكثر من الداخل، وأن نسبة الموتي كانت أكبر أيضاً، ولا يوجد رقم حقيقي عن عدد الموتي بسبب المجاعة وقد اختلفت جرائد تلك الأيام في تقرير العدد، ما بين ٢٥٠ ألفاً إلى ١٢٠ ألفاً^(٦٧). وتذكر بعض التقارير غير الدقيقة أن العدد يصل إلى ٣٠٠ ألف أو إلى ٤٠٠ ألف، حسب الميول السياسية لكتابها. وقد يكون ما جاء في تقرير كتبه الضابط الأمريكي وليام ييل William Yale في يونيو / حزيران / ١٩١٧، عن الوضع في لبنان، شيئاً قريباً من الواقع، إذ أخبره أحد أصدقائه من الضباط الأتراك، أن جمال باشا بمنعه القمح عن لبنان، تسبب بالموت جوعاً لثلاثين ألفاً من جبل لبنان، بينما كانت تذكر الاشاعات أن العدد هو مائة ألف. لكن ييل يقدر أن عدداً ما بين ٥٠ إلى ٦٠ ألفاً من الذين ماتوا جوعاً، لا يعتبر رقماً

(٦٢) Ibid, 371/2778/No du Journal 250.

(٦٣) Ibid, 371/2779/ No XXII A. Asian, 15 Juill. 1916, P. 26.

(٦٤) Ibid, No 152061, 4 Aout. 1916.

(٦٥) D. F. Aff. Etr, vol.IX (875), 11 Jan 1917, PP. 104-108.

Ibid, vol XI (877), 6 Juin 1917, P. 265.

(٦٦) وثائق حلب، ص ١١٢، (٣ أوت / آب / ١٩١٨).

(٦٧) D. F. Aff. Etr, vol. XII (878) 27 Juill. 1917. PP. 113-115.

مبالغاً فيه . وذكر أن دمشق وحلب واقعتان داخل منطقة الحدود التي يوجد فيها القمح ، لم تعاني أو تتأثرا مثل القدس وفلسطين . لأن الأخيرتين كانتا تشكلان جبهة القتال^(٦٨) . وهذا يعني أن عدد الموقى فيهما يكون أقل من فلسطين ، وبالتالي أقل من جبل لبنان . وإن رقماً بين ١٠٠ — ١٥٠ ألفاً يعتبر معقولاً لمن ماتوا بسبب المجاعة في سورية خاصة . وأن القنصل الأمريكي في بيروت قدر عدد الذين ماتوا بالمجاعة بخمسين ألفاً^(٦٩) ، وذكر كرد علي في (خطط الشام ج ٣ ، ص ١٦١) أن سورية فقدت عشر سكانها أي ٣٠٠ ألف من الحرب والجوع والمرض ، ولا شك أن نصيب الحرب يزيد عن النصف ، ولذا يكون عدد الذين ماتوا بالجوع أقل من ١٥٠ ألفاً وهو يقارب تقديرنا .

وكان يمكن لهذا الرقم أن يكون أكبر بكثير ، لولا إجراءان هامان ، قام بالأول منها الجمعيات الخيرية والدينية والتعليمية ، للتخفيف من أثر الجوع ، وقامت بالثاني الدولة نفسها ولنفس الغرض . أما الإجراء الأول فقد شمل مختلف أنحاء سورية ، وخاصة في لبنان ، إذ بذل فيه كثير من رجال الفكر والاصلاح والخير والدين جهوداً جبارة في الصراع ضد المجاعة ، واستطاعوا أن يخففوا كثيراً من شدة الكارثة . ومن هؤلاء البطريرك غريغوريوس حداد ، الذي فتح أبواب بطريركيته للفقراء ، حتى أنه باع صليبه الذهبي لاعتنتهم « دون تمييز بين أديانهم ومذاهبهم ، ولهذا أمده جمال باشا بكميات من القمح لتوزيعها على الفقراء ، كما قام المطران أنطون عريضة بضم مئتي طفل يتيم وعمل على إطعامهم وتعليمهم وباع كل ما يملك ، حتى صليبه الذهبي في هذا السبيل^(٧٠) . كما فتح كثير من رجال الدين المسيحي بيوتهم ، وفتحوا مطاعم يأكل منها الفقراء أثناء المجاعة ، وقد وزع المطران بولس عواد على العائلات المستورة مبلغ (١٤) ألف ليرة ورقية ، إضافة إلى المطعم الذي فتحه حيث كان يتراده يومياً أربعمئة فقير مرتين . وقد

(٦٨) F. O. 371/3050/ No 158286, 10 Juill. 1917. PP. 4-5.

(٦٩) D. F. Aff. Etr, vol. VII (873), 28 Juin 1916, P. 120.

(٧٠) مذكرات الحكيم ، لبنان وبيروت ، ص ٢٥٤ .

اتصل الخوري بولس عقل، رغم المراقبة التركية الشديدة للساحل السوري، بالقومندان «ترابو» رئيس الحملة الفرنسية في أرواد، وأرسل إليه يطلب المعونة عن طريق المطران يوسف دريان، وكيل البطريركية المارونية في مصر، واستطاع الأخير أن يرسل المساعدات الفرنسية بشكل سري، وقد وصلت هذه المعونة إلى مبلغ (١٥٠) ألف ليرة إنكليزية ذهباً وعشرين ألفاً أخرى لتوزيعها على الفقراء. وقد أرسلت فرنسا (٢٦) ألف ليرة ذهبية، وزعت على الفقراء بوساطة البطريركية المارونية والأساقفة والرهبانية. وكان المطران دريان، يقوم بنشاط سياسي واسع في مصر، كي يحض فرنسا على الانتقال بقواتها من أرواد إلى لبنان، لاحتلاله وتخليصه من الأتراك. وقامت لجنة النجمة البيضاء الأمريكية، بأعمال خيرية كثيرة في سورية ولبنان، حيث آوت الأطفال الأيتام وأطعمت الفقراء، كما قامت بتأسيس مصانع حرفية لتعليم الحرف اليدوية كالنجارة والحداة والخياطة والصياغة والزراعة، وقد توزع نشاطها في مناطق كثيرة في سورية ولبنان، واشتركت معها في ١٩١٩ جمعية الصليب الأحمر الأمريكية بالأعمال الخيرية، وبلغ ما أنفقته هذه الجمعية من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩١٨ (٢٠٥) مليون دولاراً، واستفاد منها نصف مليون نسمة من جميع الطوائف^(٧١). وقد قام كثير من المهاجرين السوريين، في مصر وأمريكا وأوروبا، وخاصة من الصحفيين والسياسيين بنشاط كبير، لإرسال المعونة المالية من تلك البلاد إلى سورية ولبنان. وكان نشاطهم كبيراً وبارزاً في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث اتصلوا بالرئيس ولسن الذي وعد بتقديم المساعدة إلى سورية، وأرسلت فعلاً — لكن لم تصل في معظمها لأسباب سنذكرها في حينها — كما اتصلوا بأعضاء مجلس الكونغرس لانقاذ السوريين، وجمعت التبرعات وأرسلت

(٧١) إبراهيم الأسود، تنوير الأذهان، ٦٣ — ٧٠ و ١٦٤ — ١٦٩. ومجلة الحرب العظمى، ج ١٨، ص ١٣.

F. O. 371/2779/ No XXII, 15 Juill. 1916, P. 26.

وعملت جمعية الصليب الأحمر الأمريكية مع جمعية الهلال الأحمر العثمانية، بناءً على رغبة الوالي علي منيف بك في بيروت، وظلتا تعملان معاً من ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٦، إلى أبريل / نيسان / ١٩١٧، عندما دخلت أمريكا الحرب.

Margaret Mc Gilvery, The dawn of a new era in Syria, London Flaming 1920, PP. 90-92.

الأغذية^(٧٢). وقامت الجمعيات الخيرية في كل مكان في سورية، تساعد على تقديم المعونات إلى الفقراء.

أما دور الدولة العثمانية، أو دور جمال باشا في سورية ومسؤوليته في كارثة المجاعة، فيمكن تقسيمه إلى قسمين، يتوضح في كل منهما دوراه السلبي، والإيجابي. وكما ذكرنا فإن جمال باشا متهم بأنه تعمد تجويع سورية، ولبنان خاصة، حتى يقتل اللبنانيين الذين يكونون عواطف حارة نحو فرنسا والحلفاء، ويكتمون كرهاً للدولة العثمانية. وعندما يحاول جمال باشا تبرئة نفسه، ويضع اللوم على ولاية الولايات الأخرى في سورية، بأنهم هم الذين أصدروا أوامره بعدم نقل الحبوب من سورية إلى لبنان، فزاد خطر المجاعة، وأنه كان قد رفض هذا القرار^(٧٣)، فهذا تبرير غير صحيح، لأن جمال باشا هو المسؤول الأول عن الحكم في كل سورية، وكان يستطيع لو أنه أراد حقاً أن يوصل القمح إلى لبنان، أن يمنع مثل هذا الأمر، لأنه كان ينقل الولاية كما كان يشاء، وكان مسيطراً على سورية بشكل مطلق. والدليل على ذلك، أنه هو الذي سمح بتصدير القمح إلى لبنان سنة ١٩١٧^(٧٤)، دون أن يقدر أحد أن يمنعه من ذلك. والأمر السلبي الثاني، أنه لم يمنع الألمان من شراء حبوب سورية ونقلها إلى ألمانيا، مع أنه كان معروفاً أنه لا يجب الألمان، وأن حساسية كبيرة كانت قائمة بينه وبين القادة الألمان في سورية. لكن هذه المسألة، ربما كانت أعلى من سلطته، لأن المسؤولين في استانبول، وخاصة أنور باشا هم المسؤولون قبله عن ذلك. والشئ الثالث أنه أمر بمصادرة كل المواد الغذائية، دون أن يترك ما يكفي السكان حتى لا يفتك بهم الجوع، والشئ الرابع، أنه لم يطعم حتى جنوده بأكداس القمح المخزنة أو الموضوعة في العراء، فكان أن أصابت المجاعة الجيش نفسه، مما زاد الأمر سوءاً وجعل الجنود يقاسمون السكان، حتى اللقمة التي لا يجدونها، وكانت حصّة الجندي من الطعام يومياً لا تتجاوز قيمة

(٧٢) F. O. 371/2779/ No 152061, 4 Aout. 1916. PP. 25-26.

(٧٣) مجلة الهلال، م ٢٥، ج ١، أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٦، ص ٧٦. مجلة الحرب العظمى، ج ١٦، ص ٦.

(٧٤) مذكرات الحكيم، لبنان وبيروت، ص ٢٨٣.

خمسة قروش من خبز لا يعرف مما هو مصنوع^(٧٥). والشيء الخامس، وكان كالضربة القاضية، هو أن الدولة العثمانية أصدرت نقوداً ورقية في شهر أبريل / نيسان / ١٩١٦، بسبب نقص الذهب الذي كانت تصك منه الليرة التركية، وكان ذلك إثر وصول القوات النمساوية والألمانية إلى سورية في أوائل عام ١٩١٦. وكان لليرة الورقية أثر سيء جداً، لأنه يشبه سرقة آخر ما كان يمكن للناس، أن يشتروا به لسد الجوع. وكان من المفروض، أن قيمة الليرة الورقية تساوي قيمة الليرة الذهبية. وعندما صدرت كانت قيمتها ١٠٨ قروش، لكنها وصلت في آخر عهدها إلى قيمة ١٥ قرشاً وأقل. وكان من المفروض أن تستبدل كل ليرة ورقية بأخرى ذهبية بعد الصلح بستة أشهر^(٧٦). ونظراً لعدم ثقة التجار والناس بهذه العملة الورقية، أخذت تهبط قيمتها، وازداد الطلب على البضائع حتى اختفت تماماً. واضطر قسم من الموظفين إلى ترك أعمالهم، لأن رواتبهم من العملة الورقية لم تعد تسد لهم رفقاً، وكانت ترتفع أسعار البضائع وتهبط أسعار العملة الورقية، وأصبحت مجالاً لتلاعب التجار والصيارفة، إذ كانوا يشترون هذه العملة من الناس بثمان بخس، ويشترون البضائع عن طريق الرشوة بهذه العملة على أساس قيمتها العليا، ولذلك أصدر جمال باشا أمراً ضرب له موعداً آخره ٢٨ ماي / أيار / ١٩١٧، بوجوب التعامل بالعملة الورقية على أساس قيمتها الذهبية، فارتفعت قيمتها ثم هبطت من جديد وظلت كذلك، ورغم تهديدات جمال باشا^(٧٧). وامتنع الفلاحون في حوران عن بيع قمحهم بالعملة الورقية، فاضطر جمال باشا إلى شراء ما يلزم بالذهب، لأن الألمان كانوا يشترون هذا القمح بالذهب، وكان يحصل على الذهب من التجار بالقوة، بالاستبدال الاجباري للأوراق النقدية بالعملة الذهبية، بحجة أن البدو لا يبيعون المواشي إلا بالذهب. وقد صادرت الدولة كثيراً من العملة الذهبية بهذا الشكل مع الفارق الكبير بالقيمة^(٧٨). وإضافة إلى خسارة الناس في التعامل الاجباري

(٧٥) D. F. G. Carton 16 (7N 1639) 2° Bureau. 30/7/1917.

(٧٦) مجلة الشعلة، عدد ٧، جانفي / كانون الثاني / ١٩٢١، ص ٢٦١—٢٦٢. وإبراهيم الأسود، تنوير

الأذهان، ص ٥٦. ومذكرات الحكيم، لبنان، ص ٢٥٥.

(٧٧) مجلة الشعلة، عدد ٩، مارس / آذار / ١٩٢١، ص ٣٣٦—٣٣٩.

(٧٨) F. O. 371/3050/ No 158286, 10 Juill. 1917.

بالعملة الورقية، كانت هناك الخسارة الجزئية الصغيرة أثناء التعامل بها، لأن الدولة لم تطرح قطعاً صغيرة (فراطة) من العملة الورقية، ولذا كان على أي مواطن أن يدفع ليرة حتى لو كان يدفع للدولة نصف ليرة أو ربعاً، لأنه لا توجد قطع صغيرة لردّها له^(٧٩). وقد عرفت العملة الورقية بين الناس باسم «السفانتج». وكان جواسيس الدولة يراقبون في الأسواق كل من يشتري بالعملة الذهبية أو الألمانية، أو يبيع بها حتى ينقضوا عليه. وجاء في تقرير للمخابرات البريطانية من فلسطين، أن العملة التركية الورقية خارج سورية وفلسطين والعراق تساوي ربع قيمتها، وفي فلسطين، لا يمكن شراء الغذاء بها، وإذا استبدلت بالذهب أو الفضة يمكن عندها شراء القمح والحبوب والغذاء من البدو الفلاحين، واضطرت لجنة القمح الحكومية أن تشتري الذهب والفضة لشراء القمح من السكان المدنيين المحليين، وأن السلطة العسكرية أو المدنية، لا تستطيع أن تجبر الشعب على قبول الأوراق المالية بقيمتها المسجلة^(٨٠). وجرّت محاولة أخرى لرفع قيمة العملة الورقية، إذا أعلن جمال باشا أنها ستبدل بذهب بعد الحرب. كما أعلن المصرف الزراعي أنه يقبل العملة الورقية مثل الذهبية وبفائدة $\frac{1}{4}$ لستة أشهر، و $\frac{1}{2}$ لأكثر من ستة أشهر. لكن ذلك لم يأت بنتيجة مفيدة، ولم يستطع إدخال الثقة في هذه العملة، لأن جمال باشا نفسه كان قد منع تصدير العملة الذهبية والفضية، وغير نظام تبديل العملة بشكل يخدم الخزينة ويضر بالمواطنين. وراجت المتاجرة بالعملات الأجنبية أيضاً، وكانت العملة الألمانية والسويسرية وغيرها، قد وصلت إلى البلاد بوساطة الدولة، حتى يتعامل بها الناس، إضافة لليرة الورقية التركية، وكي توقف التعامل بالذهب، واتجر الناس كثيراً بهذه العملات التي لم تستقر على سعر ثابت، واشتروا منها كميات كبيرة، وخاصة في السنة الأخيرة للحرب. لكن تبين أن سورية خسرت خمسة ملايين ليرة عثمانية ثمناً للعملات الأجنبية، حتى إن النساء اتجرن بهذه التجارة، لكن ضاعت كل الأموال بعد انتهاء الحرب حيث حلت

(٧٩) محمد جميل بيهم، العهد المخضرم في سورية ولبنان، ١٩١٨-١٩٢٢، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٩٨.

(٨٠) F. O. 371/3050/ No 58286, 10 Juill. 1917.

Ibid, 371/2777/ P. 701. 28 Avril 1916. و

العملة الانكليزية محل هذه العملات^(٨١). والشئ السادس الذي أضر بالمواطنين في محنة المجاعة، هو سيطرة المحتكرين من التجار والأغنياء على المواد الغذائية والمستوردة من ألمانيا، وخاصة بعد دخول بلغاريا الحرب، إذ أصبح القطار يصل من برلين إلى سورية، وهو يحمل البضاعة التي كان هؤلاء المحتكرون، يتاجرون بها بأسعار باهظة، تعجز عنها الطبقة الوسطى. ويفضح كتاب المذكرات في هذه المرحلة، الدور السيء والجشع والاستغلال الذي لعبه هؤلاء، وتسببوا في مضاعفة عدد الموتى من المجاعة، وعدد من هنك أعراض النساء. ولم يكونوا يستطيعون احتكار الأقوات، لولا اتفاقهم مع رجال الحكم والإدارة وضباط الجيش، عن طريق تقديم الرشاوي، وكان ذلك ظاهراً جلياً في حلب، وبيروت، حيث كان الواليان فيهما قد أسسا شركات عن طريق الحكومة، لبيع القمح. لكن ذلك تحول إلى بيع القمح بأسعار عالية، واغتنى الإثنان. كما أن هؤلاء التجار، صاروا يرشون المسؤولين عن البريد، والقطارات. كي يسهلوا لهم إيصال بضائعهم، التي كانت ماتزال رخيصة، ولأنها كانت المنفذ الوحيد لايصالها، وخاصة بعد أن وضعت الدولة يدها على السكك الحديدية، وكانوا يبيعون البضائع بأسعار خيالية، وتحول كثير من الموظفين إلى سماسة لهذه المهنة، وكانت الشاحنة الواحدة تؤجر بـ ٥٠٠ ليرة، وكان الضباط يقاسمون التجار الأرباح، وقد كان يسرق عمال السكك الحديدية البضائع، ويسلمون التجار صناديق مملوءة بالحجارة، وهذا ما كان يدفع التجار لزيادة الأسعار من جديد^(٨٢). ووصل الأمر إلى درجة بالغة السوء بسبب

D. F. Aff. Etr, vol. (878), XII, 27 Juill. 1917, PP. 113-115. et vol VI (872), 17 Apri. 1916. (٨١)

P. 252.

وكرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢٧٢.
(٨٢) الشعلة، عدد ٨، فكريه / شباط / ١٩٢١، ص ٣٠٤-٣٠٨، وعدد مارس / آذار / ١٩٢١، ص ٣٣٦-٣٤٠.

كتب علي الطنطاوي عن الاحتكار في الحرب كما شاهد، فقال «كان الشعب يموت جوعاً خلال الحرب الأولى، لأن التجار الفقار احتكروا خبزه فذهب من ذهب من الناس، لثقل صناديق المحتكرين بالذهب، ثم لا يجد الأموات قبرا، لأن الحرب لم تبق من الرجال من يقدر على حفر القبر، وجعل التجار بأظافهم وأنيابهم من ثمن الأشياء عشراً، وربما بلغوا ببعض الأثمان مائة ضعف، وما قلت السلع وما تبدلت، لكنه الطمع والجشع ورقة الدين وضعف الخلق».

كتاب «دمشق» ص ٨٥.

الاحتكار، حتى إن جمال باشا أمر بوضع الأسعار على البضائع، وهدد التجار، وعدل الأسعار، ولذا رخصت وشعر الناس بالارتياح، واضطر التجار إلى إخراج محتكراتهم، حتى لا يصادرها جمال باشا^(٨٣)، لكن ذلك أتى متأخراً عندما أدرك جمال، أنه راحل عن سورية، وأن تركيا سوف تخسر الحرب. ونذكر شيئاً عن شركة علي منيف بك، والي بيروت، «إذ أسس شركة مساهمة، اشترك فيها اللبنانيون الأثرياء مساهمة، وكان ثمن السهم ٢٥٠ ليرة ذهبية، واستجلب القمح، وأنشأ له مستودعات كثيرة، فكانت هذه الشركة مورداً عظيماً لمأمويتها، وللكتيرات من العقائل والأوانس اللواتي كان يوزع عليهن القمح، وكانت وبالأعلى الفقراء الذين كانوا يستمطرون غضب الله على أصحابها»^(٨٤). ومن الأمور السيئة التي كانت نتيجة للمجاعة والاحتكار والرشاوي، أن الدولة كانت تتقاضى ٤٠ ليرة ذهبية بدلاً عن الخدمة العسكرية، وألغت ذلك زمن الحرب، فخاف الأثرياء من أن يذهب أولادهم جنوداً للحرب، فأخذوا يرشون الضباط حتى يحصلوا لهم على وثائق، بأنهم يقطعون الأشجار والحطب من أجل الجيش، وكان عمال هذا الصنف من العمل معفيين من الخدمة، ولما فقدت المواد الغذائية، طلبت الدولة أن يدفع المستعفي ما قيمته ٤٠ ليرة من المواد الغذائية، ثم رفعت ذلك في المجاعة إلى ٢٠ ضعفاً من المواد الغذائية أو الحطب والأشجار، بسبب شح الفحم الحجري، وتوقف القطارات التي أخذت تحرق الأشجار بدلاً منه. وسارع الأثرياء إلى شراء أشجار الصنوبر من مالكيها في لبنان، والأشجار المثمرة في سورية وفلسطين، بأسعار بخسة، بسبب المجاعة^(٨٥)، فكان ذلك ضربة شديدة على ثروة هذه البلاد من الأشجار.

اما الدور الذي لعبه جمال باشا في التخفيف أو معالجة أزمة المجاعة، فكان

(٨٣) D. F. Aff. Etr, vol. XII (878) 27 Juill. 1917, PP. 113-115.

(٨٤) ابراهيم الأسود، تنوير الأذهان، ص ٥٨، ومذكرات الحكيم، بيروت، ص ٢٥٢. وانظر وثائق حلب، ٣١ ماي / أيار / ١٩١٨، ص ١١١.

(٨٥) مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ٢٥٧-٢٥٨، والشعلة، عدد ٧، جانفي / كانون الثاني / ١٩٢١، ص ٢٦١-٢٦٧.

موجوداً رغم كل ما قيل عنه من اصطناعه للمجاعة لقتل اللبنانيين، ورغم كل السيئات التي ذكرناها عن دوره فيها الآن. وقد دافع جمال باشا نفسه عن سلوكه تجاه المجاعة، وذكر للمطران عبد الله الخوري أوائل أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٦ وجوب أن يحتج البطريرك الماروني، على ما تكتبه الصحف الفرنسية ضده بهذا الخصوص. وقال بأنه لم يسبب المجاعة، لأنه لم يأت بالجراد سنة ١٩١٥، ولم يجبس المطر سنة ١٩١٦، ولم يحاصر البلاد، بل هم الحلفاء^(٨٦).

والحقيقة أن منتقدي جمال باشا، سواء من المسلمين أو المسيحيين أو الأجانب، ذكروا أيضاً دوره في تخفيف المجاعة. «ولولا أن الدولة أخذت توزع الخبز والدقيق بالبطاقات، لهلك معظم سكان الأقطار العربية التابعة للدولة العثمانية»^(٨٧). وفي المجاعة في لبنان، «اضطرت الدولة إلى جلب الحبوب من حلب، وبيعها بأسعار مخفضة للفقراء بموجب وثائق تعطى لهم، وجعلت الحكومة مستودعات القمح في مراكز الأقضية...»^(٨٨) وفي سورية، «قامت الحكومة بتأسيس مراكز إعاشة في معظم المدن السورية، وفي القرى القريبة من السكك الحديدية، وسمح لبعض التجار بنقل الحبوب إلى بيروت بسعر حر، لكنه غلا كثيراً وعز على الفقراء شراءه.... وحددت الدولة ٢٥٠ غراماً من القمح يومياً، لكل فرد من الموظفين، كانت هذه الإجراءات لا بأس بها بالنسبة للموظفين، أما باقي أفراد الشعب...»^(٨٩).

وكان جمال باشا يمد كثيراً رجال الدين المسيحي، ممن فتحوا كنانتهم لاطعام الفقراء، كالبطريرك غريغوريوس حداد الأرثوذكسي^(٩٠). والبطريرك الماروني الياس الحويك بعد زيارته له في لبنان، حيث وزع حاكم لبنان ثلاث مقطورات قمح للفقراء في

(٨٦) مجلة المشرق، مجلد ٢٠، سنة ١٩٢٣، ص ٢٦٦.

(٨٧) منير الرئيس، الكتاب الذهبي (مذكرات)، ص ٥١-٥٢.

(٨٨) ابراهيم الأسود، تنوير الأذهان (مذكرات)، ص ٥٤.

(٨٩) مذكرات الحكيم، لبنان وبيروت، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٩٠) مذكرات الحكيم، لبنان، ص ٢٥٤.

جبل لبنان، وخاصة في جونه المسيحية الكاثوليكية^(٩١). وذكر عزيز بك ضابط الاستخبارات العثمانية، أن جمال باشا قد اتخذ اجراءات كثيرة للتخفيف من المجاعة، وقد قدم الجيش التركي المساعدات التالية :

- ١ — إلى سائر المدارس الحكومية.
- ٢ — لعائلات الدول المحاربة الموجودة في بيروت.
- ٣ — إلى الجامعة الأمريكية.
- ٤ — لسائر موظفي الدولة وعائلاتهم.
- ٥ — للمستوصفات والمستشفيات على اختلافها.
- ٦ — ٣٠٠ ألف كيلو من الحبوب إلى البطيركية المارونية لتوزيعها على الأديرة والرهبان.
- ٧ — ١٥٠ ألف كيلو من الحبوب للبطيركية الأرثوذكسية (الروم)، والروم الكاثوليكية.
- ٨ — تأمين معيشة ألفي طفل أرمني.
- ٩ — ٥٠ ألف كيلو من القمح، و ٢٥ ألف ليرة قرضة إلى بطيرك الروم الأرثوذكسي في القدس.
- ١٠ — لدار الأيتام المهاجرين الأرمن في حلب.
- ١١ — تأمين معيشة أربعة آلاف شخص من أهالي بيروت، يعملون لدى الدولة — غير الموظفين — وغير ذلك كثير^(٩٢).

وتكاد تكون كل هذه المساعدات صحيحة، إذ تذكرها وتؤكدّها كثير من كتب المذكرات، ككتب الغزي، والحكيم، وإبراهيم الأسود، وشكيب أرسلان، ومجلة المنار، وكتب شكر من رجال الدين لجمال باشا لما أمدّهم من معونة، وكذلك الجامعة الأمريكية والوثائق الانكليزية، كما تذكر الوثائق الفرنسية مساعدة جمال للموارة بعد زيارة

(٩١) D. F. Aff, vol. VII (873), 5 Juill. 1916, P. 147.

(٩٢) عزيز بك، ص ١١٦ — ١١٧.

البطريك الحويك له . وزيادة على ما ذكر ، فقد فتحت الدولة أثناء الحرب ، في القدس ودمشق وبيروت ويافا قاعات للشاي ، جعل ثمن الشاي والخبز والماء الساخن قليلاً أو بلا ثمن للفقراء والبائسين ، وتألّفت جمعيات للقيام بمقام الأطباء في معالجة المرض ، وتنظيف المنازل والحارات والشوارع ، وعزل المرضى وتوزيع الأدوية^(٩٣) . كما فتحت الحكومة ملاجئ عديدة للأطفال الجياع لكنها « كانت قليلة بسبب قلة الغذاء المخصص لها »^(٩٤) إلخ....

وكان جمال باشا منذ بداية المجاعة عام ١٩١٥ ، قد أرسل إلى استانبول يحدد فيها كمية الحبوب اللازمة للمدن السورية . فطرابلس تحتاج إلى ١٠ مقطورات (Wagon) من الحنطة ، و ١٨ لبيروت ولبنان عن طريق حلب وحمص وحماه ، و ١٠ لدمشق^(٩٥) إلخ . كما أنه أراد أن يعوض عن نقص زراعة الحبوب ، بسبب قلة اليد العاملة التي أخذت للحرب ، فأعفى جبل الدروز من الخدمة العسكرية ، بعد أن وعده الدروز بزراعة الحبوب للجيش . وكان بذلك يكسب ضعفين ، حبواً وسكوناً سياسياً من قبل الدروز ، الذين كانت علاقاتهم سيئة مع الدولة العثمانية^(٩٦) . لكنه أخطأ في الائتئين ، فلا هو حصل على الحبوب إلا بالذهب ، ولم يكسب ود كل السكان ، وأصبح هذا الجبل خلال الحرب أحد مراكز تجمع العاملين في الثورة العربية ضد الاتحاديين ، لكن كثيراً من السوريين واللبنانيين استفادوا من حبوب الجبل ، ونجوا من المجاعة عن طريق البيع أو العون والضيافة . وعندما رفض الفلاحون في حوران تقديم حبوب موسم سنة ١٩١٦ إلى جمال باشا ، ألزم الموسم إلى ميشيل ابراهيم سرسق ، مبعوث بيروت ، كي يجمع ٨٠ مليون كيلو . لكن هذا جمع ٢٠ مليوناً وأخذها للعبقة ، فأغار عليه الأهالي ، وضربوا الدرك ، واشترك الجيش بقمع التمرد ، وتدخل

(٩٣) مقالة في جريدة (نور زنجي) الألمانية في ٢٨ جويه / تموز / ١٩١٦ ، عن المجاعة في سورية عربتها الأهرام ، المنار ، ج ٧ ، ١٩٠٤ ، ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٦ ، ص ٤٤٥ .

(٩٤) ابراهيم الأسود ، تنوير الأذهان . ص ٧٤ .

(٩٥) D. F. Aff. Etr, vol. IV (870), 27 Aout. 1915, PP. 38-39.

(٩٦) F. O. 371/2781/ 25 Sep. 1916, PP. 13-14.

وشلي العيسمي وآخرين ، التعريف بمحافظة جبل العرب ، دمشق ، ١٩٦٢ ، ص ٤٧ .

شكيب أرسلان بإخاد الفتنة، التي انتهت بضرب بعض قرى حوران بمدافع الجيش^(٩٧). كما حاول جمال باشا الحصول على القمح، والمواد الغذائية، بوساطة بعض رجال الدين المسيحيين من الخارج، فخابر البطريرك الماروني الياس الحويك، كي يكتب تحريراً إلى البابا وملك اسبانيا، للمساعدة في إرسال مواد غذائية، لتوزيعها في لبنان بمعرفة وإشرافهما، (كانت اسبانيا محايدة)، وطلب من الدكتور بليس، رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت، أن يكتب بذلك إلى الرئيس ولسون، لنفس الغرض، وكانت أمريكا محايدة. وهي لما أعلنت الحرب على ألمانيا لم تعلنها ضد الدولة العثمانية^(٩٨). وجرت اتصالات كثيرة بين الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، بشأن السماح للسفن الأمريكية أن تتجاوز حصار الحلفاء للساحل السوري، كي توزع المواد الغذائية المحمولة بوساطة الصليب الأحمر الأمريكي، أو رجال الدين المسيحيين، كي لا تستفيد منها السلطة العسكرية التركية، وقد فرح الناس في سورية، لدى سماعهم بوصول سفينتين أمريكيتين إلى مصر في طريقهما إلى سورية، ونقصت أسعار البضائع، واستبشروا بالخير. لكن فرنسا رفضت مرورهما إلى سورية^(٩٩). وعندها كانت كارثة مروعة على الفقراء، إذ تابعوا طريق الموت. كما رفضت بريطانيا طلباً للبابا للسماح بإيصال الأغذية إلى المسيحيين في سورية، وكان البابا يريد أن يثبت لهم أنه لا ينسأهم، لكن السبب في منع إرسال الأغذية كان بسبب الحلفاء، وقد جاء في كتاب البابا لمندوبه في ميونخ بهذا الشأن «أن الخبر الأعظم لم ينسأ ولن ينسأ مسيحيي سورية، وأنه قد سعى مراراً بإغاثتهم وبأخذ الرخصة من الحلفاء، لأجل إرسال الأرزاق التي تخفف من أزمته، لكن انكلترا حالت دون تنفيذ رغبته هذه، ولذلك فقلب قداسته

(٩٧) المنار، ج ٣، ص ٢١١.

(٩٨) D. F. Aff. Etr, vol. IX (875), 14 Jan 1916, P. 45.

و F. O. 371/2480/ 25 Apr, PP. 342-343. وعزيز بك، ص ١١٤.

(٩٩) كانت السفينة الأمريكية تحمل المواد الغذائية التالية: ٥٠٠٠ كالون زيت قطن، ٨٢٥ ألف ليبرة طحين كامل، ١٠٠٠ علبة حليب مركز، ٢٠٠ ألف سكر، ١٣٦٤٠ كغ مواد غذائية وثياب، ١٨٠ ألف حبوب، ٩٨٠ ألف كغ طحين، ١٠٠ ألف قمح مكسر، ٣٠٠ ألف أرز، ٥٠٠٠ آلاف غالون كورنيز، صناديق كلورفورم وعلب غذائية.

D. F. Aff. Etr, vol IX (875), 14 Dec. 1916. P. 45.

محرواح من عمل انكلترا هذا، وسيعلم المسيحيون في الشرق فيما بعد، أن الحبر الأعظم لم يهملهم»^(١٠٠). وكانت الحكومة التركية تأمل أن يعامل الحلفاء سكان سورية وخاصة المسيحيين، كما اتفقوا (الحلفاء) مع ألمانيا، التي كانت تحتل بلجيكا، بإمداد البلجيكيين بالغذاء. لكنهم رفضوا ذلك، وهم مسؤولون بذلك عن عدم تخفيف كارثة المجاعة، وموت آلاف جديدة، كان يمكن أن يتقنوا. ومع كل ذلك فقد كانت بيروت باعتراف المسؤولين الأتراك، هي الضحية في قبول عملة الورق الخاصة بالجيش الرابع في سورية، كما ظلمت في الاعاشة ومستحقات الموظفين، والرشاوي وفي شبابها وأخلاقها وأعيانها^(١٠١)، وكانت الأسعار فيها تصل إلى أربعة أضعاف ما كانت في دمشق، وستة أضعاف ما في حمص^(١٠٢).

والسؤال، هل كان سكان لبنان فقط، هم الذين تعرضوا للمجاعة خلال الحرب وحكم جمال باشا، حتى يكون مسؤولاً بشكل مؤكد؟ الحقيقة تقول أن المجاعة أصابت أجزاء كثيرة من الدولة العثمانية، سواء في سورية، أو العراق، أو الأناضول، أو الحجاز، أو استانبول نفسها. ففي الموصل في العراق، أكل الناس لحوم البشر في المجاعة، وفي شرقي الأناضول مات الكثيرون من الجوع، وفي استانبول مات الكثير أيضاً من الجوع، وكان يوزع على الأغنياء خبز أسود لا يعرف نوعه. ولولا فتح رومانيا واستجلاب القمح لحدثت كوارث في الآستانة^(١٠٣). وكانت المجاعة لا تفرق

(١٠٠) سيرة ذاتية، ص ٢٣٥.

سألت وزارة الخارجية البريطانية في أبريل ١٩١٧ الحكومة الفرنسية، عن طلب البابا لتقديم مساعدات تقدر بمليون ليرة تدفعها الحكومة الإسبانية، ثم أعادت الطلب من جديد عن رغبة البابا بإرسال مساعدات لسورية، لكن الحكومة الفرنسية، وضعت مصاعب أمام الاعانات الأمريكية والإسبانية إلى سورية، بحجة الحصار البحري المضروب على الدولة العثمانية.

D. F. Aff. Etr, vol X (876), 14 Mar. 1917, P. 28. et 16 Avril 1917 P. 211. et 8 Avril 1917,

P. 181.

(١٠١) عزيز بك، ص ٢٨٨.

D. F. Aff. Etr, vol. VII (873), 18 Jui. 1916, P. 60. (١٠٢)

(١٠٣) المنار، ج ٥، ٣٧٥-٣٧٦.

ذكرت جريدة المستقبل التي كانت تصدر في باريس في تلك الفترة، أن الناس كانوا يجمعون أرثالاً طويلة

←

بين الأديان والمذاهب . وذكرت جريدة الهدى التي تصدر في نيويورك في أبريل / نيسان / ١٩١٧ ، أن حمص فقدت عشرة آلاف من الجوع ، منهم ٦٠ ٪ من النساء والأطفال ، وأن طرابلس فقدت نصف سكانها وقرية لم يبق بها ساكن واحد^(١٠٤) . وفقدت قرية القلمون في سورية ، وهي مسلمة ، ثلثيها من المجاعة ، وأن ٦٢ ألف درزي في لبنان قد أصبحوا ٤٨ ألفاً ، كما كان الآلاف من الجيش والناس يموتون في حلب وحمص وحماه ودمشق^(١٠٥) . ومهما يكن فقد كانت المجاعة نتيجة للحرب والحصار والجراد والقحط و حكم جمال باشا لسورية أو خلال حكمه .

→ حول أبواب الأفران للحصول على كسرة خبز في استانبول ، وكان ذلك من أشق الأمور .

عن جريدة المستقبل ، باريس ، عدد ٢١٨ ، ٢٥ أبريل / نيسان / ١٩٨١ .

D. F. G. 7N, 1939, 2° Bureau 1914-1918. 25 April 1916. (١٠٤)

La nation Arabe, No 10-11, Nov.-Dec. 1913, PP. 54. (١٠٥)

الفصل الثامن

**الاتفاقات الانكليزية - الفرنسية
والانكليزية - العربية
الخاصة بسورية**

اتصال بريطانيا بالشخصيات العربية

كانت بريطانيا على علم، بأن بعض الجمعيات العربية والقيادات، تتحرك سراً ضد حكم الاتحاديين، وإن لم تكن على معرفة دقيقة بهذه التنظيمات والحركات، لأن وثائقها تخلو من هذه المعلومات. وقد قدرت أن أسباب اعتقال عزيز المصري هي سياسية — وليست اختلاس أموال كما ادعى الاتحاديون — وقد تدخلت من أجله، لأن ذلك كان يمكن لها ويقوي مركزها في مصر، ولدى تلك التنظيمات العربية. كان ذلك عام ١٩١٣، وفي السنة التالية ١٩١٤، اتصل الشريف عبد الله بن الحسين، بعد أن ساءت علاقة والده الحسين شريف مكة بالاتحاديين، بالانكليز في مصر عن طريق كتشنر وستورز، سكرتير المفوضية الانكليزية، طالباً دعم الانكليز لوالده بالسلاح، في حالة قيام حرب بين والده وتركيا، لكن بريطانيا لم تعده بشيء لأنها كانت على صداقتها بالدولة العثمانية^(١).

قامت الحرب العالمية الأولى في أوت / آب / ١٩١٤، وإدراكاً من بريطانيا بقيمة تحالف مع العرب ضد الأتراك في هذه الحرب، أعادت الاتصال مع عبد الله وأبيه في اليوم التالي لهذه الحرب. ونحن هنا لن نخوض في هذه الاتصالات إلا بما يخص

(١) مذكرات عبد الله بن الحسين، ص ٨٠ — ٨١، رونالد ستورز، مشرقيات (Orientations) لندن، ١٩٤٥، ص ١٢٢ — ١٢٣، و Gooch, vol X, Part 2, P. 827.

سورية، أو بما اشترك به السوريون. لكن ما عرف بمراسلات الحسين — مكماهون بدأت فعلاً في ١٤ جوييه / تموز / ١٩١٥ وانتهت في ١٠ مارس / آذار / ١٩١٦، مع أن الاتصالات بين مكماهون والحسين بدأت في ففريه / شباط / عن طريق وينجت (Wingate) المفوض السامي البريطاني في السودان، وعلي الميرغني وهو زعيم ديني في السودان.

لكن بريطانيا لم تقتصر على مفاوضات الحسين من العرب، بل أخذت تنشط، لتضم إليها أكبر عدد من الزعماء العرب، والأمراء، والمشايخ، والأشخاص القيادين القوميين، بعد إعلان الحرب، برغم أن تركيا لم تكن قد دخلت تلك الحرب، لكن بريطانيا والحلفاء كانوا يقدرّون، أنها حالما تستكمل استعداداتها فإنها سوف تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا وحلفائها. وخلال تلك الفترة ما بين إعلان الحرب وبداية مراسلات الحسين مكماهون، أجرت بريطانيا اتصالات مع العرب، لأنها كانت تعتقد أن لصداقة الشيوخ العرب في الخليج، وفي الجزيرة العربية (ابن سعود)، وأمير عسير، تأثيراً على العمليات العسكرية، واعتمدت على ضباطها البريطانيين أمثال شكسبير في الجزيرة في تنفيذ هذه المهمة، وإقامة الصداقة مع هؤلاء العرب. وأبلغ ادوارد غراي وزير الخارجية البريطانية حكومة الهند، أن القوات البريطانية لن تهاجم الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية — تمشياً مع سعيها لنيل صداقة العرب — وكانت تعتقد أن ذلك سيكون من خطة حليفتها فرنسا وروسيا، فيما إذا دخلت تركيا الحرب^(٢). وبرغم أن موقف الأمراء العرب في الجزيرة والخليج، كان ميالاً للانكليز — ما عدا ابن رشيد أمير حائل الذي كان صديقاً للأتراك — فإن ابن سعود تظاهر بسياستين انكليزية وتركية، ولهذا أرسل شيتام Cheetham، القنصل البريطاني في

مصر، إلى حكومته في سبتمبر / أيلول / ١٩١٤، أن ابن سعود وقف مع الأتراك، ووعدهم بإرسال قوة إلى سورية^(٣). وكان وعده في الحقيقة ظاهرياً.

واتصلت بريطانيا بعزير المصري في القاهرة، للضغط عليه من جهة، بعد أن علمت أنه يجرّض الشعب المصري، وللإستفادة منه من ناحية أخرى. وكان الكولونيل جلبرت كلايتون، مسؤول المخابرات السياسية والعسكرية البريطانية في القاهرة، ومعتمد السودان فيها أيضاً، والمستر رونالد ستورس، السكرتير الشرقي لدار الاعتماد البريطانية في القاهرة، يقومان بالاتصالات مع العرب فيها. وكان رأي عزير المصري كما نقله الكاتب Russell في حديث معه في أوت / آب / ١٩١٤، أنه يجب أن تؤسس دولة عربية متحدة مستقلة عن تركيا وعن أية قوة أخرى. وحدد الدولة بشبه الجزيرة العربية وسورية والعراق حتى حدود تركيا. وكان يعتقد أن المسيحيين والدروز في سورية يؤيدون ذلك، وأن على بريطانيا أن تقدم المساعدة المالية والعسكرية^(٤). وكان رأي ادوارد غراي، وجوب دعم الحركة العربية وتشجيعها بكل وسيلة ممكنة، وإعطاء عزير المصري ألفي ليرة إذا كان ذلك موجباً — كما يقدر شيتام في القاهرة —، كي يبدأ عزير بالعمل بين العرب^(٥). لكن عزير المصري رأى أن يتصل الانكليز بطالب النقيب في العراق، أو بنوري السعيد، الذي يقدر على التحرك من العراق، لأنه كان يرى أن العمل ممكن فيه^(٦). لكن حكومة الهند البريطانية لم تكن مرتاحة لاتصال الانكليز بالقاهرة بهؤلاء العرب، ولا تعتمد على مساعدتهم أو التعاون معهم، بل كانت تعتمد على الفتح والاحتلال العسكري. ولهذا وصف كوكس المعتمد البريطاني في البصرة، نوري السعيد، بعد مقابلته فيها، بأنه خيالي وغير عملي، وهدفه رفع الأمة العربية إلى المكان العالي، وأنه يعتمد على إثارة القبائل العربية، وقلب الضباط العرب في الجيش

(٣) Ibid, 371/2140/ No 167 (21 Sep. 1914).

(٤) F. O. 371/2140/ No 143, 24 Aout 1914. et No 46261, 14 Sep. 1914.

(٥) Ibid, No 347, 14 Nov. 1914.

(٦) Ibid, No 274, 16 Nov. 1914. Tele. from Cheetham (Cairo)

ومقابلة بين عزير وكلايتون في ٣٠ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٤. Ibid, P. 187.

العثماني^(٧). ولذلك أسرع كوكس بإخراج نوري من العراق وإرساله إلى مصر. كما أرسلت حكومة الهند إلى شيتام بالألا يشجع عزيز المصري، لأن أصدقاءه في العراق قد ذهبوا إلى ابن سعود من أجل الحركة العربية^(٨). وبالمقابل أظهر عزيز المصري وأصدقائه الشك ببريطانيا ونواياها، إن كان في القاهرة أو في بغداد^(٩). لكن الانكليز كانوا مقتنعين أن آراء عزيز القومية، تشبه آراء الشريف حسين وبقية القادة العرب، الذين هم على اتصال مستمر بالحكم المصري^(١٠)، وهذا كان مشجعاً للاستمرار بالاتصال بالشريف حسين، لأنه كان أعمهم فائدة طالما لا تختلف آراؤهم عنه.

أما طالب النقيب، فقد كان يشك الانكليز بثبات نواياه، واتجاهه الذي كانوا يعرفون تقلبه من خلال علاقته مع الدولة العثمانية وخاصة الاتحاديين. ومن هذه الأفكار الانكليزية عنه، تلك التي أرسلها المسؤول الانكليزي في المحمرة، من أن طالب النقيب قد تقدم باقتراح معدل إلى الانكليز في البصرة، بأن يُعيّن هو حاكماً على هذه المدينة، حتى يتمكن من تأسيس حكومة فيها — تحت أنظار البريطانيين — مقابل ٢٠٠٠ جنيه في الشهر، أما بقية دخل البصرة فيذهب للانكليز «وحتى نتجنب نشاطه ضدنا يبدو من الحكمة أن نبقه في اللعبة إذا أمكن»^(١١). لكن برسي كوكس، المقيم السياسي في الخليج ورئيس الضباط السياسيين في الحملة الهندية، أسرع إلى نفيه إلى الهند بعد احتلال القوات الانكليزية للبصرة، لأنه ربما اشترط الاعتراف ببعض حقوق العراق مقابل تعاونه مع الانكليز، وبقي منفياً حتى سنة ١٩١٧، حين التمس الشريف حسين له العودة، فجاء إلى البصرة^(١٢). كما رفض برسي كوكس

Ibid. P. 198, 8 Dec. 1914. (٧)

Ibid, P. 200. 18 Dec. 1914. (٨)

Ibid, P. 188, 27 Nov, 1914. (٩)

Ibid, P. 234, 13 Dec. 1914. (١٠)

Ibid, 371/2144/ No 5, 2 Nov. 1914. (١١)

(١٢) سليمان موسى، الحركة العربية، ص ١٦٢، عن مذكرات سليمان فيضي، ص ٢٤٣.

مكوث عبد الرحمن الشهنندر في البصرة التي فر إليها مشياً على الأقدام في رحلة دامت ثلاثة أشهر، وأرسله ليلحق برفاقه في القاهرة عام ١٩١٥ (١٣).

أما بالنسبة للسوريين القاطنين في مصر، فقد اتصلت بريطانيا بهم عن طريق ستورس، وكان هؤلاء السوريون يشكلون سياسياً حزب اللامركزية، وكان قاداته رفيق العظم ورشيد رضا واسكندر عمون. وسأل ستورس هؤلاء في بداية الحرب — بصفتهم قوة سياسية عربية — عن خططهم وآرائهم، فكان الجواب أنهم على استعداد لتأييد كل جهد يرمي إلى استقلال العرب، ثم كتبوا شروطهم الخاصة بهذا الاستقلال، فإذا وافقت بريطانيا عليها، سعوا إلى إشعال الثورات العربية في كل مكان في البلاد العربية. لكن لندن أعادت هذه الطلبات بعد أن شوهت وبترت كثيراً مما جاء في الشروط، فرفضها اللامركزيون وامتنعوا عن العمل. هذا ما كتبه أمين سعيد في كتابه الثورة العربية ونقله أيضاً سليمان موسى^(١٤). لكن الوثائق البريطانية تذكر، أن بعض قادة الحركة العربية في القاهرة، قد سألوا دائرة الاستخبارات فيها عن موقف بريطانيا إذا دخلت تركيا الحرب، ولقد أبلغتهم بريطانيا، وطلبت منهم إرسال وكلاء خاصين من اختيارهم للاتصال بالزعماء العرب في سورية وفلسطين، مع مبلغ من المال لاستعمال هؤلاء الوكلاء أو الموفدين. كما نصحتهم بريطانيا ألا يقوموا ضد بعضهم وضد مصالحهم فيما بينهم. أما هم فقد كانوا يريدون من بريطانيا دعمها حتى يستطيعوا أن يحكموا أنفسهم. ويطلبون أيضاً وضع خطط لتنفيذ ذلك، وفي حالة الحرب فإنهم يطلبون السلاح والذخيرة. هذا ما أرسله شيتام من القاهرة إلى لندن، ويضيف أنه تم إرسال وكلاء إلى بيروت، من أجل دمشق وحلب وحمص وحران، ووكلاء إلى الخليج «الفارسي» والعراق وابن سعود، ووكلاء إلى جدة ومكة والحجاز وإلى جنوب شرق فلسطين، وسيرسل أيضاً وكلاء إلى إمام اليمن والإديسي أمير عسير. ثم ذكرت الأسماء: محب الدين الخطيب وعبد العزيز العتيقي^(١٥).

(١٣) سليمان موسى، الحركة العربية، ص ١٦٣.

(١٤) نفس المصدر، ص ١٦٠، أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، صص ١٢٨ — ١٢٩.

(١٥) F. O. 371/2140/ No 223, 26 Oct. 1914. et No 238, 28 Oct. 1914.

ويذكر أمين سعيد هذه الحادثة بصورة أخرى بكتاب أسرار الثورة العربية، عن طريق اتصاله الشخصي مع بعض هؤلاء القادة، بأن الشيخ رضا كان هو من اتصل به الانكليز قبيل الحرب، وطلبوا منه إرسال موفدين، فأرسل الخطيب، والشيخ محمد القلقيلي، والشيخ عاصم رضا ابن عمه، وأنه أخذ من الانكليز ألف جنيه نفقات هؤلاء. أما الخطيب فقد اعتقله الانكليز في البصرة، فاستنجد برشيد رضا فاتصل هذا بالانكليز فأفرج عن محب الدين الخطيب، وعاد إلى القاهرة، أما القلقيلي فلم يجرؤ على النزول من الباخرة في بيروت، ثم عاد إلى القاهرة. ولم يسافر عاصم بسبب المصاعب^(١٦). ويذكر سليمان موسى في كتابه الحركة العربية وبتأصيل شخصي ألا علاقة للانكليز بسفر هؤلاء إلى بلاد العرب، وأن القلقيلي ليس من حزب اللامركزية أصلاً^(١٧).

ورغم الآراء السابقة للانكليز عن رشيد رضا، التي عبر عنها E. Gorst المعتمد البريطاني في مصر سنة ١٩١١، بأن رشيداً صديق للشيخ علي يوسف، محرر جريدة المؤيد القاهرية، وأن الأخير عضو في لجنة رشيد رضا، وبذلك يكون رأي الانكليز مقبولاً برشيد، لأن علي يوسف مقرب وصديق خاص للخديوي، ولأن أفكار رشيد رضا التي ينشرها في مجلته المنار غايتها نشر الاسلام والتصدي للرساليات المسيحية في الهند وسنغافورة والخليج...، وأن القنصل البريطاني في القاهرة يؤيد هذا الرأي^(١٨). ولا شك أنه تأييد من باب سياسة صداقة بريطانيا للمسلمين السوريين توازن سياسة فرنسا المسيحية في سورية — وسنعود لشرح هذه المسألة —. على رغم هذه الآراء، وعلى رغم محاولة الانكليز للاستفادة من رشيد رضا بعد الحرب، فلم تكن مرتاحة لآرائه وخاصة أثناء مباحثات سايكس — بيكو التي انتهت في القاهرة. فقد اعتبره مارك سايكس. صاحب الأسم المعروف في اتفاقية سايكس — بيكو، أنه «متعصب للاسلام، وأن الانكليز يخافون الاسلام، وأن حكمهم في الهند ومصر لا

(١٦) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الحسين، ص ٣٩.

(١٧) سليمان موسى، المصدر السابق، ص ١٥٩.

(١٨) F. O. 371/1244/ No 5012, 14 Feb. 1914.

يستحق العرفان ، وأنه يطالب بدولة عربية مستقلة في جزيرة العرب وسورية والعراق . وكان من رأي سايكس أن القوة هي الأسلوب الوحيد في الجدل ليفهمها مثل هؤلاء . ويبدو أن سايكس قد عبر عن أسلوب أحد الغزاة ، لأن رشيد رضا وصف حكم الانكليز بالغزاة . وهذا عامل آخر جعل الانكليز يتجهون أكثر نحو الشريف حسين ، ولأن رشيد رضا ذكر أيضاً بأن الشريف حسيناً يجب أن يحكم الجزيرة العربية بمحدودها الشمالية سورية والعراق^(١٩) .

ويؤكد هذا الموقف السوري في مصر الذي لم تلب بريطانيا شروطه — وإن كان في البداية — موقف حزب العربية الفتاة السرية في سورية نفسها من سياسة الانكليز ، إذ لما علم رجال العربية الفتاة باتصال الانكليز بإخوانهم قادة حزب اللامركزية ، سافر محمد المحمصاني إلى القاهرة في أوت / آب / ١٩١٤ ، وعلم بما دار ما بين حزب اللامركزية والانكليز ، وعاد إلى بيروت وأخبر زملاءه في حزب الفتاة . فعقدوا اجتماعاً سرياً انتدبوا فيه الشيخ كامل القصاب ، عضو الجمعية المذكورة (الفتاة) ، وسافر إلى مصر ، فاعتقله الانكليز في الاسكندرية لشكهم فيه ، لكنه أطلق سراحه بتوسط رفيق العظم ورشيد رضا . وعلم أنه لم يجر أي اتفاق بين القادة العرب السوريين وبين الانكليز . وكان القصاب قد أبلغ زملاءه في مصر عن موقف العربية الفتاة ، وأنها لا ترضى إلا بالاستقلال التام للعرب^(٢٠) ، وهو دليل آخر على اتجاه الانكليز نحو

(١٩) Ibid, 371/2490/ Cairo 14 Jui. 1914.

(٢٠) أسرار الثورة العربية ، ص ٣٨ — ٣٩ .

جاء في تقرير سايكس عن رشيد رضا مايلي « يعمل للحركة العربية والاسلامية ، وهو متعصب للاسلام ومن آرائه أن يجعل الاسلام قوة سياسية على أكبر مساحة ممكنة بقدر ما يستطيع ، وهو يعتقد أن الانكليز يخافون من الاسلام ، وأن السياسة الانكليزية الأولى والقديمة كانت تقوم على تلين (تهدة) أفكار المسلمين وكسب صداقتهم ومقاصدهم . وهو متحفر ، ومرفقه هو أن سقوط القسطنطينية ينهي السلطة العسكرية التركية ، لكن يجب إيجاد دولة مسلمة لتحفظ الكيان الاسلامي ، وقال بأن الاتحاديين وغيرهم ليسوا مسلمين ، وأن تركيا في أعين المسلمين تحفظ استقلال المسلمين ، وليس لسلوك هؤلاء الشخصيات الاتحاديين تأثير على فكره . وعندما ينقد سلوك لجنة الاتحاد والترقي ، فلأنها هي معرضة للهجوم وخسارة القوة ، وقال بأنه عندما تسقط تركيا ، فإن الاسلام يتطلب بشكل مطلق ، قيام دولة عربية مستقلة بما فيها سورية والعراق ، تحت حكم الشريف — حسين . ويعتقد أن حكم الانكليز لمصر



الحسين . وبسبب هذه الزيارة ، اعتقل جمال باشا القصاب ، وقدمه لمحاكمة عالية ، وحقق معه شخصياً لكن القصاب أقنعه ، بأن رحلته هذه لمصر هي واحدة من رحلاته السنوية المعتادة ، حيث يجلب الكتب لمدرسته في دمشق ، ولهذا أطلق سراحه بعد ٢٧ يوماً من السجن الانفرادي^(٢١) . ثم تمكن من الهرب من سورية إلى الحجاز ومصر ، بينما أعدم محمد الحمصاني .

وفي ففريه / شباط / ١٩١٥ كتب رشيد رضا مذكرة فيها تلتطف وأمل بالسياسة البريطانية ، وفيها تذكير أن بريطانيا ستربح كثيراً بين ملايين العرب والمسلمين ، إذا ساعدت العرب على الحصول على استقلال بلادهم ، وتربح أكثر إذا حققت ذلك ، ولم تدع بلاد العرب تسقط تحت ما يسمى بالحماية أو الاحتلال ، وأنه لا يجوز الشك في سياسة بريطانيا التي أعلنت عن دعمها للعرب ، وأن العرب في سورية والعراق هم جاهزون لتأسيس حكومات مستقلة على مبادئ اللامركزية أو الاتحاد ، وسوف تحافظ هذه الحكومات على حضارة العرب في سورية والعراق . ويذكر أخيراً أن بريطانيا — عندما تساعد العرب — هي أقوى وأفضل دولة من بين الدول الأخرى المتنافسة ، بسبب تقاليدها ومصالحها في البلاد العربية . وجدير بالذكر أن رشيد رضا يذكر في هذه المذكرة ، الاتصالات الرسمية التي جرت بينه وبين ممثلي الحكومة الانكليزية في القاهرة ، التي ذكر فيها بعض الحقائق في القسم الأول — ربما يعني تقرير سايكس — والتي اعتبرها سايكس دليلاً ضد الاتصال به ، لكنه رغم ذلك لا يفقد الأمل ببريطانيا^(٢٢) .

→ والهند لا يستحق العرفان ، وأن الاسلام في الواقع هو عالم مستقل ، وأن المسلمين يقدرون أن يصفوا حكم الانكليز كغزاة ، وأنه مالم توافق بريطانيا على وجهة نظر المسلمين ، ستجد نفسها معرضة لخطر كبير من التحالف بين الفكر الاسلامي وألمانيا ذات القوة الكبيرة ، التي تملك قوة مادية وسياسية . تقدر على خدمة الحرب والنصر ، وأن العرب يستطيعون تنظيم أمورهم بسرعة ... وليس لرشيد رضا أتباع كثيرون ، لكن أفكاره ترضي جماعة العلماء العرب ، وليس من الممكن الاتفاق مع شعب يحمل هذه الأفكار ، وأن القوة هي الجدل الوحيد ليفهمها مثل هؤلاء .

(٢١) أمين سعيد ، المصدر السابق ، ص ٣٩ ، سليمان موسى ، ص ١٦٠ .

(٢٢) نص المذكرة في الملحق في F. O. 371/2480/ No 004866/ 15 Fev.

وبريطانيا نفهسا ضدمت هذه المجموعة القومية من السوريين في مصر ، عندما أعلنت في ١٨ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٤ عن وضع مصر تحت حمايتها رسمياً ، إذ اعتقدت (مجموعة السوريين) ، أن ادعاء بريطانيا من أنها لم تحض الحرب إلا من أجل تحرير الشعوب ، ليس إلا خداعاً وتضليلاً ، وبلغ الأمر أن بعض هؤلاء قد فكر بمغادرة مصر والسفر إلى استانبول للكشف عن غايات بريطانيا ونواياها الحقيقية ، حتى لا يُخدع العرب في سورية والعراق بوعود الحلفاء^(٢٣) .

ومن الاتصالات الخطيرة التي أجرتها بريطانيا مع السوريين — كما يذكر تقرير لوزارة الحرب البريطانية — اتصال مع الضباط العرب السوريين المرابطين مع قطعاتهم العسكرية التركية ، للقيام بحركة عسكرية مسلحة في سورية ضد تركيا ، عندما يقوم الانكليز بإنزال قواتهم في الاسكندرونه . ذكر هذا التقرير الهام أن «التنظيمات السرية قامت بين الضباط العرب الصغار في الجيش العثماني ، لأنه لم يعد من وجود للضباط الكبار أمثال جعفر . وشكل هؤلاء الضباط لجنة أقسمت اليمين على الخطة . وتعتبر ألوية الموصل وبغداد — أي الوحدات العسكرية ، والوحدة منها لواء — أكثرها فعالية ، ومنها فرق في سورية والحجاز واليمن ، وهناك مدنيون لكن تأثيرهم أقل . وكانت الخطة الأولى هي توقع انزال عسكري انكليزي في الاسكندرون . وكان أمين لطفي بك — أعدم جمال باشا ضابطاً باسم أمين لطفي الحافظ وهو نفسه — (ضابط في الجيش العثماني من سورية) مكلفاً من قبل القائد التركي فخري ومن جمال باشا بحماية الخليج ، وقد نظم أمين أسلحته بشكل تصبح فيه عديمة الجدوى ، كما نظمت ألوية الموصل وحمص المتمركزة ما وراء جبال الأمانوس ، كي تقوم بمساعدتنا (الانكليز) ، حالما نصل إلى الاسكندرون ، ومن ثم تذهب القطعات العسكرية العربية لتحل محل التركية في سورية ، وكان هؤلاء الضباط يفتشون عن قائد لهم أو زعيم مؤقت في سورية . وليس لهؤلاء الضباط قوة في الحجاز . لكن سيكون الشريف أو الخليفة في المستقبل في الحجاز جزءاً من هذه الخطة . لكن الخطة فشلت بسبب فشل البريطانيين في النزول

(٢٣) أسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، ص ٧٧ .

إلى الاسكندرون — بسبب معارضة فرنسا — وانقطاع البرقيات جعل فرسان الأكراد في لواء الموصل ينفذون الخطة ويستعدون، إلا أن لواء الموصل نقل من سورية. وكل هذا كان سبباً في تقسيم اللواء ٣٦. أما في حلب فقد عملت اللجنة المنوط بها العمل بجد كبير، لاقتناع كل رجالها بالذهاب إلى الصحراء، إلى قبائل عنزة ونوري الشعلان، وكان لهذه اللجنة صلات بابين سعود والادريسي والامام يحيى في اليمن الذين وعدوا جميعاً بالمساعدة، مع الاحتفاظ باستقلالهم عند تنفيذ الخطة وقلب الحكم في سورية. وتبين أن اللجنة المذكورة. كانت تضم أعضاء من أكبر عائلات سورية والعراق ..» (٢٤).

وكانت الكتب تصل إلى المسؤولين الانكليز من بعض زعماء الطوائف في سورية كالاسماعيلية والمسيحيين لمساعدة بريطانيا في حربها، وتطلب أيضاً مساعدة لسورية^(٢٥). وكانت التقارير البريطانية تقدر قيمة دعم الشيعة في بغداد وإيران والهند

(٢٤) تقرير سري في الـ W. O. (وزارة الحرب البريطانية) F. O. 371/2490/ No 139665, 28 Sep. 1915. انظر الملحق.

أكد مختار الصلح (أحد الوطنيين من لبنان) قصة الحركة العسكرية فذكر «نضجت الأفكار للثورة في سورية والجزيرة العربية منذ أكثر من أربعة أشهر، (تاريخ كلامه في نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٥) وقد أسست الجمعيات السرية من الوجهاء في سورية، وكان هؤلاء الرجال مستعدين للانفاس حول أي إنزال في سورية، من أجل قيام حركة فيها من أجل استقلال سورية، وانتشر مندوبو اللجان بين القبائل العربية لهذه الغاية، وكان منهم سامي الصلح المستشار القانوني لشركة خط بغداد، وأخوه مختار الصلح. وكان هاجم (مجمع) بن مهيد أحد الشيوخ الذين وصل إليها المندوبون.

— مقابلة بين مختار الصلح نائب سابق في مجلس المبعوثين والكونوليل البريطاني بيكو (Pico) في سفارة بريطانيا في سويسرا. F. O. 371/2491/ No 404.

— وجاء في كتاب سليمان موسى، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى تأكيد أيضاً لهذه العملية العسكرية المبكرة التي كان الحسين داخلاً فيها فقال «كان الحسين قد قرر في مشروعه الأصلي للثورة، أن تقوم في وقت واحد في سورية والحجاز ويرافق ذلك نزول حملة من الحلفاء في خليج اسكندرون، حتى يقسم الأتراك إلى قسمين يسهل القضاء عليهم جنوب طوروس، ثم تمتد الثورة إلى الشرق في العراق، لكن رفض الحلفاء لانزال الحملة خوفاً من تكرار فشلهم في غاليلوي، وابعاد الضباط والجنود العرب من سورية، جعل الحسين يقود الثورة في الحجاز وحده».

عمان، دار النشر والتوزيع ١٩٥٧، ص ٧٨. Ibid, 371/2147/ No 80752. 9 برقية من أغاخان زعيم الاسماعيلية يضع بها أتباعه لمساعدة بريطانيا.

(٢٥)

Dec. 1914.

ورسالة من جمعية النهضة اللبنانية في البرازيل. Ibid, No 4801, 1 Dec. 1914.

الذين يبلغون ١٧ مليوناً، لكن برغم ذلك، وبرغم كل الاتصالات بالشخصيات العربية والسورية والطائفية المسيحية والاسلامية مما ذكرنا، استقرت أخيراً على الاتصال بالشريف حسين أمير مكة، وظلت اتصالاتها مع الزعماء السوريين على هامش علاقة بريطانيا بالحسين، دون أن تعتبرهم طرفاً رئيسياً في المفاوضات، أو دون أن تقيم معهم مفاوضات خاصة بهم أو بسورية، برغم التقارير التي كانت تحدد سورية كأحسن مكان تقوم فيه حركة عربية ضد الأتراك، لأن ذلك كان يتطلب انسجاماً خاصاً مع فرنسا^(٢٦).

أما لماذا اتبعت بريطانيا هذه السياسة التي مكنت لها في الواقع كسب الزعامات العربية، وحتى زعامات الحركة القومية العربية، أمهادنتها على الأقل، مع أنها أي بريطانيا قد أساءت للعرب في قضية الانتداب ووعده بلفور في فلسطين، إساءة لا تنسى ولا تغتفر، على عكس فرنسا، التي كانت إساءاتها أقل، لكنها حولت كل العرب إلى أعداء لها في هذه الفترة وما بعدها، وحتى الحرب العالمية الثانية وما بعدها؟ ويمكن إجمال السياسة البريطانية واتصالها بالشريف حسين بالأسباب التالية:

١ — لم تفاوض قادة إقليميين، أو قطريين، أو طائفيين، أو أقليات، لأنها كانت تعلم أن حركة القومية العربية كانت — في سرها وعلنها — في ذروتها، وتبني آمالها على قيام دولة عربية واحدة مستقلة، وإن معاداة هذه الحركة ليس من الحكمة.

٢ — تعاملت بشخص الحسين مع الأكثرية العربية المسلمة السنية، ولذا وضعت جانباً الاعتماد على الشيعة أو المسيحيين أو الطوائف الأخرى.

٣ — كانت تعلم أن الحركة القومية العربية كانت على صلة بالشريف حسين، وتعلم أن هذه الحركة تقبل بزعامة الحسين، ولذا فإن الاتصال بالحسين يرضي الحركة القومية لأنه بدوره يعتبر اتصالاً معها.

٤ — يحقق الحسين والعرب لدى تحالفهم مع بريطانيا، دعماً كبيراً لها في حربها ضد

(٢٦) مذكرة من فيتزماوريس (Fitzmaurice) أحد موظفي السفارة البريطانية في استانبول. في ١٣ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٤. Ibid, 371/2140/ PP.62-65.

ألمانيا وتركيا الاتحادية عدوة العرب ، وهذا الدعم استراتيجي ومادي ومعنوي ،
فالحسين ذو سلطة ويتكلم باسم شعب .

٥ — يفشل دعوة الجهاد الديني من قبل الأتراك ، وما مثل الشريف حسين شريف
مكة سليل بيت النبوة يحقق ذلك ، فلا الشيعة ولا المسيحيون قادرين على فعل
ذلك .

٦ — إرضاء العرب المسلمين بإعادة الخلافة الإسلامية لهم ، وهذا لا يكون بإعادة
الخلافة إلا لمسلم سني .

٧ — قد يهدىء من تأثرة المسلمين الهنود والمصريين المتعاطفين مع الدولة العثمانية ،
خاصة وأن عدداً كبيراً من هؤلاء المسلمين كانوا يخدمون في جيشها .

٨ — لم تعتمد بريطانيا في سياستها النظرية أو الكلامية على ما يغضب العرب ، فلم
تكن تنكر على السوريين عروبتهم أو قوميتهم العربية ، ولم تكن تعتبر سورية
خارجة عن المنطقة العربية .

٩ — لم تدع أن لها حقوقاً خاصة مفضلة لدى بعض الأقليات ، أو أنها تحمي فئة على
حساب أكتية الشعب ، ولم تدع أيضاً حقوقاً تاريخية في سورية منذ الحروب
الصليبية مع أنها اشتركت في هذه الحروب ، مثلما اشتركت فرنسا ، مع العلم
أنها كانت تستطيع الادعاء فلها فئات مسيحية تتعاطف معها ولها طوائف دينية
مسلمة أيضاً تتعاطف معها ، وكان اليهود متعاطفين معها بشكل أخص .

١٠ — ادعت أنها تريد مساعدة العرب لتحريرهم من الأتراك ، وتأسيس دولة مستقلة
عربية واحدة ، ولم تظهر نواياها في استعمار البلاد العربية .

١١ — كانت تعلن احترامها للأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز ، وتعلن أنها لن
تتدخل مطلقاً في هذه المنطقة ، وبهمها أن تبقى هذه البلاد قادرة على استقبال
رعاياها من المسلمين في الهند وغيرها لمواسم الحج^(٢٧) .

Ronald Wingate, Wingate of the Sudan, London, 1955, P. 168. (٢٧)

Gooch and Temerley, vol, Part 2, P. 830. و

لقد تطلبت سياسة بريطانيا دهاءً كبيراً وتلوناً وتفسيرات وتبريرات ونقضاً وتناقضاً، حتى تصل إلى هدفها الحقيقي في الاستيلاء على البلاد العربية أو بعضها، ونيل حصتها من بقايا الدولة العثمانية التي حان عقابها لدخولها الحرب إلى جانب ألمانيا، كما صرح بذلك لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني وجريدة Daily News في ١٩١٤/١١/٣١ (٢٨).

مراسلات الحسين - مكماهون

كنّا ذكرنا سابقاً أن مفاوضات بريطانيا الرسمية مع الحسين بدأت في منتصف جويلية / حزيران / ١٩١٥ وانتهت في ١٠ مارس / آذار / ١٩١٦، وهي مراسلات بين الحسين شريف مكة ومكماهون المفوض السامي البريطاني في مصر، وعددها عشر رسائل (٢٩)، تبودلت خلال ١٨ شهراً. وسنبحث في هذه الرسائل ما يخص قضية سورية.

في الرسائل الأولى للحسين بتاريخ ١٤ يوليو / تموز / ١٩١٥، طلب من بريطانيا أن تعترف باستقلال البلاد العربية، من أضنه حتى الخليج الفارسي شمالاً، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً. يستثنى من

(٢٨) زين نين، الصراع الدولي، ص ٥٩.

(٢٩) نشرت هذه الرسائل سنة ١٩٣٩، وكانت سبعاً وهي ٢، ٤، ٥، ٦، ٧، ٩، ١٠ أما ٣، ١ وهما من الحسين و ٨ من مكماهون فلم يعثر عليها في الوثائق البريطانية. وكل الرسائل هي ترجمة عربية للنص الانكليزي، أما النص الانكليزي نفسه فغير موجود (الذي أرسله مكماهون) ونشرت في (Cmd) تحت رقم ٥٩٥٧ وهي موجودة في أجزاء أخرى مثل F.O. 371/2768 وموجود في مؤلفات عربية كأسرار الثورة العربية لأمين سعيد وأخذت عنه النص العربي. من أجل مفاوضات الحسين - مكماهون وسياسة بريطانيا تجاه العرب انظر:

Aaron. S. Kliemen, Foundations of British policy in the Arab world and the Cairo Conference 1921, Baltimore 1970, PP. 7-17.

وانظر نصوص المراسلات في عبد العزيز الشناوي وجلال يحيى، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، مصر، دار المعارف، ١٩٦٩، ص ٨٠ - ١٢٤.

ذلك عدن التي تبقى كما هي . ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سيناء غرباً . وهناك شروط للتحالف وللخلافة الحسين على المسلمين .

والجدير بالذكر أن حدود هذه الدولة العربية وهي تضم سورية بما فيها فلسطين ، لم تكن من صنع الحسين ، وإنما أرسلها رجال الحركة الوطنية في دمشق سراً إلى الحسين ، وتبناها هو — وسنعود لبحثها في الفصل القادم — .

رد مكماهون في ٣٠ جوييه / تموز / ١٩١٥ ، يؤكد اعتراف انكلترا باستقلال البلاد العربية وسكانها ، وأن يكون الخليفة عربياً — عندما تعلن الخلافة — وتطميناً للحسين جاء في الرسالة « وأن حكومة صاحب الجلالة تميل إلى أن يكون الخليفة عربياً عريقاً في عروته » . وهو عريق في العروبة . لكن بريطانيا أغفلت أهم طلب تقدم به الحسين ، وهو قضية اعتراف بريطانيا بحدود الدولة العربية المستقلة التي تعترف بها بريطانيا ، وكان هذا الاغفال بحجة قصر الوقت وطول البحث « أما ما يتعلق بالحدود ، فقد يكون بحثنا في مثل هذه التفاصيل ، والوقت قصير والحرب قائمة ، سابقاً لأوانه ، وخاصة أن تركيا لا تزال تحتل جزءاً كبيراً من الأراضي التي أشرتم إليها في اقتراحكم احتلالاً تاماً » .

وإذن أين تقع الدولة العربية المستقلة ! شعر الحسين بالتردد والبرود إزاء تجاهل الانكليز لتحديد حدود الدولة العربية . وذكر ذلك في رسالته الجوابية في ٩ سبتمبر / أيلول / ١٩١٥ ، وقال بأن هذه الحدود ليست له ، وإنما لشعب بذاته ، وليس لشعب أجنبي ، وأصر على الاعتراف بالحدود .

أجاب مكماهون في ٢٤ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٥ ، ليفسر بشكل غير مباشر عدم رغبته في رسالته الأولى بتحديد الحدود ، بأن ذلك ناتج عن عدم موافقة بريطانيا على الحدود التي اقترحها الحسين ، وكانت تقع في سورية ذاتها ، ولذلك كانت سورية هي مجال النقاش والجدال بين الطرفين ، لأن بريطانيا مراعاةً لحليفها فرنسا تعتقد :

١ — إن مرسين واسكندرون وبعض الأقسام السورية الواقعة غرب دمشق وحمص وحماه وحلب ، لا يمكن أن يقال أنها عربية محضة « ويجب أن تستثنى من الحدود التي ذكرتموها ، ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات ، على أن لا تنقض شيئاً من اتفاقاتنا مع الزعماء العرب » .

٢ — أما الأراضي التي تستطيع انكلترا العمل فيها بملء الحرية ، ودون أن توقع ضرراً بحليفها فرنسا ، فإن لي السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم :

آ — إن انكلترا مستعدة على أساس تلك التعديلات — إخراج مناطق من سورية من الدولة العربية المستقلة — وأن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها الشريف حسين .

ب — تحمي بريطانيا الأراضي الاسلامية المقدسة .

ج — تقدم بريطانيا للعرب عند الحاجة كل مساعدة ومشورة . والعرب بدورهم يطلبون ذلك من بريطانيا وحدها .

أجاب الحسين في ٥ نوفمبر / تشرين الأول / ١٩١٥ برسالة أوضح فيها ، أن الأراضي السورية في حلب وبيروت وسواحلها هي عربية صرفة ، وأن ليس هناك من فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي ، فكلاهما من نسل واحد . وهو يعني المنطقة اللبنانية التي فيها مسيحيون . كما أكد عروبة العراق ، لكنه لم يرفض احتلاله من قبل الانكليز خدمة للحرب ، مقابل تعويض حتى تنتهي هذه الحرب . لكن الحسين رضي أن تخرج أضنه ومرسين من الدولة العربية المستقلة المنتظرة ، تسهلاً للاتفاق وخدمة للإسلام . وكانت بريطانيا كأنها تدافع عن الأراضي القومية التركية ، لأن مرسين وأضنه فيها مع أن الأتراك في حرب معها .

أجاب مكماهون في ١٣ ديسمبر / كانون الأول / ، بيدي سروره لموافقة الحسين على إخراج مرسين وأضنه من حدود البلاد العربية المستقلة . أما بشأن ولايتي حلب وبيروت « فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ، ودونت

ذلك بعناية تامة، لكن لما كانت لفرنسا حليفاتها مصالح داخلية فيهما، فالمسألة تحتاج إلى نظر وثيق، وسنخبركم في هذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب. كما طلب ماكماهون بأن يكون لبريطانيا إدارة قوية ثابتة في بغداد بسبب مصالحها» وهكذا خرجت الأراضي الساحلية من سورية، وخرجت العراق من الدولة العربية المستقلة قبل أن تظهر وقبل أن يتم الاتفاق بين الانكليز والحسين. لكن مكماهون عبر عن «صدق نية بريطانيا، وتقديم عربون مقداره عشرون ألف جنيه، وعن عاطر التحيات القلبية».

أجاب الحسين في أول يناير / كانون الثاني / ١٩١٦، يعلن قبوله برد مكماهون، لكنه يعلمه بأنه سيطالب فرنسا بعد نهاية الحرب بما تحتله، وهو يتركه الآن كي لا يسيء إلى علاقة الحلفاء فيما بينهما، وهو لا يسمح لفرنسا باحتلال قطعة صغيرة في تلك المنطقة (سورية). وقال «وأكرر القول بأن اعتقادنا وتأكيدنا من أن مصالحنا المشتركة بل والمتشابهة أيضاً، هي السبب الذي أدى بنا إلى الاهتمام بالمفاوضة مع بريطانيا وحدها دون غيرها من الدول، وبناء عليه فإنه من المستحيل أن نسمح بأي حط من كرامتنا، بأن نعطي لفرنسا، أو أية دولة أخرى قطعة أرض من تلك المناطق».

أجاب مكماهون في ٣٠ يناير / كانون الثاني / ١٩١٦، بيدي سروره، بملاحظة الحسين ورغبته في تجنب كل ما من شأنه، الإساءة إلى تحالف انكلترا وفرنسا، بما يتعلق بالحدود الشمالية من سورية. كما سر مكماهون للحركة التي يقوم بها الحسين، لاقتناع الشعب العربي بضرورة الانضمام إلى حركة الانكليز والكف عن مساعدة أعدائهم الترك. ويرجو مكماهون أن يتخذ الحسين تدابير أوسع من هذه. وذكر له أيضاً أنه سيتم الاتفاق معه بشأن التعويض الخاص باحتلال ولاية بغداد. وتشير هذه الرسالة إلى أن الأمور قد وصلت إلى اتفاق تام بينهما

أجاب الحسين في ١٨ فبراير / شباط / بأنه قد علم بما طلبه مكماهون، وأنه سيعمل على جمع كلمة العرب، وأنه أرسل ابنه (فيصلاً) إلى سورية، ليتولى قيادة

العمليات الضرورية هناك، وأنه ينتظر وصول قوات عربية يبلغ مجموعها مائة ألف مقاتل من مناطق الموصل وحلب، كما أرسل ابنه علياً بقوات أخرى إلى المدينة، لتقوية مركز أخيه فيصل في سورية. ثم طلب معونة مالية لدفع رواتب الجند الذي تجمع لديه، وذخيرة وبنادق ومؤونة تعتبر في مجموعها زهيدة جداً^(٣٠) بالنسبة للدور الذي سيقوم به.

أجاب مكماهون في الرسالة الأخيرة في ١٠ مارس / آذار / ١٩١٦ من هذه المراسلات، يشكر الحسين على فعاله ويعلن له موافقة الحكومة البريطانية على طلباته، ويحضه على ردع ابن رشيد صاحب حائل كي يمتنع عن مساعدة الأتراك، لأنه أرسل عدداً عظيماً من الجمال إلى جمال باشا في دمشق.

وفي الحقيقة كانت إحدى نتائج هذه المفاوضات الهامة، إضافة إلى إخراج سورية والعراق من الدولة العربية المستقلة، أن الحسين سوف يحترم كل الاتفاقات التي عقدها الانكليز مع بقية الزعماء العرب — كما جاء في رسالة مكماهون رقم ٤ في ٢٤ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٥ —، وهذا يعني إخراج أراضي منطقة الخليج جميعاً واليمن وعدن ونجد وعسير من الدولة العربية المرتقبة، وإذن وبعملية حسابية بسيطة، هي طرح هذه المناطق من مجموع مناطق العرب في آسيا. يتبين أن الانكليز لم يعدوا الحسين إلا باستقلال الحجاز، ولم يكن ذلك من أجل الحسين أو إرضائه، بل لأن انكلترا وحتى فرنسا لا تنوي أن تحتل الحجاز، بسبب الحساسية الخاصة التي يثيرها استعمار الأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة من قبل قوات مسيحية. لقد حمت هذه الأماكن نفسها من حكم الانكليز، بفعل قوتها التاريخية الدينية، وهي الجزء الوحيد من المنطقة العربية قاطبة، التي سلمت من الاستعمار الأوروبي أو من الاتفاقات مع الأوروبيين التي تحمل معنى الحماية والمساعدة والصداقة... الخ.

(٣٠) طلب الحسين ٥٠ ألف جنيه، و ٢٠ ألف كيس أرز، و ١٥ ألف كيس من الدقيق، و ٣٠٠٠ كيس من الشعير، و ١٥٠ كيساً من البن، و ١٥٠ كيساً من السكر، و ٥٠٠٠ بنديقة من طراز حديث، و ١٠٠ كيس من رصاص الذخيرة للبنادق.

فرنسا متمسكة بادعاءاتها في سورية

لكن ليست بريطانيا هي الملوثة أو المسؤولة الوحيدة، عن تصميم هذه الخطة الممزقة للبلاد العربية، التابعة للدولة العثمانية، وخاصة في استثناء منطقة الساحل السوري من الدولة العربية المستقلة، بل فرنسا أيضاً. فخلال فترة مراسلات الحسين—مكماهون، كانت فرنسا ترقب بحذر وغضب تلك المفاوضات وخاصة ما يتعلق بسورية. والحقيقة أن فرنسا ظلت ثابتة على سياستها تجاه سورية، ولم تزعزها صداقة العرب ومساعدتهم للحلفاء من الحرب، لا بل استغلت فرصة الحرب لتضع سياستها موضع التطبيق العملي. وبالمقارنة مع سياسية بريطانيا التي ذكرناها، نرى أن فرنسا تابعت سياستها المبنية على الأسس التالية:

١— سياسة طائفية

بقيت ثابتة على سياستها القائمة على الاعتماد على الطوائف والأقليات، وظلت سياستها الإسلامية على هامش سياستها المسيحية والطائفية، فما زالت تستقبل السوريين الداعين علناً لاحتلالها لسورية، كجوزيف صابوني، والدكتور كحيل المدرس في كلية باريس الذي ألف كتاباً في هذه الفترة، يصف فيه الأتراك بالبرابرة ويتحدث بقلبه وروحه عن فرنسا، ويطلب حمايتها واحتلالها، وينهي كتابه بـ «تحيا فرنسا»^(٣١). وبدعم من دو فرانس في مصر، حاول المحاميان السوريان، إدغار طويلة ونجيب أيوب، تشكيل جمعية سورية لتوحيد السوريين باتجاه فرنسا—وكانا يخشيان معارضة الانكليز— لكن دو فرانس كان يؤكد أن فرنسا تسعى بكل جهدها للعمل من أجل السوريين^(٣٢). ولقد تلقى أسقف باريس رسالة من الفاتيكان، تطمئن فيه حكومة الفاتيكان هذا الاسقف، ألا خوف على المسيحيين السوريين من مذابح يقيمها الأتراك في سورية، لأن وزير الخارجية التركية قد صرح ل مندوب الفاتيكان بذلك، وقدم له الدليل، على أن الدولة شنت ٢٣ مسلماً من سورية، وأن البطريك الحويك قد عاد

(٣١) D. F. Aff, Etr. Guerre, vol VII (873) 28 Mai. 1916, P. 27.

(٣٢) Ibid, 22 Mai. 1916, PP. 17-19.

إلى إقامته في لبنان^(٣٣). وكانت لجنة العمل الفرنسي في سورية تحت فرنسا على احتلال سورية، وأن عدداً من السوريين يمكن أن يحتلوا الساحل السوري، وعدداً من اللبنانيين يمكن أن يحتلوا قبرص^(٣٤). وكان الأميرال دارتيج Dartige قائد الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط، يسعى لتشكيل قوة من لبنان مقدارها ثمانية آلاف رجل، يستطيعون إنقاذ لبنان من المجاعة والمعاناة والملاحقة، لكن الذي حدث أن فرنسا شكلت من الأرمن وبعض المسيحيين السوريين، قوة عسكرية في قبرص، لمساعدة الجيش الفرنسي عندما تحتل سورية^(٣٥). كما أن الأميرال المذكور قد اتصل ببعض عشائر العلويين، وأعلن هؤلاء استعدادهم طوعية لمساعدة فرنسا عند نزولها بالساحل. وكان الأميرال

Ibid, Ibid, 9 Juin, P. 60. (٣٣)

Ibid, vol IX (875) 1 Jan. 1917, P. 84 (Robert De Caix) من. (٣٤)

Ibid, vol VIII (874) 17 Aout. 1916, P. 25. (٣٥)

Ibid, vol, IX (875), 10 Jan. 1917, P. 102. و

قبل وزير الحرية الفرنسية تشكيل فرقة متطوعين من الأرمن والسوريين في جزيرة قبرص، تحت قيادة ضباط فرنسيين وتحت العلم الفرنسي. وقبل شهر أوت / آب / وهو بداية الحرب اندفع مئات السوريين في كل الأقطار الحليفة أو المحايدة، للانضمام للجيش الفرنسي الذي شكل في المستقبل فرقة منهم سميت «الفرقة الشرقية في فلسطين».

Ibid. و H. Lammens S. J. La Syrie précis historique Beyrouth, P. 218.

— قررت وزارة الحرب الفرنسية في ١٥ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٦، تشكيل وحدة عسكرية شرقية، مهمتها استقبال الرجال العثمانيين كالأرمن والسوريين والعرب. وافتخر قنصل فرنسا في مصر برجولة تلك المجموعة من جميع المراتب في الجيش الفرنسي، الذين أعطوا قيمة عالية للعسكرية والوطنية.

S. Nassi, histoire de Syrie, Seine 1923, P. 157.

وفي أثناء الحرب انخرط كثير من المسيحيين اللبنانيين في الجيش الفرنسي. ألبرت حوراني، الفكر العربي، ص ٣٤٥.

— كانت الكنائس الأرمنية التابعة للجيش الفرنسي، وبعضها ألف في دمشق عند احتلالها غاية في الفوضى وقلة التدريب، والتعصب ضد المسلمين واعتدائهم عليهم، ومحاولتهم المستمرة في ايقاع الشقاق بين المسيحيين والمسلمين، ومساعدتهم للأوليين حتى كان الجنود والدرك الجزائريون، ينحازون إلى المسلمين ضد تصرف الأرمن. وقد أدى تصرف الأرمن إلى الخلل والفوضى في المدن الكبيرة، وتزدت كتيبة أرمنية في الاسكندرون فسقتها الحكومة الفرنسية إلى كيليكيا.

ج.دي. ف. لودر، القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق، ترجمة نزيه المؤيد العظم، دمشق ١٩٢٥، ص ٤٤ — ٤٥.

المذكور يقدر أن العلويين يجندون ٢٦ ألف مقاتل ، وكان يمد هؤلاء بالأسلحة استعداداً لتلك الحرب ، كما كانت فرنسا تقدر أن المتأولة يجندون ٤ آلاف ، والدروز عشرين ألفاً من أجل مساعدة فرنسا^(٣٦) . كما أرسل بيكو من مصر — حيث انتقل مقر عمله بعد مغادرة بيروت إثر إعلان الحرب بين تركيا والحلفاء —، عن طريق دو فرانس ، أنه يمكن تنظيم ٣٠ — ٣٥ ألف متطوع في لبنان للدفاع ضد الأتراك عن مصالحه^(٣٧) . كما كان يحاول تشكيل وحدات من المتطوعين بين الجالية السورية واللبنانية في مصر لاحتلال سورية ، لكن الانكليز لم يكن يشجعون مثل هذه الحركة ، بسبب التنافس بينهما على سورية^(٣٨) .

وكانت وزارة الخارجية الفرنسية ، وسفراؤها وقناصلها ، تتلقى الكتب تلو الكتب من أصدقائها ومن الجمعيات السورية واللبنانية ، في بلاد كثيرة تطلب منها احتلالها لسورية ، ونذكر أمثلة على ذلك ، ما قدمته اللجنة التقدمية اللبنانية في نيويورك تطلب الحماية الفرنسية ، وكان زعماءها مكرزل والأسود وفاعور^(٣٩) ، وما قدمته مجموعة من اللبنانيين في مصر كي تحتل فرنسا سورية^(٤٠) ، وطلب الموارنة في اليونان من حكومتها إعطاءهم السلاح لمحاربة الترك^(٤١) . وكانت فرنسا غير مرتاحة من المفوض السامي الانكليزي في مصر ، لأنه لا يشجع الموارنة الموجودين في مصر على العمل من أجل لبنان^(٤٢) ، كما كان اللبنانيون في مصر يسألون حسب رواية دو فرانس ، متى ستحتل فرنسا سورية^(٤٣) . وأظهر اللبنانيون والسوريون في الولايات المتحدة تعاطفهم مع فرنسا والحلفاء بعد معارك الدردنيل^(٤٤) ، كما أرسل اللبنانيون في نيويورك عن

D. F. Aff. Etr, vol VIII (874), P. 25. et vol IX (875), 3Jan. 1916, P. 16. (٣٦)

Ibid, (876), 5 Nov. 1914, PP. 26-28. (٣٧)

D. F. Aff. Etr, Guerre, vol I (867) 12 Nov, 1914, P. 32. (٣٨)

Ibid, 3 Nov. 1914, P. 22. (٣٩)

Ibid, 9 Nov. 1914, P. 30. (٤٠)

Ibid, 13 Jan. 1915, P. 82. (٤١)

Ibid, 23 Dec. 1914, P. 109. (٤٢)

Ibid, 30 Dec. 1914, PP. 124-129. (٤٣)

Ibid, 29 Mai. 1915, vol III (879), P. 21. (٤٤)

اتفاقهم مع الحلفاء وتحرير بلادهم^(٤٥). وبدوره أصدر شكري غانم كتاباً طويلاً يعبر فيه عن صرخات اللبنانيين إلى الحكومة الفرنسية، كي تحررهم من تركيا^(٤٦). كما نشرت الجمعية الوطنية السورية في سان باولو في سبتمبر / أيلول / ١٩١٦، مقالاً تندد فيه بالحكم التركي الذي غزا فينيقيا، وتحض على الحرب ضد الأتراك، والتطوع من أجل ذلك^(٤٧)، وصدر كتاب من سكرتير الولايات المتحدة الأمريكية (Robert Lansing) يتحدث عن أخبار مذابح المسيحيين في سورية^(٤٨).

٢- منافع اقتصادية

ونشطت الجهات الاقتصادية الفرنسية في هذه الفترة ١٩١٥-١٩١٦ خلال مراسلات الحسين مكماهون وأبدت اهتمامها وتعلقها بسورية. فأصدرت غرفة التجارة غرنوبل كتيباً عن مصالح فرنسا في سورية في ٣ جوان / حزيران / ١٩١٥، وطالبت فيه بالمحافظة عليها ونشر التأثير الفرنسي في المنطقة بعد الحرب^(٤٩). كما أصدرت غرفة تجارة مرسيليا كتاباً عن الامكانيات الاقتصادية في سورية في ٢٦ جويليه / تموز / ١٩١٥، ورسمت في نهاية الكتاب خريطة لسورية تصل إلى أفضاليا في تركيا وتضم مرسين وطرسوس وأضنه وعينتاب وأورفة (وكل هذه في تركيا الآن) وسورية والأردن حتى العقبة وغزة^(٥٠). كما نشرت غرفة تجارة بيرجنيو Periguneux في ٤ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٥ كتاباً، تتحدث فيه عن مصالح فرنسا في سورية منذ الحروب الصليبية، وعن علاقتها الأدبية المادية والتاريخية ومصالحها المالية ورؤوس أموالها الممولة في سورية، كما رسمت خريطة مشابهة تقريباً لخريطة مرسيليا، إلا أنها أقل مساحة في

Ibid, 10 Juin 1915, P. 34. (٤٥)

Ibid, 29 Juin 1915, PP. 74-84. (٤٦)

Ibid, vol IV (870) 21 Sep. 1916, P. 174. (٤٧)

Ibid, vol VI (872) 20 Mai. 1916, P. 81. (٤٨)

Ibid, vol III (869) P. 24. (٤٩)

Ibid, P. 130. (٥٠)

الأرض في منطقة أضاليا وطرسوس (هنا خارج المخطط)، لكنها تضم سورية والأردن وغرب الاسكندرون من شرق أضاليا حتى العريش على الحدود المصرية^(٥١).

وكذلك فعلت غرفة تجارة Saint-Etienne في ١٩ أوت / آب / ١٩١٥، وحددت سورية بـجبال طوروس Tourous حتى مصر متبعة شاطئ البحر المتوسط وتمتد حتى الفرات، وتضم الولايات الأربع (أضنه في تركيا الآن) وحلب ودمشق وبيروت^(٥٢).

٣- تجاهل الأكتية المسلمة

ومن المنطلق الطائفي لسياسة فرنسا، كانت تحاول تطبيق السياسة ضد الدولة العثمانية، فبدلاً من أن تعمل على جذب المسلمين نحوها في سورية، كانت تحاول تكتيل الطوائف الأخرى، ولم تأخذ في اعتبارها أكتية السوريين من المسلمين السنة، وإن دل هذا على شيء، فإنه يدل على أن فرنسا تعتقد أن هؤلاء السكان ضدها، أو لا يميلون إليها، ولهذا لم تبذل جهداً كافياً لجذبهم نحوها، كما لم تعدل من سياستها لتقربهم منها، وفعلت الشيء نفسه بالنسبة للمسلمين الآخرين. فكان غو Gout الأمين العام لوزارة الخارجية الفرنسية — أثناء مناقشته لمكماهون في ٣٠ — ٣١ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٤ في وزارة الخارجية في باريس — يحضه على إثارة المسلمين الهنود الشيعة ضد السلطان العثماني السني، لكنه فوجيء عندما أبلغه مكماهون، أن المسلمين الهنود البالغين سبعين مليوناً هم من السنة، وأنه لا يوجد سوى ١٥ مليوناً من الشيعة^(٥٣). وكان الانكليز يأخذون لهذا العدد من الشيعة، الاعتبار ورغبة الشيعة في إيران والعراق لتحرير أماكنهم المقدسة في النجف وكربلاء في العراق، من سلطة السلطان العثماني

(٥١) Ibid, vol VI (870), P. 168.

(٥٢) Ibid, PP. 170-171.

انظر مجلة Asie Française عن نشاط غرف التجارة الفرنسية مع سورية وعن إمكانية فتح «أسواق رائعة لاقتصاد فرنسا في سورية.....». ص ١٩٧.

(٥٣) F. O. 371/2480/ PP. 88-89.

السني ، وكانت هذه وجهة نظر فيتزماوريس Fitzmaurice من السفارة البريطانية في استانبول^(٥٤) ، لكن ظلت هذه القضية بالنسبة للانكليز قضية مساعدة هامشية لا يمكن تبنيها واعتمادها كسياسة رئيسية ، وإلا لما استطاعت أن تتفق مع الحسين ومع العرب السنة عامة .

ومن هذا المنطلق كانت بريطانيا تنظر إلى مسألة الخلافة على أنها مسألة إسلامية داخلية ، وصرح المسؤولون الفرنسيون أيضاً بذلك ، ولم يعترضوا على أن يصبح الحسين خليفة ، لكن كان لبعض المسؤولين الفرنسيين رأي آخر لم تأخذ به الحكومة الفرنسية ، وهو رأي كان يلح على دو فرانس في مصر ويناقشه كثيراً . وذكر أفكاراً متناقضة عن الخليفة ومن سيكون . ومن آرائه هذه أن يكون سلطان مراكش هو الخليفة^(٥٥) ، وفي الحقيقة كان هذا رأي الجنرال ليوتي Lyautey من الأساس ، الذي كان يجذ أن تنتقل الخلافة إلى سلطان مراكش ، لكن الحكومة رفضت بسبب خطورة الموقف المترتب على نقل مركز الخلافة من مكة إلى فاس ، ولأنه يؤثر تأثيراً روحياً على الجزائريين والتونسيين عندما يتجهون نحو فاس وليس نحو مكة ، ولهذا فهو أمر مرفوض ، أن يكون لشمال إفريقيا وحدها خليفة خاص بها^(٥٦) .

لقد ذكرنا موقف فرنسا وتبنيها للسياسة الطائفية في سورية واتصالاتها التي أجرتها مع هذه الطوائف ، لكن ما هي سياستها الإسلامية في سورية برغم أنها هامشية ؟

قليلة هي المعلومات الخاصة بذلك عن علاقة فرنسا بالمسلمين في سورية في فترة ما بعد الحرب ، وحتى ١٩١٦ ، عندما تمت اتفاقات الحسين — مكماهون وسايكس — بيكو أيضاً . وهي لا تشكل سياسة هامة لفرنسا في كل الأحوال ، فهذه المعلومات متناثرة عبر تقارير متباعدة ، وخاصة بعد إغلاق القنصليات الفرنسية في

(٥٤) Ibid, /2140/ 11 Nov. 1914, PP. 62-65.

(٥٥) D. F. Aff. Etr, vol (869), III 16 Juin 1915. P. 53.

(٥٦) Ibid, vol IV (870) 5 Aout 1915, PP. 11-12. توقيع وزير الحربية

سورية بعد الحرب، ومعظم المعلومات هي من قنصلية فرنسا في مصر عن طريق عملائها في سورية.

ونحن لم نعثر على أي اتصال لقنصل فرنسا في مصر أو غيره، بأي من الشخصيات العربية المسلمة ممن كان الانكليز يتصلون بهم على هامش اتصالاتهم بالحسين، كرشيد رضا، أو عزيز المصري، أو كامل القصاب، أو شريف الفاروقي، أو عبد الرحمن الشهبندر، أو غيرهم. مع العلم أن دو فرانس كان على علم باتصال هؤلاء بالحسين وبالانكليز من أجل القضية العربية، وقد أرسل بذلك إلى وزارة خارجيته في باريس^(٥٧)، كما أنه كان يقابل كثيراً من الشخصيات السورية واللبنانية المتفقين مع سياسته أو سياسة فرنسا بنوع ما من العلاقة، تبدأ من الصداقة حتى الاحتلال وقد ذكرنا في الصفحات الماضية نماذج عن ذلك.

وجورج بيكو منذ تحوله من بيروت إلى مصر — كسكرتير في الوكالة الفرنسية — كانت مهمته تحويل أفكار السوريين إلى الإدعاءات الفرنسية، ومنذ وصوله إلى مصر أخذ يثير الاشاعات عن اجتياح فرنسي لسورية، وحاول كما ذكرنا تجنيد متطوعين لذلك، لكنه أثار شعوراً غير مستحب في مصر بين السوريين، حتى أن دو فرانس عندما علم بذلك، حاول إيقاف نشاطه، لكنه لم يكن قادراً على أن يفعل شيئاً مع بيكو. لكن خطة بيكو بتشكيل جيش سوري قد فشلت في مصر، لكنه استطاع أن يجعل حزب الاتحاد السوري يقوم بمظاهرة عامة للتعبير عن عواطفه مع فرنسا، وعن «مشاعره وثقته في بطولات بيكو، من أجل مصالح سورية» ولم ينجح رغم ذلك، ولم تظهر أعماله للواقع إلا في الصحف الموالية لفرنسا، حيث كان يثير أفكاره، وفشل في جر أكثرية السوريين إليه، «وكان كل هم الفرنسيين أن يجتذبوا وجهه نظير السوريين»^(٥٨). كما أنه كرميله دو فرانس، اقتصر على اتصاله بالسوريين وخاصة

(٥٧) مثلاً (انظر عن نشاط الضابط العربي عمر بك بشأن الحسين). Ibid, vol VI (872) 26 Fev. 1916.

ومقابلة الشيخ القصاب وبقية السوريين في مصر للمقيم البريطاني فيها. Ibid, vol V (871) 25 Nov. 1915, P. 91.

(٥٨) تقرير مكماهون لادوارد غراي. F. O. 371/2480/ No 117, Oct. 1915.

المسيحيين منهم ولم يتصل بأولئك الذين أعلنوا عن أهدافهم في القومية العربية أو الدولة العربية المرتقبة. وكان بذلك يسير في خط السياسة الفرنسية السورية وليس العربية، ذلك الخط الذي استمر حتى تمكن فعلاً من فصل سورية عن الدولة العربية. واسم بيكو مشؤوم في اعماله لأوراقه في بيروت، ومشؤوم في اتفائه مع الانكليز بما سمي باسمه: اتفاقية سايكس-بيكو التي سندكرها بعد قليل.

والذي يدل على برود العلاقة بين فرنسا والمسلمين في سورية في هذه الفترة، أو ربما على العلاقة غير الطبيعية بينهما، ذلك التقرير الذي أرسله دو فرانس في ٧ أبريل / نيسان / ١٩١٦، من أن المسلمين في سورية عادوا للترحيب بفرنسا^(٥٩)، وإذا علمنا أن هذا التقرير جاء بعد نهاية مفاوضات الحسين-مكماهون، نعلم أن موقف المسلمين في سورية - في حالة صحة معلومات دو فرانس - لا بد قد تأثر برضى الحسين المؤقت، باستمرار التحالف بين فرنسا وحليفته بريطانيا، من أجل بعض المناطق في سورية. بينما نجده يرسل تقريراً في وقت سابق في ١٦ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٥ يُعلم فيه حكومته، أن رشيد رضا ورفيق العظم (رئيس حزب اللامركزية وهو متساهل مع فرنسا) يرفضان وجود فرنسا في سورية^(٦٠).

وكانت فرنسا في سياستها الاسلامية تعتمد على (عناصرها) المسلمين، من غير السوريين، كالجزائريين والمغاربة القاطنين في سورية. وكانت عن طريقهم وتبنيهم كأتباع لها ضمن الدولة العثمانية، تحاول تأكيد سياستها الاسلامية، في الوقت الذي تتجاهل وجود الأكرية المسلمة في سورية. حتى إنها عندما كانت تدرس امكانية تشكيل جيش سوري لمحاربة الأتراك، كانت ترى أن يتألف هذا الجيش من ميليشيا لبنانيين بعدد ١٥٠٠ رجل، ومن ١٥٠٠ جزائري «وعناصر سورية ويونانية»، كما أنها كانت تريد إدخال اليهود في هذا الجيش «الثوري». وكان هدفها من ذلك، «هو خلق سورية حرة، مستقلة من كل أثر تركي، من المسلمين والمسيحيين. وهذا بالنسبة لنا (فرنسا)

D. F. Aff. Etr, vol. VI, (872) P. 83. (٥٩)

Ibid, vol V (871), P. 14. (٦٠)

يحقق لنا عهد سلام مع مسلمينا الإفريقيين»^(٦١). وقد ذكر أحد الضباط الجزائريين في البعثة الفرنسية في القاهرة، أنه يوجد لفرنسا برنامج عام تجاه المسلمين، وبرنامج خاص تجاه مسلمي سورية^(٦٢). وأكد الميسور فلانندان Flandin سياسة فرنسا الإسلامية المعتمدة على مسلمي شمال إفريقية، بوجوب تشكيل جيش فرنسي في مصر يحارب إلى جانب القوات البريطانية في حملة سورية، يتألف من مسلمي شمال إفريقية، لأن المناخ يلائمهم أكثر من الحرب في مناخ شمال فرنسا الباردة^(٦٣)، وهو بلا شك يعني اشتراك قوات فرنسية لاحتلال سورية، تكون مسلمة وهو أفضل، لكن لا تكون من سورية حتى لا تثير في المستقبل عند احتلال سورية مشاكل واضطرابات أمام فرنسا، أما هؤلاء المسلمون من شمال إفريقية، فهم بطبيعة الحال يخضعون للجيش الفرنسي، والقطر السوري يرغم أنه مسلم ليس قطرهم الخاص، ولذا لن يشكّلوا أي خطر على فرنسا في سورية. ونقلت جريدة Le Temps في ٢٢ جويلية / حزيران / ١٩١٥ خبراً، وأعادته جريدة الأخبار المصرية (موالية لفرنسا) مفاده أن السناتور Sénateur Flandin قد ذكر بأنه إذا «انتصرت فرنسا، فأنا أؤكد بأن علمها سيخفق ليس فقط فوق لبنان، وإنما فوق سورية كلها، وفلسطين، وجبال طوروس، حتى العقبة والعريش»^(٦٤).

ويمكن القول — وصولاً إلى اتفاقية سايكس — بيكو — أنه بعد الحرب تحول الصراع الانكليزي — الفرنسي حول سورية، إلى خارج سورية، وخاصة إلى مصر برغم تحالف هاتين الدولتين في الحرب. وظل هذا الصراع قائماً، برغم التحالف في الحرب. ومن قلب هذا الصراع أو التنافس، خرجت اتفاقية سايكس — بيكو.

التنافس الانكليزي الفرنسي مستمر

كانت قضية إنزال قوات عسكرية حليفة في الاسكندرون، لقطع الدولة العثمانية

(٦١) Ibid. vol I (867) Guerre, 18 Nov. 1914, P. 40.

(٦٢) رسالة من دو فرانس. Ibid, vol. II (868) 14 Fev. 1915, P. 39.

(٦٣) Ibid, vol. I (867) 30 Dec. 1914, P. 132.

(٦٤) F. O. 371/2480/004866/ P. 207.

في الوسط، أولى القضايا الحساسة بين بريطانيا وفرنسا. وكان ادوارد غراي يعتقد بأنه في حالة هذا الإنزال، يجب أن تشارك القوات الفرنسية في العمليات العسكرية بسبب اهتمامها بمسألة سورية، على أن يكون الغرض هو قطع المواصلات التركية، ومنعها من الهجوم على مصر^(٦٥). ولم يكن من رأي كتشنر قيام تلك الحملة بقوات قليلة (٤ ألوية 4 Divisions)^(٦٦)، بسبب رفض فرنسا المشاركة في هذه الحملة. أما رأي فرنسا، فكان كما ذكره مسيو بوانكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية في ذلك الوقت، في مذكراته «في خدمة فرنسا» Au Service de la France بأن كتشنر كان يرى خطراً في غزو تركي ألماني لقناة السويس وشمالي إفريقيا، ولهذا اندفع في مشروع حملته على الاسكندرون بأسرع ما يمكن، وقد درس مجلس الوزراء الفرنسي المشروع، وتقرر الاعتراض عليه، حتى لا يقوم به الانكليز وحدهم. وقد أسف ادوارد غراي أمام سفير فرنسا في لندن بول كامبون، وتألم بسبب رغبة فرنسا بحسن نيات بريطانيا من أجل سورية. ورغم إصرار كتشنر، لم تقنع فرنسا بذلك، وكان إصرارها هو الذي جعل بريطانيا تعدل عنه نهائياً^(٦٧).

بعد شهر من اقتراح ادوارد غراي عن حملة الاسكندرون أي في ففريه / شباط / ١٩١٥ سأل السفير الفرنسي في لندن وزارة الخارجية البريطانية، عن فكرة قديمة وهي تتجدد الآن وتمثل في ضم سورية لمصر. فأرسل وزير الخارجية البريطانية إلى مكماهون في مصر برقية لا يشجع فيها مطلقاً مثل تلك الحركة لحساسيتها لفرنسا^(٦٨). فأجاب مكماهون أن ذلك هو صورة للتنافس بين مصالح بريطانيا وفرنسا، تثيرها الصحف على شكل واسع، وأن من هذا النشاط التنافسي، أن بعثة

(٦٥) Ibid, 9 Jan. 1915, No 133.

(٦٦) Ibid, 14 Nov. 1915, No 875. P.229.

(٦٧) نقلاً عن أمين سعيد، أسرار الثورة، ص ١٣٦.

ذكرت إليزابيث مونرو، أن فرنسا رفضت مهاجمة الاسكندرون خوفاً على سورية، ونزلت بريطانيا عند رغبة فرنسا لحاجتها الشديدة للتعاون معها في الحرب، ولم تجدد من المناسب مناقشتها على حقوقها في سورية، ومصلحتها منذ أيام لويس الرابع عشر، وفي الحقيقة منذ الحروب الصليبية. E. Monroe, P. 28.

(٦٨) F. O. 371/2480/ No 91, P. 145, (15 Feb. 1915).

عسكرية فرنسية وصلت إلى مصر ، من أجل ضمان مصالح فرنسا في سورية ، ومؤازرة المسيحيين السوريين ، في الوقت الذي يمثل المثقفون السوريون المسلمون في مصر ، رأي المسلمين في سورية ، ويدعمون الحركة التحررية فيها ، وأن آغاخان وله أتباع اسماعيليون كثيرون في سورية ، يلح على أن تحمي بريطانيا سورية ، ويرفض أي احتلال عسكري فرنسي أو روسي لسورية ، وإنه إذا كان المسيحيون في سورية ، ينقادون إلى فرنسا ، فإن كل المسلمين ليس في سورية فحسب ، وإنما في كل البلاد العربية ، يدعمون حركة إسلامية . وأكد مكماهون أن المسلمين والمسيحيين السوريين في مصر ، مقتنعون بوجوب أن تعلن بريطانيا عن سياستها تجاه سورية والعرب . وأجابهم مكماهون ، بأن ذلك آت وسوف يعلمونه ، وأنه يجب أن ينتظروا ، ويتجنبوا المشاركة في أي عمل سياسي ، حتى يتم إعلان الموقف البريطاني — وكان هذا يجري خلال مراسلات الانكليز والأمير عبد الله قبل بدء مراسلات الحسين مكماهون — وكان رأي مكماهون مع ضم سورية إلى مصر ، لأنه «يوافق حاجات مختلف الطوائف في البلاد . سواء تم ذلك باستخلاص سورية من قبل قوات انكليزية أو فرنسية» (٦٩) .

في سبتمبر / أيلول / ١٩١٥ ، جدد السفير الفرنسي في لندن ، شكوى فرنسا من مجريات بعض الأمور في مصر ، التي تؤثر على آمال فرنسا في سورية . وذكر بأن سورية وكيليكيا تشكلان لفرنسا منطقة احتياط ومصالح ، واستشهد برغبات السوريين ومطالبتهم بحماية فرنسا (٧٠) . ولا شك أنه كانت لديه مجموعات كبيرة من الرسائل والبرقيات من السوريين المائلين لفرنسا . أما شكواه من مجريات الأمور ، فتعود إلى نشاط السوريين من أصدقاء الانكليز ، الذين كانوا يكتبون آراءهم في صالح الانكليز من أجل سورية ، وهو أمر طبيعي ، إذ لا يمكن لفرنسا أن تكون لها دعاية واسعة في مصر على قدر الدعاية لصالح بريطانيا ، لأن مصر خاضعة للحماية الانكليزية ، كما لا يمكن للانكليز أن تكون لهم القوة الدعائية نفسها كما لفرنسا في تونس أو الجزائر أو المغرب للسبب نفسه . ومن هذه المظاهر الدعائية التي كانت تثير فرنسا مثلاً ، أن

F. O. /2480/ Fev. 1915, PP. 150-151. (٦٩)

Ibid, 1 Sep. 1915, PP. 186-189. (٧٠)

حبيب لطف الله (سوري يعمل في مصر) اقترح تكوين دولة في سورية والعراق تحت حكم أمير مسيحي، ومملكة عربية يكون الخديوي فيها هو الملك والخليفة أيضاً، وكل ذلك تحت الحماية الانكليزية. وتجاوز هذا الرجل ما يطلبه الانكليز أنفسهم حتى اعتبروا أن خطته مستحيلة، وتفسد تفاوض الانكليز مع العرب^(٧١). ومن هذه الأفكار أيضاً، ما ذكره سعيد شقير (سوري يعمل لدى الانكليز في مصر) من أنه إذا تركت سورية لفرنسا، فإنها (سورية) سوف تثير في وجهها القلاقل والاضطراب، ويقترح بأن تترك سورية لبريطانيا وتأخذ فرنسا بعض مستعمراتها في غرب إفريقيا، وهذا يتيح لبريطانيا أن تفعل الشيء الكثير في شرق البحر الأبيض المتوسط، وفي مصر والعراق، ويؤيد شقير أن تكون سورية لبريطانيا، لأن الأخيرة هذه سوف تراعي المسيحيين السوريين، أكثر من مراعاتها للمسيحيين المصريين، لأن المسيحيين السوريين، يشكلون ثلث عدد السكان، بينما هم في مصر يعادلون $\frac{1}{10}$ من السكان وهذا بحذ ذاته يعتبر عملاً طيباً لانكلترا في سورية^(٧٢). وهو يعني أنه إذا كان الحكم الانكليزي يتمتع بسمعة طيبة في مصر، فكيف به سيكون في سورية، لا بد أن يكون أطيّب قياساً على الكثرة النسبية المسيحية في سورية.

وبدوره أدلى فارس نمر محرر جريدة المقطم برأيه، وكان يجذ ألا تقسم سورية، وتبقى فيها فلسطين ولبنان، وسوف يكون ذلك برأيه جيداً للمسيحيين، لأن نسبتهم ترتفع وينالون بذلك قسطاً أكبر من المشاركة في الحكم، لكن نمر لم يكن يأمل أن تشكل سورية هذه دولة مستقلة، وإذن تكون تحت رعاية دولة أخرى — هي دون شك بريطانيا — لأن رأيه هذا، كما نقله مارك سايكس، متفق مع رأي زميله سعيد شقير المطالب ببريطانيا لسورية^(٧٣).

(٧١) Ibid. /2491/ No 901, 20 Nov. 1915.

(٧٢) F. O. 371/2485/ No 32528, 16 Mars 1915.

(٧٣) من سايكس إلى C. E. Caldwell رئيس العمليات الحربية. Ibid, 371/2490/ 14 Juil. 1915.

وهذا مثل آخر من المنغصات ضد سياسة فرنسا — وهو مثل قد يدعو للابتسام — أن جريدة المقطم، قد كتبت في ٢٧ ماي / أيار / ١٩١٥، أن الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وبقية الحلفاء، في طريقهم لتقرير مصير سورية ومن سيملكها، فاحتج دو فرانس غاضباً لعدم ذكر فرنسا — بين تلك الدول التي ستقرر مصير سورية — لكن الجريدة سخرت قائلة بأن القارئ السوري، لن يعتقد أن اليابان، هي المقصودة بعبارة «بقية الحلفاء»^(٧٤).

وحتى لا يتأزم الموقف كثيراً بين بريطانيا وفرنسا من أجل سورية، قررت الرقابة البريطانية في مصر في مارس / آذار / ١٩١٥، منع الصحف من الخوض في مناقشات مهما كانت، بما يخص المسألة السورية، وأبلغ مكماهون ذلك إلى دو فرانس^(٧٥)، وبرغم ذلك، تساحت المراقبة في نشر الدعاية لفرنسا بما يخص سورية في جريدة الأخبار، التي يحررها أحد العاملين في الوكالة الفرنسية، وأخذت هذه الجريدة تنشر المقالات تباعاً لصالح فرنسا، منها أن الميسو Hanotaux عدد المنافع التي قدمتها فرنسا في ممتلكاتها في إفريقيا، وهو يأمل أن يحظى السوريون بفرصة تجعلهم يتمتعون أيضاً بهذه المنافع في بلادهم، ونشرت صورة دو فرانس في أعلى المقال (٩ أبريل / نيسان / ١٩١٥)^(٧٦).

(٧٤) Ibid, 371/2480/ P. 204.

(٧٥) Ibid, 7 Juin 1915, P. 208.

(٧٦) Ibid, 2480/ 9 Oct. 1915, P. 206.

من تلك المقالات الدعائية لفرنسا التي نشرتها جريدة الأخبار :

في ١٤ أبريل / نيسان / ١٩١٥، نشرت الجريدة صورة لجورج بيكو، وتحتها مقال للخدمات الجبلية التي قدمها، وما زال يقدمها للسوريين. وتذكر بهذه المناسبة بعلاقات فرنسا القديمة مع سورية. وفي ٢٥ أبريل / نيسان /، نشرت أن الأتراك والأتراك قد واجهوا النقش Inscriptions على صخور نهر الكلب في سورية، الذي يذكر بالاجتياح Expédition الفرنسي سنة ١٨٦٠ لسورية، وأضافت: إذا كان الأتراك يعتقدون أنهم يجابهون أيضاً النصب التذكارية للمنافع الفرنسية، وبينما هم يقللون صداقة السوريين للفرنسيين، فإنهم يخدعون أنفسهم ويضيعون وقتهم، ومن المستحيل مجابهة ما حفر في القلب، كما عبر عنه الشاعر اللبناني «أنت يا فرنسا عمود المحبة المخلصة، ولو قدر للعالم أن يهتز فمن المحال أن تهتز بحبتك».

وحتى لا تضيق القضية السورية في هذا الصراع الانكليزي-الفرنسي، رأى السوريون المقيمون في مصر، سواء أصدقاء فرنسا، أو رجال القضية العربية المتصلين بالحسين، أن يوحدوا جهودهم من أجل «سورية» ويطلبوا من الدولتين المساعدة للوصول إلى حكم ذاتي لسورية، وبذلك يكسبون قضيتهم، وإن كان ذلك يعتبر اعترافاً من المشاركين القوميين العرب، بانفصال قضية سورية عن القضية العربية — وسوف يتبع ذلك ذبول من هذا القبيل سندكرها في حينها — وهو غير ما يؤمنون به ويعملون له. ربما رأوا أن القضية أصبحت أكبر منهم، وأن الحصول على شيء صغير أفضل من لا شيء. ولذلك شكل الأطراف المتناقضة لجنة أدبية عربية سورية — والأسم العربي السوري يعكس ميول الطرفين — كانت غايتها التحرر من الظلم التركي، وأن سورية يجب ألا تنتظر إلا فرنسا وبريطانيا عدوتي البغي والظلم، لتحقيق آمالهم العزيزة المتمثلة في :

- ١ — العمل على التحالف ما بين مواطنيهم والحكومتين الفرنسية والانكليزية.
- ٢ — البحث والحث لكل السبل الفرنسية والانكليزية، للمساعدة في دفع الخطأ الممكنة في سبيل القضية السورية.
- ٣ — العمل على الاعلام عن وجود هذه اللجنة، لكل السوريين دون تمييز بالدين، حيثما كانوا منتشرين في أنحاء العالم، وحثهم على التعاون معها، للتأكيد على الحكم الذاتي لسورية.

وإن أعضاء هذه اللجنة سيقدمون من أجل هذا الهدف كل امكاناتهم الفعالة .

→ وفي ٥ ماي / أيار / نشرت حديثاً لباخوس نابور باشا رئيس وزراء مصر، في حديث له أثناء زيارته لباريس، مدح فيه بيكو، وقال بأنه يعمل على تحقيق الأمان السورية، لأنه سيقم دفاعه عن السوريين بشكل واسع أمام الحكومات الأوروبية، وأن قربه من الحكم الفرنسي المركزي سيكون أفضل ضامن لنجاح السوريين .

F. O. 371/2480/ 9 Oct. 1915, P. 206-207.

واللجنة السورية في سبيل تحقيق الحكم الذاتي لسورية، قد تألفت بتضامن إجماعي من قبل أعضائها، الذين انتخبوا بالاجماع ندره مطران رئيساً لها^(٧٧).

ألا يمكن اعتبار هذا الموقف العربي السوري، مفتاحاً يوحى بإمكانية اتفاق الانكليز والفرنسيين على سورية، طالما اتفق أطرافه العرب وأصدقاء الفرنسيين على ذلك، وقصروا أهدافهم على حكم ذاتي لسورية، ومساعدة الانكليز والفرنسيين؟ ألا يمكن أن نستنتج، أن هذا الموقف موحى به فعلاً من الفرنسيين والانكليز، والطرفان على صلة حميمة بغالبية أعضاء هذه اللجنة؟ ألا يمكن تنفيذ ذلك وتقسيم سورية بين الفرنسيين والانكليز؟ أليست هذه بنود اتفاقية سايكس-بيكو؟ أليس ذلك من أجل فصل سورية عن القضية العربية العامة؟ أليس هذا ما تحقق في نهاية المطاف؟ لكن كيف تم ذلك!

(٧٧) وجوزيف فرح Joseph Farah نائب رئيس ومماور Samawer وأده J. I. Eddé سكرتيرين وميشيل بوشاهد أمين خزانة، وعضوية كل من ديمتري شحادة، علي الفياض، دكتور باسم، دكتور فرحي، عوني عبد الهادي، ميشيل فرنيتي، سليم عطار، نصري سابا، سيمون حوص، علي عبد النور، جميل مردم بك، مسلم الطرزي، ابراهيم درغام. أسست في ١١ ففريه / شباط / ١٩١٥، وتجتمع كل أسبوع مرة على الأقل. مصر (١٦١٠٢). Ibid./2483/ No 16102.

من هذا النشاط السوري الجديد الذي يعمل على انتهاء التنافس الفرنسي-الانكليزي حول سورية، ما صرح به شكري غانم، رئيس اللجنة المركزية السورية في فرنسا، والذي يعمل من أجل أن تكون فرنسا في سورية، خلال لقائه بسايكس بيكو في باريس في مارس / آذار / ١٩١٦ إذ قال:

«على بريطانيا وفرنسا أن تتفقا نهائياً على حل المشكلة العربية، وتحدد مناطق النفوذ لهما وللغرب، حتى لا يحدث خلاف بعد الحرب. والحل هو إعطاء العرب حكماً ذاتياً تحت إرشاد القوى الكبرى. وتقسم البلاد إلى مناطق تدار بالاتفاق بين السكان والمفوض السامي الفرنسي أو الانكليزي فيها، وهذا يناسب المسيحيين والمسلمين. ومع الأسف هناك من يفكر بالاستقلال بسبب الجهل أو الأغراض الشخصية، لكن ذلك سيقود إلى الفوضى وخراب البلاد، لأن العرب غير مستعدين وغير متفقين لحكم أنفسهم. نحن أمة مهزومة (مغزوة)، محتلة تحت الحكم التركي من قرون، وأن الاستقلال لنا الآن يمكن أن يكون أسوأ من الحكم التركي. نحتاج لحماية وإرشاد، ونحن ننظر إلى بريطانيا وفرنسا بهذا الخصوص، ونحن نعرف أننا سنتقدم تحت وصايتهم، وعندما يأتي الوقت الذي يرونا فيه ناضجين لحكم أنفسنا، عندئذ ينسحبون ويتركونا نحكم أنفسنا».

F. O. 371/2767/ No 1678. 6 Mars 1916.

اتفاقية سايكس-بيكو

لن نخوض كثيراً في اتفاقية سايكس-بيكو وكيف تمت، لكن فرنسا علمت بعد وقت قصير، باتصالات بريطانيا بالشريف حسين، حتى إن دو فرانس أرسل كتاباً في ٢٥ أكتوبر / تشرين الأول / يخبر حكومته بهذا الاتصال. وقد حدد اسم الرسول بين الطرفين، وحدد تاريخ جواب الحسين على مذكرة مكماهون قبل حلولها^(٧٨). كما أن مكماهون نفسه، أخبر دو فرانس بالمفاوضات مع الحسين في نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٥، وأبلغه أن القضية وصلت إلى نقطة حساسة عن استقلال العرب، وانفصالهم عن الأتراك، وقال إنه كان يطلع الحكومة الفرنسية على المفاوضات، وأنه حدد البلاد العربية وضم إليها سورية بما فيها مدن حمص وحماة ودمشق وحلب، ماعداً — ربما لبنان — وجزءاً صغيراً من الساحل السوري. وقال إن بريطانيا ستحدد رأيها في حدود منطقة دجلة والفرات^(٧٩).

وقد أوضح ادوارد غراي، بدوره القضية التي يهتم بها مكماهون بما يخص سورية، وأجاب عن تساؤلات فرنسا حول ذلك، ويبدو أن فرنسا لم تكن تعلم عن طريق وزارة الخارجية البريطانية بالمفاوضات، بل عن طريق مكماهون^(٨٠).

وبرغم أن مفاوضات مكماهون-الحسين، كانت عاملاً هاماً ومسرّعاً للوصول إلى اتفاقية سايكس-بيكو — مع وجود عوامل أخرى، وهي أن الوقت قد حان لاقتسام أملاك الدولة العثمانية، ومنها مطامع روسيا في منطقة مضائق البوسفور والدردنيل، مع أسباب استراتيجية للحرب الدائرة —، برغم ذلك فقد كان بوانكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية، غير راضٍ عن سير المفاوضات بين مكماهون والحسين،

(٧٨) D. F. Aff. Etr, Guerre, vol, IV, (870) 25 Oct. 1915. P. 198.

حصل دو فرانس على هذه المعلومات من قائد الأسطول الفرنسي شعبة الأسطول المرتبطة بمصر، والتابعة للأسطول الفرنسي في الشرق الأقصى.

Le contre-Amiral Huguët.

(٧٩) Ibid, vol, V (871), 10 Nov. 1915, PP. 1-2.

(٨٠) Ibid, PP. 23-25.

التي كانت غامضة ، لأن الانكليز لم يفصحوا عنها تماماً ، وكان أيضاً غير راضي عن قيام دولة عربية كبيرة ، حسب سير المفاوضات المذكورة . وقد جاء في مذكراته « إن هذه الامبراطورية الكبيرة لا توجي إلى معنى ذا بال ، وأخشى من تأثيرها على مستعمراتنا الإفريقية ، وكنت أحب ألا أراها تخرج إلى حيز الوجود ، وقد أبلغت مخاوفي إلى مجلس الوزراء ، إلا إنه يظهر أننا سبق وخضنا غمار البحث ، وقيل لي أنه فات الأوان ، وأنه لا سبيل إلى إعادة البحث من جديد » (٨١) .

لكن بريطانيا كانت فعلاً قد وصلت مع الحسين ، إلى تحديد حدود الدولة العربية المرتقبة ، وكان لا بد من أن تأخذ بريطانيا بعين الاعتبار ، مصالح فرنسا واتفاقها معها سنة ١٩١٢ بشأن سورية ، وهو ما ذكرته للحسين . وحتى لا يستمر غموض الموقف على فرنسا ، التي كانت تعتبر مفاوضاتها مع الحسين غريبة في نوعها . ولذا اقترح ادوارد غراي على السفير الفرنسي في لندن ، في ٢١ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٥ ، أن تعين فرنسا مندوباً للمفاوضة بما يخص سورية (٨٢) .

أرسل رئيس الوزراء الفرنسي برقية إلى سفيره في لندن ، بوجوب تحديد سورية ، كما أرسل إلى بيكو الذي عينه مفاوضاً في لندن ، وطلب منه تحديد حدود سورية ، وأخبره بالمفاوضات الجارية بين الانكليز والحسين ، الخاصة باستقلال دولة عربية ،

(٨١) Poincaré, Au service de la France, vol VII, PP. 206, 250.

« كانت فرنسا منذ زمن طويل تطمح في استعمار سورية ، وبريطانيا في استعمار العراق ، وروسيا في امتلاك الآستانة ، لذا عقدت معاهدة سايكس — بيكو » .

رمزي ميور ، التاريخ السياسي للحرب العظمى ، ترجمة محمد بدران ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١٨٦ . وكانت فرنسا على عجلة من أمرها لتحديد مناطق النفوذ مع بريطانيا في الشرق ، لأن موقعها العسكري على الجهة الغربية لم يكن في صالحها . كما أن روسيا كانت تحاول تخفيف الضغط عنها في جبهتها مع الألمان ، ولم تحب بريطانيا فرنسا على طلبها ، إلا بعد فشل حملة الدردنيل في ديسمبر / تشرين الأول / ١٩١٥ ، من أجل المباحثات بشأن سورية ، التي طالبت بها فرنسا بحدودها الكبرى ، من طوروس إلى حدود مصر ، ولهذا أرادت بريطانيا أن تحدد المناطق الفرنسية ، وخاصة أن فرنسا اعتبرت فلسطين ضمن حدود سورية ، وكانت بريطانيا مهتمة في فلسطين .

Elizabeth Monroe, British moment in the Middle East 1914-1956, Baltimore 1963, P. 27.

(٨٢) سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٣٤١ ، وزيّن زين ، الصراع ، ص ٢١٠ .

وطلب منه تحديد مناطق النفوذ الفرنسي (الانتداب) بدقة، ووجوب معرفة المناطق الفرنسية والمناطق العربية، وذكر له أن روسيا تطلب القسطنطينية، وأن بريطانيا تحتل جنوب العراق، وأن إيطاليا دخلت الحرب، وكل هذه عوامل لها أثرها، وبين له أن حدود سورية يجب أن تصل إلى مصر. وطلب منه بحث مسألة حياد القدس وبيت لحم. كما أنه يمكن تحديد سورية بولاية أضنه (في تركيا الآن)، وحلب، ودمشق، وبيروت، ولبنان، ومتصرفية القدس، وشمال غرب ولاية أضنه إلى جنوب طوروس، وأضنه، وطرق آسيا الداخلية، وتصل الحدود الشرقية إلى متصرفية مأمورة العزيز، وديار بكر، ودجلة الجنوبي، وروافد الموصل، وحدود الفرات، وحدود دير الزور، ومرعش أيضاً، حتى يمكن ضم منطقة كركوك المعدنية، لكن ربما يعترض الانكليز على هذه المسألة^(٨٣).

كانت هذه الحدود المذكورة تتجاوز الحدود التي رسمتها الغرف التجارية الفرنسية، وهي تضم الآن مناطق في تركيا وكل الجزء الشمالي من العراق. ويمكن تفسير تكبير حدود سورية هذه لعدة أسباب سياسية واقتصادية، منها اتصال منطقة كيليكيا بسورية، والوصول إلى منطقة أرمينيا عبر جنوب تركيا وشمال العراق، وضم منطقة البترول العراقية في الشمال، ولم تكن فرنسا تعني أن لها علاقات تاريخية بكل هذه المنطقة.

لكن سفير فرنسا في بريطانيا، كان يأمل أن توافق الحكومة الانكليزية على إعطاء كيليكيا وسورية — دون أن يحددها — لفرنسا، ولم يمانع بإقامة ملكية عربية تحت التأثير الانكليزي، تجنباً لكل الصعاب، وتأكيداً للاستراتيجيات بين البلدين المتحالفين^(٨٤).

D. F. Aff, vol. V (871) 2 Nov. 1915, PP. 32-36. (٨٣)

Ibid, 11 Nov. 1915, P. 48. (٨٤)

بشأن حدود سورية انظر:

Commandant Noël Maestracci, la Syrie. contemporaine, Paris 1950, 2nd Edi,

ويحددها من سهل الأناضول إلى سيناء (من ميناء الاسكندرون حتى سيناء وعرض ١٥٠ كم من البحر

أما بريطانيا، وكان آرثر نيكلسون الوكيل الدائم لوزارة خارجيتها هو المفاوض، فقد طلب في اجتماع ٢٣ نوفمبر / تشرين الثاني / في لندن من فرنسا، أن تعطي العرب وعداً مثلما فعل البريطانيون فيما يتعلق بالاستقلال العربي. لكن بيكو رفض وقال، إن فرنسا لا تستطيع أن تفعل ذلك، وأنها لن توافق على منح الاستقلال للعرب، وطالب بسورية كلها بحدودها الواسعة التي ذكرها له رئيس وزرائه. لكنه في اجتماع ٢١ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٥ غير من رفضه، وقبل بالتنازل عن بعض المناطق في سورية للعرب بعد جهود كبيرة بذلتها بريطانيا مع حكومته، ووافق على أن تكون مدن حلب، حماه، حمص، ودمشق. داخلية في المنطقة التي سوف يتولى العرب إدارتها تحت نفوذ فرنسا، وأن حكومته قبلت بهذا التنازل والتضحية، رغبة منها في فصل العرب عن الأتراك^(٨٥). وقد امتدح نيكلسون جورج بيكو، ووصفه بأنه مفاوض بارع وعارف جداً بمسألة تحديد حدود سورية^(٨٦).

ويذكر بوانكاريه عن المفاوضات حتى هذا التاريخ، أن بريطانيا تعترف بسلطة فرنسا على الاسكندرون وأضنه وكيليكيا، على الرغم من اعتراضات كتشنر. لكن نيكلسون رغب مقابل ذلك، في تحديد سلطة فرنسا في سورية ولبنان؛ ووضع ذلك القطر تحت سيادة مكة، مع تحويل فرنسا حق تعيين الحاكم فقط فيه «ومعنى ذلك وضع يد سلطان مكة على الشعوب الإسلامية والمسيحية، التي لا تود أن تكون تابعة له ولا ترغب فيه، كما أن الانكليز يطالبون بسكة حديد حيفا، والقصد منافسة خط حديد الاسكندرون^(٨٧)».

في هذه الفترة، كان سير مارك سايكس قد عاد من القاهرة، بعد أن اعتبر أنه

→ المتوسط نحو الشرق) ص ٩٠.

R. Thoumin, histoire de Syrie des origines a 1914. Damas 1927. وانظر أيضاً

«لم تطالب فرنسا في كل الأحوال إلا بالأراضي الموافقة للمناطق الفينيقية» ص ٣٣٥ وهو كلام غير دقيق.

(٨٥) سليمان موسى، الحركة، ص ٣٤٢، عن P. R. O. F. O. 882/2.

(٨٦) D. F. Aff, Rtr, vol. V, (871) 26 Nov. 1915, P. 92.

(٨٧) مذكرات بوانكاريه، عن أمين سعيد، أسوار، ص ١٣٨.

أحرز نجاحاً دبلوماسياً، في مفاوضاته مع الضابط الفاروقي ممثل الحسين في القاهرة، فعهد إليه بمتابعة المفاوضات مع بيكو بسبب انشغال سير آرثر نيكلسون. وطلب سايكس من بيكو وجوب التناهل مع العرب، حتى لا ينحازوا إلى الأتراك، الأمر الذي قد ينتج عنه ذبح كل المسيحيين في سورية، فتفقد فرنسا عندئذ حق ادعاءها في سورية. وإذا ما انحاز العرب إلى الترك، فيسكونون أشد خطراً مما لو وضعوا تحت حكم الشريف حسين «إذ سيمضون في مخاصمتهم بعضهم مع بعض كما هو ديدنهم» (٨٨).

ربما كان من حسن حظ فرنسا، أن تابع سايكس المفاوضات، لأنه كان يختلف حقيقة عن مكماهون وكتشنر، وكان يتصور بخياله الواسع، أنه يمكن التوفيق بسهولة بين العرب والفرنسيين مثلما حدث ذلك بين العرب والانكليز، واعتقد أن آراء الفاروقي تمثل رأي العرب، في الوقت الذي كان الحسين نفسه لا يعطي لفرنسا الحقوق التي توهم سايكس أن الفاروقي قد عبر عنها، بينما نجد مكماهون يرد على بريقة لادوارد غراي عن قبول العرب لمستشارين فرنسيين، مثلما يقبلون بمستشارين انكليز فأجاب مكماهون بأن العرب لا يرحبون بفكرة وجود نفوذ فرنسي في مناطقهم، وهم يرغبون في الاستعانة بمستشارين بريطانيين فقط.

تابع سايكس وبيكو مناقشة القضية بينهما في ٥ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٦، ونتج عن ذلك مذكرة «المسألة العربية»، التي كان التراضي، هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى اتفاق بين الأطراف الثلاثة، الفرنسيين والانكليز والعرب، الذي يتكلم سايكس باسمهم، بعد مفاوضات وحصوله على آراء الفاروقي في القاهرة. وكانت الفكرة العامة لهذه المذكرة، تتضمن قيام دولة عربية تحت زعامة أمير عربي في شبه الجزيرة العربية، ومناطق البصرة، وبغداد (والقدس، ودمشق، وحلب) والموصل،

(٨٨) War committee meeting, 16 Dec. 1915, Evidence of Lieut-col Sir Mark Sykes on the Arab question. P. 3, G A B, 42/6.

من سليمان موسى، المصدر السابق، ٣٤٣.

وأضنه ، وديار بكر ، وأن تكون سواحل هذه المناطق تحت حماية بريطانيا العظمى وفرنسا . ونظراً لأهمية الأماكن المقدسة في فلسطين ، توضع تحت إدارة دولية ، يكون لرئيس الدولة العربية فيها صوت مثل أصوات الآخرين ، ويوضع جامع عمر تحت إشراف المسلمين وحدهم^(٨٩) .

وعن هذه الفترة من المناقشات ، ذكر بوانكاريه في مذكراته ما بين ٤ — ١٣ جانفي / كانون الثاني / ، أن انكلترا تعترف لفرنسا بالسيادة على الاسكندرون وكيليكيا ولبنان ويضم بيروت وطرابلس إليه ، لكن لا تترك سورية إلا تحت سيادة أمير مكة ، ولم يعرف بوانكاريه ما إذا كانت الموصل داخله في هذه المنطقة أما لا . وطلب بريان رئيس وزراء فرنسا ، تقسيم فلسطين بين الدولتين ، لكن بريطانيا كانت ترفض التخلي عن حيفا في فلسطين رفضاً باتاً ، وتطلب جعل فلسطين منطقة حياد ، مقابل اعترافها لنا بالاسكندرون حتى الموصل . (والموصل داخله في المنطقة الفرنسية)^(٩٠) .

أما بيكو نفسه فقد ذكر عن اجتماع ٥ جانفي / كانون الثاني / ، أن سايكس قد اعترف بحقوق فرنسا جنوب صور (في لبنان) ، مع وجوب الاحتفاظ بالعلاقة والتعامل مع العرب ، حيث هناك احتمال للاتفاق معهم حول مخرج للقضية^(٩١) .

ثم قدم بيكو وسايكس اقتراحهما بتقسيم المنطقة حسب الخطة المذكورة ، وبدوره قدمها نيكلسون إلى ادوارد غراي ، وبعد يومين وافقت بريطانيا ، وبعد أربعة أيام وافقت فرنسا على المسودة . وقد عبر سايكس عن رأي العرب بمنتهى الغرابة قائلاً « إن الفكرة المثلى للزعماء العرب ، تتضمن وضع سواحل العراق وسورية تحت حماية بريطانيا العظمى وفرنسا »^(٩٢) . كان ذلك مما سهل الأمور على بريطانيا ، كي تتخذ الموقف المذكور حيال حلفائها الفرنسيين ، وترضيهم بأرض حلفائهم العرب .

(٨٩) سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٣٤٥ . Arab question, Memo, F. O. 371/2767.

(٩٠) مذكرات بوانكاريه ، عن أمين سعيد ، أسرار ، ص ١٣٩ .

(٩١) D. F. Aff, Etr, vol. V (871) 5 Jan. 1916. PP. 148-154.

(٩٢) سليمان موسى ، الحركة ، ص ٣٤٥ .

وفي مارس / آذار /، سافر سايكس وبيكو إلى روسيا، للاتفاق معها على المناطق التي تتعلق بها، وتم الاتفاق أخيراً على اعتراف الدول الثلاثة بحق ومناطق كل دولة، وكانت اتفاقية سايكس—بيكو جزءاً من هذه الاتفاقية الكبيرة، بين الأطراف الثلاثة وإن كانت قد حملت اسمها الكامل^(٩٣).

وانتهت هذه المفاوضات، واعتبر تاريخ ١٦ ماي / أيار / ١٩١٦ تاريخاً لها، حيث أرسل ادوارد غراي مذكرة إلى السفير الفرنسي في لندن مسيو بول كامبون، يعلمه بموافقة الحكومة البريطانية النهائية عليها. وكانت بنود هذه الاتفاقية اثنتي عشرة مادة هي^(٩٤):

مادة ١ — إن فرنسا وبريطانيا العظمى، مستعدتان أن تعترفا وتحميا^(٩٥) دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية، تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) (داخلية سورية) و (ب) (داخلية العراق) المبيتين في الخريطة الملحقة بهذا، ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ولانكلترا في منطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية، تنفرد

(٩٣) من أجل إبلاغ روسيا عن اتفاق سايكس—مع بيكو كما كان ترى فرنسا

انظر D. F. Aff. Etr, vol. V (871) 29 Dec. 1915. P. 130.

وعن موقف روسيا بشأن التفاوض بين الحلفاء الأربع بما يخص المستقبل الجديد في العالم العربي

انظر Ibid, 1 Jan. 1916, P. 133.

وزين زين، الصراع، ص ٧٠.

وكان من رأي آرثر نيكلسون، واقترحه على ادوارد غراي، إبلاغ روسيا بالمفاوضات الجارية مع شريف مكة، وتعريفها بالمفاوضات المتعلقة بخلق امبراطورية عربية بمعنى آخر.

Ibid, 29 Jan. P. 131.

(٩٤) النص مأخوذ من كتاب «الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين» المجموعة الأولى ١٩١٥—١٩٤٦، ص ٨٤. وقد نقل عن هذا النص مترجماً كتاب انطونيوس (يقظة العرب، ص ٥٧٨—٥٨٢) وأخذ عنه أيضاً أمين سعيد من كتاب أسرار الثورة العربية، ص ١٤٧—١٥٠. وانظر أيضاً نصها في الشناوي، ص ١٠٧—١١١.

(٩٥) كتب ادوارد غراي إلى بول كامبون يقترح تبديل كلمة حماية Protect حتى لا يساء تفسيرها بأنها تتضمن نوعاً من الحماية، «بينما قصدنا نحن أن نضمن الاستقلال التام للدولة الجديدة» فأجاب كامبون في ٥ أوت / آب / موافقاً واقترح كلمة Uphold بالانكليزية و Soutenir بالفرنسية بدلاً من Protect فوافق عليها غراي. سليمان موسى، الحركة، ص ٣٤٦، عن GOOCH. IV. PP. 248-249.

فرنسا في منطقة (أ)، وانكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب، بناءً على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

مادة ٢ — يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (شقة سورية الساحلية)، ولانكلترا في المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية في بغداد حتى خليج فارس) إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة، أو بالوساطة، أو من المراقبة، بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية.

مادة ٣ — تنشأ إدارة دولية في المنطقة الحمراء (فلسطين)، يعين شكلها بعد استشارة روسيا، وبالاتفاق مع بقية الحلفاء، وممثلي شريف مكة.

مادة ٤ — تنال انكلترا ما يأتي :

١ — ميناء حيفا وميناء عكا.

٢ — يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات في المنطقة (أ) للمنطقة (ب) وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها، بأن لا تدخل في مفاوضات ما مع دولة أخرى للتنازل عن قبرص، إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسية مقدماً.

مادة ٥ — تكون الاسكندرون ميناءً حراً لتجارة الامبراطورية البريطانية، ولا تنشأ معاملات مختلفة في رسوم الميناء، ولا ترفض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية، وتباح حرية النقل للبضائع الانكليزية عن طريق الاسكندرون وسكة الحديد في المنطقة الزرقاء، سواء كانت واردة إلى المنطقة الحمراء، أو إلى المنطقتين (أ) و (ب)، أو صادرة منها، ولا تنشأ معاملات مختلفة (مباشرة أو غير مباشرة) على أي سكة من سكك الحديد، أو في أي ميناء من موانئ المناطق المذكورة، تمس البضائع والبواخر البريطانية.

وتكون حيفا ميناءً حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها، والبلاد الواقعة تحت حمايتها، ولا يقع اختلاف في المعاملات، ولا يرفض اعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسية، ويكون نقل البضائع الفرنسية حراً بطريق حيفا، وعلى سكة الحديد

الانكليزية في المنطقة السمراء، سواء كانت البضائع صادرة عن المنطقة الزرقاء، أو الحمراء في المنطقة (أ)، أو المنطقة (ب)، أو واردة إليها، ولا يجري أدنى اختلاف على المعاملة بالذات أو بالتبع، يمس البضائع أو البواخر الفرنسية، في أي سكة من سكك الحديد، ولا في ميناء من الموانئ في المنطقة المذكورة.

مادة ٦ — لا تمتد سكة حديد بغداد إلى المنطقة (أ) إلى ما بعد الموصل جنوباً، ولا في المنطقة (ب) إلى ما بعد سامراء شمالاً، إلى أن يتم إنشاء خط حديدي يصل بغداد بحلب ماراً بوادي الفرات، ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين.

مادة ٧ — يحق لبريطانيا العظمى أن تنشئ وتدير وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدي يصل حيفا بالمنطقة (ب)، ويكون لها عدا ذلك حق دائم بنقل الجنود في أي وقت كان على طول هذا الخط. ويجب أن يكون معلوماً لدى الحكومتين، أن هذا الخط، يجب أن يسهل اتصال حيفا ببغداد، وأنه إذا حالت دون إنشاء خط الاتصال في المنطقة السمراء مصاعب فنية، ونفقات وافرة، لإدارته تجعل إنشائه متعذراً، فالحكومة الفرنسية تكون مستعدة أن تسمح بمروره في طريق بربرة، أم قيس، ملقى، إيدار، غسطا، مغاير، قبل أن يصل إلى المنطقة (ب).

مادة ٨ — تبقى تعريفات الجمارك التركية نافذة عشرين سنة في جميع جهات المنطقتين الزرقاء والحمراء، والمنطقتين (أ) و (ب)، فلا تضاف أي علاوة على الرسوم، ولا تبدل قاعدة التثمين في الرسوم بقاعدة أخذ العين، إلا أن يكون باتفاق بين الحكومتين.

ولا تنشأ جمارك داخلية بين أية منطقة وأخرى من المناطق المذكورة أعلاه، وما يفرض من رسوم الجمر على البضائع المرسلة إلى الداخل، يدفع في الميناء ويعطى لإدارة المنطقة المرسلة إليها البضائع.

مادة ٩ — من المتفق عليه أن الحكومة الفرنسية لا تجري مفاوضة في أي وقت كان للتنازل عن حقوقها، ولا تعطي مالها من الحقوق في المنطقة الزرقاء لدولة أخرى، إلا للدولة أو حلف الدول العربية بدون أن توافق على ذلك سلفاً، حكومة جلالة الملك التي تتعهد للحكومة الفرنسية بمثل هذا فيما يتعلق بالمنطقة الحمراء.

مادة ١٠ — تتفق الحكومتان الانكليزية والفرنسية بصفتها حاميتين للدولة العربية، على ألا تمتلكا ولا تسمحا للدولة ثالثة أن تمتلك أقطاراً في شبه جزيرة العرب، أو تنشئ قاعدة بحرية في الجزائر على ساحل البحر الأبيض الشرقي. على أن هذا لا يمنع تصحيحاً في حدود عدن قد يصبح ضرورياً بسبب عداء الترك الأخير.

مادة ١١ — تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها، لتعين حدود الدولة أو حلف الدولة العربية.

مادة ١٢ — من المتفق عليه عدا ما ذكر، أن تنظر الحكومتان في الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح إلى البلاد العربية^(٩٦).

لا تكاد تخلو مادة من هذه المواد الاثنتي عشرة، وخاصة السياسية والاقتصادية من أمر يتعلق بمصير سورية، إذ مزقتها هذه الاتفاقية إلى أربعة أجزاء، ما زالت قائمة حتى الآن، مع قلب واحد منها (فلسطين) إلى دولة غير عربية. وكانت اتفاقية سايكس—بيكو، نتيجة للأطماع الاستعمارية الفرنسية والبريطانية في المنطقة العربية،

(٩٦) يذكر أرنولد توينبي بما يخص هذه الاتفاقية وتسميتها، ويحاول تبرئة سايكس مما أتي بها فيقول: إن نص الاتفاقية النهائي كان من وضع سايكس وبيكو، لكن دورهما كان في إيجاد صيغة واحدة لهذا النص، أما النقاط الأساسية فقد تم الاتفاق عليها في اجتماعات حدثت بين زعماء الحكومتين السياسيين، ثم قدموها إلى سايكس وبيكو لصياغتها. وإن اسم الاتفاقية غير الرسمي يطلق اختصاراً على هذه الاتفاقية. والآن وبما أن هذه الاتفاقية عرضة للشك والتكذيب، وبما أن السيد سايكس قد توفي بالانفلونزا أثناء انعقاد مؤتمر الصلح في باريس سنة ١٩١٩، ولم يعد قادراً على الدفاع عن نفسه، فإن بريطانيا هي المسؤولة عن هذه الاتفاقية (من الجانب الانكليزي).

زين زين، الصراع، ص ٢١٠ عن

Arnold. J. Toynbee, The western question in Greece and Turkey. London 1922, P. 48.

كما أن اسم هذه الاتفاقية (سايكس—بيكو) يهمل جانباً دور روسيا فيها، ويقع المرء في الخطأ، من أن بريطانيا وفرنسا هما المسؤولتان عن تقسيم الأراضي العربية التابعة للدولة العثمانية، لكن الحقيقة أن روسيا كانت شريكة في هذا التقسيم، الذي جرى بموافقتها صراحة، لكن اهتمامها التاريخي كان منصباً على منطقة شمال وشرق الأناضول والمضائق، وهذا ما ساهمت به في هذه الاتفاقية ولذلك سقط اسمها ولم يقترن بها. بينما حصتها من الدولة العثمانية في استانبول والمضائق كان قد تم في اتفاقها مع بريطانيا في مارس / آذار / ١٩١٥.

زين، المصدر السابق، ص ٦٩ و ٢١١.

لكن الذي زاد من تعاستها أنها لم تقع تحت سلطة أجنبية واحدة ، كان يمكن على الأقل أن تصبح في المستقبل دولة مستقلة واحدة ، لكن التنافس بين فرنسا وبريطانيا ، قادها إلى مصيرها المجزأ . كانت هذه الاتفاقية مخالفة لاتفاق بريطانيا مع الحسين . وقد وضع جيمس موريس^(٩٧) مقارنة بسيطة في جدول توضح الاختلاف بينهما ، وقال فيه إنه يمكن لأي معلق غير متحيز أن يصور اتفاقات بريطانيا على الشكل التالي :

المنطقة	إلى الحسين يوليو ١٩١٦	إلى فرنسا مايو ١٩١٦	إلى الصهيونية فيما بعد ١٩١٧
سورية	مستقلة	عربية — فرنسية	
لبنان والسواحل السورية	تحفظ	فرنسية	
شمال العراق	مستقل	عربي — فرنسي	
وسط العراق	مستقل	عربي — بريطاني	
جنوب العراق	بريطاني	بريطاني	
فلسطين	مستقلة	دولية	وطن قومي
شرقي الأردن	مستقل	عربي — بريطاني	وطن قومي

والدليل على تناقضها مع تعهد بريطانيا للحسين ، أنها لم تشرك أحداً من العرب في مباحثات هذه الاتفاقية ، التي تحدد مصير أرض عربية تتفاوض بشأنها مع الحسين ، مع أنها كانت تطلع فرنسا على مفاوضاتها مع الحسين ، وليس ذلك فحسب ، وإنما كتمت أمرها عن العرب ، ولولا أنه فيها ما يناقض اتفاقها مع الحسين لما أبقتة سراً عليه .

(٩٧) جيمس موريس ، الملوك الهاشميون ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ٦٨ .

حتى عام ١٩١٧، عندما كشفته وثائق وزارة الخارجية الروسية بعد ثورة ١٩١٧ الشيوعية، وعندما نشرت نصوصها جريدة (المانشستر غارديان الانكليزية) في نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٧، ومع كل ذلك ظلت تنكرها. وهناك أدلة كثيرة أخرى على مناقضة بريطانيا في هذه الاتفاقية لاتفاقها مع الحسين، منها ما نبه إليه وزيرالهند البريطاني زميله وزير الخارجية البريطانية في مذكرة في ٢٨ ففريه / شباط / ١٩١٦، مشيراً إلى رسالة الحسين المؤرخة في ١ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٦، التي ذكر فيها، أنه لا يتساهل بأي شكل مع فرنسا بشأن احتلالها لأي جزء من الساحل السوري. واستفهم وزير الهند عما إذا كانت وزارة الخارجية قد أبلغت فرنسا، باعتراضات الحسين حتى لانتهم بريطانيا في المستقبل بسوء النية، إذا استمرت بالمفاوضات مع فرنسا دون أن تحيطها علماً بما يقوله الطرف الثالث. لكن وزارة الخارجية البريطانية لم تفعل ذلك ولم تبلغ فرنسا تماماً بتفاصيل المفاوضات الدقيقة مع الحسين^(٩٨).

وكان من الأفضل لبريطانيا وفرنسا والعرب، لو أن مكماهون نفسه قد تولى المفاوضات عن الجانب الانكليزي، فلقد كان في قلب اللعبة والتلاعب مع العرب، لكن مكماهون عندما علم بمباحثات بريطانيا مع فرنسا من قبل وزارة الخارجية البريطانية في ٢٧ أبريل (نيسان) ١٩١٦، التي اعتقدت أنه يمكن إيجاد تسوية للخلاف العميق بين العرب والفرنسيين من أجل الساحل السوري، أجاب في ٤ مايو / أيار / ينصح بإبقاء الاتفاقية (سايكس-بيكو) «سراً عن الجهات العربية في الوقت الحاضر»، على أمل أن تتحسن الأحوال في المستقبل لمصلحة بريطانيا، ثم يخبرون بها، ووافقت وزارة الخارجية البريطانية على كتمان سر الاتفاقية^(٩٩).

كما أهمل مكماهون، تعليقات الأستاذ هوجارت، حول أن الحسين لا يقبل إلا أن تكون سورية، بما فيها فلسطين حتى حدود ٥٣٧ شمالاً داخلية في حدود الدولة

(٩٨) سليمان موسى، المصدر السابق، ص ٣٤٨ و. F. O. 371/ 2767/

(٩٩) Ibid, 371/2768/ Telegram No 339, 371, 329.

العربية المستقلة المرتقبة^(١٠٠). وترك الأمور تسير تبعاً للأطماع الاستعمارية، دون احترام للعهود التي لم يحف مدادها بعد مع الحسين.

ولقد عبر الزعماء البريطانيون أنفسهم عن الازتيك والتناقض في سياستهم تجاه العرب، فذكر مارك سايكس سنة ١٩١٧، أن اتفاقات بريطانيا المتناقضة أمر يبعث على الخجل. ووصف تشرشل أتمها ازيك في المبادئ، ووصفها لورنس أنها خيانة حقيقية^(١٠١). ووصف اللورد كرزون سنة ١٩١٨، حدود الاتفاقية بأنها تدل على الجهل المطبق، وأنها غير عملية على الإطلاق وأنها تفصل العرب في منطقتي (أ) و (ب) بخط تقسيم لا يمكن تصديقه، وهو خيالي إلى أبعد الحدود، لكنه نفسه اشترك في تنفيذ الاتفاقية سنة ١٩٢٠، عندما كان وزيراً للخارجية بريطانيا^(١٠٢).

علق كثير من الكتاب على اتفاقية سايكس—بيكو وأسبابها الحقيقية، لكن الذي أدخلها في الازتيك والعلاقات المعقدة، هو اقترانها ومقارنتها بعهود الانكليز للحسين، والتي وصفها الكثير أيضاً بالغموض والتناقض، ولذلك فإن وزر اتفاقية سايكس—بيكو يقع بالأساس على الانكليز الذين نقضوا العهد مع العرب، أما فرنسا فهناك شبه اجماع من قبل العرب المسلمين، على أنها كانت تسعى صراحة لاستعمار سورية، وهو ما كانت تصرح به، أما انكلترا، فقد استعمرت العرب وهي تدعي صداقتها لهم، وحمايتهم وإنشاء دولة عربية مستقلة، لكن كل ذلك كان مصيره الفشل. وعلقت م. ف. سيتون ولمز على سياسة بريطانيا الفاشلة هذه فقالت «خيل لبريطانيا أنها نجحت في التآليف بين الاتفاقات التي عقدتها في أثناء الحرب، لكنها في الحقيقة فشلت تماماً، ولا يزال لهذا الفشل أثره في تشكيل، أو في الحق، تشويه علاقات بريطانيا بالعالم العربي حتى يومنا هذا»^(١٠٣).

(١٠٠) Memo on Anglo-Franco-Russian agreement, 3 May, 1916. عن سليمان موسى، المصدر

السابق، ص ٣٤٩. F. O. 882/16.

(١٠١) جيمس موريس، ص ٦٩.

(١٠٢) سليمان موسى، ص ٣٥٠.

(١٠٣) م. ف. سيتون ولمز، بريطانيا والدول العربية ١٩٢٠—١٩٤٨، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى،

القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٢، ص ٥٠.

ويعلق لودر على دوافع بريطانيا، التي أدخلت علاقتها بالعرب، وعلاقة العرب بالفرنسيين في متاهة غامضة وفشل خطتها في الحرب — وربما يعني فشل حملة الدردنيل! — إذ قال «إن خوف بريطانيا من فشل خطتها في الحرب، وفشلها في التوفيق بين مطامح فرنسا ومطامح العرب، هو الذي جعلها تكتم اتفاقها مع العرب عن فرنسا — كلام غير دقيق — واتفاقها مع فرنسا عن العرب، وتركت الأمور معلقة ظناً منها أنها تستطيع حلها لأنه لا يوجد تناقض بينها»^(١٠٤).

أما ما يخص سورية من هذه الاتفاقية، وما انعكس عليها في تاريخها الحقيقي منها، فهو أكبر بكثير من كل التعليقات والتبريرات والانتقادات للانكليز أو للفرنسيين. فالواقع شيء والكلام مهما كان نوعه وشدته شيء آخر. كانت هذه الاتفاقية نقطة الفصل في تاريخ سورية وخلقها للوجود في العصر الحديث والمعاصر، ويمكن لنا أن نستخلص النتائج التالية:

- ١ — كانت تحقيقاً لحلم الفرنسيين في حكم سورية، سواء حلم الفرنسيين القائم على إعادة العلاقة التاريخية مع سورية منذ الحروب الصليبية، أم في حلم الاستعمار السياسي والاقتصادي الحديث لدولة فرنسا.
- ٢ — كانت تحقيقاً لحلم بعض المسيحيين السوريين في خلق دولة سورية لهم — منفصلة عن العرب —، لأن هؤلاء كانوا ينكرون علاقتهم وصلتهم بالعروبة ناهيك عن الاسلام.

(١٠٤) لودر، القول الحق، ص ١٨ — ٢٠.

أجاب الجنرال Macdonough من وزارة الحرب البريطانية على رسالة السفير نيكلسون، بأن الانكليز والفرنسيين كالصيادين يقاتلون على جلد الدب قبل صيده، ولا يهم كيف سيقطعون تركيا بعد الحرب، لكن المهم الآن هو كسب العرب إلى صفهم بأي ثمن، ولا يجب إضاعة الوقت، وإلا انحازوا إلى الأتراك في صف الجهاد الذي يشهه الألمان. والوقت الحرج هو من الآن حتى ماي / أيار /، ويمكن تحديد المناطق الملونة الزرقاء والحمراء والبنية بعد الحرب في ٦ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٦.

F. O. 371/2767/ No 3851.

وكتب ألبرت حوراني: ثار الشريف حسين إثر تلقيه تأكيدات من البريطانيين لا تخلو من الالتباس، الفكر العربي، ص ٣٤٥.

٣ — كانت تحقيقاً لحلم بعض المسيحيين اللبنانيين بتأسيس دولة لهم في لبنان منفصلةً حتى عن سورية، وما كان تقسيم المنطقة الزرقاء التي ستبغ فرنسا إلى منطقتين حسب هذه الاتفاقية، إلا إيذاناً بخلق دولة لبنان أيضاً، إلى جانب خلق دولة سورية.

٤ — كانت ضربة قاصمة للقوميين العرب، الذين حلموا أيضاً حلماً تاريخياً، بإعادة مجد الأمة العربية، وكانت سورية مركزه الأساسي، إذ توضح المستقبل بتجزئ العرب قبل خلق دولتهم أصلاً، وتوضح أن سورية قد رسمت لها حدود تُخلق ضمنها دولة، وأن هذه أول مرة يكون لسورية حدود مثل هذه في التاريخ. ووصل تجزئ سورية حداً أنه لو أراد أحد المسافرين أن ينتقل بالقطار من مدينة ساحلية مثل عكا، إلى مدينة داخلية مثل حلب، توجب عليه أن يعبر أكثر من اثنتي عشرة نقطة حدود، في قطر صغير كسورية حيث لا تبعد المسافة بين هاتين المدينتين أكثر من ٤٠٠ كيلومتر، هذا ما ذكره الوفد العربي إلى الوفد البريطاني في باريس سنة ١٩١٩.

٥ — هذه الاتفاقية التي فصلت فلسطين عن سورية وعن البلاد العربية، لتقيم فيها نظاماً دولياً لم تكن إلا مرحلة متقدمة في مخطط الصهاينة، لأن بريطانيا حاکمة فلسطين في الوقت اللاحق لهذه الاتفاقية، كانت تسهل للصهاينة خططهم، وخاصة بعد أن تخلت فرنسا عن هذه القضية (فلسطين)، مكتفية بحرية التجارة في ميناء حيفا.

الفصل التاسع

سورية بين الحسين والخطباء

وقبل أن نأتي على نهاية حكم جمال باشا لسورية، نعود لتتابع تاريخ الحركة الوطنية العربية أو السورية في سورية، منذ الاعدامات التي قام بها جمال باشا ضد رجال الحركة الوطنية، وحتى نهاية حكمه، ثم حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وخروج الأتراك النهائي من سورية.

الحركة العربية والحسين

انتقلت الحركة الوطنية العربية في سورية بعد نشوب الحرب إلى مرحلة جديدة تجاوزت بها مرحلة العمل الفكري والتنظيمي والمؤتمرات، إلى مرحلة العمل الفعلي لاستقلال سورية والبلاد العربية، برغم محاولة الوقوف مع الدولة العثمانية في الحرب، أو عدم القيام بنشاط ضدها على الأقل. وكان يوجد ثلاثة اتجاهات في الحركة الوطنية، الأول تقليدي يكتفي بالإصلاح أو بوعد الدولة بالإصلاح، والثاني يطالب بإصلاح جذري على أساس اللامركزية، والثالث سوري—لبناني انفصالي عن الدولة العثمانية. ولم يكن للاتجاه الأول تنظيم إيجابي فعال، بينما قادت جمعية العربية الفتاة وجمعية العهد الاتجاه الثاني، وقاد بعض المهاجرين المسيحيين في مصر الاتجاه الثالث، الذي ظل يطعم الاتجاه الثاني ويؤثر فيه، حتى جعله يعمل أيضاً للانفصال عن الدولة العثمانية أولاً، ثم يعمل لمستقبل سورية وحدها ثانياً. وهو ما سوف نراه في بقية هذا الفصل. ونحن نعلم من الفصل الأول، أن هناك أعضاء مشتركين كانوا يعملون في جمعية العربية

الفتاة والعهد، وتم اللقاء والاتفاق رسمياً بين الحزبين في دمشق أوائل ١٩١٥، حيث دخل ياسين الهاشمي الضابط العراقي في جمعية الفتاة، وكان من الأعضاء البارزين في جمعية العهد، وأصبح صلة الوصل بين الجمعيتين اللتين أخذتا تنسقان أعمالهما وخططهما. وتعاونتا على ضم القوميين العرب على أهداف واحدة، سواء كانوا عسكريين كغالبية أعضاء العهد، أو مدنيين وخاصة المثقفين الذين كانوا غالبية جمعية الفتاة. وتم تعزيز قوتيهما الجديدة بأعضاء يمتازون بسلطة قبلية فعالة، كالشيخ نوري الشعلان، زعيم قبيلة الرولا الكبيرة في بادية سورية، التي كانت تبسط نفوذها على مساحات واسعة ما بين البادية والجزيرة العربية، وكالشيخ فواز الفايز شيخ قبيلة بني صخر، ونسيب الأطرش أحد زعماء الدروز البارزين في الجبل، كما ضموا الفريق المتقاعد على رضا باشا الركابي الذي أحاله الأتراك على التقاعد ككثير غيره من الضباط الكبار العرب^(١). وبذلك انتقل العمل القومي من المرحلة المثالية النظرية، إلى المرحلة الواقعية والسياسية، وبذلك خسر الاتجاه القومي نقاءه القومي المثالي، كي يتلقى كثيراً من شوائب السياسة الواقعية، كالتعامل مع المتلون نوري الشعلان، الذي سلم بعض القادة العرب لجمال باشا حيث أعدهم أو مع الانكليز والفرنسيين، أو الرضوخ لاتجاهاتهم السياسية الاستعمارية. وزاد من شعور هؤلاء القوميين قوة، أن معظم الفرق العثمانية التي كانت في سورية كانت تتألف من جنود عرب وضباط عرب، وكثير منهم منتسب إلى جمعية العهد، وكان بإمكانهم إحداث ثورة ضد الأتراك وتسلم الحكم في سورية، وهذا ما خططوا له بالفعل. وأرادوا استغلال الإنزال البريطاني في اسكندرون، كي ينفذوا الخطة، لأن الإنزال يعني فصل سورية عن تركيا بقوة عسكرية تمنع من وصول قوات عسكرية تركية. لكن الخطة لم تنفذ لسببين هامين الأول أن فرنسا رفضت قيام الإنزال البريطاني في اسكندرون، حتى لا تضع بريطانيا يدها وحدها على سورية، والسبب الثاني أن هؤلاء الضباط كانوا في معظمهم من الضباط

(١) أنطونيوس، ص ٢٣٧، وسليمان موسى، الحركة العربية، ص ١٢٥.

وانظر: F.O. 371 /2496/ No 139660, 28 Sep 1915

ر. Ibid, 371 /3050/ No 56041, 6 Feb 1917.

الصغار وتنقصهم القيادة العسكرية والقيادة السياسية، ولذا فقد كانوا يفتشون عن زعامة عربية قومية، تستطيع أن تقف بوجه الأتراك والانكليز والفرنسيين، الذين شاعت جداً أخبار تأمرهم لاستعمار سورية والبلاد العربية الأخرى. لكن ذلك لم يمنعهم من التعاون العسكري مع بريطانيا، كي يصلوا إلى أهدافهم. حدثت الخطة في فبراير / شباط / ١٩١٥ (٢).

وكانت أخبار حملة الاسكندرون، قد جعلت السوريين العاملين في مصر، يشعرون أن سورية ستفصل فعلاً عن الدولة العثمانية، ولهذا أسسوا لجنة سرية من رشيد رضا، ورفيق العظم، وحقي العظم، وجميل رفقي، والدكتور مخلوف، في أواخر يناير / كانون الثاني / ١٩١٥، وقد أرسلوا رسلاً إلى سورية — في حالة فشل الهجوم التركي على مصر، الذي حدث بالفعل في فبراير / شباط / ١٩١٥ — من أجل الحصول على الدعم، والاستعداد الفعلي للقيام بشورة بين صفوف المسلمين العرب... وستؤسس عندها حكومة عربية مؤقتة، تعمل باسم الاستقلال العربي، وتكون مدعومة من الخارج (٣) (الأجانب، الانكليز والفرنسيين).

فشلت الخطة إذن، وأعطت القيادة الأوامر إلى رجالها المدنيين كي يهربوا إلى الصحراء، إلى عنزة أو نوري الشعلان. ولقي بعض الضباط الاعداء على يد جمال باشا، كأمين لطفي وغيره، وفرقت القوات العربية من سورية وخاصة اللواء ٣٦، الذي كان سينفذ الحركة، ولهذا فشل العصيان.

وكانت قيادة الفتاة والعهد تعملان على الاتصال بالزعامات المحلية في سورية والعراق وغيرهما، وكانتا تبحثان عن قائد سياسي معروف، يستطيع دعم الحركة العربية بشكل أوسع وأقوى مما هي عليه. وكان رجالهما قد سمعوا بقصة صراع الحسين بن علي، شريف مكة، ضد الاتحاديين، وكان للحسين مكانة دينية خاصة، لأنه شريف الحجاز والأماكن المقدسة الإسلامية، وولده، عبد الله وفيصل، عضوان في مجلس

(٢) F.O. 371 / 2490/ No 139660, 28 Sep 191.

(٣) D.F. Aff. Etr, Vol II (868) 4 Feb 1915 P. 4.

رسالة من دوفرانس Do France من القاهرة.

المبعوثين . وكان الحسين في تلك الفترة، يعتبر من أهم وأكبر الزعماء العرب، وكان طموحاً فرض وجوده في مكة، برغم ارادة الاتحاديين، ورفض إدخال نظامهم الدستوري على الحجاز، كي يبقى الشرع الاسلامي دستوراً له . ولهذا استغل الوطنيون العرب في سورية، فرصة سفر أحد أعضاء جمعية الفتاة، وهو فوزي البكري، من دمشق إلى مكة ليؤدي خدمته العسكرية الاجبارية في حرس الشريف الحسين، الذي كان حصل على إذن من الحكومة التركية، كي يخدم آل البكري عنده خدمتهم الالزامية، بسبب صداقة قديمة، وحملوه رسالة شفوية إثر اجتماع لهم، ضم الركابي والهاشمي والعريسي وغيرهم، وكانت تلك الرسالة تخبره بوجود حركة وطنية عربية في سورية والعراق، فيها ضباط كبار في الجيش العثماني يسعون «لإنهاض العرب من كبوتهم، ولاستعادة مجدهم الغابر، ولنيل الاستقلال، فيما إذا لم تكن تتمكن الدولة العثمانية، من اصلاح الادارة إصلاحاً حقيقياً، يجعل البلاد بمأمن من استيلاء الأجانب، الذين يتحينون الفرص لاحتلال هذه الديار واستعمارها، إذ أن كل عربي أصبح مدركاً غايات الاتحاديين السيئة، وقصدهم الجنوني بتريك العناصر غير التركية» . وسألوا الشريف عما إذا كان يقبل التعاون معهم، وبالتالي يتولى قيادتهم، وهل يقبل باستقبال وفد من قيادتهم، أو يرسل مندوباً إلى دمشق للاتفاق على العمل في المستقبل^(٤) . لم يجب الحسين أمام رجل غريب، وكان حذراً، واكتفى بتسريح نظره من النافذة كأن لم يسمع شيئاً، ولكن المجال الذي فتحته له، كان المجال الذي يبحث عنه في مقاومته للاتحاديين، وخاصة وإلى الحجاز، وهيب باشا، الذي كان يترصد به الدوائر . وانتظر الحسين من أواخر يناير / كانون الثاني / ١٩١٥ وحتى أوائل فبراير / شباط / كي يطلع على حقيقة موقف وهيب باشا الجديد منه، كي يحدد سلوكه وجوابه إلى الوطنيين العرب في سورية^(٥) . وكان حتى ذلك التاريخ، قد تلقى رسالتين من كتشنر المفوض السامي البريطاني في مصر، وهكذا أصبح الآن لدى الحسين دعم لموقفه ضد

(٤) فائز الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية، دمشق ١٩٥٦، ص ٢٠٣، وانطونيوس،

ص ٢٣٢ — ٢٣٣، سليمان موسى، الحركة العربية، ص ١٢٧ .

(٥) انطونيوس، ص ٢٢٣ .

الاتحاديين، وهذا الدعم كان مهماً جداً، بل وضرورياً، لأنه دعم قومي عربي لحركته المقيلة ضد الاتحاديين الأتراك، ولا شك أن لموقف الفتاة من الحسين، كان له أكبر الأثر في دفع الحسين حتى النهاية ضد الاتحاديين، وبرز من هنا اهتمامه بسورية، إضافة إلى اهتمامه العربي بها من قبل. ومن هذا التاريخ أيضاً، تبدأ حركة جديدة في تطور الحركة الوطنية العربية في سورية، بانضمام فيصل بن الحسين إليها، وما تطورت إليه الأمور في سورية خاصة والمنطقة العربية عامة.

تأكد لدى الحسين نيات الاتحاديين السيئة ضده، عندما عثر رجاله على محفظة تخص الوالي وهيب باشا، وفيها أوراق سرية ضد الحسين. وهنا قرر الحسين الاتصال بالقوميين في دمشق، فأوفد ابنه فيصلاً لذلك، وأوصاه ولقنه طويلاً عن مهمته. وكانت مهمة فيصل الظاهرية هي السفر إلى استانبول عن طريق دمشق، للشكوى إلى الحكومة التركية ضد ما يبيته وهيب باشا ضد أبيه.

فيصل بن الحسين في دمشق

وصل فيصل إلى دمشق في ٢٦ مارس / آذار / ١٩١٥، ومكث فيها أربعة أسابيع، ونزل ضيفاً عند آل البكري في القابون قرب دمشق، بعد أن اعتذر لجمال باشا عن الإقامة في ضيافته. وكان يستقبل رجال الحركة الوطنية آخر الليل، بعد ما تنتهي زيارة الناس العاديين الذين أتوا يرحبون به. وفي البداية كان هؤلاء الرجال على حذر وتريث من فيصل، لأنه كان معروفاً بميوله نحو الأتراك، على عكس أخيه عبد الله. لكنه أفهمهم أنه يؤمن حقاً بمستقبل العرب، وعبر عن رأيه بالخوف من الأطماع الأوروبية التي شاعت كثيراً. وقد أطلع فيصل هؤلاء على دخيلة نفسه، فوثقوا به وأطلعوه على تنظيمهم وجمعياتهم وأهدافهم وموقفهم خلال الحرب، إلى جانب تركيا وهو بدوره كشف لهم عن اتصال الانكليز بأبيه، وعن رسالتي كتشنر لأبيه. ودخل فيصل في جمعية الفتاة، وجمعية العهد، وأقسم يمين الولاء لهما. وكان معجباً بتنظيمات العهد العسكرية، ومسروراً من علمه أن القوات العسكرية العثمانية في سورية هي في غالبيتها من العرب، ضباطاً وجنوداً، وأنهم مستعدون لتنفيذ أي أمر عربي

من قادتهم، بالزحف والقيام بالثورة. كانت تلك القوة هي رصيد واحتياطي الحركة العربية في سورية في وقتها المناسب، لكن هذه الحركة ظلت تميل إلى التعاون مع الأتراك، وهذا ما تأيد باجتماع في بيت شكري الأيوبي في دمشق بوجود تأليف عصابات لمساعدة الدولة العثمانية في حربها، إذا اضطر الأتراك للانسحاب من البلاد العربية^(٦).

لكن الحقيقة؛ أن الوقوف مع الأتراك في محنة الحرب، كان من باب الالتزام الأدبي أو الأخلاقي أو الديني، بعدم كسر أو فصم العلاقة ما بين العرب والترك، التي دامت أربعة قرون، لكن الواقع كان يؤكد لهؤلاء القوميين، أن احتمال الانفصال كبير في المستقبل، ولذا كانوا يتابعون تشكيل قواهم وتحالفهم مع الحسين، أو مع الانكليز كما ذكرنا، ولهذا نراهم بعد أن ضموا فيصلاً لهم، يرسلون إلى أخيه علي أكبر أبناء الحسين، شخصاً من جمعية الفتاة، هو يوسف حيدر، حيث أدخله في الجمعية، كما أوفدت هذه الجمعية الشيخ كامل القصاب إلى الحسين بن علي، حيث شرح له الحالة في سورية، بما فيها من ظلم وسوء على يد جمال باشا، الذي كان بدأ باعتقال الدفعة الأولى من الوطنيين وقدمهم للمحاكمة ثم أعدمهم، وكان القصاب يثير الحسين ويشجعه على القيام بالثورة.

سافر فيصل إلى استانبول وعرض شكوى والده على المسؤولين الكبار، سعيد حليم، الصدر الأعظم، وطلعت وزير الداخلية، وأنور وزير الحربية، حيث استقبلوه بحفاوة بالغة، وطمأنوه على وضع أبيه، وأنه إذا ما أعلن الحسين تأييده للجهاد، فإن ذلك سوف يحل كل مشاكله مع الدولة. وكان القادة الأتراك يأخذون اعتباراً هاماً للجهاد الديني، ووجوب دعم الحسين شريف مكة له.

عاد فيصل في أوائل ماي / أيار / إلى دمشق، فاستقبله جمال باشا بحفاوة

(٦) انطونيوس، ص ٢٣٦ — ٢٤٢، مذكرات الغصين، ص ٢٠٤، وأمين سعيد، أسرار الثورة، ص ٥٧، وثورات العرب في القرن العشرين (نفس المؤلف)، ص ٤٢ و سليمان موسى، الحركة العربية، ص ١٢٩.

أيضاً، بناءً على توصية حكومته، وبقي في ضيافته عدة أيام في القدس حيث رافق فيصل جماًلاً إليها، وهو يحمل الأمانى الطيبة لأبيه، وخمسة آلاف ليرة ذهبية من الحكومة التركية، لينفقها على متطوعي الحجاز في حملة السويس الثانية^(٧). وعاد إلى دمشق، ليجد أن قيادتي الفتاة والعهد، قد اتخذتا قراراً سياسياً هاماً خلال غيابه في استانبول، وهذا القرار كان فيه قطع العلاقة ما بين العرب والترك، التي كانت تجمعهم في دولة واحدة، وتوصلتا إلى وجوب استقلال البلاد العربية، وسلم هؤلاء القادة إلى فيصل نص الميثاق الذي كتبوه، وفيه شروطهم لعقد اتفاق مع بريطانيا للدخول معها في الحرب، وطلبوا منه أن يقدمه لوالده، ليعمل بموجبه وعلى أساسه في اتفاقاته المقبلة مع بريطانيا، وهذا نص الميثاق:

- ١— اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية: شمالاً: خط مرسين — أضنة إلى ما يوازي خط عرض ٣٧° شمالاً، ثم على امتداد خط بيريجيك — أورفه — ماردين — مديات — جزيرة ابن عمرو — العمادية إلى حدود إيران.
- شرقاً: على امتداد حدود إيران إلى خليج العرب جنوباً.
- جنوباً: المحيط الهندي (باستثناء عدن التي يبقى وضعها الحالي كما هو).
- غرباً: على امتداد البحر الأحمر ثم البحر الأبيض المتوسط إلى مرسين.
- ٢— إلغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الأجنبية.
- ٣— عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا العظمى وهذه الدولة العربية المستقلة.
- ٤— تقديم بريطانيا العظمى وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية^(٨).

(٧) أنطونيوس، ص ٢٤٢، وسليمان موسى، الحركة العربية، ص ٢٣١، ومذكرات الفصين، ص ٢٠٥ و ٢١٢.

(٨) أنطونيوس، ص ٢٤٣.

لقد كان هذا الميثاق فعلاً أساساً لمفاوضات الحسين مع الانكليز، وكان ذا أهمية خاصة في تاريخ المرحلة، لأنه بني على إيجاد دولة عربية كبيرة في آسيا، وليس على إقامة دولة سورية، وهذا ما سوف يكون مصدر صراع ونزاع وتنازل عن هذا الحلم العربي، الذي لم يشمل كل البلاد العربية في إفريقية، لأنها كانت خاضعة للاستعمار الانكليزي والفرنسي والاطالي، أي الحلفاء، في الوقت الذي لم يكونوا فيه حسب رأي الوطنيين في دمشق العدو المباشر لهم، بل كان الاتحاديون. ومنذ البداية أيقن هؤلاء الوطنيون، أن الأفضل أن تدعم دولة أوروبية قوية كانكلترا، هذا الاستقلال حتى تحميه من أطماع الدول الأخرى الأوروبية، كفرنسا. لكن فيصلاً، الذي كان يعلم بأطماع الحلفاء، كان يشك بأن يقبلوا هذه الشروط، مع أنها تشكل الحد الأدنى كي يثور العرب ضد الترك بالتحالف مع الحلفاء. وأراد أن يستوثق من امكانية قيام ثورة في سورية، فأجابه هؤلاء القادة « بأنهم مستعدون لاشعال ثورة عربية، اعتماداً على الفرق العسكرية العربية، لتحرير البلاد العربية من سيطرة الأتراك، لأنهم وثقوا بأنها ستكون معرضة لاحتلال أجنبي، لما شاهدوه من تصرفات الترك، ولما كان يصلهم من أخبار الحرب في أوروبا. وقالوا إنهم لا يطلبون منه إلا أن يكون قائداً لهذه الثورة وزعيماً». وكان جواب ياسين الهاشمي (أركان حرب الفرقة الثانية عشرة) له تأثير قوي في نفس فيصل، عندما سأله الأخير عن نوع المساعدة التي يطلبونها من الحجاز في سبيل ثورتهم، إذ أجاب ياسين بثقة تامة « لا نطلب شيئاً ولا نحتاج إلى شيء... فعندنا كل شيء، وما عليك إلا أن تقودنا وتسير في الطليعة. وعندما ذكر فيصل أن الحجازيين مستعدون للعمل، أجاب ياسين بأنه لا حاجة لهم بهم « فعندنا كل شيء»^(٩).

اقتنع فيصل بقوة قول الهاشمي، وركن إلى وجود قوة عسكرية عربية فعلية في سورية، حتى إنه فيما بعد ذكر في خطاب له في ٥ ماي/ أيار / ١٩١٩، بأن والده والحجازيين قاموا بالثورة فعلاً، أما السوريون فقد كانوا مسؤولين عنها معنوياً لأنهم شوقوا

(٩) مذكرات أحمد قدي، ص ٤٦، وأمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ١٠٩.

الحجازيين لها ... « قام والدي بالثورة، بعد أن أتيت إلى سورية، وقابلت بعض الرجال، الذين منهم كثيرون في مجلسنا هذا، سواء من الحضر أو البدو »^(١٠).

ومن الأشخاص الهامين الذين قابلهم فيصل في دمشق، بناءً على اختيار جمعية الفتاة لهم كممثلين للشعب في سورية، الشيخ بدر الدين الحسني، كبير علماء الاسلام في دمشق، والفريق المتقاعد علي رضا الركابي رئيس بلدية دمشق. وتأكيداً لموقف الحركة القومية من الحسين وفيصل، ومن الميثاق الذي قدم لفيصل، أعطى كل من بدر الدين الحسني، وعلي رضا الركابي خاتميها الشخصيين إلى فيصل، كي يسلمهما لأبيه نيابة عن السوريين، على كل إجراء يتخذه الحسين. وقد بلغت الحماسة والتفاؤل بعدد من السوريين حداً، دفعهم إلى الاعتقاد أن لا لزوم للاتفاق مع بريطانيا — فقوتهم الذاتية تكفي للثورة — ولم يغادر فيصل إلى دمشق، إلا ودخل عن طريقه في جمعية الفتاة كثير من زعماء الدروز والحوارنة والبدو، حتى غدت الجمعية قوية بهم، وكان فيصل يرسل هؤلاء الزعماء كي يحضروا من أماكنهم البعيدة لمقابلته في دمشق، وكانوا يحضرون ويسمعون لأقواله وخططه في مستقبل العرب واستقلالهم، وكان يرسم معهم الخطط السرية لذلك، كما فعل مع نواف الشعلان ابن نوري عند عودته من استانبول. وهكذا وجد زعماء الحركة القومية في دمشق في فيصل — كما يذكر أحمد قدري — تربة خصبة. وفعلاً أخصب فيصل تلك الحركة القومية، ودفع بها إلى ميدان الحركة والثورة. وتبرع بألف ليرة ذهبية مما أتى به من استانبول لجمعية الفتاة، ثم غادر دمشق إلى القدس، كي يستأذن جمال باشا بالسفر إلى الحجاز، ثم عاد لدمشق وسافر بالقطار إلى المدينة. وكان قد كتب نسخة عن ميثاق دمشق بخط صغير جداً، وخبأها أحد أتباعه في حذائه، وخاط عليها بطاقة الحذاء. ووصل فيصل إلى مكة في ٢٠ جوان / حزيران / ١٩١٥، وشرح لوالده موافقته على ميثاق دمشق لاشعال الثورة

(١٠) مذكرات الحكيم، العهد الفيصلي، ص ١٤٣.

العربية، وظل الحسين يستجوب فيصلاً بأسئلته الدقيقة، وكان فيصل عندما يتذكر ذلك يقول «كان ذلك الأسبوع أقسى ما مر بي في حياتي» (١١).

دور الانكليز

إن الذي حدث في النصف الأول من سنة ١٩١٥ في سورية، يدعو إلى التفكير العميق والبحث عن تفسير لما حدث. ولم نجد في كتب من بحث هذا الأمر، تحليلاً أو تفسيراً أو حتى ذكراً. لقد اتخذت قيادات الحركة العربية توصيات، بوجوب الوقوف مع الدولة العثمانية خلال الحرب، وفي نفس الوقت كانت تدبر الخطط للثورة ضد الأتراك. كان جمال باشا قد أعلن عن تقديره للعرب، وغض الطرف عن أوراق القنصلية الفرنسية، وغزا قناة السويس وفشل. كان الانكليز في مصر يتصلون بالقيادة السورية هناك للعمل ضد الأتراك، وكانوا يتصلون أيضاً بالحسين، وإن كان ذلك

(١١) مذكرات الفصين، ص ٣٩ و ٢٠٦ ومذكرات أحمد قدرى، ص ٤٦، وأمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٢٦-٢٧، وأنطونيوس، ص ٢٤٥، سليمان موسى، الحركة العربية، ص ١٣٣. قال فيصل في خواطر خاصة كتبها في نوفمبر / تشرين الأول / ١٩١٩، «... لقد كان والذي وجميع من قام بالحركة الأخيرة، يرى أن الاتفاق مع انكلترا يكفي لتأليف الوحدة العربية. أتيت من الشام وأخبرته بذلك، بعد أن عرضت عليه عهد الجمعيات والأشخاص، وأنبأته بأنهم يؤملون أن جلالته يسعى في هذا الاتفاق بالشروط التي تكفل الوحدة والاستقلال. وكان أكتية القائمين بالهضة في الشام، يرون أن لا لزوم حتى للوفاق مع بريطانيا، بل أنهم كانوا يقولون، نحن نشور على الأتراك، ونطردهم، ونؤمن استقلالنا، وإن أتانا أحد من الخارج فنحن نقاومه. ولكن الفكر والتأني يقضيان بخلاف ذلك. وبما أن الموقف كان حرجاً، وكان الحلفاء على أبواب الآستانة، وكانت الأخبار تنبئ بمخطورة الموقف، وخوفاً من وقوع الأتراك في أيدي الحلفاء والعرب معهم، وبالنسبة يكون دمار العنصرين العربي والتركي، فوالدي بعد الأضرار الذي توجه إليه من الجمعيات الدمشقية، بدأ يفاوض الانكليز، ولا خف في عمله كما أراد إخواننا المذكورون بل إنه قدم شروطه وبدأت المذكرات...» أوراق الأمير زيد بن الحسين (أخ فيصل) عن سليمان موسى، الحركة العربية، ص ١٣٣.

وفي أوراق القضية العربية - القسم الخاص - ورقة بلا تاريخ ولا عنوان (بعد موت فيصل ١٩٣٣)، فيها سرد لاجتماع فيصل مع الهاشمي والحسين، تقول أن فيصلاً لم يعمد إلى السيف ضد الترك، لاعتبارات كان يراها على شيء عظيم من الوجاهة، وأن الهاشمي قال بأن الجيش يؤيد الحركة، إلا أنها تحتاج لتأييد الأهلين، فهب بدر الدين الحسيني، وقال بأن الواجب الوطني يقتضي الاسراع لانقاذ البلاد، وعربوناً على اخلاصه، قدم خاتمه الخاص ليطلع عليه الملك للحسين، حتى تتبدد الشكوك ويشق من التفاف العرب حوله.

دمشق، مركز الوثائق التاريخية - القسم الخاص رقم ١١٨ / ٩٩.

سابقاً لمراسلات الحسين — مكماهون . كان جمال باشا يتصل بالروس والانكليز والفرنسيين ، في نفس الفترة لفصل سورية والبلاد العربية الأخرى عن الدولة العثمانية . واتصل القوميون العرب بالحسين ، ووصل ابنه فيصل إلى دمشق ، واتفق معهم على الثورة . وفي نفس الفترة وربما قبل أن يغادر فيصل سورية أخذ جمال باشا يلقي القبض على رجال الحركة العربية ، ويودعهم السجن بناءً على أخبار تتحدث عن ثورة ، ستقوم في سورية بالاتفاق مع الحلفاء ، الذين سينزلون في اسكندرون ، وأخذ يبعد الفرق العسكرية العربية إلى الأناضول والقوقاز . يذكر بعض المحللين أنه فعل ذلك لأنه أراد أن يغطي فشل حملة السويس في فبراير ١٩١٥ . هو يذكر أن ثورة كانت ستقوم في سورية بالاتفاق مع الحلفاء ، الذين سيقومون بإنزال في اسكندرون ، لكن ليس لديه الدليل فأعدم بناءً على إحساسه الصحيح هذا واتخذ براهين وحججاً لا تقنع أحداً بأحكام الاعدام . حدث كل ذلك ما بين شهر شباط / ففريه / وأيار / ماي / ١٩١٥ ، فهل أتت كل تلك الأحداث الهامة صدفة في وقت قصير . إن تحليلنا لذلك هو أن الانكليز كانوا القاسم المشترك لتلك الأحداث ، وهم الذين كانوا يحركونها لمصلحتهم بالطبع . ومصلحتهم تقضي بسحب العرب إلى صفهم ووضعهم في الصف المعادي للترك ، وهذا يعطيهم أكثر من نصف النصر في الشرق ، في الحرب العالمية الأولى ، على حساب جزء من الدولة العثمانية ، أي العرب أنفسهم ، فاتصلوا بالحسين وبالقادة العرب في مصر . حتى إن بعض القادة العرب الآخرين كانوا ينفذون خطة معينة في سورية وغيرها . ولدينا الدليل على هذا الاتصال — غير الاتصال بالحسين والقادة في مصر كعزيز المصري ورشيد رضا وكامل القصاب وغيرهم — فقد التقى (Letenanrt-Colonel) بيكو البريطاني العامل في السفارة الانكليزية في سويسرا بمختار الصلح (عضو سابق في مجلس المبعوثين عن بيروت) وتحدث مختار الصلح ، عن أن سورية قد نضجت للثورة ، وكذلك الجزيرة العربية منذ أربعة أشهر أي في شهر / ماي / — حيث كان فيصل في دمشق — وأن الجمعيات السرية قد أسست في كل مدينة في سورية ، كما في استانبول ، وهم مستعدون للالتفاف حول «أي إنزال في سورية من أجل قيام حركة فيها» . ويجب تأكيد استقلال سورية عن استانبول في المجالين

السياسي والديني ... والشعب يطلب السلاح والذخيرة، وسوف تثور البلاد ضد الأتراك، وقد وصل وكلاء اللجان إلى شيوخ القبائل العربية كمجحم بن مهيد، وأحد هؤلاء الوكلاء هو سامي بك الصلح المستشار القانوني لشركة خط بغداد الحديدية (أخو مختار الصلح المذكور)، وأن سامي الصلح يقوم بعمله، حالما يحتل الانكليز بغداد، لأن له نفوذاً كبيراً على شيوخ العرب^(١٢).

والاتصال الثاني جرى ما بين، شريف الفاروقي، وياسين الهاشمي، وسامي الصلح، و فيصل في حلب، ثم هرب الفاروقي إلى القاهرة من الدردنيل وأرسل، رسالة للحسين يخبره بها أن جمال باشا أحس بخطة الضباط في سورية، فسجنه مع ياسين وغيرهم لمدة ١٥ يوماً ثم نقله إلى استانبول. ومن بعد هرب من الدردنيل أثناء المعركة ما بين أساطيل بريطانيا وفرنسا في حصارها لاستانبول. ويذكر أنهم يعلمون باتصاله (الحسين) بالانكليز، ويوافق على خطته، ويضع نفسه تحت تصرفه ثم قابل سايكس^(١٣).

وإذن كان يمكن لهذه الاتصالات الانكليزية الكثيرة أن تخرج عن سريتها الدقيقة، وتصل إلى جمال باشا بالتنبيه أو بالاحساس، فيفعل فعله، وإلا كيف علم جمال باشا بخطة الانزال واتفاق الوطنيين العرب مع الانكليز عليه، لو لم يأت ذلك عن طريق الانكليز بشكله الغامض كي يضرب ضربه، ويقضي على آخر علاقة للعرب، أو لمن بقي في قلبه شيء من الاخلاص من العرب للدولة العثمانية. ولدنا الدليل أيضاً، لأن التقرير الانكليزي الذي يتحدث عن محاولة العصيان العربية أملاً في نزول الحلفاء بالاسكندرون، يذكر أن فشل الخطة كان بسبب فشل البريطانيين في النزول إلى البر، لكن كانت الاستعدادات قد تمت، وقطعت البرقيات، واستعد الفرسان وحدث العصيان ... لكن لواء الموصل نقل من سورية وهذا سبب تقسيم اللواء ٣٦^(١٤).

(١٢) F.O. 361 /2491/ No 404. / 179206/ 23 Nov 1915.

(١٣) مجلة الأسرار، عدد ٤٠، ٢ جانفي / كانون الثاني / ١٩٣٨، ص ٢٢—٢٣.

(١٤) F.O. 371 /2490/ No 139665, 28 Sep 1915. W.O.

أليس في كل هذه الاستعدادات وبداية العصيان وقطع البرقيات، إشارة إلى جمال باشا بأن ثورة كانت ستحدث بالاتفاق مع الحلفاء ألم يكن ذلك بالاتفاق مع الانكليز، ألم يقدر الانكليز أنهم ربما لا ينفذون الانزال حتى يخبروا أصدقاءهم العرب كي لا يقوموا بأي تنفيذ حتى لا يكشف أمرهم...!

كيف خطر ببال رجال الحركة العربية في دمشق، أن يتصلوا بالحسين في هذه الفترة — بعد اتصال الانكليز به — ويعرضوا عليه أخطر القضايا عليهم بالذات، ألم يكن الانكليز يحضون زملاءهم في القاهرة كي يجعلوا رجال دمشق يتفقون مع الحسين، وكان يهم الانكليز جداً أن يفصلوا كل العرب عن الأتراك، ليس الحسين فحسب، ولماذا اختار هؤلاء القوميون، انكلترا بالذات في ميثاقهم كي تكون حليفهم، ألا يدل ذلك على بعض الإيحاء بذلك ... أراد هؤلاء القوميون أن يستفيدوا من قوة دولة كبرى لنيل استقلالهم العربي، وكان العرب على العكس هم المتضررين من انكلترا، وهذا لا يحتاج هنا إلى دليل أو نقاش.

إعلان العداء بين الاتحاديين والحسين

درس الحسين الحالة مع أولاده في الطائف، وقرر أن الفرصة السانحة له قد لا تتكرر أبداً، بوجود قوة عسكرية في سورية، وتحالف مع الانكليز والحالة حرب، إذ كان قد تلقى رسالة مكماهون المؤرخة في ٢٤ أكتوبر / تشرين الأول /، وأرسل جوابه عليها في ٥ نوفمبر / تشرين الثاني /. وقرر أن يرسل فيصلاً من جديد إلى دمشق، للاعداد للثورة في سورية، عندما تم الاستعدادات في الحجاز، ويكون القصد الظاهري لرحلته إلى دمشق، هو قيادته لطليعة من خمسين فارساً للمجاهدين الذين يتم إعدادهم في الحجاز، لارسالهم للاشتراك في حملة ثانية على قناة السويس. وفي الحقيقة كان هؤلاء الخمسون، حرساً خاصاً له، وكثير منهم من الأشراف، وقد أدركوا خطورة مهمتهم. وصل فيصل أوائل شهر جانفي / كانون الثاني / ١٩١٦، واتخذ من دار البكري أصدقائه في القابون، مقراً له ولفرسانه، وخصص له جمال باشا مكتباً في قيادته، واحتفل به احتفالاً عظيماً، وأقام له المآدب ولطليعة المجاهدين.

فوجيء فيصل بانقلاب الأمور رأساً على عقب في سورية خلال غيابه ، فقد نقل جمال باشا كل الفرق العربية من سورية ، واستبدل بها فرقاً من الأتراك . كما وجد أن معظم الضباط العرب من أصدقائه ، قد نقلوا أيضاً إلى جبهات القتال البعيدة ، ولذا لم يبق أمام فيصل من قوة يستخدمها في سورية ، سوى البدو والقرويين والدروز . وزيادة في سوء الموقف ، فقد وجد أن معظم قادة الفتاة والعهد قد اعتقلهم جمال باشا وأعدمهم ، كما ملأ السجون بأعداد أخرى من أولئك القادة ، ونفى من سورية معظم الشخصيات التي لها تأثير في سورية ، حتى يمنع أي ثورة أو تحرك في سورية ضد تركيا ، كما أوحى له إحساسه ، والشائعات التي كانت تدور حتى في الفرق العربية حول هذا الموضوع . واضطر فيصل إلى مرافقة أنور باشا وجمال باشا من سورية إلى المدينة المنورة ، عندما زارها القائدان التركيان ، ورفض الحسين الجيء من مكة للقائهما ، وكان ذلك تحسباً منه . ثم عاد فيصل إلى دمشق ، وأخذ يرسل لوالده رسائل يقول فيها « أهل الشام في ضيق وبأس عظيم من الحالة الحاضرة » . وفي رسالة أخرى — ربما في مارس / آذار / ١٩١٦ — يحض أباه فيها على تأليف قوة عسكرية للدفاع عن الأماكن المقدسة والأراضي العربية ، لأن الروس قد يصلون إلى البلاد العربية ، لأنهم أخذوا يقتربون من ديار بكر شمال سورية . ويذكر في نهاية الرسالة عن مهمته في سورية فيقول « وأخيراً النوري (الشعلان) هنا ، وتوافقنا والعمل جارٍ والله يكون في العون ، ولا يمكن حدوث شيء بدون قوة تمثل سيدنا »^(١٥) .

وأرسل نسيب البكري من المدينة في ٩ مارس / آذار / ١٩١٦ ، رسالة إلى الحسين يشرح له فيها بوضوح أكثر من رسائل فيصل الحالة في سورية ، وأهمية فيصل بالنسبة للحركة القومية فيها ، ووجوب بقاءه على رأسها في دمشق ، ويرسم له خطة للعمل بالنسبة للأتراك فيقول « نعرض المطالب العربية على الأتراك ، فإذا وافقوا على تلك المطالب ، نأخذ الدراهم والسلاح منهم وترسلون القوة مضاعفة ، وبعد وصولها إلى الشام ، ننتظر سنوح الفرصة اللازمة ونشعركم بذلك ، للقيام بسورية والحجاز ، محتجين

(١٥) سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ١٩٣ .

بأن الثورة سببها ضياع الاسلام على أيدي الاتحاديين . وإذا ماطلت الحكومة في تلبية المطالب ، ننتهز الفرصة المناسبة ونخرج على الحكومة يداً واحدة ، أما إذا رفضت الحكومة مطالب العرب ، فإن فيصلاً سيضطر إلى مغادرة سورية ، تاركاً قوى متعددة لا سايس لسياستها ولا مدير لشؤونها ، تهمل بلا نظام ولا انتظام ، ويخرب لا سمح الله ما بني منذ عدة سنين ، لأن اليوم محور الحركة في سورية هو سيادة فيصل بك . وبعدما نقل جمال باشا الفرق العربية ، فإن الجمعيات ما زالت باقية ، وقد جددت الروابط مع زعماء الدروز الذين اشترطوا أن تشترك قبائل البدو في الحركة . أما نوري الشعلان فقد قال لفیصل إنه ما يزال على العهد ، لكنه يرى الانتظار والترص . يكرر نسيب وجوب بقاء فیصل في سورية ، لأن « عودته إلى الحجاز مضره جداً بمصالحنا جميعاً » ويقول بأنه تذاكر مع علي بن الحسين عن وجوب إنزال قوة بريطانية في الساحل السوري ، لقطع خط الرجعة في ساحل اسكندرون ، على أن يتم ذلك قبل بدء الثورة بشهر واحد على الأقل (١٦) .

على الرغم من تحول الموقف في سورية لغير صالح الثورة ضد الأتراك ، فإن الحسين ظل يأمل بإثارة اضطراب فيها بالاضافة إلى إنزال بريطاني ، وكان هذا التحول في القوة في سورية واقعاً معجلاً لثورته ، لأنه كان يعلم أن ٣٥٠٠ جندي تركي مدربين بعناية ، كانوا في طريقهم إلى الحجاز ، وكان يعلم أنهم سيأتون من أجل الخلاص منه ، وأدرك أنه لا بد من المبادرة والعمل ضد الأتراك ، في الوقت الذي كان يستحث الانكليز على إرسال المال والسلاح والذخيرة . وأتت طلباته من الأتراك كما أوصى بذلك نسيب البكري . ولهذا أرسل برقية إلى الصدر الأعظم في ١٦ مارس / آذار / وأنور باشا نذكرها لعلاقتها بسورية ، ولأن قضية سورية والأفكار العربية أصبحت في ذهن الحسين كقضية الحجاز ، أو قضية العرب جميعاً واستقلالهم . ويذكر في برقيته ، أنه لا يد من مشاركة العرب الدولة العثمانية في الحرب حتى تنتصر ، ومشاركتهم تستوجب إرضاءهم وإرضاء « الشعب العربي » يتوقف على مداواة قلبه الذي جرحه اتهام عدد

(١٦) سليمان موسى ، الثورة العربية الكبرى ، وثائق وأسانيد ، ص ٤٨ - ٥١ .

كبير من أبنائه (الذين اعتقلهم جمال باشا في سورية) بتهم سياسية مختلفة، والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتي :

- ١ — إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين .
- ٢ — إنالة سورية ما تطلبه من نظام لا مركزي وكذلك العراق .
- ٣ — جعل إمارة مكة وراثية في أحفاده .

فإذا تم ذلك أرسل المجاهدين للحرب في فلسطين والعراق مع الدولة، وإلا فسوف يكتفي لها بالدعاء بالنصر^(١٧) .

لا شك أن طلب الحسين اللامركزية لسورية، قد أخذه من مبادئ الجمعيات السورية، قبل أن يقرروا الانفصال عن الدولة العثمانية، وعلى الأرجح أنه استعمل ذلك الشرط لتعجيز الأتراك، لأنه يعلم أنهم لن يوافقوا، ولو وافقوا لاستخرج تعجيزاً جديداً. وأجابه الصدر الأعظم وأنور باشا بالرفض، وأن المتهمين سينالون عقابهم، ولن يغيرا شيئاً في حكم سورية أو مكة، وألحا عليه بوجوب إرسال المجاهدين إلى دمشق. وهدداه باستبقاء فيصل في دمشق كي يبقى كرهينة لدى جمال باشا. أما هو فقد أرسل برقية لهما مؤكداً بريقته الأولى، ومؤكداً أنه سيرى ابنه فيصلاً مرة أخرى « فافعلوا ما شئتم » . وبعد يومين أرسل الصدر الأعظم برقية له يعده بمذاكرة جمال باشا مع فيصل، بشأن المتهمين السياسيين، إذا وصل المجاهدون لدمشق، فأجاب الحسين ببرقية، أن المجاهدين أصروا على أن يأتي فيصل ليقودهم إلى دمشق، وأظهر امتنانه لجواب الصدر وقال « إذا كانت الرغبة حقيقية فابعثوا به (فيصل) ليستصحبهم » . ورد الصدر الأعظم بأن فيصلاً سيذهب لاصطحاب المجاهدين^(١٨) .

وكانت الحكومة التركية مضطرة إلى مسaire الحسين، لما يخيق بها من أخطار عسكرية على جبهة روسيا، وحصار الساحل السوري، والخوف من إنزال حليف فيه، والاحتلال البريطاني للبصرة وجنوب العراق، برغم أن الأتراك كانوا يحاصرون البريطانيين

(١٧) مذكرات الملك عبد الله، ص ١٤٧، ومذكرات أحمد قنري، ص ٤٧ — ٤٨ .

(١٨) نفس المصدر السابق، وأمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ١١٠ — ١١١ .

في كوت العمارة في العراق ، وبرغم اضطرار الأساطيل الانكليزية والفرنسية للانسحاب من حملة الدردنيل ، بعد أن منيت بالفشل . ولهذا استعمل الأتراك اللين مع الحسين دون أن يعدوه بتحقيق شروطه .

كان موقف فيصل عند جمال باشا في دمشق ، أصعب من موقف والده البعيد في مكة بين رجاله وقبائله . وقد استدعى جمال باشا فيصلاً ، وحدثه بأمر برقيات والده المذكورة التي كان أنور باشا يرسلها له . وقد حضر الجلسة علي فؤاد بك رئيس أركان حرب جمال باشا . وحاول فيصل أن يخفف من حدة الأمر ، وقال إن برقية والده الخاصة بالعفو عن المتهمين في سورية ، واعطاء سورية حكماً لا مركزياً ، لا بد أنها كانت ناتجة من سوء تفاهم نتج عن أن أباه كتبها بالعربية ، لأنه لا يجيد التركية ، وقد ترجمها أحدهم بشكل محرف . وأرسل جمال باشا برقية للحسين ، فيها تهديد ووعد وجوب وقوفه مع الدولة في هذه الحرب ، لا أن يطالب بمطالب شخصية . جاء رد الحسين ظاهراً فيه الاستياء من برقية جمال ، وكرر فيه وجوب إصدار عفو عن المتهمين في سورية . وهنا استدعى جمال فيصلاً وأطلععه على رد والده ، وأنذره بأنه سيستعمل معه القوة ، إذا لم يكف عن مداخلاته ، وقال إنه يستغرب لهجة والده في الأيام الأخيرة . وأنه إذا كانت لديه غايات أخرى ، فالأولى أن يلجأ إلى السلاح والثورة في الحال ، وبذلك تنتهي تلك المهزلة « ويصبح كل منا عدواً للآخر ظاهر العدو » . وطلب من فيصل وجوب أن يأتي أخوه علي ، الذي يضايق القائد التركي في المدينة المنورة ، على رأس المجاهدين إلى دمشق . واصفر وجه فيصل ، ونفى عن أسرته خيانتها للدولة ، ووعد بإصلاح الحال بين أخيه ومحافظ المدينة ، وسيكلفه « بالحضور لتقريب يدك »^(١٩) .

كان واضحاً أن الموقف في سورية أصبح صعباً ، وإن إمكانية الثورة أصبحت مستحيلة . لكن الحسين أبقى فيصلاً فيها كأمل ضعيف أخير يتمثل في إمكانية قيادة تحرك بدوي — درزي ضد الدولة ، وإضافة إلى ذلك ، فقد كان الحسين يأمل أيضاً أن تنزل بريطانيا قوات في الاسكندرون ، مما يجعل الأتراك يحشدون كل أو معظم قواتهم

(١٩) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٨٨ .

ضدها، وهنا قد تسنح الفرصة للسوريين للقيام بالثورة، وهذا ما أبلغه بشدة إلى مكماهون في رسالة له في ١٦ مارس / آذار / ١٩١٦. وكرر الحسين ذلك إلى مكماهون في ١٨ أبريل / نيسان /، وطلب منه أيضاً أن تجتاز القوات البريطانية في سورية حتى تقطع سكة الحديد، «لتسهيل الحركة على صاحبنا (فيصل) بسورية، للقيام بمن معه من شيعة البلاد والمملكة، الذين ينظرون الفرج من مثاقب الابر، مما يقاسونه من أنواع التعديات المعلومة لديكم»^(٢٠).

والحقيقة أن الانكليز لم يكونوا جادين بإنزال عسكري في سورية، حتى لا يدخلوا في صراع مع الفرنسيين الذين أعطتهم اتفاقية سايكس-بيكو حق احتلال سورية، وحتى أيضاً لا ينشئوا دولة عربية قوية، وحتى لا تكون مصدر خطر عليهم، وعلى الروس، والفرنسيين، أطراف الاتفاقية المذكورة. هذا ما عبر عنه كلايتون في برقيته إلى حكومته في ٢٢ أبريل / نيسان / ١٩١٦، وكانت غاية الانكليز من ثورة الحسين هي تعطيل الجهاد الديني الاسلامي الذي أعلنه الأتراك، بقيام شريف مكة ضدهم مع الانكليز^(٢١). وكان الانكليز يريدون إبعاد الحسين وأفكاره عن الاقتراب من الساحل السوري، ولهذا أرسل مكماهون إلى الحسين رسالة في ١٨ ماي / أيار / ١٩١٦، يعلمه بعدم إمكانية تقديم مساعدة انكليزية في سورية، ويأمل أن ذلك لن يجعل ثقة الحسين تهتز بالانكليز، وأن القوات إذا جمعت في منطقة واحدة خير من تفريقها — بين الحجاز وسورية — ولهذا فهو ينصحه أن يسحب ابنه فيصلاً من سورية، وأن يكفي بالعمليات في الحجاز والجنوب في الوقت الحاضر. وعلل مكماهون للحسين صعوبة الانزال في سورية، لأنه خاضع لقرارات مجلس الحلفاء الأعلى، كخطة من خطط الحرب العالمية، وقال إن عدم قدرة السوريين على العمل والتعاون في الحركة في الوقت الحاضر، سوف يؤدي إلى عواقب وخيمة في حالة الانزال، فالبلاد تعاني المجاعة وجمال باشا متعصب للألمان، وأنه سوف يصادر الموسم الجديد...^(٢٢).

F.O. 371 /6237/ 18 April 1916. (٢٠)

Ibid. (٢١)

Ibid. 371 /2773/ XVIII, 5 /6/ 1916. (٢٢)

ثم جاء خبر قلوب ٣٥٠٠ جندي تركي إلى مكة عاملاً معجلاً، كي يقوم الحسين بثورته قبل موعدها بشهر أو شهرين، برغم أن الاستعدادات لم تتم، وكان عليه أن يسحب ابنه فيصلاً من دمشق، وعلياً من المدينة، حتى ينجوا من الخطر. وهكذا يكون كأنه عمل بنصيحة الانكليز بالرغم منه، لأن الخطر أخذ يقترب منه شخصياً. ولهذا انتهاز فرصة استعجال جمال باشا له بوجوب ارسال المتطوعين من المدينة إلى دمشق، وأرسل له بخمسة آلاف ليرة ورقية لتوزيعها عليهم. طلب الحسين إرسال فيصل لقيادتهم، لكن جمال باشا قال إن القيادة في دمشق لا تستغني عنه دقيقة واحدة. لكن جمالاً طلب منه في وقت آخر وجوب سحب ابنه علي من المدينة، فطلب الحسين منه أن يرسل فيصلاً بدله، لتولي قيادة المجاهدين الذين يصرون على ذلك، إضافة إلى ما ذكرناه، من رغبة الحكومة التركية مسaire الحسين، ووعد الصدر له بإرسال فيصل، كل هذا مكن لفیصل من الخروج من سورية ناجياً بحياته.

كان شهر ماي / أيار / ١٩١٦، موعداً حاسماً رهيباً، تجاه الدفعة الثانية من الرجال العرب المعتقلين لدى جمال باشا. بذل الحسين جهوداً كثيرة للعفو عنهم بلا فائدة. وبذل بدوره فيصل كل جهد للتخفيف عن المتهمين، والابقاء على حياتهم، وألح إلحاحاً شديداً على جمال، حتى جاوز حدود الحكمة في استعطافه إياه، وغضب جمال، وهدد بالمشنقة كل من تشبه الدولة في ولائه، وأحس فيصل كأن الكلام موجه إليه ولوالده، ولهذا لم يستطع أن يفعل شيئاً غير أن يتألم ألماً عميقاً، وربما كان هذا آخر شيء جعله ينزع من قلبه آخر ولاء للاتحادين. وفي صبيحة ٦ أيار كان فيصل في دار البكري، عندما قرأ أحد أصدقائه جريدة الشرق التي يصدرها جمال باشا، وفيها خبر إعدام الدفعة الثانية، وانقضت الدقائق في صمت رهيب حزين تتخلله قراءة الفاتحة، ثم بدا فيصل كأن مساً أصابه، فقفز واقفاً وألقى كوفيته من على رأسه، وقذف بها على الأرض وداسها بعنف وصاح «طاب الموت يا عرب». وبرغم ذلك تحامل فيصل على نفسه وذهب إلى جمال باشا واستأذن بالسفر لمرافقة المجاهدين من المدينة، فوافق جمال دون تردد، وكان ذلك مفاجئاً لفیصل. وأمر جمال باشا أن يرافق فيصلاً وفد

مؤلف من عصويين عربيين وآخرين تركيين . غادر فيصل ١٦ أيار بالقطار وفي المدينة طلب من صديقه نسيب البكري أن يعود لدمشق، وينتظر منه بريقة تقول «أرسلوا الفرس الشقراء»، وهذا يعني أن الثورة ستقوم بعد ثلاثة أيام، وعندها عليه أن يهرب مع الحسينين فارساً حجازياً الذين كانوا مازالوا في القابون. وحدث ذلك وهرب الفرسان، وعندما اكتشف جمال باشا أمر فرارهم، أرسل قوات في إثرهم لكنهم اتجهوا إلى البادية، ونجوا حتى وصلوا الجوف ثم الحجاز وانضموا لجيش فيصل^(٢٣).

وفي المدينة تسلم فيصل من المحافظ التركي بناءً على أمر جمال باشا، ١٨ ألف بندقية وعشرين ألف ليرة عثمانية ذهباً، بعد أن تأكد المحافظ من أن كتائب المجاهدين ستسافر للدرعا في سورية خلال يومين. ثم تغير كل شيء وأعطى الحسين الأوامر للكتائب بالاتجاه إلى مكة، وأرسل لجمال باشا يعلمه بذلك لأن الحكومة التركية لم تنفذ مطالبه. كما أرسل فيصل رسالة بالشفرة إلى جمال باشا يخبره فيها عن توقيف عملية نقل المجاهدين إلى سورية قال فيها «لقد صدر الأمر بوقف نقل المجاهدين إلى سورية، لأسباب أومل أن أبسطها لك شخصياً متى تشرفت بلقائك، وقد ساءتني كثيراً الحالة الجديدة التي نشأت، ولما كان من بواعث الألم، أن لا تقع عيني عليك ثانية قبل تسوية الأمور تسوية مرضية، فأتشرف بإخبارك أنني ذاهب إلى مكة لقضاء بعض الوقت»^(٢٤). وكان هذا آخر اتصال بين الحسين وأولاده من جهة والاتحاديين من جهة، قبل إعلان الثورة العربية ضد الاتحاديين في ١٠ جوان / حزيران / ١٩١٦.

(٢٣) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية الكبرى، ص ٦١، وأنطونيوس، ص ٢٨٤—٢٨٥، وسليمان موسى الحركة العربية، ص ٢٦٨—٢٦٩، وسليمان موسى، الحسين بن علي والثورة العربية، عمان، ١٩٥٧، ص ٧٨.

(٢٤) أمين سعيد، أسرار الثورة العربية الكبرى، ص ٦٣. يذكر عبد الله بن الحسين في مذكراته أن أخاه فيصلاً بعد خروجه من المدينة مع أخيه علي، أرسل من «بئر الماشي» إلى جمال باشا أنه إذا رفضت المطالب العربية العادلة من شريف مكة، وبما أن الجند الذي يتبهاً، لا يضحى لغير العرب والاسلام، فلا لزوم لبيان قطع أي علاقة بين الأمة العربية والأمة التركية، وأنه بعد وصول كتابه بـ ٢٤ ساعة ستكون حالة الحرب قائمة بين الأمتين. ص ١٠٧.

الثورة العربية

لن نتعرض لهذه الثورة، لأنها خارجة عن موضوع هذا البحث إلا ما كان له علاقة بسورية. فقد أصدر الحسين بياناً عن ثورته عقب إعلانها، عدد فيها الأسباب التي قادته للثورة ضد الاتحاديين، من ظلم وفساد ومحاربة للإسلام والعروبة وتضييع البلاد العثمانية وتركهم لحكم الشرع الاسلامي، وسلبهم السلطان حق الاشراف الشرعي على الحكم، واضطهاد العرب ولغتهم، وقتلهم للإسلام... ثم جاء على ذكر ما فعلوه في سورية كسبب هام لثورته فقال «فطفقوا يقتلون ويصلبون كبراء ونوابغ رجال النهضة العربية الذين اشتهروا بغيرتهم على الأمة والدولة، من أرباب المعارف والأفكار وحملة الأفلام وبارعي الضباط، وآخر ما وصل إلينا من بلاغاتهم الرسمية في ذلك أنهم صلبوا (٢١) رجلاً في آن واحد... وأنه ليصعب على كثير من ذوي القلوب القاسية، إزهاق مثل هذا العدد الكبير من الأنفس لأجل الانتقام، ولو كانت من الدواب أو بهيمة الأنعام، وإنما يقتلون أمثال هؤلاء جهراً ويصلبونهم في الشوارع العامة صلباً، حتى لا يطمع عربي بأن يقول بعدهم أن لغتنا لغة الاسلام...» ثم ذكر المصادرة والتنكيل بالعائلات وخاصة النساء والأطفال الذين أصبحوا كالاماء في الأناضول... «ولعلمهم يريدون أن يأتوا بأتراك يحلون محل المنفيين فيسهل جعل سورية كلها تركية...» وتجراً ونبشوا قبر الأمير عبد القادر الجزائري وحفروه وأهانوه... ويريدون أن يفعلوا بالحجاز ما فعلوه بسورية والعراق، ويذيقوا هذا الحرم الذي جعله الله آمناً ما أذاقوا جنة الديننا (الشام)، من الجوع والخوف، ويسلبوه ما من الله عليه» (٢٥).

وبرغم نجاح الثورة في أيامها الأولى واحتلال مكة والطائف وجدة، لكن الأشهر الأخيرة من سنة ١٩١٦ كانت حرجة جداً، إذ كان بإمكان فخري باشا القائد التركي في المدينة المنورة، المحجوم بما عنده من قوات كبيرة، وبما أمده جمال باشا عن طريق سكة الحجاز من سورية، التي لم تنقطع، على مكة وانهاء الثورة. وكان الحسين يتطلع

دائماً لقطع السكة الحديدية شمال الحجاز بإنزال بريطاني في اسكندرون وألح كثيراً على هذا الإنزال للتخفيف عنه وإنقاذ موقفه، وذكر لستورز أن الحكومة البريطانية كانت قد وعدته بذلك، وإضافة إلى سبب التخفيف عنه، كان الحسين لا زال يعتقد بثورة السوريين، وأن إنزال الحملة يشجعهم على القيام بها. وقال لستورز إنه لو عرف أن الانكليز لن يعملوا على قطع الخط الحديدي بين الحجاز وسورية، لاتخذ خططاً مختلفة في الثورة، ولكنه أقدم على عمله لعلمه أن الحكومة البريطانية تحافظ على كلمتها التي تعطيها. وفي أزمته هذه، أمدته بريطانيا بعدة طائرات، ورأت أن تعد له قوة تدافع بها عن مكة، إذا هاجمها فخري باشا، دون حاجة إلى إرسال قوات مسيحية سلفاً إليه (٢٦).

ولمصاعب المواصلات ونقص التموين وإغارة البدو على مؤخرة جيش فخري باشا، قرر البقاء في المدينة والدفاع عنها، وهنا تكون الثورة قد قطعت مرحلة الخطر. ثم بدأ عزيز المصري الذي تسلم قيادة جيش الثورة في سبتمبر / أيلول /، وأخذ يشكل قوة نظامية فيه — بقي حتى مارس / آذار / ١٩١٧، حيث ترك عمله وعاد لمصر بسبب خلافه مع الحسين — (٢٧) وقاد أولاد الحسين الأربعة جيوش الثورة. وبهنا هنا فيصل قائد جيش الشمال الذي توجه إلى سورية، وكان فيه أخوه زيد. كان فيصل

(٢٦) تقرير ستورز. F.O. 371 / 686/ Part 1.

(٢٧) كان الحسين يريد أن يقي عزيزاً مهتماً فقط بالشؤون العسكرية، لكن عزيزاً، كما يبدو، ظل مصرّاً على رأيه، بوجوب تحويل الدولة العثمانية إلى تركية — عربية تحت قيادة السلطان العثماني. ونحشي الحسين من ذلك، ومن إمكانية تفاهم عزيز مع فخري باشا قائد حامية المدينة، فعمل الأسباب اللازمة لصرفه. وكان عزيز يهتم نوري السعيد بالحيانة، ويعتقد أن الانكليز سوف يقضون على الترك بمساعدة العرب، ثم على العرب عندما يأتي دورهم. ثم حل محمود باشا القيسوني (المصري) محل عزيز. مقابلة في دمشق في ١٩٧٨ مقابلة مع صبري فريد البديوي، أحد ضباط جيش فيصل. بينما كان الانكليز في بداية خدمة عزيز المصري عند الحسين، محاولون أن يتولى عزيز منصباً يليق بنشاطه. هذا ما جاء في رسالة مكماهون إلى حاكم السودان، كي يبلغ الشريف عبد الله بذلك، وكانوا يأملون من عزيز التعاون معهم.

القاهرة ٣٠ تشرين الأول ١٩١٦

يقود مئات من البدو واحتل ينبع (على البحر الأحمر) وظل يقاوم فخري باشا حتى جانفي / كانون الثاني / ١٩١٧، ثم توجه بمساعدة السفن الحربية الانكليزية واحتل الوجه وهي أيضاً على البحر الأحمر، وهكذا أصبح أبعد إخوته عن الحجاز نحو الشمال أي نحو سورية. واتخذ من موقع (جيد) مركزاً له — منتصف المسافة ما بين البحر وسكة حديد الحجاز — وكان لاحتلال الوجه تأثير عسكري على الأتراك إذ أصبحوا مضطرين إلى تخصيص قوات أخرى باتجاه الغرب والشمال للدفاع عن المدينة وهذا ما جعل مكة في مأمن من هجوم تركي من المدينة. واحتلال الوجه وما حوله، تبين للانكليز أنهم استفادوا من تجميد ثلاث فرق تركية في المدينة وعلى خط السكة الحديدية كان يمكن أن تحاربهم في فلسطين.

فيصل يقود الجيش العربي

في البداية كانت قوات فيصل تتألف من عدة مئات من البدو، وكان فيصل هو قائدهم يعاونه الجنرال نوري السعيد وبعض الضباط العراقيين والسوريين كجعفر العسكري. وحاول عزيز المصري إدخال الكتائب النظامية في قوات الثورة العربية، وأخذت هذه القوات النظامية تنمو في جيش فيصل باستقبال الأسرى من الجنود العرب الذين وقعوا في أيدي الانكليز سواء في العراق أو فلسطين. وكان الانكليز يحرضون هؤلاء الأسرى على الانضمام لثورة الحسين، كما كان رجال الحركة العربية يتصلون بهم ويحثونهم ويشجعونهم على الانضمام للثورة، ومع هذا فقد رفض الكثيرون في البداية الانضمام للثورة، لأنها كانت تحارب المسلمين — الأتراك — وفضلوا البقاء في الأسر. وسميت قوات فيصل باسم الحملة السورية أو المفرزة الشمالية أو لواء المهجانة أو لواء الفتح بعد دخول دمشق وعرف باسم جيش الشمال أو الجيش العربي بشكل أعم. والحقيقة أن هذا الجيش المتوجه نحو الشمال أو نحو سورية بقي القوة العسكرية المتحركة لجيش الثورة العربية، بعد ما استقر الأمر للحسين في الحجاز كله، وبعدما اكتفت القوات التركية بالاستقرار داخل المدينة المنورة حتى ما بعد نهاية الحرب. ولذلك كانت الآمال القومية العربية معقودة على جيش الشمال للوصول إلى سورية، وكان الحسين

نفسه يعتبر أن التحركات العسكرية والثورة في الحجاز ، ليست سوى مقدمة لتحرير سورية ، ولهذا كان يلح الحسين كثيراً على جمع أكبر عدد من الضباط العرب والجنود الأسرى ، لتأليف جيش يزحف نحو سورية بأسرع ما يمكن . وقد أوضح الحسين ذلك برسالة إلى مكماهون في ٢٥ أوت / آب / ١٩١٦ ، يلوم فيها البريطانيين لأنهم أخفقوا في قطع سكة الحديد ، ونتج عن ذلك أن الأتراك استطاعوا أن يجلبوا قوات وإمدادات لهم ، بينما كان الحسين يعتقد كما خطط « أن القتال الآن يجب أن يكون دائراً في نواحي دمشق » (٢٨) .

الانكليز وجيش فيصل

وكان فيصل منذ وصوله إلى الوجه ، يخطط للانتقال ، بالاتفاق مع الانكليز ، نحو الشمال من جديد . وكانت العقبة على البحر الأحمر في أقصى الشمال منه ، هي الخطوة التالية له ، وبذلك يكون قد انتقل من الأراضي الحجازية ، وبدأ أولى خطواته في الأراضي السورية التي تعتبر العقبة ، أول نقطة من حدود سورية الجنوبية أو سورية الطبيعية . وكان فيصل يحاول أن يتقرب من سورية بأسرع ما يمكن ، كي يتصل بأبنائها وخاصة القبائل البدوية والدروز ، كي يثيرهم ضد الأتراك ، أو يجعلهم يقدمون إليه وينضمون إلى قواته . وكان هذا التوجه نحو الشمال أو نحو العقبة لا يلاقي قبولاً كبيراً لدى الانكليز ، لأن ذلك سوف يثير المشاكل المتعلقة بسورية وخاصة مع فرنسا ، ثم لأن الانكليز كانوا يستخدمون الثورة العربية وجيش الشمال بشكل أحسن ، لخدمة أهدافهم العسكرية بمحاربة الأتراك ، وقطع السكك الحديدية ، وإشغال أكبر قدر من القوات التركية ، لا أن يتوجه هذا الجيش وينشغل بقضايا سياسية عربية ، لا يوافق الانكليز عليها جميعاً . وهذا ما عبر عنه كلايتون برسالة له في ٨ آذار / مارس / ١٩١٧ ، إلى حكومته (٢٩) . لكن فشل الانكليز أمام غرة جعلهم يفكرون جدياً بالاستعانة بقوة الجيش العربي ، كي يكون الجناح الأيمن لهم عندما يدخلون فلسطين ،

F.O. 371 / 2773/ No 553, 1 Juil 1916. (٢٨)

Ibid 882 / 18/. (٢٩)

ويكون هو في الشرق المقابل أي الأراضي الأردنية الآن، وبذلك يشغل لهم أكثر من ٢٣ ألف جندي تركي في تلك المنطقة، ولهذا وافقوا على خطة العقبة، ووافقوا على نقل ٥٠٠ جندي عربي بسفنهم الحربية من الوجه. وفي الوجه أخذ فيصل يستقبل شيوخ قبائل البدو القاطنة في البادية السورية، كالرولا، وعنز، وبنى صخر، والحويطات. وكان زعيم الحويطات عودة أبو تايه ممن اشتهروا في حرب العقبة. وقد ظل عند فيصل في الوجه شهراً يستعد للمعركة القادمة. وتعبيراً عن كرهه لجمال باشا قام عودة عن الطعام عند فيصل، وأخرج من فمه فك أسنانه الاصطناعي الذي أعطاه إياه جمال باشا، حتى لا يأكل طعام الشريف بأسنان تركية. وقد أقسم كباقي زعماء القبائل أمام فيصل على القرآن الكريم، بأن يجعل العربية قبلة له ومصلى، وأن يعتبر العرب من بغداد إلى دمشق إلى حلب عرباً مثله، عليهم ما عليه وعليه وما عليهم، وألا يطيع الترك، وأن ينزل بنزلة (الشريف) ويرحل برحيله. وكان هذا هو القسم المعروف للولاء للشريف أو الثورة. وكانت قبيلة الحويطات تسكن حوالي معان^(٣٠).

كان في جيش فيصل بعض الضباط الانكليز، كيونغ، وجويس، ونيوكومب وكلوب، ولورنس، ومفرزة من الجيش الفرنسي بقيادة الكابتن بيزاني. ولابد قبل أن نتابع احتلال العقبة من ذكر كلمة عن لورنس، الذي اشتهر جداً في الغرب عن قيادته وعبقريته في جيش فيصل وحرية. والحقيقة أن لورنس كان ضابط مخابرات بريطاني يعمل في مكتب المخابرات في القاهرة. وللامامة باللغة العربية أوفد للحجاز في أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٦، وانضم أخيراً كضابط مخابرات ومفرقات إلى جيش فيصل، حيث وجد ضالته فيه كما قال هو، بينما كان الحسين وابنه عبد الله لا يحبان لورنس ولا يريدان رؤيته في الحجاز. وقد كتب «ثورة في الصحراء» عن هذه الحرب، وكتب «أعمدة الحكمة السبعة» عنها أيضاً، وأظهر نفسه يظهر البطل محرك العرب، وقائد ثورتهم، لكنه — وبمقارنة كتاباته عن الثورة بكتابات الذين شاركوا فيها — يظهر أنه بهلواني وكذاب من طراز فريد، وقد عرفه بذلك أيضاً الجنرال اللنبي حيث كان

(٣٠) عدنان عطار، الحويطات، بيروت (بعد عام ١٩٦٦)، ص ٨٤.

يرتاب في وجود تيار من البهلوانية في شخصه، وكذلك كان رأي لويد جورج. ووصفه الميجر جنرال رانكن قائد فرقة الفرسان الرابعة الاسترالية في حملة فلسطين، أنه كان بلا مراء، أحد الدجالين الكبار في حرب ١٩١٤—١٩١٨، وقال بأنه لولا لويل توماس الذي كتب عنه لما سمع أحد بخبره. وكتب عنه هربرت ريد فقال، إن كتاب أعمدة الحكمة السبعة لا يضم بطلاً حقيقياً، وهذا ما جعل لورنس بالغ الاستياء^(٣١). ولقد قام لورنس بدوره ضابط مخبرات بريطاني وكان متعاطفاً مع الصهيونية، وكانت شهرته المصطنعة في الحقيقة على حساب العرب وسمعتهم، الذين ظهروا بدايةً، أتي انكليزي من الغرب ليقودهم إلى الثورة على الترك، مع العلم أنه عندما قدم إلى الحجاز كانت الثورة قد قطعت أشواطاً كبيرة قبل أن تطأ قدمه مصر. ووصف نفسه في بداية كتابه أعمدة الحكمة السبعة «لقد نجحت في إخفاء شخصيتي عن العرب، واستطعت أن أندمج كلياً في حياتهم دون احتجاج ولا انتقاد. كنت مجبراً على تدريبهم وتوجيههم الاتجاه الذي يتفق مع مصالح بريطانيا المتحاربة مع عدوهم»^(٣٢). وقد قال أحد الكتاب الانكليز أنه لولا لورنس، لما كان فيصل، وقال أمين الريحاني الذي خبر فيصلاً كثيراً «لكن مجارات الكاتب تقتضي القول «لولا فيصل لما كان لورنس»^(٣٣). وقد وصفه الجنرال ويفل من ضباط اللني، أنه ماهر في التآمر السياسي وخاصة في مجال إثارة الشقاق بين فرنسا وبريطانيا في سورية...^(٣٤). ولم يخض لورنس أية معركة حديثة، ولم يكن يحمل مواهب كافية ولا صفة الضابط العظيم، حتى ينسب لنفسه قيادة المعارك العسكرية».

خرجت الحملة التي شكلها فيصل لاحتلال العقبة في ٩ ماي / أيار / ١٩١٧، وعين عمه الشريف ناصراً لقيادتها، ورافقها إثنان من السوريين، مدني هو

(٣١) ريتشارد ألدنجتون، لورنس في البلاد العربية، ترجمة محمود عزة موسى، القاهرة، الدار المصرية، ١٩٦٦، ص ١١٢، ٢٥١، ٢٦٩.

(٣٢) ت. أ. لورنس أعمدة الحكمة السبعة، بيروت، ١٩١٣، ص ١٠.

(٣٣) أمين الريحاني، فيصل الأول، بيروت، مطبعة صادر، ١٩٣٤، ص ٢٦.

(٣٤) ألدنجتون، ص ١٧٠.

نسيب البكري، وقائد عسكري هو زكي الدروبي، وكانت مهمتها الاتصال بالسوريين وجمع المتطوعين منهم كي ينضموا للحملة. ورافقها لورنس كخبير متفجرات، كما أرسل فيصل كمية من النقود الذهبية. وتمكنت قيادة الحملة من تطويع ٥٠٠ جندي من الرولا والحويطات. وفي ٦ جوييه / تموز / تم احتلال العقبة وأسر ٧٨٠ جندياً تركياً، بينهم ٣٥ ضابطاً، كما قتل ما لا يقل عن ٦٠٠ تركي. وانتقل لورنس إلى السويس وقابل النبي وكلايتون وحدثهما بأنه هو الذي خطط واحتل العقبة، لكن المعركة في الحقيقة كانت معركة عودة أبو تايه، ولم يذكر ناصر في تقريره لورنس إلا مرة واحدة، وكان دوره ضئيلاً في حملة العقبة، إذ كان يلزم مؤخرة الحملة مع الجمال الستة التي كانت تحمل المفرعات^(٣٥).

وجرى بعد العقبة اتصالات كثيرة ما بين الانكليز والحسين. وقد اهتم النبي اهتماماً كبيراً باحتلال العرب للعقبة، وفكر جدياً بالاستفادة من جيش فيصل. وانتقل فيصل بكل قواته بالبر والبحر من أوائل أوت / آب / إلى العقبة، واحتلت قواته كل المنطقة الواقعة ما بين العقبة ومعان. وكان عودة أبو تايه يقوم بصد هجمات الأتراك ريثما وصل جيش فيصل. وحاول الأتراك استعادة المنطقة، وقاموا بهجمات كثيرة دون فائدة. وأصبحت العقبة قاعدة عسكرية هامة للامداد والتأمين، ولاتصال الانكليز عسكرياً بفيصل. وقدم زيد إلى أخيه فيصل في العقبة على رأس قوة من ١٥٠٠ جندي نظامي، وتم إعادة تنظيم جيش الشمال. وكان قد وصل إليه أعداد من الأسرى العرب، وتألف من فرقتي مشاة تضمّان أربعة ألوية (لوائى العقبة الأول والرابع)، ولواء الكويرة، واللواء الهاشمي. وكان في كل لواء سرية رشاشات، وكان في الجيش لواء مدفعية، وفوج نقلات فيه ١٥٠٠ جمل ووحدة هجانة^(٣٦). وكانت رواتب أفراد الجيش العربي قليلة، وهي لا تكفي للمعيشة. وكان الضابط الذي يدخن ينفق ربع راتبه على الدخان، ولذا فقد كانت الروح الوطنية هي التي تحرك هذا الجيش. كان راتب الجندي ليرتين،

(٣٥) صبحي العمري، لورنس كما عرفته، بيروت ١٩٦٩، ص ٨٦-٨٧ (في مقابلة له مع نسيب البكري).

وأمين سعيد، أسرار الثورة، ص ٢١٧، وألدنجنون، ص ٢١٣.

(٣٦) أمين سعيد، أسرار الثورة، ص ٢١٧، وسليمان موسى، الحركة العربية، ص ٣٠٤-٣٠٧.

والعريف ٤ ، والملازم ١٢ ، والملازم الأول ١٥ ، والمقدم ٢٨ ، والعقيد ٣٥ ، وهو ما كان يتقاضاه نوري السعيد رئيس أركان هذا الجيش (٣٧) .

وبسبب تعدد الهزائم التركية كتب قائد معان التركي عن الموقف الخطير . وشبه موقف القوة العربية ، بأنها كالغرينا ، بدأت في المدينة وسوف تنتشر في معان حتى تصل إلى سورية (٣٨) . وعبر كلايتون عن رضائه البالغ للموقف العسكري وعن رضا القائد العام ، وذكر أن القوات التركية التي تقابل العرب تزيد عن ٢٣ ألف جندي ، وأن الاحتفاظ بهذه القوات وإمدادها بالمؤن يشكل مساعدة للحملة الفلسطينية (الانكليزية) (٣٩) . وصدرت تعليمات القائد العام البريطاني ، بوجوب اعتبار الخط الواصل ما بين معان والعقبة ، هو الخط الفاصل ما بين القوات الانكليزية في فلسطين ، وقوات الجيش العربي (٤٠) . واعتبر اللنبي أن جيش فيصل أصبح يشكل ميمنة الجيش البريطاني وأصبح تحت إمرة قائده اللنبي . وقد أبلغ بذلك فيصلاً عن طريق لورنس (٤١) ، وبذلك أصبح على فيصل أن يقوم بمهمة مزدوجة ، هي قيادة الجيش العربي على أنه أحد جيوش الثورة العربية ، وتنفيذ أوامر والده ، كما كان عليه من جهة أخرى تنفيذ أوامر اللنبي قائد القوات الحليفة في الشرق . وفي نفس الوقت كان وضع الجيش العربي تحت إمرة قيادة بريطانية ، عندما أصبحت المعركة على أرض سورية بدءاً من العقبة ، هو تنفيذاً لاتفاقية سايكس — بيكو حتى لا يتصرف فيصل أو ضباطه العرب على أرض سورية كما يشاؤون ، أو حتى لا يقيموا أي حكم عربي ، لأن ذلك مخالف لمصالح بريطانيا وفرنسا فيها . ولم يحاول اللنبي أن يربط الجيش العربي به عندما كان يحارب على أرض الحجاز الخارجة عن نطاق اتفاقية سايكس — بيكو ، وإذن يكون الاستنتاج أن تنفيذ هذه الاتفاقية بدأ قبل استكمال طرد الأتراك من سورية .

(٣٧) صبحي العمري ، ص ٥٦ — ٥٧

F.O. 371 / 4493/ P. 4 (٣٨)

Ibid, 882/7. (٣٩)

F.O. 371 / 3050/ No 56041/ 6 Feb 1917. (٤٠)

أنطونيوس ، ص ٣١٦ و ٣٢٤ . (٤١)

وكانت قوات اللنبي قد استطاعت احتلال جنوب فلسطين، ودخلت غزة في شهر نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٧، وبذلك حدث التماس مع الجيش العربي. وأخذ الانكليز يستعينون بنفوذ الحسين وفيصل على العرب في فلسطين، كي لا يحاربوا في صف الأتراك. وأخذت طائراتهم تلقي بالمنشورات التي أرسلها الحسين إلى عرب المنطقة للانضمام إلى العرب والانكليز ضد الأتراك، كما حضت المناشير الضباط والجنود العرب في الجيش التركي للفرار منه والالتحاق بجيش فيصل^(٤٢). وأرسل فيصل الشريف علي الحارثي في إحدى الحملات على السكة الحديدية، حيث استطاع أن يؤمن قاعدة للاتصال بين جيش الثورة وسورية. وظل جيش فيصل يحارب الأتراك، وحاول كثيراً أن يحتل معان، لكن الأتراك ظلوا يدافعون عنها حتى خريف ١٩١٨، عندما قام الانكليز بالحملة الكبيرة في فلسطين^(٤٣).

محاولة الحلفاء إقناع الحسين

إذن كان أمام الحليفتين بريطانيا وفرنسا (والأولى بشكل خاص)، أن تهيئ الأجواء لفهام الحسين والقوميين العرب اتفاقية سايكس-بيكو، ليس صراحة وإنما بالإيجاء، والأمر الواقع، ولذا اتبعنا أساليب كثيرة من أجل ذلك. منها محاولة اقناع الحسين بتركيز نشاطه وثورته في الحجاز، وإبعاده عن سورية، بحجة عدم تمكن بريطانيا من تقديم المساعدة إلى سورية، وأنه من الخير للحسين أن يعتمد على القوات المجمعة في الحجاز، بدلاً من أن يعتمد على القوات المتفرقة في الحجاز وسورية، ولذا أرسل المكتب البريطاني في القاهرة للحسين في ٢٢ مايو / أيار / ١٩١٦، أن يسحب ابنه فيصلاً من سورية للحجج التي ذكرناها^(٤٤)، وهذا ما فعله الحسين قبل القيام بثورته في ١٠ جوان / حزيران / ١٩١٦. وجاء في رسالة من مكماهون إلى الحسين في ٢٢ مايو / أيار / أيضاً بهذا الخصوص «إن ثورة مثل هذه «ثورة في سورية» تتطلب

(٤٢) جمال باشا الصغير، كيف جلت القوات العثمانية عن البلاد العربية، ترجمة فؤاد الميداني، بيروت ١٩٣٢، ص ١٣٧-١٣٨.

(٤٣) سليمان موسى، الحركة العربية، ص ٣٠٩-٣١٠.

(٤٤) (من تقرير عن الجزيرة العربية Arabia). F.O. 371 / 2773/ NO XVIII.

مساعدة من قوى الحلفاء — ليس بريطانيا فحسب — وإن عملية من هذه الطبيعة تثير أسئلة كثيرة سياسية وعسكرية، يجب أن تخضع لأقصى خطط العمليات وترسل إلى مجلس الحلفاء الأعلى، ولذا من الأفضل أن تبقى هذه العمليات محدودة، وإن من الحكمة التي تقود إلى نتائج مؤكدة وبعيدة المدى، ألا تقوم أي ثورة في سورية قبل أوانها، لأن السوريين هم في الوقت الحاضر غير قادرين على المساعدة الفعالة» (٤٥).

ومن هذه الأساليب أيضاً الاستمرار في التأثير على الحسين والعرب، حتى لا تتزعزع ثقتهم بالحكومة البريطانية فيما إذا وصلهم أي خبر عن اتفاق دولي يخص سورية (غير اتفاق الانكليز مع الحسين)، ولذا ذهب ستورز، وهوجارت، وكورنواليس والجميع من المكتب البريطاني العربي في القاهرة، وقبلوا عبد الله، وأعطوه عشرة آلاف ليرة، وأجلوا الـ ٥٠ ألفاً ريثما تأتي موافقة الحكومة البريطانية. وكانت غايتهم تطمين عبد الله وإزالة الشكوك إذا وجدت، عن سياستهم تجاه سورية، وللحصول أيضاً على رأي وموقف الشريف (٤٦).

ومن هذا القبيل، كان مهماً للقيادة البريطانية، أن تتقدم قواتها من مصر لتحل العرش والعقبة، لقطع المواصلات بين سورية والحجاز (٤٧)، وهي بذلك تحقق هدفين. الأول قطع المواصلات ضد الجيش التركي، والثاني وصولها إلى بداية الأراضي السورية لتحقيق عليها اتفاقية سايكس — بيكو، قبل أن تصل قوات الثورة العربية فيما لو قدر لها أن تصل بدعم حقيقي من الانكليز، لكن تاريخ الثورة العربية لا يذكر شيئاً عن دعم انكليزي من هذا النوع الكبير، ولم يكن الانكليز يخططون لمثل هذا الدعم قبيل اعلان الثورة، لأنه قد خطط لها — كما ذكر مكماهون في رسالة له في ٣٠ أبريل / نيسان / ١٩١٦ — «بأننا نقدر أن نرجع ثورة الحجاز بما عندها من دعم ومواد إلى النتيجة التي نطلبها، وأن ثورة الحسين ستكون في الحجاز فقط، وما من عمل جدي في

Ibid, No 107964, 22 May 1916. (٤٥)

Ibid, No 102192, 28 Mai 1916. (٤٦)

F.O. 371 /2773/ No, 131897. (٤٧)

سورية يدعو للخوف تبعاً لذلك في هذه الفترة^(٤٨). من المهم إذن بالنسبة للانكليز ألا تقوم حركة عربية واحدة في الجزيرة العربية وسورية، لأنه — كما ذكرت غرتروديل في رسالة لها إلى لورد روبرت في القاهرة في ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٦ — «إذا قدر للحركة العربية أن تقف على أقدامها، لطرد الفرنسيون من شمال إفريقيا، وطرد الانكليز من مصر... لكن العرب لا يقدرّون أن يحكموا أنفسهم، وهذه نقطة الضعف بحركتهم... وبما أن الأفكار الوجدانية بدأت في سورية، فيجب ألا نسمح لفرنسا بأخذها كلها من البحر حتى الداخل، لأنه سيكون عند ذلك لفرنسا ثوب طويل، وسيكون لها عمل أكبر مما تتوقع، فتحرّيك الثوب يأخذ وقتاً طويلاً والوقت هو الناقص الآن»^(٤٩).

وفي هذا المجال الخاص باتفاقية سايكس — بيكو، ووضعها موضع التنفيذ بعد أن تصورت بريطانيا وفرنسا أنهما ستتصرّان في الحرب سنة ١٩١٧، وقيام الحملة البريطانية من مصر إلى فلسطين، كان لابد لهاتين الدولتين من القيام بعمل سياسي يكون موازياً للعمل العسكري والتقدم نحو سورية، وكان هذا العمل السياسي يتركز في دراسة أحوال السكان في سورية، وتقريب وجهات النظر، وإعدادهم لتطبيق اتفاقية سايكس — بيكو. وبناءً على اقتراح من فرنسا على حليفتها بريطانيا، بوجوب إرسال بعثة فرنسية بريطانية إلى الحسين، كي تحصل على تصريح مشترك من الحسين باكتفائه بالحجاز، وترك أمر البلاد العربية الأخرى للحليفتين، تقرر أن مصيرها وتوليّان شؤونها. وتم فعلاً تعيين سايكس عن الانكليز وبيكو عن الفرنسيين. وهنا اعترضت الانكليز في مصر وجدة صعوبة، عما إذا كانوا سيبلغون الحسين بمهمة البعثة، وأنها سوف تأتي لبحث مسألة سورية تنفيذاً لاتفاقية سايكس — بيكو، أم يبقى ذلك سرّاً عليه؟. هذا ما حاول معرفته كليتون في القاهرة، ووينجت، والكولونيل، ولسون رئيس البعثة العسكرية البريطانية في جدة. وكان قرار الحكومة البريطانية، بإبلاغ الحسين، أن البعثة

(٤٨) Ibid, /2768/ telegram No 312, 30 April 1916.

(٤٩) Ibid, 20 Dec 1916 PP. 514-518.

سوف تساعد الجنرال موري قائد الحملة البريطانية في مصر، في علاقاته مع الأهليين وراء الحدود المصرية، وبأنه لا ضرورة لاعطاء الملك حسين انطباعات، بأن مستقبل سورية سوف يبحث من جديد، وكان من رأي ولسون — الذي لم يؤخذ به — أن يبلغ الحسين بأكبر قدر ممكن من المهمة الحقيقية للبعثة^(٥٠)

لكن الحسين أبلغ عن طريق وينجت وولسون، بأن بريطانيا وفرنسا، قد عينتا ضابطين سياسيين لكي يساعدا القائد البريطاني في علاقته مع سكان منطقة سورية (ماوراء الحدود المصرية). وطلب من الحسين تعيين مندوب عنه يشترك في هذه اللجنة، فرد الحسين شاكرًا نوايا بريطانيا في مساعدتها للأمة العربية، ولم يعلم بحقيقة مهمة اللجنة، لكنه شعر بشيء من الغموض مما أثار شكوكه حول مسألة سورية والعراق، وطلب من ولسون إيضاحاً، فتهرب هذا وقال إن مهمته هي فقط لمساعدة الحسين بالأمور العسكرية، ولا يعرف شيئاً عن الاتفاقيات، وهنا هدد الحسين بالانسحاب من الاتفاق مع بريطانيا إذا هي أخلت بوعودها، وطلب مقابلة سايكس. ورحب الانكليز بذلك فعلم يستطيع سايكس أن يزيل مخاوف الحسين^(٥١).

لكن هذه المخاوف تضاعفت، لأنه عند وصول البعثة الفرنسية برئاسة بيكو إلى القاهرة في أبريل / نيسان / ١٩١٧، اجتمع هذا مع عدد كبير من السوريين واللبنانيين القاطنين في مصر، في فندق شبرد في القاهرة، حضره معتمد فرنسا أيضاً. وخطب بيكو قائلاً، إنه آن الأوان للبحث في مصير سورية ولبنان، وإن الحلفاء قد اختاروا فرنسا وصية على لبنان، وإن نظام الحكم في سورية الداخلية سيكون استشارياً، وإنه كان في مصر منذ سنتين، وقد غادرها إلى أوروبا للعمل من أجل

(٥٠) Telegrams No 219 (10 Mar 1917), 257 (12 Mar) 260 (14 Mar), 609 (17 Mar). F.O. 882116.

وانظر أيضاً زين زين الصراع، ص ٧٢ وأمين سعيد، أسرار، ص ١٨٤ وسليمان موسى، الحركة، ص ٣٥٠ — ٣٥١.

(٥١) F.O. 882116, memo. de Clayton, 3 April 1917.

سورية . وقال إن مهمته قد تحددت باتفاق جميع الدول ، وإنه يحمل صفة رسمية ولقباً هو « مفوض سام لفرنسا في سورية وكيليكيا »^(٥٢) .

كان هذا أول تصريح رسمي من مسؤول من الحلفاء عن مستقبل سورية ولبنان ، وأول تصريح عن أن فرنسا ستدخل البلدين المذكورين في نطاق حكمها .

أبلغ الفاروقي ، معتمد الحسين في القاهرة ، الحسين بما صرح فيه بيكو ، لكن بيكو نفسه اجتمع مع هذا المعتمد وأبلغه أن العرب جديرون بالاستقلال ، وهو يؤيد فكرة الاستقلال العربي ، وأن قضايا المستقبل سوف تحل بالاتفاقات والمفاوضات^(٥٣) .

غادر سايكس القاهرة في أول مايو ، يحمل من حكومته معلومات تخوله أن يطعن الملك حسين عن أطماع فرنسا في سورية ، ويبين له أن سلطة الحسين يجب ألا تفرض فرضاً ، بل يقبلها السكان ، وأن احتلال بغداد سيكون عسكرياً وسياسياً حسبما تقتضيه المصالح البريطانية . كما حول بتيئة الجو لمقابلة أخرى للحسين مع بيكو إذا نجحت خطته^(٥٤) . قابل سايكس فيصلاً في الوجه في اليوم الثاني ٢ ماي / أيار / ويدعي سايكس أنه أقنع فيصلاً بالاتفاقية الانكليزية - الفرنسية التي تحقق للعرب اتحاد دول عربية وأنه بعد مناقشات طويلة قبل المبدأ وبدأ راضياً . وفي ٥ منه وصل إلى جدة واجتمع بالحسين ، وقال له الأخير إذا لم يتحقق استقلال العرب ، فسوف يُتهم بأنه ساعد على قلب آخر دولة إسلامية بدون تأسيس دولة إسلامية أخرى تحل محلها ، وأنه إذا ضمت فرنسا سورية فسيُتهم بأنه خدع مسلمي سورية عن طريق دفعهم للثورة ضد الأتراك ، لكي يسلمهم إلى قوى مسيحية^(٥٥) . وتحدث سايكس - كوسيط بين

(٥٢) العمري ، تاريخ مقلدات العراق السياسية ، ٢م ، برقية من الفاروقي في ٢٦ أبريل ١٩١٧

ص ١٠٥ - ١٠٦ ، وأمين سعيد ، أسرار الثورة ، ص ١٨٥ ، وسليمان موسى ، الحركة ، ص ٣٥٤ .

(٥٣) أمين سعيد ، المصدر السابق ، ص ١٨٥ و F.O. 371 / 3054 / No / 104269 / 24 Mai .

(٥٤) F.O. 371 / 3054 / Telegram No from F.O. to Wingate .

(٥٥) سليمان موسى ، المصدر السابق ، ص ٣٥٥ ، F.O. 371 / 3054 / No 93335 .

الحسين والفرنسيين — عن الاتحاد العربي، وعن ضرورة تسوية عربية وفرنسية^(٥٦). لقد ضغط سايكس على الحسين، وأصر على وجوب التعاون العربي — الفرنسي، لأن ذلك جوهرى بالنسبة لتطور العرب في سورية. واعتقد سايكس أنه اتفق مع الحسين على عدة نقاط، كما اتفق مع بعض السوريين في القاهرة، وأخبر بذلك زميله بيكو يعلمه بواقع الأمر حتى يزور الحسين في جدة^(٥٧). وزار سايكس بعد اجتماعه بالحسين دار الاعتماد الفرنسي، وأبلغ الملازم «ميلي» بعض الايضاحات لتوصيلها إلى الكولونيل بريموند، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية في جدة. وجاء في توضيحات سايكس هذه، بأن المسألة العربية تخص العرب والانكليز والفرنسيين، وهو لن يتدخل بما يخص القسم الخاص بالفرنسيين — العرب الذي يتناول ساحل البحر المتوسط (ساحل سورية)، حتى لا يقع في الشك الذي يريد أن ينصبه الحسين للايقاع بين الانكليز والفرنسيين، حيث يتظاهر بكره الجانب الغائب، ونصحه أن يدخل بريموند المطالب الفرنسية في رأس الحسين بدون إلحاح، وبين له أهمية الحسين والعرب والدروز في هذه المرحلة للحلفاء^(٥٨).

عاد سايكس إلى القاهرة، ورجع مع بيكو إلى جدة على ظهر البارجة البريطانية «ثورن يورك» من السويس في ١٠ مايو / أيار. وكان معهما، الأميرال ريمس قائد الأسطول البريطاني في البحر الأحمر، والكولونيل ولسن. ومرت البارجة بالوجه، حيث قابلوا فيصلاً في ١٧ مايو / أيار / وأجرى بيكو معه محادثة بحضور فؤاد الخطيب، لكن لم يحرز معه بيكو أي تقدم^(٥٩). ووصلت الباخرة إلى جدة في ١٨ منه، وجاء الحسين فاجتمع بالقادمين واختلى بهم، وفي اجتماع ١٩ ماي / أيار / قال بيكو بعد أن سلم الملك رسالة ودية من رئيس جمهورية فرنسا، بأن فرنسا تأمل في المستقبل القريب، أن تساعد في الساحل السوري عن طريق المجهود العسكري مثل البريطانيين

D.F. Aff. Etr, Vol XI, (877) 24 Mai 1917. (٥٦)

F.O. 371 / 3054 / No 93335. (٥٧)

أمين سعيد، أسرار الثورة، ص ١٨٦ — ١٨٧. (٥٨)

F.O. 371 / 3054 / No 104269, 24 Mai 1917. (٥٩)

في العراق، ورحب الحسين ببيكو وأيد اتحاد موقف فرنسا وبريطانيا لتحقيق الآمال العربية. وقبل الحسين بأن يكون لفرنسا في الساحل السوري ما يكون لانكلترا في بغداد. « ولم يرد الحسين على الزعماء السوريين المسلمين والمسيحيين، الذين طلبوا عدم خلق مصاعب أمام القوتين اللتين هما ضمانا للعرب ... »^(٦٠). وكان جل النقاش يدور حول مساعدة الأجانب للعرب. وكان الحسين يعترض دائماً على فكرة أن شعباً مسلماً تحكمه دولة غير مسلمة، لكن سايكس ألح على أن المستشارين الأجانب لا يملكون إلا سلطة تنفيذية فقط، وأن البلاد ستقدم تحت الإدارة الأوربية، وأنه ما من رجل عاقل يقبل مهمة المرشد ما لم تكن له سلطة تنفيذية، وقد عبر فؤاد الخطيب بأن ذلك (المستشارين الأجانب وسلطاتهم التنفيذية) هو نهاية للاستقلال العربي، ولم يوافق الحسين أيضاً على اقتراح سايكس بسلطة المستشارين التنفيذية^(٦١). ولم تصل المحادثات إلى نتيجة حاسمة، وفي اليوم التالي أبلغ فؤاد الخطيب جواباً شفوياً على رسالة بيكو الشفوية وهو « إن جلالة ملك الحجاز، يسه أن يعلم أن الحكومة الفرنسية توافق على المصالح العربية القومية، وبما أنه يثق ببريطانيا العظمى، فإنه سيكون قانعاً إذا ما اتبعت الحكومة الفرنسية تجاه المطامح العربية في الساحل السوري الاسلامي، السياسة ذاتها التي ستبعتها بريطانيا في بغداد »^(٦٢).

هل فهم الحسين سرور بيكو بجوابه هذا كما عبر عنه هو شخصياً؟ وهل سر بيكو فعلاً من تحديد الحسين لعلاقة الفرنسيين بسورية كما أراد بذلك الحسين من هذا

(٦٠) D.F. Aff. Etr, Vol XI, (877) 24 Mai 1917. PP. 123-124.

(٦١) F.O. 371 / 3054/ No 104269, 24 Mai 1917.

كتب Adolphe Rie نائب القنصل الفرنسي في جدة، وصفاً عن هذه المقابلة فقال « بقي السير مارك سايكس حتى هذا الوقت يراقب من بعيد، وكأنه مقتنع بما يجري إلا عندما عرضت القضية السورية، فإنه أصر على ضرورة التأكيد أن يعمل موظفوه حسب شرط ثابت ومضمون، وهو العمل التنفيذي وكأنهم يعملون في تركيا. وبذلك تاه الملك حسين وضاع بين الاعتبارات المتضاربة في جملتها، والصادرة عن الضغط الذي ظل بادياً بشكل جلي رغم انتهاء الحديث، لكن الضربة كانت قد وصلت إلى هدفها.

D.F. Aff. Etr Vol XI (877) 24 Mai, PP. 123-124.

(٦٢) F.O. 371 / 3054/ No 104269. 24 Mai.

التحديد؟ وفي نهاية الاجتماع أبلغ الأمير فيصل رسالة إلى سايكس باسم أبيه ذكر فيها «بأننا على استعداد للتعاون مع فرنسا في سورية إلى أقصى حد ومع انكلترا في العراق» وطلب مساعدة بريطانيا لاعتراف الادريسي وابن سعود بمركز والده.

والحقيقة التي كتب عنها كثيراً الضباط الانكليز عن مقابلة سايكس وبيكو للحسين، وعن تصريح الحسين، بأن يكون لفرنسا في الساحل السوري مثلما يكون لبريطانيا في بغداد، توضح أن سايكس قد طلب بعد جدال ثلاث ساعات من الحسين أن يعلن هذه الموافقة المذكورة. فهذا الكولونيل نيوكومب يذكر أن الملك صرح بذلك بناءً على طلب سايكس، لما له من ثقة ببريطانيا، وبذلك حمل سايكس نفسه عبئاً جديداً^(٦٣)، في الوقت الذي لم يعلن لا هو ولا بيكو صراحة عن اتفاقية سايكس-بيكو. كما كتب الكولونيل ولسن أيضاً عن ذلك التصريح الذي أصدره الحسين بناءً على الحاج سايكس، وحمل سايكس مسؤوليته لأنه لم يوضح نيات بريطانيا تجاه بغداد، لأن الشريف حسناً كان يعتقد حسب رسالة من مكماهون، أن بغداد ستكون مستقلة تحت حكم عربي. وتختلف رواية ولسن عن رواية سايكس بما يخص طلب فيصل من بريطانيا أن تجعل الادريسي وابن سعود يعترفان بزعامة والده إذ قال «إن هناك مسألتين تقلقان بال والده، بما أن الشريف فعل ما رغبتنا فيه بشأن سورية، أفلا نستطيع نحن أن نجعل الزعيمين المذكورين يعترفان بالشريف»^(٦٤). وروى فؤاد الخطيب بعض الحوار ما بين الحسين وبيكو، فقال إنه يرى نفسه مسؤولاً عن السوريين الذين بايعوه زعيماً وحامياً، وإن فرنسا إذا حاولت «أن تأخذ المسيحيين معها وتترك المسلمين لنا، فإنكم تخلقون اختلافات بين الشعب، وتغذون التعصب الأعمى، لضرورة لأن يكون لبنان لنا أو لكم، دعوه يكن حسبما يرغب أبناؤه، ولكني لا أريد تدخل أناس من الخارج، يجب أن تعرفوا أن أشخاصاً كثيرين ماتوا وشنقوا وكانوا وهم على أعواد المشانق يقولون إننا لا نبالي بالموت، أن ملكنا وخليفتنا سوف يقوم

(٦٣) عن المحادثات بين الشريف وسايكس سليمان موسى، الحركة، ص ٣٥٨.

Ibid, 882/16, Note by Newcombe 20 May 1917.

F.O. 882 /16/ lettre dated 24 May 1917. (٦٤)

سريعاً ويثأر لموتنا. وإن ضميري سيعذبني إذا أنا لم أنقذ عائلاتهم وبلادهم، لأنهم استشهدوا في سبيل القضية العربية فقط. الآن سيقول المسلمون أنني أريد أن أبيع سورية للفرنسيين...» (٦٥).

وأرسل الحسين فؤاد الخطيب إلى القاهرة فاتصل بكلايتون، وأبلغه موقف الشريف. وكتب كلايتون إلى سايكس يبلغه كما فهم من فؤاد الخطيب بأن الحسين لم يفهم على الإطلاق ما حدث به هو ويكو عن مستقبل سورية والعراق، لأنه يعتقد أن كلا القطرين سيكونان من نصيبه بلا قيد ولا شرط، واقترح على سايكس إرسال مذكرة عن مصير القطرين للحسين^(٦٦)، لكن لم يشأ أحد ابلاغ الحسين بحقيقة اتفاقية سايكس-بيكو. ثم عاد كلايتون بعد أسبوع وكتب لسايكس بعد محادثات أخرى مطولة مع فؤاد الخطيب، أبلغه أن الشريف حسيناً لم يفهم أبداً الوضع — كما عرض عليه في اجتماع جدة — أو على الأقل هو مصمم ألا يفهم الوضع وأن يخرج من المقابلة بتفسيره هو «إنني لا أعلق أهمية كبيرة على هذا لأنني أظن أن الأحداث ستكون أقوى منه، وأنه في نهاية الأمر سيضطر إلى أن يقبل الأمور كما هي وإلا فسوف يسقط» (٦٧). لقد عبر كلايتون بصراحة عن الموقف النهائي للانكليز من وجهة نظره.

وأكد الحسين أيضاً للورنس في ٢٩ جويه / تموز / لدى اجتماعه به «بأنه رفض رفضاً كلياً أن يسمح بأي احتلال فرنسي لبيروت ولبنان، إنها بلاد عربية، ولكنني لن أستولي عليها ولن أسمح لأية جهة أخرى بالاستيلاء عليها، لقد استحقت الاستقلال ومن واجبي أن أعمل على أن تحصل على الاستقلال». وشبه الحسين سورية والحجاز بكف اليد، وأنه لا يستطيع الموافقة على قطع أي إصبع حتى لا يصبح كسيحاً. ويذكر تقرير لورنس أن الحسين كان مستعداً لضمان الامتيازات الفرنسية القديمة في سورية قبل الحرب (كالمدارس والسكك الحديدية)، لكنه لا يقبل أكثر من ذلك.

(٦٥) رسالة (Note) من الشيخ فؤاد الخطيب نقلها نيوكمب في ٢٠ ماي ١٩١٧. Ibid.

(٦٦) رسالة مؤرخة في ٢٢ حوان / حزيران / ١٩١٧. سليمان موسى، الحركة، ص ٣٦١. Ibid.

(٦٧) رسالة بتاريخ ٣٠ جويه / تموز / ١٩١٧. F.O. / 882/ 3.

وقال الحسين في الاجتماع، بأن التغيير الوحيد في الوضع الناشئ كان «نبذ الفرنسيين لأفكار الاستلحاق أو الاحتلال الدائم أو السيادة على أي جزء من سورية...» (٦٨).

وعبر الحسين عن سروره البالغ عندما رد على بعض اللبنانيين الذين طالبوا باستقلال لبنان، بأن أرسل هؤلاء بأنه يتمنى لهم أكثر وأعظم مما يسعون إليه (٦٩).

أما من جهة فرنسا، فقد أقصي الكولونيل برعموند عن الاجتماع، ولذا لم يذكر الاجتماع في كتابه «الحجاز في الحرب العالمية»، لكنه سجل جملة للأمير فيصل ذكرها عقب دخول دمشق في أكتوبر ١٩١٨، وأتت هذه الجملة في معرض حديثه مع الكابتن مرسيني الفرنسي وهي «لقد آثرنا في أثناء مفاوضات جدة أن نؤجل البت في قضية سورية الساحلية، فقد كان مثلي ومثل الانكليز والفرنسيين مثل تجار يسعى كل واحد منهم لبيع أكبر قسط من بضائع لا توجد في أيديهم» (٧٠).

وجاء في رسالة من فيصل لأبيه عندما كان في مؤتمر الصلح في باريس، يؤكد كما دار في اجتماع سايكس وبيكو مع الحسين بأنه لم يجر أي اتفاق حول مسألة سورية، فقال بأنه اتبع الحجة ذاتها التي ساقها الشريف حسين لسايكس وبيكو «بأن البلاد ليست ملكاً شرعياً لأحد، بل هي في أيدي أبنائها كما قلتم جلالتم لبيكو وسايكس عند مجيئهم إلى جدة، وصرحتم لهما بلزوم ترك الحرية للأهالي بصورة قطعية» (٧١).

وفي رسائل من وزير الخارجية الفرنسية إلى معتمده في جدة، وتوصياته إلى

(٦٨) رسالة من ولسون إلى وينجت في ٣١ جويه / تموز / ١٩١٧ مع تقرير لورنس المؤرخ في ٣٠ منه - Ibid, /882/ 12.

(٦٩) العمري، المصدر السابق، ص ١١٢-١١٨-١٢٠-١٣٣. كتب الحسين في جريدة القبلة عدد ٥٨٤ في ٨ ماي ١٩٢٢ بأنه لو فهم سايكس وبيكو وهوجارت ما يخالف اتفاهه مع الانكليز لترك محالفة الانكليز وقبل الصلح مع الأتراك الذين قبلوا باستقلال البلاد العربية بضمانة ألمانيا. سليمان موسى، الحركة، ص ٣٦٣.

(٧٠) أمين سعيد، أسرار الثورة، ص ١٨٧.

(٧١) سليمان موسى، الثورة العربية الكبرى، وثائق وأسناد، عمان ص ص ١٢١-١٢٥.

السيد مصطفى الشرشالي الذي عينته الحكومة الفرنسية للعمل في دار الاعتماد الفرنسي في جدة، يؤكد أن فرنسا لم تكن ترغب في كشف اتفاقية سايكس-بيكو إلى الحسين، ولا ذكر اسم لبنان أو لبنان الكبير أمامه حتى لا يثير شكوكه، مما يؤكد أن بيكو لم يكن يريد الحصول من الحسين على موافقته على الاتفاقية المذكورة، وبدل أيضاً على أن بيكو لم يصل إلى اتفاق مع الحسين بشأن مصير سورية.

ففي تعليمات وزارة الخارجية الفرنسية إلى الشرشالي تظهر بوضوح سياسة فرنسا إضافة إلى ما ذكرناه قبل أسطر، وهذا نصها «إن فرنسا وهي على تمام الاتفاق مع بريطانيا فيما يختص بشؤون بلاد العرب، لا ترمي إلا إلى صيانة كامل أراضي الدولة العربية، ولا تميل كبقية حلفائها الآخرين إلى أن يكون لدولة أوروبية نفوذ في الأراضي الإسلامية المقدسة، مهما كانت صفة هذا النفوذ، وهي مصممة على عدم التدخل في المسائل السياسية لشبه جزيرة العرب، وعلى ألا يكون لدولة أوروبية ما مركز في بلاد العرب.

«وأما ما يختص بسورية والبلاد الواقعة وراءها، فلن تدع فرنسا للآخرين أمراً العناية بتقدم هذه المناطق ونموها، وهي ما برحت من القديم تهتم بمصير سكانها، وفي استطاعتها أن تذكر بإسهاب مالها من تقاليد وصلات قديمة. كما أن المؤسسات والمعاهد ذات الشأن التي انشئت فيها خلال السنوات الأخيرة، هي ثمرة الاهتمام والعناية اللذين تبذلهما في سبيل هذا الجزء من آسيا الصغرى».

«ولا ترغب في استعباد سكان هذه المقاطعات، وإنما ترغب في تسهيل تقدمهم ورفقهم. وحكومة الجمهورية الفرنسية على تمام الاتفاق مع بريطانيا للاعتراف بالأنظمة التي يختارونها مع مراعاة الأحوال لمختلف المقاطعات».

«وفيما يختص بالولايات التي يقطنها العنصر العربي، فالحكومة الفرنسية تشجع على إنشاء إمارات في حلب ودمشق والموصل، على أن يرتبط أمراؤها بملك الحجاز، ومن المتفق عليه أيضاً أن تتمتع الحكومة الفرنسية وحدها بحق تقديم المستشارين الذين

قد يحتاج إليهم الأمراء ليقودوهم في طريق المدنية، فيجب أن تطلب من فرنسا رؤوس الأموال اللازمة لاستغلال خيرات البلاد، وأن تناط بها مهمة مباشرة المشروعات الكبيرة لترقية هذه المقاطعات اقتصادياً».

«وأما بشأن الساحل حيث الشعوب أكثر تعدداً واختلاطاً، فالضرورة تدعو إلى إنشاء نظام خاص تحت إشراف الحكومة الفرنسية مباشرة».

«ولا بد من نظام خاص للقدس وفلسطين يضمن احترام جميع الأديان، وسيدعى الشريف إلى الاشتراك في دراسة هذا النظام».

«فباستطاعتكم بعد الاطلاع على هذه التعليمات أن تدحضوا كل اختلاق — من دون استشاراتي — يظهر فرنسا بمظهر عدم المكترث بشؤون سورية، أو يظهرها بمظهر الواقف عقبة في سبيل توسع الشريف، وتعلنوا أنها مصممة على أن تحسب حسابه في كل عمل من الأعمال»^(٧٢).

وصل الشرشالي إلى جدة في ٧ يونيو / حزيران /، وقبل أن يبلغ الرسالة للحسين أرسل وزير الخارجية الفرنسية لمعتمده في جدة في ١٧ يونيو / حزيران / البرقية التالية وفيها تعليمات إضافية للشرشالي، وفيها شيء عن مهمة بيكو في الشهر السابق إلى الحسين. وهذا نص البرقية:

«لا شك أن جورج بيكو أطلعكم على نتائج محادثاته مع الملك في جدة، وقد كلفته أن يطلع الشرشالي على الخطير منها، ولما كان الموقف قد تبدل بعدما تسلم هذه التعليمات مايو / أيار / التي يحملها، فقد كلفت الأول (بيكو) بأن يبلغه بألا يكتفي بعدم البحث مع الملك في الشؤون السورية، بل ينكر معرفته لأي شيء يختص بالاتفاق الانكليزي الفرنسي إذا سأل عنه، وألا يجعل للحكومة الفرنسية أية علاقة بقضية الملكية، وأن يقتصر على نقل أجوبتنا إليه، وبديهي، أن إفشاءه للأسرار التي اطلع عليها، وهو ما يخشى منه في هذا الوقت، يولد الشك في نفس الملك من جهة

(٧٢) عن أمين سعيد، أسرار الثورة، ص ١٨٨ — ١٨٩.

اخلاصنا، ولذلك رجوت ببيكو إبلاغه أن يكرر على مسامعه في شتى المناسبات نفس الأقوال التي قالها له هذا، وأن يدور في دائرتها.

ويلوح لي أنه من الضروري أن يوضح الشرشالي للملك معنى تعبير سورية «وقد رده في المشروع الذي سلمه إلى بيكو. فهذا التعبير لا ينطبق في نظرنا على المقاطعات الساحلية، حيث الأديان والطوائف مختلفة متعددة، ولئن زعمت حاشية الشريف أن في الاستطاعة تطبيقه في جميع المقاطعات السورية لعدم وجود أفضلية عديدة للعناصر المسيحية، فهذا القول لا ينطبق على لبنان، ولقد أبلغت بيكو رأيي بأن من مصلحتنا عدم إحداث خلاف بهذا الشأن، ولن ننسى البيانات التي صرح بها، ولا الأعمال التي عملت حتى الآن في الداخل وفي الخارج، ولا الامتيازات التي لنا هناك ولئن تحمل، وإني أرجو أن تستشهدوا بهذه التعليمات في محادثاتكم الخاصة بهذه الشؤون وفي إبداء رأيكم للشرشالي» (٧٣).

واضح من هذه الرسالة، أن الحسين رفض ادعاء فرنسا في حقوقها في سورية، التي مازالت وزارة الخارجية الفرنسية تصر على تأكيدها. وواضح أن الحسين سلم مشروعاً لسورية لم تعلنه فرنسا أيضاً، كما يدل بالتأكيد على أن بيكو لم يصل إلى هدفه. وتؤكد أيضاً رسالة أخرى من وزير الخارجية الفرنسية إلى بيكو — التي كلفه بها إيفهام الشرشالي واللاحاح عليه كما ورد في الرسالة أعلاه — على أن فرنسا كانت تريد إخفاء اتفاقية سايكس — بيكو عن الحسين، ولا تفصح عن أماكن أطماعها في سورية. يقول نص الرسالة «بالنسبة للمحادثات التي يمكن للسيد شرشالي أن يبحثها مع الملك حسين حول سورية فإنه من المفهوم أن مبعوثنا المسلم لن يناقش تلقائياً عبارة «سورية المسلمة». ومع ذلك فإنه إذا طرق الملك (حسين) موضوع القضايا السورية، فإن على الشرشالي ألا يتهرب من المناقشة وعليه — على العكس — أن يجيب موضحاً بنفس المعنى أن المسيو بيكو يحمل تعليمات تتضمن نفس الغاية. وفي حالة عودة الملك إلى استخدام اصطلاح «سورية المسلمة» سواء بمعناها الواسع، أو سواء

(٧٣) نفس المصدر، ص ١٨٩ — ١٩٠.

بإدعاءات غير مقبولة مع خططنا التي تتضمنها تعليماتنا التي يعرفها الشرشالي ، فإن على هذا الأخير ألا يتردد في أن يجعل الملك يفهم ، أن الحل الفرنسي القاضي باستبقاء لجنة فرنسية في سورية ، لا يهدف إلا للتأكيد على التشديد والتقدم لكل المنطقة الساحلية ، حيث تبرز العروق والأديان . وأنا أطلب منك بقوة أن تحذر السيد الشرشالي ألا يستخدم الكلمات : لبنان أو لبنان الكبير عندما يصف المنطقة التي تنوي فرنسا أن تتم فيها العمل الحضاري . لأنها ستصبح عند ذلك لعبة للسوريين ممن يحيطون بالشريف حسين الذين يرغبون بكل دقة أن يحددوا ويضيقوا عملنا الحقيقي في بلد مسيحي ، يعني لبنان . وإذا حدث خلال المناقشة وتبادل الآراء ، أن الملك طرح أسئلة ذات طبيعة معرقة ، أو تتجاوز حدود معرفة مبعوثنا فما على هذا الأخير إلا أن يطلب أن عليه مراجعتي . وبالنسبة للشرشالي فيمكنه أن يقوم بمحادثة من هذا النوع ، بدون معلومات أكثر دقة من تلك المعلومات المتوفرة لدى بيكو . وليس من الضروري أن يثبت بشكل أكيد تحديد المناطق الزرقاء (أ) و (ب) . هذه الكلمات غير موجودة أو مرسومة إلا في برقيتنا رقم ١٣٨ الموجهة إلى بيكو . ولهذا يجب ألا يس بأي حال هذا المفهوم ذا الحدود الواضحة أدناه . ولن يؤخذ مبعوثنا إذا نفذ تعليماته القضائية بتقليل الفوائد الموعودة للشريف حسين من قبل بيكو ، لأن هذا الأخير يحمل بدقة تعليماتنا التي مازالت تثير لدى الشريف تخيلات غاضبة . وفضلاً عن ذلك فإن هذا الأخير ، إذا أخطأ تلقائياً معنى كلمات بيكو ، الخاصة بالمبالغة في تقدير حصتنا من الامتيازات ، فإنه من المفضل أن تصحح له هذه الأمور دون تأخير ، رغم أن عمل الشرشالي سيكون بعد ذلك أكثر صعوبة . أما فيما يخص الاعتراضات فسوف تكون بلا شك من عمل بعض السوريين ذوي الميول العربية (القومية) ، الذين سوف يظهرون مبعوثنا عديم الثقة ، وأنه مكلف بالتدخل في الشؤون الداخلية للحجاز . وسيكون موقف الشرشالي كما ورد في برقيتنا رقم ١٤٥ وهو توضيح الموقف لإزالة تعصب الفريق المذكور . وحتى يتم لنا النصر نهائياً يجب أن نعلن بكل صراحة عن إخلاصهم وتعاونهم الكامل مع مبعوثنا المسلم» (٧٤) .

من الواضح هنا أن إصرار الحلفاء وخاصة فرنسا على الحصول من الحسين على اعتراف بأطماع فرنسا في سورية، يظهر نية الدولتين بعد اتفاقية سايكس-بيكو لتحقيق أغراضهما التالية :

- ١- تسهيل تطبيق الاتفاقية المذكورة عند احتلال سورية.
- ٢- تجنب معارضة العرب خلال الحرب أو عودتهم إلى أحضان الأتراك.
- ٣- الاحتفاظ بسرية اتفاقية سايكس-بيكو حتى لا يفقد العرب ثقتهم بالحلفاء فيما هؤلاء يناورون الحسين للحصول منه على تصريح يضمن معنى الاتفاقية المذكورة.

وواضح هنا أيضاً أن الحسين والعرب كان بمقدورهم عرقلة أو تسهيل تطبيق هذه الاتفاقية. وإذا كان هذا صحيحاً، فلماذا لم يشرك الحلفاء الحسين والعرب صراحة بهذه الاتفاقية؟ الجواب بسيط جداً، فالحلفاء كانوا يريدون فرض الأمر الواقع على العرب، وهذا ما سوف نراه بشكل جلي.

فصائح الاتفاقات

إن الحكومة الشيوعية في روسيا نشرت في يوم ٨ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٧، نص اتفاقية سايكس-بيكو. ولما اطلعت عليها الحكومة العثمانية أرادت أن تستفيد من هذه الوثيقة الخطيرة، كي تعيد العرب إلى صفها. ولهذا أرسل جمال باشا من دمشق ثلاث رسائل، واحدة للأمير عبد الله مؤرخة في ٥ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٧، والثانية/لفيصل، والثالثة لجعفر باشا العسكري القائد الكبير في جيش فيصل، والاثنان مؤرختان في ٢٦ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٧ (٧٥). وغاياته من إرسال واحدة لجعفر العسكري هي محاولة إثارة ضباط الجيش العربي في حالة صمت فيصل وعبد الله. وتحدث في رسالتيه عن العلاقات الإسلامية بين الترك والعرب، وأن العرب قد خدعهم الحلفاء لأنهم اتفقوا على وضع فلسطين تحت حكم دولي وإعطاء سورية لفرنسا والعراق للانكليز، فهل كانت هذه غاية الثورة العربية، وقال بأن الوقت مازال متسعاً لإصلاح الخطأ وإزالة سوء التفاهم بين العرب والترك.

(٧٥) F.O. 371 / 3384/ 8 Nov 1918, P. 1 و 371 / 3380/ 23 Feb 1918, P. 465.

واقترح أن يقابل فيصل الشيخ بدر الدين الحسيني كي يشرح هذا له رأي الحكومة العثمانية . وفي رسالته لجعفر ذكره ببطولاته القديمة وحره ضد الانكليز في مصر ، وأسفه لأنه يحارب مع الثورة العربية التي سهلت للانكليز احتلال فلسطين التي دافع عنها صلاح الدين الأيوبي ، وذكر له أنه مازال يعتقد بإخلاصه (جعفر) ، ويود مقابله شخصياً ، وأقسم بالله أن يعود جعفر معزراً مكرماً إلى المكان الذي جاء منه .

أرسل فيصل البرقية إلى أبيه ، وفعل أبوه مثلما فعل هو فأرسل الرسالة إلى وينجت يسأله عن حقيقتها فوافق — بعد مراسلات بين القادة الانكليز وحكومتهم — بلفور وزير الخارجية البريطانية على رسالة وينجت للحسين في ٨ ففريه / شباط / ١٩١٨ ، وفيها ينكر الاتفاقية ويعتبرها من تركيبات جمال باشا ، للإيقاع بين العرب والحلفاء^(٧٦) . وصدق الحسين الانكليز وأمر ابنه فيصلاً بمتابعة القتال ضد الأتراك ، وطلب وينجت ألا يرد فيصل على رسالة جمال باشا ، لأنه من المحتمل أن يعطل ذلك حركة فيصل التي يقدر جمال أهميتها كإل التقدير على أمر النهضة العربية^(٧٧) ... وهكذا وقع الحسين من جديد تحت خداع وأكاذيب الانكليز ، مع أن وعد بلفور لم يكن قد مضى عليه وقت طويل (٢ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٧) ، واحتاج فيه الانكليز أن يرسلوا القائد (كوموندان) هوغارت (Hogarth) أحد رؤساء المكتب العربي البريطاني في القاهرة إلى الحسين في جدة في جانفي / كانون الثاني / ١٩١٨ ، ليقنعه أن وعد بلفور لا يخالف الأمانى العربية^(٧٨) . وهكذا مر وعد بلفور واتفاقية سايكس — بيكو بسلام لدى فيصل والحسين . وبذلك أضاعا فرصة ثمينة إذ لو طلبا تعهداً جديداً صريحاً من بريطانيا بحق العرب أو سلاحاً للجيش لكان من الجائز أن يحصلوا عليه ، نظراً لحاجة بريطانيا الماسة لمساعدة العرب في الحرب .

(٧٦) جريدة القبلة، مكة، عدد ٦٩٦، حزيران ١٩٢٣ .

(٧٧) F.O. 371 /3380/ 4 Feb 1918, P. 450.

(٧٨) F.O. 371 /3054/ tel Nov 24, 4 Jan 1918.

تمرد الجيش العربي

ولعله من قبيل الصدفة أن يصدر وعد بلفور وتفضي اتفاقية سايكس-بيكو في أسبوع واحد من شهر نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٧ ، وإذا كانت رسالة جمال باشا لم تستطع أن تفعل شيئاً مع عدويه فيصل والحسين ، فلقد فعلت رسالته إلى جعفر العسكري فعلها ، إذ رفض الضباط العرب الاستمرار في الحرب إلى جانب الانكليز ، لأنهم لم يحاربوا حتى يستبدلوا الأتراك بالانكليز والفرنسيين لاقتسام بلادهم ، وخرجوا عن أوامر فيصل واصطدم بهم عندما حاول أن يثبهم عن قرارهم . وأرسل لوالده يطلب أن تقدم بريطانيا تأكيدات بأنها ستنفذ عهدها الأساسية . أجاب أبوه في ١١ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٨ ، يعلمه بثقته بالحلفاء ، وأنهم لن يخلوا بحرف من مقرراتهم مع الحسين ، وأن ليس بينه وبين الترك إلا السيف^(٧٩) . وأقنعهم فيصل بتكذيب بريطانيا لمزاعم جمال باشا . كما أن فيصلاً أبلغهم أن الضباط الانكليز الموجودين في جيشه ، ليسوا سوى ضباط ارتباط فقط^(٨٠) . ولم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة التي أظهر الضباط العرب فيها سخطهم على السياسة الانكليزية والضباط الانكليز الموجودين في جيش فيصل ، إذ في أوائل أبريل / نيسان / ١٩١٨ ، صدرت الأوامر إلى الضباط مولود مخلص (قائد فرقة عربية) بمهاجمة موقع تركي إلى الجنوب من معان وهو محطة قصوة ، لكن مولوداً رفض تنفيذ الأمر ، وقال بأن الواجب على الجيش العربي هو الاتجاه شمالاً نحو بلاد الشام (سورية) ، لخدمة القضية الوطنية والعمل على تحرير العرب ، لا الاتجاه نحو الجنوب . وكان مولود مخلص قد أراد بذلك تحدي الضباطين الانكليزيين ، لورنس وجويس ، اللذين كانا يعملان لتأخير تقدم الجيش العربي نحو الشمال ريثما تحتل القوات الانكليزية أرضاً جديدة في سورية . ورفع مولود مخلص ورفاقه الضباط عريضة إلى فيصل ، طالبين فيها أن يتوجه الجيش الشمالي نحو الشمال تاركاً قوة كافية لحصار معان ريثما تسقط مثلما حدث بالنسبة للمدينة ،

(٧٩) F.O. 371 / 3395/.

(٨٠) صبحي العمري ، ص ٥٨ .

وبذلك يخدمون القضية الوطنية التي يحاربون في سبيلها . واتخذ فيصل والقيادة أمراً بتنحية مولود مخلص عن عمله لأنه عصي الأوامر العسكرية . وفشل جعفر العسكري في قيادة الحملة نحو قصوعه بسبب عاصفة شديدة وأمطار غزيرة . وبعد عدة أيام سوي الأمر وأعيد مولود لفرقة بعد صدور تطمينات من فيصل حول الاخلاص للقضية^(٨١) . وظلت الشكوك تساور الضباط العرب ، طيلة الحرب حتى دخول دمشق ، من الانكليز . وضباطهم وأعوانهم في الجيش العربي كنوري السعيد ، وكان للمناشير التركية التي كانت تصلهم تأثير عليهم ، لأنها كانت تطلق الوعود للعرب بالاستقلال وهو غاية ما كانوا يتمنونونه . وكانت الحساسية قوية لدى الضباط العرب من ادعاءات الضباط الانكليز وخاصة لورنس الذي كان يدعي قيادته لكل عمليات الجيش ، ويدعي أن النصر كان بسببه ، وقد أرسل مجلة انكليزية صورته مع بعض رجال الجيش بعد إحدى العمليات ، لكن الصورة لم تكن له ، وكانت لصبحي العمري وهو ضباط في الجيش العربي نفسه ، وكان أبيض اللون كالأوروبيين ، وقد فضح صبحي لورنس وكشف أكاذيبه بعد أن رأى الصورة في المجلة وتحتها عبارة لورنس ورجاله في استراحة بعد إحدى المعارك^(٨٢) . وقد سمع الضباط العرب من الميجر يونغ — قبل وقت غير طويل من الوصول إلى دمشق في آخر سبتمبر / أيلول / ١٩١٨ — كلمة بسيطة لم يرضوا عنها ودعتهم للهياج والمناداة بعبارة «نقاتل الانكليز قبل الترك» وجأهروا بالعصيان ووضعوا مذكرة عسكرية مؤلفة من أحد عشر مادة منها :

المادة الأولى

«نحن عرب قبل كل شيء ثرنا على الأتراك لنيل استقلال العرب ، فإذا أراد الانكليز اعتبار هذه الثورة خدمة لهم ومعية معاونة لجيشهم في فلسطين ، فإننا نقاتل بريطانيا قبل تركيا ...»

المادة الثانية

«بما أن رئيس الحملة العسكرية نوري السعيد يساير السياسة البريطانية ويماشي

(٨١) أمين سعيد ، أسرار الثورة العربية ، ص ٢٢٠ ، وصبحي العمري ، ص ٥٨ .

(٨٢) صبحي العمري ، ص ١٢٨

الأهواء العسكرية الانكليزية، فإننا نرفض إطاعته ونطلب إقالته، ومنذ هذه الساعة لا نأتمر بأمره».

أما المواد الأخرى

فكانت تنص على رفض الاكرامية المالية البريطانية للجنود وعدم قبول الأوسمة الانكليزية للضباط ... إلخ

«ولولا مجيء يونغ معتذراً راجياً عفو الضباط فرداً فرداً، ولولا حنكة الضباط على جودة الأيوبي والضباط جميل المدفعي لما انتهت هذه الانتفاضة بسلام». وسبب الحادثة أن يونغ كان قد طلب أسماء الجنود والضباط الذين اشتركوا بعملية عسكرية قبل عدة أيام لمكافأتهم واعطائهم الأوسمة، ثم حدث بعد عدة أيام أن طلب من الجيش العربي أن يسوي بقعة أرض لهبوط الطائرات، فتعاس الضباط لأنهم يكرهون الانكليز فقال يونغ «عند الاكرامية ٧٠٠ وعند الشغل عشرون فحدث ما حدث»^(٨٣).

من العربية إلى السورية

وثمة حادثة هامة كادت تقضي على الجيش العربي، وكان ذلك لا بسبب الضباط الانكليز وتدخلهم في شؤون الجيش العربي، وإنما كان بسبب القيادة الانكليزية نفسها. إذ منح الجنرال اللنبي وساماً (C M G) إلى جعفر العسكري، وسلمه إياه في مقر قيادته في فلسطين، وقد يبدو الأمر طبيعياً بالنسبة للجنرال اللنبي الذي اعتبر الجيش العربي تابعاً له ويشكل له الجناح الأيمن. لكن لم يكن كذلك بالنسبة للحسين الذي كان حساساً تجاه أي أمر يمس زعامته وقيادته. وعلم الحسين بذلك كما علم أن لقب «القائد العام» قد أطلق على جعفر العسكري، فاستنكر ذلك ونشر بذلك بياناً في جريدته «القبلة»، قال فيه إن الحكومة العربية لم تمنح ألقاباً أو رتباً عسكرية لجعفر أو غيره وأن لقب القائد العام الذي أعطي لجعفر لا يتفق مع الحقيقة. وعندما وصلت جريدة القبلة إلى معسكر فيصل تدمر الضباط واستقال جعفر. كما

(٨٣) صبري البديوي، مخطوط، (صفحات خفية من تاريخ الأمة العربية خلال عشر سنوات) ج ١، ص ٩—١١ ومقابلة شخصية معه في ١٢/٤/١٩٧٨.

استعفى فيصل من قيادة الجيش وأرسل بذلك إلى والده في ٢٩ أوت / آب / ١٩١٨ ، ووكل أخاه زيداً بالقيادة وأرسل زيد ينذر أباه بمخطورة الموقف . وتدخل المندوب السامي والجنرال اللنبي لدى الحسين وأقنعه بأن فيصلاً لم يتجاوز الحدود ، وأنه إذا لم يعط تأكيدات لاستمرار القتال لذهبت كل جهود الجيش العربي سدى ، لأن وقت هجوم اللنبي النهائي على سورية قد أزف ، ويجب أن يشترك الجيش العربي في هذا الهجوم . وبعد تردد أرسل الحسين لفصيل بأنه لا يقصد إهانة جعفر ، وأنه سيعترف برتب الضباط في وقت لاحق . وهكذا انتهت الأزمة لكنها تركت أثراً سيئاً لدى القيادة البريطانية ، وكان الحسين يخشى من وقوع فيصل تحت تأثير الضباط الانكليز أو العرب في جيشه (٨٤) .

لا شك أن السبب المشترك لهذه الحوادث ، هي شك هؤلاء الضباط العرب بإخلاص الانكليز للقضية العربية ، أو يقينهم بعدم إخلاص الانكليز لهذه القضية وخاصة بعد وعد بلفور وافتضاح اتفاقية سايكس-بيكو . لكن لماذا لم تظهر هذه المشاكل عندما كان الجيش العربي في الحجاز ، فلأن العرب ومنهم هؤلاء الضباط وكذلك الانكليز والفرنسيون كانوا جميعاً متفقين وعالمين أن لا أطماع أجنبية في الحجاز ، وهذا ما أظهره أيضاً وعد بلفور واتفاقية سايكس-بيكو . لكن الذي ظهر أيضاً للجميع أن الأطماع أو المصالح الأجنبية — حسب تسميات الحلفاء — متركزة أولاً في سورية ثم العراق . والمهم هنا أن هذه المشاكل أخذت تبرز ليس فقط من التماس الانكليزي-العربي سواء في الجيش العربي أو في اعتبار اللنبي لهذا الجيش كميمنة ، بل لأن أرض الواقع لهذه المشكلة أصبحت أرضاً سورية تشكل صلب اتفاقية سايكس-بيكو ووعد بلفور . وهذه الأرض بدأت من خليج العقبة منذ وصلها الجيش العربي ، وأخذت جميع الأطراف تعمل لينال كل حصته بالنسبة للحلفاء ، أو لتحرير أرضه بالنسبة للضباط العرب ، والسوريين بشكل خاص منهم ، ثم جرف هذا التسابق فيصلاً أيضاً ليركز جل اهتمامه وجهده وعمله على سورية ، بعد أن كان يقود

(٨٤) مجلة القبلة العدد ٢٠٧ تاريخ ١٩ أوت / آب / ١٩١٧ ، وسليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٣١٦ و

D.F.G. 7N-1658, 15 Sep 1918, de Coulondre, le Caire.

جيشاً عربياً يعمل للقضية العربية . إن مركز الثورة العربية كان في الحجاز وكان الحجاز مشغولاً بزعيم أو قائد يفيض عنه وهو الحسين ، أما سورية فهي في بداية الفراغ الذي سيخلفه الأتراك ، فهل يملأ فيصّل هذا الفراغ ؟ وهل تسمح له بريطانيا وفرنسا بذلك ؟

بعدما وصل فيصل إلى الوجه في مسيرته نحو الشمال ، زاره كل من سايكس وبيكو ، وفي العقبة زاره وايزمن ، وكان الجميع يلفون ويدورون حول سورية أو حول اتفاقية سايكس — بيكو ووعد بلفور ، ثم أخذ السوريون القاطنون في مصر يفدون إليه من أجل نفس القضية إضافة إلى السوريين القادمين من سورية نفسها . وفي جيشه نفسه أخذ الضباط السوريون من العرب يركزون اهتمامهم على بلدهم سورية ، بصفتهم أصبحوا من العقبة يحاربون على أرضها ومن أجل تحريرها . وقد خلق هذا التركيز الواسع من كل الأطراف على مسألة سورية ، شعوراً غير طيب بين الضباط العرب السوريين والعراقيين ، إذ كان الضباط العراقيون أكثر عدداً من الضباط السوريين ، ولذا كانت القيادة لهم ، وشعر السوريون بوجود أن تكون القيادة لهم لأنهم يحاربون على أرضهم (القطرية) . وتدخل نوري السعيد وبعض الضباط العراقيين والشيخ كامل القصاب وبعض السوريين الآخرين في اجتماع لهم في القاهرة لحل الخلاف ، واقترح أن يقسم كل الضباط للعمل من أجل القضية العربية والقسم هو « أقسم بالله ألا أشتغل إلا للبلاد العربية والأمة العربية ، وأن أقاوم كل من يمد يده للأجانب ، وكل سلطة تتعاون مع الأجانب ، وكل سلطة استبدادية في البلاد » . لكن هذا الحل لم يكن كافياً فأوفد القادة السوريون من القاهرة كامل القصاب للذهاب إلى العقبة وحل القضية . وقابل فيصلاً في الكويه (مكان بجانب العقبة) ، فسأله فيصّل عن قصة تحليفه اليمين للضباط العراقيين في القاهرة ، فشرح له الأمر وغايته من قدومه إليه وهو خدمة القضية الوطنية ، وإنهاء الانقسام بين الضباط السوريين والعراقيين الذي يسيء لسمعة الجيش العربي ، ولسمعة فيصّل نفسه ، وعلى الكل أن يذوبوا في بوتقة العروبة . وصفا الجو بين الفريقين إلا أن توحيد الفرق تحت قيادة جعفر العسكري جعل قائد الفرقة الأولى ، القائم مقام حسن رفاي الخيمي (سوري) ، يستقيل ويذهب للقاهرة بعد خلاف وقع بينه وبين جعفر

العسكري^(٨٥). وتابع الجيش العربي بتركيب قيادته الجديدة حتى دخل دمشق. والجدير بالاهتمام أن أحداً من الضباط السوريين الذين كتبوا عن عملهم في هذا الجيش، لم يذكر شيئاً عن هذا الانقسام ولم نورده هنا إلا لأنه كان من جملة العوامل الكثيرة التي جعلت الكيان السوري يأخذ في البروز من قلب القضية العربية، ولا شك أن فيصلاً قد بذل جهوداً جبارة لا ليقضي على هذه المشاكل فقط، وإنما ليوحد بين رجاله وفهم كثير من الخصومات القبلية السابقة.

كانت هذه الحادثة (الحساسية بين السوريين والعراقيين) سبباً مباشراً لاجتماع بعض القادة السوريين، منهم كامل القصاب في القاهرة، وقرروا فصل القضية السورية عن القضية العربية حتى لا يكونوا ملزمين بأي اتفاقات دولية تخص سورية، وشعروا أن الصراع على سورية أصبح كبيراً، وظنوا أنهم بعملهم هذا يقدر أن ينجوا سورية مستقلة. أما السبب الحقيقي لفصل هذه القضية، فهي أن سياسة بعض السوريين وخاصة أصدقاء فرنسا، كانوا يرفضون أن تكون سورية تابعة للحجاز أو حتى مندمجة معه بدولة عربية، فكان هذا الحل الجديد يرضيهم وبالتالي يرضي فرنسا، وبذا لا تضع الأخيرة العراقيل في وجه استقلالها. وأسس هؤلاء القادة حزباً جديداً — ذكرناه بالفصل الأول — اسمه حزب الاتحاد السوري، عين ميشيل لطف الله رئيساً له ومحمد رشيد رضا وكيلاً وسليم سركيس سكرتيراً. وكان الأعضاء المسلمون فيه يتوقعون أن تستفيد سورية من نفوذ المسيحيين وفرنسا، بينما لا تخسر القضية العربية شيئاً لأن سورية جزء منها حسب رأي رشيد رضا. لكن الشريف حسيناً لم يوافق على خطة هؤلاء السوريين، ولا على تصريح الانكليز لهم في القاهرة بما عُرف بالتصريح للسوريين السبعة في جوان / حزيران / ١٩١٨، وسنذكره في حينه^(٨٦).

(٨٥) أمين سعيد، أسرار الثورة، ص ٢٤٠ — ٢٤١.

(٨٦) نفس المصدر، ص ٢٤١ — ٢٤٤ وانظر D.F.G. Turquie No 7N 1640, Note No 179. Port Said 24/12/1918.

ومجلة المنار، م ٢١، ج ٤، جوان / حزيران / ١٩١٩، ص ٢٠٤.

كان فيصل كالأخوين أيضاً مضطراً للاهتمام بقضية سورية، ليس هو ابن قائد الثورة العربية، ألا يقود جيشاً متجهاً نحو الشمال أي نحو سورية، أليست مهمته تحرير سورية من الأتراك... ألم يصبح عضواً في جمعية الفتاة والعهد، ألم يطالبه رجال الحركة العربية في دمشق أن يقودهم في ثورتهم ضد الترك؟ إذن من أفضل منه في الاهتمام بسورية؟ لاشك أن هذه العوامل الهامة هي التي جعلت فيصلاً أيضاً يركز اهتمامه كله في سورية، وهذا ما أثبتته الحوادث، إضافة إلى ما خبره فيصل من اللف والدوران في سياسة بريطانيا ومشاكلها مع أبيه.

وأخذ فيصل يرسل الكتب إلى السوريين ممن يقدرّون على التحرك في سورية، وهم البدو والدروز، وأعضاء جمعية الفتاة، والضباط العرب من هذه الجمعية، والعهد في الجيش العثماني. ومن هذه الكتب كتابه إلى الدروز مع صديقه نسيب البكري يحض فيه الدروز على مساعدته والالتحاق به وجاء فيه «فقد أنبت عني الشريف ناصراً والسيد نسيب البكري، لكي تكونوا وإياهما يداً واحدة على أعدائنا وأعدائكم، ولتخلصوا بلادكم من رقة الذل والهوان، وتطردوا من بلادكم عدواً طالما طغى في أرضكم وفسق في بلادكم، وقتل وشنق أعاظم رجالكم، وعن قريب إن شاء الله أكون عندكم، وأفرح نفساً طالما شقيت لأجلكم، وتألّت لألّكم، وما ذلك على الله بعزيز»^(٨٧). ثم أرسل لهم كتاباً آخر مع نسيب البكري يحمل نفس معنى الأول. لكن الشيء المهم أن فيصلاً هذه المرة قرر في نفسه أن يكون حاكماً على «سورية» أو خيل إليه ذلك، بعد أن تكاثر السوريون في جيشه، إذ أصبحوا يشكلون غالبية في جنده وأفراده، وقبل بفصلها عن الدولة العربية الواحدة ولو نظرياً، لضرورة الحرب والسياسة وتسهيل الانتصار، فاتفق مع الدروز في سورية على أن يكون أميراً عليها وعلى جبل الدروز أديباً، دون الحجاز، وهذا نصه:

١- استقلال جبل الدروز سياسياً وإدارياً مع حفظ جميع التقاليد المرعية بين العشائر.

(٨٧) محمد صبيح، فيصل الأول، القاهرة، ١٩٤٦، ص ٥٠٠.

٢ — إيجاد علاقات ودية ومحالفة ثلاثية بين الحجاز وسورية والجليل، تبنى على ثلاث نقاط:

- أ — العرب تساعد الدروز، والدروز تساعد العرب .
ب — لا سلطة فعلية أو عسكرية لحكومة من الحكومتين السورية والحجازية على جبل الدروز .
ج — إن جبل الدروز يعتبر الأمير فيصلاً أميراً على سورية، ولكنه لا يعتبره أميراً على الجبل إلا من الناحية الأدبية والتشريعية^(٨٨) .

وأقر فيصل هذا الاتفاق بواسطة صديقه نسيب البكري وحسين الأطرش من زعماء الدروز في ٢١ ذي الحجة ١٣٣٦ هـ، لكن هذا الاتفاق لم ينفذ بعد احتلال دمشق .

أنكر سلطان الأطرش (قائد الثورة السورية ضد الفرنسيين سنة ١٩٢٥) هذا الاتفاق، واعتبره دسياسة ضد جبل الدروز . ذكر ذلك في مذكراته^(٨٩) . ونحن هنا لا نريد أن نثبت النص على الدروز، لكن غايتنا إثبات محاولة فيصل لفصل سورية وتأمير نفسه عليها، ونرجح أن هذا النص قد وقع فعلاً أو ما هو بمعناه للأسباب التالية:

١ — جرى هذا الاتفاق مع حسين الأطرش وليس مع سلطان الأطرش، وربما عرض على حسين عرضاً نظرياً فوافق عليه، ثم تجاوزته الأحداث السريعة في الحرب دون التوقف عنده، أو بقي سراً بين حسين ونسيب فلم يعرف به سلطان ولا غيره . وأمر بقائه سراً شيء محتمل خاصة وأن بعض زعماء الدروز ممن راسلهم فيصل أو ردوا عليه أيضاً، كسليم الأطرش، ونسيب الأطرش، وعبد الغفار الأطرش، ومهناي الأطرش، رفضوا الاستجابة لفيصل وفضلوا البقاء مع الدولة العثمانية

(٨٨) امين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ١، ص ٢٣٨ .

(٨٩) مذكرات سلطان الأطرش، نشرت في مجلة بيروت المساء. عدد ٩٩ — ٢٣ — ٢٩ ديسمبر / كانون الأول / ١٩٧٥، ص ٣٧ .

حتى لا يتعرض الجبل للخراب إذا ما أعلن انضمامه لفصيل^(٩٠). وجدير بالذكر أن جمال باشا الصغير خلف أحمد جمال باشا (السفاح) قد كتب في مذكراته أن «سلطان الأطرش رفض دعوة فيصل للثورة ضد الدولة طلباً للاستقلال، وطلب منه أن يحضر ويساعد الدروز على «الاستقلال» لا أن يسلم البلاد إلى الأجنبي»^(٩١).

٢— أرسل فيصل الشريف ناصراً ونسيب البكري ولورنس في حملة للعقبة، ومن هناك ذهب نسيب وحمل معه كتاباً من الشريف ناصر إلى «زعيم الدروز حسين الأطرش، يحمل برنامجاً سياسياً من عشرة نقط نقله لورنس في تقريره إلى كلايتون وقد حذفته الرقابة» هذا ما ذكره لورنس، ولابد أن هذه النقط العشر تحوي الاتفاق المذكور، كما أنها لابد أن تتحدث عن استقلال سورية عن الثورة العربية، وهذا أيضاً يتفق مع ما جاء بالاتفاق بوجود دولة سورية والحجاز مركز الثورة العربية، فلقد كتب لورنس في أعمدة الحكمة السبعة قوله «أراد نسيب البكري أن يتوجه إلى جبل الدروز بعد احتلال العقبة لأعداد حملة كبرى تنقض من هناك على دمشق وتفتحها، وكان في حالة نجاحه يحاول إعداد حركة سورية مستقلة عن حركة الثورة يتولى هو بنفسه قيادتها»^(٩٢).

٣— كان المعتمدان الانكليزي والفرنسي في القدس يرسلان إلى سلطان الأطرش رسائل للدعاية لبلديهما واستعدادهما لتقديم المساعدة له، وكان يبلغ بذلك نسيب البكري^(٩٣). ألا يجوز أن نسيب قد اقترح على فيصل تقديم عرض طيب للدروز حتى يستميلهم أكثر؟

(٩٠) مذكرات سلطان الأطرش (المذكورة)، والعصر الدموي، ص ٨٠، وشبلي العسيمي وآخرون، التعريف بمحافظة جبل العرب، ص ٤٩. وفي هذا الكتاب أن فيصلاً أرسل كتابه إلى خليل المغوشي، كما أرسل إلى سلطان نفسه يطلب منه الاستعداد ريثما يدخل فيصل الجبل قريباً. نفس الصفحة.

(٩١) جمال باشا، كيف جلت، ص ١٢٩—١٣٠.

(٩٢) ألدنجنون، ص ١٩٥، ولورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص ٢٠٧.

(٩٣) مذكرات سلطان الأطرش، نفس العدد السابق، ص ٣٨.

٤ — من الثابت أن نسيب كان يوقع الأوامر باسم: نائب سمو أمير سورية وقائد جيوش الشمال الشريف فيصل^(٩٤). وقد علم بذلك جورج بيكو قنصل فرنسا في فلسطين، فأرسل لحكومته يبلغها بأن فيصلاً يوقع باسم أمير سورية قائد جيش الشمال^(٩٥). وهكذا وقع هذا الاتفاق مع الدرروز مما يقوي صحته.

٥ — يقول سلطان أن ذلك دسيبة فمن دسها ولماذا دسها؟

واتصل فيصل برجال جمعية الفتاة في سورية كي يأتوا وينضموا إليه للعمل معه، فأرسل كتاباً إلى الدكتور أحمد قدري أحد مؤسسي جمعية الفتاة. واتصل المذكور برفاقه واتفقوا على السفر والهروب إلى فيصل. واتصل أحد هؤلاء الرجال بياسين الهاشمي الذي كان يقود الفرقة التركية ٢٠ في طول كرم في فلسطين، وأبلغه بكتاب فيصل للانضمام إليه، لكن ياسين لم يقبل بترك واجبه العسكري في تلك الظروف الصعبة، وقال إن الانكليز غير مخلصين لفيصل ولوالده، وذكر اتفاقية سايكس — بيكو ووعد بلفور، وكان يحتفظ بأعداد من جريدة المقطم ومناشير ألقها الطائرات الانكليزية، وكلها تلقب الحسين بملك الحجاز (فقط) بينما يلقب نفسه ملك العرب، وهذا يدل على سوء نية الانكليز، ثم قال للمندوب (وهو سليم عبد الرحمن)، بأن يذهب وإخوانه إلى فيصل للعمل لإنقاذ العرب «وسنلتقي في دمشق إن شاء الله قريباً».

وكان فيصل يريد من الضباط الالتحاق به في موقع أبي اللسن، إذا لم يكونوا قادرين على فعل شيء يخدم الثورة في دمشق. واعتذر أيضاً رضا الركابي بالسفر إلى فيصل لأنه يتقلد منصباً عسكرياً لا يجوز التخلي عنه، وهو قيادة تحصينات دمشق الذي كلفه به جمال باشا الصغير. وكان الأتراك قد شرعوا بتحصين دمشق للدفاع عنها. وتجمع عدد من الضباط العسكريين والمدنيين وخرجوا سراً من دمشق ووصلوا إلى جبل الدرروز، الذي كان يعج بآلاف الفارين من الأتراك، وكان قسم كبير منهم يعمل مع الدرروز بالزراعة، وكان وضع جبل الدرروز الخاص واستثناء الحكومة التركية لأبنائه

(٩٤) من أوراق نسيب البكري، انظر الصورة في الملحق.

(٩٥) D.F.Aff. Etr, Vol XIX (885) 17 Mars P. 84.

من قوانين الجندية جعلته ملتقى لكل أنواع الرجال السياسيين والعسكريين والفارين . وكان سلطان الأطرش يؤمن وصول رجال الحركة العربية . وفعلاً وصل رجال جمعية الفتاة إلى معسكر فيصل وقد بلغ عددهم ١١٠ من كل نوع — سياسيين وعسكريين ورجال دين وفكر وعلم... — وقد وصلوا في شهر ماي / أيار / ١٩١٨^(٩٦) . وقبل ذلك التاريخ كان الضباط العسكريون يلبون نداء الثورة عن طريق الاتصال الشخصي أو إلقاء المناشير أو إرسال الكتب ، ويفرون من وحداتهم العسكرية إلى معسكر فيصل ، أو يلبون النداء من معسكرات الأسر الانكليزية^(٩٧) . وبذلك تكون قد انتقلت معظم قيادة الفتاة إلى معسكر فيصل ، وزحفت معه إلى دمشق حيث أسسوا جميعاً الحكم العربي فيها .

أصبح فيصل وهو في معسكره في أبي اللسن ، محط أنظار كثير من العاملين للقضية العربية أو القضية السورية بشكل أدق في تلك المرحلة ، فرجال الحركة العربية (الفتاة) حوله والضباط العرب (السوريون والعراقيون) يشكلون ضباط جيشه ، وصار قاسماً مشتركاً كحل من حلول كثيرة كانت تدور في أذهان من يهمهم مستقبل سورية . ففي القاهرة أخذت تتكون فكرة بين السوريين العاملين للقضية العربية أوائل ١٩١٧ ، من قبل تأسيس حزب الاتحاد السوري ، وهي التي قادت لتشكيله ، وهذه الفكرة تقترح إقامة دولة وملك عربي في سورية مستقل عن الحجاز^(٩٨) . ثم تطورت هذه الفكرة لتحديد اسم من سوف يحكم سورية . واستقرت أخيراً على فيصل بن

(٩٦) مذكرات أحمد قدري ، ص ٦٤ — ٦٥ ، وأمين سعيد ، أسرار الثورة ، ص ٢٥٨ — ٢٦٠ ، وانظر :

F.O. 371/2781/ PP. 13-14.

(٩٧) أنظر أوراق البارودي . قسم خاص رقم ٥٩ / إصابة رقم ٥ دمشق ، مركز الوثائق التاريخية وأوراق نزيه مؤيد العظم رقم ٧/٧ و ٩/٩ . دمشق أيضاً . وذكر نزيه المؤيد العظم أن الضباط الكبار في الجيش العثماني من العرب كانوا يسهلون الفرار للضباط العرب ، وذكر البارودي أن الضباط كان يعين في جيش فيصل برتبته وراتبه في الجيش العثماني . المصدران السابقان ، وكان مألوفاً أن يرفع الضباط العربي الفار يديه إلى الجنود الانكليز ، ويقول « عرب » حتى يعرفوا أنه فار . مذكرات القاوقجي ، ص ٣٨ .

D.F.Aff. Etr, Vol IX (875), 6 Feb 1917, PP. 159-160. (٩٨)

الحسين ليكون الحاكم في سورية . وكان هذا الحل برأيهم يحقق هدف القضية العربية والقضية السورية . وقد كان هؤلاء السوريون قد انقسموا إلى فئتين ، الأولى تطالب بالوحدة العربية — وهي مستحيلة برأي حقي بك العظم — الذي أرسل رسالة إلى جميل مردم (من مؤسسي جمعية الفتاة من دمشق) في ٢٠ أبريل / نيسان / ١٩١٨ — لأن فلسطين والعراق قد وضعتا تحت يد الانكليز — والفئة الثانية تتحدث عن استقلال مطلق لسورية منفصل عن الحجاز يحكمها فيصل ، وهذا يقارب وجهة نظره (حقي)^(٩٩) ، ثم تطورت فكرة الاستقلال المطلق لسورية ، نظراً لمعارضة فرنسا وأصدقائها وأتباعها من المسيحيين السوريين واللبنانيين ، إلى فكرة استقلال سورية تحت وصاية فرنسا ، ويكون فيصل ملكاً عليها إذا قبل بفرنسا ، وأبدى حقي العظم استعداداه ليكون مفاوضاً بين الفرنسيين وفيصل إذا قبل ذلك . جاء ذلك في رسالة من حقي العظم في أوت / آب / ١٩١٨ ، إلى سامي البكري كي يسلمها لأخيه فوزي ليوصلها بدوره إلى فيصل^(١٠٠) . أما الانكليز فكانوا يرون في مصر — حسب تقرير لوينجت في مارس / آذار / ١٩١٨ — أن المسلمين والمسيحيين من السوريين القاطنين في مصر يجبون حكماً دستورياً مستقلاً في سورية تحت قيادة فيصل^(١٠١) . وهذا يعني بالتأكيد استبعاد فرنسا ، لكن فيصلاً هو المختار لحكم سورية في جميع الحالات . وقد قدم سايكس حلولاً كثيرة لسورية يكون فيها فيصل أو أحد أولاد الحسين أميراً دستورياً عليها مع فصل الحجاز عنها^(١٠٢) . وكان لورنس أحد الدعاة لفصل بالسير مع الانكليز ورفض الفرنسيين ، يرى في فيصل أنه العامل الوحيد الذي يبدو أنه قاعدة مقبولة وقوة عسكرية محترمة كأمر سني ، سيحيي كما يدعي (فيصل) أمجاد الأمويين والأيوبيين ، ففي إمكانه القبض على زمام الأمور وتوحيد الكلمة في الداخل

(٩٩) Ibid, Vol XVIII (884), 26 Feb 1918, P. 62.

(١٠٠) Ibid, Levant No 1, 11 Aout 1918, P. 231 de Coulondre.

(١٠١) F.O. 371 / 3380/ 1 Mar 1918, P. 294.

(١٠٢) Ibid, 371 / 3381/ P. 51.

حتى النصر^(١٠٣). وكان لورنس بذلك مثار الشبهة لدى الضباط الفرنسيين وموضع مراقبة مخابرات فرنسا في المنطقة^(١٠٤).

إذن وضحت الأمور الآن كبداية لفصل سورية عن الحجاز، وليكون فيصل حاكماً عليها. وأخذ فيصل — كما ذكرنا — يوقع باسم أمير سورية وقائد جيوش الشمال، أي أنه انساق في ما طرح عنه وعن حكمه لسورية، حتى إنه في مفاوضاته لجمال باشا الصغير في جوان / حزيران / ١٩١٨ — سنذكره بعد قليل — حدد أن يكون الاستقلال «السوري» من طراز النمسا — المجر^(١٠٥)، وكأنه بذلك كان يفاوض عن سورية ومستقبل علاقتها مع الدولة العثمانية، لا عن الحجاز والعراق وقضية ثورة والده.

أما أبوه الحسين فكان له موقف مختلف، إذ إنه ظل يعمل للقضية العربية ولم يقبل مطلقاً بفصل مسألة سورية عنها، ولم يكن هذا يعني برأيه وجوب أن يحكم الحجاز سورية أو يحكم هو سورية. ولهذا عندما وصلت إلى أسماعه الأخبار والشائعات عن أن فيصلاً يريد فصل سورية عن البلاد العربية ليكون أميراً عليها، غضب وأرسل له بريقة شديدة في أوت / آب / ١٩١٨، قال فيها «إلى هذا الحد تصل بك القححة يا فيصل»^(١٠٦). وعندها استقال فيصل من قيادة الجيش، لكن والده رفض ذلك وأمره ألا يعود إلى مكة قبل أن يدخل الشام^(١٠٧). وغير لهجته العنيفة، واستمر فيصل في القيادة إذعاناً لأمر والده. واعترف لورنس أنه زور جواب الحسين حتى أصبح لطيفاً

(١٠٣) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص ٢٧٦.

إن فيصلاً قد اختير وفقاً لنصيحة لورنس فيما يبدو مرشحاً وطنياً للجلوس على عرش سورية، لأنه كان مقدراً له أن يطرد الفرنسيين ويحول دون عودتهم، في الوقت الذي يخضع فيه للنفوذ البريطاني. ألدنجهون، ص ٢١٦.

(١٠٤) D.F.Aff. Etr, Vol XIII, 5 Nov 1917, P. 15.

(١٠٥) مذكرات سعيد الجزائري، إعداد أنور الرفاعي، دمشق ١٩٥٢، ص ٨٤—٨٩.

(١٠٦) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، القاهرة، بعد ١٩٥٢ ص ٩١.

(١٠٧) نفس المصدر و D.F.G. 7N-165831 Aout 1918.

فقبل به فيصل كما سبق^(١٠٨). وكان الحسين قد هاجم وانتقد في جريدته القبلة شكري غانم، رئيس اللجنة المركزية السورية في باريس، لأنه كتب في جريدة «المستقبل» يطلب استقلال سورية تحت حماية فرنسا^(١٠٩)، كما انتقد الحسين حقي العظم لآرائه التي ذكرناها، ولأنه قال «بأن اللبنانيين وكل المسيحيين السوريين يرفضون سلطة ملك الحجاز، الذي يستمد سلطته من الدين، ولأنه يشكل حكومة دينية، وأن كثيراً من المسلمين يحملون نفس الفكرة»^(١١٠). كما كان الحسين قد رفض رأي الزعماء العرب في مصر القائل بتكوين كيانات عربية مستقلة برئاسة الحجاز^(١١١).

(١٠٨) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص ٣٨٨.

(١٠٩) D.F.Aff.Etr, Vol IV (875), 23 Feb 1917, P.224.

(١١٠) Ibid, Levant, 1, 3 jun 1918, P. 90.

(١١١) مجلة الزهراء، القاهرة، م ١، ج ١، (عبي الدين الخطيب) ١٣٣٤ هـ ص ١٩٨.

الفصل العاشر

نهاية الحكم التركي

القوات العسكرية في فلسطين

في بداية عام ١٩١٧، أخذت بريطانيا وفرنسا تبحثان موضوع مشاركة فرنسا بقوات عسكرية إلى جانب القوات الانكليزية في مصر، للتقدم نحو فلسطين وسورية. وكان بلفور قد أبلغ تعليماته إلى الجنرال موري قائد الحملة عن مشاركة فرنسا في الادارة في فلسطين. وتقرر أن تخصص كل من الدولتين مبلغ سبعمائة ألف فرنك لانفاقها على الادارة المشتركة، ويكون جورج بيكو أحد المفوضين فيها^(١). وفي مارس / آذار / ١٩١٧، أبلغ بلفور الحكومة الفرنسية شكره لمساعدتها في حرب فلسطين. وفعلاً وصلت إلى بور سعيد في أبريل / نيسان / ١٩١٧، القوة الفرنسية، وكانت صغيرة قياساً إلى مجموع القوة الانكليزية، التي سماها الانكليز الحملة المصرية، زيادة في خديعة العرب. وكان صغر القوة الفرنسية سبباً كي ترفض بريطانيا أن يكون قائدها جنرال فرنسي ذو رتبة كبيرة، بل طلبت تعيين ضابط يتناسب مع حجم القوة. وكان تعداد القوة الفرنسية كالتالي:

١- الفوج الخامس من الوحدة ١١٥ مشاة ويتألف من ١٥ ضابطاً و ٥٧٧ رجلاً و ٧٥ حيواناً.

٢- فوج من وحدة المشاة الأولى وفيه ١٥ ضابطاً و ٢٧ جندياً و ٣٨ حيواناً.

(١) D.F.Aff.Etr, Vol, IX (875) 26 Jan 1917 P. 133 et 158 (5 Fev)

Ibid, Vol X (876) 8 Mars, PP. 13-14.

٣- فوج من وحدة المشاة الثانية وفيه ١٩ ضابطاً و ٨٠٤ رجال و ٤٠ حيواناً وصحية بسبعة ضباط و ١٣١ رجلاً و ١٣١ حيواناً.

وقد وصلت هذه القوات برفقة بيكو وسايكس، والكولونيل الفرنسي دو بياباب، الذي أصبح حاكم لبنان (المنطقة السورية الساحلية) بعد احتلال سورية^(٢).

وخلال زيارة قام بها سايكس وبيكو إلى الحدود الجنوبية من فلسطين، تبين للثنتين قيمة تشكيل قوة عسكرية عربية من القبائل البدوية القاطنة في تلك المناطق الجنوبية والشرقية من سورية، يقودها ضباط إفرنسيون وإنكليز للعمل في صف الحلفاء، وكانت فرنسا توافق على تشكيل تلك القوة لأنها كانت تعتقد أن تكون دعماً وزيادة لقواتها القليلة في منطقة تابعة لها حسب اتفاقية سايكس-بيكو، لكنها (فرنسا) كانت تعتقد أيضاً أن بريطانيا تتحفظ في مثل هذا الموضوع، لأنها تريد أن تحتل قواتها فقط كل المنطقة، وسيكون ذلك لمصلحتها في المستقبل^(٣). وقد عبر سايكس عن مثل ذلك، عندما أبلغ زميله بيكو، أن موضوع تشكيل قوة عربية، يتطلب مراسلة وموافقة لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني، وبلغفور وزير خارجيتها. وعندما طلب بيكو من وزارة الخارجية الفرنسية، كي يسعى مع رئيس وزارته لتحقيق ذلك الأمر^(٤). أبلغته الحكومة الفرنسية أن الصعوبات القائمة ضد تأليف فرقة عربية مسلمة هي في طريقها للحل. وقد أمر بلغفور المفوض السامي البريطاني في مصر أن يسهل تجنيد هذه الفرقة وتنظيمها. وطلب بلغفور كذلك سفر القوات إلى الاسماعيلية حتى يتم تجهيزها^(٥). كما أرسل رسالة إلى وزارة الخارجية الفرنسية، يعلمها بأنه يتفق مع فرنسا على تشكيل القوة العربية وأنه يحاول وضع الاتفاق السياسي الفرنسي-الانكليزي موضع التنفيذ، وأنه يتجنب كل العراقيل، ويقترح أن تكون القوة تابعة أخيراً للقيادة البريطانية في مصر، وأن تكون بالأساس للدفاع عن الحجاز، وأنه يمكن أن تعمل هذه

(٢) Ibid, (15 Mars) P. 35 at 12 April P. 243.

(٣) Ibid, Vol XII (878) 25 Juill 1917, P. 13.

(٤) Ibid, 25 Juill 1917, P. 92.

(٥) Ibid, Vol XII (878) 26 Juill 1917 P. 97.

القوة العسكرية في مكان آخر حسب الضرورة، فإذا استعملت في الحجاز فستكون تحت قيادة الملك حسين، وعندها تدفع بريطانيا التكاليف، وإذا استعملت في مكان آخر فتشارك فرنسا في الدفع، وفي هذه الحالة تكون تحت القيادة العامة للقوات التي تعمل متعاونة^(٦). وكان بلفور يعني سورية بالمكان الآخر، لأن فرنسا تشارك في الدفع فقط في المنطقة المحددة لها، بينما هي تعفى من الدفع عن حماية الحجاز المرتبط باتفاق مباشر مع بريطانيا وحدها.

لكن هذه القوة العسكرية العربية كانت تتألف من الجنود الفارين والأسرى لدى الانكليز في العراق، حيث أرسلوا إلى الاسماعيلية في مصر، وبينهم كرد وأتراك ويهود. وقد ذهب إلى عدن كل من الضابط الفرنسي كولوندر، والكولونيل الانكليزي بيرسون (Pearson) حيث تفقد القوة وهي في طريقها إلى قناة السويس. وطلب هؤلاء الجنود وجوب رفع العلم العربي (علم الحجاز) على السفينة التي تنقلهم إلى الاسماعيلية، حيث سيوضعون تحت تصرف (ملك الحجاز)، وكانت روحهم المعنوية سيئة، وظهر عليهم العداء نحو الحلفاء، حتى إن دو فرانس اقترح استعمال القوة معهم حتى يتقبلوا التعليمات العسكرية. وأخذ هؤلاء الجنود ممن قبلوا الانضمام إلى الثورة العربية، يطلقون في الاسماعيلية لقب جلالة الحسين بن علي ملك العرب (Sa Majesté Hussein Ibn Ali Roi des Arabes) «دون أن يدركوا المعنى السياسي لهذا اللقب الذي يطلقونه، لكنهم يقولون ذلك تعبيراً عن رغبتهم التي يعطيهم إياها تصورهم الخاص عن القضية وهم ذاهبون إلى الحجاز»^(٧).

والجدير بالذكر أن بريطانيا وفرنسا لم تعترفا للحسين بلقب ملك العرب، واكتفتا بلقب ملك الحجاز، حتى دون لفظ صاحب الجلالة رسمياً مع أن مراسلات بريطانيا ذكرته كثيراً بهذا اللقب. ويبدو أن اتجاه هذه القوة العربي قد خيب أمل

(٦) Ibid, PP. 103-104.

(٧) Ibid, (27 Sep) P. 251 et (29 Sep) P. 254.

رسالة من الملحق العسكري الفرنسي في حملة فلسطين Maugras

الفرنسيين في حين أن الانكليز لم يعتمدوا عليهم مباشرة، بل سوف يعتمدون عليهم من وراء سياسة الحسين قائدهم المباشر بعد وصولهم إليه. وقد كان تصور فرنسا من الاستفادة من هذه القوة العربية في غير محله، لأنها لم تتحيز لفرنسا أولاً ولأن الانكليز أسرعوا في ترحيلها إلى الحجاز ثانياً، في الوقت الذي كان يأمل شكري غانم فيه في باريس أن يتشكل جيش سوري يقوم مع الجيش الانكليزي في فلسطين بتحرير سورية، ويجب أن يتألف هذا الجيش من ١٢ — ١٥ ألف متطوع من المهاجرين السوريين في أمريكا ومصر وممتلكات فرنسا في شمال إفريقيا، وبذلك يضمن ولاء هذا الجيش لفرنسا وقضية سورية، بدلاً من ضياعها في القضية العربية والملك حسين والحجاز أو حتى القيادة البريطانية^(٨). وكان بعض القادة الفرنسيين يتمنون لو تستطيع فرنسا إنزال جيش مكون من عشرة آلاف جندي فرنسي في طرابلس منذ الآن (مايو / أيار / ١٩١٧) وحتى شهرين لتخليص الجبال السورية « من اللبنانيين والعلويين والمتاوله الذين ينتظروننا »^(٩).

وإذا كان شيئاً من هذا لم يتنفذ، فقد طلب وزير الخارجية الفرنسية من قنصله في بور سعيد، أن يضيف مبلغ ٤٥٠٠ فرنك على نفقات البعثة، لتمكن من إرسال ١٥ رامياً ماهراً إلى الحسين في الحجاز، وكان يأمل أن يكون لذلك أثر حسن على روح التعاون والدعم الفرنسي^(١٠).

وجدير بالذكر أن بعض قطع الأسطول الفرنسي قد احتلت جزيرة أرواد — تبعد

(٨) D.F.Aff. Etr, Vol XII (878) 18 Aout 1917, PP. 162-163.

(٩) Ibid, Vol (877) XI. 16 Mai 1917, P. 1.

(١٠) Ibid, Vol XII (877) 26 Juill 1917, P. 97.

قدمت فرنسا إلى الحسين مساعدة مالية عن طريق بريموند، وعدد من بعثة مرافقة من الجزائريين والتونسيين والمراكشيين، ومن إفريقيا الغربية الفرنسية، مبلغاً قدره مليون ومائتا ألف فرنك، وتلا ذلك وصول فرقة عسكرية فرنسية صغيرة مزودة بعدد قليل من الرشاشات الفرنسية، ومدافع الميدان والبنادق الحربية بقيادة الكابتن بيزاني، وقد رحب الشريف بالبعثة بحفاوة.

Goach, Part 1 Vol IV, P. 509.

Bremond, le Hedjaz, PP. 48-53-64 and 348-349. و

٣ كم عن الساحل السوري — في سبتمبر / أيلول / ١٩١٥ ، واتخذتها فرنسا قاعدة لحصار الساحل السوري ، ولاتصال ضباطها بأعوانها من السوريين ، ولتقديم المساعدة المالية والغذائية لهم خلال الحرب ، ولم تتأثر بريطانيا بهذا الاحتلال لأنه لا يؤثر على خططها العسكرية في المشرق ، وكان التبرير « أن هذا الجزء من الساحل السوري واقع ضمن المنطقة التي يدعي الفرنسيون أنها تابعة لنفوذهم وتأثيرهم »^(١١) .

وكان احتلال أرواد سهلاً لانفصالها عن الساحل وقلة حاميتها ، لكن رئيس الوزراء الفرنسي رفض طلباً لدو فرانس بفتح جبهة عسكرية جديدة في سورية ، لأن ذلك كان غير ممكن ، كما أنه — حسب رأي المسيو بريان (A.Briand) رئيس الوزراء الفرنسي — يعرض السوريين لمذابح كثيرة ، وقال بأن فرنسا تحاول حماية السوريين ، وقد اتصلت بالولايات المتحدة الأمريكية التي تحمي مصالحها في تركيا لتفعل كل شيء في ذلك السبيل^(١٢) .

وفي أثناء معركة فلسطين ، حاولت دولة ثالثة أن يكون لها حصة في سورية ، وهذه الدولة هي إيطاليا إحدى حلفاء فرنسا وبريطانيا . وكانت بداية ذلك ، أن أبدت الحكومة الإيطالية للحكومتين الانكليزية والفرنسية رغبتها في الاشتراك في القتال في فلسطين ، وقبلت الحكومتان المذكورتان طلب إيطاليا^(١٣) . لكن السفير الفرنسي في لندن أجاب وزارة الخارجية البريطانية ، بأن فرنسا لا ترى أن يكون لإيطاليا ملحق عسكري في فلسطين ، لأن قواتها محدودة بـ ٣٠٠ رجل ، وأنه لا يمكن أن يكون لها ملحق سياسي ، وأن مصالح إيطاليا لا يمكن اعتبارها حالة خارجة عن المنطقة الدولية نفسها^(١٤) . وفي ١٢ أبريل / نيسان / كتبت الجريدة الإيطالية ، (Corriere d'Italie) عن الأماكن المقدسة في فلسطين ، وتذكر أنه بعد تحريرها يجب أن تكون لجميع الأوروبيين (الإيطاليين والاسبان والفرنسيين والروس) ، وأنه لا يمكن أن تحتفظ فرنسا

(١١) من W.O. F.O. 371 / 2491/ No133224, 21 Sep (1915)

(١٢) D.F.Aff.Etr, Vol. VII (873) 24 Mai 1915, P. 21.

(١٣) Ibid, Vol X (876) 1 April 1917, P. 128.

(١٤) Ibid, Vol X (876) 7 April 1917, P. 161.

بكل ما كان للملكها في هذه المنطقة، حيث تدعي الميزات والفوائد التي يمكن أن تتأتى، عن الامتيازات التاريخية للحماية الفرنسية في الشرق، وطالبت هذه الجريدة بحق إيطاليا في الأماكن المقدسة^(١٥).

كما ذكرت جريدة إيطالية أخرى أكثر كثلة في ١٦ أبريل / نيسان /، بأن مسألة فلسطين أكثر خاصية لأن فيها الأماكن المقدسة^(١٦).

وفي ٢١ أوت / آب / ١٩١٧، أرسل سفير إيطالي في باريس، مذكرة يدعم بها الاتفاق الانكليزي-الفرنسي الموقع في ٩-١٦ مايو / أيار / ١٩١٦، على أن تعترف الحكومتان المذكورتان لإيطاليا بمصالحها في المناطق الخضراء والمنطقة (C) الموضحة على الخارطة، وتؤكد على أهمية ميناء الاسكندرونه وحيفا وعكا (Saint Jean Acre) لتأمين تجارتها مع بعض الموانئ التركية الأخرى على البحر المتوسط، وتسأل عن الادارة الدولية للمنطقة الصفراء في المادة ٣ من الاتفاقية المذكورة، التي سوف توقعها إيطاليا. وتود أن يلحق ميناء حيفا وعكا بالمادة ٤ من الاتفاقية، وتساند إيطاليا ما جاء بالنسبة للمنطقة (C) حسب مادتها الثامنة، وتؤيد كذلك المناطق الزرقاء والحمراء بما فيها (A) و (B)، ووجوب احترام جميع القوى الأخرى، كما يجب اعتبار الجزيرة العربية ومنطقة البحر الأحمر مناطق تتمتع بالمساواة في التعامل مع إيطاليا كفرنسا وبريطانيا، ويجب ابلاغ روسيا لمعرفة رأيها^(١٧).

لكن شيئاً من المطالبات السياسية في حيفا واسكندرونه وعكا، لم يتحقق لإيطاليا وإنما حفظت بريطانيا للكنيسة الكاثوليكية حقوقها في الأرض المقدسة؛ بينما ظل الصراع قائماً بين إيطاليا وفرنسا حتى نهاية الحرب حول الكاثوليك في القدس، وحاول سايكس برسالة له إلى مسيو غو مارس / آذار / ١٩١٨، أن يزور لندن

Ibid, 15 April 1917, P. 213. (١٥)

Ibid, 28 April 1917, P. 220. (١٦)

Ibid, Vol XII (878) 21 Aout 1917, PP. 167-169. (١٧)

لمناقشة هذه القضية، وللمقابلة السفير الإيطالي في لندن أيضاً لنفس الغاية^(١٨)، لكن وعد بلفور قد قلب الأمور رأساً على عقب في فلسطين بالنسبة لجميع القوى. وقد حدد الأب جوسان، الذي يعمل في مخبرات البحرية الفرنسية في بور سعيد، في ٨ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٧، أن إيطاليا بعض الوجود والتأثير وخاصة في الساحل كاللاذقية، حيث توجد بعض العائلات الفينيسية منذ زمن طويل «ومع كل هذا فاللغة الفرنسية تحمل محل الإيطالية كلغة أجنبية، أما المؤسسات الإيطالية فلها المكانة الرابعة»^(١٩).

تنظيم الإدارة والاتصال بالعشائر العربية

وخلال الحرب وفي بداية عام ١٩١٧، كانت الاتصالات مستمرة بين الانكليز والفرنسيين حول العمل المشترك في المنطقة السورية. وكانت فرنسا تلح على تنظيم الإدارة في المناطق المحتلة، حتى يكون كل شيء واضحاً لدى وصول الحلفاء إلى دمشق، ولتطبيق اتفاقية سايكس-بيكو. وكان من رأي وزير الخارجية الفرنسية، تنظيم المناطق المحتلة تحت إدارة فرنسية-بريطانية، وكان يجب أن تعمل الدولتان على حض العرب كي يسهلوا للقوات الحليفة تقدمهما، ولا يعني تقدم الجيش الانكليزي نحو فلسطين أنه سوف يحكمها. أما المناطق التي لا تخضع لتأثير انكليزي أو فرنسي، فيجب أن تخضع إلى حكم ذاتي تحت الاشراف الفرنسي أو الانكليزي، أو حكم دولي كفلسطين. ويجب حض العرب المسلمين على التفاهم مع القوات العسكرية، ومع الوكلاء السياسيين، الذين يقودون المفاوضات (سايكس وبيكو)، وبذل كل نشاط سياسي يسمح للقوات الحليفة بالتقدم حتى تساعد العرب. وكان وزير الخارجية الفرنسية يرى أيضاً، فتح مكتب استعلامات للاتصال مع العرب، وإنشاء مكتب مخبرات لقيادة العمليات العربية المعادية للعدو، وإقامة مكتب مخبرات للاستعلام عن

(١٨) Ibid, Vol XIV (880) 11 Dec 1917, P. 167, 169, et Vol XIX (885) 30 Mars 1918, P. 231.

(١٩) تقرير مطول لجوسان عن سكان سورية.

Ibid, Vol XIII (879) 8 Oct 1917, PP. 25-57.

حركات العدو في دمشق وحمص وحماه ، وأنه يجب أن يشكل العرب والجمعيات المحلية قوات عسكرية من المناطق التي يجلو عنها العدو ، وذلك بتسهيل الفرار للجنود العرب (الترك) على طرق حوران وبين القبائل في الصحراء . ويتحدث الوزير عن استخدام القبائل البدوية ، كبنني شاكر ودروز حوران ، لكنه كان يتصور إمكانية قيام استقلال للدروز دون أن يكون للشريف حسين سلطة عليهم ، إذا كانت تسمح لهم بذلك الظروف ، ثم يقوم هؤلاء الدروز بقطع الطريق ، ومن ثم يصبح جبل الدروز ، مركزاً للاتصال في كل المناطق المجاورة السورية ، والعربية الجنوبية ، وفي فلسطين مع الانكليز . ويجب استخدام الرولا ، واعتبار زعيمهم نوري الشعلان رئيساً لاتحاد عربي ، وإرسال مبعوث وممثل سياسي إلى المركز السياسي (في الجبل) ، ووجوب مد الخدمات البريدية بوساطة نوري الشعلان . ويجب تسليح الرولا ، واستخدام اليزيديين وقبائل شمال العراق (٢٠) .

ومن دراسة خريطة المنطقة التي فيها جبل الدروز وبدو الرولا أتباع نوري الشعلان ، وهي المنطقة الجنوبية من سورية ، يبدو واضحاً أن استقلال جبل الدروز واستقلال نوري الشعلان واعتباره زعيم اتحاد عربي ، ما هو في الحقيقة إلا عملية فصل جغرافي بين سورية وبين الحجاز ، أو فصل الحسين عن السوريين ، وبذا يمكن لفرنسا عند احتلال سورية أن تجد نفسها وحدها منفردة بحكم سورية ، دون منازعة مع الحسين أو مع اتفاقاته مع بريطانيا بما يخص سورية ، كما أن هذا التقرير لوزير الخارجية الفرنسية ، لا يذكر حتى كلمة واحدة عن الحجاز أو عن الحسين ، لأنه يعتبره حكماً خارج هذه المنطقة الجغرافية التي هي سورية ، بما فيها الدولتين المرتقتين الحاجزتين جبل الدروز وعشائر الرولا ، برعاية نوري الشعلان زعيم الاتحاد العربي ، بدلاً من الحسين — ملك العرب أو زعيم الاتحاد العربي المرتقب حسب اتفاقه مع مكماهون — .

وعلى كل ، فإن عشائر البدو المسيطرة على الصحراء والبادية ، بين القوات التركية وخلفها في جنوب سورية وشرقها ، كانت مهمة بالنسبة للعمل العسكري

للانكليز والفرنسيين ، وكان نوري الشعلان عميلاً لكللا الدولتين ، كما أنه في نفس الوقت كان على اتصال مع فيصل ابن الحسين ومع الأتراك أيضاً ، وكان يقدم خدماته لهؤلاء جميعاً ، وقد خصصت الحكومة البريطانية لمفوضها في مصر مبلغ ٢٨ ألف ليرة انكليزية ، توزع على نوري الشعلان وبني شاكر ودروز حوران ، حيث تمتد المنطقة إلى شمال فلسطين^(٢١) ، كما أن رئيس الوزراء الفرنسي قد أدخل زيادة على ميزانية الدولة مبلغ ٨٤ مليون فرنك^(٢٢) ، من أجل هذه الأغراض ، ولتوزيع الأموال على هؤلاء البدو وعلى العملاء في سورية ولبنان . وكان الأميرال فارني قائد الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط يوزع المعونات من أرواد على أصدقاء فرنسا من السوريين واللبنانيين . وقد أرسلت فرنسا مليون فرنك في مارس / آذار / ١٩١٧ ، لتوزع في لبنان عن طريق حاكم جزيرة أرواد . وقد طلب ، رئيس الوزراء الفرنسي من وزير خارجيته إضافة مبلغ ٤٠ ألف ليرة على مصاريف وزارته ، كي توزع على عائلات المسلمين ، وقد أرسل الأميرال فارني قائمة بأسماء العائلات التي وزعت عليها الأموال ، ومنها ألفا فرنك إلى أسرة فريد وفيليب الخازن^(٢٣) ، اللذين أعدتهما جمال باشا . وكانت بعثة بيكو تكلف ٧٥٠ ألف فرنك في الشهر أي ٦٧٥٠ مليون في السنة ، وهذا الرقم يرتفع حسب الظروف الحالية إلى ١٠١ مليون^(٢٤) . وقد انتقد سعيد الجزائري فرنسا ، لأنها برأيه لا تعرف كيف توزع المال ، ولا تعرف الأشخاص المهمين الذين يقدرّون على قيام الثورة في سورية ، وأن أسرة عبد القادر الجزائري هي خير من يقود الثورة ويحترم مصالح فرنسا ، أما نوري الشعلان فقد ذكر بأنه سياسي يعمل مع كل الأطراف^(٢٥) . وكان الكابتن بيزاني — حسب وصف دو فرانس — الذي يعرف اللغة العربية ، أحد العناصر الفرنسية

(٢١) Ibid, 5 Fev 1917, P. 156.

(٢٢) Ibid, رسالة من de Margerie

(٢٣) Ibid, Vol X (876), 7 Mars 1917, et Vol (878) XII. 3 Aout 1917, P. 129, et Vol X, 24 Mars

1917, P. 87.

(٢٤) Ibid, Vol XIII, 5 Oct 1917, P. 16. القاهرة

(٢٥) Ibid, 7 Oct 1917, PP. 20-21 من le Colonel chef de mission-Egypte.

النشطة باتصاله بشيوخ القبائل والدروز والحوارنة، وأنه يقوم بدور هام عسكري وسياسي في الحملة الفرنسية^(٢٦)، المرافقة لجيش فيصل المتقدم نحو الشمال.

أما بريطانيا، فقد كانت تتبع نفس الخطة في سورية، التي عبر عنها وزير الخارجية الفرنسي، التي ذكرناها منذ قليل، إلا أنها كانت تتعامل إضافة إلى ذلك مع الثورة العربية، وكانت تحاول إبقاءها حية بقدر ما تحتاج مصالح بريطانيا في الحرب، كما كانت تعمل على إقامة مؤسسة سياسية لاستقبال شيوخ العرب الناقمين على الترك، وتوظيف أو استخدام عناصر المدن من المسلمين غير الراضين الذين يعملون بالزراعة في سورية، حتى تصبح سورية مستعدة للقيام بواجبها عندما يحين ذلك، ويجب برأيها أيضاً استخدام البدو والدروز لأكثر مغامرة وذلك بتموين الجبل بالسلح والذخيرة، وعندما يصبح الدروز أقوياء فعليهم أن يعلنوا استقلالهم كوحدة في اتحاد عربي، ومن ثم يهددون دمشق، كما يجب إقامة صلات بين الجبل (الدروز) والجوف (صحراء في شمال الجزيرة العربية) وبين الجبل والروا، وبين الجبل وعنزة الشماليين، وترتيب الأمر كي يتمكن الدروز من نقل الفارين إلى بني صخر، واستخدام نوري الشعلان لأقصى حد، واستخدام الزيدية والملي وقبائل شمال العراق، واستخدام عناصر مختلفة في حلب، واستخدام أرواد ولبنان. ويختلف هذا التقرير الذي كتبه سايكس إلى بيكو في ١٤ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٧، عن رأي وزير الخارجية الفرنسية، بأنه لا يركز على فصل سورية عن الحجاز بدولة الدروز والروا^(٢٧)... وهذا يدل برغم اتفاقية سايكس—بيكو أنه مازال بين فرنسا وبريطانيا بعض الخلاف على تقسيم المنطقة لأبد من حله في المستقبل—وسوف يتم في سنة ١٩١٩—.

حساسية

ومن مظاهر هذا الخلاف وهذه الحساسية بين الطرفين، أن بريطانيا رفضت أن يجارب الأسرى العرب المسيحيون في معركة فلسطين، أو مع الثورة العربية، وفضلت أن

Ibid, Vol XX (886) 12 April 1918, P. 99. (٢٦)

F.O. 371 / 3050/ No 56 / 41/ (٢٧)

تبقىهم في الهند نفسها ، حيث يمكن أن يقدموا خدماتهم ، وكانت بذلك تحرم فرنسا من عناصر عسكرية كانت بريطانيا تتصور أنها تدعم موقف فرنسا ، بينما أعلن هؤلاء الأسرى المسيحيون العرب رغبتهم بالالتحاق بقوات الحلفاء وليس البقاء بالهند^(٢٨) . لكن بريطانيا نفسها لم تراع مصلحة المسلمين بنوعية قواتها ، فقد كان الجنرال ماكسويل (Maxwell) قائد القوات البريطانية في مصر ، يصرح بأن عنده من الجنود الهندوس ما يكفي لحماية مصر وقناة السويس^(٢٩) ، وكان يعني بذلك إمكانية انضمام الجنود المسلمين التابعين له لحملة جمال باشا على القناة في فبراير / شباط / ١٩١٥ ، وهو يعني أيضاً احتمال تمرد الجنود المسلمين على القيادة الانكليزية لدى اعلان السلطان العثماني الجهاد ضد الانكليز والفرنسيين .

ومن تلك الحساسية في العلاقات البريطانية — الفرنسية في هذه الحرب أيضاً ، آراء الفرنسيين بالمسؤولين والضباط الانكليز مثل لورنس وستورز وغيرهما ، وكان الفرنسيون يهتمونهم بمعاودة فرنسا — وستظل هذه العلاقة متوترة حتى الاحتلال الفرنسي لسورية سنة ١٩٢٠ — فمثلاً كان ستورز السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني في القاهرة ، متهماً بأنه هو الذي جعل الصحف المصرية تسبكت عن ذكر الانتصارات الفرنسية أو الكتابة عنها ، وأنه هو الذي يوحى لجرائد مصر وأمريكا بالكتابة عن آسيا الصغرى التي يلحق بها الفرنسيون (بدلاً من سورية) ، وهو الذي يوحى بالحديث عن علاقة انكلترا بالشريف حسين ويربط سورية بمصر^(٣٠) . حتى إن

(٢٨) Ibid, 371 / 3061/ 22 Nov 1917, P. 266.

(٢٩) D.F.G. (Turquie) Carton 16, 7N 1639, 2^e Bureau, Renseignement divers (1914-1918) 40

Rapport 21 Fev 1915 P. 1.

من (Maucarps) عقيد فرنسي في البعثة العسكرية في مصر .

(٣٠) D.F.Aff. Etr Vol XVI (882) 25 Jan 1918, P. 215.

جاء في تقرير للكولونيل Maucarps في ١٩١٧/٧/٣٠ إن السوريين كانوا أصدقاء الأتراك والانكليز ، وأعداء الفرنسيين ، أما الآن وبعد معاملة الأتراك السيئة ، فقد مالوا إلى الفرنسيين . لكن إذا كان الاحتلال الانكليزي في سورية الجنوبية ، قد تقدم قبل أن نفعل شيئاً ، فإنهم (الانكليز) يعملون دعاية كبيرة لهم ، وليس لفرنسا إلا تقاليد تاريخها ومصالحها الكثيرة في سورية التي هي ، دليل جعلها تضع قدمها فوق هذه

دو فرانس غضب في القاهرة من أجل برقية نشرت في المقطم في ١٤ أوت / آب / ١٩١٧، تذكر أن فرنسا لا تريد احتلال سورية، كما لامت جريدة (oeuvre) فرنسا، لأنها لم تعلن مسبقاً عن خططها تجاه سورية^(٣١). وحدث كثيراً مثل هذه الخصومات بين بريموند ولورنس والضباط البريطانيين في جيش الثورة العربية، حتى إن الحكومة الفرنسية اضطرت إلى سحب بريموند من جدة لعدائه العلني للثورة العربية والبريطانيين. وكان بريموند يحاول دائماً عرقلة تحرك الجيش العربي نحو الشمال حتى لا يحتل سورية، وكان لا يخفي عداوته للورنس والانكليز، فاقترح هؤلاء نقله وأيد ذلك سفير فرنسا في لندن، ثم جاءه كتاب من المارشال جوزيف القائد العام للجيش الفرنسي يستنكر تصرفاته قائلاً:

« يستنتج من برقياتكم أنكم تخافون من الحركة العربية، وتتوجسون شراً ومكروهاً من نتائجها، ومن أخذ العرب للمدينة، بحجة أنه قد يشجع ما في نفوسهم من طموح لاحتلال سورية، وفاتكم أن فرنسا وانكلترا عقدتا أخيراً اتفاقاً يقضي بإنشاء اتحاد عربي يشمل دمشق وحمص وحماه وحلب والموصل. إن ظهوركم بهذا المظهر وقد فهمه الشريف والانكليز، قد يبعث على الظن بأننا نعمل على نقض العهود التي ارتبطنا بها، وقد يؤثر تأثيراً سيئاً على عملنا في الشرق، فيجب ألا يفسر عملكم هذا التفسير السيء. وترى الحكومة الفرنسية بعكس رأيكم، أن سقوط المدينة يؤثر تأثيراً حسناً في نفوس القبائل العربية، كما يكون فوزاً لخططنا في الشرق، وتقوم على التعجيل في القضاء على الامبراطورية العثمانية »^(٣٢).

سقوط القدس

وقد يكون أهم حدثين عسكريين خلال الحرب في سورية، هما سقوط القدس

→ الأرض، على الساحل الشرقي للبحر المتوسط (وهي سورية)، البلد الوحيد في العالم الذي يتكلم شعبه لغتنا ويفهمنا، والسوري عندما يفكر، يفكر بالفرنسية.

D.F.G. Carton 16, 7N 1639, P. 18.

F.O. 371 /5059/ No 155605, 19 Aout 1917. (٣١)

أمين سعيد، أسرار الثورة، ص ١٤٢ — ١٤٣. (٣٢)

في ٩ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٧ ، بيد القوات البريطانية ، ثم سقوط دمشق في العام اللاحق بيد العرب والانكليز .

كان للقدس أهمية خاصة لا بالنسبة للعرب (مسلمين ومسيحيين) ، بل بالنسبة للأوروبيين عامة ، وعلى رأسهم فرنسا ، والفاتيكان ، وإيطاليا ، وانكلترا المنتصرة والمحتلة . عندما أخذت القوات الانكليزية تقترب من القدس ، أخذت فرنسا تستعد لفرض وجودها في المنطقة إلى جانب الانكليز الذين كانوا يتمتعون بالانفراد تقريباً بالاحتلال في فلسطين . وكانت فرنسا لا تستطيع إثبات وجودها في سورية في تلك الفترة إلا عن طريق تطبيق اتفاقية سايكس-بيكو ، بسبب قلة جندها المشارك مع الانكليز في حملة فلسطين . وقد عبر بول كامبون في ٩ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٦ ، عن ذلك قائلاً « عندما يتقدم الانكليز نحو القدس ، فإننا لن نستطيع أن نتركها تحت رحمة عصابات النهب ، ولا أن ترفرف عليها أعلام الانكليز وحدها »^(٣٣) . وقبيل الاحتلال الانكليزي للقدس كتب السير (Wingate) إلى دو فرانس ، بأن الجنرال اللنبي قائد الحملة (المصرية) الجديد في مصر ، لن يدخل القدس دون أن يكون معه رئيس الحملة العسكرية الفرنسية ، ورئيس الحملة الإيطالية أيضاً . لكن دو فرانس كان قد طلب منه تأخير دخول اللنبي إلى القدس ، حتى يصل بيكو ، حيث يدخل معه في اليوم التالي للاحتلال . فأجاب وينجت بأنه لا يستطيع التدخل في أي قرار للجنرال اللنبي — أي لا يستطيع تأخير دخوله — وكان يعتقد وينجت أن دخول قائد الحملة الفرنسية مع اللنبي يكفي ، لكن دو فرانس أرسل له بأن الغاية من دخول بيكو هي تنظيم الأمور في فلسطين مع السلطة البريطانية ، وبحث كل القضايا المتعلقة بهذه المسألة . وأصر على دخول بيكو مع اللنبي ، أو دخوله هو شخصياً في حالة غياب بيكو ، وأنه ليس المقصود دخول قائد القوة الفرنسية^(٣٤) . وكان الأمر بالنسبة لدو فرانس سياسياً بينما كان يراه وينجت عسكرياً .

D.F.Aff. Etr, Vol IX (875) 9 Dec 1916, P. 22. (٣٣)

Ibid, Vol XIV (880) 27 Nov 1917, PP. 69-70 & 72-76. (٣٤)

وصل بيكو، وكانت تعليمات فرنسا لدو فرانس أن يسمى بيكو القنصل العام لها في فلسطين وسورية، وكانت الحكومة البريطانية تحاول إنشاء إدارة للمناطق المحتلة، يكون لها طابع سياسي حتى تستطيع أن تتعامل مع حليفها فرنسا وإيطاليا، وخاصة عند دخول القدس، بالإضافة إلى تسهيل مهمة الاحتلال العسكري^(٣٥)، وهذا ما كانت تطلبه فرنسا، وما عناه دو فرانس برسائله إلى وينجت الذي استجاب لطلبه.

ومن فلسطين حيث قضى بيكو مع النبي ٣٦ ساعة، وأخبره بوجود دخوله معه، أرسل إلى دو فرانس كي يكتب اسمه (بيكو) على كل العناوين والتلغرافات^(٣٦)، بعد أن أصبح له مكان سياسي في فلسطين، وأخذ هو يرسل بتوقيعه واسمه البرقيات والرسائل فيما بعد.

سقطت القدس في ٩ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٧، بعد أن دافع الأتراك عنها دفاعاً مجيداً، وبقي أمر دخولها سراً حتى ما بعد ١٢ منه. ودخل بيكو إلى جانب النبي مع البعثات العسكرية الفرنسية والإيطالية، وكان الاحتفال بسيطاً لم يدم أكثر من نصف ساعة، وقد أخذ خمسون رجلاً من القوة الفرنسية عمل الشرطة في المدينة، وتجمهر عدد قليل من غير المسلمين، وكان يبدو الرضى على وجوههم لكنهم لم يقوموا بالتظاهرات المألوفة في الشرق^(٣٧). ولم نعلم إن كانت قد وجهت دعوة إلى فيصل أو أبيه لدخول القدس مع النبي، ورغم أن النبي اعتبر فيصلاً وجيشه كجناح أيمن للجيش الانكليزي منذ العقبة، وكان من رأي سايكس — في رسالة له إلى كلايتون — أن يدعى فيصل إلى القدس باسم أبيه ملك الحجاز، لاعتبارات عسكرية وللفادة المرجوة من ذلك^(٣٨). لا شك ان سايكس كان يُعَدُّ بذلك فضيحة ومذلة للحسين ولابنه فيصل لو شارك الأوروبيين المسيحيين بتحرير القدس من المسلمين.

F.O. 371 / 3061/ 24 Nov 1917, PP. 430-431. (٣٥)

D.F.Aff. Etr, Vol XIV (880) 8 Dec 1917, P. 149 et 10 Dec P. 120. (٣٦)

Ibid, 12 Dec 1917, P. 180-182. رسالة من بيكو (٣٧)

F.O. 371 / 3061/ 11 Dec 1917, P. 465. (٣٨)

أعطيت التعليمات عند دخول القدس بأن توضع عناصر بريطانية لحماية الكنيسة المقدسة وحماية مسجد عمر بعناصر مسلمة، أما القوات الفرنسية والإيطالية فتقرر وضعها قرب المعاهد الفرنسية والإيطالية غير المختلطة، ويبقى وقف نظام كنيسة الأرض المقدسة كما هو متبع^(٣٩). وقد طالبت فرنسا بعد بلسان المفوض العام الفرنسي في فلسطين (بيكو)، بناءً على أوامر حاكم القدس العسكرية، بوضع حراسة مسلمة فرنسية على جامع عمر، لكن الحكومة البريطانية ردت بعدم القبول، واحتجت أن إيطاليا يمكن أن تطلب نفس الطلب، وليس لديها جنود مسلمون في فلسطين في ذلك الوقت^(٤٠).

اتصل سفير فرنسا في روما بوزير خارجية فرنسا، وأبلغه بوجود أن تبلغ فرنسا البابا رسمياً بسقوط القدس، كما أبلغه أن اللنبي قد وضع حراسة هامة على الأماكن المقدسة^(٤١). وقد كتبت إحدى الجرائد الإيطالية عن دخول القوات الانكليزية للقدس فقالت، إن ذلك يولد الرضى عند الكاثوليك بشكل خاص، حيث ستصبح المدينة المقدسة بأيدي مسيحية بعد أن بقيت زماناً طويلاً بأيدي غير مسيحية، وأن السلطة البريطانية ستحافظ على حقوق ومصالح الكنيسة الكاثوليكية على أرض ميلاد المسيح، كما تعلن الصحيفة عن شكرها لأن القدس لم تسقط بأيدي موسكوفية، حيث تكون عداوة الأرثوذكس للكاثوليك على الأرض المقدسة^(٤٢).

واستقبل البابا خبر احتلال القدس بارتياح، وقد قال ما معناه أن الانكليز أخذوها ويحتفظون بها، وستكون الأماكن المقدسة تحت إدارتهم محفوظة^(٤٣). وقد وجه الكاردينال (Vicaire) في روما نداءً إلى الشعب الروماني عن احتلال القدس، معتبراً أن هذا الحادث أطلق العنان للقوى المسيحية، ودعا إلى شكر الله^(٤٤).

(٣٩) Ibid, 10 Dec 1917, P. 459.

(٤٠) D.F.Aff. Etr, Vol XIX (885) 24 April 1918, P. 179. et Vol XVI (882) 25 Jan 1918. P. 215.

(٤١) Ibid, Vol XIV (880) 11 Dec 1917, P. 120.

(٤٢) Ibid, P. 169.

(٤٣) F.O. 371 /3061/ 16 Dec 1917, P. 616.

(٤٤) D.F.Aff. Etr, Vol XIV (880) 13 Dec 1917, P. 194.

وفي أكاديمية (Lincei) في روما، تجمع عدد كبير من العلماء والأدباء الإيطاليين والأجانب بعدما علموا بسقوط القدس، وقدموا تهنيتهم بمناسبة الحدث العظيم إلى الحلفاء الذين شاركوا بفتح فلسطين، وقد ألقى البارون (دي بلدت De Bildt) سفير السويد في روما وعضو الأكاديمية، خطاباً ذكر فيه إن البابا ساعة سمع هذا الخبر (سقوط القدس بيد اللنبي)، مات من السرور. ولم يحدث هذا منذ الاحتلال المسيحي للقدس سنة ١٠٩٠^(٤٥). أعاد بيكو تأسيس القنصلية الفرنسية في ١٤ ديسمبر / كانون الأول / في القدس وفي يافا أيضاً، ووصف زيارته لبيت لحم «جراً له استقبال حار من قبل كل الطوائف الدينية التي كانت تنتظر في ساحة الاستقبال، وكانت تتعالى صيحات الترحيب، ثم زار الضريح المقدس الفرنسي سكان في تلك الأرض المقدسة. وكان الرهبان الروم يتبعونني بينما كان الأورغ يعزف لحن المارسيليز عندما كنت أعبّر الكنيسة»^(٤٦).

كان الموقف حساساً بالنسبة لاحتلال القدس من قبل قوات مسيحية أوروبية لأول مرة بعد انتهاء الحروب الصليبية، وقد نقلت مجلة الهلال عن جريدة الـ Temps في عددها الصادر في ١ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٧، أي قبل احتلال القدس بثانية أيام «بأن المدفع الذي يدوي في أرجاء فلسطين يعلن نهاية الحروب الصليبية ويذكر أيضاً عن اللنبي قوله عند دخول القدس، بأن ذلك كان نهاية للحروب الصليبية»^(٤٧)، وهو قول معروف أو شائع لدى العامة. وحتى لا يفسر دخول القدس بأنه انتصار للصليبيين على المسلمين، وخاصة بين مسلمي شمال إفريقيا الواقعين تحت الاستعمار الفرنسي، أرسل بيثون وزير الخارجية الفرنسية إلى المسؤولين الفرنسيين في شمال إفريقيا، بألا يساء تفسير دخول القدس كأنه انتصار المسيحية على الاسلام، بل تكون مدينة مقدسة للمسيحيين والمسلمين وقد تحررت من نير عبودية الترك^(٤٨).

(٤٥) Ibid, Vol XV (881) 18 Dec 1917, P. 30.

(٤٦) D.F.Aff. Etr, Vol XV (881) 19 Dec 1917, P. 33. توقيع بيكو.

(٤٧) Ibid, Vol XVIII (84) 5 Feb 1918. P. 19 توقيع G.P.

(٤٨) Ibid, Vol XIV (880) 11 Dec 1917, P. 172 Paris.

وفي باريس، أقيمت صلاة خاصة بمناسبة «تحرير القدس من النير التركي» في كنيسة نوتردام يوم الأحد في الساعة الثالثة بعد الظهر «وفي نفس الساعة ستقام صلاة شكر في مسجد Negent لنفس الغرض ولأن في القدس أيضاً يوجد مسجد عمر» (٤٩).

وذكر بيكو عن المسلمين في القدس، بأنه منذ احتلال القدس يظهر أنهم أخذوا يخرجون عن تحفظهم تدريجياً وعن لا مبالاتهم التي بدت عليهم في البداية (٥٠).

وكان سقوط القدس مهماً أيضاً بالنسبة للأرثوذكس والروس، حيث قام هؤلاء الآخرون باتصالات عن طريق الدبلوماسي Maklakoff في روما و Nobakoff في لندن، وكانت الغاية إرسال مبعوث روسي إلى فلسطين ليكون إلى جانب الممثلين الانكليزي والفرنسي لحل كل القضايا الخاصة بالكنيسة الأرثوذكسية. وطالبت الكنيسة الأرثوذكسية الروس بالاهتمام بالمعاهد والمصالح الروسية في القدس «العزيزة على كل روسي». وأن كل الخطوات الدبلوماسية الروسية ستجد لها صدى في إعلان مسيو (De Griers) الذي يحض الحكومتين الفرنسية والانكليزية لاستدعاء ممثل روسي إلى القدس (٥١).

وقد تلقت الحكومتان الانكليزية والفرنسية أعداداً كبيرة من برقيات ورسائل التهئة باحتلال القدس. وكانت برقيات السوريين خاصة، تشكر للدولتين تحرير القدس، وتطلب أن يتلوها تحرير سورية. وكان بعضها يود أن يكون ذلك تحت الراية الثلاثة الألوان (الفرنسية)، أو بقوة الجيش البريطاني، حسب ارتباط مرسل هذه البرقيات بالانكليز أو الفرنسيين. وكانت اللجنة المركزية السورية تتلقى تهاني الجمعيات السورية في البلاد الأمريكية، وهي تنقلها بدورها إلى الحكومة الفرنسية. ولا حاجة لاستعراضها فهي من مكرور الكلام. ولا بأس في ذكر برقية وردت من فرسان المعبد

Ibid, Vol 12 Dec 1917, P. 186. Pichon. (٤٩)

Ibid, Vol XIX (85) 25 Mars 1918, P. 185. Picot. (٥٠)

Ibid, Vol XIV (880) 14 Dec 1917, P. 229. Paris. (٥١)

في دالاس في الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحكومة البريطانية، يهتونها باسترجاع القدس من أيدي الكفار وعلى أيدي أحفاد ريتشارد قلب الأسد، وكان تحقيق حلم ونضالاً لفرسان المعبد وكل الشعوب المسيحية، بعد عدة قرون وأكثر من ذلك، فهي «حبنا وشوقنا ورغبتنا أنه من خلالكم يمكن أن نعمل معاً، بدون أي أمل، إلا أخوة السلاح الناتجة عن أخوة أقرب، لاحترام الشعوب للامبراطورية البريطانية وللولايات المتحدة»^(٥٢).

تحرك المسؤولون الفرنسيون عند احتلال القدس، وأخذوا يطالبون بتطبيق اتفاقية سايكس-بيكو، لأن سورية أصبحت الهدف التالي بعد القدس. وأرسل بارير سفير فرنسا في روما بأن تحفظ لفرنسا مصالحها الدينية والمعنوية في فلسطين^(٥٣). كما أرسل بريان Briand رئيس وزراء فرنسا، إلى سفيره في لندن بول كامبون، لتذكير الحكومة البريطانية بأحقية فرنسا الأولى في احتلال سورية حسب اتفاق ١٩١٦^(٥٤)، وكان هذا في ١٤ ديسمبر / كانون الأول / أي بعد خمسة أيام فقط من احتلال القدس.

لكن الحكومة البريطانية عينت قائداً عسكرياً لإدارة فلسطين، محتجة بالظروف العسكرية. وكانت سياستها تهدف إلى تحويل فلسطين إلى دولة يهودية، حسب وعد بلفور الذي حدث في الشهر السابق لاحتلال القدس. وقد أكد السفير البريطاني في باريس في مذكرة له، أنه لا يمكن إيجاد إدارة مختلطة في فلسطين (كما كان يود الفرنسيون)، وكانت حجته أيضاً بسبب الظروف العسكرية. وهكذا انفردت بريطانيا بحكم فلسطين لتنفيذ وعد بلفور مخالفة بذلك حتى اتفاقية سايكس-بيكو نفسها^(٥٥).

وفي باريس عقدت اللجنة المركزية السورية اجتماعاً في ٣ ديسمبر / كانون

(٥٢) F.O. 371 / 3386/ 11 Dec 1917, P. 303.

(٥٣) Ibid, Vol XIV (880) 12 Dec 1917, P. 183.

(٥٤) Ibid, P. 186.

(٥٥) Ibid, Vol XV (881) P. 25 et 21 Dec 1917, P. 103.

الأول /، حضره عدد من الجالية السورية واللبنانية، وحضر سايكس وغو. وقد ذكر غو في هذا الاجتماع شيئاً عن المستقبل المشرق لسورية ولاتحاد بلاد اللغة العربية، وحيا بريطانيا وفرنسا وسورية، أما سايكس فقد تحدث عن نهاية الاحتلال التركي، وعن استقلال الحجاز، وحكم ذاتي لسورية، وقال إن الأتراك كانوا سادة سورية، وإن السوريين غير متحدين بين أنفسهم^(٥٦).

وقد انتقد الحسين كلمة سايكس عن عدم اتحاد السوريين، وقال في جريدته «القبلة» إن قضية السوريين هي أعلى من كل تحرر مقيد.

وتحدث بيشون في جلسة ٢٧ منه، وذكر الحقوق التقليدية لفرنسا في سورية، وأعرب عن سروره لوجود معاهدات صريحة تعترف لها بهذه الحقوق^(٥٧). وهكذا منذ احتلال القدس، أخذ الحلفاء بتطبيق اتفاقية سايكس-بيكو في فلسطين، وأخذوا بالاستعداد للمرحلة التالية وهي تطبيقها في سورية، حيث كانت فرنسا تذكر دائماً بريطانيا بحقوقها في سورية، حتى لا تتلأأ بريطانيا بهذا التطبيق. ويبدو من الأكيد هنا أن الحليفتين لم تحسبا أي حساب للعرب أو للحسين في إشراكه في حكم فلسطين، حسب اتفاقية سايكس-بيكو. وسوف تتوضح منذ هذا التاريخ، سياسة بريطانيا ومقاصدها، كما رسمتها سراً وأخفتها عن العرب والحسين.

وعد بلفور

لقد لاح النصر للحلفاء واقترب موعد توزيع الحصص والغنائم، ولم يكن باقياً في سورية غير فلسطين لا تخضع للانكليز أو الفرنسيين حسب اتفاق ١٩١٦. إذن ستكون أرضاً بلا سلطة بعد طرد العثمانيين منها، وتكون تحت إدارة دولية. ومن غير بريطانيا يتمتع بنفوذ دولي إن كان في العالم أو لدى العرب بعد تحالفهم معها. لقد استخدمت بريطانيا نفوذها الدولي على الأرض الخالية فلسطين، وانتزعتها انتزاعاً فاق

(٥٦) Ibid, 23 Dec 1917, PP. 114-117.

(٥٧) أمين سعيد، أسرار الثورة، ص ١٩٠-١٩١.

بكثير ما فعلته عندما عقدت اتفاقية سايكس-بيكو السرية، وضربت عرض الحائط بعودها للحسين باستقلال العرب. لقد مضى الزمان وغادر جنود اتفاقية سايكس-بيكو أرض سورية، وظلت فلسطين منترعة منها بفضل سياسة بريطانية المعادية للعرب، والمماثلة لليهود والمنظمات الصهيونية، وبرغم كل ما قيل من أسباب عن إصدار بريطانيا لوعده بلفور، سواء منها الأسباب العسكرية أو الاقتصادية أو الاستراتيجية، أو الاستفادة من اليهود، أو حماية قناة السويس، فإن بريطانيا كانت دائماً في سياستها تزرع في المناطق التي تستعمرها مشكلات أبدية لا تنتهي أبداً، والعالم مليء بشرور مخلفاتها في جنوب إفريقية وفي كشمير وفي أيرلندا وفي الخليج العربي، وبين إيران والعراق، وفي فلسطين، وكلها تذكر بذلك التخطيط الانكليزي المدمر، حتى لا تقوم لتلك المناطق قيامة قوة أو حضارة في المستقبل، وتبقى ذيلاً لها إلى الأبد. ولذا أصدرت وعد بلفور سنة ١٩١٧ في ٢ نوفمبر / تشرين الثاني / ولن نخوض في بحث القضية الفلسطينية هنا إلا تذكيراً بأن جزءاً من سورية قد تقرر مصيره في نفس الفترة التي نبحث فيها. وهذا نص وعد بلفور (وزير خارجية بريطانيا):

«إن حكومة جلالة الملك، تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً، أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يمحى الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى».

نكتفي بتعليق لعربي هو سليمان موسى، وآخر بريطاني هو جفريز، عن هذا الوعد. جاء في كتاب سليمان موسى عن الحركة العربية «إن المرء ليعجز عن العثور في كتابات شعوب العالم على عبارة تماثل في لؤمها ولا إنسانيتها، العبارة التي وصف التصريح فيها ال ٩٣٪ من سكان فلسطين، بأنهم الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين. وقد اختارت الحكومة البريطانية أن تستمر في تجاهلها أهل البلاد الحقيقيين، فذكرت اليهود بالاسم في صك الانتداب بينما أشارت إلى ٩٣٪ من سكان

فلسطين العرب بالقول أنهم الأجزاء الأخرى من السكان أو الجماعات غير اليهودية . ولهذا السبب رفض مجلس اللوردات عام ١٩٢٣ أن يوافق على صك الانتداب . أما جفرز البريطاني فقد وصف هذا التصريح وصفاً صادقاً إذ قال إنه صدر بصورة غير قانونية ، وينحو إلى غاية استبدادية ، وقد صيغ صياغة مضللة ، وأنه أكبر وثيقة مخزية وضعت حكومة بريطانية يدها عليها ، في حدود ما تعبى الذاكرة» (٥٨) .

ذكرنا سابقاً ، أن خريطة سورية كما رسمتها الغرف التجارية الفرنسية ، وكما وضعتها تعليمات رئيس الوزراء الفرنسي إلى ييكو لدى مناقشة اتفاقية سايكس-بيكو ، كانت تضم فلسطين فيها ، وأن حدود سورية الجنوبية تصل إلى حدود مصر والعقبة ، وأن فلسطين داخلية فيها ، وإذا كانت فرنسا قد بنت سياستها الحديثة نحو سورية على أساس علاقاتها التاريخية منذ الحروب الصليبية ، ولم تدع مجالاً إلا تحدثت فيه عن هذه العلاقة التاريخية ، وإذا كانت القدس وفلسطين هي أهم جزء جذب الفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين نحو سورية ، وكان تحرير الأماكن المقدسة المسيحية من أيدي المسلمين أهم شعار للحروب الصليبية ، فهل كانت هذه الأماكن المقدسة في دمشق أم في القدس أم في بيروت ؟ لم يكن لفرنسا علاقة تاريخية في دمشق أو سورية الداخلية ، وإنما كانت هذه العلاقة في الساحل السوري لبنان وفلسطين والقدس بشكل خاص ، فلماذا لم تعارض فرنسا سياسة بريطانيا بإصرارها على وعد بلفور الذي سيعطي أهم جزء يتمتع بعلاقة تاريخية مع فرنسا وهو القدس ، وساحل فلسطين وفيها عكا وغيرها إلى الصهيونية ؟ لقد كان هناك انسجام تام بين ادعاءات فرنسا التاريخية في سورية وبين مجموعات السوريين الذين يعملون لاستقلال سورية تحت حماية فرنسا ، كاللجنة المركزية السورية في باريس ، وبقية الجمعيات والشخصيات السورية واللبنانية في مصر والمهجر ، والوثائق الفرنسية مليئة بكتابات هؤلاء السوريين العاملين في خدمة السياسة الفرنسية . فلماذا لم تحافظ فرنسا على هذا الانسجام وتحقق رغبة أصدقائها هؤلاء

(٥٨) سليمان موسى ، الحركة العربية ، ص ٣٦٨ و

J.M.N. Jeffries, Palestine, the Reality, London 1939, P. 201 .

السوريين الذين صرحوا في أكثر من زمان ومناسبة أنهم لا يريدون فصل فلسطين عن سورية؟ أم إن فرنسا كانت تستخدم هؤلاء فقط لتحقيق مصالحها وليس مصالح سورية؟ وهذه نماذج لمطالبة السوريين بعدم فصل فلسطين عن سورية. فقد طلب شكري غانم رئيس الجمعية السورية المركزية في جانفي / كانون الثاني / ١٩١٧، ألا تفصل قضية فلسطين عن سورية^(٥٩). وطلبت اللجنة السياسية السورية في كليفلاند Cleveland في الولايات المتحدة في أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٧، باستقلال سورية الكبرى (فلسطين ولبنان من ضمنها)، تحت حماية دولة أجنبية، ويعطى لبنان استقلالاً ذاتياً^(٦٠). وطالب الاتحاد السوري في القاهرة باستقلال سورية الموحدة (الطبيعية) وفيها فلسطين^(٦١)... إلخ.

إذن كان هدف فرنسا الرئيسي هو في سورية ولبنان ودمشق.

أما هل كانت فرنسا تعرف بمجريات إصدار وعد بلفور؟ لدينا وثيقة بريطانية تؤكد تلك المعرفة المسبقة «وهي أن النائب Lynch سأل في البرلمان البريطاني عما إذا كانت بريطانيا على اتفاق مع فرنسا بشأن الوعد الصهيوني — وعد بلفور في فلسطين — وخاصة أن فرنسا مهتمة بهذه المنطقة منذ قرون، فأجاب بلفور بأن سياسة بريطانيا في فلسطين تأخذ بعين الاعتبار الكامل آراء الحلفاء، وعندما سأله النائب المذكور هل حدث مثل هذا مع فرنسا فأجاب نحن نعمل باتفاق تام»^(٦٢).

وتؤكد ذلك رسالة من ييكو إلى سايكس في ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٧، وفيها تحذير شديد من نتائج وعد بلفور، وأنها ربما تؤثر على اتفاقات الفرنسيين مع الإنكليز بشأن المنطقة، نتيجة مقاومة العرب العامة لكلا الطرفين. وقد جاء في هذه الرسالة «أعترف معكم بأن هناك مصلحة جوهريّة في تحقيق مطالب

(٥٩) D.F.Aff. Etr, Vol V (875) 7 Jan 1917, P. 97.

(٦٠) Ibid, Vol XIII (879) 25 Oct 1917, P. 126.

(٦١) Ibid, Levant No 7, 10 Jan 1919, P. 172.

(٦٢) F.O. 371 / 3054/ 19 Jan 1917, P. 270.

الاسرائيليين العادلة، ولن آسف أن أكون الأول الذي يعمل لها في هذا المعنى، لكن سيكون من عدم الفطنة المضي إلى أبعد من ذلك. وسمعت منذ وصولي أن وعد بلفور أثار حركة كبيرة بين عرب سورية، حتى بين أصدقاء الانكليز الذين لم يخفوا مرارتهم. (وأنا أعتقد رأيي ييكو) بأن تشجيع مثل هذه الحركة سيضعف اتفاقاتنا. وفي فلسطين، كما هو في القاهرة، والدول العربية الأخرى، فسوف تبرز المقاومة، وسوف يكون التعاون مع اليهود مستحيلاً، لأن الفلسطينيين بهذا الوعد سوف يتخلون عن وطنهم ويسلمون أرضهم بثمان بخس... «ويجب أن نستخدم الفطنة لأعلى درجة، وألا نعتمد على قوة عامة قد تعرضنا جميعاً للخطر بدون تمييز، وتثير النفور منا...» (٦٣)، لكن كانت هناك بعض القطاعات الرسمية وفئات عريضة من الشعب الفرنسي لا تؤيد التقسيم ولا إعطاء فلسطين لليهود لأن ذلك يتعارض مع علاقاتها التاريخية مع سورية.

وكما مر معنا حاولت فرنسا أن تحفظ مصالحها في فلسطين، وخاصة حماية الأماكن المقدسة المسيحية في القدس (كنيسة القيامة). وعندما أبلغت بريطانيا ييكو في القدس بأنه لم يعد لزوم للحماية الفرنسية على الأماكن المذكورة، قال إن هذا الحق لا يستطيع حتى البابا أن يمنعه عن فرنسا (٦٤).

والحقيقة أنه حسب اتفاقية سايكس-بيكو فقد رضيت فرنسا بأن تخرج فلسطين من حكمها، وقبلت أن يكون حكمها دولياً، وهو يعني أنها لم تركز جهودها وسياستها في هذه المنطقة، وإذا كنا نبحث عن موقف فرنسا بهذا الشأن، فلأنها حسب اعتقادنا قد ضيعت فرصة ثمينة، كانت تستطيع بها كسب العرب إلى صفها بحالة عامة، لو كانت وقفت إلى جانبهم في قضية فلسطين مقابل تحقيق أطماعها في سورية التي أورثتها كره العرب. أما سياسة بريطانيا فلدى مقارنتها بموقف فرنسا فهي المسؤول الأول عن إضاعة قضية فلسطين والعرب عامة، وتركت نتائج سيئة في المستقبل أكثر بكثير مما تركته اتفاقية سايكس-بيكو نفسها، ولم يكن في وسع بريطانيا أن

(٦٣) من ييكو. F.O. 371 /3054/ 6 Jan 1917, P. 403.

(٦٤) Ibid, 371 /3383/ 23 Feb 1918, P. 369.

تفعل أي شيء — وهي لم تفعل — يعرض العرب عما فعلته بهم في تلك القضية .

والأمر الغريب ، أن وعد بلفور كان أخطر من اتفاقية سايكس — بيكو ، لكن بريطانيا أعلنته ، بينما أبقت على اتفاقية سايكس — بيكو سرية ، وهذا يعني أنها كانت ملزمة بإعلان حق اليهود في فلسطين على أشهاد العالم وليس سراً ، وهو « حق دائم » — بعرفها وعرف الصهاينة — أما هذه الاتفاقية فهي مؤقتة وقابلة للتعديل ، وتعبّر عن أطماع استعمارية قد تنتهي في أي زمن مقبل . وأرسلت هوجارت إلى جدة حيث قابل الحسين وعقد معه عشر جلسات ما بين ٨ — ١٤ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٨ ، وأبلغه تفسيرات شفوية عن أن وعد بلفور هو فقط لإسكان بعض اليهود في فلسطين ، لا يتعارض مع حرية العرب واستقلالهم ، وهذا ما فهمه الحسين ، حتى إنه رحب بهؤلاء اليهود في جميع بلاد العرب وليس في فلسطين فحسب ، ونشر مقالاً في جريدة « القبلة » يدعو إلى التسامح مع اليهود وإلى الاستفادة من علومهم . واستطاعت بريطانيا أيضاً أن تمرر هذا الوعد على الحسين ، دون أن تفصح هي أو هوجارت عن حقيقة نية بريطانيا بإنشاء دولة يهودية في فلسطين . ولم يكن الحسين على علم بخفايا الحركة الصهيونية ، لأنه عندما علم بها رفضها رفضاً قاطعاً^(٦٥) . وهكذا قررت بريطانيا نزع جزء آخر من سورية في السنة الثالثة للحرب مستغلة قوتها وسياستها الاستعمارية للانقضاض على هذه الأجزاء العربية المتبقية في الدولة العثمانية ، بينما هي لم تمس أرض الأتراك أعدائها الحقيقيين في هذه الحرب وخاصة بعد الثورة الشيوعية ، وانسحاب روسيا من معاهدة سايكس — بيكو .

أكاذيب الانكليز ووعود جديدة

كادت هذه المعاهدة أن تفصل التحالف بين الحسين والانكليز عندما علم بها الحسين عن طريق جمال باشا حاكم سورية ، كما ذكرنا سابقاً ، حيث أرسل رسالتين إلى

(٦٥) Ibid, 371 / 3054/ telegram No 24, 4 Jan 1918 .

وأمين سعيد ، أسرار ، ص ٢٠٦ ، وسليمان موسى الحركة ، ص ٣٧٢ — ٣٧٥ و F.O. 882/7 .
ونفن نين ، الصراع ، ص ٧٥ .

فيصل وجعفر العسكري في ٢٦ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٧، وأرسل فيصل الرسالة إلى أبيه، وأرسلها الحسين بنفسية التحالف والصداقة إلى وينجت في مصر، وأبلغ هذا بلفور بالقضية، وخشي الانكليز من الموقف فأبلغ وينجت الحسين في ٢٣ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٧، ألا يرد على جمال باشا حتى «لا تعطل حركة فيصل التي يقدر جمال أهميتها كإل التقدير على أمر النهضة العربية». ثم أرسل وينجت للحسين رسالة في ١٢ جانفي / كانون الثاني / ١٩١٨، يعبر فيها عن سروره لتصرف الحسين وإرساله رسائل جمال إلى الحكومة البريطانية، ويبلغه أيضاً أن تصريحات وخطب كبار الساسة الحلفاء تعبر كلها عن رغبتهم بترقية العرب ونهضتهم^(٦٦). وقد غضب عبد الله أكثر من أبيه وطلب توضيحات عن رسالة جمال إليه أيضاً (في ٢١ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٧)، التي تتحدث عن خطة بريطانيا وفرنسا، كي تحتل الأولى فلسطين والعراق وتحتفظ بهما، وتحتل الأخيرة سورية وتحتفظ بها.

اجتمعت اللجنة الشرقية (البريطانية)^(٦٧)، لدراسة الموقف الخطير، وحث سايكس اللجنة لاتخاذ موقف حتى لا يتصرف الحسين تصرفاً ما كالاتقالة التي كان يلوح بها كثيراً، عندما كان يذكر أن حليفته بريطانيا لا تفي بوعدها له، وهذا ما حدث فعلاً، إذ إن الحسين لم يرتح إلى جواب وينجت، وهدد بأحد أمرين، الانسحاب من كل اتفاقاته مع بريطانيا أو الانتحار.

بحثت اللجنة الشرقية في ١ و ٢ ففريه / شباط / ١٩١٨، المسألة، واستعرضت مذكرة كتبها هوجارت، واستعرضت مراسلات مكماهون-الحسين، وقررت كتابة جواب إلى الحسين أرسل إلى وينجت وهذا نقله إلى الحسين بوساطة الكولونيل باست (يعمل في المكتب البريطاني في جدة) في ٨ ففريه / شباط /، وكان وعداً جديداً لبريطانيا إلى الحسين بنياتها الطيبة نحو العرب وهذا نصه:

(٦٦) سليمان موسى، الحركة، ص ٣٨٠ عن F.O. 686/37

(٦٧) اللجنة الشرقية هي لجنة وزارية ألفت في جانفي / كانون الثاني / ١٩١٨، لدراسة القضايا العربية وبعض أقطار الشرق الأوسط. وكان اللورد كرزون رئيسها، وكان من أعضائها: بلفور، واللورد هاردينج، واللورد روبرت سيسل، والمستر مونتاجيو، والجنرال سمطس، ومارك سايكس، وآخرون.

«إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها، مازالت واقفة موقف الثابت لكل نهضة تؤدي إلى تحرير الأمم المظلومة، وهي مصممة أن تقف بجانب الشعوب العربية في جهادها لاعادة بناء عالم عربي يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني، وتحمل فيه الوحدة محل التنافس المصطنع الذي كان الموظفون الأتراك يغذونه، وإن حكومة ملك بريطانيا العظمى تكرر عهودها السابقة إلى سموه بخصوص تحرير الشعوب العربية. إن التحرير هو السياسة التي اتبعتها حكومة جلالاته، والذي تقصد أن تستمر عليه بتصميم لا يعرف التردد، وذلك بأن تحمي العرب الذين تحرروا سلفاً من خطر إعادة فتح بلادهم، وبأن تساعد العرب الذين مايزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم» (٦٨).

صدق الحسين هذا الوعد الجديد القاضي بتحرير كل العرب، وضمه إلى باقي عهود بريطانيا، ينتظر لحظة التحرير وتحقيق دولة العرب، أما بريطانيا فأبقت اتفاقية سايكس-بيكو سراً على الحسين، وقدمت خدعة جديدة له وللعرب.

وأُتبع وبنجت رسالة بلفور المذكورة، برسالة أخرى للحسين، يؤكد فيها سلامة نية حكومتي بريطانيا وفرنسا الخالية من الغرض، التي تسترشد بها هاتان الحكومتان بما يخص حكومة سورية المستقبل (٦٩).

لكن سرية اتفاقية سايكس-بيكو لم تلبث أن فضحت مرة أخرى عن طريق خطاب جمال باشا في بيروت في ٣٠ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٧، ووقف الحسين منه نفس الموقف الرافض. ثم وصل إلى الحسين عدد جريدة المستقبل رقم ١٠١ في أوائل جوان / حزيران /، وفيها خطاب جمال باشا عن اتفاقية سايكس-بيكو، وكانت هذه الجريدة تصدر في باريس باللغة العربية ولخدمة سياسة

(٦٨) ترجمة عربية مختلفة للألفاظ لمعنى واحد في زين زين، الصراع، ص ٧١، وأمين سعيد، أسرار الثورة، ص ٢٣٢، وسليمان موسى، الحركة العربية، ص ٣٨٣. وقد نشرته جريدة القبلية عدد ٥٥٥ في ٢٦ جانفي / كانون الثاني / ١٩٢٢، والنص الانكليزي موجود في F.O. 371 / 3380 / P.465 وفي كتاب

Churchill. W.S. the World Crisis 1911-1913, Vol 1, P. 434.

(٦٩) وسليمان موسى، الحركة، ص ٣٨٤ F.O. 686/37

فرنسا. ذهل الحسين بخبر الاتفاقية، وشعر بخطورة الموقف وكتب في ٥ جوان / حزيران / إلى المندوب السامي البريطاني في مصر يذكره باتفاقه مع بريطانيا بما يخص استقلال البلاد العربية وحدودها، وأن ما نشرته جريدة المستقبل «يدل على أن مساعيه ستذهب أدراج الرياح»^(٧٠)، وأرسل إلى مندوبه فؤاد الخطيب في القاهرة ليحصل على إيضاحات حول هذه الاتفاقية.

رد وينجت على الحسين في ١٦ جوان / حزيران /، وأبلغ مندوبه بالإيضاحات التالية «إن البلشفيك لم يجدو في وزارة الخارجية في بتروغراد معاهدة مستعدة بل محاورات ومحادثات مؤقتة بين انكلترا وفرنسا وروسيا في أوائل الحرب، لمنع التساعب بين الدول أثناء مواصلة القتال ضد الترك، وذلك قبل النهضة العربية. وإن ذهل باشا إما من الجهل أو الخبث، غير مقصدها الأساسي وأهمل شروطها القاضية بضرورة رضی الأهالي وحماية مصالحهم، وقد تجاهل ما وقع بعد ذلك من أن قيام الحركة العربية ونجاحها الباهر وانسحاب روسيا، قد أوجد حالة أخرى، تختلف عما كانت عليه بالكلية منذ أمد مضى»^(٧١).

هذا ما ارتآه وينجت من جواب، وقد أبلغ به بلفور في برقية له في ١٦ جوان / حزيران / ١٩١٧، وسأله عن رأيه بجوابه للحسين، وعما إذا كان يمكن اعتبار الاتفاقية ميتة من جميع النواحي العملية؟ فوافق بلفور على جواب وينجت للحسين، لكنه قال إن أمر الاتفاقية يجب أن يحل مع فرنسا.

إن نشر جريدة فرنسية للاتفاقية، يدل بلا شك، أن فرنسا أرادت التمسك بحقها في سورية، عندما بات احتلالها مرتقياً في وقت قصير، وهي بذلك الإعلان لا تخالف عهوداً أو وعوداً أعطتها للعرب، لأنها لم تفعل ذلك بالأصل، أما بريطانيا فكانت تريد إبقاء المعاهدة سرية حتى لا يتزعزع موقفها العسكري إذا ما انحاز العرب

(٧٠) F.O. 371 / 3381 / 5 Juin 1918, PP. 18-20.

(٧١) أمين سعيد، أسرار، ص ٢٣٣—٢٣٤، وجريدة القبلة عدد ٦٩٦ تاريخ ١٨ جوان / حزيران /

١٩١٨، وسليمان موسى، الحركة، ص ٣٨٨.

للتترك من جديد، كما أن بريطانيا لا تريد أن تظهر بمظهر عدم الصداقة والاخلاص للعرب، وكانت فعلاً تقدر أنها سوف تقنع فرنسا بإلغاء هذه الاتفاقية، وبذلك تصون كلمتها وشرفها تجاه العرب، وفعلاً حاولت مع فرنسا لإلغائها، واجتمع سايكس مع بيكو لهذه الغاية، لكن بيكو لم يقتنع بكل حجج سايكس، وأظهر تمسك فرنسا الشديد بها. وظلت محاولات بريطانية جارية لإلغائها مع فرنسا، وهذه ترفض حتى ١٩٢٠ دون فائدة. وقد حاول سايكس أن يقنع بيكو بإصدار تصريح مشترك أعد هو مسودته لإرساله للحسين عن نيات الحكومتين، وقبل بيكو بإرسال إعلان مشترك إلى الحسين يضمن استقلال البلاد الناطقة بالعربية — سورية والجزيرة والعراق — وفيه تطمينات كثيرة للعرب، لكن ليس فيه انكار لاتفاقية سايكس — بيكو^(٧٢).

في صيف ١٩١٨، وقبل احتلال دمشق، كان الأطراف الثلاثة الانكليز والصهيونيون والفرنسيون، يستعدون لاقسام سورية فعلياً بعد سقوط دمشق. وكان بلفور وزير الخارجية البريطانية يعمل كصهيوني لا كبريطاني — حسب رأي وينجت — لأنه كان يدعم سياسة بريطانيا بكل قوة حتى تظل تدعم الحركة الصهيونية، ولهذا كان يدعم كل سياسة لها خارج فلسطين^(٧٣). وكان لايتورع كبقية زملائه الانكليز عن خديعة العرب والحسين وانكار اتفاقية سايكس — بيكو. وكان البريطانيون الآخرون كوينجت الذين ينفذون السياسة البريطانية بشكل مباشر، يشعرون بحرج الموقف تجاه الأضاليل البريطانية المستمرة. ولذا كان وينجت يرى أن تتبع بريطانيا سياسة دقيقة في المسائل العربية السورية والفرنسية^(٧٤). لأنه كان يعرف تماماً ما سوف يحدث ويعطي التصريحات المناقضة لذلك إلى العرب. أما سايكس فقد كان غارقاً في سياسة تقسيم سورية، لأنه حسب رأيه كان يعتقد أنه وبيكو قد أقنعا الحسين بالتخلي عن سورية لدى مقابلتها إياه في مايو / أيار / ١٩١٧، ولهذا أخذ

(٧٢) F.O. 371 / 3381/ 23 Juin 1918, PP. 21-22, 24-26 et P. 48.

(٧٣) F.O. 371 / 3381/ 7 Aout 1918, P. 50.

(٧٤) Ibid.

يضع حلولاً أخرى لسورية كوجوب فصل فلسطين نهائياً عن سورية، لأنها أصبحت خاضعة لحكم دولي ولوعد بلفور. وهذه مسؤولية جديدة خارجة عن مفهوم سورية الكبرى. ومن حلوله أيضاً وضع فيصل أو أحد أولاد الحسين أميراً دستورياً على سورية بعد فصلها عن الحجاز، ومنها تشكيل دولة سورية مستقلة تحت حماية بريطانيا أو أمريكا^(٧٥).

وظهر التنافس بين الضباط الانكليز والفرنسيين في هذه الفترة على مستقبل سورية، حتى إن هوجارت قد اتهم بيكو بأنه ومساعدوه يعملون بالسر «تحت الأرض»، وأن هذا العمل سوف يخلق موقفاً فرنسياً صعباً بالنسبة للانكليز، كموقف فاشودا في السودان، هو موقف سباق لاحتلال الأرض ما بين الانكليز والفرنسيين، لكنه هذه المرة في سورية وليس في السودان.

ولم يكن هوجارت يرى أن الفرنسيين يستحقون الانتداب على سورية، لأنهم لم يفعلوا شيئاً في الحرب الخاصة بها، وأنه لم يكن عندهم من القوة للمشاركة بهذه الحرب إلا لواء القبعات الرمادية، وكتيبة أرمنية وبعض السفن، وبيكو. وذكر أيضاً في رسالة له في ٢٦ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٧، إلى حكومته، أن الفرنسيين سيفرضون الانتداب، ونحن الذين سنسأل عن ذلك من قبل العرب، وحزب الاستقلال الذي يتزعمه عبد الرحمن الشهبندر^(٧٦).

وكان وينجت أيضاً يرسل لحكومته عن عداء المسلمين السوريين لفرنسا خاصة، متأثرين بذلك بالدعاية التركية والألمانية الواسعة الانتشار في ربيع ١٩١٨، ويؤكد أن السوريين — كزميله سايكس — يودون حكماً دستورياً تحت قيادة فيصل^(٧٧).

وكان كلايتون أيضاً يؤيد قيام اتحاد عربي في جنوب ووسط الجزيرة العربية. أما

Ibid, P. 51 et /3054/ PP. 387-388. (٧٥)

Ibid, 18 Aout 1918, P. 99. (٧٦)

Ibid, 371 /3384/ 18 Sep 1918, P. 125. (٧٧)

سورية فكان رأيه ماثلاً لزملائه بوجوب فصلها، لكنه ترك تقرير مصيرها إلى مؤتمر الصلح^(٧٨)، وكأنه غير مقتنع بمصيرها المحدد في اتفاقية سايكس-بيكو واعطائها لفرنسا. وتجدر الملاحظة إلى أن هؤلاء جميعاً لم يذكروا أو يؤيدوا وجوب إعطاء سورية لفرنسا، وكانوا جميعاً غير راضين عن مثل هذا الحل، إضافة إلى لورنس الذي كان أكثر منهم عداءً للفرنسيين. والحقيقة أن سياسة الانكليز كانت تهول خطر الفرنسيين حتى يبقى العرب خاضعين للانكليز، حيث ينفذ هؤلاء سياستهم الاستعمارية والصهيونية دون ثورات وحرب أو عناء، بينما لو حدث وفاق بين الفرنسيين والعرب لأصبح الموقف صعباً أمام بريطانيا في هذا السبيل، وهذا ما لم تستغله لا فرنسا ولا العرب.

ونرى من المفيد أن نغم الحديث عن سياسة بريطانيا تجاه سورية قبل احتلال دمشق بعهد جديد أعطته هذه المرة لغير الحسين من العرب، بل لسبعة من الزعماء السوريين القاطنين في مصر (من قادة حزب الاتحاد السوري)، وعرف باسم التصريح للسوريين السبعة. وكان هؤلاء السوريون مهتمين بقضية مصير سورية، وادعوا أنهم يمثلون أربعة أخماس سكان سورية، باعتبارهم ممثلين للجمعيات السياسية العربية المختلفة المؤيدة للحركة العربية. وقد أبدى هؤلاء شكوكهم من سياسة بريطانيا وفرنسا تجاه سورية والبلاد العربية، ولذا قدموا بعد عدة اجتماعات لهم مع أعضاء المكتب البريطاني في القاهرة (كلايتون ووالرند) في ٢٦ أبريل / نيسان / ١٩١٨، مذكرة فيها أسئلة إلى الحكومة البريطانية، يودون معرفة الجواب عليها، وقد وعدوا بألا ييؤحوا بالجواب إلا للحسين أو أولاده خوفاً من انتقام الأتراك من السوريين. وفي رواية أمين سعيد أن الانكليز قد طلبوا من هؤلاء أن يختار الأحزاب العربية ممثلين للدخول في مباحثات مع بريطانيا تبقى سرية حتى على أعضاء الحزب كلهم ثم تعرض النتائج على

(٧٨) كتب كلايتون تقريراً عن الحركة السياسية في سورية فقال «كثير من السوريين يفضلون ربط سورية بمصر... وتوجد الآن الحركة العربية والحركة الصهيونية، ويفضل وايزمن وضع خطة دولية حتى لا تتصارع تلك القوتان، ويرى أن هنالك حركة ضد الصهيونية في المالية الدولية... وأن المسلمين والمسيحيين في فلسطين الذين يرون التغلغل الصهيوني فيها أخذت تفتت مشاعرهم نحو الحركة الشريفة، كما أن العرب والصهاينة هم جميعاً ضد الفكرة الفرنسية القاضية بغزو سورية وفلسطين».

الحسين، ويجب أن يقرها حتى تصبح نافذة المفعول. وقد قام كامل القصاب أحد هؤلاء السوريين السبعة بالاتصال والاجتماع مع والرند كما ذكرنا. أما رشيد رضا فيذكر في مجلته المنار أن هؤلاء السوريين كانوا ممن يجتمعون أصلاً بالعاملين الانكليز في المكتب العربي البريطاني، وأن بريطانيا هي التي طلبت منهم هذه المباحثات لمصلحتها العسكرية في الأساس^(٧٩).

شملت مذكرة السوريين السبعة، سبعة بنود تتلخص في السؤال عما إذا كانت بريطانيا تهدف إلى استقلال العرب التام (في الجزيرة العربية، وسورية، والعراق، والموصل وجزء من ولاية ديار بكر)، وهل تساعد بريطانيا هذه الأقطار للحصول على الاستقلال التام؟ وأن تؤلف حكومة عربية على أساس اللامركزية بما يلائم الحالة الاجتماعية لكل قطر، «حتى تتمتع سورية بهذا الاستقلال الذاتي»، وأنهم سوف يمدون يد الصداقة لبريطانيا إن هي ساعدت العرب على الحصول على استقلالهم التام. واستغريوا تصريح الحلفاء الذي يضمن أرض الأتراك (حلفاء ألمانيا) بينما لم تشمل هذه التصريحات أرض العرب حلفاء بريطانيا، وأن العرب أولى بالأمن والاستقلال من أولئك. وذكروا بأن فكرة الثورة خلقت في سورية، وإن كانت قد نفذت في الحجاز، ويأملون أن لا تذهب تضحيات العرب هدراً. وهذا أملهم في بريطانيا، وختموا المذكرة باستعدادهم للحرب إلى جانب بريطانيا في أرض العرب المحتلة من قبلها في العراق وفلسطين، وأن يلقي العرب أيضاً بكل ثقلهم إلى جانبها^(٨٠).

(٧٩) السوريون السبعة هم «كامل القصاب، عبد الرحمن الشهبندر، رفيق العظم، فوزي البكري، مختار الصلح، محي الدين الخطيب، حسن حمادة». انظر أمين سعيد، أسرار، ص ٣٤٣-٣٤٦. وذكر رشيد رضا أن سبب اهتمام بريطانيا بدعم السوريين السبعة لها هو خوفها من قدوم الجيش الألماني من سباسبيرل - بعد هزيمة الروس وعقد الصلح مع الألمان - إلى الدولة العثمانية باتجاه العراق، وكانت بريطانيا تحاول تأسيس قوة عربية عسكرية لمساعدتها، وكانت تأمل أن يقوم هؤلاء بمساعدتها في ذلك، لكن عندما لم يفر الألمان العراق، أجمعت هي قضية الاعتماد على هؤلاء السوريين. وكانت قد وعدتهم بأنها ستعترف لهم باستقلال أي أرض يحتلونها. «المنار»، مجلد ٦ جوان / حزيران / ١٩٢١، ص ٤٦١.

(٨٠) أمين سعيد، الجزء الثاني، ص ٤٠، وسليمان موسى، الحركة، ص ٣٩٢، زين، الصراع، ص ٧٥ و

أرسل وينجت المذكرة إلى حكومته في ٧ مايو / أيار /، وبعد بحثها أجابت وزارة الخارجية البريطانية على المذكرة في ١٦ يونيو / حزيران /، ونقل هوجارت الجواب في منزل والرند إلى ثلاثة من هؤلاء السوريين (القصاب والشهبندر والعظم الذين اختارهم زملائهم) في ٢٢ يونيو / حزيران /، وكان أوضح تصريح لبريطانيا إذ اعترفت به باستقلال العرب . (دون أي تحفظ أو احتجاج بحليفها فرنسا) على أرضهم في الأشكال الأربعة التالية:-

- ١—أراضي كانت حرة ومستقلة قبل الحرب كالحجاز ونجد وجنوب شرقي الأردن .
- ٢—أراضي حررها العرب أنفسهم من الأتراك كالحجاز ونجد وجنوب شرقي الأردن .
- ٣—أراضي حررها الحلفاء (ولايتا البصرة وبغداد وجنوب فلسطين بما فيه القدس وأريحا ويافا) أعلن التصريح لهذا الصنف أن حكومة المستقبل بها تقوم على مبدأ رغبة المحكومين .
- ٤—أراضي لا تزال تحت سيطرة الأتراك (فلسطين الشمالية—سورية—لبنان—شرقي الأردن—ولاية الموصل—اليمن) .

وأعلن التصريح أن الحكومة البريطانية ترغب في فوز سكان هذه الأراضي بالحرية والاستقلال وأنها سوف تستمر بالعمل من أجل تحقيق هذه الغاية^(٨١) .

وقد سأل أحد هؤلاء السوريين هوجارت عن حقيقة الاتفاقية السرية بين فرنسا وبريطانيا، فأعاد هوجارت إنكاره لمثل هذه الاتفاقية، وقال بأنها غير موجودة أبداً . وذكر أيضاً أنه كرر هذا الإيضاح في نفس اليوم إلى معتمد الشريف حسين لإبلاغه للحسين^(٨٢) . وهكذا يكون إطلاق التصاريح الانكليزية من السهولة بمكان، مادامت

(٨١) F.O. 371 / 3381/ 11 Juin 1819, P. 571.

كان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية، قد ذكر في البرلمان الانكليزي في الأسابيع الأخيرة من عام ١٩١٧، أن العراق وسورية وفلسطين «في حكمنا ستكون حسب الحالة الوطنية المنفصلة لكل منها» .
Revue : Palestine and Transjordan, Jerusalem, Vol 1, No 13 August 29 1936, (special supplement), P. 2.

وانظر نص التصريح للسبعة في الشناوي، ص ١١٣ .

(٨٢) Ibid, 25 Juin 1918, Lettre No 127.

لاتعترف بحقيقة ولا تنقيد بعهد، وتظل العهود كلاماً أو حبراً على ورق لا أهمية لها عند التطبيق على الواقع. مع العلم أن الانكليز كانوا يعلمون إلحاح الفرنسيين على التمسك بالاتفاقية، وكان هذا يجب أن يردعهم قليلاً عن الإغراق في الخداع، عندما سيطالب الفرنسيون بتنفيذ الاتفاقية بعد شهور قليلة، وتنكشف اللعبة والخداع والفضيحة.

أرسل الانكليز نسخة عن هذا التصريح إلى الحسين وأرسل القصاب نسخة منه إلى فيصل، لكن لم يرد أحد منهما. وعندما طلب القصاب من الكومندان هوجارت أن يعطيه النص البريطاني ليحتفظ به، أجاب بأنه سيفعل ذلك بعد إقرار الحسين، أما قبل ذلك فلا قيمة للنص^(٨٣). أما لماذا لم يرد الحسين عليه، فهو كما نرى أن الحسين يعتبر نفسه مرتبطاً شخصياً بعهود مع بريطانيا، ولا يريد أن يلزم نفسه بعهود أخرى أعطيت بالأصل لغيره وخاصة لهؤلاء السبعة، وبعضهم لم يكن راضياً تماماً عن ثورة الحسين أو عن ضم سورية له أو للحجاز، وقد حول كل اهتمامه إلى سورية — كما سنرى — ولم يخرج فيصل عن مسلك أبيه. ولم يكن في هذا التصريح أصلاً نص على إنشاء دولة عربية مستقلة كما توهم الحسين باتفاقه مع الانكليز.

أما فرنسا، فقد ظلت متمسكة بسياستها تجاه سورية، سواء عن طريق علاقتها ببريطانيا اتفاقية سايكس-بيكو، أو عن طريق تصريحاتها لمجموعاتها الخاصة من السوريين القاطنين في فرنسا بشكل خاص. وفي أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، تصريح مشترك لبريطانيا وفرنسا في شهر أوت / آب / إلى الحسين^(٨٤)، هو نفسه تصريح بريطانيا للسوريين السبعة، أو يحمل نفس معانيه ونقاطه الأربع، ولربما استشارت بريطانيا فرنسا بتصريحها للسوريين السبعة، فوافقت عليه وصارت تصريحاً من الحليفتين، وعلى كل فإن اشتراك فرنسا بهذا التصريح الواضح في الاخلاص نحو العرب، ينسجم تماماً مع تصريح أحد ممثلي الحكومة الفرنسية لأصدقائها المسيحيين السوريين في باريس، وعلى رأسهم شكري غانم الذي أصبح شخصاً مهماً بعد أن جمع حوله معظم

(٨٣) أمين سعيد، أسرار، ص ٢٤٦.

(٨٤) D.F.Aff. Etr, Levant, dossier I, 7 Aout 1918. P. 279.

الجمعيات السورية في المهجر ومصر، وقام برحلة إلى أمريكا على حساب فرنسا لهذا الغرض، وأخذ يقدم الاقتراحات والمطالب الخاصة بمستقبل سورية، ووضعها تحت الحماية الفرنسية، مستعيناً بالتوكيل الذي حصل عليه، للتحدث باسم هذه الجمعيات في المؤتمرات الدولية بما يخص سورية^(٨٥). قال المسؤول أمام اجتماع هؤلاء في مقر اللجنة المركزية السورية في أبريل / نيسان / ١٩١٨، بعد أن شكر شكري غانم على تعلق السوريين بفرنسا وثنائه عليه «إن فرنسا هي حامية مدنيّكم العربية الجميلة التي أطفأ الأتراك شعلتها، لكن فرنسا وفاءً لتقاليدها الماثورة، ستولى هناك إعادة هذا النور. إن فرنسا لا تريد التوسع، أما مذيعو هذه الاشاعات الافتراضية فمجرمون»^(٨٦).

وفي اجتماع سابق في اللجنة المركزية السورية في ففريه / شباط / ١٩١٨ في باريس، حضره غو، وسايكس، وشكري غانم، وكان هذا الاجتماع بالطبع يتعلق بسورية صرح سايكس بأن السوريين غير متحدين في ما يخص قضيتهم، وكان يقصد أن هناك عدة وجهات نظر من قبل السوريين تتعلق بمصير سورية، وليس من المفروض أن يكون رأي سوريي اللجنة المركزية في باريس هو الصحيح. وكان شكري غانم غير مرتاح من سياسة الانكليز عامة، ولأنهم لم يسمحوا بتداول جريدته «المستقبل» في مصر. لكن سايكس أراد أن يثبت له العكس فيما يخص سياسة بريطانيا نحو فرنسا وسورية، فطلب من غو أن يعطي شكري غانم وثائق الاتفاقية ليتأكد أنها ليست سيئة لتلك الدرجة التي يتصورها. وذكر له شكري غانم أن جريدة المستقبل ستوزع — متهمكاً — في مكة على الأقل إن لم توزع في مصر. وفعلاً سمحت السلطات البريطانية في مصر بتداول الجريدة المذكورة وحتى العدد ١٠ جانفي / كانون الثاني /

(٨٥) طلب السيد D. Margerie أن تعطي الحكومة الفرنسية مبلغ عشرة آلاف فرنك فرنسي إلى شكري غانم كي يقوم بنشاط دعائي في أمريكا مع مبعوث آخر.

D.F.Aff. Etr, Vol XIII (879) 29 Oct 1917, P. 143.

Ibid, Levant 1, P. 73 du Journal Alexandrtte, 26 April 1918. (٨٦)

الذي يتحدث عن الاتحاد السوري، لكنها منعت الصحف المصرية من التعليق على الاتحاد (٨٧) ...

وهكذا تأتي نهاية الحرب وفرنسا مصممة على علاقتها الماضية والمستقبلية في سورية، وبريطانيا تصدر البيانات عن استقلال العرب وتنكر الاتفاقية (سايكس-بيكو)، وتعطي فلسطين لليهود وتغرق في الخداع. أما هذه الحالة من الاتفاق أو التعارض بين بريطانيا وفرنسا أو بين المسؤولين والضباط من الفريقين في المنطقة، فلم تكن تتوقف، بل على العكس كانت تشتد أكثر كلما دنت المسافة من دمشق.

أيام جمال باشا الأخيرة في سورية

قبل أن يتحرك الجيش الانكليزي في فلسطين، بقيادة الجنرال اللنبي، والجيش العربي بقيادة فيصل الحركة الأخيرة نحو دمشق، لنعُد قليلاً إلى سورية ونر ماذا كان من أمر أحمد جمال باشا، وخلفه محمد جمال باشا (الصغير) الذي كان آخر حاكم تركي لسورية، حيث دخلت القوات المذكورة دمشق.

زاد قيام الثورة العربية في جوان / حزيران / ١٩١٦، من حدة جمال باشا في سورية، وتابع عمليات الاعتقال والنفي، وشعر أن الحسين وإبنه قد خدعاه شخصياً، إذ أفلت فيصل من بين يديه ليذهب إلى الحجاز ويقوم مع أبيه بالثورة، ولم يعلن جمال باشا أي شيء عن هذه الثورة، إلا بعد خمسة أيام من قيامها، ووصفها بأنها أعمال مجموعة من العصابات ذات الطمع والفساد، وأنه جاد في القضاء على هذه العصابات في الحال. واتخذ جمال باشا عدة تدابير للقضاء على الثورة، منها إرسال وفد من وجهاء سورية إلى المدينة، للاتصال بالشيوخ والقبائل واقناعهم بمحاربة الثورة. ومن هؤلاء محمد فوزي باشا العظم (نائب في مجلس المبعوثين)، وكذلك عبد الرحمن باشا اليوسف وأسعد الشقيري. لكن لم يأت الوفد بنتيجة طيبة. ثم نحت الدولة الحسين

عن شرافة مكة، وعينت بدله الشريف علي حيدر، واحتفلت به، لكنه اضطر للاقامة في بيروت. وأصدرت الدولة فتاوى دينية كثيرة ضد الحسين وأولاده، تصفهم بأنهم خونة ومارقون من الدين، وأنهم تعاونوا مع أعداء الدولة. كما شنت الدولة حملة كبيرة في الصحف المحلية ضد الثورة استمرت شهوراً دون فائدة. ثم أرسلت الدولة قوات إضافية للمدينة، لكن ذلك لم يمكن الأتراك من احتلال مكة كما مر معنا^(٨٨).

وربما كانت أهم نتائج الثورة السريعة على سورية، هي تهديد الحسين بقتل الأسرى الأتراك إذا قتل جمال باشا مزيداً من السوريين. وقد كان هذا التهديد مجدياً إذ توقفت عمليات الاعدام في سورية. وظل جمال باشا ذلك الرجل القوي الذي أذل الرقاب، وكان برغم عنفه يقوم بزيارات لبعض العائلات، حتى يخفف من سوء ما فعله في سورية، ويوزع القمح على من يشاء في أثناء المجاعة. وكان مركزه قوياً لدى حكومته في استانبول، لأن الانكليز لم يتمكنوا حتى نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٧، من احتلال غزة، وكان هذا يعطي جمال باشا قوة خاصة في الدفاع عن أرض الدولة. لكن سياسته الداخلية في سورية جعلت كثيراً من الناس، وخاصة في لبنان يفرون بالزوارق الصغيرة إلى أرواد التي احتلها الأسطول الفرنسي منذ ١٩١٥، كما جعلت كثيراً من الجند يفرون من الجيش، وقد تجاوزوا الآلاف، ونحو الضباط إعدام واحد من عشرة بالقرعة من هؤلاء الفارين. وكانت وجهة الفارين من الجيش، هي الحجاز للانضمام للثورة العربية^(٨٩). وبلغت سمعة جمال من سوء، حداً جعل الانكليز يشعرون أنهم يحاربون في فلسطين في أرض صديقة، بينما كان الأتراك يحاربون في أرض معادية. وعندما مر مصطفى كمال باشا القائد التركي في دمشق، شعر أنه يسودها جو الكراهية ضد الأتراك^(٩٠). كان سلوك جمال باشا أرضاً خصبةً لمناشير الانكليز والعرب إلى

(٨٨) أمين سعيد، أسرار الثورة، ص ١٥٥-١٥٧.

(٨٩) ذكر جمال باشا الصغير في مذكراته عن الحرب بأنه لم يصل من بين ١٢ ألف جندي معظمهم، من العرب إلى عمان إلا ٤٨٠٠، وفر الباقون إلى الثورة العربية. كيف جلت، ص ١٣٦، وجاء في تقرير للمخابرات البريطانية أنه هرب ثمانية آلاف من جيش جمال باشا مع ١٨ ضابطاً ممن يرغبون بالاتصال

بالشريف حسين ... F.O. 371 /2779/ 9 Aout 1916, P. 5.

(٩٠) مذكرات مصطفى كمال باشا. تعريب عبد العزيز خانجي، القاهرة ١٩٢٦، ص ٦٩.

سكان سورية في أثناء الحرب . وهذا ما رآه جمال باشا الصغير ، إذ كتب في مذكراته أنه لم يكن يوجد بين العشائر العربية من يريد خدمة الدولة بصدق ، وإن كان هناك من يخدمها فلخوف منها^(٩١) .

والحقيقة أن هناك سببين رئيسيين لعزل جمال باشا عن حكم سورية . أولهما هو تزعزع مكانته بعد الهزائم التي لحقت بالجيش العثماني في أعين رجال السلطة في استانبول ، وقد رأوا أن سورية قد أصابها من الانكسار في الحرب ما أصاب العراق ، وظهر بذلك عجز جمال باشا عن صد العدو الانكليزي ، ولهذا لم يعد يبالي أحد من رجال الباب العالي برضى جمال باشا أو عدمه ، وأخذوا يصدرون الأوامر ويتخذون الاجراءات دون الرجوع إليه . وأحس هو بالهزيمة ، وأصبح لا يجرؤ على أن يراجع في شيء لتأييد موقفه وكلمته التي انكسرت بانكسار القوات العثمانية في غزة ، والتي كادت تدخل القدس قبيل عزله^(٩٢) . والسبب الثاني وربما هو الأهم ، هو أن القيادة الألمانية قررت التخلص منه في سورية ، لأن سياسته سببت انقضا العرب على الجيش العثماني ، وبالتالي سببت هزيمة الترك مع الألمان فيها . وكانت منذ البداية هنالك حساسية في علاقات الضباط الأتراك مع الألمان ، وكان اختلاف اللباس والمأكل والمشرب والاقامة يحرك هذه الحساسية . فكان الجندي التركي يعاني البؤس والفقر وقلة الطعام واللباس وقلة الراتب ، بينما كان الألمان مثلاً في حلب يستأجرون بيوت الناس ويدفعون الأجور نقداً فتتمتع البلد ببعض الرخاء بينما كان الجيش التركي يصادر الطعام والمنازل من الناس . وكانت سيارات الألمان تجوب الأسواق وتشتري المواد الغذائية للألمان في سورية ، أو لإرسالها إلى ألمانيا ، وكان هذا يجعل الأسعار غالية والمواد الغذائية نادرة^(٩٣) ، فتزداد نقمة الناس لكن على الحكومة التركية . وجاء في تقرير بريطاني أن القيادة الألمانية شمال حلب ، تسكن في بيوت واسعة فيها ماء ومخازن ، وهذا شيء أصبح نادراً في سورية^(٩٤) .

(٩١) كيف جلت ، ص ١٣٨ .

(٩٢) سيرة ذاتية ، ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٩٣) مذكرات حلب ، ص ١١١ — ١١٢ (جانفي / كانون الثاني / وسبتمبر / أيلول /) .

(٩٤) F.O. 371 / 2779/ No 170425 .

وكان مظهر الضباط الألمان الذين كانوا يملأون الشوارع في دمشق وحلب، يضيفي عليهم صفات النظام والقوة والغنى والأبهة، وكان هذا يترك شعوراً لدى الناس بتفوق الألمان على الأتراك. ولما كثر التذمر بين الأتراك بسبب هذه الفروق مع الألمان، أصدرت القيادة الألمانية في استانبول أمراً إلى أفرادها العسكريين في سورية كي يلبسوا لباساً بسيطاً مثل الأتراك، أما التماسيون فظلوا يظهرن دائماً بمظهر رسمي. كما حفظ الألمان بناءً على توصيات قيادتهم عادات المسلمين لأقصى حد، فأخذوا يرفضون أكل لحم الخنزير حتى إن القيصر أصبح يعرف عندهم بالحاج ولهم^(٩٥).

وكانت ألمانيا قد أخذت تهتم بسورية منذ قيام الحرب ووصول بعض الوحدات الألمانية إليها، وأخذت الصحف الألمانية تهتم بها وتكتب المقالات عنها^(٩٦)، وحاول البارون الألماني أو بنهايم أن يصدر جريدة ألمانية—عثمانية في دمشق، وطلب من محمد كرد علي مساعدته بذلك، لكن جمال باشا حذره منه وادعى أنه دساس^(٩٧). لكنه كان الصراع بينه (جمال باشا) وبين الألمان، وفي الفترة الأخيرة من حكم جمال باشا أخذ الألمان يتصلون ببعض الزعماء في دمشق للعمل يداً واحدة، مقابل تعهدهم باستقلال سورية التام، تحت إشراف ألمانيا. كما كان الألمان ينشرون الدعاية ضد الأتراك في سورية ويستميلون العرب. لكن الخوف من بطش جمال باشا بعد إعداماته، هو الذي منعهم من التماسي مع الألمان^(٩٨). وكان علي الجزائري وبعض رجال الدين من أنصار الألمان. وقد غضب الألمان عندما أوقف جمال باشا علي وعمر الجزائري^(٩٩). ووزع الألمان أيضاً في آخر سنة للحرب، كثيراً من المال على رجال العشائر السورية التي كانت تزدد كرهاً للأتراك. وفي تقرير لمصطفى كمال باشا رفعه إلى وكيل القائد

Ibid, 371 / 2782/ No 221220, 4 Nov 1916. (٩٥)

D.F.Aff. Etr, Vol XVIII, Feb 1918, P. 32,52. (٩٦)

من هذه المجلات مثلاً Wirisch afts Zeitung التي كتبت عن اقتصاد سورية و Deutsch Levante

Zeitung التي كتبت عن الصناعة والمدارس...

مذكرات كرد علي، ج ١، ص ١٤٩. (٩٧)

جمال باشا الصغير، كيف جلت، ص ٣٧. (٩٨)

D.F.Aff. Etr, Vol VI (872) 26 Mars 1916, P. 43. (٩٩)

العام من حلب في ٢٢ سبتمبر / أيلول / ١٩١٧ ، أن الألمان يريدون اقتطاع البلاد السورية من جسم الدولة العثمانية ، وضمها إلى مستعمرات ألمانيا « التي ما كان يجب على القيادة التركية التغافل عنها » . كما جاء في مذكرات جمال باشا الصغير أن للألمان مطامع في احتلال سورية ، ولهذا قرر الامبراطور غليوم وضع حد لمطامع جمال باشا^(١٠٠) . وظهر لدى الناس وخاصة لدى المسيحيين أصدقاء فرنسا ، أن الضباط الألمان يعاملون سورية معاملتهم لبلد فتحوها^(١٠١) .

ومنذ البداية أي منذ عام ١٩١٥ ، كانت العلاقة سيئة بين جمال باشا والضباط الألمان ، أو لم تكن ودية بينه وبين حلفائه . وعندما أخذ جمال باشا بالاعدادات في سورية وانتشرت الأمراض والمجاعة ، كان الألمان على معرفة ويقين بأن سلوك جمال باشا يسيء إلى الأتراك والألمان معاً . لكنهم كانوا يدارون جمال باشا بسبب نفوذه وقوته ، وحتى لا يندفع حتى النهاية مع الحلفاء ، لأنهم كانوا يعلمون أنه ميال لفرنسا ، وأنه يجري اتصالات مع الحلفاء لضرب الدولة العثمانية وألمانيا حليفها . وكانوا ينتظرون فرصة مناسبة لاقناع الحكومة التركية بنقله من سورية . وأتت هذه الفرصة بعد انكسار الجيش العثماني في فلسطين ، إذ طلبت الحكومة التركية من ألمانيا إرسال قوة ألمانية لوقف زحف الانكليز فيها ، وهنا وافق الامبراطور غليوم ، وطلب أن تكون القيادة العسكرية للألمان . وعين الجنرال فالكنهاين قائداً في فلسطين ، ولم يبق لجمال باشا سوى الاشراف على الامداد والتموين^(١٠٢) . وأخذ فالكنهاين يصدر الأوامر للجيش الرابع ، دون توكيل رسمي مع وجود جمال باشا على رأسه . وأخذ يعد الخطط للتخلص منه ، حتى يتفرد الألمان بالعمل في سورية ، وكتب التقارير عن الحالة السيئة التي وصلت إليها سورية خلال حكم جمال باشا ، ورفعها إلى القيادة في استانبول . وجاء في تقرير له في ٢٠ سبتمبر / أيلول / ١٩١٧ ، عبر فيه تماماً عن المأساة في سورية ، لكنه كان يقصد

(١٠٠) جمال باشا الصغير ، كيف جلت ، ص ١١ .

(١٠١) وثائق حلب ، ٢١ سبتمبر / أيلول / ١٩١٨ ، ص ١١١ .

(١٠٢) F.O. 371 / 3058 / 6 Sep 1917 , P. 294 .

وجمال باشا الصغير ، ص ١١ ، وسيرة ذاتية ، ص ٢١٩ .

بذلك إدانة جمال باشا. جاء في تقريره هذا « يتطلع السوريون وهم عرب بشغف إلى حركات العدو، لأن إخوانهم العرب يحاربون في صفوف العدو، وهم يأملون فوزاً من فوزه. كما أنهم ينظرون إلى السلطة المدنية والعسكرية كقوة مستبدة تدفعهم إلى الموت، وتقتل شعورهم الوطني. وهم على حق لأمرين:

١— إن معظم الأهالي، المؤلفين من شيوخ ونساء وأطفال وبعض الهاريين، يتعدون عن الحكومة، ويفتشون عن القوت الضروري.

٢— إن رجال السلطين يطاردون هذه الفئة فيدخلون الحقد فيها عليهما.

وفي التقرير أيضاً أن رجال الحكومة لا هم لهم إلا إشباع بطونهم، والرشوة قائمة على قدم وساق، والعدل مفقود والنفور يزداد بين الشعب والحكومة، وأقل حادث يفجر الضغائن، وإن رجال الأمن أصبحوا ضد القانون وعوناً للمجرمين بدلاً من تنفيذ القانون، وأن الرشوة متفشية بين الموظفين لأن راتبهم لا يكفيهم يومين، بالإضافة إلى المجاعة الناشبة أظفارها مع وقوف دولاب العمل واستحكام الأزمة الاقتصادية التي تساعد على انتشار الفوضى، وإذا بقيت الحرب وبقيت الأمور تسير على نفس الاتجاه، فلا محالة أن الدولة زائلة. وتحدث عن ضعف الجيش في جبهة فلسطين^(١٠٣)...

وفي رحلة لأنور في خريف ١٩١٧ في فلسطين، أظهر له فالكنهاين نشاطه بتقوية الجبهة ووجوب إمدادها بقوة ألمانية. واتخذ أنور الخطة الألمانية مع طلعت باشا وتحليل بك بإلغاء الجيش الرابع الذي يقوده جمال باشا، واستبداله بجيش جديد هو جيش الصاعقة الذي خطط له الألمان. وأبقى أنور ذلك سراً على جمال، لأنه كان خائفاً من معارضته ونواياه، وحتى يباغته قبل أن يتحرك. وكان أنور أيضاً مقتنعاً باتصال جمال بالحلفاء. وكانت الخطة تقضي باستمالة العشائر السورية بأموال الألمان

(١٠٣) جمال باشا الصغير، كيف جلت، ص ٢٦—٢٩.

كتبته الجريدة الألمانية Wirshafts Zeitung أن سورية كانت تنتج قمحاً يكفي ٢٣ مليوناً، أيام الرومان، بينما هي لا تكفي الآن ٣ ملايين وكتبته مقارنات اقتصادية كثيرة وهي بذلك تدل على سوء حكم جمال باشا وكذلك كتبته الجريدة الألمانية

D.F.Aff.Etr, Vol Zeituing Deutsche Levante Zeitung XVIII (884) Fev 1918, P. 32,53

التي سينفقها فالكنهاين. وكان معظم ضباط الجيش الجديد من الألمان إذ كان فيه ٦٥ ضابطاً ألمانياً و ٩ أتراك فقط. وقضت الخطة بربط حلب وبغداد بجهة واحدة، وتعزيزها بالفرقة الألمانية الآسيوية. ووصل الذهب الكثير إلى فالكنهاين بدلاً من أن يصل إلى جمال باشا الذي طلبه من قبل، حتى يضمن سلامة الدولة. وكان صمت الحكومة التركية إزاءه بداية النهاية^(١٠٤). وأخذ الضباط الألمان الكبار يتحاشون جمال باشا ويظهرون له عدم المودة، حتى إن القائد الألماني كرينشتاين Kreinestein ظل يعيش في خيمة خاصة أربعة عشر شهراً وحده، حتى لا يحدث تماس بينه وبين جمال باشا^(١٠٥). ثم طالب فالكنهاين بإبعاد جمال باشا إلى الآستانة، كما طالب بتنزيل رتبة مصطفى كمال باشا قائد الجيش السابع في فلسطين، حتى يستقيل، وبذلك يخلو الجو نهائياً للألمان في سورية. وقد عبر مصطفى كمال عن مقصد فالكنهاين، بأنه محاولة لنزع السيطرة من القواد الأتراك، وأن الألمان ينظرون للأتراك كعبيد، وأنه في حالة انتصار الألمان، فسوف يستعمرون سورية والعراق بحجة دفاعهم عنهما. واتهم الحكومة التركية بالتآمر للقضاء على الدولة العثمانية^(١٠٦).

أما جمال باشا، فبناءً على هذه الخطة وصلته دعوة من الامبراطور غليوم لزيارة برلين. وحاول هو ألا يغادر سورية، حتى لا يترك للألمان الانفراد بالحكم في سورية، وكان يعلم أن رحلته إلى برلين تعني عدم العودة إلى سورية. لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً. وذهب إلى برلين حيث أبقاه الامبراطور مدة ثم سمح له بالعودة إلى تركيا، حيث تابع ممارسة عمله كوزير للبحرية وقد فقد كل نفوذه^(١٠٧).

يذكر معظم المعاصرين لجمال باشا من العرب أنه سافر دون وداع ودون أن يخبر

(١٠٤) جمال باشا الصغير، المصدر السابق، ص ١٢-١٤.

(١٠٥) F.O. 371 /2782/ No 221220. 4 Nov 1916.

(١٠٦) جمال باشا الصغير، كيف جلت، ص ٣٦-٣٧ وانظر عن تضاييق الضباط الأتراك من فالكنهاين:

تقريراً لعام ١٩١٨. D.F.G. 7N, 1639.

(١٠٧) F.O. 371 /3058/ P. 300 (11 Sep 1917), P. 327 (11 Oct), P. 330 (21 Nov)

و. D.F.G. 7N-1652.

أحداً، لكن صديقه محمد كرد علي يذكر في مذكراته، أنه أقام دعوة في دمشق لأكثر من مائتي شخص خطب فيها مدافعاً عن سياسته بقتل بعض العرب، كما قتل بعض الأتراك في الآستانة من جماعة صالح باشا ابن خير الدين التونسي الصدر الأعظم الأسبق، وأنه نفذ ما ينص عليه القانون. كما دافع في استانبول عن نفسه بنفس المنطق، وأنه بذلك حمى سورية من ثورة ضد الدولة العثمانية كانت تدعمها بريطانيا وفرنسا (١٠٨).

لكن معظم كاتبى المذكرات العرب يذكرون أن جمالاً غير سياسته في أيامه الأخيرة في سورية، عندما تقلصت قوته بهزيمتين حلتا به في فلسطين (القناة وغزة). وحاول التفاهم مع اللنبي لتسليم سورية، لكن هذا رفض بعد أن حاز النصر. ومن مظاهر تغيير معاملة جمال باشا هو تلطفه مع الموارنة، حيث طلب بطريركهم واستضافه وأكرمه، ثم سمح بنقل الحبوب إلى لبنان، وخص البطريرك الماروني بكميات كبيرة لتوزيعها على الفقراء، وأعاد بعض المنفيين من سورية ولبنان إلى وطنهم، وظهرت الابتسامة والبشاشة على وجهه العبوس، وقيل إنه شعر بنهاية ألمانيا بعد دخول أمريكا الحرب، فأخذ يمهّد السبيل لاستمالة عواطف السوريين واللبنانيين. ويقول يوسف الحكيم في مذكراته وكان أمين سر حاكم جبل لبنان «وما انقضى عام ١٩١٧ حتى ساد السكوت على ذكر جمال باشا، الذي استدعته حكومته بعد أن عدته مسؤولاً عن هزيمة الحرب، وعن اخفاقه السياسي وقيام السوريين واللبنانيين ضده، وانضمام عشرين ألف شاب إلى الثورة العربية. وبمغادرته خفت وطأة الارهاب، لأن خلفه جمال باشا الصغير (المرسيني) كان معروفاً بمزايه الخلقية العالية، وقيام كل الضباط الأتراك والألمان بمهمات الدفاع فقط، تاركين الادارة إلى الولاة وحاكم جبل لبنان كل في حدود مهمته (١٠٩). وفي بيروت في ٣٠ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٧، في خطاب ألقاه

(١٠٨) مذكرات كرد علي، ج ٥، ص ١٦٩، وسيرة ذاتية، ص ٢٠١.

ويذكر الغزي أن جمال باشا أوهم الناس أنه ذاهب بمهمة، وأنه عائد قريباً، وقال ذلك من مهابة وخوفاً من الاعتقال. جاء ذلك في خطبة له قبل مغادرته. ص ٦٣٣.

(١٠٩) مذكرات الحكيم، بيروت ولبنان، ص ٢٨٣ — ٢٨٣.

جمال باشا عن فضحه لاتفاقية سايكس-بيكو، غير كثيراً من لهجته العنيفة وحدته، وذكر عبارات لطيفة العرب والسوريين^(١١٠)، وكان يأمل أن يجذب إليه قلوب العرب بعد فشله العسكري، لكن الحسين قطع عليه هذا الأمل.

وهكذا حكم جمال باشا سورية مدة ثلاث سنين من ٥ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٤ حتى أواسط ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٧، وخلف فيها مرارة وحزناً وفقراً وجوعاً وموتاً، سجله له التاريخ الذي يدوم طويلاً برغم قصر مدة حكمه، وخلف له نعتاً في قلوب كثير من العرب والسوريين خاصة، وهو «السفاح». وفي ثنايا عدد قليل من الكتب العربية، نجد بعض عبارات ثناء صادقة على بعض أعمال جمال باشا منها مدّه الماء إلى حلب بعد أن قلت مياهها «وعد هذا من عظيم أعماله وأقام حفلة تُخطب له فيها له وذكرت مآثره»^(١١١)، كما يذكرنا باسمه أسماء بعض الشوارع الحديثة التي شقها في المدن السورية كشارعه في دمشق الذي غير إلى اسم شارع النصر. وقد وضع له المهندس الألماني زورشر Zurcher مخططاً لتحسين المدن السورية، وقد نفذ جمال باشا قسماً منه. وذكر له تقرير بريطاني في هذا الصدد أنه «حسن المدن ونظف الشوارع وحسن الوسائل الصحية ورصيده كبير في هذا الشأن»^(١١٢). قيل إن زوجة جمال باشا أخذت معها صناديق ثقيلة وظن أن ذلك ذهب، لكن كان عياله — كما ذكر كرد علي — يشتكون الفقر بعد الحرب^(١١٣)، ولم يذكر أحد من أعدائه أو

(١١٠) سليمان موسى، الحركة العربية، ص ٣٨٦.

(١١١) الغزي، نهر الذهب، ص ٦١٢.

يوجد في كثير من الكتب العربية مدائح عارمة لجمال باشا من خطب وقصائد شعرية لشخصه منها ما كان نفاقاً وتزلفاً ومنها ما كان أملاً به في أيامه الأولى، وتذكر بيت خير الدين الزركلي فيه لدى قدومه لدمشق:

أحنوا الروس وطأطؤوا الحاميات هذا جمال مفرج الكربات

(١١٢) F.O. 371 / 2783 / No 221220, 4 Nov 1917, P. 30.

وجاء في هذا التقرير أن المهندس المذكور زورشر قد أرسله الامبراطور غليوم ليكون رقيباً على جمال باشا، لكن هذا اكتشف الأمر وأخذ يتطلع على كل تقاريره التي يرفعها لألمانيا بعد أن تكاشف الاثنان بالموضوع، ولهذا أبقاه جمال للاستفادة منه في تحسين المدن.

(١١٣) مذكرات كرد علي، ج ١، ص ١٧٢.

أصدقائه أنه كان ثرياً بعد الحرب، وظل في استانبول حتى هزيمة الدولة العثمانية سنة ١٩١٨، حيث ذهب ليعمل لدى ملك الأفغان بترتيب الجيش وتسليحه، وفي أثناء مروره بموسكو ذاهباً إلى فرنسا بمهمة اغتاله أرمني سنة ١٩٢٢.

محاولات للصلح بين العرب والترك

واتخذت الحكومة التركية عدة إجراءات لتحسين الوضع في سورية، ولاستماله السكان، فجردت قائد الجيش الرابع من الصلاحيات التي كانت معطاة إلى جمال باشا، ومن جميع السلطات الاستثنائية والمدنية، وأصبح منصب قائده كالأخرين في قيادة الجيوش الأخرى العاملة في سورية وفلسطين، مع العلم بأن القيادة العليا أصبحت، كما ذكرنا، لجنرال ألماني هو فالكنهاين، وألغوا المحاكم العسكرية، ومنعوا عنها إحالة القضايا، وتوقفوا عن النفي والاعتقال وأعادوا المنفيين من العائلات السورية من الأناضول إلى بلادهم، وأجروا تنقلات كثيرة بين الولاة والموظفين والقادة العسكريين في دمشق وحلب وبيروت، وأخذوا بسياسة التفاهم مع العرب، لكن بعد فوات الأوان (١١٤).

واستكمالاً لخطة الأتراك بالتفاهم مع العرب شكلوا وفداً للإصلاح من السوريين برئاسة رضا باشا الركابي من دمشق، وأعضاء آخرين من ولايات بيروت وحلب لمقابلة السلطان العثماني في أثناء عودته من سويسرا، لطرح الإصلاح والحكم الذاتي لسورية تحت الحكم العثماني. وكان معظم هؤلاء الأعضاء في الأناضول منفيين بقرارات من جمال باشا، وهم رضا الصلح، ومصطفى العابد، والشريف الكيلاني، وكان في الوفد علي سلام وفارس الخوري وجبر دومط (١١٥). ولم تظهر أية نتيجة لهذه المهمة. وكان جمال باشا الصغير هو الذي قام بالدور الكبير في مفاوضات فيصل. وكان الضباط الألمان مؤيدين لخبطه، لأنهم كانوا يعتقدون باستحالة الانتصار ضد الانكليز

(١١٤) أمين سعيد، أسرار الثورة، ص ١٥٧—١٥٨، ووثائق حلب، ص ١١٢.

(١١٥) من دو فرانس—القاهرة. D.F.Aff. Etr, Levant 1, 10 Juin 1918, P. 107.

وانظر: A.L. Tibawi. Amodern History of Syria, «MACMILAN» Londobn 1959, P. 264.

طالما بقي العرب في صفهم خاصة وأن الحرب تجري على أرضهم، وكان هذا رأي فالكهاين أيضاً حيث نصح أنور بقبول مبدأ مصالحة العرب، لكن أنور كان مقتنعاً أن العرب لن يقبلوا بذلك، فالانكليز يمنعونهم. ومع هذا جرت مراسلات بين جمال الصغير وبين فيصل دامت تسعة أشهر أي من تاريخ تسلم جمال الصغير قيادة الجيش الرابع في ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٧، وحتى شهر أوت / آب / ١٩١٨. وكان منها رسالة في جوان / حزيران / إلى نسيب البكري في أثناء زيارته السرية لجبل الدروز يعّده فيها بإعادة مصالحه وممتلكاته، كما أكد والي حوران في لقاء له في جبل الدروز، وكان جمال باشا يأمل من وراء ذلك إجراء صلح وتشكيل قوة في جبل الدروز من ٢٠ ألف مقاتل إضافة إلى ١٥ ألف جندي فار لاجيء في جبل الدروز^(١١٦). ومنها رسالة إلى فيصل في ٥ جوان / حزيران / ١٩١٨ بوساطة سعيد الجزائري رد عليها فيصل برسالة حدد فيها شروطاً واضحة لاستقلال سورية مع بقاء علاقتها بتركيا كعلاقة النمسا بالجر. وهذا رأي يذكرنا بأهواء عزيز المصري في حله للقضية العربية مع الأتراك. وهذه هي شروط فيصل:

- ١— أن يكون الاستقلال السوري من طراز النمسا—الجر.
- ٢— تنسحب القوات التركية من جنوب معان.
- ٣— ينقل الضباط العرب العاملون في الجيش التركي إلى الجيش العربي.
- ٤— تترك مخازن التموين والغذاء الموجودة في سورية للجيش العربي.
- ٥— تبقى للجيش العربي قيادته المستقلة في حالة استمرار الحرب^(١١٧).

(١١٦) D.F.Aff. Etr, Levant 1, 7 Juin 1918, P. 94.

كان نسيب البكري يتردد على الجبل، وحاول جمال باشا الصغير القبض عليه فلم يفلح وأرسل له مرة نشأت بك متصرف حوران، وناقشه طويلاً في بيت حمد البربور (من أعضاء جمعية الفتاة) لاقناعه بإنهاء الثورة العربية حفاظاً للإسلام وصوناً لعرش الخلافة. وهاجم نسيب البكري سياسة الاتحاديين، ولم يسفر الاجتماع عن اتفاق، لكن هذا يدل على أن الجبل كان قد خرج من سلطة الأتراك منذ تلك الفترة. محمود الجركسي، الدليل المصور للبلاد العربية، ج ١، دمشق ١٩٣٠، ص ٦٢—٦٣.

(١١٧) مذكرات سعيد الجزائري، ص ٨٤—٨٩ و Tibawi, P. 264.

جاء في تقرير لكولوندر Coulondre الملقق بالبعثة الفرنسية في مصر (وأصبح مندوباً لفرنسا لدى فيصل في سورية فيما بعد) في ١٤ جوان / حزيران / ١٩١٨، أن جمال باشا قد أرسل لفصل عارضاً قبوله

←

وحمل سعيد الجزائري رسالة أخرى من جمال باشا ليفصل في ٥ أوت / آب / ١٩١٨ ، تحمل لفصل تذكيراً بالعلاقات الاسلامية ، ونضها «إطفاءً لنار الفتنة المشتعلة بين المسلمين ، أبعث إلى حضرتكم بالنجيب الأمير سعيد الذي يقوم من جانبنا بمهمة مقدسة ، وإني لعلّ اعتقاد بأن حفيد النبي (يعني فيصلاً) الكريم ، غير مرتاح إلى هذا الفتور بين المسلمين ، وأعتقد أن روح النبي الطاهرة ستكون راضية عن عملي هذا . وأسأل الله أن يصون دينه المحمدي كما وعدنا في كتابه الكريم ، وأن يوفق العاملين للصلح فيما يسعون إليه » . قابل سعيد فيصلاً في (وهيدة) غرب معان بحضور الأمير زيد ونوري السعيد وفائز الغصين في ٢٢ أوت / آب / ١٩١٨ ، ورد فيصل على جمال باشا بكتابه متشائماً من كثرة الرسائل دون فائدة وقال في جوابه «إلى حضرة قائد الجيش الرابع ، تلقيت كتابكم الذي تفضلتم بإرساله مع الأمير سعيد ، وبما أن ما تضمنه ذاتكم العالية مزيداً من العواطف السامية نحو المسلمين معلوم لدى الجميع ، فليس عندي ما أقوله سوى تبجيل شخصكم الكريم ، وبما أن الرسائل التي نتداولها منذ تسعة أشهر ، بقيت عرضة للتسويق ، فلم يبق أمل بالوفاء والاتفاق . غير أن مساعي الأمير سعيد في هذه المرة أحييت بعض أمل في نفسي ، مع أن الحال والوقت هما في أقصى درجات الخطورة ، كما أن وضعك العسكري مهلك ، ولا أورد هذا على سبيل التهديد ، بل إن وجداني يسوقني إلى إسدائكم النصيحة . إن العرب لا يطلبون شيئاً زائداً من الترك ، بل غاية ما يتمنونه أن يعيشوا أحراراً وأن يضعوا أيديهم بأيدي الترك وأن يكون حالهم من حكومتهم كحال بافاريا من بروسيا ، فإذا كانت حكومتكم مستعدة لقبول هذه الشروط ، فنحن على أتم استعداد للدخول في الصلح ، وإلا سترجع إلى إصدار الفتاوى ونصب المشانق . واقبلوا يا حضرة الباشا احترامي » (١١٨) .

→ بحكم سوية الشريعة على أساس الاعتراف بمملكة الحجاز ، لكن الشريف أجاب بأن الحل الوحيد هو الذي أعلنه من قبل وهو الحرب التي تقرها الجيوش .

D.F.Aff. Etr, Levant I, P. 145.

ولم نعتز على مثل هذا الجواب في مصدر آخر .

(١١٨) مذكرات الجزائري ، ص ٨٦ — ٩٨ و . D.F.G. 7N / 1658 / 18 Aout .

وافق جمال باشا على اقتراح فيصل في اجتماع له مع ضباطه الأتراك والألمان ، وأرسلوا برقية إلى الآستانة ، فوافق السلطان محمد رشاد عليه ، وكتب أمراً بذلك . لكن طلعت وأنور وجاويد — على رواية سعيد الجزائري — أهملوه^(١١٩) . ويؤكد الملك عبد الله في مذكراته ، أن إرادة سلطانية صدرت ، تعلن الاعتراف باستقلال البلاد العربية^(١٢٠) . ويذكرنا بهذا تقرير كولوندر السابق بقبول جمال باشا باستقلال سورية والحجاز ، وليس هناك مصدر تركي يؤكد ، والوثائق التركية لم تكشف بعد . لكن كل هذا حدث بعد فوات الأوان .

لم يتأثر الانكليز كثيراً بهذه المفاوضات ، وكانوا على علم أن فيصلاً غير جاد فيها ، أو أنها ليست من صنعه بل من صنع أحد السوريين عنده ، كما عزاها لورنس الذي كان يحصل على نسخ من هذه الرسائل عن طريق مساعديه أو خفية ، وقدم ما فيها من معلومات إلى هوجارت الذي أنكر أنها من صنع فيصل^(١٢١) ، — وهي فعلاً من صنعه . فصور رسائله بخط يده منشورة في مذكرات الجزائري — وكانت تطمينات الانكليز كافية لمنع تنفيذ أي اتفاق بين العرب والترك ، لكن الفرنسيين كانوا خائفين من عودة الاتفاق بين الطرفين المذكورين . بقيادة أحد أبناء الشريف حسين^(١٢٢) .

احتلال دمشق

كان الجنرال اللنبي يعد لهجومه الكبير في صيف ١٩١٨ ، وكانت مهمة الجيش العربي في هذا الهجوم هو القيام بحركة خاطفة على درعا ، لأنها ملتقى الخطوط الحديدية ما بين دمشق وفلسطين وشرقي الأردن ، حيث يمكن قطع خطوط مواصلات الأتراك وخلق الفوضى والارتباك في تحركه في أثناء تراجعه . وكان جيش فيصل في تلك الفترة قد جاوز أربعة آلاف مقاتل نظامي إضافة إلى البدو ، وقد أمده اللنبي بخمس سيارات

(١١٩) أمين سعيد ، أسرار الثورة ، ص ٢٣١ ، ومذكرات الجزائري ، ص ٨٦ — ٩٤ .

(١٢٠) مذكرات الملك عبد الله ، ص ١٤٣ .

(١٢١) Tibawi, PP. 264-265 .

(١٢٢) D.F.Aff. Etr, Levant 20, P. 177 .

مدركة، وسرب طائرات، ومدفعين محمولين، ومفرزة من ٢٠ هندية مسلحين بالرشاشات، ومفرزة الجمالة المصريين، وسرية ثقليات مع مفرزة بيزاني الفرنسية التي تضم أربعة مدافع ومعظم رجالها جزائريون. كان فيصل هو قائد الجيش يعاونه الشريف ناصر ويقود نور السعيد النظاميين. غادر الجيش العربي أبا اللسن في ٣٠ أوت / آب / ٢ سبتمبر / أيلول / ووصل إلى الأزرق في ١٢ سبتمبر / أيلول /، وانضم للحملة فرسان البدو بقيادة نوري الشعلان وعودة أبو تايه. وتابعت الحملة تفجير السكة الحديدية ما بين درعا وعمان، ودرعا ودمشق، ودرعا وفلسطين حسب الخطة.

تابعت الحملة العربية هجومها في ٢٥ سبتمبر / أيلول / ما بين درعا ودمشق، وأعادت تخريب ما أصلحه الأتراك من السكة الحديدية، وانضم في هذه المنطقة أعداد كبيرة من سورية للجيش العربي من بدو ودروز وحوارة — سكان المنطقة التي كانت تجري عليها المعركة — وتم للجيش العربي الاستيلاء على درعا ورفع العلم العربي عليها في ٢٧ سبتمبر / أيلول / مساءً. واستمرت المعارك ما بين درعا ودمشق ضد القوات التركية والألمانية المنسحبة، وجرت المذابح في قرى حوران على أيدي بعض القوات التركية المنسحبة، كما جرت مذابح أخرى في صفوف الأتراك المنسحبين بفوضى وسرعة واضطراب، ودامت المعارك من ٢٨ — ٣٠ سبتمبر / أيلول / ١٩١٨، حيث دخلت قوات الجيش العربي ضواحي دمشق مساء ٣٠ سبتمبر / أيلول /، حيث دخلها البدو والدروز ليلاً ودخلها الشريف ناصر الساعة السادسة صباح ١ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٨. وكانت القوات البريطانية تدخل المدينة في نفس الوقت وكانت الجماهير تهتف بحماسة لا مزيد عليها ابتهاجاً بقدوم الجيش العربي والحلفاء، وكان جمال باشا الصغير قد غادر دمشق، وهو آخر حاكم تركي لها قبل ليلة واحدة (١٢٣).

(١٢٣) للاطلاع على حرب الجيش العربي ودخول دمشق انظر: مذكرات السعيد، ص ٥٦—٥٧، وانظر صبحي العمري، لورنس، ص ٢٢٦—٢٤١، وانظر مخطوط صبري البديوي، ج ٥، ص ٣٨، وانظر أمين سعيد، وكان يعمل في القيادة التركية في فلسطين، أسرار الثورة، ص ٢٦٠—٢٦٢، وانظر جمال باشا الصغير، كيف جلت، وانظر مذكرات مصطفى كمال باشا وانظر مذكرات فوزي القاوقجي، وانظر

كان احتلال دمشق فاصلاً في تاريخ المعركة بين الانكليز والعرب من جهة، والترك من جهة أخرى على أرض سورية، ولهذا تتابع جلاء الأتراك عن المدن الأخرى دون معارك كبيرة. وكانت الحرائق تتصاعد في كل مكان، لأن الترك والألمان كانوا يحرقون مالا يمكن نقله. وكان أشد انفجار وحريق هو انفجار مستودع الذخيرة في «القدم» في دمشق^(١٢٤). وتابعت فلول الأتراك انسحابها نحو الشمال من دمشق، أو من رهاق عن طريق السكة الحديدية والطرق البرية. وكانت الطائرات الانكليزية تلاحقها. وتعرض الجنود الترك والألمان لسلب أسلحتهم أو قتلهم على أيدي العصابات، وخاصة في منطقة سرغايا، كما لاقوا القتل في أثناء انسحابهم من منطقة حوران وهم في طريقهم إلى دمشق. ولقوا نفس المصير من السلب في دمر ودوما وغيرهما^(١٢٥). وعانى مصطفى كمال الفوضى والهزيمة في بقايا جيشه، حتى إن الفرقة العسكرية (3 Divisions) لم تكن تشكل إلا كتيبة واحدة (Bataillon). وكانت قوات الجيش العربي تلاحق الأتراك نحو الشمال، وخلفها كانت تسير على مسافة ٥ كيلو متر القوات الانكليزية. واحتل الجيش العربي حمص في ١٥ أكتوبر / تشرين الأول /، وانسحب منها مصطفى كمال حتى حماه حيث تخلى عنها أيضاً بعد معركة مع العرب والانكليز في ١٧ منه، وكانت عواطف أهل المدينة معه مما جعله يشكرهم في أثناء انسحابه، ويفتح مستودعات الجيش لأهلها^(١٢٦). وفي ١٩ أكتوبر / تشرين الأول / سقطت المعرة، وتابع مصطفى كمال حتى حلب حيث تسلم القيادة بعد أن تخلى عنها الجنرال الألماني ليمان فون ساندرز (Liman Von Sanders) إذ قدم استقالته وخرج من حلب مع الضباط الألمان الآخرين. حاول مصطفى كمال إنشاء خط دفاعي جديد

→ لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، وانظر الكولونيل بريغون، الحجاز في الحرب العالمية، ومذكرات أحمد جمال باشا... وآخرون.

وانظر في الملحق تقريراً لوزارة الحرب البريطانية عن أهمية سورية الاستراتيجية.

(١٢٤) أمين سعيد، أسرار الثورة، ص ٢٦٥، والبيدي، مخطوط، ج ٦، ص ٣٥.

(١٢٥) مذكرات القاوقجي (Kawakji) ص ٥٥، والريس (Rais) الكتاب الذهبي، ص ٩٦.

(١٢٦) الرئيس، الكتاب الذهبي، ص ٩٧.

جنوب حلب، حشد فيه كل ما وصل إليها من الجنود الأتراك الفارين ووزع عليهم كل الذهب الذي كانت الحكومة التركية قد أرسلته للعشائر العربية كما وزع بعض المال على الأهالي والبدو الذين ظلوا محايدين. لكنه اضطر للانسحاب. وحدثت الفوضى والسلب والتخريب في حلب، كما حدث قتال في الشوارع حيث اضطر مصطفى كمال إلى التخلي عن حلب وغادرها في ٢٦ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٨^(١٢٧). وفي شمال حلب هاجمت القوات الانكليزية مصطفى كمال فدافع ببسالة، وكبدها خسائر فادحة، ثم عقدت الهدنة في ٣٠ منه حيث أتم الأتراك انسحابهم نهائياً من سورية في ١٢ نوفمبر / تشرين الثاني / ١٩١٨^(١٢٨). وهكذا غادر الأتراك سورية من المكان نفسه الذي دخل منه السلطان سليم منذ أربعة قرون. وقام بعض رجال الحركة الوطنية بطرد الأتراك من المناطق الشمالية الأخرى، لكنهم عاملوهم باحترام لا كما حدث لهم أمام الانكليز. ومنع ابراهيم هنانو تمزيق العلم العثماني، لأنه كما قال «قد أظل العربية والاسلام لستة قرون»^(١٢٩). كما احتل الانكليز منطقة دير الزور في الشرق من سورية.

أما لبنان فقد احتلته القوات الانكليزية، ثم سلمته للقوات الفرنسية القليلة العدد، وطردت القوات العربية القادمة من دمشق من بيروت تنفيذاً لاتفاقية سايكس-بيكو Sykes-Picot التي تنص على أن يكون لبنان من حصبة فرنسا. وكانت القوات الانكليزية ترافقها قوة فرنسية من مائة رجل، قد احتلت بيروت في ٩ - ١٠ أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٨، ثم وصلت قوات فرنسية أخرى مع قوات الأسطول الفرنسي وأتمت احتلال لبنان حتى ٧ ديسمبر / كانون الأول / ١٩١٨^(١٣٠).

(١٢٧) جمال باشا الصغير، كيف جلت، ص ١٤٩.

(١٢٨) مذكرات مصطفى كمال، ص ٧٦، وانظر مصطفى الزين، أتانورك أمة في رجل، بيروت، ١٩٧٢، ص ١٧٤.

(١٢٩) عبد الكريم غرايه، الثورة العربية الكبرى والعالم العربي، من كتاب (دراسات في الثورة العربية الكبرى)

عمان ١٩٦٧، ص ٩٩، و D.F.G.7N / 1658/

(١٣٠) D.F.G. 7N / 1639/ No 7933, 9/11 et 9117, 9/11.

في الثالث من أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٨ ، دخل الأمير فيصل ركباً جواداً أبيض تحف به كوكبة من ١٥٠٠ فارس ، وسط تهليل الجماهير وتكبيرها التي ملأت الشوارع والساحات ، حاملة الأعلام والأزهار . وقد انتشرت السجائيد على شرفات المنازل ، وأطلقت من النوافذ آلاف الرؤوس ، ترش الموكب بالعطور ، وبلغت الحماسة الوطنية ذروتها ، وشهدت دمشق يوماً رائعاً لم تعرفه منذ زمن طويل . وكانت دمشق غاية مطامح الوطنيين العرب ، وفيصل ، وأبيه الحسين ، في إنشاء امبراطورية عربية تعيد إلى العرب أمجادهم القديمة وتقيم مدينة وحضارة من جديد (١٣١) .

غير أن الجنرال اللنبي (Allenby) الذي وصل في نفس اليوم إلى دمشق كان قد اتخذ قراره لوضع السياسة البريطانية موضع التنفيذ ، غير عاين بكل الاحتفالات التي كانت تجري في المدينة فرحاً بالاستقلال العربي ، وبذلك لم يطل الحلم الجميل في رأس فيصل ، ولا في رؤوس رجال الحركة العربية فماذا حدث !

اجتمع اللنبي بفيصل في فندق فكتوريا في دمشق في ٣ أكتوبر / تشرين الأول / ، وأبلغه بسياسة بريطانيا تجاه المنطقة العربية ، التي تعتبر العرب حلفاء شاركوا ضد العدو (تركيا) في حرب فلسطين ، وأنه يعين فيصلاً « باعتبار فيصل أحد قواد الحلفاء التابعين للنبى » رئيساً لإدارة عربية مؤقتة فوق أرض سورية الداخلية (شرقي الأردن والمدن الأربع دمشق ، حمص ، حماه ، حلب والمنطقة الداخلية شرقها) . وعين ضابطي ارتباط انكليزي وفرنسي بين اللنبي وفيصل . أما فلسطين فقد حكمتها الإدارة البريطانية مباشرة لتطبيق وعد بلفور بإنشاء الوطن القومي اليهودي عليها . ولبنان كان تقرر أن تديره فرنسا (١٣٢) .

ظل الأمر على هذا الحال ٢٢ شهراً من أكتوبر / تشرين الأول / ١٩١٨ حتى يوليو / تموز / ١٩٢٠ ، بالنسبة للمنطقة الادارية التي يحكمها فيصل (سورية)

(١٣١) البديري ، مخطوط ، ج ٢ ، ص ٤٠ ، وصحى العمري ، ص ٢٢٧ ، ولورنس ، ثورة في الصحراء ، ص ٤٧٨ .

(١٣٢) F.O. 371 / 3383/ 5 Oct 1918, P. 556.

الفيصلية) أو المنطقة المحتلة الشرقية، كانت فيها عرضة لصراع بين الحركة العربية وفيصل من جهة، وبين تصميم فرنسا لاحتلالها من جهة أخرى، وبين بريطانيا التي تلف وتدور لتوفق بين الطرفين (فرنسا والحركة العربية). ولما وصلت الأمور إلى جدار مسدود بين فرنسا وبريطانيا، تنازلت فرنسا في سبتمبر / أيلول / ١٩١٩، لبريطانيا عن منطقة الموصل (في العراق) الغنية بالترول، وكانت تابعة لسورية حسب اتفاقية سايكس-بيكو، وعندها تخلت بريطانيا عن فيصل وتقدمت الجيوش الفرنسية فاحتلت سورية الفيصلية في ٢٤ يوليو / تموز / ١٩٢٠، وأصبحت مع لبنان تحت الانتداب الفرنسي الذي دام ربع قرن، إذ استقلت سورية عام ١٩٤٦، جرت خلالها حروب كثيرة وثورات ومآسي وقصف مدن وخسائر كبيرة. وبعدها ظلت سورية فيصل مع بعض التعديل هي التي تشكل الجمهورية العربية السورية الحالية وكان ذلك ثمرة مباشرة لتاريخ العشر سنوات الأخيرة من حكم الاتحاديين الأتراك لسورية. بل للدولة العثمانية، وكان يمكن لهذا التاريخ أن يتغير وألا يحدث على صورته التي ذكرنا، لو طال عمر الرجل المريض (الدولة العثمانية)، ولم يجبر لها الاتحاديون عملية جراحية مميتة أو غير ناجحة على الأقل.

الفاتحة

عاش العرب أربعمئة سنة تحت حكم العثمانيين ، وظلوا خلالها عرباً يتكلمون اللغة العربية ويشعرون بوجودهم وعلى أرضهم ، مكتفين أو قانعين في تلك الأيام بأن الدولة التي تحكمهم هي دولة الاسلام أو الخلافة الاسلامية . ولم يكن مطروحاً في تلك الأيام العنصر القومي ، لا التركي ولا العربي ، ولم يشعر العرب — ما عدا بعض الحالات — أن الدولة العثمانية خصم لهم ولعروبتهم ، أو أنها دولة استعمارية برغم مساوئ الحكم العثماني ، وكانوا يعيشون موحدين في دولة واحدة ، ولهذا لم يعرفوا الحدود القطرية بكل معنى الكلمة ، وهي التي أخذت تظهر على الخارطة العربية مع قدوم الاستعمار الأوروبي في القرنين التاسع عشر والعشرين . وليس من العدل أن نعمم حكم الاتحاديين بكل صفاته الذي دام عشر سنوات على كل القرون الأربعة الماضية .

والدليل على النوايا الطيبة للعرب تجاه الدولة العثمانية ، خلال مرحلة مرضها وحكمها السيئ وتعرضها للنقد الشديد ، أنهم لم يكونوا البادئين في العداء . وإنما جاءت التيارات المعادية من الغرب ضد الدولة العثمانية ، وقد حملت هذه التيارات رياح القومية إلى كل الشعوب في المنطقة ومنها العرب والترك . وكانت فئة من المفكرين العرب المسيحيين أول من تلقاها ، فأنشأوا الجمعيات التي تعمل على إحياء التاريخ العربي واللغة العربية . لكن ظهرت إلى جانبهم أيضاً جماعة من المفكرين والعاملين بالسياسة ، وكان معظمهم أيضاً من المسيحيين ، عملت منذ البداية لاستقلال سورية أو إعطائها حكماً لامركزياً ، وكان بعض هذه الجماعة من أصدقاء فرنسا يطلبون مساعدتها

لتحقيق هذا الاستقلال وحمايته . وكان من المنطقي أن تسعى هذه الفئة — إذا أردنا تبير محاولتها الانفصال عن الدولة العثمانية — إلى غايتها لأنها في فترة هبوب رياح القومية وجدت نفسها لا يربطها مع العثمانيين لا رباط القومية ولا رباط الدين . وهذا ما يفسر عدم وجود تيارات أخرى مشابهة في الأقطار العربية الأخرى ، كتيار حجازي أو عراقي أو فلسطيني أو نجدية ...

لكن كان من العسير أو المستحيل أن يتحقق هذا الاتجاه العربي أو السوري ، لو بقيت الجماعة السياسية المسيحية تعمل وحدها ، وكان من المنطقي ومن الحكمة بالنسبة لها أن يشارك العرب المسلمون فيه ، حتى لا تظل هذه الحركة توصف بأنها طائفية ، أو ضعيفة لا تقدر وحدها على الدولة العثمانية . وفعلاً شاركت جماعة السياسيين العرب من المسلمين ، لأنهم تأثروا بدورهم في الاتجاه القومي العربي ، لكنهم أدخلوا تعديلاً جوهرياً على تلك الحركة السياسية ، وهو الاكتفاء بالمطالبة بالاصلاح واللامركزية ، والبقاء تحت حكم الدولة العثمانية بدلاً من الانفصال أو الاستقلال ، وكان الاسلام هو الرابط الذي جعلهم يتمسكون بالعثمانيين خوفاً من التدخل الأجنبي الاستعماري في بلادهم . وتسلموا قيادة العمل السياسي . ونشأت بفضل هذا التعاون بين الطرفين المنظمات والجمعيات السياسية والاجتماعية والعلمية ، الاسلامية — المسيحية ، أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

إلى هنا لم يقف العرب المسلمون موقفاً معادياً من الدولة العثمانية ، وظل التيار الاسلامي رابطاً لهم مع العثمانيين ، لكن الذي طعن هذه العلاقة ثم قطعها هم القوميون الترك أنفسهم ، وأعني جمعية الاتحاد والترقي ، التي كانت تعتقد أن تخلف الدولة العثمانية ، إنما كان بسبب رجعيتهما وتمسكها بالقوانين البالية ، والحكم الدكتاتوري للسلطين ، والتعلق بقوانين الشريعة الاسلامية ، التي رأوا أنها لم تعد ملائمة للعصر المتقدم المتطور . وانصب اهتمام الاتحاديين بعد تخلصهم من السلطان عبد الحميد الثاني ، على التخلص ممن كانوا يظنونهم وراءه ، وشركاءه ، وهم العرب الذين قربهم عبد الحميد . وبذلك خلق الاتحاديون هذين السبيين لاعلان العداء ضد العرب . ثم أتى

السبب الحاسم لتفجير العلاقة بين العرب والترك، وهو تبنيهم سياسة القومية التركية الطورانية، ومحاربة الاسلام واللغة العربية، ومحاولة تترك العرب، وجعلهم ينسون أنهم عرب ليكونوا أتراكاً. وكانوا بذلك يقصدون أن يوحدوا الامبراطورية العثمانية، بهدف قومي واحد وهو القومية التركية واللغة التركية ولا شيء سواهما بدلاً من تفريقها في لغات وقوميات كثيرة. هنا فقط شعر العرب بمدى أهمية تمسكهم بالعروبة، وشعروا بخطورة تجريدهم منها، ولهذا وقفوا هذه المرة يدافعون بكل قوة عن كيانهم، وشكلوا المنظمات السرية التي وصلت إلى صفوف العسكريين العرب في الجيش العثماني، وهذا بحذ ذاته كان خطيراً جداً. وابتدأ النزاع والصراع بين القوميين العرب والقوميين الترك، وكان هذا الصراع بداية الانفصال النهائي الذي دفع به بكل قوة، جمال باشا حاكم سورية، حيث شنق نفراً من هؤلاء الزعماء من القوميين العرب، وفتح الطريق أمام العرب شرعياً للانفصال، بعد أن سقطت حجة كونهم عثمانيين، لأن القوميين الترك نبذوا هذه العثمانية وحاربوها، وسقطت شرعاً بعد تبني الترك سياسة تترك العرب، وسقطت شرعاً أيضاً، قصة خيانة العرب لدولتهم، لأنها لم تعد عثمانية ولا إسلامية. وإن هذا الذي حدث بين العرب والترك في هذه السنوات السبع الأخيرة (١٩٠٨—١٩١٨)، لا يمكن كما ذكرنا سابقاً أن يكون هو كل تاريخ العرب في الدولة العثمانية، لكنها كانت أخطر السنوات لأنها:

١— أتت في زمن مختلف عن الزمن الأول، ومتقدم في كل مجالات الحضارة، فليست عشر سنوات في القرن السادس عشر، تساوي مثلها في القرن العشرين.

٢— كان الترك القوميون حكام الدولة العثمانية في هذه السنوات، أسوأ طبيب يدوي الرجل المريض (الدولة العثمانية)، لدرجة أن قضى عليه. وهكذا لعب الترك أنفسهم الدور البارز في سقوط دولتهم، ولم يكن ذلك على أيدي العرب. فالاتحاديون هم المسؤولون في التاريخ عن ضياع امبراطوريتهم وليس العرب.

٣— كان الزابط الديني في هذا الزمن، قد أخذ يضعف حدة عن سابقه، بعد أن أثرت عليه وأضعفته الرياح القومية القادمة من أوروبا، حاملة أفكاراً جديدة عن مفهوم الامبراطورية العثمانية.

٤ — كان الصراع الأوروبي الاستعماري قد وصل إلى حده، في الاتفاق حول اقتسام الدولة العثمانية، وكان قد بدأ منذ أكثر من قرن.

٥ — وتفجرت في هذه الفترة أكبر حرب شهدتها العالم، وهي الحرب العالمية الأولى، وكانت مناسبة طيبة للمنتصرين لاقتسام الدولة العثمانية.

لم يكن دور العرب إيجابياً في هذا الصراع، سواءً ضد الترك، وكانوا مدافعين عن أنفسهم فيه، أو في صراع الدولة العثمانية مع الحلفاء، إذ كانوا أيضاً يدافعون عن سلامتهم، ولم تكن لهم غاية في إسقاط الدولة العثمانية ولا في تجزئتها. وإذا كان الاتحاديون هم الذين دفعوا بالعرب دفعاً إلى الانفصال عنهم، فقد كانت هناك في نفس الوقت أيد أخرى تمتد إليهم (للعرب)، وتشدهم في نفس الاتجاه الانفصالي، تلك هي أيدي الانكليز، ولم يكن العرب أحراراً في اختيار المصير، فقد كان عليهم إما أن يبقوا تحت حكم الاتحاديين وممثلهم جمال باشا في سورية، أو ينضموا إلى الحلفاء، بينما الحرب العالمية الأولى كانت تدور. وكان الزعماء العرب، يعلمون مدى خطورة يد الانكليز الممدودة إليهم، على آمالهم وأحلامهم، في بناء دولة عربية واحدة، تعيد مجد العرب القديم، بعد أن رفض الاتحاديون الحفاظ عليها وحمايتها. وبالرغم من ذلك، تم اللقاء بين العرب والانكليز، وكانت مجازفة خطيرة للعرب، الذين أدركوا عند النهاية مدى خطورة ما فعلوه. أصبح العرب حلفاء وأصدقاء للانكليز والفرنسيين، وأعداء للحكومة التركية. وقدموا في سبيل حلمهم المنشود أنفسهم وجهدهم، يحثون الخطأ سريعاً في الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل، حتى يستقر بهم المقام أخيراً في دمشق عاصمة المجد العربي القديم.

من المعروف أنه خلال هذه المدة جرت أمور خطيرة على أيدي الحليفتين انكلترا وفرنسا ضد العرب، وهي الاتفاقات السرية التي جرت بعد توقيع حلف الصداقة بين بريطانيا والعرب، (مكماهون والحسين). تلك الاتفاقات التي تتلخص باتفاقية سايكس — بيكو وبوعد بلفور. وهي أمور أصبحت معروفة ومدروسة، وهي في الحقيقة تفقد مبرر عقدها، لأنها جرت بين حليفتين ضد حليف ثالث بالسر.

لكن الأمر الأخطر برأينا من هذه الاتفاقات ، هو عبث هذه القوات الحليفة بالحركة القومية العربية ، وحرفها عن اتجاهها الحقيقي ، أي القومي العربي الإيجابي الساعي لتأسيس دولة عربية واحدة ، في الوقت الذي كانت تغذي فيه وتدعم الاتجاه السلبي الذي لن يشكل خطورة عليهم في المستقبل ، ألا وهو الاتجاه المعادي للترك الذي يفيدهم كثيراً في الحصول على النصر العسكري . كانت فرنسا منذ البداية تمد هذا الاتجاه بقوة ، وكذلك كانت تمد الاتجاه السوري الانفصالي الذي لعب دوراً هاماً في فصل سورية عن البلاد العربية . وتينت فرنسا ، وهي صاحبة الاتجاه القومي الفرنسي الثوري ، سياسة طائفية في سورية لخدمة أغراضها ولاحتلال سورية ، ولاشك أن هناك تناقضاً كبيراً بين القومية والطائفية ، لكن فرنسا شاءت أن تجعل العرب هم الذين يدوقون مرارة هذا التناقض ، لأنهم ضعفاء ، بدلاً منها لأنها قوية وقادرة على التغلب على مثل هذه الصعاب .

أما انكلترا فقد كان دورها وعبثها بالتيار القومي العربي أوسع وأشمل في خطورتها من التدخل الفرنسي ، وإن كان أقل حدة ، لأنها لم تتبنَّ الاتجاه الطائفي ، لكنه كان أشد خطراً لامتداده في المستقبل ، خاصة وأن التيار العربي يشمل كل البلاد العربية بينما كان التيار السوري محصوراً في سورية ولبنان . وأتى دور انكلترا متأخراً في الزمن عن دور فرنسا ، لأنها بدأت بشكل جدي وفعال باتصالها بالحسين ، وعقدت معه حلفاً مخادعاً غير متكافئ ، وهي تعلم أن الحسين كان ينطق باسم القوميين العرب في سورية ، وبذلك حرقت الاتجاه القومي العربي عن وحدانيته عندما جعلت الحسين يقبل بقيام أجزاء عربية متناثرة ، بدلاً من دولة عربية واحدة . ثم هي اتصلت بالضباط العرب القوميين ووعدهم بالعون إن ثاروا ضد الترك ، وخلفت بوعدها ، وتركت بعض هؤلاء يلقون الموت على مشائق جمال باشا ، ثم أخذت تعبث برجال الحركة العربية المقيمين في مصر وجلهم من السوريين ، وتستخدمهم لأغراضها الدعائية والعسكرية ، وتعلن لهم التصاريح الخادعة الكاذبة ، وأجهضت التيار القومي العربي الإيجابي ، ولوثته أمام الشعب العربي ، وجعلته يفقد ثقة هذا الشعب الذي علم أخيراً ، أن بريطانيا حليفة

هؤلاء هي شريكة في اتفاقية سايكس-بيكو، وصاحبة وعد بلفور الذي يعطي فلسطين لليهود. واستطاعت بريطانيا أن تجعل هذا الاتجاه إقليمياً بعد أن مزقت البلاد العربية، فأصبح هناك اتجاه عربي في سورية وآخر في العراق، وآخر في مصر، وآخر في الجزيرة العربية. وكل واحد مختلف ومنشغل في قطره، وبذلك بددت الاتجاه القومي العربي الوحدوي، الذي لو استمر لشكل خطراً عليها. واستطاعت بريطانيا أن تجعل هذا الاتجاه الممزق يصبح تاريخاً، فلا يكاد يتم لقاء قطرين على هدف وحدوي.

وبينا كانت فرنسا وبريطانيا تعيثان بالاتجاه العربي الوطني في سورية والبلاد العربية الأخرى، كان جمال باشا يضرب ضرباته الأخيرة في سورية بتمديد العون للمجاعة والوباء والفقر والظلم والقتل، وحتى التآمر مع فرنسا وبريطانيا وروسيا، لفصل سورية والبلاد العربية عن الدولة العثمانية، ليكون حاكمها الأيدي. وكان هؤلاء الأطراف جميعاً يعملون على إضعاف هؤلاء العرب الثائرين، حتى إذا ما حان وقت اقتسام الغنيمة لا يكونون قادرين على أخذ حصتهم المشروعة، ولا حتى الدفاع عنها. وهذا ما حدث عند النصر على الأتراك، عندما أبلغ النبي بكل عين مفتوحة فيصلاً عن خطة الحليفتين بريطانيا وفرنسا، باقتسام أرض العرب، فما كان ليفصل الضعيف إلا أن يذعن راغماً.

إن الشيء الذي حصل عليه العرب بفضل سياسة القوميين العرب المتحالفة مع بريطانيا وفرنسا كان صغيراً، لا دولة عربية واحدة، لا استقلال، لا حرية، لا عودة للمجد القديم، لا بل دول خضعت لاستعمار أجنبي في بادئ الأمر، ثم استقلال لهذه الأقطار المجزأة بعد كفاح طويل.

كانت نتيجة صراع العرب مع الترك — والعرب حلفاء لبريطانيا وفرنسا والترك أعداء لهما — مفاجئة لا تخطر على بال أبرع الشياطين، إذ قرر الحلفاء وبريطانيا بشكل خاص مايلي:

١ — العرب حلفاء.

٢ — أرض العرب (الحررة نتيجة الحرب من الترك) مازالت أرضاً محتلة للعدو (الترك) لا يجوز للعرب (الحلفاء) أن يقيموا عليها دولة عربية محررة.

كان هذا الأمر يناقض أمرين أساسيين ، أولهما أن العرب قاموا بثورتهم للتخلص من الترك ، فكيف تظل أرضهم تابعة لعدو لم يعد موجوداً على أرضهم المحررة ؟ وكيف يعمل الانكليز على إغراء العرب بالثورة والانفصال عن الترك ، ويعطونهم العهود والمواثيق بالاستقلال في أثناء الحرب ، ويرفضون انفصالهم عن الدولة العثمانية بعد نهاية الحرب وبعد الخلاص منها ؟ ولماذا لا يمكن اعتبار أرض العرب أرضاً صديقة لشعب حليف للانكليز والفرنسيين ، وهم (العرب) على أرضهم وفي بلادهم ؟

كانت حجة الحلفاء أن ذلك مؤجل حتى يقرر مؤتمر الصلح في باريس مصير البلاد التابعة للدولة العثمانية ، لكن هذه الحجة سرعان ما سقطت ، لأنه عندما قرر مؤتمر الصلح نزع الأراضي العربية من الدولة العثمانية ، لم يسمحوا للعرب بإقامة دولتهم العربية المستقلة بحجة مفاجئة أيضاً ، وخالية من الحقيقة والوفاء ، وهي أن العرب غير أهل لأن يحكموا أنفسهم بسبب تخلفهم . ولذلك يجب أن تحكم بلادهم بريطانيا وفرنسا مدة تحت اسم جديد للاستعمار ، هو الانتداب حتى تعلماهم كيف يحكمون أنفسهم ، ومع الأسف كانت طلقات المدافع والقنابل والطائرات ضد العرب في سورية والعراق وفلسطين ، هي أول كلمات في كتب التعليم التي قدمها الانكليز والفرنسيون للعرب حتى يتعلموا حكم أنفسهم .

والنتيجة المفاجئة الثالثة لهذا الصراع العربي — التركي — هو تقسيم البلاد العربية إلى أجزاء ، ثم تقسيم الجزء الواحد منها وهي سورية إلى أربعة أجزاء . والخطورة في هذه التجزئة أن الحلفاء ضيعوا الفرصة على العرب لتشكيل دولة عربية واحدة ، لأن هذه الفرصة كانت مواتية وموجودة ، لأن العرب كانوا في تلك الفترة موحدين في دولة واحدة داخل أقطارهم العربية في آسيا في ظل الدولة العثمانية . لكن عندما ضاعت هذه الفرصة ، وتفرقت الاتجاهات القومية داخل الأقطار المنفصلة ، وبعد عهد الوحدة تحت تأثير السياسات الاستعمارية المستمرة ، أصبحت الوحدة عسيرة التحقيق . وإذا كان العرب مسؤولين عنها بعد استقلالهم ، فإن الحلفاء هم المسؤولون عن ضياعها منذ البداية .

كان من المنطقي أن تحتل أرض العدو نفسها أي تركيا ، لكن معاهدة لوزان لسنة ١٩٢٣ ، مع الدولة التركية اعترفت باستقلال تركيا نفسها للأتراك أنفسهم . وكان من المنطقي أن تحترم أرض الحلفاء أي العرب ، لكن الأمور أتت معكوسة على أيدي الحليفتين فرنسا وبريطانيا ، فاحتلنا أرض العرب ، وكانت هذه أيضاً إحدى المفاجآت الغريبة .

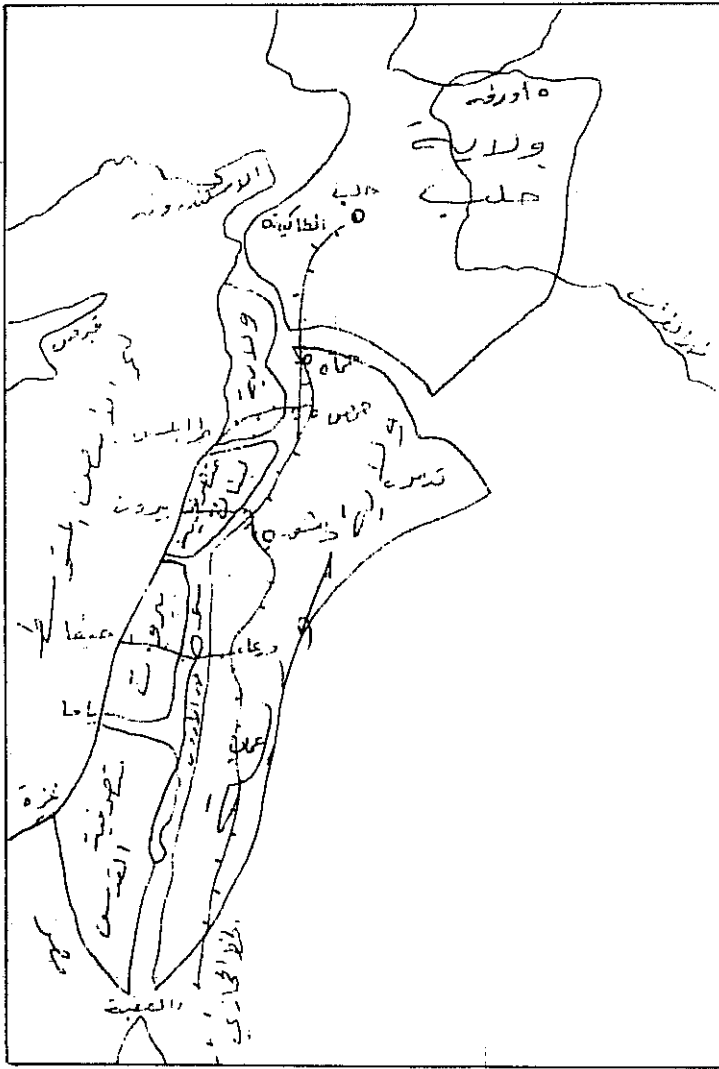
ثار العرب للتححرر من استبداد الاتحاديين ، وعندما انتصروا مع من انتصر ، فقدوا أرضهم واستقلالهم وحريتهم ، وفقدوا سمعتهم لدى الأتراك أنفسهم ، فيما يخص هذه المرحلة من التاريخ ، ولا عجب أن تكون تركيا هي الدولة الإسلامية التي تعترف بإسرائيل على أرض العرب ! — هل هو الانتقام ؟

لقد كان تاريخ السنوات التركية العشر ، نهاية سيئة لتاريخ القرون الأربعة ، للدولة العثمانية في البلاد العربية ، وكانت فاتحة عهد استعماري أوروبي لهذه البلاد ، لم تنته ذيوله حتى الآن ، فيالها من سنوات !

فهرس الخرائط

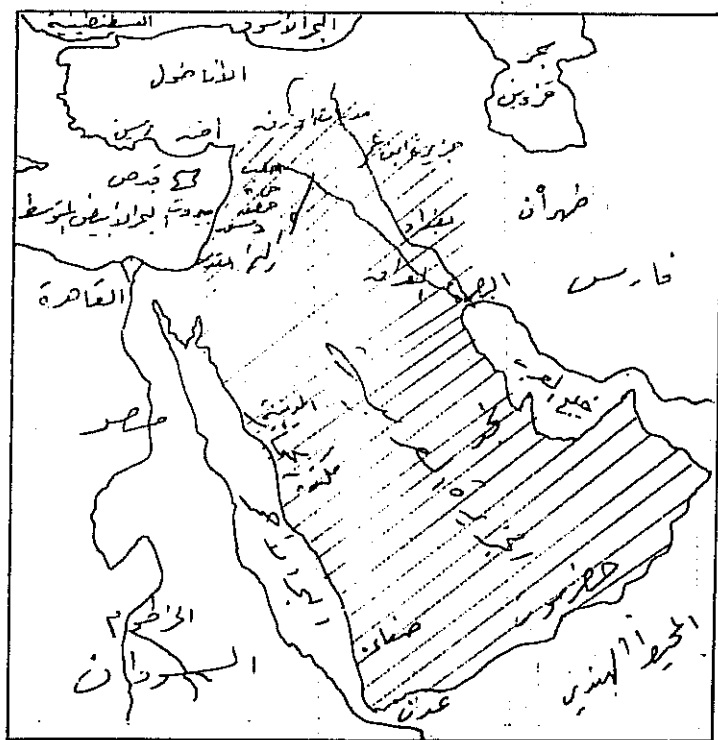
- ١ — خريطة تقسيمات سورية الإدارية في العهد العثماني الأخير .
- ٢ — خريطة القسم الشرقي في الوطن العربي التي طالب بها الحسين لتكوين الدولة العربية المستقلة .
- ٣ — خريطة سورية كما رسمتها فرنسا أثناء مناقشات اتفاقية سايكس — بيكو .
- ٤ — خريطة تقسيمات سورية حسب اتفاقية سايكس بيكو .
- ٥ — خريطة سورية في عهد فيصل بن الحسين ١٩١٨ — ١٩٢٠ .
- ٦ — خريطة مناطق الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان ، والبريطاني في العراق والأردن وفلسطين .

خريطة (١) التقسيمات الادارية لسورية في العهد العثماني المتأخر



أنطونيوس، ص ٢٧٢.

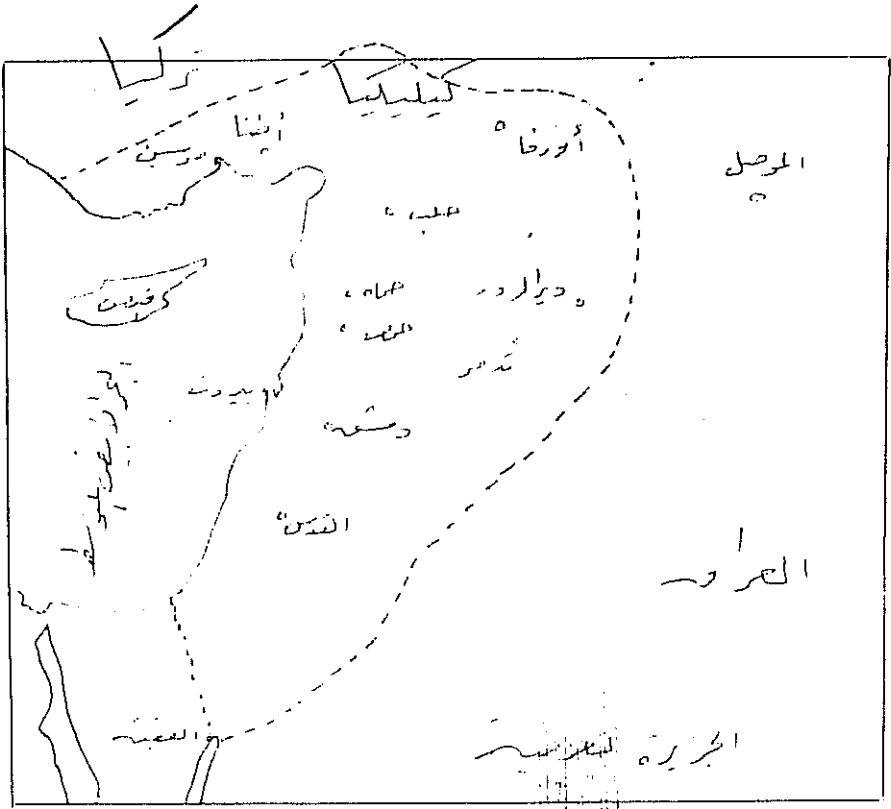
خريطة (٢) الدولة العربية التي طالب بها الحسين في مراسلاته مع مكماهون



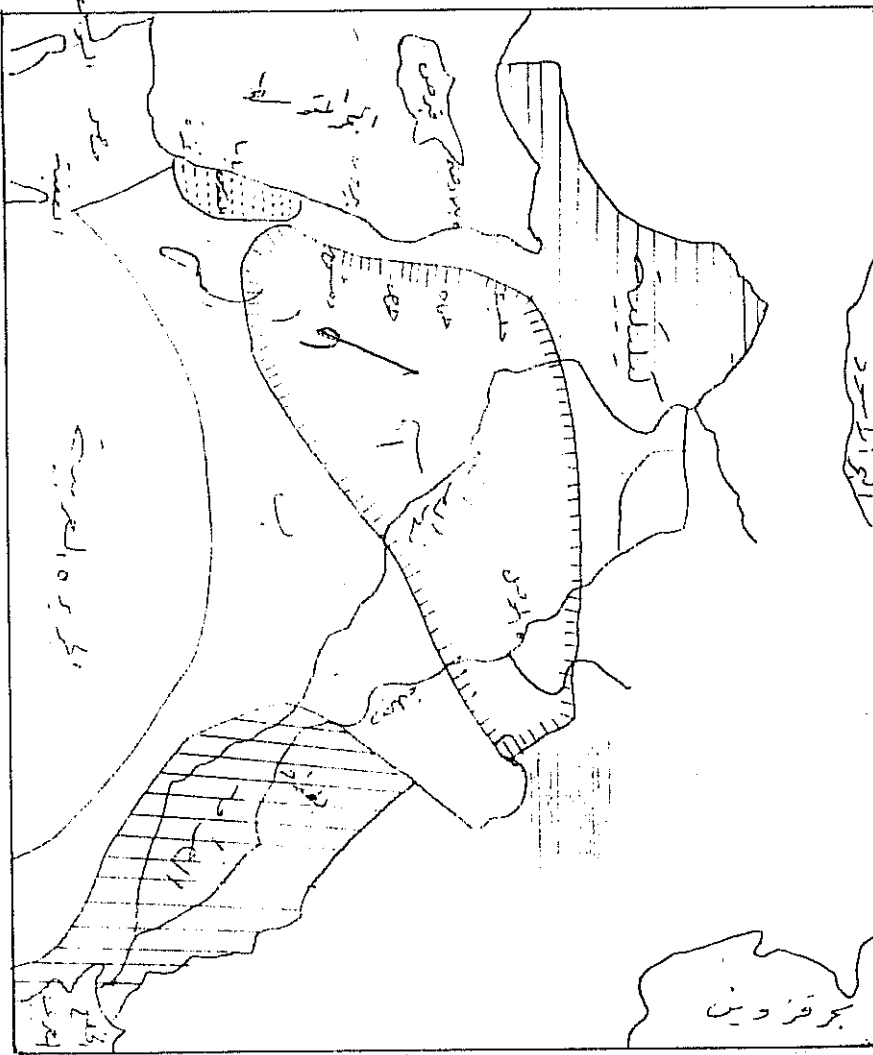
القسم الشرقي من الوطن العربي المنطقة المظللة تمثل الدولة العربية كما حددها الحسين في رسالته لمكماهون في ١٤ تموز / جويلية / ١٩١٥.

أنطونيوس، ص ٢٤٠.

خريطة (٣) خريطة سورية كما رسمتها فرنسا أثناء مفاوضات اتفاقية سايكس — بيكو والحدود الشمالية لهذه الخريطة تطابق ما جاء في رسالة الحسين إلى مكماهون في ٢٤ تموز ١٩١٥ عن هذه الحدود

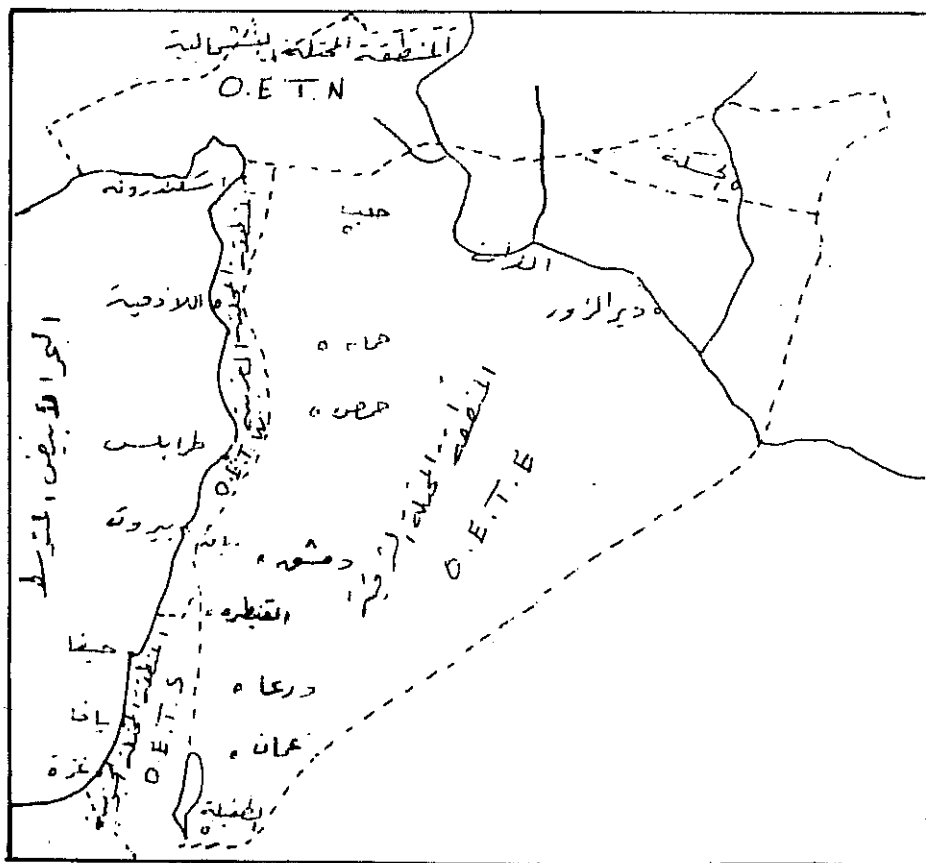


خريطة (٤) اتفاقية سايكس-بيكو ١٩١٦



أنطونيوس، ص ٣٥٢.

خريطة (٥) تقسيمات اللتي لسورية «سورية الفيصلية»
في تشرين الأول / أكتوبر / ١٩١٨



فهرس الملاحق

- ١ — رسالة رشيد مطران إلى السلطان العثماني عام ١٩٠٨ .
- ٢ — رسالة جمعية النهضة في البرازيل إلى إدوارد غراي وزير خارجية بريطانيا سنة ١٩١٤ .
- ٣ — رسالة السلطان عبد الحميد إلى أحد أصدقائه في دمشق سنة ١٣٢٩ هـ .
- ٤ — صورة إعلان بياني انتخابي لمسعود الكواكبي إلى مجلس المبعوثين في حلب .
- ٥ — صورة إغلاق والي بيروت لجمعية الاصلاح .
- ٦ — صورة تفويض لوفد بيروت .
- ٧ — صورة الاتفاق بين الدولة العثمانية ومؤتمر باريس .
- ٨ — صورة كتاب رشيد رضا .
- ٩ — صورة تقرير انكليزي عن محاولة انقلابيه للضباط السوريين .
- ١٠ — صورة لكتاب نسيب البكري وعليه توقيعه باسم فيصل أمير سورية .
- ١١ — صورة تقرير وزارة الحرب البريطانية عن أهمية سورية الاستراتيجية .

45494

DEC 30 1903

PROCLAMATION

SA MAJESTÉ IMPÉRIALE LE SULTAN

a octroyé une Constitution à l'Empire Ottoman.

Nous devons lui exprimer notre reconnaissance pour sa généreuse initiative, mais nous attendons aussi impatiemment la réalisation des bienfaits qui doivent en découler.

Toutes les provinces qui relèvent de cette Constitution doivent exprimer le même espoir.

Le passé glorieux de la Syrie, que la Providence a placée pour ainsi dire au carrefour du monde, nous impose cependant l'obligation sacrée de proclamer dès à présent que nous attendons du Parlement l'octroi d'un Self Government qui nous garantisse les moyens de relever notre pays.

Nous accepterons les lois générales qui doivent régir l'Empire Ottoman et nous nous soumettrons à leurs prescriptions sous la réserve explicite que des lois et des droits particuliers à voter en faveur de la Syrie ne s'en trouveront pas lésés.

Car ce n'est qu'alors que nous pourrons avoir la certitude que notre pays se régénérera et marchera vers ses hautes destinées.

Le Parlement ne saurait méconnaître le bien fondé de nos légitimes revendications qui sont indispensables à l'existence de la Syrie et conformes à l'intérêt bien entendu de l'Empire Ottoman.

LE COMITÉ CENTRAL POUR LA SYRIE

Président,

RACHID MOUTRAN

Paris, le 25 décembre 1908.

ملحق (١) رسالة رشيد مطران إلى السلطان العثماني في سنة ١٩٠٨.



Excellence

D'outre-mer, un très grand nombre de Libanais ont recouru à Votre haute bienveillance.

Ces Libanais, Excellence, se voient actuellement, plus que jamais, dans la plus pressante nécessité de vous prier de vouloir venir à leur secours, par suite des dernières nouvelles d'un grand danger menaçant l'indépendance de leur cher Mont-Liban.

C'est la Turquie, Excellence, qui prétend annuler et égarer de cette indépendance garantie et soutenue par les Grandes Puissances signataires du Protocole Libanais.

Après l'organisation de ce Protocole la Turquie fit tout pour abolir notre indépendance et notre liberté et ainsi l'insupportable pour atteindre ce but. Mais en tout temps, les Grandes Puissances s'opposèrent formellement à ce que la Turquie exécutât ses sinistres projets.

Mais il paraît que cet empire, vu la configuration européenne, prétend atteindre facilement ses fins, elle s'est mise de suite à faire ses folles ambitions, cherchant les meilleurs moyens pour abolir l'indépendance du Mont-Liban comme elle l'a fait pour les concessions étrangères.

Et pour cela elle s'est servi du sous-prétexte que qu'il paraît, que les Libanais étaient tout prêts à déserter leur indépendance.

• son Excellence

Edward Grey

ملحق (٢) رسالة جمعية النهضة اللبنانية في البرازيل إلى ادوارد غراي وزير خارجية بريطانيا في كانون الأول ١٩١٤.

leur liberté par tous les moyens possibles, au premier jour que les Turcs envahiraient le Mont-Liban.

Vous n'ignorez pourtant pas, Excellence, notre filialesse comparative à celui d'un état aussi ^à bis préféré que l'empire turc c'est pour ce qu'il nous appelle aux Puissances hautement humanitaires pour demander leur appui et les mettre au courant de nos intentions.

Le secours que vous voudriez bien nous prêter, sera, nous en sommes certains, un geste de pitié vers un peuple qui ne veut pas se soumettre à une Puissance l'abreuve d'injustice de cruautés et de persécution, car nous n'avons ni la même religion ni les mêmes principes que la Turquie.

Votre aversion naturelle contribuera également à ce qui vous nous veniez en aide, nous qui ne voulons pas être les vassaux de la ville Turque.

Nous n'avons qu'à nous rappeler votre conduite en 1860 quand vous vous êtes opposés hardiment contre le gouvernement turc, massacrant ses sujets chrétiens au Liban et en Syrie dans le but avéré de les exterminer mais qui ne s'est arrêté que devant votre fermeté, et qui dut signer notre protocole et quelques privilèges vrait rançon du sang de nos aïeux et de nos frères misérablement rependu.

Malgré ces privilèges et malgré que l'Europe soit au courant de tout ce qui se passe chez nous, nous n'avons cessé de souffrir de l'ambition et de l'injustice du gouvernement turc. Il nous a privé d'une très grande partie de notre territoire la plus fertile. Il s'est fermé devant nous le Liban diterrante, il s'est approprié de nos postes télégraphiques, et de nos douanes.

Notre anée est venue la dépendance directe de Constantinople qui a donné au gouverneur du Mont-Liban des prérogatives qui ont transformé nos conseillers représentants en instruments dans ses mains; seul arbitre, il distribue les fonctions publiques à sa guise.

Pendant ce temps, nous nous souffrions ridicules, attendant une occasion favorable pour nous adresser à votre puissante nation afin de mettre fin à ces abus.

A son Excellence

Edward Grey

تا ملحق ۲



Nous nous voyons actuellement en face du danger; nous sommes prêts à nous servir de nos armes pour défendre notre propre existence, si la Turquie s'entête à continuer à nous traiter si injustement et à méconnaître notre indépendance, indépendance que nous avons toujours eue et que nous prétendons garder.

Confiants en votre intervention pour une cause si juste et si humanitaire, cause que vous avez toujours embrassée, nous nous retirons.

VIVE L'ARABISTE

VIVENT LES ALIÉS

VIVE LE LIBAN

A son Excellence

MONSIEUR EDWARD GREY



Correspondant
Journal Libanais
S. Paul, 11 Décembre 1918

تا ملحق ۲

ملحق (٣) صورة وثيقة بخط السلطان عبد الحميد نشرها سعيد الأفغاني في مجلة العربي عدد ١٦٩ ، كانون الأول / ديسمبر / ١٩٧٢ ص ١٥٠ .

[illegible][illegible]

وهذه ترجمتها الواردة في نفس العدد من المجلة المذكورة:

یا هو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العلمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين.

أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة، إل شيخ أهل عصره، الشيخ محمود أفندي أبي الشامات، وأقبل يديه المباركين راجياً دعواته الصالحة. بعد تقديم احترامي أعرض أنني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مايس من السنة الحالية، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدي، انني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً نهاراً.
وأعرض أنني مازلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول
السليمة المسألة المهمة الآتية في ذمة التاريخ: انني لم أتخل عن الخلافة الاسلامية
لسبب ما، سوى أنني — بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم
(جون تورك) وتهديدهم — اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة. إن هؤلاء الاتحاديين
قد أصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين)
ورغم اصرارهم فلم أقبل هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً بهذا الجواب القطعي الآتي:
«إنكم لو دفعتم لي ملء الدنيا ذهباً — فضلاً عن (١٥٠) مليون ليرة انكليزية ذهباً
فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي أيضاً. وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي
وأبلغوني أنهم سيعدوني إلى (سلانيك)، فقبلت بهذا التكليف الأخير. هذا وحمدت
العلي أنني لم أقبل بأن أُلطخ الدولة العثمانية والعلم الاسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ
عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين وقد كان بعد ذلك ما
كان. ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا
الموضوع الهام وبه أنتم رسالتي هذه ٢٢ أيلول ١٣٢٩.

ملحق

والله اعلم

بحسب قرب انتهاء الانتخابات لمجلس المبعوثين خطر للعاجز مني رأيته
 اذ ترونه الاخوان وهو ان الوكيل في دعوى من الدعاوى اذا كان حكيما
 مدققا يستفهم من موكله عن كافة تفاصيل دعواه وعن مناسباته مع
 خصمه والشهود وعن المواد التي يمكن بها الاثبات وعن كل ما يتصور
 ان الخصم يدافع به ثم يرتب كيفية سيره في الدعوى على بصيرة تامة
 وكذلك الطبيب الخبير يستفهم من المريض عن جميع احواله الصحية منذ
 ولادته حتى انه ربما يسأل عن صحة ابائه واقاربيه لاجل تعيين مرضه ثم بعد
 ذلك يرتب كيفية المعالجة ومن العلوم ان الانسان لا يمكنه
 ان يحيط علما بجميع امور بلاده بل الخبير من الناس يعلم اكثر الامور اجلا
 واما معرفتها تفصيلا فكل شأن من الشؤون يعرفه امرأته اكثر من غيرها
 فلذلك يجب على المبعوثين الذين سيتم ان شاء الله انتخابهم قريبا ان يتمسكوا
 بمعلوماتهم بشؤون بلادهم على وجه التفصيل ليكونوا على معرفة تامة
 وبصيرة عند مداكرات المجلس فيما يتعلق بهذه الشؤون
 وحجتى انه لا يمكن للمبعوثين ان يطوفوا على كل من سكان الوطن
 لجمع هذه المعلومات فطريقة ذلك حسبما ارى ان كل من كان له من هذا
 الاستقامة نافعة يحرصها في لا شيء من الاثر ثم يعطى كل مبعوث نسخة
 او يعطى احدثهم واحدة ويضمهم اليافين عنها
 فاذا تقدم الواحد من كل صنف من الناس عن منافع صنفهم فالمبعوثون
 يدرسون هذه الاسرار في تفصيل العلوم ووسائل اصلاحها والمنازع يدكر
 والزيادة الاصلاح اقوال مثاذا المناسبات الى العلم من سبب
 الخلل الموجود في تفصيل العلوم ووسائل اصلاحها والمنازع يدكر
 المناسبات الموجودة في امراض الزراعة ووسائل اصلاحها والمنازع يدكر
 يبين ما يحصل له من المضار وكيف يبرئها ان لها ووكيل الدعاوى
 يبحث عن عوائق استحصان الحقوق ومطالبة المالك في اصلاحها والمواد
 كل من له معرفة مبنية على الممارسة في شأن يدكر الخلل الحاصل به
 ورأيه في اصلاحه فتتبع بذلك معلومات المبعوث لان وقوع

الانتخاب على المبعوثين لإيداع على انهم اعلم الناس بل لا بد ان يكون
بين من ليس لهم امكان للذهاب والقيام في المهمة من هو اصالح
واعلم منهم وفوق كل ذي علم عليهم

وهنا لابد من تنبيه الذين ينتخبون المبعوثين الى شيء من جملة
الامر الذي صار في عهدتهم فاقول ان كل واحد منهم اصبح نائباً عن
الفن من الناس لانه منتخب من طرف خمس مائة وكل واحد من خمس
المئة قائم مقام ثلاثة ايضاً وهم صغار وانا نشه الذين لم يقيدوا في
دفتر الانتخاب فالتحبون من نفس جلب مثله عدد هم يقرب من خمسين
وهم قائمون مقام مائة الف

فليجعل كل واحد من المنتخبين نصب عينيه الفين من الناس يقولون
له قد سلمناك انفسنا اعتماداً على دينك ووجدانك وخيرتنا
وتدقيقتك فاحترسنا وكلاء صالحين لتولى جميع امورنا والحكم علينا
حكماً مطلقاً لا يرد فان بين شفتهم ارواحنا واعراضنا واموالنا
وشغلنا في صنعتنا واقامتنا في بلوتنا وظلمنا وانصافنا وعلمنا
وجملنا وحرماننا ومسلمتنا وكل لشؤوننا فاذا كانوا صالحين وضعوا
من القوانين والنظامات بما فيه صلاح امورنا واذا كانوا فاسدين
فان الفاسد لا ياتي الا بالفساد

فيفترض والحالة هذه على المنتخبين ان يبالغوا في البحث والتدقيق
عن كل من المبعوثين الذين ينتخبونهم ودرهم سوابق احواله
ويراقبوا الرقيب المهيمن عز شأنه بهذا الامر المهم ويختاروا
الاصالح ولو كان عدوهم فان العدو العاقل خير من الصديق
الجاهل. وليس لاحد هم عذر في مخالفته للحق والوجدان لان
الانتخاب سيكون خيراً مكتوماً واذا لم عليه احد بانتخاب من هو
غير صالح فيمكن ان يظهر له الموافقة وعند كتابته ورقة الانتخاب
لا يكتب الا من اطمان فوجد ان اليه ولا احسن في هذا الباب
من اختلاف الوعد للمصلحة العامة ثم لا يطاع على ضميره
الاعذار الغيوب وهو يتولى الصالحين

مسعود
الكواكبي

تكون باسمه صاحب اليد

عدد القنى العرسى وفواآء .

السنن الجريدة ب ٨ : عزم سنة

ادارة الجريدة: - في طبعة القيد - ٤

المدير المـرزول : ذوآء حنـس

الإعلانات

تفاوض الادارة بشأنها

بِأَمْرٍ مِنْ رَبِّكَ كُلُّ يَوْمٍ مِمَّا تَعْتَبِرُ

إذ أتيه الاشتراكات في بيروت أربعة وباللات
في البريات ليرة عثمانية - خارج الوطن ليرة انكليزية

المفيد

الموافق ٢٧ آذار سنة ١٩٦٩ -

باني سجادى الاولى سنة ١٢٣١

۹ نیلے:

الغاء الجمعية الاصلاحية البيروتية

واقفال النادي الاصلاحى

بلاغ ۲۵-۴۵

بما ان الجمعية التي تشكلت منذ شهرين ونصف من بعض الثورات سبقت بيروت باسم الجمعية السورية الاسلامية والتي اتفق ان اعطي لها علم وخبر من مقام الولاية قد كانت تشكلها نماذجاً اساساً للتنوع العرقي التي نص عليها قانون الجمعيات فضلاً عن ان بعض الطلاب التي اخذ هؤلاء بطايرت بها باسم الاصلاحات هي منافية ايضاً لأحكام المذنب الاساسي وبناء عليه فقد صار من العائلي منع درام واجتماع هذه الجمعية

هذا وقد شرع بتطبيق قانون ادارة الولايات الذي نظمت الحكومة النية وفقاً لافادة توبسم
المأذونة وتزريق الوظائف التي نصت عليها المادة المائة والثامنة من القانون الاساسي ومدت
ارادة الحكومة العلية الساطنية بعراة امكانهم بقاء جامعا للمساعدات الراسدة التي تنطابها الاصلاحات
المطلوبة ليبروت ولسائر الولايات النائية ومنطقة الامكام المحصورة التي زودت الاحتياجات المحصورة
اكمل ولاية

على انه من الثابت تماماً بنظر مثل هذا القانون المخصص المتكفل بمحصل الامتيازات التي تود الحكومة السنية انقاذها بصورة جدية - انه اذا وجدت بعض الدوائع عند تطبيق احكامه الزراعية فلا شك ان الحكومة السنية ثم هذا التمسك بالاشراك مع مجلس البعوثين الذي سينتج قريباً ان شاء الله تعالى لحياته عليه نفاق انه قد من بموجب القانون اجتماع الجمعية المذكورة التي ليس لها ذاتاً كيانها القانوني ولم يبق على حاجة لدوامها بعد الآن واذا تصدى القانون بما للاجتماع خلافاً لما يقرر تضطر الحكومة لاجراء ما يقتضيه القانون بجمع من المصالحات

سنة ٢٦ مارت سنة ١٢٢٩

والی

ابو بکر حازم .

ملحق (۵)

Fo 371 1775

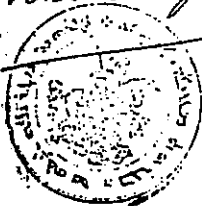
XC124510

Les soussignés, Chefs des différentes communautés chrétiennes du Vilayet de Beyrouth, certifient que
 M.M. Sélim Ali Salam, Docteur Ayoub Tobet, Ahmed Mouktar Beyhan, Albert Joseph Sursock, Scheik Ahmed Hassan Tabbaraet Khalil Zénie composent la députation qui a reçu mandat exprès de se rendre en Europe, formuler les doléances de toute la population du dit Vilayet sans distinction de religion et y poursuivre la réalisation de ses revendications.

En foi de quoi nous établissons le présent certificat.

Beyrouth le 26 Mai 1913

Firmin Chelli
Archevêque de Beyrouth



Gerassimos Karassas Jr.
Métropolitain
Grec-Catholique Patriarche des Syriens
Catholiques



ملحق ٦ : صورة تفويض لوفد بيروت سنة ١٩١٣

Lettre de M. Marabouti despatch
No. 7

10583

Received of August 5 1913. No. 658

588

LES RÉFORMES OFFICIELLES

Samedi soir le vilayet a reçu du ministre de l'Intérieur, en date du 30 juillet (v.s.) 1929 une dépêche dont voici le sens :

RÉFORMES

En vue d'assurer le progrès du pays et de rendre florissant tous les vilayets ottomans, en vue du bonheur et du bien être de tous les citoyens, le Gouvernement vient de décider les réformes suivantes menageant tous les éléments de la population ottomane et les intérêts de chacun d'eux.

El Amlak

L'administration des immeubles, et fondations pieuses est laissée, selon les intentions des donateurs, aux conseils des communautés, conseils dont les attributions seront réglées par une loi qui est actuellement en préparation.

Service Militaire

En temps de paix, les soldats devront faire leur service dans la région qu'ils habitent. Mais si le gouvernement le juge nécessaire de faire sortir des soldats de leurs zones respectives, il pourra le faire sans avoir à fournir d'explication.

Les soldats qu'il y aura lieu d'envoyer dans les pays limitains tels que le Yemen, l'Assyr, le Hedjaz, seront proportionnellement recrutés dans tout l'Empire.

La langue Arabe

Dans les vilayets où la majorité des habitants sont arabes il est d'usage de donner l'enseignement en langue arabe. Comme cela est utile et favorable aux intérêts de ces pays, les études se feront dorénavant en arabe dans les écoles idéaliy et les écoles primaires. Ainsi il sera possible de parvenir à effectuer, ensuite des études supérieures en arabe dans les pays où la majorité des habitants sont arabes.

La langue Turque

Pour vulgariser la langue officielle il faudra conserver les écoles idéaliy existant dans les chefs-lieux des vilayets et ces écoles devront continuer à donner l'enseignement en turc.

Les fonctionnaires

Les fonctionnaires des pays entièrement arabes devront connaître outre le turc, la langue arabe. Il faudra tenir compte de cette nécessité lors des nominations. La nomination des fonctionnaires subalternes dans les vilayets seront réglées par des lois spéciales. Sont, exceptés, du nombre de ces fonctionnaires les juges et les fonctionnaires de la justice qui seront nommés par iradé impérial. Selon l'avis du conseil d'Etat, leur choix dépend du gouvernement central. Cet avis fut communiqué aux ministères de la guerre, de l'instruction publique et de l'Ewkat.

Les inspecteurs étrangers

Pour hâter la réalisation des réformes, il a été décidé de nommer, pour chaque vilayet, des inspecteurs étrangers dans les branches administratives où l'exécution en sera à condition toutefois qu'une loi soit établie à ce sujet.

Les finances des vilayets

Comme par la nouvelle loi des Vilayets, il est prévu que le déficit du budget particulier doit être couvert surtout en ce qui concerne l'instruction et les travaux publics, il a été décidé d'ajouter des recettes à ces budgets.

Conseils Généraux

L'exécution des décisions des conseils généraux sera assurée toutes les fois que ces décisions seront de la compétence du conseil général.

FO 371 1775

X C 12-1510

ملحق (٧) وفيه الاصلاحات التي أعلنتها الدولة العثمانية في الولايات العربية بعد
اتفاقها مع مؤتمر باريس.

Syria would have an autonomy something like Egypt, with her own Ministers, Governors, judicial Courts, &c., and both countries will be under the protection of England, who will take charge of all their foreign affairs. This alliance is of the greatest importance to both countries. The natural products of the one would find a very large market in the other. Syria would become industrial, developing her minerals, oil, &c., while Egypt has always been agricultural.

Their people, too, complement each other, so that the energies of each have room for development; whilst they resemble each other in habits, religion, and social customs.

The railway between Syria and Egypt is impossible unless the countries are united. In the latter case it becomes inevitable. The more distinct Arab-speaking countries would naturally fall into line.

Besra and Bagdad, being so necessary to England, bordering the sea on the Persian Gulf, could then be united in some form or other with Syria and Egypt, and would have an adequate system of Government.

The advantage of having a railway joining Bagdad to the Mediterranean under one Power is obvious.

The centre of Islam is shifting towards Mecca.

The British protectorate over the bulk of the Arab world is quite compatible with the integrity of the holy cities.

Such a union, as above suggested, is in full agreement with Arab feeling. The Arab national sentiment broke the Young Turk policy of the last few years by passive resistance.

The grievance of partition by European Powers might fan it into activity. Then the Pan-Islam movement and a holy war (ridiculous when preached by Turks) would become a serious danger in the hands of the lawful descendants of the Prophet.

Judiciously nurtured, this national sentiment might in a few generations create an Arab-speaking nation, prepared to claim in the British Empire such a part as India is now beginning to take.

Only a strong guiding power can reconcile the clash of local interests that now obstruct this national idea.

The boundaries of the Arab-speaking world coincide with the natural barrier of the mountains north of Alexandretta and Aleppo.

The government of this country in the immediate future need not present serious difficulties.

The experience of the British officers who have made the Soudan what it is, would be at the disposal of the British protectors of Syria, and would ensure a strong yet sympathetic control.

The question especially requires immediate consideration, because, despairing of British action, certain Syrian circles are now negotiating with certain French deputies, and pro-England Christian societies are being pressed to join in. They must perforce accept the invitation unless some assurance can be given that their objects can be gained by other means. It is this assurance that they ask.

It is therefore necessary that—

1. Immediate action be taken to secure agreement, on broad lines, between England and France—compensating the latter and giving England freedom of action in Syria.
2. Syria be immediately informed that Turkish rule over them is at an end.

There has not been space to deal here with subsidiary questions, such as the status of the Jews, the religious question of Jerusalem, boundary definitions, and the prospects of future trade and finance.

(2.)

Summary of a Memorandum written by Sheikh Rushid Riza, one of the Leaders of the Pan-Arab Party.

WE welcomed the official British proclamations, and received them with pleasure and gratitude.

They raised in our eyes our esteem of British policy, and we were sure that a reconciliation will be effected between the interests of Great Britain on the one side, and those of Mohammedans in general and Arabs in particular on the other, and that a settlement could only be reasonable by following such a policy.

ملحق (٨) وفيه صورة كتاب لرشيد رضا.

The previous policy of Great Britain in her relations with the Ottoman Empire was not more sound or beneficial to the Moslems and Islam than this policy. It is not even comparable to it; nevertheless, it was at one time to the interests of Great Britain to follow such a policy.

Our confidence in the good intentions of the British Government was strengthened by what was published in the British press. It was to the effect that the object of Great Britain entering this conflict was to subdue militarism and guard the rights of the weak and oppressed nations.

We have no right to suspect Great Britain and say that she does not consider the Arabs a nation and not acknowledge any rights or privileges to Islam or the Mahomedans. Nor could we give any judgment as to her intentions which does not agree with the declarations of her statesmen. We are positive that, if Great Britain helps the Arabs to become masters of their own country, she will gain much more than she would by taking possession of the country, or part of it, herself, or allowing another Power to do so, either by conquest or in the name of "protection" or "occupation," or any other title known to modern colonisation.

She will hardly lose anything, but will evidently gain much, politically, financially, or morally.

For all these reasons we never lost hope in Great Britain, even when certain facts mentioned in the first part of this note developed, and were proved to be against the official communication made to us. And we lost hope we would not have again dared to approach its representatives in this country with this note and with others of the same nature, all written in terms the equivalent of which, in lucidity, truth, sincerity, and freedom could hardly be expected from a Mahomedan mind versed in Mahomedan theology and of wide experience of Mahomedan people, of their feelings, of their opinions, of their societies and political party, whether they be nomads or sedentary.

What we ask from Great Britain represents the feelings of Mahomedans in general and Arabs in particular. They all want from Great Britain to use her influence to retain the complete independence of Islam in its cradle in the Arabian peninsula and the bordering Arabian countries, bounded by Persia and the Persian Gulf in the East; the Red Sea, Egypt, and the Mediterranean in the West; Asia Minor on the north; and the Indian Ocean on the south. They ask her not to consent that any part of this country should be the share of any Power, or in the zone of influence or under the protection of such a Power. We ask this in case the Powers think of taking possession of a portion of the dominion of Turkey when peace is concluded, if the Allies be determined on her dismemberment should the final victory be theirs, as it is desired to be. Great Britain, in doing this, will establish a solid friendship to Islam and to the Arabs, which will be firm and never be shaken in future. She will also atone for the displeasure given to the Mahomedans of India, Egypt, and other countries in her having abandoned Turkey during the Balkan misadventures, and in being compelled to fight her and do away with her independence, though it is well known that in both cases the fault rested with Turkey for having allied herself with Germany.

In doing this Great Britain will gain the friendship and loyalty of more than 100,000,000 of the Mahomedan people, because they would then be confident that the precepts of the Koran and the sanctity of the Holy Places will not be interfered with.

The Arabs of Syria and Mesopotamia are ready to take charge of an independent Government on the principles of decentralisation or confederation. Such a Government will restore to the Princes of Arabia proper their independence, and will restore the civilisation of the Arabs to its cradle in Syria and Mesopotamia.

The political Arab societies have been prepared for this movement. The Central Committee has drawn up the fundamental laws and regulations. We only ask the acknowledgement of the Powers, and we believe that the most amiable and most preferable Power to help us is Great Britain, as such a help is compatible with her traditions and interest.

SAYED MOHAMMED HASIUD RIZA.

تا ملحق ۸

SECRET

139665

SEP 28 1915

An A.D.C. to Fakhri Pasha, who was sent away in disgrace from Aleppo to Gallipoli to be killed, but who deserted to the English near Anafarta has given a considerable amount of information about the work of the Pan-Arab party in Syria.

It is beginning, like all Oriental revolutions, in the Army, amongst the junior officers (there are practically no Arab generals - as Jifar Tayar said lately in Constantinople "We cannot run the risk of them" -). These officers have formed a committee amongst the Staffs, and have aims and a programme. The Mosul and Baghdad Divisions are the most affected, but the Syria, Hejaz, and Yemen Corps, are all being cultivated.

The ordinary members promise to come along and help, with their men, when the Committee give the signal. Civilians are admitted to membership, but have little voice in affairs. The first scheme was to assist the expected British landing at Alexandretta. Amin Lutfi Bey was charged by Fakhri and Djemal with the duty of fortifying the Bay, and he arranged his trenches and batteries where they could be of no possible use to anyone. The Mosul and Hama Divisions, who lay behind the Amman in reserve, had arranged, as soon as we were in position, to come over and help us. They hoped then to buy our favour with Cilicia and the Amman, and to go and replace the British in Syria, Mesopotamia and the Hejaz themselves. They hoped to find a leader when action has given him a chance to show himself. Their Sultan is to be temporal only, and to have no power in the Hejaz, which is to go under the Sherif as Khalifa. The Sherif is party to the scheme.

This plan was disturbed by the British failure to land. This was unfortunate, for the Staff arranged a meeting in Hama in February, and had all telegraph wires cut by the Kurdish cavalry

ملحق (٩) صورة تقرير انكليزي عن محاولة انقلابية للضباط السوريين.

1	2	3	4	5	6

Reference:

FO 371/2490 2662

cavalry suborned in readiness; the mutiny took place, and on account of it the Mosul Corps was sent away from Syria.

Informant was also successful in inflaming a mutiny in Mosul, which he was sent to quell by Fakhri Pasha. This was the real cause of the break-up of the 36th Division.

The junior Staff in Aleppo are working hard persuading all their men to desert. When any of them are found out they retire into Mesopotamia (to Hachim of the Aneyza especially). The Aneyza are strongly with them; Nuri Shallan and Hachim are prominent members; Ibn Saoud, Idriai and Yahia have promised help, though with the reservation that their own independent status will not be affected in any way under the new Government. They have support among the Billi, and are very strong in Damascus, Mosul and Baghdad.

The Committee-men appear to be members of the largest land-owning families in Syria and Mesopotamia; of course all their tenants in the army will follow them to any extent, and their example will have a profound effect in the country.

تا ملحق ٩

السيرة الى ربوع سرديا فزها هو مذكوره بدو هذه في توطيد عاظم المملكه
 العويه التي قامت به جالط لاجلنا فاعيد ارجعهم في بسى خلاصنا
 والامن به فقد نكم عظيم بانه زو من ما يتبعه له الوجهه وانه
 القوي ورحمنه جلاله ملكه العرب الرعاي ومكر الابد فيصن ابوبيا
 في امن سواها الملوكة لمفد نكم ولهمم اياهم عن حذرانه وقد
 حدثت ارات جلاله ملكه لساك العباد بانه لا يفر من له عزه
 ولا يقهره وزيما له تاله سذونا به جوده المظف به قله نكم
 فاعقد القويم الدم الوافي زيما له اياه والسلام عليكم ورحمة
 الله وبركاته

محمد بن
 البكري

ملحق ١٠ وفيه صورة رسالة لنسيب البكري وعليها توقيعه باسم فيضل أمير سورية.

SECRET AND CONFIDENTIAL

202912

Q. 1

THE STRATEGIC IMPORTANCE OF SYRIA TO THE
BRITISH EMPIRE.

531

Note.—Syria as at present constituted, in addition to the Eastern littoral of the Mediterranean, includes the vilayet of Aleppo with its sanjaks of Aleppo, Marash and Hama. Presumably, on the formation of an Armenian State it will lose the sanjaks of Marash and Urfa.

1. Syria is at present militarily important because—

- (a) It is an avenue of approach to the Suez Canal and Egypt.
- (b) It contains the Hijaz Railway.

2. From the first point of view, Syria is not of vital importance provided—

- (i) The Power holding it is confined to the strip of territory between the eastern shore of the Mediterranean and the desert, and is not linked up politically with Anatolia and Armenia.
- (ii) Its land forces are dependent upon their own resources.

As regards (b) above, its importance lies in the fact that the Hijaz Railway will always be a factor because the British Empire contains a large proportion of Mohammedan subjects.

3. Provided the political situation remains favourable in Arabia and in Egypt, and as long as Great Britain maintains command of the sea, and Syria has no political connection with a hinterland controlled by a great foreign power, the development of the country by her own population need not cause anxiety to the British General Staff.

4. If Syria is brought into political connection with Anatolia or Armenia under the control of a great foreign power or combination of powers the whole aspect changes. Syria would then become the potential conduit for converging currents from Constantinople and Caucasus, while any foreign power which is able to concentrate troops in the neighbourhood of Aleppo is in a position to contain and threaten British forces on the Suez Canal and in Mesopotamia with a single central force. The degree of danger would vary with the situation at Constantinople and in the Caucasus.

5. The political and military situation in Constantinople and the Caucasus, however, though important, is not finally determinative, for pre-war Turkish territory in Asia is capable of sufficient material and economic development to form a base of operations against British possessions in the East if too large a portion is allowed to fall into the hands of any great foreign power, and if the control of the upper reaches of the Tigris and Euphrates is compromised.

6. The conclusion from the above is that from the strategic point of view we should aim at a politically detached Syria under our influence which must be accompanied by the retention of Mohammedan goodwill.

The creation of a buffer Jewish State in Palestine, though this State will be weak in itself, is strategically desirable for Great Britain so long as it can be created without disturbing Mohammedan sentiment and is not controlled by a power which is potentially hostile to this country.

Finally it is difficult to see how any arrangement could be more objectionable from the military point of view than the Sykes-Picot Agreement of 1916, by which an enterprising and ambitious foreign power is placed on inferior lines with reference to our position in the Middle East.

GENERAL STAFF,
WAR OFFICE,
20 November, 1914.

(131410) 100 1214 1001 00100

ملحق ١١ وفيه تقرير عن وزارة الحرب البريطانية عن الأهمية الاستراتيجية لسورية.

المصادر والمراجع

وثائق غير منشورة

باللغة العربية

مركز الوثائق التاريخية بدمشق — القسم الخاص

أوراق

- فخري البارودي .
- نسيب البكري .
- حسن الحكيم .
- محب الدين الخطيب .
- نزبه المؤيد العظم .
- عبد الرحمن الكواكبي .

جمعيات

- الجمعية الثورية .
- جمعية العربية الفتاة .
- جمعية العهد .
- جمعية النهضة العربية .
- الحركة العربية .

حزب اللامركزية الادارية العثماني .
وسالنامة الدولة العثمانية رقم ٦٥٣ ، ٧ نيسان- ١٩١١ (منشورة) .

باللغات الأوروبية

الوثائق الفرنسية، وزارة الخارجية الفرنسية، الملف العام، السياسة الداخلية

En langues européennes.

France

A. Archives du Ministère des Affaires Etrangères Dossier général, politique intérieure,

1- Turquie (Syrie-Liban)

Volumes

VII.....(110).....	1908
VIII.....(111).....	1908
IX.....(112).....	1909
X.....(113).....	1910
XI.....(114)....	1910-1911
XII.....(115).....	1911
XIII.....(116).....	1912
XIV.....(117).....	1912
XV.....(118).....	1912
XVI.....(119).....	1913
XVIII...(120).....	1913
XVIII...(121).....	1913
XIX.....(122).....	1913
XX.....(123).....	1913
XXI.....(124).....	1913

2- Guerre 1914-1918, Turquie (Syrie-Palestine)

volumes:

I.....(867).....	1914
II.....(868)....	1914-1915

III.....(869).....	1915
IV.....(870).....	1915
V.....(871).....	1915
VI.....(872).....	1916
VII.....(873).....	1916
VIII.....(874).....	1916-1917
IX.....(875).....	1917
X.....(876).....	1917
XI.....(877).....	1917
XII.....(878).....	1917
XIII.....(879).....	1917
XIV.....(880).....	1917
XV.....(881).....	1917
XVI.....(882).....	1918
XVII.....(883).....	1918
XVIII.....(884).....	1918
XIX.....(885).....	1918
XX.....(886).....	1918

3- Levant (Carton 313, Dossier 9) 1917

Volumes:

Levant.....1.....	1918
Levant.....7.....	1919
Levant.....10.....	1919
Levant.....20.....	1919

B. Documents du Ministère de la Guerre

- Carton 7N-1640 (service d'informations de la Marine dans le Levant).
- La guerre 1872-1910, Turquie Carton 16, 7N-1639 (2° Bureau, renseignements divers 1914-1918).
- Carton 10, 7N-1639, Turquie 1915.
- Carton 1640, Turquie 1916.
- Carton 7N-1652 Turquie 1917.

- Carton 7N-1658 Turquie 1918.
- Carton 7N-1685 Turquie 1918.

الوثائق البريطانية وزارة الخارجية F. O.

Great Britain, Foreign office (F.O.), Public Record Office, Turkey.

Volumes:

F.O.371/	538..... 1908	F. O. 371/	1585..... 1912
	542..... 1908		1773..... 1913
	548..... 1908		1785..... 1913
	561..... 1908		1790..... 1913
	651..... 1908		1813..... 1913
	781..... 1909		1844..... 1913
	1002..... 1910		1845..... 1913
	1007..... 1910		1848..... 1913
	1009..... 1910		2133..... 1914
	1010..... 1910		2135..... 1914
	1017..... 1910		2139..... 1914
	1236..... 1911		2140..... 1914
	1246..... 1911		2143..... 1914
	1248..... 1911		
	1249..... 1908-1910		2144..... 1914
	1262..... 1911		2146..... 1914
	1264..... 1911		2147..... 1914
	1292..... 1911		2155..... 1914
	1478..... 1911		2174..... 1914
	1487..... 1911		2184..... 1914
	1494..... 1912		2442..... 1915
	1521..... 1912		2451..... 1915
	1522..... 1912		2480..... 1914-1915
	1575..... 1912		2481..... 1914

F.O.371/ 2483.....1915
 2485.....1915
 2490.....1915
 2491.....1915
 2492.....1915
 2767.....1915
 2768.....1916
 2773.....1916
 2776.....1916
 2777.....1916
 2778.....1916
 2779.....1916
 2781.....1916
 2782.....1916

F.O.371/ 2783.....1916
 3046.....1917
 3050.....1917
 3054.....1917
 3054.....1917
 3060.....1917
 3061.....1917
 3380.....1918
 3381.....1918
 3383.....1918
 3384.....1918
 3386.....1917
 3393.....1917
 3395.....1918

المصادر

مذكرات

- أرسلان (شكيب) سيرة ذاتية، بيروت، دار الطليعة ١٩٦٩.
- أطرش (سلطان) المذكرات (منشورة في مجلة بيروت المس - ١٩٧٥).
- بارودي (فخري) المذكرات، ج ١ دمشق، دار الحياة ١٩٥١، ج ٢ دمشق، مطبعة عجي ١٩٥٢.
- بديوي (صبري) مخطوط: صفحات خفية من تاريخ الأمة العربية خلال عشر سنوات (وفيها مذكرات خدمته في جيش فيصل منذ ١٩١٧).
- الجزائري (سعيد) جهاد نصف قرن، لإعداد أنور الرفاعي، دمشق، المطبعة العمومية ١٩٥٢.
- جمال باشا (أحمد)، القائد العام للجيش الرابع: إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعالية، مطبعة طنين، ١٣٣٤ هـ.
- جمال باشا (أحمد)، مذكرات، ترجمة علي أحمد شكري، مصر - ١٩٢٣.
- جمال باشا (محمد الصغير)، كيف جلت القوات العثمانية عن بلاد العرب، ترجمة فؤاد الميداني، بيروت، ١٩٣٢.
- الحسين (عبد الله بن) مذكراتي، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٤٥.
- الحصري (ساطع) يوم ميسلون، بيروت، مكتبة الكشف ١٩٤٧.
- الحكيم (حسن) مذكراتي، بيروت، دار الكتاب الجديد، ج ١، ١٩٦٥.
- الحكيم (يوسف) بيروت ولبنان في عهد العثمانيين، بيروت، المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٦.
- الحكيم (يوسف) سورية والدولة العثمانية، بيروت، المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٦.

- الخوري (بشارة) حقائق لبنانية، ج ١، حريصا، ١٩٦٠.
- داغر (أسعد) مذكراتي على هامش القضية العربية، القاهرة، ١٩٥٩.
- دروزة (محمد عزة) حول الحركة العربية الحديثة، تاريخ ومذكرات وتعليقات، صيدا، ١٩٥٠.
- ريس (منير) الكتاب الذهبي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٩.
- الزهراوي (عبد الحميد) الأثر الفكري، تحقيق جودت الركابي وجميل سلطان، دمشق ١٩٦٣.
- السعيد (نوري)، المذكرات، محاضر عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسورية ١٩١٦—١٩١٨، بغداد ١٩٤٧.
- الصلح (عادل) سطور من الرسالة، تاريخ حركة استقلال قامت في المشرق العربي سنة ١٨٧٧، بيروت ١٩٦٦.
- الطنطاوي (علي) دمشق، دار الفكر (دمشق) ١٩٥٩.
- عبد الهادي (عوني) أوراق خاصة، إعداد خيرية قاسمية، بيروت، مركز الأبحاث الفلسطينية ١٩٧٤.
- عزيز بك، الاستخبارات والجاسوسية في الدولة العثمانية، تعريب فؤاد الميداني، بيروت.
- العظم (خالد)، مذكرات، ج ١، ط ٢، بيروت، الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٣.
- العمري (صبحي)، لورنس كما عرفته، بيروت، دار النهار، ١٩٦٩.
- الغصين (فايز) مذكراتي عن الثورة العربية، دمشق، مطبعة الترقى، ١٩٣٩.
- فؤاد باشا (الجنرال علي) كيف غزونا مصر، ترجمة نجيب أرمنازي، بيروت، ١٩٦٢.
- القاسمي (ظافر) مكتب عنبر، صور وذكريات، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٤.
- القاوقجي (فوزي) مذكرات، ج ١، إعداد خيرية قاسمية، بيروت، دار القدس، ١٩٧٥.

- قدري (أحمد) مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، دمشق، مطبعة ابن زيدون، ١٩٥٦.
- كرد علي (محمد) خطط الشام، ج ٣، دمشق، مطبعة الترقى، ١٩٢٥، و ج ٤، ١٩٢٦، و ج ٥، ١٩٢٧.
- كرد علي (محمد) المذكرات، مطبعة الترقى، ج ١، ٢ (١٩٤٨)، ج ٣ (١٩٤٩)، ج ٤ (١٩٥١).
- كمال باشا (مصطفى)، مذكرات، تعريب عبد العزيز خانجي، القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٢٦.
- لورنس (ت.أ) ثورة في الصحراء، ترجمة رشيد كرم، بيروت ١٩٥٠.
- المؤتمر العربي الأول في باريس، إعداد حزب اللامركزية الادارية العثماني، القاهرة، مطبعة البوسفور ١٩١٣.
- مورغنتو (هنري) سفير أمريكا في الآستانة، مذكرات، تعريب فؤاد صروف، القاهرة، مطبعة المقطم ١٩٢٣.
- الهاشمي (طه) المذكرات، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٧.
- وايزمن، مذكرات، تعريب فتح الله شعشع، دمشق، دار اليقظة، ١٩٢٢.
- اليسوعي (الأب فرديناند توتل)، وثائق تاريخية عن حلب، أخبار اللاتين والروم وما إليهم ١٨٥٥—١٩٣٦، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٤.

المراجع العربية

- أسود (ابراهيم)، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، ج ١، ج ٣، ج ٤، بيروت ١٩٣٠.
- ألدنجتون (ريتشارد) لورنس في البلاد العربية، ترجمة محمود عزة موسى، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦.
- أنطاكي (عبد المسيح)، حرب الانتخابات في الدولة العثمانية، مصر، بلا تا.
- أنطونيوس (جورج)، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٦.
- برو (توفيق علي) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، القاهرة، ١٩٦٠.
- بيشون (جان)، بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى، ترجمة عزة دروزة، بيروت، ١٩٦٤.
- بيهم (محمد جميل) الانتدابان في العراق وسورية، انكلترا وفرنسا، صيدا، مطبعة العرفان، ١٩٣١.
- بيهم (محمد جميل) العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، بيروت، المطبعة الوطنية، ١٩٦٨.
- بيهم (محمد جميل) عروبة لبنان، بيروت، ١٩٦٩.
- بيهم (محمد جميل) العهد المخضرم، بيروت، ١٩٦٢.
- الجرکسي (محمود) الدليل المصور للبلاد العربية، ج ١، دمشق، ١٩٣٠.
- حتي (فيليب) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، ج ٢، بيروت، دار الثقافة ١٩٦٨.
- الحصري (ساطع)، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت ١٩٦٥.
- حنا (عبد الله) الحركة العمالية في سورية ولبنان، ١٩٠٠ — ١٩٤٥، دمشق، دار دمشق، ١٩٧٣.

- حوراني (ألبرت) الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، بيروت، دار النهار، ١٩٦٨.
- خضور (أديب)، الصحافة السورية، دمشق، دار البعث، ١٩٧٣.
- الخطيب (محب الدين)، صلاح الدين القاسمي، القاهرة، ١٩٥٩.
- دروزة (عزة) نشأة الحركة العربية الحديثة، صيدا، ١٩٧١.
- الدوري (عبد العزيز) الجذور التاريخية للقومية العربية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٠.
- رافق (عبد الكريم)، العرب والعثمانيون، ١٥١٦—١٩١٦، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٧٤.
- الرفاعي (أنور) ومصطفى (شاكر)، العالم الحديث، دمشق، مكتبة هاشمي لإخوان، بعد ١٩٥٠.
- الرفاعي (شمس الدين)، تاريخ الصحافة السورية، مصر، دار المعارف، ١٩٦٩.
- رفعت (محمد)، تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية، مصر، دار المعارف، ١٩٥٩.
- الرجاوي (أمين)، فيصل الأول، بيروت، مطبعة صادر، ١٩٣٤.
- رامزور، تركيا الفتاة....
- زريق (فردريك)، نهضة العرب، دمشق، مطبعة ابن زيدون، ١٩٤٩.
- زيد (ناصر) (أبي) تاريخ العصر الدموي، دمشق، مطبعة المفيد، ١٩١٩.
- زيدان (جرجي) بناء النهضة العربية، مصر، دار الهلال، بلا تا.
- زين (سميح)، ستة أيار، قصة الشهداء،...
- زين (مصطفى)، أتاتورك، أمة في رجل، بيروت، دار النهار، ١٩٦٧.
- زين (نور الدين زين)، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان، بيروت، دار النهار، ١٩٧١.
- زين (نور الدين زين)، نشوء القومية العربية، بيروت، دار النهار، ١٩٦٨.

- سابا (عيسى ميخائيل) الشيخ ابراهيم اليازجي ١٨٤٧—١٩٠٦، مضر دار المعارف، ١٩٥٥.
- ستودوارد (لوثروب) حاضر العالم الاسلامي، ترجمة عجاج نويهض، حاشية شكيب أرسلان، القاهرة، المطبعة السلفية، ج ١، ١٣٤٣.
- ستورز (رونالد) مشرقيات، لندن، ١٩٤٥.
- سعيد (أمين)، أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، بيروت، دار الكاتب العربي، بلا تا.
- سعيد (أمين) الثورة العربية الكبرى، النضال بين العرب والفرنسيين والانكليز، القاهرة، بلا تا.
- سلوم (هلال رزق)، الشهيد رفيق رزق سلوم، حمص، مطبعة جريدة الفجر، ١٩٦١.
- السودا (يوسف)، استقلال لبنان والاتحاد اللبناني في الاسكندرية، الاسكندرية ١٩٢١.
- الشناوي (عبد العزيز) ويحي (جلال)، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر، مصر، ١٩٦٨.
- شيخو (لويس)، السر المصون في شريعة الفرمسون، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٠.
- الشهباني (مصطفى) القومية العربية، تاريخها وراميا ورامها، القاهرة، جامعة الدول العربية ١٩٦١.
- صبيح (محمد)، فيصل الأول، القاهرة، ١٩٤٦.
- الطباخ (محمد راغب)، أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء، ج ٧، حلب، بلا تا.
- طربين (أحمد)، فلسطين، ١٨٩٧—١٩٤٨، ج ١، دمشق ١٩٦٨.
- طربين (أحمد) الوحدة العربية، القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٦٣.

- طلس (محمد أسعد)، تاريخ الأمة العربية وعصر الانبعاث، بيروت، الأندلس، ١٩٦٣.
- العارف (عارف باشا) تاريخ القدس، مصر: دار المعارف، ١٩٥١.
- عبده (الامام محمد) لائحة الاصلاح في القطر السوري قدمها سنة ١٣٠٤ هـ إلى والي بيروت، بيروت، ٣٣٤ هـ.
- عطار (عدنان)، الحويطات، بيروت بعد ١٩٦١.
- عطية (ادوارد)، العرب، ترجمة محمد قنديل البقلي، القاهرة، الكتاب العربي، ١٩٦٦.
- العلاف (أحمد حلمي)، دمشق في مطلع القرن العشرين، دمشق، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٧٦.
- عوض (عبد العزيز) الادارة العثمانية في ولاية سورية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩.
- عيسمي (شليبي) وآخرون، محافظة جبل العرب، دمشق، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٦٣.
- غرايه (عبد الكريم)، الثورة العربية الكبرى، دراسات في الثورة العربية الكبرى، عمان، ١٩٦٨.
- غرايه (عبد الكريم) سورية في القرن التاسع عشر، القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٦٢.
- غزي (كامل) نهر الذهب في تاريخ حلب، ج ٣، حلب ١٩٢٦.
- الفرجاني (محمد)، فارس الخوري، أيام لا تنسى، بيروت، دار الغد، ١٩٦٥.
- القاسمي (ظافر) جمال الدين القاسمي وعصره، دمشق، المطبعة الهاشمية ١٩٦٦.
- قاسمية (خيرية) الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨—١٩٢٠، دار المعارف مصر ١٩٧١.
- قاسمية (خيرية) النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨—١٩١٨—بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٧٣.

— قرقوط (ذوقان) تطور الحركة الوطنية في سورية ١٩٢٠—١٩٣٩، بيروت، دار
الطليلة، ١٩٧٥.

— كرد علي (محمد)، الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية، بيروت،
المطبعة العلمية، ١٩١٦.

— كواكي (عبد الرحمن)، أم القرى، القاهرة، المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٣١.
— كيالي (سامي) ولي الدين يكن، مصر، دار المعارف، ١٩٦٠.
— كيرك (جورج)، موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر اسكندري، القاهرة،
١٩٥٧.

— لودر (ج. دي. ف)، القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق، ترجمة نزيه
المؤيد العظم، دمشق، المطبعة الحديثة ١٩٢٥.

— ماضي (منيب) وموسى (سليمان) تاريخ الأردن في القرن العشرين، عمان.
— المحافظة (علي) الاتجاهات الفكرية عند العرب ١٧٩٨—١٩١٤، بيروت،
الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٧٨.

— منصور (أنيس) الهاشميون والثورة العربية، بيروت، بلا تا.
— موريس (جيمس)، الملوك الهاشميون، بيروت، ١٩٥٩.
— موسى (سليمان)، الحركة العربية ١٩٠٨—١٩٢٤، بيروت، دار النهار،
١٩٧٧.

— موسى (سليمان)، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى، عمان، دار النشر
والتوزيع، ١٩٥٧.

— موسى (منير)، الفكر العربي في العصر الحديث (سورية في القرن التاسع عشر
حتى عام ١٩١٨) بيروت، دار الحقيقة، ١٩٧٣.
— ميور (رمزي) النتائج السياسية للحرب العظمى، ترجمة محمد بدران، القاهرة،
لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦.

— النجار (حسين فوزي)، الشرق العربي بين حربين، القاهرة بلا تا.

- النجار (عبد الله) بنو معروف في جبل حوران، دمشق، المطبعة الحديثة، ١٩٥٤.
- هندي (إحسان)، كفاح الشعب العربي السوري، ١٩٠٨—١٩٤٨، دمشق، ١٩٦٢.
- ولينز (سيتون) بريطانيا والمندول العربية، ١٩٢٠—١٩٤٨، ترجمة عبد الرحيم مصطفى، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٢.
- يازجي (كمال) الشيخ ابراهيم الحوراني في فجر النهضة الحديثة ١٨٤٤—١٩١٦، القاهرة، معهد الدراسات العليا، ١٩٦٠.
- يونس (عبد اللطيف) شكري القوتلي، تاريخ أمة في حياة رجل، مصر، ١٩٥٩.

مصادر ومراجع باللغات الأوروبية

En langues européennes:

- Atala La Syrie, Paris 1916.
- Brémond (Colonel), le Hedjaz dans la guerre mondiale, Paris 1928.
- Churchill (Colonel) Mont Lebanon, a ten years residence from 1842-1852, London 1933.
- Emir Ali Abdul Aziz, étude sur L'histoire des relations franco-syriennes, Saint-Gilles, «imp graphique», 1936.
- Gaulis B.G. La question arabe, Paris, «Berget-Levrault, 1930.
- Gooch, G.P. and Temperley, British documents on the origins of war 1914-1918. London, «edited: Gooch and Temperley, H.M. stationery office» 1938.
- Gordon, Helen Cameron (Lady Russel), Syria as it is, London «Methmem» 1939.
- Gontaut-Biron Comte R. Comment La France s'est installée en Syrie, Paris 1922.
- Grassmuck Georges, reformed administration in Lebanon, Beyrouth, 1955.
- Hourani, A.H. Syria and Lebanon, London «Oxford University» 1946.
- Hourani, A.H. Arabic thought in the liberal age 1782-1939 Oxford, 1962.
- Jeffries J, Palestine the reality, London, «Longman and Green» 1939.
- Khairallah K.T. La Syrie, Paris «Ernest Larous» 1912.
- Khairalla K.T. Le problème du Levant, Paris, 1919.
- Khaddouri Majid, Political trends in the arabe world, Baltimore «Hopkins» 1970.
- Kliemen Aaron S, Foundation of the British policy in the arabe

- world, The Cairo Conference 1921, Baltimore, «Hopkins» 1970.
- Lammense S.G. La Syrie Précis historique, Beyrouth «imp catholique», 1919.
 - Majzoub M. Le Liban et l'orient Arabe, Aix-en-Provence, 1965.
 - Maestracie Noël (Commandant) La Syrie Contemporaine, Paris «Charles Lavauzelle» 2° Ed, 1950.
 - Mc Gilvary Margaret, The dawn of a new era in Syria, London «Flaming» 1920.
 - Monroe Elizabeth, Britain's moment in the Middle East 1914-1956 Baltimore «Hopkins» 1963.
 - Mouterde René S.J. Précis histoire de la Syrie et du Liban, Beyrouth. «imp catholique» 1932.
 - Moutran Nadra, La Syrie de demain, Paris «Libraire Plon» 1916.
 - Nassi S., Histoire de Syrie, Sein, «Librairie internationale d'édition sociologique» 1923.
 - Papers retating to the foreign relation of the United States, the Lansing papers 1914-1920, Washington, 1939.
 - Poincaré H. Au service de la France, Paris 1934.
 - Polk Williams. R. «Beginning of modernization in the Middle East Chicago» 1968.
 - Samné Georges: La Syrie, Paris «Brossard» 1920.
 - Sharabi Hisham: Arabe intellectuals and the west, the formation years 1875-1914, Baltimore «Hopkins» 1970.
 - Stors Ronald, Orientations, London, 1945.
 - Thabet Jacques: La Syrie, Paris «Alphonse Lerverse» 1920.
 - Thoumim. R, Histoire de la Syrie des origines à 1914, Damas 1927.
 - Tibawi A.L, Amodern history of Syria, London «Mac milan» 1969.
 - Toynbee Arnold J. The western question in Greece and

Turkey, London, 1922.

- **Waston Seton, the rise of the nationality in the Balkan, London, 1917.**
- **Wingate Ronald: Wingate of the Sudan, London 1955.**
- **Zein N. Zein: The struggle for arabe independance, Beyrouth, «caravan» 1960.**
- **Ziadeh Nicola: Syria and Lebanon, London «Ernest Bem LTO» 1956.**

مجلات و جرائد عربية

اسم المجلة والجريدة	العام	مكان الصدور
جريدة أبو الهول..... ١٩١٣	١٩١٣	سان باولو — البرازيل
جريدة الإحياء..... ١٩١٠ — ١٩١٣	١٩١٣ — ١٩١٠	حماء — سورية
مجلة الأسبوع العربي..... ١٩٦٩ و ١٩٧٧	١٩٦٩ و ١٩٧٧	بيروت
مجلة الأسرار..... ١٩١٤ — ١٩١٨	١٩١٤ — ١٩١٨	بيروت
جريدة الأهرام..... ١٩١٣	١٩١٣	القاهرة
جريدة البلاغ..... ١٣٣١ هـ	١٣٣١ هـ	بيروت
مجلة بيروت المساء..... ١٩٧٥	١٩٧٥	بيروت
مجلة تاريخ الحرب العظمى بلاتا.....		بيروت
مجلة الحديث..... ١٩٤٨	١٩٤٨	دمشق
جريدة الحضارة..... ١٩١١ — ١٩١٢ و ١٩٥٥	١٩١١ — ١٩١٢ و ١٩٥٥	دمشق
جريدة حط بالخرج..... ١٩١٢	١٩١٢	دمشق
مجلة الحقائق..... ١٩١٠	١٩١٠	دمشق
مجلة دار المعلمين..... ١٩٢٠	١٩٢٠	القدس
جريدة الرأي العام..... ١٣٣٢ هـ	١٣٣٢ هـ	دمشق
مجلة الزهراء..... ١٣٣٤ هـ	١٣٣٤ هـ	القاهرة
جريدة الشرق..... ١٩١٦	١٩١٦	دمشق
مجلة الشعلة..... ١٩٢٠	١٩٢٠	حلب
مجلة العربي..... ١٩٧١ — ١٩٧٢	١٩٧١ — ١٩٧٢	الكويت
مجلة العرفان..... ١٩١١ مجلد ٣، ٧، ١٠، ٢١، صيدا	١٩١١ مجلد ٣، ٧، ١٠، ٢١، صيدا	صيدا
جريدة العلم..... ١٩٥٦ و ١٩٥٩	١٩٥٦ و ١٩٥٩	دمشق
مجلة العمران.....		دمشق
مجلة العمران..... ١٩١٢	١٩١٢	القاهرة

مجلة الفتح.....	١٩٤٨.....	القاهرة
مجلة القبلة.....	١٩١٧—١٩١٨.....	مكة
مجلة لغة العرب.....	١٩١٢—١٩١٤.....	بغداد
مجلة المباحث.....	١٩٠٩.....	بيروت
جريدة المدينة.....	١٩١٢.....	بيروت
مجلة المستقبل.....	١٩٨١.....	باريس
مجلة المشرق.....	١٩٠٩—١٩٢٣.....	بيروت
جريدة المفيد.....	١٩١٣.....	بيروت
جريدة المستقبل.....	١٩٠٨—١٩١١.....	دمشق
مجلة المقتطف.....	١٩٠٩—١٩١٦.....	القاهرة
مجلة المقطم.....	١٩٠٨—١٩٢٣.....	القاهرة
مجلة المنار.....	١٩٠٩—١٩٢١.....	القاهرة
جريدة المؤيد.....	١٩١١.....	القاهرة
جريدة المهاجر.....	١٣٣٠ هـ.....	دمشق
مجلة النبراس.....	١٩١٠ (١م — ١٠).....	بيروت
مجلة النعمة.....	١٩٦٥.....	دمشق
مجلة الهدى.....	١٩١٧.....	نيويورك
مجلة الهلال.....	١٩٠٨—١٩١٦.....	القاهرة

جرائد ومجلات باللغات الأوروبية

En langue européenne

J..Alexandrette	1918.....	Alexandrette
R. Asie française.....	1912.....	Paris
J..Des Debats	1913.....	Paris
J..Echo de Paris	1913.....	Paris
R. The Middle East.....		
Journal.....	1944.....	Washington
R. La Nation arabe.....	1931.....	Genève
J..Near East	1916.....	Londres
R. Palestine and transjordan	1936.....	Jérusalem
R. Questions diplomatiques et colo niales	1908.....	Paris
R. Revue du Monde musulman.....	1911.....	Paris
J..Reveil.....	1912.....	Beyrouth
J..Le Temps	1912.....	Paris
J..The Times	1913, 1916.....	Londres

مقابلات شخصية

- سنة ١٩٧٣ مع صبحي العمري ضابط في جيش فيصل منذ ١٩١٦ .
- سنة ١٩٧٣ مع عزو دروزة، عضو الفتاة وأمين سر المؤتمر السوري في عهد فيصل ١٩١٨ — ١٩٢٠ .
- سنة ١٩٧٣ مع يوسف الحكيم أمين سر مجلس إدارة جبل لبنان سنة ١٩١٤ ووزير في حكومة فيصل سنة ١٩١٨ .
- سنة ١٩٧٨ مع صبري البديوي ضابط في جيش فيصل منذ ١٩١٧ .

الفهرس العام

المقدمة..... ٧

الفصل الأول

- ١٥ ٥ القومية العربية — السورية — اللبنانية
- ١٨ الاتجاه العربي — الاسلامي ومنظماته
- ٢٠ الحلقات والمدارس
- ٢٣ جمعية النهضة العربية
- ٢٥ جمعية الإخاء العربي العثماني
- ٢٧ المنتدى الأدبي
- ٢٩ القحطانية
- ٣٠ العربية الفتاة
- ٣٤ العهد

٣٨.....	الاتجاه القومي العربي — السوري واللبنانية — المسيحي
٤٢.....	حزب اللامركزية الإدارية العثماني
٤٥.....	الاتجاه السوري
٤٩.....	الاتجاه اللبناني

الفصل الثاني

○ العلاقات العربية التركية بين الاتحاديين وأنصار عبد الحميد (الارتجاعيين)

٥٣.....	من ١٩٠٨ — حتى ١٩٠٩
٥٥.....	عبد الحميد يقرب العرب
٦٦.....	الاتحاد والترقي والماسونية
٧٢.....	الحرية الجديدة
٧٧.....	نشاط أنصار عبد الحميد (الارتجاعيين)

الفصل الثالث

○ العلاقات العربية التركية ١٩٠٩ — ١٩١١

٨٥.....	الطورانية
٨٧.....	المسيحيون يعارضون السياسة التركية
٩٣.....	بداية الصراع القومي
٩٦.....	فقدان الأمن
١٠٨.....	ثورة الدروز
١١١.....	ثورة الكرك
١١٦.....	الحرب في الصحف
١١٩.....	الصراع في مجلس المبعوثين
١٢٣.....	مطالب العرب بمساواتهم بالوظائف والإصلاح
١٢٦.....	المعتدلون
١٣٢.....	

١٣٥.....	محاولة الاتحاديين الإصلاح.
١٣٧.....	توتر وأحداث
١٤٥.....	سقوط الاتحاديين وآمال العرب عام ١٩١٢

الفصل الرابع

١٥٣.....	○ حركة العرب الإصلاحية
١٥٧.....	الحركة الإصلاحية في بيروت
١٦٨.....	المؤتمر العربي في باريس
١٨١.....	صلح مخادع
١٨٩.....	الشقاق بين العرب
١٩٩.....	عودة العلاقات السيئة

الفصل الخامس

○ التنافس الافرنسي-الانكليزي على سورية حتى بداية الحرب

٢٠٧.....	العالمية الأولى ١٩١٤
٢٢١.....	فرنسا تريح المعركة السياسية
٢٥١.....	اهتمام بالشخصيات والجمعيات السورية
٢٦٠.....	خطوط حديدية اقتصادية وسياسية

الفصل السادس

○ فسم العلاقة العربية-التركية على مشانق جمال باشا

٢٦٩.....	١٩١٥-١٩١٦
٢٧١.....	موقف العرب الطيب
٢٧٤.....	الاستعداد للحرب وإلغاء الامتيازات الأجنبية
٢٨٠.....	جمال باشا حاكم سورية

٢٨٧.....	الحملة على قناة السويس.....
٢٩٠.....	القضاء على نظام لبنان.....

الفصل السابع

٣٢٩.....	○ سورية بين تأمر جمال باشا وبين الموت بالحرب والوباء والمجاعة.....
٣٣١.....	تأمر جمال باشا.....
٣٤٠.....	ارهاب ومصادرات.....
٣٤٩.....	المجاعة والوباء.....

الفصل الثامن

٣٦٩.....	○ الاتفاقات الانكليزية — الفرنسية والانكليزية — العربية الخاصة بسورية ..
٣٧١.....	اتصال بريطانيا بالشخصيات العربية.....
٣٨٣.....	مراسلات الحسين — مكماهون.....
٣٨٨.....	فرنسا متمسكة بإدعاءاتها في سورية.....
٣٩٦.....	التنافس الانكليزي الفرنسي مستمر.....
٤٠٣.....	اتفاقية سايكس — بيكو.....

الفصل التاسع

٤١٩.....	○ سورية بين الحسين والحلفاء.....
٤٢١.....	الحركة العربية والحسين.....
٤٢٥.....	فيصل بن الحسين في دمشق.....
٤٣٠.....	دور الانكليز.....
٤٣٣.....	إعلان العداء بين الاتحاديين والحسين.....
٤٤١.....	الثورة العربية.....
٤٤٣.....	فيصل يقود الجيش العربي.....

٤٤٤.....	الانكليز وجيش فيصل
٤٤٩.....	محاولة الحلفاء إقناع الحسين
٤٦٣.....	فضائح الاتفاقات
٤٦٥.....	تمرد الجيش العربي
٤٦٧.....	من العربية إلى السورية

الفصل العاشر

٤٧٩.....	○ نهاية الحكم التركي
٤٨١.....	القوات العسكرية في فلسطين
٤٨٧.....	تنظيم الادارة والاتصال بالعشائر العربية
٤٩٠.....	حساسية
٤٩٢.....	سقوط القدس
٤٩٩.....	وعد بلفور
٥٠٤.....	أكاذيب الانكليز ووعد جديدة
٥١٥.....	أيام جمال باشا الأخيرة في سورية
٥٢٤.....	محاولات للمصلح بين العرب والترك
٥٢٧.....	احتلال دمشق
٥٣٣.....	الخاتمة
٥٤٣.....	فهرس الخرائط
٥٥١.....	فهرس الملاحق
٥٦٩.....	المصادر والمراجع

تاريخ سورية ١٩٠٨ — ١٩١٨ : نهاية الحكم التركي / علي سلطان ٠ — ط. ١ — دمشق :
دار طلاس، ١٩٨٧. — ٥٩٨ ص.؛ سم.

بآخره خرائط وملاحق وثائقية .

١ — ٩٥٦ س ل ط ت ٢ — العنوان ٣ — سلطان

مكتبة الأسد

رقم الايداع — ١٩٨٧ / ٨ / ٧٥٠

رقم الاصدار ٢٩٣

مطبعة العجلوني

